

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

صفحة		صفحة	
١٧	ابن جهور - بنو عباد	٨	تصدير
٢٧	المناهج الأدبية	١٠	مقدمة الديوان
٣٠	نشأة ابن زيدون	١٠	تحريف للديوان
٣٣	بختري المغرب	١٠	أمثلة من التحريف
٣٧	شاعرية ابن زيدون	١٢	أثر التحريف
٤٢	لماذا سجن ابن زيدون	١٣	لماذا بدأت بهذا الديوان
٤٤	حساد ابن زيدون	١٥	تنفيذ الفكرة
٥٠	حب ولادة	١٦	رسائل ابن زيدون وأخباره
٥٥	أدب ابن زيدون	١٧	إلماء
		١٧	ملوك الطوائف

فهرس ديوان ابن زيدون

صفحة		صفحة	
٣٨	جواب كتاب	١	في السجن
٣٩	في الغزل	٤	ذكرى أيام الوصال
٤٠	في مدح ابن جهور	٩	في مدح ابن جهور
٤٩	بعد خمسمائة يوم في السجن	١٢	ذكرى ولادة
٥٤	من قصيدة صنعها ببطليوس	١٣	بعد الفرار من السجن
٥٧	في الغزل	١٩	في مدينة بطليوس
٥٨	بين صديقين	٢٢	يوم يوصل ساعة
٥٩	دعوة	٢٣	في عيد الأضحى
٦٠	قال في الوزير الشيخ أبي الحزم	٣٤	في طرطوشة
٦٠	وصال	٣٥	إلى الوزير أبي عبد الله

صفحة		صفحة	
١١٩	حبيب	٦١	وقال معانبا من قصيدة
١٢٠	في مدح ابن جهور	٦١	موقف وداع
١٢٢	الى المظفر	٦٢	وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور
١٣٠	في نكسه بنى ذكوان	٦٦	مداعبة
١٣٦	تهنئة بقران	٦٨	جرب الناس وامتحن
١٣٩	عهد	٦٩	في مدح ابن جهور
١٤٠	مدح ورثاء	٧٤	عتاب
١٤٨	الى ابن ذكوان	٧٥	رثاء فتاة
١٤٩	الى المعتمد	٧٦	في الغزل
١٥٠	مدح ورثاء وتهنئة	٧٧	تهنئة
١٥٢	هدية عنب	٧٨	تهنئة بفصد
١٥٣	رثاء ابن ذكوان	٧٩	في مدح ابن جهور
١٥٨	في مدح المعتضد	٨٢	شكر
١٦٥	هدية تفاح	٨٩	شفاعة
١٦٧	شكر على زيارة	٩١	هدية تفاح
١٦٨	تهنئة	٩٢	لا يهنا الشامت
١٦٩	ابتداء قصيد	٩٨	أترع الكأس
١٧٠	الى أبي القاسم	٩٨	لا حيلة في الحب
١٧٤	مدح ابن جهور ورثاء أمه	٩٩	في مدح ابن جهور
١٧٧	في مدح ابن جهور	١٠٥	الى ابن جهور
١٨٤	رثاء أم المعتضد	١٠٦	مجلس أبي علي
١٨٨	قل للبعاة	١٠٧	جواب
١٩٢	دكري قرطبة	١٠٨	كن كيف شئت
١٩٥	سلاوى المضطر	١٠٩	حنين
١٩٧	في مدح المعتضد	١١١	في الغزل
٢١٦	في » »	١١١	في بعض مجالس الأوس
٢٢٣	دولة عباد	١١٢	شكوى وألم
		١١٨	جواب

٢٦٥	قسم
٢٦٥	خداع الأمانى
٢٦٦	فى الغزل
٢٦٦	الى هاجر
٢٦٦	دعاء محب
٢٦٧	أنت حسي
٢٦٧	ما الذى أنكروه ؟
٢٦٧	شوق بعد سلوان
٢٦٨	أسر الطوى
٢٦٨	معذرة
٢٦٨	وصف الكأس
٢٦٩	غاية المحبين
٢٦٩	صفح المذنب
٢٦٩	لا يأس
٢٦٩	عتب
٢٧٠	تجنى الحبيب
٢٧٠	لا يأس فى الحب
٢٧٠	بقية المسواك
٢٧١	غرور المنى
٢٧١	صلىنى
٢٧١	شكوى ضالعة
٢٧١	وفاء المحب
٢٧٢	غدر الحبيب
٢٧٢	حذر العاشق
٢٧٢	قناعة المحب
٢٧٣	كيف السلو
٢٧٣	أنت المنى

٢٢٣	الى حبيب
٢٢٤	فى مدح أبى المظفر
٢٢٩	ذكرى قرطبة وأيام الصبا
٢٣٦	الى ابن عبدوس
٢٤١	مدح ابن جهور وشكر باديس
٢٤٣	اسم من أحب
٢٤٤	الى أبى العطاف
٢٤٧	بين ابن زيدون والمعتمد
٢٤٨	الى المعتمد
٢٤٨	جواب للمعتمد
٢٤٩	جواب آخر للمعتمد
٢٤٩	وقال للمعتمد يستهديه خرا
٢٥٠	وقال مجاوبا المعتمد
٢٥٣	وقال
٢٥٣	وقال
٢٥٤	تهنئة
٢٥٧	ذكرى ولادة
٢٥٨	الى ولادة
٢٥٩	الى أبى حفص بن برد
٢٥٩	يل أنس
٢٦٠	دواء
٢٦١	حسى رضاك
٢٦٢	عودى الى الوصال
٢٦٣	أبو القاسم
٢٦٣	وقال
٢٦٤	آلام المحب
٢٦٤	كيف السلو

صفحة		صفحة	
٣١١	الى المعتمد	٢٧٣	بقاء على العهد
٣١٣	صرعى الحب	٢٧٤	أين وفاؤك
٣١٢	ذكرى قرطبة	٢٧٤	صرع الحب
٣١٣	رسائل ابن زيدون وأخباره وشعر المسكين	٢٧٥	وفاء المحب
٣١٤	الرسالة الهزلية	٢٧٥	أنت حسبي
٣٣٣	الرسالة الجدوية لابن زيدون	٢٧٥	الى هاجر
٣٤٦	رسالة الى المظفر	٢٧٦	لا سبيل الى السلو
٣٥٥	رسالة الى ابن مسleme	٢٧٦	أنت الحياة
٣٥٧	رسالة الى المعتضد	٢٧٦	ذكرى معاهد قرطبة
٣٥٨	رسالة من قرطبة	٢٧٧	غدر الحبيب
٣٦٠	من رسالة	٢٧٨	اصنع ما شئت
٣٧٠	شعر المعتضد	٢٧٨	أمنية
٣٧٧	شعر المعتمد	٢٧٨	نفسى فداؤك
٣٧٩	ابن عمار	٢٧٨	دين الحب
٤٠١	معارضات الشعراء لابن زيدون	٢٧٩	وفاء
٤٠١	معارضة أبى بكر	٢٧٩	فى سبيل الهوى
٤٠١	معارضات أمير الشعراء	٢٧٩	صلة المحب
٤٠٩	صفحات من كتاب الذخيرة	٢٨٠	مقيم على العهد
٤٢١	صفحات من كتاب نفع الطيب	٢٨٠	آلام المحب
٤٢٣	ابن جهور	٢٨١	العميمات والألغاز
٤٢٥	جهور	٢٨١	الى العتمد
٤٢٥	بنو عباد	٢٩٩	الى المعتمد على الله
٤٢٦	صفحات من كتاب العينى	٣٠١	جواب
٤٢٧	ملوك الطوائف	٣٠٣	الى المعتمد
٤٣٠	دراسة الدكتور أحمد صيف لابن زيدون	٣٠٦	جواب على بيت مطير
٤٣٨	» » دراسة الأستاذ السكندرى	٣٠٧	البيت المطير
٤٤٢	» » دراسة الأستاذ علام سلامه	٣٠٧	حل البيت المطير
٤٤٣	» » دراسة الأستاذ أحمد زكى اشا	٣٠٨	جواب على بيت مطير
٤٥٥	فهرس القوافى		

مقدمة ابن زيدون

تقدير

لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرَحَبًا قَدْ أَطَلْتَ التَّغْيِبَا
 إِنَّ دِيْوَانَكَ الَّذِي ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
 يَشْتَكِي الْيَتِيمَ دُرَّةً ، وَيُقَاسِي التَّغْرَابَا
 صَارَ - فِي كُلِّ بَلَدَةٍ - لِلْإِلْبَاءِ مَطْلَبَا
 جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
 تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا وَتَرَى الشَّرْحَ أُعْجِبَا

* *

أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُلِّهِ أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
 بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا - مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
 شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرِبَا؟
 تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ مُبْدِعًا فِيهِ مَعْرِبَا
 أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ، بِالْعَوَانِي مَشْبَبَا
 وَتَزِيلُ الْمُتَوَجِّعِ - نَ النَّدِيمِ الْمُقْرَبَا
 كَمْ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ مِدْحَةً أَوْ تَعْتِبَا
 وَمِنْ الْمَدْحِ مَا جَزَى وَأُذَاعَ الْمَنَاقِبَا

* *

وَإِذَا الْمَجْزُؤُ هَاجَهُ - لِمَا نَاتِهِ - أَبِي

وَرَأَهُ رَذِيْلَةً لَا تُمَاتِي التَّأْدُبَا
مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِرًا فَاضِلَ الْخَلْقِ طَيِّبًا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ - فِي زَنْبِقِ الشَّعْرِ - عَقْرَبَا

* * *

جُلْتِ فِي الْخُلْدِ - جَوْلَةً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَا ؟
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عِيُونٍ وَمِنْ رُبِي
وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ وَظِلَالٍ مِنَ الصَّبَا
وَصِفِ الْخُورَ مُوجِزًا - وَإِذَا شِدَّتْ - مُطْنِبَا «

* * *

قُمْ تَرِ الْأَرْضَ - مِثْلَ مَا كُتْمُوا مَسِ - مَلْعَبَا
وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ - ابْنِي الْمَوْتِ - مَأْرَبَا
وَتَرَى ذَاكَ - بِاللَّيِّ عِنْدَ هَذَا - مُعَذَّبَا

* * *

« إِنَّ مَرَّوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْعَجَائِبَا
طَوَّقُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا - بِالْأَيْدِي - وَمَعْرَبَا
آلَةٌ أَطْلَعَتْكَ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبَا
أَنْتَ لِلْفَتْحِ تَنْتَمِي وَكَفَى الْفَتْحُ مَنْصِبَا
لَسْتُ أَرْضَى بغيرِهِ لَكَ جَدًّا وَلَا أَبَا «

« شوقي »

مقدمة

١ - تحريف الديوان

كان أيسر ما في هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أنسانا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، ولقد وفق النساخ أيما توفيق في تشويه محاسن هذا الديوان الفذة ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وعيونه .
ولقد كنا نقرأ القصيدة عدّة مرات ، وكأنا - لشدة ما فيها من تحريف واضطراب - أمام طلسم غامض لاسبيل إلى حله ، ثم لا يلبث الصبر أن يذلل من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تغرينا لذة الفوز والاتصار - كلما اجتزنا عقبة - أن تقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لانكاد نصدق بأننا قد اجتزنا هذه المفازة المخيفة ، ورفعنا عن ذلك المنجم الرائع كثيرا من الهضاب والكثبان المترصة فوقه .

وما نزعنا أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجروا فنزعم أننا لم نأل جهدا في تبرئته من كل عيب وتزيهه عن كل تحريف ، فاذا ندّ عن خاطرنا معنى أولحق بذهننا كلال في تصحيح بيت أو تجلية غامض فهو الذهن الانساني يحلق ثم يسقط ، ويبدع ثم يسخف ، ويعتوره النقص والكلال ، أقوى ما يكون رغبة في توخي الابداع والسكال .

٢ - أمثلة من التحريف

قلنا إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقيناه من العناء ، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الخالي الذهن نوعا من الزهو والحيلاء ، ولكنه الحقيقة التي لا أثر للغلاة فيها ، ولو أننا أردنا أن نسر دكل ما أصلحناه من تحريف أو تشويه ، لاضطررنا إلى ذكر أكثر أبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب ، فلنجزئى بذكر القليل منها عن الكثير ، ليرى القارئ المنصف مقدار ماجنى النساخ على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى في مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربي الزاخر بأروع الخواج النفسية وأسمى المعاني الرائعة .

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع منى شفا من جلد مع أنى لم أزل ثبت الغرر . »

أواليت التالى :

« كأننا لم يوالينا زمان لين الأخدع . »

أوقوله فى نفس القصيدة : « وأنف النمل لا يجمع . »

أوقوله فى قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادظم ظلامه . »

أوقوله :

« زمن كما لون الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

أوقوله : « لم أدع حظى منها بالحيل . »

أوقوله :

« فما ابنك إلا عدل نفسك إن يسر فللجسم لا للنفس منك مقام »

فى قصيدة لم يرد فيها ذكر ابنه بتاتا :

فاذا قرأت البيت الأول قراءة صحيحة ، قلت :

« لم يدع منى سقامى جلدا مع أنى لم أزل ثبت المرر »

والبيت الثانى :

« كأننا لم يؤالفنا زمان لين الأخدع »

والشطر الثالث : « وأنف الفحل لا يجمع »

والبيت الرابع :

« جفاء هو الليل ادظم ظلامه »

والبيت الخامس :

« زمن كما لوف الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

والبيت السادس :

« لم أرغ حظى منها بالحيل »

والبيت السابع :

« فما انك إلا عدل نفسك ان يغب فللجسم لا للنفس منك مقام »

فاذا أضفت إلى هذا العناء عناه آخر هو بعض تكملة الأبيات الناقصة بما يلائمها، ظهر لك

أننا لم نكن مغالين فى وصف ما كابدهناه من المشقة والتعب.

ومن أمثلة ذلك قوله : « . . . فى جواركم ذليل . »

وقد أتمناه بما يلائم المعنى فقلنا : « [جناحى] فى جواركم ذليل »

وقوله :

« . . . شافعا لأيديك التى بعضها يفوق الشناء »

وقد أتمناه وأصلحناه كما يلي :

« [فتقبله] شافعا لأبيك لك التي بعضها يفوق الثناء »

وانما اجتزأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة - كما يقول شيخ المعرة - تدل على الشجرة .
ولأن الديوان كله مائل بين يدي القارئ فلا حاجة بنا إلى الإفاضة في ذكر الأمثلة .

٣ - أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب في المدارس من شعر ابن زيدون محرف أو مشوه ، فمن ذلك ما أثبتته الأسناد علام سلامة في مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« وبيت ملك كأن الله أنشأ مسكا وقد أنشأ الله الوري طينا . »

والبيت في وصف ولادة ، وصوابه . « ريب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس - ومنهم ابن زيدون - من هذا التعبير ، والرواية التي أخذها الاستاذ علام هي رواية نفع الطيب الذي لا يقل تحريفه وتصحيحه عن تحريف الديوان وتصحيحه . وقد أثبتنا هذا البيت كما يلي :

« ريب ملك كأن الله أنشأ مسكا وقدر إنشاء الوري طينا »

وبهذا يظهر جمال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .

وقد روى بعض الأدباء البيت التالي لابن زيدون هكذا :

« سنون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قط . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعها » فان سنين من الأيام أو سنين من الليالي أو سنين من الساعات لا معنى لها - ويؤيد هذا الرأي قول ابن زيدون نفسه من قصيدة أخرى في رسالة لابن جهور :

« أفصبرا مئين خمسا من الأيام ؟ »

وقد وقع في هذا التحريف الأستاذ أحمد زكي باشا ثم نابعه في ذلك الأستاذ أحمد السكندري .
وظن الأستاذ زكي باشا ان ابن زيدون قد سجن مرتين ، الأولى خمس سنوات ، واستدل على ذلك بالبيت الأول ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثاني .
أما الأستاذ السكندري فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

(١) قال الاستاذ السكندري :

« لبت ابن زيدون في السجن بضع سنين ، ولا يمكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ »

أما الأول فيجبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

« سنون من الايام - خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يبد شدولا قط »

وأما الثاني فيجبنا هو أيضا عليه بقوله من نصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى أبي الحزم

جهور : « لم يظو برد شباني كبرة وأرى برق المشيب اعلى في عارض الشعر »

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تغفر فاضطرت بسببه آيات
 البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا ما فيه من الخلط والتشويه
 والتحريف ولا وهم على ذنوب لم يجترموها وآخذوهم بعيوب لا يد لهم فيها :

« وذنوب جرّه سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيده الأفاضل مسؤولين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه
 السكوز الفيسة ورددّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبراً ذم القدماء
 مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ - لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد
 ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب إلى عام ١٩٢٢ أن أترجم
 لطلبة الجامعة الفصل الرابع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكسون » عن الأدب الأندلسي
 وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أنني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها
 للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي (١) » ووعدت في مقدمة
 ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب وللشبية غصن غير مهتصر»

ونحن نعلم أن انتطاع دعوة بنى أمية عن قرطبة كان ستة اثنين وعشرين وأربعمائة، ونعلم أن قد ولد
 ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فإذا كان بدأ خدمته في دولة آل جهور وهو في الثانية
 والعشرين من عمره وإذا قدرا أنه بعث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح فيها
 بأنه لم يبلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع
 وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استظف فيها أبا الحزم جهورا واستشفع عنده بابنه أنى
 الوليد محمد بن جهور ، وكان أليفه وصديقه من قبل وبغيره من الرؤساء ووجه قرطبة وبث إليه وإلهم
 شكواه بعدة فصائد أبدعها ورسائل استغفر فيها جهده فما ألانت له قلبا اه

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب مايلي

طلب الى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب
 للأستاذ نيكسون » لألفيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذى أفرده من كتابه الممتع ، بالكلام
 على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسه وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه
 ولم أكد أشرع في مناقشة نقطه الجهورية حتى اتسع أسمى مجال البحث وشجعت على مواصلة مارايته من
 القص الشديد الذى يكاد يلمسه كل مطع على الكتف العربية الى تناوات الكلام في هذا الموضوع وما
 علمته من الحابة المناسبة الى كتاب يسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المتشائين به ، قليلا مما
 يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة المهوشة ويحفظ وقتهم الثمين من الضاع .

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سنوات مضت على تلك البحوث التمهيدية الأولى .

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟
لقد كنت أسمى الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ - كما يخيل إلى كثير من
أدبائنا الذين يتسرعون في الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم
وعصورهم دراسة مستفيضة - أنه شاعر صنعة مولع بالبديع والمقابلات اللفظية لا يسمو إلى
درجة الفحول الممتازين .

فلما وصلت إلى قول « نيكلسون » في فصله الرابع : « وكانوا يلقبون ابن هانيء بأنه
متنبي الغرب ، كما يلقبون ابن زيدون بأنه يحترى الغرب ^(١) » صارت القارىء حينئذ يأتني
لا أستطيع الحكم على الجزء الثاني من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا في المقارنة بين ابن
هانيء والمتنبي ، لأنني درست ديوانيهما ، وقد عدت الآن عن بعض آرائى في ذلك الفصل . ولم
أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحترى ، لأننى قرأت ديوان الثانى ولم أقرأ للأول إلا بضعة
قصائد لا تكفى للحكم على شاعر .

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظاماء لغتنا الذين تركوا أوضح الأثر في بلاغة
نستمد منها الحياة والقوة ، فئن كان من الواجب ألا يجهل الانسان عظاماء الأمم ذوى الأثر الكبير في
الحضارة العالمية فهو أجدرا ألا يجهل عظاماء قبل كل شيء .

دفتنى هذه الاعتبارات إلى عدم الاقتصار على ترجمة هذا الفصل الممتع وتم اتخذه مرجعا من المراجع
الكثيرة التي رجعت إليها بدلا من أن اتخذه موضوع المحاضرة .

وقد اقتضت في هذا الكتاب على ترجمة النصف الأول من هذا الفصل ، وقد ألفت القسم الأكبر من
هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في إحدى الصحف الأدبية
فلقيت من الاستحسان والرضا ما شجعتنى على طبعها .

ولم يفتنى ان أورد في حواشى الكتاب كثيرا من التعليقات الضرورية التي اضطررتني ضيق الزمن إلى
الاكتفاء بالإشارة إليها دون ذكرها وقت القاء المحاضرات .

وقد تمددت ذكر أمثلة ونماذج شملت مكانا من الكتاب ما كانت لتشغله لو أن كتابا حديثا سبقنى إلى
الاستشهاد بها أو لو أنى وقتت أن جمهور الأدباء عندنا يعرفها .

(و بعد) فهذه نظرات سريرة ألفت بها إلى تاريخ الأدب الاندلسى وسأتبعها بعد قليل بالقسم الثانى
منها فليقرأها القارىء على أنها مقدمة لدراسة الأدب في ذلك العصر ، ولتتخذها نواة لكتاب تناول فيه
ذلك التاريخ بشيء من التوسع والاسهاب اذا أمكنتنا الفرص ، وكان في الأجل بقية .

(١) قال الأستاذ نيكلسون :

« إن قائمة العلماء الذين رحلوا في طلب العلم إلى إفريقيا ومصر وإلى المدن المقدسة في بلاد العرب وإلى
حواضر سوريا العظيمة والعراق ، وإلى خراسان وتركستان بل وإلى بلاد الصين أحيانا - كانت تحوى
كل نابى الأدباء ورجال البلاغة العربية الذين أنجبهم اسبانيا الإسلامية كما يرى ذلك من يتصفح الفصل
الخامس من كتاب المفردى . لهذا كانت حركة مبادلة الآراء في دؤب ونشاط فلم يستأثر أحد من رجال الشرق
والغرب بشيء خاص ، وعرف الناس قبل كل شيء أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانيء وابن زيدون كان
ينعتهمما النقاد الشرقيون المعجبون بهما بمتنبي الغرب وبحترىه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضى على أن أدرس ابن زيدون كما درست البحترى ليقسنى
لى أن أنصفه .

وما كدت أبدأ فى درس ابن زيدون ، شعره ونثره ، وأتقصى أخباره وأخبار عصره ، حتى
رأيت مراعى وأدهشنى مارأيت ، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادى فصرت أستقله الآن
اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لكلفه بالصنعة التى بغضت إلينا كثر شعراء ذلك العصر
وأفسدت علينا كثر الأدب العربى ، فإذا بى أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المحببة التى
تمتج بالنفس وتهيمن على القلب وتجب فيها أشد الناس بغضا لها ، وقد عرف ابن زيدون كيف
يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتنان فى الأداء والتعبير والابداع فى تصوير أروع المعانى
الساحرة وأدق الخواج النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجمال وتفتن فى التعبير عنه ، وطبيعة
سمححة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح
ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهنا المقلدون فى
الصنعة والبديع ، كما حجب إلينا المبدعون كثيرا من ألوان الصنعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بيانى خلاب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن
الأداء ، كما يتخذ المصور الماهر من مختلف الألوان والأصباغ - وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى
الأسرار والمخات .

ولا أكنتم القارئ أنى من ألد أعداء الصنعة اللفظية ، ولكننى من أشد أنصارها إذا
جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأتاول فرانس أنهما من رجال
الأساليب ، ونسوا أن الأسلوب العالى هو غاية تنخلع دونها الرقاب ، وأن طول المرانة والدرس تخلق
من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللبق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب
والشاعر العبقري أو تلهمهما الأسلوب العالى الذى يحاول بعض الأدباء أن يزرى به ويحقره .

٥ - تنفيذ الفكرة

ولم أكن أبدأ فى قراءة ديوانه ونسخه حتى أكرت الرجل وقتت بشعره وسعرت
ببيانه الرائع وإن قطع على إعجابى وقتنى ما اعتوره من التحريف والتشويه - وهما من جنائيات
النساخ على الأدب العربى - ولكننى اعتزمت المضى فى هذه الطريق الوعرة وصممت على
اجتياز هذه المغازة التى لأعلام فيها ولاصوى (١) نسترشدها فى السير ، ثم شغلتى أعمالى
الكثيرة عن المضى فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحى المهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق
عنه وقتى المزدحم بالفروض والواجبات .

(١) الصوى علامات الطريق التى يطلق عليها اسم « Milestones »

ولم يكن من اليسير على أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربي الى التضحية بصحته ووقته في عمل مضمّن شاق لا يفهم منه القارئ العادي إلا أنه هين سهل لا يتجاوز شرح ديوان شاعر وضبطه .

ولكن صديقي الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم الى مظهرها الى استعداده لمعاونتي في هذا العمل والسير معي في هذه المغامرة .

ولصديقي الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربي، وغيرة نادرة على اللغة العربية، وحرص بالغ على كنوز البيان العربي، وصبر لا يشركه فيه الا القليل من الأدباء المخلصين، وعزيمة لا تعرف للتردد والنكوص معنى، وهذه هي الصفات التي كنت ولازال أنشدّها فيمن يتصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقي عند حسن ظني به، فقد كان يقضى معي الساعات الطوال دائماً لا يكمل ولا يني ولا يفتر عزمه الا ريثما يتجدد، ويعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطاً وهمّة، وهكذا مضينا معترمين في شرح الديوان وضبطه وإصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ في هذا المظهر الأنيق .

٦ - رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وان خففت عناية الأدباء وتعاونهم وشروحهم عناء التحريف في الرسالتين الجديّة والحزليّة فقد رأينا أن نثبت كل ما وقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ما وصل إلينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جهور » وبعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان - على كثرتها - فاضطرت إلى فصل سفرين عنه وإخراجهما مستقلين ليعاوننا القارئ على درس هذه الفكرة من كل وجوهها. وسأفرد - ان شاء الله - كتاباً يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل، بعنوان « ابن زيدون - أدبه وعصره » وكتاباً آخر بعنوان « ملوك الطوائف »، يتناول بأسهاب الكلام في عصر ابن زيدون الذي عاش فيه، حتى لا ينطبق علينا قول المتنبي :

« ولم أرفى عيوب الناس عيباً كنعص القادريين على التمام »

فاذا انتهيت من ذلك بدأت في إظهار ديوان « ابن حمديس » في الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس، إن ساعدت الظروف وكان في الأجل بقية .

كامل كيلاني

الملوك الطوائف

١ - ملوك الطوائف (١)

ابن جهور - بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الاسلامية ، وأصبح أمرها يسدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمرا مرغوبا فيه عند أهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزعا من المستقبل وأسفا على الماضي . ولم يستفد من هذا الانحلال في البلاد إلا ملوك الافرنج وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن اقتسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وصار مابق بعد ذلك نهبا مقسما بين الطارئين المتوئنين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث والمنصور » التي كانت مصوبة إلى الأرسطوقراطية ، وانتهى الأمر بأن تكون من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شوريتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا الى إسناد السلطة التنفيذية إلى « ابن جهور » الذي عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم فرفض بادي ذي بدء ، هذا المركز السامى الذى عرض عليه ، وبعد إلحاح من جماعة المنتخبين له ، رضى بتحمل هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له في مجلس الشورى ، وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابته الجماعة إلى ما طلب ، ولكن على شرط أن يكون هذين الاثنين صوت استشارى .

وقد حكم السفير الأول الحكومة الشورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، وإليه يرجع الفضل فى أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئا من المظالم التي كانت تقع عليهم من قسوة البربر . فكان أول ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ ببنى

(١) ارجع إلى ما نشرناه فى آخر الديوان الأستاذ « نيكسون » « ص ٤٢٧ » أما هذا الفصل فهو للعلامة دوزى وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذى نظره قريبا إن شاء الله .

إيفورين» « Beni - Iforen » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم ، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه تنفيذ أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . »

ولما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجها إلى شخصه أبي تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء . ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى ، أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فهو - بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة - بقي مقيا بمسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائما . وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تخوم حولها الشكوك والريب ، وقد فرض - مع هذا - أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ، فعهده بحراسته إلى أكبر الناس مقاما وأكثرهم احتراما في المدينة . ومع حبه - في الحقيقة - للبال ، قضت عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف ، ولما كان مقتصدابا وحريصا حرسا يكاد يصل به إلى درجة البخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل في قرطبة ، ولكنه في الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ما وفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك ، فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن ، وأمنت السبل ، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأمّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما وقعوا النهب والسلب في المدينة . وعلى الرغم من هذه الأعمال التي قام بها فان قرطبة - عاصمة الخلافة القديمة - لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية - التي صنعى بتاريخها عناية خاصة - تحوز الشأن الأول في المركز السياسي .

كانت اشبيلية - منذ أمد بعيد لانزال - مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجرى من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة خاضعة لملوك الدولة الأموية على التعاقب ثم لدولة بني جود ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيء في اشبيلية ، فقد ثار القرطيون على قاسم بن جود وطردوه ، فعول هذا الأمير على الالتجاء إلى اشبيلية حيث يقيم بها ولده ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيري من قبيلة بني إيفورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم باخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا في نفوس أهل إشبيلية هذا إلى ما عرف عن جنود قاسم الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه . فعولوا على أن يحذوا حذو قرطبة ، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمنهم ، وبعد

جهد مجح قاضي المدينة «أبو القاسم بن عباد» في كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكا على اشبيلية ، فأعلن حينئذ محمد بن زيري استعدادة لمساعدته، وسارع القاضي فعهق بينه وبين قائد بربر «قرمونة» مخالفة تفلدوا السلاح - على أثرها - ضد ولدى قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التي كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالعود الخلافة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، ولما أوجس خيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهدا أن يجلى - هو ومن معه من الجند - عن أراضي اشبيلية ، إذا ما أساموا إليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما ، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه ، وتم سحقت للقاضي أول فرصة ليرضى حامية البربر . ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر في هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد بنو جود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين الثائرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط في أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤولية عما وقع .

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا في أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة ، وكان - مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال - حكما حازما ، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب . ولم يكن القاضي متصل النسب بالسلالات العريقة ، إلا أنه امتاز بحيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك فقد كانت له منزلة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العامية ، وكان يعوزه أن يضم إلى هذه المؤهلات أن تندج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة . وقد تم له ذلك - فيما بعد - تدريجا ، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود ، ولم يشك في أن الارستقراطية العظيمة المجيدة في اشبيلية لا بد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة مالوك «لخم» الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للإشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم ، لأن بني عباد والمتزلفين إليهم ومن يمتقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك ، وكل ما يبرر هذه الأسرة بمالوك الحيرة أنها تنتسب إلى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب إليهم مالوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذي

تسلسل منه أبأؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتانا ، ولكمهم كانوا يقيمون أخيرا بالعرش الواقعة على حدود مصر وسوريا في قسم إيميز « Emese » .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ماى استطاعتهم كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود إيميز وقد رحل الى أسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادى الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت بطاء من ظامة الماضى أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضى هو عنوان مجدها وهو الذى خط يمينه فى الصحيفة الذهبية لنبلاء اشبيلية اسم عباد (١) . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقالم والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، ثم صار - فيما بعد - إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالنقه والذكاء والورع وإرشاد العامة ، وإسداء النصيح للكافة ، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقي القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أ كبر ألقاب النبيل والسؤدد فى الغرب .

وقبل العهد الذى نحن بصدده توفى الى رحمة الله فى غضون سنة ١٠١٩ .
وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يمانه علما وأدبا وإن كان لا يدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثر وطمع و صلف وتكبر وإنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء الى قاسم بن جود فقال - بفضل قاسم - منصب القضاء الذى كان يؤمله . وقد يرى المنتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجيل .

وفى مفتتح هذا العهد الذى نحن بصدده - أشار نبلاء اشبيلية وأصحاب رأى فيها على أبى القاسم قاضى اشبيلية أن يتنوأ عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الشرف الذى يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه فى الحكم أفرادا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراء وأعوانه فى الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الاشخاص الذين يشركهم معه فى رأى ستألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيديون ما اشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما اتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

(١) وكان عباد الجد أنك لا اسماعيل .

وأطلعهم كواكب في سماء مصر ، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوي الشهير ، وودب هشام الثاني ، وبعده أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للمملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من المماليك ودرّبهم على القتال وجرّد منهم جملة على الشمال ، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين في شمال فيزي أنشأ متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «الأفوين» وكان يقطنهما اسابانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي تتحدث عنه في حيازة ملك ليون ولا في حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضي عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما - وهم زهاء ثلاثمائة فارس على - الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفي للاغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حاله هذه لم تكن لتتمكن من صدّ هجمات قوية جديدة ضدّ اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، ففي هذه السنة جاء الخليفة الجودي يحيى بن علي وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفارضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم - ضمانا لوفائهم وإخلاصهم - أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجده عباد. ولعلم الخليفة بما للقاضي من الجاه والنفوذ اكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الاشبيليين عامة ، وأصبح - منذ ذلك الحين - لا يخشى شيئا لامن جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلا وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعده من مجلس الحكم مثل ابن سحاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهما عن خدمته ، ونفى زبيدي ، وعين رجلا من خواص اشبيلية اسمه «حبيب» رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معاني كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا بهذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشبت بين العرب والخالئين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ماصادفوه في طريقهم ، وكان في نية القاضي إعادة تشييد ماخرّب منها ، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفضس أمير «باداجوز» عزم القاضي ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد «الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر» وتمّ استيلاء هذه الجيوش على باجة في الوقت الذي جاء فيه اسماعيل بن القاضي بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين إيفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذي جاء من ابن طيفور ، فإن سجدا كان سيء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدي أعدائه وأرسل الى قرمونه .

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

وبعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحا أو سمه - إن شئت - هذنة مع الافتازيد وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضا القاضي (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نبأ انطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على اشبيلية ، ويبلغ القاضي شكره ، ولكن سجدا لفرط اشمئزازه من القاضي ، قال لأمير البربر : «إني أؤثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به علىّ ، فاذا كنت مدينا لغيرك باطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فإني أفضل أن أبقى حيث أنا سجين» فاحترم الأمير شعوره وأرسله الى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتكريم .

وبعد بضع سنين أى في سنة ١٠٣٤ اتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وثأر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته ، وذلك بأن أباح للقاضى أن تمر بأرضه جنوده بقيادة ابنه اسماعيل وهي ذاهبة في طريقها للاغارة على مملكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده في مضيق لا يبعد كثيرا عن الحدود الليونية باغته جيش الافتازيد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونه الواقعة على حدود مملكة أبيه من الجهة الشمالية الغربية تحمل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه الآونة صار القاضي الخصم الألدّ للأمير «باداجوز» وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، وبملا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثرا يضارع ما تركه فيها أحداث آخر سنتناولها فيما يلي. قلنا ان القاضي اعترف بسيادة الخليفة الجودي يحيى بن علي ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير محدد وقد بقي كذلك مدة طويلة فقد قام القاضي بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تبدلت هذه الحال تدريجا اذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقي بعد أن كانت هذه الزعامة فيما مضى اسمية ، ولما كان معسكره العام في قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية في آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر الخيف المحقق الى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها وقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البربر الذين اتحدوا الاملاك التي سبق لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التي تجعل البلاد بمنجاة من حلول مثل ما حلّ بها من المصائب من قبل ، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوى كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقي ، وهو في الوقت ذاته يمتنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التي عليه أن يذلها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم اذا ما حاول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب الى نفسه . ولما كانت المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن الى حد ما من الوصول الى الغاية التي يرمى اليها ، والمشروع الذي يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أي نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة العس «هشام الثاني» فر من القصر في عهد سليمان الثاني . وقلنا ان أكثر الظواهر تدلّ على أنه مات في آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق بوفاته لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف البسر والرءاء ، وكسسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التي كانت ترد اليهم من الخارج منبهة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بأسيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا برفقته مامعه ، وأنه استمر يومين لا يتذوق طعاما ولا شرابا ، إلى أن رأى رجل يصنع الفخار فرق له ورثي لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتناول فيهما طعاما و بعد لأى استطاع هشام على كسل دفتره فى العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أنف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى اورشليم ، وهو فى أشد حالات الاملاق ، وهناك بينما هو يتنقل فى بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصرى ، وأخذ ينظر الى عمله بانباه شديد ، فسأله الحصرى : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجاب بحزن كلا ، وأنا أسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسد به الرمق ، فقال الحصرى : اذن فابق معى لحاجتى اليك فى احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا وبقي عند الحصرى الى أن حذق الصناعة ، وما زال على هذه الحال بضع سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ونزل ماقه ثم تحوّل عنها الى المريه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا وثمة التى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجاً وقبولاً من الشعب لا تستحق - على ما يظهر - أن تنال شيئاً من الثقة ، والذى وقع حقيقة هو أنه فى العهد الذى كان فيه يحيى يهدد إشبيلية وقرطبة ، كان فى كالاترافا رجل حصرى اسمه خلف يشبه تمام الشبه الخليفة هشاماً الثانى ، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأوبون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعدوه ضرباً من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف لهشام على أثره ، ولم يتوقف خلف حين طرق سمعه كثيراً أنه شبيه هشام عن ادعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالى كالاترافا ، لان خلفاً لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا فى طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن دهمان - نون أمير طليطلة فجاء هذا وحاصره ولم تطل مدة مقاومتهم ، وأخرج هشاماً المزعوم من المدينة فهذا نأى الأهالى ، وعادوا الى السكنة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحد ، بل رجع عوداً على بدء حين علم قاضى اشبيلية بخبره وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى اشبيلية ، وكان الذى يهيمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيراً أن يرتضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضد البربر ويكون هو بعنوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحزب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى اشبيلية ، ووعده بعضيده اذا نجح فى اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى الى اشبيلية قدمه القاضى الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعاً تقريباً بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعوّل القاضى على قوطن ، وبعث الى شيوخ اشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاماً الثانى عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعاً عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كمل الله هذا المسعى

بالنجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذي لجأ إلى اشبيلية ،
وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وجزر بليار ، وأمير تروتوزا (طرطوشة) .
وعلم عامة الشعب في قرطبة علما مقرونا بالسروور أنه لا يزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم
أبا الحزم بن جمهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم يندفع ، ولم تجده هذه الحيلة
الى نفسه مساعا ، ولكنه لم يجد سيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة
اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر
قرطبة ، فهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام
الثاني من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقلبي يتسلح ضد يحيى ، كان هذا
محاصرا إشبيلية ، محمدا في تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطننا النفس على الانتقام الهائل
من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله - من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانصواء تحت
رايته - كان هواهم مع هشام الثاني خليفتهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم وبينه سائرة ، وفي
اكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية الى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبد الله
أنه من السهل مباغتة يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة
تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس
الجيش الاشبيلي ، وعند ما أرخى الليل سدوله كمن اسماعيل مع أكثر الجند في كين ، وأرسل
كوكبة لمناوشة قرمونة ليغري يحيى بالخروج الى ظاهرها وقد نجح في خطته هذه ، إذ كان يحيى
حين بلغه محيىء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئا على سريره وصاح قائلا :
« يالها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتي ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم
وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج في ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبذ قد لعب برأسه
فلم يتمهل ريثما يبيء جنده وينظم خططه ، يضاف الى ذلك أن ظلام الليل الخالك كان يحجب
عنه كل شيء ، وفوجئ الاشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت فقابلوه من جانبهم بجند وعنف ،
وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه اسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحيى الى
حفته بنفسه ، فان اسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره الى التقهقر ، وقتل
يحيى نفسه في المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك ،
وقال له : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول
في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد
ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على
أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لولا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ،
وسار الى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحيى الى بنيه ، واستولى على ما فى القصر من كنوز
ونقائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورا عظيما في اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبر الى مسامع القاضى خراسا شكريا لله ، وحننا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضى لا يخشى شيئا من جانب الجوديين ، وقد نودى بادر يس أحد أشقاء يحيى خليفة في مالمه ، وقد كان يعوزه الوقت الكافي الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه ، وما يقدمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم في صفه ، ولهذا لم يعد فى استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزوج فيها بان عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته ، همّ بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلّى عن الحكم ، وقفنا حجر عثرة فى طريقه ، فقد نجح فى اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد أتى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئه بهشام الى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة فى وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .



وعوّل فى بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقاي ، وهو الامير الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى ، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير ، واقطعه عدّة أملاك بدأ زهير يناصر الجوديين ، ولما نودى بادر يس خليفة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهتدا من القاضى عقد محالفة مع حيوس الغرناطى ، ثم زحف جيش اشبيلية ، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر . ومن المحقق أن القاضى قد بالغ فى الاعتداد بقوته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجيء الوقت الذى تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة بدورها اشبيلية . وكثيرا ما خدمته محاسن الصدق التى شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ - المناهج الأدبية (١)

كل ما يكتب في هذا العصر إنما هو محاولات أولية ترمى الى المثل الأعلى الذى ننشده جميعا ، ولا يزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه وإصلاح تحريفه والكشف عن الاغلاط الكثيرة التى أحققها به النساخ . ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المناجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشد أزره ويساعده .

قد كنا الى عهد قريب لانكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعماء الى الدرس والتحجيص والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من قادة الفكر العربى الممتازين ، ولا زلنا نطمع فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القداماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أوّلها ما يصحب كل نهضة أخرى من الغلو والاسراف فى بعض النواحي ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهرى نخشى أن يعوق سيرها حينما من الزمن نحن فى أشد الحاجة الى الانتفاع به واستغلاله بأقصى ما فىنا من قوة ، ذلك العيب الجوهرى هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسما من : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجددين المسرفين .

يأبى الفريق الأوّل الا أن يتقيد بالنصوص القديمة ويأخذ بآراء القداماء فى النقد والأدب بالغة ما بلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه ببحثها وتمحيصها ولا يكاد يردّد الا عبارات محفوظة و (كديشيات) قدأبلاها الدهر ولا يكاد يجرو على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ، فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطري بيت واحد وذلك فى قوله :

« قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل »
والناطقة الذبياني قد بز الشعراء بقوله :

« فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع »

الى آخر هذه العبارات التى حان الوقت لراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو - على الأصح - دعاة التجديد ، لا يبالون بالنصوص ولا يعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاصات المدرسية التافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله .

فالعرب - فى رأى أحدهم - لم يطرقتوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

(١) ثبت فيما بلى فصولا مختارة من رسالتنا عن ابن زيدون ، تنويرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التي قرأها في تلك الخلاصات لا تبرر وضعه في مصاف الممتازين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهي الخيال ، فهم لا يباليون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدمجوا حياتهم في حياته وينحلوه نقائصهم وما يتخيلونه في نفوسهم من مزايا ، فتراهم يخلقون من الشاعر صورة هي أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم خليعا تامس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تامس شاعرا مشهورا بالحق ، ولم يعن بالأسباب التي أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الخلة فيه .

ولست أنكر على الباحث أن يتصدى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكنني أنكر عليه أن يخلق التاريخ خلقا ليؤيد رأيا - صالحا كان أو فاسدا - فان أمانة المؤرخ ودقته هما أول واجبه نحو الحقيقة والانصاف .

اما أن ينصر هوى أو يجري وراء خيال أو يطبق لنا - بلا روية ولا أناة - نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقفها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أضر على الحقيقة من أولئك الجامدين الذين لا يتقدمون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهوس وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كل خيال عربي - لماذا ؟ لأنهم سمعوا أن أحدا للمستشرقين قال : « إن العرب ضيقوا الخيال وإن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين » .

فإن الرومي مثلا واسع الخيال . لأنهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جدّه رومي . والمعري لا خيال له وإن كان خياله أوسع من خيال ابن الرومي - لماذا ؟ لأنه عربي قح ، ولكن المعري هو صاحب رسالة الغفران التي تعد آية من آيات الخيال العربي ، فماذا يقولون فيها ؟ الأمر غاية في اليسر ، ليس في رسالة الغفران كلها خيال وانما هي كتاب أنشأه المعري في جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعري جد رومي تبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جد آرى أصبحت « رساله الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال .

هكذا يحكمون من غير أن يحاسبوا نفوسهم على ما يقولون . وقد حاولنا جهدنا أن تلمس لابن زيدون جدا آريا نتقدم به الى هذه الفئة لتكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن في ابن زيدون مزية قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب ومايمت إلى الغرب . فقد نشأ ابن زيدون في بلاد الأندلس : وهي في صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبي البيئته وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعل هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذي لا يعنى إلا بالحقائق ، فانا نتقدم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله ،
وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة
من صفاء الديباجة وسحر البيان - وكلنا ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز
على درس غيره من خول الأدب العربي والبيان العربي .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأي الهوى ، وأكثر الناقدين لا يفسد
عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنسكب الجادة وإرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفي يقيني أن
الناقد كالقاضي يجب أن يتوخى النزاهة التامة ، ويسمو بنفسه عن مزالق الأهواء ، ولا يألوا
جهدا في البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أو نائب اتهم - كما يفعل أكثر
الكتاب - فذلك ما لانرضاه له ، ولعل أكبر عقاب يناله هو فقدان الثقة بما يكتب .

٣ - نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ في زمن الدولة العاصمية ، في أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبي عامر . وهو من أسرة مجيدة من بني مخزوم (١) ، وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ - أبوه : عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة .

وقدم مات (٢) سنة ٤٠٥ هـ ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتيم وهو صغير .

٢ - أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذي بين يدي القارئ وكنيته أبو الوليد .

٣ - ابنه أبو بكر بن زيدون الذي تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين ، بعد أن استولى على ملك بني عباد سنة ٤٨٤ هـ .

وكان ابن زيدون صاحب هذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وقد كرس حياته للدرس والنحصيل وساعده نبوغه ومواهبه على ذبوع صيته وشهرته وهولم يتجاوز العشرين من سنه ، وكان عصره أزهى عصر أدبي في الأندلس وقد تلمذ على أساتيد الأدب في زمنه وألم من كل علم بطرف ، وقرض الشعر ونبع فيه وهو في العشرين من عمره ، واشترك في الفتنة القرطبية ، وقام بنصيب كبير في تلك الثورة التي اندلعت نيرانها في قرطبة .

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التي زلزلت دولة بني أمية ودولة بني حمود والعلويين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على انقاضهم . وكانت سنة وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة (٣) .

(١) بطن من قریش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد .

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة ، وتقلت جثته الى قرطبة فدفن بها ، ومما وصل الينا من رثاء الشعراء

فيه قول بعضهم :

«أى ركن من الرياسة هربا وجوم من المسكارم غبضا

جلوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراه الأريضا

مثل من السحاب ماء صيبا ليداوى به مكانا مريضا »

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته في سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنة حينئذ ٢٨ عاما .

وقد ظل ملك بني أمية في الأندلس ٦٨٢ سنة وثلاثة وأربعين يوما . وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقر به اليه ابن جهور (١) وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » .
 وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشتراكهما في حب ولادة ،
 فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقدون على ابن زيدون عند أبي الحزم حتى غيروا
 عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بني أمية كما سنفضل ذلك في
 رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون في سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التي يراها
 القارى في ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بابنه أبي الوليد وتارة
 بغيره من أصدقائه ، فلم تلق شكواه أذنا صاغية . على أن السجن لم ينس ابن زيدون حبه
 ولادة فنظم فيها نخبة من أروع قصائده ، ولما ينس من عفو أبي الحزم ، لجأ الى الفرار من السجن ،
 ولم ينس ولادة التي كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتغلت عنه بحب ابن عبدوس (٢)
 على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين
 الى أيام وصالتها وظل حبا المعين الثرار الذي لا ينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة
 وعواطفه المناجحة ، وكان من أكثر الأسباب في وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين
 شعراء الغزل الممتازين .

سقوط الدولة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، وإشبيلية ، وجيان ، وقرمونة ، والغرب ،
 والجزيرة الخضراء ومرسية وبغدية ، ودانية ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وباجة ،
 واشبونة الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقسطة وفراغة ولاردة وقلعة أبواب في يد بني هود . وبلنسية
 في يد عبد الملك بن عبد المرز . ولانزراي مافوق طليطلة - من جهة الشمال - في يد بني رزس . وطليطلة
 في يد بني ذى النون . وقرطبة في أيدي أبناء جهور . وإشبيلية في يد بني عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء ،
 في يد بني بززال من البربر . والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح . ودنية واعمالها والجزائر
 الشرقية في يد مجاهد العامري . وبظلبوس ويابرة وشنتر بن رلبسوه في يد بني الأفضس وأصبح كل امرئ
 وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن المستعين ، لما جلس على كرسي الخلافة ، قال للباس أجمعين :
 « ارتعوا كيف شئتم وارتسوا عما أحببتم من الخطط » فدمى بالوزارة في أيامه - مفردة ومنذة - أرادل
 الدائرة ، وأحابت النظارة ، فضلا عن زعانف الكتاب والحذمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذي استولى على المملكة بعد خلع الجند آخر خلفاء بني أمية ، ولم يتحول
 عن داره الى قصر الخلافة ، وجمال الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته في
 الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذي مات في شوال
 سنة ٣٤٣ هـ

(٢) وفي ذلك يقول ابن زيدون .

« أكرم بولادة ذخر المدخر
 لو فرقت بين بيطار وطار
 قالوا : أبو عاصر أضحى يلمها
 فلت : الفراشة قد تدنومن النار
 عبرتمونا بأن قد صار يخلفنا
 فبين محب ، وما في ذاك من طار
 أكل شهى أصبنا من أطايبه
 بعضا ، وبعضا صفحنا عنه لفقار »

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضم الى أبي الوليد وقام بالسفارة بينه وبين مالوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته وتمكن من دولة ابن جمهور وابتم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد ماصالح ، وخشى ابن زيدون أن يلقي من الابن مالتى من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هاربا من قرطبة . وظلّ ينتقل في أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيرا حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها المنقلب بالمعتضد (١) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكاتبه عليه فهش له وبس وألقى اليه مقاليد وزارته ، وبعد أن مات المعتضد حارل الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتمد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده فلم يفلحوا ، وأقصاهم المعتمد بن عباد عنه وقرب اليه ابن زيدون وأعلى مكاتبه عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتمد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

ولما وقعت الثورة ضد يهود اشبيلية ، انتهز ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لاقضاء ابن زيدون عنهم تخلصا من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده إلى اشبيلية لشدة تعلق أهلها به واستغلال جهم في تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر ، وكان المعتمد يعلم ما يكنه أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وماله عندهم من المكانة والخطر .

وكان ابن زيدون مرابطا فاضطره المعتمد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سيلا ، ولم يلبث أن اشتدت به الحمى وألح عليه السقم فلحققت به أسرته .

ولكن الشيخوخة والمرض تكاثفا عليه فأهلكاه في ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ فزن عليه أهل اشبيلية أشدّ الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب .

وقد مكث في خدمة آل عباد تسعة عشر عاما ، ولوطال عمره قليلا لأفصح حساده ومنافسوه في تغيير قلب المعتمد عليه والتسكيل به كما أفلحوا في مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت ألقاه من دسائسهم وكيدهم ورجحه من شرّهم .

(١) استطاع المعتضد أن يتغلب على كل ماواجهه من العقبات وبذل أقصى ما يبذل داهية من الدهاة حتى صفاله الجور وسلم له الملك وكان أكبر من بناوته من المتغلبين وأشدّهم عليه صنهجة و بنو برزال الذين كانوا بقرمونة وأعمالها من نواحي اشبيلية ، فلم يزل يهرف الحيلة تارة - كما يقول المراكشي - ويجهز الحيوش أخرى الى أن استذلهم ففرق كادتهم ، وشقت منتظم أمرهم ، ونقاهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بجترى المغرب

« ويقول بهض أدبائنا : إن ابن زيدون بجترى زماننا، وصدقوا

لأنه هذا حذو الوليد في بعض قصائده » « ابن بام »

قلت في فصل سابق : إنني ترددت في مشايعة « نيكلسون » حين وصلت إلى قوله :

« وقد أطلقوا على ابن هانيء لقب منبئى الغرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بجترى

الغرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فاننا نترك مناقشة القسم الثانى من هذه التسمية ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الأولى وهى تشبيه ابن هانيء بالمنبئى لاستطاعتنا الكلام فى هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرر مستوقفا : أن هذه التسمية صادقة فى تفصيلها وإجمالها ، وأن من يدرس ابن زيدون والبجترى يطلق على ابن زيدون لقب بجترى المغرب ، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب ، فكلاهما رائع النظم ساحر الأداء ، وأكثر الصور الشعرية التى أبدعها جديرة بأن تنال أعز مكان فى أرقى المتاحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء فى اظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الخلاب ما يفخر به الأدب العربى والشعر العربى فى أزهى عصورها وأنصرها ، فقد كان ابن زيدون فى سموه وافتنانه - وما أكثر سموه وافتنانه - مثالا رائعا للشاعر المبدع القادر المتصرف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أصارح القارىء أننى كدت أنسرّع فى الحكم حين عرضت لهذه التسمية فى كتابى « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، فأقرر أن فى هذه التسمية كثيرا من الاسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشبعا بروح البجترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدق أن شاعرا - كابن زيدون - جدير أن يوضع معه فى ميزان أو يشركه فى إحسان .

ولسكننى رأيت أن من الظلم والغبن أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا عشرات من الأبيات و بضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس . وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب فى هذا العصر ، وهى آفة من الآفات التى تفسد على الباحثين بحوثهم ، فان أكثرهم لا يتورع فى الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يعن بقرائه آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخييف ، وبعضهم يكتب فى المختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يملأ الأرض تمجيداله ويسرف فى اظهار مزاياه وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى ليقول أحدهم فى وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر في جيده ورديته ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يليه على عواهنه » الى أن يقول « فما تحرك حركة الاكان للعبقريه فيها أوفى نصيب » (١) وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومي ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومي أشعر شعراء العربية . وأكثرتهم تصرفاً بفضون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زماناً طويلاً فظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحداً من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومي .

وهؤلاء الباحثين عذرهم في اصدار هذه الأحكام وان لم ينصفوا الحقيقة ، فإن كل شاعر من هؤلاء الفحول يترجم لنا عن حضارة هائلة ويخلق بنا في أجواء ساحرة ننسبنا - حين نحاقق فيها - كل شاعر سواه ، فالبحتري والمنتبي والمعري وابن الرومي وابن زيدون وابن جديس وأضرابهم يكاد يغنيك واحد منهم ويملاً نفسك جمالا وروعة اذا اقتصرت على درسه وحده . ولكنك بعد ذلك جدير ألا تحكم بفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعا دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون في الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية وإمام البيان العربي هو ابن المقفع » ثم راح يطويه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فلست من رأيك ، فإن أبا الفرج الاصبهاني بثره الممجز قد بز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أتم من عبد الحميد الكاتب فهو سيد هؤلاء جميعا » فانبرى له الرابع قائلاً :

« الحق أن امام البيان العربي هو الجاحظ » ثم سألوني رأيي فقلت :

« بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعا وأضرابهم . ولكن كل واحد منكم عكف على درس كاتب من هؤلاء فغفل اليه أن أحدا لا يدانيه بلاغة وسحرا » وهذا مثال لا يزال يتكرر ولازلنا نرى في كل يوم باحثا يأبى إلا أن يتنصر لنا بقية بعينه ويفضله على جميع الناس ، وفي هذا ما فيه من الاسراف والمغالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك في قروي لم يغادر قريته الحقيرة طول عمره ، فلما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور ورفعة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة - التي جمعت ألوان الحضارة والترف وجالبات السرور - هي أجل مدن العالم ، وليس من الضروري أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتبي بواحدة أو أكثر ، ولكن من الضروري لمن يريد المقارنة بينها وبين سائر المدن أن يزورها ويتعرفها جميعا .

كذلك ليس من الضروري أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضروري الا تفضل أحداً من الشعراء عليهم جميعا من غير أن تقرأهم جميعا .

(١) ارجع إلى كتابي « صور جديدة من الأدب العربي » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت إذا توخيت الانصاف والدقة والنزاهة عاجز - بعد طول الأناة والدرس - عن البتّ في تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف الزيه ليرتدّد في أن يجزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد في تفضيل حسناء بارعة في الجلال على شبيبتها ، ورحم الله الأعرابي الذي طلب إليه أن يفاضل بين نوعين من الحلوى ، فظالّ يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثاني تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع الى الثاني ثم قال :

« إنني كلما أردت أن أحكم لاحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس في قدرة ناقد غربيّ نزيه أن يسخف شاعرا خلا كشكسيرو وإن كان في قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر فحل كاللثني أو إنكار شاعرية المعري أو تحقير مواهب ابن الرومي أو ابن زيدون أو ابن جديس أو البحترى الى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ماذا ، عندنا من يجروّ على انكار شاعرية عصر بأكمله كعصر ملوك الطوائف (1) الذي يعدّ أزهى عصر أدبي في الأندلس ، بل عندنا منهوسون يجروّون - فيزعمون بلاحيطة أو مبالاة - أن ينكروا الأدب العصري كله في جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربي في شتى لغاته وعصوره من غير أن يجشموا أنفسهم قراءة شيء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المنسرعين في الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى أكثر شباننا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندنا .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التي كتبها مدرسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فإن أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب اللغة في جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكمله ، ومن غير

(1) ومن هذه الأحكام قول أدب من هذا الطراز العجيب في هجاء هذا العصر الذهبي - عصر ملوك الطوائف - الذي لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« ذلكم عصر الاسترخاء والترّف . عصر تزيف فيه الأبصار والبصائر فتكل بما ورا . اقمشور والظواهر تهجع المناعم في ذلك العصر فنعيد الحواس ، ويموت الحب اغطرى فتدبح في رفاته ديدان السموات . وناهيك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حبا من الناس ، لأن البهائم لا تأمب بالحب ولا تبتذله في مثل هاته المصنوع يأخذ اناس من كل شيء ، بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحسن وأصفره . لا يكون الجمال فيها إلا صبغة في البشرة تلحمها الألسنة حتى نزول ثم تمجها بصاقا ، ولا تكون البساتين والأمواه إلا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الشعر إلا بهرجا برافا لو صورّ بشرا سوياً نالت منه الليون ما لا تنال النفوس ، وما الأخلاق والمروءة والشرف إلا آدابا يصطلع عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ماشاء المعاقر بعد ذلك من غي وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدر في آدابه . »

ان يدرس عصره وينقضي أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .
وعندنا أن الخلاصات المدرسية لا يمكن كتابتها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس
العصور والشعراء والأدباء وينقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع
واحيه ، فاذا تمّ ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة في صفحات قليلة للناشئين .
وقد تكافتت فئة من أعلام الباحثين في العصر الحديث كما قلنا على درس المتنبي وابن الرّومي
والمعري ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب المنصف بأن عندنا من الشعراء من
نباهى بهم ونفخر مغتبطين ولا تتردد في مقارنتهم بأ كبر شعراء الغرب .

وما كان في قدرة انسان أن يفهم جلال شعراء الغرب وكتابه ويقدر مواهبهم الممتازة
وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض النقاد والشرائح والباحثون لتجلية كل غامض وتوضيح مناحي
اتجاهاتهم الفكرية ، ولن يقتنع الشباب العربي بأن أدبنا زاخر بالشعراء الفحول الذين
لا يتخلفون عن أ كبر شعراء الغرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا وباحثونا لتحليل آثار القدماء
وتنظيمها وشرح غامضها وإزاحة الستور عن مناحي العبقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة
للشباب العربي ، وثم يرى شباننا أن هذه العقول العربية الكبيرة التي استوعبت أرقى
الحضارات في أزهي العصور وعبرت عن أخفى الخواج النفسية وأدقّ الاحساسات وأروع
الأفكار وأعمق الآراء ، جديرة بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها الفاتن .

وسيرى الشباب الذي نعلق عليه أ كبر الآمال في ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا
درسه بعناية وأناة ، ولم يكتف بتصفحه والمرور به على عادته - مرورا سرعيا ، أن ابن زيدون
كان جديرا بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة
في رسالتنا التي أفردناها لتحليل أدبه وعصره والتنبيه على دقائقه ومزاياه والامام بعصره الزاهي .
وبعض الناس يفضلون البحترى على ابن زيدون ، لأن ابن زيدون كان يحب به ،
وهو رأى مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كما إعجاب المعري بالمتنبي ، إعجاب عظيم بعظيم ،
ولو تقدّم ابن زيدون زمنه على زمن البحترى لفان البحترى بشعره ، واتخذ منه مثلا ينسج
على منواله وإماما يهتدى به في فنه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقرىّ زمانه قصر المحنون عن إحسانه
أخذ الروم - في الجزيرة - عنه وشوا في خياله وافتنانه »
« شوق »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فاذا امتاز المعرّى بالفلسفة في شعره وامتاز المنبئ بالحكمة ، وامتاز ابن الرومى بالغوص على المعانى النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخرجات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن جديس بالوصف فأى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التي تسكاد تفرده من شعراء العربية هي الفن . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكماً أو غوصاً على المعانى أو وصافاً .

الفن وحده هو الذى أ كسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعده بزمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفن الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأبى أنت هيكلا من فنون مركبا »

وإنك لترى صورته الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقلما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعانى إلا بزى ابن زيدون بفنه ، وأعجزه بديانه الساحر الممجّب . حتى البحترى الذى كان النقاد يلقبون ابن زيدون به ، كثيرا ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفوقت صور ابن زيدون على صور البحترى . وانما خصصنا البحترى بالذكر ، لأن البحترى هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحترى المغرب .

ومن العجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحترى فى عدّة صور شعرية - كما اشترك مع غيره من الشعراء - فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التي يبدعها الشاعران جديدة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التي أبدعها ابن زيدون جديدة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحيان .
قال البحترى :

« ولما حضر ناسدة الاذن أخت
فأفضيت من قرب - إلى ذى مهابة
كما انتصب الرمح الردينى . ثقفت
وكالبدر ، وافيناه ، تم سعوده
وسامت ، فاعتاقت جنائى هيبة
فلما تأملنا الطلاقة ، وانثنى
رجال عن الباب الذى أنا داخله
أقابل بدر التم حين أقابله
أنا يبيه ، واهتزلظعن عامله
وتم سناه واستهلت منازله
تنازعنى القول الذى أنا قائله
إلى بيشر آستنى مخاييله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ كريم يحياه سباط أنامله
 صفت - مثل ما تصفو المدام - خلاله ورق - كإرق النسيم - شمائله «
 وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ما عانا أداؤه وكل بما يرضيك داع فلهحف
 قرنا بحمد الله حمدك ، إنه لأوكد ما يحظى إليه ويزلف
 وعدنا إلى القصر الذي هو كعبة يغاديه منا ناظر أو مطرف
 إذا نحن طالعه والأفق لابس عجاجته والأرض بالخيال ترجف
 رأيناك في أعلى المصلى كأنما تطلع من محراب داود يوسف
 ولما حضرنا الأذن والدهر خادم تشير فيمضي ، والقضاء مصرف
 وصلنا وقبلنا الندى منك في يد بها يتلف المال الجسيم ويخلف
 لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة وأمنت حتى ما بقلب تخوف »

فأى الصورتين يفضل القارئ ؟

الحق ان الانسان ليحار في تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادنا نصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حد ، ولكن المنصف لا يلبث بعد طول الروية والأناة ، أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التي أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وقع كثير من القاد المعاصرين في خطأ شنيع حين تسرعوا في الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد في أكثر معانيه غير مبتدع ، وحسبوه لذلك ضحاح الفكر لا ينفذ شعره إلى الأعماق ، وقد عاب بعض المتسرعين في الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيروه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر ، كما عيروا ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفن - كما يقول أناتول فرانس - ليس في الإبداع والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث التافهة وسيلة إلى خلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر - إذا اشتركا في معنى من المعاني - بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق إليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقائقها .

فإن أمهات المعاني - كما قلت في كتابي « صور جديدة من الأدب العربي » مشتركة بين الناس - على اختلاف لغاهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم - وإنك لو حاولت أن تجد لأكثر المعاني أشباها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه بعد عام أو عامين - في شعر قديم أو حديث عربي أو غربي وقديما قال عنتره :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » وذلك أن النفس الانسانية - على اختلاف نزعاتها وشتى أحساسها وشعورها - تكاد لا تختلف في الشعور بأمهات المعاني ، وثمة تتوارد الخواطر . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان في أداء هذه المعاني ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع في صوغ الخواج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهئية الجو الرائع الذي تخالو فيه شاعر يته وعرض معانيه في أبهى صورها وأجل حلها .
ولنضرب للقارئ مثلا واحدا من أمثلة عدّة لا يتسع لها المقام :

لعلّ كثيرا من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن ما يضرّ واحدا قد ينفع الآخر .
هذا معنى شائع ميسور لسكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء في صوغه فظهرت في ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع .

وقد صاغه المتنبي في أبسط صورته فقال . « مصائب قوم عند قوم فوائد . »
وتناوله ابن الرومي من قبله بخلاه في صورة أخرى وهي قوله :

« فاشقتي إنما هجاؤك عندي ضحككات تزيد في السراء
ومحال أن يسعد السعداء الدهر الا بشقوة الأشقياء . »

فما طرقه المعرّي جلاه في أبداع صورته وأجلها فقال :

« وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الخابل . »

فمثل لنا - من ذلك المعنى الشائع المطروق - صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا - بريشة المصور الفطن - ظبية يوقعها القدر وسوء الحظ - ونكد الطالع في حباله النانص فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصيادا يراها - في هذه الحال من الألم والسخط - فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلا .

ولقد أحسن الجرجاني حين قال في ضمن فصل طويل نجح أن يرجع القارئ اليه في كتابه :
« وقد يتفاضل مدعو هذه المعاني - بحسب مراتبهم - فتشترك الجماعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى إليها - دون غيره - فيريك المبتذل في صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجاني لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التفريط - كما احترست من الافراط - فلا تكن كمن يرى السرقة لا تتم الا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاما ، بل لا يعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق - أيدك الله - داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمدّ من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه . »

ومن أجل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا - ثم العصر الذي بعدنا - أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانته بها أو لبعدها مطلبها واعتياص صرامها وتعذر الوصول إليها .

ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى - يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه السواوين - ثم لم يحظ أن يجده بعينه أو يجد له مثلاً يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر في حجة البحترى لما ادعى السرقة في قوله : -

« والشعر ظهر طريقاً أنت راكبه فنه منشعب أو غير منشعب

وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالی علی الطنب »

فاذا شئت أن نمثل لك من شعر ابن زيدون بما يؤيد هذا الرأي ، عرضنا لك نخبة موجزة من أقوال رجال البيان في بعض المعاني التي طرقها ابن زيدون . قال معاوية : « السرو التغافل » وقال المتنبي : « ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي »

وقال زهير :

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

وقال بشار :

« إذا أنت لم تشرب مزاراً على القذى ظممت وأمت الناس تصفو مشاربه

ففس واحداً أوصل أخاك ، فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه »

وقال أحد الشعراء :

« ومن يتبع جاهداً كل عثرة يجدها ، ولا يسلم له الدهر صاحب »

وقال آخر :

« اقبل معاذير من يأتيك معتدراً ان برّ عندك فيما قال أو جفراً

فقد أجلك من أرضاك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستترا »

الى آخر ما قالوه في هذا المعنى وهو كثير نجتزئ منه بما ذكرنا ، فهل ترى في كل ما قالوه

أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لابسة بهاءها وجمال الحسن في الخفر »

ألا ترى أن فن ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء الفحول الأفاذ وتوق عليهم في هذه

الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذي طالما تغنينا به وحسبنا قائله قد تخطى به درجات الكمال

والإبداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا اذا مازدته نظرا »

وقد أخذه ابن الرومي فقال في «وحيد» المغنية :

« ليت شعري ، اذا أعاد الينا
أهى شيء لاتسأم العين منه ؟
بل هى العيش لايزال-حتى استع
رض- يملئ غرابا و يفيد »

انظر كيف تلتف ابن زيدون فى نظمه وتحويره و فى أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن
صاغه ذلك الشاعر العبقري فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »

ومن اليسير على كل انسان أن يقرر أن حبيبه قد هجره وأنه لايزال باقيا على عهده .
ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدى هذا المعنى كما أداه المجنون يقول :

« وأدنتنى حتى اذا ماقتننى
تناءيت عنى حين لالى حيلة
بقول يحل العصم سهل الأباطح
وغادرت ماغادرت بين الجوانح »
ولا أن يقول مثل قوله أيضا :

« أليس وعدتنى ياقلب أنى
فها أنا تائب عن حب ليلي
إذا ما تبث عن ليلي تتوب
فمالك كلما ذكرت تذوب . »

أو يقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحض الود مدزمن
ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا »

فالآن أحد ما كنا له دكو
سلاوتم وبقينا نحن عشاقا (١) ؟ »

تلك صور فنية تنخلع دونها الرقاب ولا يحسن أن يقوها إلا شاعر فنى موهوب ، ولا تزال
أمهات المعانى كأصول لأنواع لاتكاد تختلف فى جلتها وان اختلفت فى دقائقها وتفصيلها ، وانك
ترى ألف حسناء فترى فى وجه كل منهم ملاحظة من الحسن لاتوجد فى الأخرى ، ولا يزال
الرسام يتفنن فى التعبير عن أسرار الوجوه و يبدع ماشاء ابداعه ، ولا يزال اللحن الواحد يؤديه
ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحرا خاصا يختلف عن الآخر .
وماز يد أن نخصّ ابن زيدون بالابداع فى كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تختلف عنهم
وقصر فى بعض قصائده كما يقصر الفحول أحيانا . الشعر كما يقول ابن الرومى كالشجر :

« ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشرك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك-إذا تصدّيت للتفضيل بين الشعراء-أن تقارن بين رواعهم
وبدائعهم ، أما مايقولونه عفو الخاطر، أو فى ساعات الكلال والضعف، فلست جديرا أن تحكم به
على شاعريتهم ، فقد تخرج الشجرة الممتازة-إلى ثمارها الشبيهة الغضة-ثمرة جفة فلا ينقص ذلك
من قيمتها . وما نريد أن نتصر لابن زيدون وأن نمدحه ولكننا نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

(١) هأنت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد، فهل تستطيع أن تفضل إحداهما عن الأخرى ؟ ألا ترى
أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى وكل الاستقلال وإن كانا تعبران عن معنى واحد ؟
ألا ترى إلى الصدق الذى يتمثل فى كل صورة بينهما ؟ ألاست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكا
للشاعر لا ينازع فيها الآخر ؟

لماذا سجن ابن زيدون ؟

لانكاد نقرأ تاريخ ابن زيدون في أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته حتى نقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به » .

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى ؟ ذلك مايقف أمامه مؤرخو الأدب من غير أن يتعرفوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعلل ذلك بانغماس ابن زيدون في حب وولادة وقالوا ان ابن عبدوس

وأخزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور - فى زعمهم - رجل ورع

يؤثر القوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا كإبن زيدون ، ونسى هذا

الفرق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان منغمسا فى حب وولادة وكان أكثر من

إبن زيدون خلاعة ومجوناً إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب ، فليس

من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل إبن زيدون ، فقد كان اذا قورن بغيره

من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة اتى الصقيا به مؤرخو الآداب ،

ولم يكن أبو الحزم بن جهور قاتنا متبلا ورعا منقشفا كما حاولوا أن يقنعونا به ، فقد كسر دنان الحجر

حين ولى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم وبعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد ورع .

وما كان أبو الحزم ليسىء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان

يلهبها ببلاغته ويغذيها ببيانه والذى كان لا يستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، تقول ليس أبو

الحزم الذكى الأريب - الذى شاد ملكا موطد الأساس بين الزعازع والفن - من الغفلة بحيث يأبه

لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك

أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

وانقد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير

المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت

أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسباب واحدا وتهمة لايتعداها

من شاء أن يدس أو يكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسبهم كل

يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على قلب الملك والطمع فيه .

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرّب الأمين عنده وكان أعزّ عليه

من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شئ الا سجنه وقتله

والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتضد رجة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله حنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شابا في مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التي دعا إليها آل جهور .
وكان أقرب شيء الى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزما وهمة ، والتي ظفرت بالوزارة
في مستهل حياتها السياسية أن تطمح الى ما هو أبعد من الوزارة .

وقد كان ابن زيدون كثير السفارات وكان موقفا محبوبا من ملوك الطوائف ذائع الشهرة
في عصره ، وكان قويا شديدا النكاية والسخرية بخصوصه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها
للانتقام منه الا الكيد له - على أسلوب ذلك العصر - عند ابن جهور بأنه غير مخلص
لعهده ولا أمين لأميده .

وما نبرئ ابن زيدون من تهمة التآمر فانه هو نفسه لم يتصل منها تنصلا واضحا صريحا ،
بل نحن لانرى في تصديقها حرجا فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولا تنفيها .

ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبي الحزم ثم عاد بعد وفاته الى ابنه أبي الوليد وبذل له
النصيحة كما بذل لأبيه ، وظفر عنده بأعلى مكانة ، ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد
وكاد - لولا فراره - يسجن من جديد ويقضى بقية عمره في السجن .

وقد اتصل بالمتعصّد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ولمامات المتعصّد أعادوا
الكرة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقرعهم المعتمد أشدّ تفرّيع وما زال
ابن زيدون الوفي الأمين المخلص للمعتمد ، حتى قربت منيته وقرب نجاح أعدائه في تغيير قلب
المعتمد عليه ، ولو طال عمره قليلا لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ما أصابه من أبي الحزم
وما كاد يصيبه من أبي الوليد بن جهور . ولكن المنية أنقذته من شرورهم وأحقادهم كما أسلفنا .
على أن سجن ابن زيدون قد ترك في نفسه الفتية الوثابة أثرا لا يوصف . وألمه الحكمة
والأناة والصبر وعامه مداراة الناس ومجاملة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة
العواقب وأن السهام « قلما اعتورت غرضا الا كلمته حتى يهوى ما اشتد من قوته » فلم يدخر
جهدا فيما بعد في اكتساب رضى العامة والخاصة ، حتى أجوه - الا القليل ممن دفعهم الحسد
والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد في اكتساب رضاهم وسل سخائمهم واحقادهم - وقد مات فبكاها
أهل أشبيلية وجزعت لفقده جبهة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التي نظمها في سجنه
آيات فذة من البيان العالى والشعر المعجز . ولا زال قوله :

« لا يهني الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغبط الأعداء كوني في السجن فانى رأيت الشمس تحصن بالسنن
وما كنت الا الصارم العضب في جفن أو الليث في غاب أو الصقر في وكن
أو العلق يخفى في الصوار ويخبأ »

الى آخر هذه القصائد الفذة التي كتب لها الخلود . مثالا عاليا للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعي أن يلتقى أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسي مدرب كإبن زيدون - وصل في مقتبل شبابه إلى أرقى الدرجات - كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوقه ويغارون من تقربه إلى الملوك الذين أكبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم، وقد لقي ابن زيدون في قرطبة جماعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق . ثم فرّ من السجن وعاد فاتصل بأبي الوليد بن أبي الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، فقرّب ابن زيدون خوفا من السجن وما زال ينتقل بين ملوك الطوائف حتى استقرّ به النوى في اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعتهم مثل مالتى في قرطبة ، ولكن مدائح الخالدة التي مدح بها المعتضد والتي تعدّ من مفاخر الشعر العربي وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون وبعده نظر المعتضد تغلبت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلتها في المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم في برى أنوف عصابة لقاؤهم جهم وأعينهم شزر »

« إذا ما انتنى في الدست عاقد جبوة وقام سهاطا حفله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعدوا الكرّة وجعوا جوعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد صدّهم أشنع صدّ وقربه إليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفي ذلك يقول :

« يطيل العدا في التناجي خفية يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة إلى اشبيلية منتهزين فرصة مرضه فسار إليها مرغما حيث لقي حفته . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه في التخلص من منافسة ابن زيدون . ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أبي الحزم وأبي الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لا يذائنه وأرهقوه بدسائسهم المتوالية ، والحسد داء قديم وكلم لقي الأدباء والشعراء الممتازون منه مانعص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم .

وقد لقي المتنبي قبله في مجلس سيف الدولة من حسد أبي فراس وإبن خالويه ، ثم لقي عند كافور الاخشيدى من حسد ابن حنزابه ، ثم لقي في بغداد من حسد الوزير المهلبى الذى أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمي وإبن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وقاده إلى حفته .

وقد كان يبلغ المتنبي بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتمكم لا يصون العرض جاركم ولا يندر على مرعاكم اللبّن

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كلّ غريب عنكم ضغن . »

الى آخر ما قال .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالعتضد ما يسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم فؤادى فبال المدائح تعبق
تعدوني كالعبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »

وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه
لا تخش في حقى بما أمضيته
لم تخط في أمرى الصواب موقفا
هذا جزاء الشاعر الكذاب . »

وقوله :

« من مبلغ عنى البلاد اذا نبت
أما الهوان فصنت عنه صفحة
فليغرم الحظ المولى أنه
ان الغنى هو القناعة لا الذى
أن لست للنفس الألو ف يباح
أغشى بها حدّ الزمان الشارع
ولى فلم أتبعه خطوة تابع
يشف نطفة ماء وجه القانع »

الى آخر ما قال .

وقد كان لهذه المنافسات أثرها العظيم فى اجادة الشعراء و اظهار أروع ما قاله من الشعر ، وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود »

وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المعتضد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أوها :

« يأبها الملك العلى الأعظم
واقسم بسيفك داء كل منافق
اقطع ويريدى كل باغ ينثم
يبدى الجميل وضد ذلك يكتم »

فكان ردّ المعتمد على ذلك قوله :

« كذبت مناكم صرّحوا أوججموا
خنتم ورهتم أن أخون ، وربما
الدين أمتن والسجية أكرم
حاولتم أن يستخف ياعلم (١) . »

(١) وفيها يقول

« وأردتم تضيق صدرم يضق
وزحقتم - بمجالكم - لمجرب
أنى رجرتم غدر من جر بتم
أنا لكم لا البنى يشمر غرسه
كفوا ، والافارقبوا لى بطشه
والسر فى ثمر النجور تحطم
ما زال يثبت له حال فيمزم
منه الوفا ، وظلم من لا يظلم
عندى ولا منى الصنيعة يهدم
يلقى السفينة بمنثاها فيحلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد في قصيدته الرائعة التي يقول فيها :

« وأرى المساعي كالسيوف تبادرت
ولكم تسامى بالرفيع نصابه
وفيها يقول ويبدع :

« قل للبقاة المنبضين قسمهم
ستر من تصميه تلك الأسهم
أسررتهم ، فرأى نجي عيوبكم
شبحان ، مدلول عليها ملهم
وعبأتم - للفسق - ظفر سعاية
لم يعدكم أن ردّ وهو مقلّم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم
فغدا بغيضكم التقى الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحيله -
عن عهده - دغل الضمير مذموم «
وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوت ، فزأرت زائرة زاجر
راع الكليب بها السدتي الضيفم
يألت شعري هل يعود سفهمهم
أم قد حماه النبح ذاك المكعم
لى منك - فليذب الحسود تلفيا -
لطف المكانة والمحل الأكرم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلى
غض الشباب وكل حظ يهرم . «
الى آخره القصيدة الرائعة :

وقاما تحلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها خلقا ، ويتطرق منها الى الشكوى والألم
من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وعنهم .
ومن أروع ما قاله في ذلك ، قوله من قصيدة :

« كان الوشاة وقد منيت بأفكهم
أسباط يعقوب وكنت الذيبا «
الى أن قال :

« أنا سيفك الصدى الذي مهما تشأ
تعد الصقال اليه والتدريا «
وقوله :

« ايه «أبا الحزم» اهتبل غرة
ألسنة الشكر عليها فصاح
لا طار بي حظ إلى غاية
ان لم أكن منك مريش الجناح
عتباك - بعد العتب - أمنية
مالي على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ماجرى
قد يرقع الخرق وتؤمى الجراح «
وقوله :

« ماجال بعدك لحظي في سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر «
إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا
غايانه بأفانين من النظر . «
إلى أن قال :

« من يسأل الناس عن حالي ، فشاهدها
لم تطو برد شبابي ككبرة وأرى
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كشب
ها انها لوعة في الصدر قاذحة
لايهنى الشامت المراتح خاطره
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟
إن طال في السجن إيداعى فلا عجب
وان يثبط - « أبا الحزم » الرضى - قدر
ماللذنوب - التي جاني كباثرها
من لم أزل من تأنيسه على ثقة
إلى أن قال :

« لاتله عنى فلم أسألك معسفا
واستوفر الحظ من نصح وصاغية
هبنى أسأت فكان العلق سيئة
ان السيادة بالأغضاء لابسة
وقال :

« ولو أنتى أسطيع كى أرضى العدا
شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »
إلى أن قال :

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى
ثوى صافنا فى مرابط الهون يشتكى
تمطر فاستولى على أمسد الخصل
بتصهاله ماناله من أذى الشكل . »
إلى أن قال :

« أعدك للجلى وآمل أن أرى
بنعماك موسوما وما أنا بالغفل . »

ثم قال :

« أن زعم الواشون ماليس مزعما
وأصدى إلى إسعافك السائغ الجنى
* ولو أنتى واقعت عمدا خطيئة
فلم أسترحب « الفجار » ولم أطع
وانظر إلى قوله :

« فديتك كم ألقى النواغر من عدا
عفا عنهم قدرى الرفيع فأهجرها
قراهم - لنيران الفساد - تقاب
وبانهمم خلق الجيسل فعاوبوا »

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه
إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدى منته
وما السيف مما يستبان مضاهه
وقوله :

« لاستجز وضع قدرى بعد رفعك
إلى أن قال :

« ظن العدا إذ أغبت - أنها انقطعت
لابأس بالأمر - ان ساءت مبادئه
إلى أن قال :

« كم غرة لى تلقها قلوبهم
إذا تأملت حبي عتب غشهم
تلك العرازين لم يصلح لها شم
أودعت نعامك منهم شرمقترس
لازال جدك بالاعداء يصرعهم
كما تلقى شهاب الموقد الشمع
لم يخف من فلق الاصبح منصدع
فكان أهون ما نيلت به الجذع
لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
ان كان بين جدود الناس مصطرع

ومأروع قوله معتذراعن هجره ابن جهور : « وهو يرى ويسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم
العد ، تحتمل سقطاتهم وتعترف هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة الا شاركتهم
فيها ولا يمنون بذريعة ينفردون دوني بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها
جفاء هو الليل ادلم ظلامه
هب العزل أخصي للولاية غاية
فقيم أرى ردّ السلام إشارة
أناس هم أخصي للذعة مقولى
وقوله :

وقد كان يجلو عارض الهم أن أدرى
فلا كوكب للغدر فى أفاقه يسرى
فما غاية الموفى من الظلّ أن يكرى
تسوغ بى ازراء من شاء أن يزرى
إذالم يكن مما فعلت لهم مضر

فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
تخونه شكل وأزرى به ربط
وماذم من غريبه قدّ ولا قط
« ألا هل أتى الفتیان أن فتاهم
وأن الجواد الفاتت الشأو صافن
وأن الحسام العضب ثار بجفنه

وقوله :

« مئون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وان لم يبد شد ولا قبط . »

وقال :

« وما زال يدنيني ، ويثني قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عنى فأصغى الى عدا
بلغت المنى إذ قصروا فقلوبهم
لهم في أدبي كلما استمكنوا عط
مكامن أحقاد أسودها رقط . »

وقوله :

« ومثلى قد تهفوبه نشوة الصبا
وانى لتهانى نهائى عن التى
ومثلك قد يعفو ، ومالك من مثل
أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الخنا
ولا بالمسئء القول فى الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هى النعل زلت بي ، فهل أنت مكذب
لثقل الأعدى انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن ظنى - بين فعليك - واقف
وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا
إذا سألتنى بعد ألسنة الحفل . »

إلى آخر ما أبدعته هذه العبقرية الجبارة ، من الافتنان البارع ، فى صورها الشعرية التى لاتسامى .

٤ - حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالانسان فينساها ولا تكاد تترك في نفسه أثرا يذكر ، على أن لبعض الحوادث أثرا لا يمحي ، حيث تمرّ الأيام والشهور والسنون وهو باق في ذهنه يؤثر فيه أعمق الأثر ، ويطبع نفسه بطابع خاص ، ومن الحوادث التي أثرت في نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر ، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين .

فأما حب ولادة فقد ألّب نفسه إلهابا وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت في ضروب الغزل ماشاء لها أن تبديع ، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية ، وأهملته أسمى ألوان الخيال العالي والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك »

وقوله :

« أما منى نفسى ، فأنت جميعها ياليتنى أصبحت بعض منك
يدنو بوصولك حين شط مزاره وهم أ كاد به أقبل فالك »

وقوله :

« كان التجارى بمحض الودّ مذمّن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أجد ما كنا لعهدكم سألوتم وبقينا نحن عشاقا »
وقوله في نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لأشتهى إلا بوصول قصرك
« لو كان عندى قرى مابت أرعى قرك »

وقوله :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الأسرار لم يذع »

وقوله :

« بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت ما قينا
إلى أن يقول :

« ما حقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا »
« فأنحلّ ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لاستجدن - فى عشقى لها - زمنا ينسى سوائف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحببت خاتمة - نسخت - في جها - كفرا بإيمان «
وقوله :

« إن ساء فعلك بي ، فما ذنبي أنا ؟ حسب المتيم انه قد أحسنا
لم أسأل حتى كان عذرك - في الذي أبديته - أخفى وعذري أينا
ولقد شكوتك - بالضمير - الى الهوى ودعوت - من حنق - عليك فأما
منيت نفسي - من وفائك - ضلة ولقد تفرّ المرء بارقة المنى «
وقوله :

« أغابته عني وحاضرة معي أناديك - لما عيل صبري - فاسمعي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى حريقا بأنفاسي ، غريقا بأدمعي
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟ جعلت الردى منه بمرأى ومسمع
صليتي - بعض الوصل - حتى تبيني حقيقة حالي ، ثم ما شئت فاصنعى «
وقوله :

« قد كان - في شكوى الصبابة - راحة لو أننى أشكو إلى من يرحم «
وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني منك واتقدت - في صدر كل عدوّ - جرة الحسد
فليسخط الناس لأهد الرضى لهم ولا يضع لك عهد آخر الأبد
لو استطعت - اذا ما كنت غائبة - غضضت طرفي فلم أنظر الى أحد «
وقوله :

« ياليل خبر : انى التذ عنه خبرك
بأنه قل لى : هل وفي ؟ فقال : « لا . بل عذرك »

وقوله :

« لئن فاتني منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وان عرضت غفلة للرقي ب غسبي تسليمة تختصر
أحاذر أن تتظني الوشاة ، وقد يستدام الهوى بالخدر
واصبر مستيقنا انه سيحظى - بنيل المنى - من صبر «

وقوله :

« أشمت بي فيك العدا وبلغت - من ظلمي - المدى
لو كان يملك فدية - من حبك القلب افتدى
كنت الحياة لعاشق - مذحت - أيقن بالردى

لم يسئل عنك ولو سلا
لعذرتة ، فبك اقتدى «
وقوله :

« أبديت لى - من أفانين القلى - عبرا
لم تبقى جارحة بالهجر من جسدى
فليغن كففك انى بعض من ملكت
ولقضى ماشئت - من هجر ومن صلة -
سقىا لعهدك والأيام تقبلنى
إذ الزمان بليغ فى مساعـدتى
ان كان لى أمل الا رضاك فلا

وقوله :

« انى لأعجب من شوق يطاولنى
كم نظرة لك فى عينى علمت بها
قلب يطيل مقاماتى لطاعتكم -
ماتوبتى بنصوح - من محبتكم

وقوله :

« معاهد هو لم تزل فى ظلالها
زمان رياض العيش خضر نواضر
فان بان منى عهدها ، فبلوعة
تذكرت أباى بها فتبادرت
وصحبة قوم كالمصايح كههم

الى أن قال :

« محل غنينا بالتصانى خلاله فأسعدنا ، والحادثات نيام
فما لحقت تلك اللبلى ملامة ولا ذم - من ذاك الحبيب - ذمام «

وقوله : وهو ببطلوس من قصيدة رائعة :

« إن قررت العين بأن أعبوا
لم آل أن أسترضى الغضوبا
حسبى ان أحرم المغيبا
قد ينفع المذنب أن يتوبا «

وقوله :

« لم ينجنى منك ما استشعرت من حذر
هاهنا كيد الهوى يستهلك الحذرا
ما كان حبك الافتنة قدرت
هل يستطيع فنى أن يدفع القدرا «

وقوله :

« ما الذى ضرك لو سسر بمراك الحزين

وتلطف لـصـب حينه فيك يحين «

وقوله :

« ماضر لو أنك لي راحم
يهنيك يا سؤلى ويا بغيتى
تضحك في الحب وأبكي أنا
أقول لما طار عنى الكرى
يا نأماً أيقظنى جـهـه
وعلى أنت بها عالم
انك مما أشتكى سالم
الله - فيما بيننا - حاكم
قول معنى قلبه هأم
هب لي رقدا أيها النأم «

وقوله :

« هلا جعلت - فدتك نفسى غاية
لا تفسدن ما قد تأكد بيننا
حاشاك من تضييع ألف وسيلة
ان أجنه خطأ فقد عاقبتنى
للعتب أباغها بجهد الجاهد
- من صالح - خطرات ظن فاسد
شجى العدو لها بذنب واحد
ظالما بأبلغ من عقاب العامد «

وقوله :

« علام اطلبك دواعى القلى ؟
ألم الزم الصبر كما أخف ؟
ألم أرض منك بغير الرضى
ألم اغتفر موبقات الذنوب
وما ساء ظنى فى أن يسىء
على حين أصبحت حسب الضمير
وصانك منى وفى أبى
وفيم ننتك نواهى العذل ؟
ألم أكثر الهجر كى لأمل ؟
وأبدي السرور بما لم أنل ؟
بعمدا أتيت بها أم زلل ؟
بى الفعل حسنك حتى فعل
ولم تبغ منك الأمانى بدل
لعلق العلاقة أن يتبدل «

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع
وما باختيار تسليت عنك
ولم يدر قلبى كيف النزوع
إلى آخر هذه القصيدة التى تخلق بك فى جو العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها
من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يا من غدوت به فى الناس مشتهرا
قلبي عليك يقامى الهمم والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى
وان حضرت فكل الناس قد حضرا «

وانظر إلى قوله وقد هاجته الذكري الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحي وحاك عليها ثوب وشى منمنا
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غض والزمان غلام »

وما أروع قوله فى تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع فما أنا فى شىء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورتت - على مر الليالى - رسومه
وكم رقى فيه - بالعشى - نسيمه ، ولاحت - لسارى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله فى ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقرطبة الغراء ، هل فىك مطمع وهل كبد حرى لبيك تنقع
وهل للياليلك الحميدة مرجع اذ الحسن مرأى فىك واللهم مسمع
واذ كنف الدنيا لبيك موطأ »

« أليس عجيبا أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس ففح جنابك
ولم يلتئم شعبي خلال شعابك ولم يك خلقى بدوّه من ترابك
ولم يكتفى - من نواحيك - منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكيها العهد تصرما أغض من الورد الجنى وأنعما
لبسنا الصبا فيها حبيرا منمنا وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن رده والغداوة مرأبأ »

وقوله :

« إخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سيدلوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقبل الجد ، واجد عاثر
وتحمد عقبى الأمر مازال يشنأ »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالذنية أدنا . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والثى كان
الباعث الأول على نظمها العجيب وصوغها الممجز هو حب ولادة .

هـ - أدب ابن زيدون

قلما يظفر الانسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين في النظم والنثر ، فإن أغلب ما شاهدته أن يبدع الأديب في أحد النوعين إبداعا يعطى على إبداعه في الآخر ، أما ابن زيدون فانك تقرأ نثره فلا تكاد تصدق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية ، فإذا عدت الى شعره أنسك إبداعه روعة ما قرأت من نثره ، وهكذا لانكاد نقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا وينسبك سحرها كل شيء آخر . وليس من الانصاف أن تقول إنه شاعر ممتاز فحسب أو نائر ممتاز فقط ، وما أجدرنا أن نصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربي .

لقد قضى ابن زيدون حياته بين اللرس والتحصيل والتجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم ، وصهر قلبه حب ولادة كما أسلفنا ، وحنينه الى وطنه ، وأثر في نفسه الشاعرة الحساسة ما تمازت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجو ، ولقي من السعادة والتمتع بالحسن أشبهى وأعذب مالم يلقى محب ، ثم لقي من لوعة الصدا والهجران أشقى وأمر مالم يلقى إنسان : « حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوة حينما من الدهر ثم شقى بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمنا غير قليل ، ولقي من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا مالم يلقه أحد ، فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم . وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيت خليقا بأن يقول كما قال فيلسوف المغرب :

« مامر في هذه الدنيا بنو زمن — إلا وعندي من أخبارهم طرف »

ولقد ترى في أدبه أمثلة من ثقافة المعرى وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة ، ومحافظته على أساليبها ، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبي تمام ونظم البيهتري واسترسال ابن الرومي وقوة أداء المتنبى .

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخييل اليك سهولته أنك تحلق في أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ اخوانياته فيخييل اليك لاسترساله وافتتانه في ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسالته فيخييل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف والنهكم أو رسائل المعرى في سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره في الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهي وثقافته .

وقد كان يجمع - إلى حسن رويته - قوّة الذلاقة وسرعة البديهة ، وقاما يتفق لأديب عمق التفكير مع ذلاقة اللسان ، فقد روى صاحب نفع الطيب محدثنا عن ذلاقة ابن زيدون : أن ابتته توفيت ، وبعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل ، إنه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدي : « وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » الى أن قال - بعد أن قارن بينه وبين واصل بن عطاء في تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول في حقه : « أقلّ ما كان في تلك الجنازة - وهو وزير - ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له ويضطرّ الى ذلك فيحتاج في ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنّه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقت بسحائب . »

ومهما كان في هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف في الدلالة على فضله .

وكان ابن زيدون إلى ذلك إماما من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه :

« من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وتفقه للشافعي وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » .

كامل كيلاني



في السجن (١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفيضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو في السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسٍ^(٢) يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو^(٣)
رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْءِ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُ
وَلَقَدْ يُنَجِّيكَ إِغْفَاءً لَوْ يُرِيدُكَ^(٤) أَحْتِرَاسُ
وَالْمَحَازِيرُ سِهَامٌ وَلَكُمْ أَجْدَى^(٦) قُعُودٌ
وَكَذَا الدَّهْرُ^(٨) - إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ - ذَلَّ نَاسٌ
وَبَنُو الْأَيَّامِ أَخِيًّا فِي سَرَاةٍ وَخِسَّاسٌ^(٩)

(١) جاء في قلائد العقيان :

« وله عند فقد الوفاء من ألافه ، يخاطب أبا حفص بن برد ، وقد حار ولم يجد هادياً ، وصار رهيناً لا يرجو فادياً ، وعلم أن الناس متقلبون ، وعلى من اتقلب الدهر منقلبون ، لا يدنبهم في الشدة إخاء ، ولا يشبههم عن ذوى الخطوة زهو ولا ابتغاء .

ما على ظنني بأس يجرح الدهر ويأسو

وقد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذي نقله عن نسختي الديوان .

(٢) وروى : « ما على ظني بأس » . (٣) يداوى . (٤) وفي رواية : « وبؤذك احتراس »

(٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبي عبيد فهو على فعال ، وأصله قواس قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ، وشاهده قول القائل :

« ووتر الأساور القياسا صغدية تنتزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد . (٧) اخفق ولم يفز - يقول : كثيراً ما يكون التعمود عن المطلب سبباً في

الظفر والفوز والسمي سبباً في الاخفاق والحرمان ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيراً ، ومن أحسن ما جاء فيه قول بن زريق :

والسمي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي ألا إن بني المرء يصرعه

(٨) في رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخيف : أي مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخيف وشقي في الشيم »

نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مُتَعَةً ذَاكَ اللَّبَاسُ (١)
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَأَ وَكَ فِي فَهْمِ إِيَّاسٍ (٢)
مِنْ سَنَاءٍ (٣) رَأَيْكَ لِي فِي غَسَقِي (٤) الْخَطْبِ اقْتِبَاسُ
وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ (٥) لَمْ يُخَالَفْهُ قِيَاسُ (٦)
أَنَا حَيْرَانُ وَاللَّامِرُ وَضُوحُ وَالتَّبَاسُ
مَا تَرَى فِي مَعْشَرِ حَا لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا (٧)
وَرَأُونِي سَامِرِيًّا (٨) يُتَّقَى مِنْهُ الْمَسَاسُ
أَذُوبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَأَنْتَهَاشُ (٩) وَأَنْتَهَاشُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَن حَا لِي وَلِلذُّبِ اعْتِسَاسُ (١٠)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :

والألمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وإياس هذا هو من عناء الحريرى بقوله في المقامة السابعة « فاذا ألمعيتى ألمعية ابن عباس ، وفراسقى فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السينية بقوله :

اقدم عمر في ساحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٣) من ضوء رأيك (٤) ظلمة (٥) النص : السند المقطوع بصحته والتعيين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع بصحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إن وداى مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو متعين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظي النص والقياس في الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من ما أخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح لفظ القرآن أو الحديث ، والثاني لإلحاق قضية - لا نص فيها - بقضية أخرى منصوطة لاشتراكهما في علة حكم الأولى (٦) وفي رواية : القياس

(٧) خانوا (٨) السامرى : عظيم من بنى إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بعقوبة لاشيء أظم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مسّ أحداً رجلاً أو امرأة حمّ المسلس

والمسوس ، فتحلى الناس وتحاموه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .

(٩) الانتهاش بالشين : الأخذ بالأضراس ، وبالسين : الأخذ بقدم الأسنان ، وفي رواية : فانتهش وانتهش (١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئاب لا ينون عن نيش لحمه ، متظاهرين بالتودد له

والاشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

* * *

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلَمَّا ۚ مِنْ الصَّخْرِ أَنْبِجَاسُ (١)
وَلَكِنْ أَمْسَيْتُ مَجْبُوسًا ۚ فَلَلَّغَيْتُ أَحْتِبَاسُ
يَلْبُدُ (٢) الْوَرْدُ السَّبْتِيُّ ۚ وَلَهُ بَعْدُ أَفِيرَاسُ

* * *

فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَغْشَى ۚ مُقَلَّةَ المَجْدِ النُّعَاسُ
وَيَفْتُ المِسْكَ فِي التُّرْبِ ۚ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

* * *

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا ۚ إِنْ عَهْدِي لَكَ آسُ (٣)
وَأِدِرْ ذِكْرِي كَأَسًا ۚ مَا أُمْتَطَتْ كَفَّكَ كَاسُ
وَأَغْتَنِمْ صَفْوَةَ اللَّيَالِي ۚ إِنَّمَا العَيْشُ اخْتِلَاسُ
وَعَمَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْرُ ۚ رُ فَقَدْ طَالَ الشَّمَّاسُ (٤)

(١) أى تشقق ينبع منه الماء ، وفي القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » (٢) يلصق بالأرض ملازماً عرينه لا يبرحه والورد من أسماء الأسد ، والسبتى الجرى ، ومنه فى صفة أبى لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قول الشماخ :
جزى الله خيراً من إمام وباركت
يد الله فى ذاك الأديم الممزق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته
بكفى سبتى أزرق العين مطرق
والسبتى النمر أيضاً ، وفى الذخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبتى البيت ، كقول النابغة :
وقلت يا قوم ان اليت منقبض
على برائنه للوثبة الضارى
وأخذه ابن الرومى فقال :

سكنت سكوتاً كان وهناً لوثة
عماس كذاك اليت للوثب يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد فى سرعة الذبول ، فان عهدى دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

ولكننى شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم

(٤) وفى رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى أن عصيان الدهر وتمردده قد طالا .

ذكرى أيام الوصال^(١)

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذة ، يتحسر فيها على
انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح
والألم القاسي ، وقد بعث بها إلى حبيته «ولادة بنت المستكفي»
أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام
الوصال السابقة »

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا	وَنَابَ ^(٢) عَنْ طَيْبِ لَقِينَانَا بِحَاجِفِينَا
أَلَا ^(٣) وَقَدْ حَانَ صَبْحُ الْيَمِينِ صَبَحَنَا	حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مَبْلَغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِرَاجِهِمْ	حُزْنَا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُؤَلِّمِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا	أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَامِينَ تَسَاقِينَا الْهُوسَى فَدَعَوْا	بِأَنَّ نَعَصَّ ^(٤) فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَأَحْلَى مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا	وَأُنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

(١) جاء في قلأند العقيان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليتها ، وقبائح
كان ينسبها اليه وواليتها ، أحقدت بني جهور عليه ، وسددت أستمهم اليه ، فلما رئس من لقيائها ، وحجب
عنه محياها ، كتب اليها يستديم عهدهما ، وبؤكدها ، ويمتنع من فراقها بالخطب الذي غشبه ، والامتحان
الذي خشيه ، وبعلمها أنه ماسلا عنها بخمر ، ولا خبا ما بين صلوعه لها من ملتب جمر ، وهي قصيدة ضربت
في الابداع بهم ، وطلعت في كل خاطر ووهم ، وترعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم »
وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء - من قداما ، ومحدثين - وقد أثبتنا شيئاً من ذلك في غير هذا
المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء (٢) رواية الديوان « بان » .
(٣) لفظة في هلا ، والحين الهلاك ، والمعنى هلاصبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق - كأن الهجر والموت
في نظر الشاعر سريان مادام كلامها يبعده عن محبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما
الهجر فانه عن اختيار (٤) غص بالماء شرق به أو وقف في حلقه .

*
* *

يَأْتِيَتْ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ^(١) أَعَادِيكُمْ
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَىٰ أَعَادِينَا
رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
بِنَا وَلَا أَنْ تَسْرُوا كَأَسْحَا فِينَا

*
* *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ نُسَلِّينَا عَوَارِضُهُ
بِنْتُمْ^(٢) وَبِنَا فَمَا أُبْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
وَقَدْ يَدْسِنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا^(٣)
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى^(٤) لَوْلَا تَأْسِينَا^(٥)
سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ يِيضًا لِيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلَّفِنَا
وَإِذْ هَصَرْنَا^(٦) فُنُونٌ^(٧) الْوَصْلِ دَانِيَةً
لِيُسْقَ^(٨) عَهْدُكُمْ عَهْدَ السَّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
إِنْ طَلَمَّا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِصِّنَا

(١) أعتبه أعطاه العُتْبَى أي أَرْضاه ، يقول : إننا لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا

(٢) كنا نظن أن اليأس يسلي ، فما بال يأسنا منكم يزيدنا ولو طابكم ، وفي هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتي يا قلب اني إذا ماتبت عن ليلي تنوب

فها أنا تأب عن حب ليلي فإلك كلما ذكرت تذب

(٣) بعدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر العصب : إمانته (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فنن ، وهو العصب وما تشعب

منه ، في اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون في الأغصان ، والأغصان تكون في الشعب ، والشعب تكون في السوق) فكان الشاعر استعمار للوصل أفنانا يهصرها أي يميلها إليه كلما أراد انتظاف زهرها ،

واجتناء ثمرها (٨) أي سقياً لعهدكم عهد السرور أي بابدال الثاني من الأول لتبيينه وتعريفه

وَاللَّهِ مَا طَلَبْتِ^(١) أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَا سَارِيَّ الْبَرْقِ غَادِ^(٢) الْقَصْرَ وَأَسْقِ بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَاكَ هَلْ عَنِّي^(٣) تَذَكَّرْنَا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعِفَةً^(٤)
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
إِلَّا تَذَكَّرُهُ أَمْسَى يُعَيِّنَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا^(٥)

* * *

رَيْبُ مَلِكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا^(٦) مَحْضًا وَتَوَجَّهَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَةَ
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلْرًا^(٨) فِي أَكْلَتِهِ^(٩)
مِسْكَ^(٥) وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
مِنْ نَاصِعِ الثَّبْرِ إِبْدَا مَا وَتَحْسِينَا
تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَتُهُ الْبَرَى لِينَا^(٧)
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
زَهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَرْبِينَا^(١٠)
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ

(١) وفي رواية : « ما اطرفت » استحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدثت هوى جديداً بعد هوى أحبابه ، (٢) باكره بالنعيم أول النهار (٣) هل شغل من نألفه تذكرنا كما شغلنا تذكره . (٤) الغب في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :
لنا لم تنقاص الوصال من الدهر غبا ، ولكننا تقاضيناها بالحاح فهل ترى الدهر - بعد هذا - يسعنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال الشعراء المحبون يتغالون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيراً لمحبوبته :
أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماه

(٦) فضة ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجه بشعر ذهبي (٧) يقول إذا تثنى آدته أي أثقلته وشق حملها عليه (توم) أي لآلىء العقود وجرحته (البرى) أي الخلائيل ، وذلك لرفاهته (٨) مرضعة (٩) جمع كلة : وهي ستر أرقيق بقي من البعوض (١٠) يعني أن جماله استعمار زهر الكواكب لتكون زينة له ، وتعويذه من عيون حاسديه

مَاضِرٌ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاوُنِنَا

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتُ لَوَاحِظِنَا وَزِدَا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلِّينَا ^(١) بَزْهَرْتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلَدَاتِ أَفَانِنَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ^(٢) فِي وَشِي ^(٣) نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِيَّ عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا سُورِكْتَ فِي صِفَةٍ فَحَسَبْنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدَلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالكَوْثِرِ الْعَذْبِ زُقُومًا وَغَسَلِينَا
كَأَنَّكَ لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ ^(٤) مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا ^(٥)
لَا غَرَوْ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ مَهَّتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأُسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

(١) تمتعنا ونعمنا

(٢) نصرته وخفضه (٣) في نعمى كالثوب الضافي ذي الوشى أى النمش .

(٤) أنامه عنا فلم يش بنا

(٥) قال ابن بسام : وهو معنى مشهور وهو في الشعر كثير ، قال أبو الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثى وبياض الصبح يغرى بى

على أن أبا الطيب أجاد وكرره في مواضع من شعره كقوله :

لأتلق إلا بليل من توصله فالشمس نمامة والليل قواد

وكل من إلى هذا المعنى أشار ، فغوالى المثل دار ، وهو قولهم : « الليل أخفى للويل »

قول : ولم تر في هذه المعانى التى ذكرها ابن بسام أدق وأظرف من قول ابن زيدون :

« سران في خاطر الظلماء » الخ

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوْكَبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَسْبِ
نَأْسِي عَلَيْكَ إِذَا حُمَّتْ مُشْعَشَعَةٌ (٣)
لَا كَوْسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةٌ
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَا (٥) نَحْوَنَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ
أَبْكَى وَفَاءً - وَإِنْ لَمْ تَبْذُلْ صِلَةً -
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
عَدْلِكَ مِنَّا سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ

شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا (١)
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ تَهْجُرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدَدْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا (٢)
فِينَا الشَّمُولُ وَعَنَّانَا مُغْنِينَا
سِيمَا أَرْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِمِينَا
فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا (٤)
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَدْنِينَا
بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا
فَالطَّيْفُ يُقْنَعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
بِيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَارَزْتَ تُولِينَا
صَبَابَةً بِكَ نُخْفِيهَا (٦) فَتَخْفِينَا

(١) قال ابن بسام : « وهذا معنى متداول من أشهره قول القائل :

ريق إذا ما ازددت من شربه ربا ثناك الرى ظمانا

كالحر - أروي ما يكون الفقى من شربها - أعطش ما كانا

ولابن الرومي فيما يناسبه من بعض الوجوه :

« يارب ريق بات بدر الدجى يعجسه بين ثناياك

يروى ولا ينهاك عن شربه والماء يرويك وبنهاك »

(٢) لم تتجنبه عن كسب أى قرب اختياراً ، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا .

(٣) مزوجة : أى نحرز لغيابك من مجلسنا إذا حثت الشمول للمزوجة (٤) دومي محافظة على

العهد مادما محافظين فالحر المنصف يجرى كما جوزى

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته ، وخفيته أخفيه تأتى بمعنى سترته ، ومعنى أظهرته ،

وعلى ذلك فقوله « نخفيا » أى نسترها « فنخفينا » بفتح أوله أى تظهرنا ، وشاهد خفاء يخفيه بمعنى

أظهره . قوله :

فان تكتموا السر لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا تعد

وقوله تعالى فى قراءة « أكاد أخفيها » بالفتح أى أظهرها .

في مدح ابن جهور^(١)

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هَلَّا مَرَجَتْ لِعَاشِقِيكَ سُلَافَهَا يَبْرُودُ ظَلَمَكَ أَوْ بَعْدَ مَلَاكَ^(٢)
بَلْ مَاعَلَيْكَ وَقَدْ مَحَضْتُ^(٣) لَكَ الْهُوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِمُحْضَوَةِ الْمِسْوَالِ^(٤)
نَاهِيكَ ظَلَمًا أَنْ أَضْرَبِي الصَّدَى^(٥) بَرَحًا^(٦) وَنَالَ الْبُرءُ عُرْدُ أَرَاكَ

* *

وَاهَا لِعِطْفَاكَ وَالزَّمَانُ كَأَنَّهَا صَبِغَتْ غَضَارَتُهُ^(٧) يَبْرُدُ صِبَاكَ
وَاللَّيْلُ مَهْمًا طَالَ قَصَرَ طَوْلُهُ هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكَ
وَأَطَا مَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلْتُهُ شَكُوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكَ
إِنْ تَأْتِي سِنَةَ النَّوْمِ خَلِيَةً فَلَطَا مَا نَافَرْتِ فِي كِرَاكَ^(٨)
أَوْ تَحْتَبِي بِالْهَجْرِ فِي نَادِي الْقَلَى فَلَكُمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكَ^(٩)

* *

أَمَّا مَنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مَنَاكَ
يَدْنُو بِوَصْلِكَ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ وَهَمُّ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلُ فَالِكَ

(١) تصدى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه الفصيحة وقد ذكرنا طرفا من ذلك في غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللمى : سمرة في الشفة (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك - بعد أن أخلصت لك الهوى ، ومحضتك الحب أن أفوز منك بمحض المسواك .

(٥) العطش الشديد (٦) مشقة وشدة (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك

فيها مضى الزمان كأنما صبغت بهجته بما كسبت أنت به من برد الشباب (٨) يقول أن تعنادى النوم

الآن خالية غير مبالية بي ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وعاديت في نومك (٩) احتجى بالتوب اشتعل

والحجى كهدى جمع حبوة مثلك الهاء ، فكان الشاعر يقول : إن نجلسى في نادى البغض (القلى) محبوبة

أو مشتعلة بحبوة الهجر ، فكثيراً ما فرغت إلى الوصال ، وحالت لأجله حباك .

وَأَنْ تَجَنَّبْتَ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ لَمْ يَهْوِي فِي النِّعَى غَيْرُ هَوَاكَ (١)

* *

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَّاقٍ كَلَرَوْضٍ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَنَّاكِي

مَلِكٍ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ تَدْبِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَيْرٌ مِلَاكٍ (٢)

جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِذْرَاكِ

شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنُجُومُهُ أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ (٣)

يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرًا كَوَاكِبٍ مِنْهُمْ تُبْرِئُ غِيَابَ الْأَحْلَاكِ (٤)

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَنَّاكِ (٥)

* *

تُلْفِي السِّيَادَةَ ثُمَّ إِنْ أَضَلَّتْهَا (٦) وَمَتَى فَقَدَتِ السَّرْوَ (٧) فَهَوَ هُنَاكِ

وَإِذَا سَمِعْتَ بَوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فِرْقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ

صَمَّصَامُ بَادِرَةٌ وَطَوُودٌ سَكِينَةٌ وَجَوَادٌ غَايَاتٍ وَجَذَلٌ حِكَاكِ (٨)

(١) المعنى لئن وقعت في النفي بسبب غدرك بي فاني فاني أنا لم يوقني في النفي غير هواك .

(٢) ملاك الأسماء : بكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسمالك من النجوم النيرة (٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دجت الحوادث أمثال

النجوم الزهر للسايرين في ظلمات الليل البهيم (٥) وجاء بعد هذا البيت عجز بيت ناقص هكذا : -

(وصفت جامك واستلذت جناك)

(٦) ذهب عنك وندت ، والخطاب للدنيا في قوله « بشراك يا دنيا » .

(٧) المروءة والشرف والوصف على فعيل يقال سرو يسرو فهو سرى (٨) البادرة الحدة ، والجذل

أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب في العطن لتحتك به الابل الحربي يقال هو جذل حكاك ، وهم جذل

حكاك ، ومنه قول الجبابر المنذر الأنصاري يوم سقيفة بني ساعدة « انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب »

أى لأنه يشتق برأيه وعلمه وتجاريبه في الأمور كما تشتق الابل الحربي بهذا الجذل ، ومعنى البيت أنه مصمم

كالسيف في الغضب ثابت كالطود في الحلم سابق إلى الغايات مجرب يشق برأيه صلب لا يلين مكسره .

طَلَقَ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ ، وَجَاهِلُهُ مَنْ يَسْتَشْفُ النَّارَ بِالْمُحْرَاكِ (١)

* *

صَنَعَ (٢) الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ بِمُحْرَقٍ (٣) يَمْنَاهُ فِي أَمَهْلٍ وَفِي إِيشَاكِ (٤)

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ نَظَمَ اللَّالِي الثُّومِ فِي الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِسًا أَحْرَزَتْ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ

مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامِرَهُ النَّدَى مُتَحَلِّيًّا إِلَّا يَبْعَضِ حُلَاكِ

كَلَّا وَلَا الْمِسْكَ النُّومُ (٥) أُرِيحُهُ مُتَعَطِّرًا إِلَّا بِوَسْمِ (٦) ثَمَّاكِ

اللَّهُوُ ذِكْرُكَ لَا غِنَاءَ مَرَجَّعِ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ (٧)

طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَائِكَ إِهْزَةَ تَهْفُو لَهَا أَسْفًا قُلُوبُ عِدَاكِ (٨)

* *

يَأْيَاهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ (٩) وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعَرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ (١٠)

(١) الخشبة التي تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوجه سمح وأن الكرم طبيعة فيه وليس يزيد
تفنيد الجاهلين إلا تماديا في كرمه كالنار يزيد بها المحرك اشتعالا
(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبلغ صنع ، إذا كان حاذقا ماهرا ، والمعنى أنه كاتب رائع البيان
سيان رويته وإسراعه (٣) صحيفة (٤) إسراع
(٥) صيغة مبالغة من نم المسك سطم ، والأريج توهج ريح المسك
(٦) الوسم : العلامة والثناء والمدح - يخاطب على لسان الزمان في هذا البيت والذي قبله مساعي المدوح
مثبتا أن الورد في مجناه ليس متحليا إلا ببعض حلالها ، وأن المسك في سطوع أريجيه لم يكن متعطرا إلا من
اسماها بالثناء (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المساعي لاغناء مرجع يطلق في الغناء صوته ويمسكه .
(٨) طارت : أسرع ، والحطاب للمساعي ، وهزّة تحرك في نشاط وارتياح ، والمعنى أسرع إليك أيتها
المساعي مواكب بالأولياء ، وقد خفت لها حزنا للوب الأعداء
(٩) السناء بالذّ الرفعة والفضلر الضوء (١٠) عقد النكاح

مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النَّهْيِ وَالصَّالِحَاتِ فِدَانٌ ^(١) بِالْإِشْرَاكِ
 قَلْدَنِي الرَّأْيِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِرَاكِ
 وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الْحَوَادِثُ بِالرَّانَا شَزْرًا إِلَى فَقُلْ لَهَا إِيَّاكَ ^(٢)
 هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبَسُ وَجْهَهُ لِلخُطْبِ وَالخُلُقِ النَّدِيِّ الضَّحَّاكَ ^(٣)

* * *

وَأَحْمَ دَارِيَّ تَضَاعَفَ عِزُّهُ لَمَّا أَهَيْنَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكِ
 وَالذَّبَجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَاكِ
 هَنَاتُكَ صَحَّتْكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا شَخْصٌ أَحَاوَرُهُ لَقُلْتُ هَنَاكَ
 دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتَدِمْتُ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَكَ

ذكرى وولادة ^(٤)

وَدَعَّ الصَّبْرَ مُحِبًّا وَدَعَاكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوَدَعَاكَ
 يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شِيعَاكَ
 يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَا حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَاكَ
 إِنْ يَطْلُ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَاكَ

(١) أي فذلك الذي قال إنك لست أوجد فيهما فدان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدثت بالنظر إلى مؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أي ذلك الذي تهم الحوادث أن تنظر إليه شزراً في ضمان عزم المدوح العابس في وجه الحوادث وفي ضمان خلقه الندى أي السخي الضاحك عن ثغور الأمانى .

(٤) جاء في قلأند العقيان :

ولما رحل عنه من كان بهواه ، وفاجأه بينه ونواه ، فسأره قليلاً وماشاه ، وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفي كبده ما فيها من الانصداع ، فأقام يومه بجملة المفجوع ، وبات ليلته نافر الهجوع ، يردد الفكر ، ويمجد الذكر . فقال :

وقد عزا صاحب نفع الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن^(١)

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة
ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور
وكان ابن زيدون مخنيا بقرطبة . فقال : « وبلغني
أنك أحد اللاتمين لي ، ومن أمثالهم : « ويل للشجيّ من
الخليّ ، وهان على الأملس^(٢) ما لاقى الدبر^(٣) وعلمت أن
العاجز من لا يستبد^(٤) ، فالمرء يمجز لا محالة ، ولم أستجز
أن أكون ثالث الأذلين - العبر والوند^(٥) .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من
سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : « ففررت
منكم لما خفتكم »

فنظرت في مفارقة الوطن ، فقد يماضغ الفاضل في
وطنه ، وكسد العلق في معدنه ، كما قال :
أضيق في معشري وكم بلد يكون عود الكباء^(٦) من حطبه
فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن
إلا أن النعي لم يرتفع ، ومادّة البغي لم تنقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالْذَّارِ نَأْيٌ وَلَا شَحَطٌ وَشَطَطٌ بِمَنْ نَهَوَى الْمَزَارُ وَمَا شَطُوا^(٧)

(١) جاء في فلأند العقبان :

وله عند فراره ، وخروجه من مراره ، وقد أقام بقرطبة متوليا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر
للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الظهر . (٣) الذي يظهره قرحه ، أي أن السليم الظهر لا يحس ألم أخيه
المفروح الظهر . (٤) يشير إلى البتين المشهورين :

« ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد »

(٥) يشير إلى قول القائل :

ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلان عبر الحى والوند
هذا على الحسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وإن زيدون يعنى أنه جدير ألا يقيم على الذل ، وأن يتخلص من الضيم بكل ما في وسعه ، والله درّ الشفري
إذ يقول : « ولكن نفساحرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّل »

(٦) عود البخور أو ضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بفتح العين شحطاً وشحوطاً وشطت
تشط بالضم بعدت . يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب في غاية البعد لاستحالة اللقاء .

أَحْبَابَنَا أَلَوْتَ بِحَادِثِ عَهْدِنَا حَوَادِثُ لَاعَقْدُهُ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ^(١)
 لَعَمْرُكُمْ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى بِشَتَّ جَمِيعِ السَّمَلِ مِنَّا لُمُشْتَطُ^(٢)
 وَأَمَّا الْكَرَى مُدْمَ أَرْزَمُ فَهَاجِرُهُ زِيَارَتُهُ غِيبٌ وَالْمَامُ فَرَطُ^(٣)
 وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى إِلَى نُطْفَةِ زَرْقَاءِ أَصْمَرَهَا وَقَطُ^(٤)
 بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ^(٥)
 وَفِي الرَّبِّبِ الْإِنْسِيِّ أَحْوَى كِنَاسُهُ نَوَاحِي ضَمِيرِي لِأَلِ الْكَيْبِ وَلَا السَّقَطُ^(٦)

قال هذه القصيدة عند فراره من السجن واختفائه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كذب وهو لا يمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لزارها ، مشفقا أن يقع فريسة في يد من يعدو عليه أو يسطو ، ملازما مخبأه لا يتحرك ولا يخطو ، جاعلا الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيه والقرني ، مستبسطاً من أبي الهمز ابن جهور العتي ، شاكياً إليه فرط إصغائه ، إلى عصابة السوء من أعدائه ، راجياً أن يجريه من شيمته ، على سابق عادته ، وأن يختصه بالشفاعة ، بعد طول البث والضراعه ، وأن يسعفه بطلبته ، وتنفس كربه فان أبي أن ينفس عن نفسه ذلك الضنط ، فأمره إلى من بيده القبض والبسط .

(١) ألوت : ذهبت ، والعقد أوكد العهد ، والمعنى ذهبت بمجديد عهدنا حوادث تجرى صروفها على غير مانهوى ونريد ليس بيننا وبينها عهد نوّكده ، ولا شرط نجدده (٢) الشتّ : التفريق ، والجمع : المجتمع ، والشمل : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أي ماتشتت من أمرك ، وفرق الله شمله أي ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أي جأر فيما حكم به وقضى (٣) الكرى : النوم ، وزيارته غيبٌ : أي يزور يوماً بعد اقطاعه أياماً ، ومنه « زرغباً ، تردد حباً » والمام مصدر ألمّ به زاره غيباً ، والفرط : بفتح فسكون الحين . يقال آتبه في الفرط ، أي في الحين بعد الحين (٤) الجوانح : حنايا الضلوع المطبقة على القلب ، والنطفة : الماء الصافي وتجمع على نطف ، والوقط : حفر في الصخر يجتمع فيها ماء السماء .

(٥) بأبرح بأشدّ برحاً ومشقة وعذاباً من شوقي ، أدير المنى عنه : أي ما أطالب المنى بتركه والانصراف عنه من قولهم ، أدار فلاناً عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديروني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

والقنادة شجرة قصيرة ذات قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكا كالابر ، وخرط القنادة اجتذاب شوكلها من أعلى إلى أسفل بأمرار اليد مقبوضة على أغصانها ، وفي المثل « من دون ذلك خرط القناد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو القطيع من بقر الوحش ، والانسي : مقابل الوحشي أحوى في شفتيه حمرة ضاربة إلى السواد ، والكناس : مستتر من الشجر للظباء كالبيت للانسان والبقر تستكن فيه من الحر ، والسكيب الرمل المحدوب ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث اقتطع معظمه

غَرِيبٌ فُنُونِ الْحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ مَتَى ضَاقَ ذَرْعًا بِالَّذِي حَازَهُ الْمِرْطُ^(١)
 كَانَ فُوَادِي يَوْمَ أَهْوَى مُودَعًا هَوَى خَافِقًا مِنْهُ مَحِيثُ هَوَى الْقُرْطُ^(٢)
 إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ فَمَنْ زَفَرْتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِي تَقَطُّ^(٣)
 أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتِيَانُ أَنْ فَتَاهُمْ فَرِيَسَةٌ مَنْ يَعْدُو وَنَهْزَةٌ مَنْ يَسْطُو^(٤)
 وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّوِ صَافِنِ تَحَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ^(٥)
 وَأَنَّ الْحُسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ يَجْفَنِهِ وَمَا ذَمَّ مِنْ غَرِيْبِهِ قَدْ وَلَا قَطُّ^(٦)

* * *

عَلَيْكَ (أَبَا بَكْرٍ) بَكَرْتُ بِهِمَّةً لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ^(٧)
 أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ^(٨)
 لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلَالَهَا عَلَى وَلَا جَحْدٌ لَدَيَّ وَلَا غَمْطُ^(٩)

(١) الدرع : الفبيس ، والمرط : كساء من خز ونحوه يؤزر به ، والقميص يحوز النهدين والخصر ، والمرط : يحوز الردف ، والردف ثقيل ، والخصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حائناً يظهره في حال توديعه ، وهوى الفرط ، وهو ما يعلق في شحمة الأذن ، سقط متديلاً فهوى فؤاده معه خافقاً (٣) أشكل سطره من أشكل عليه الأمر اختلط ولم يبين ، والشكل والنقط تقييد الكتاب بحركات الأعراب ، وإجماعه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أو وضحه له بما أصعده من زفرات ، واستفحه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتيان قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويقنصه (٥) الشاو : النابة ، والشافن : الذي يقوم على ثلاث ويثنى سنبلك يده الرابع تخونه وتخوفه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذم على تخوف » ، وشاهد تخونه بمعنى تنقصه قول لبيد : عذافرة تقمص بالرداف تخونها نزولي وارتحالي أي تنقص لحمها وشحمها وشكل الدابة : شد قوائمها بجبل ، وأزرى به : أهانه وحقره (٦) الحسام العضب : السيف القاطع ، وثاو مقيم : يريد أنه كالسيف المنمد في جفنه ، وما عيب من غريبه : أي حديه قد ، وهو القطع طولاً ولاقط ، وهو القطع عرضاً . (٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستنهض همته ، ويذكر يده عنده . يقول : إن لي همّة طالية لها خطرها بكرت بها عليك وتقوت بك قديماً ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علوّ . (٨) أنت أبي بعد فقد أبي وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لي رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أي لك عندي النعمة الخضراء التي تظلني ، والتي مازلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلَوْلَاكَ لَمْ تَتَّقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي
 وَلَا أَلْفَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بَدَائِعِي
 هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطُّ بِمَفْرِقِي
 وَطَاوَلَ سُوءَ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرْتُ
 مِثُونَ مِنْ الْأَيَّامِ خَمْسُ قَطَمَتْهَا
 أَتَتْ بِي كَمَا مِصَّ الْإِنَاءُ مِنَ الْأَذَى
 أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعَشِرِ
 فَيَتَّبَعُ الظَّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ^(١)
 فَمِنْ خَاطِرِي نَظْمٌ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقْطُ^(٢)
 وَكَأَنَّ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَيْدِي وَخَطُّ^(٣)
 مِنَ الرَّوْضَةِ الْغِنَاءَ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ^(٤)
 أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدُّ وَلَا قَطُّ^(٥)
 وَأَذْهَبَ مَا بِالثُّوبِ مِنْ دَرَنِ مَسْطُ^(٦)
 وَغَايَتِي السَّدْرُ الْقَلِيلُ أَوْ الْحَمَطُ^(٧)

(١) لم تثقب: أي لولاك لم تظهرنار ، قريحتي الشبيهة بالزناد في الابراء ، ويتببب الظلماء يأتي عليها
 وبلاشيها ، والسقط : مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الزئبدن . يقول : لولاك لم تذك
 قريحتي فيظهر عند اقتداحها نار تنتبب الظلماء . (٢) النظم : نظم الحب في السلك ، واللقط :
 النفاطه - أي ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائعي ببسب الربيع ، فهو يلقط من غاسن الزهر ما أنظفه في
 سلك الخاطر . (٣) الوخط : فشو الشيب ، واختلاط بياضه بسواد الرأس ، والمفروق : وسط
 الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجبين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شبت
 شيب الهم . (٤) يقول أن مطاولة سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروضة الفناء طال عليها أمد
 القحط . (٥) القبط : هنا ققط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى
 أنه قطع خصمائه يوم بقرطبة أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غل لأنه كان محتفياً متوارياً عن الأنظار .
 (٦) اللوص : الغسل ، وميص الثوب : غسل بالأصابع ، ومسبب الثوب : بله ثم تحريكه لاستخراج مائه
 والدرن : الوسخ ، والمعنى جاءت بي أيام الخوف والاعتمال عند نهايتها مفسول الذنب كما غسل الاناء من
 الأذى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر : النبق ، والحط : كل نبت أخذ من المرارة طعمها فلم
 يمكن أكله - يشير بهذا إلى قصة الجنيتين في قوله تعالى - فأرسلنا عليهن سليل العرم وبدلناهم بجنيتهم جنيتين
 ذواتي أكل خط وأثل وشيء من سدر قليل - ووصف السدر بالقلة لكونه أحسن شيء فيما بدلوا ، والعرم
 بفتح فسكون ، والسكر : بكسر فسكون ، والمسناة : بضم ففتح ففتحيد النون كلها - كما يؤخذ من اللسان
 والكشاف - أسماء للسديني لحبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توضع عليها أبواب لاطلاق الماء
 على حسب ما يحتاجون إليه في سقيهم ، وقد ورد ذكر المسناة في بعض قصائد الديوان . يمثل في هذا البيت
 حاله بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، فخرّب الله جنيتهم بسليل العرم وأبدلها عنها الحط ، والأثل
 والقليل من السدر ، ومعنى البيت : أيفوز غيري بالنعيم ولا أكاد أظنر بالنافه الحقيبر .

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تُعَرِّنِي الْمُنَى وَاللَّغْرَ فِي الْعَشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبَطُ (١)
 أَمَا وَارْتَنِي النَّجْمَ مَوْطِيَّ أَخْصِي لَقَدْ أَوْطَأْتُ خَدِّي لِأَخْمَصِ مَنْ يَخْطُو (٢)
 وَمُسْتَبْطِئًا الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى رِضَاهُ تَمَادَى الْعُتْبُ وَأُتْصَلَ السَّخَطُ (٣)
 وَمَا زَالَ يُدْبِنِي وَيُنَى قَبُولُهُ هَوَى سَرَفٍ مِنْهُ وَصَاحِيَةٌ فَرَطُ (٤)
 وَنَظْمُهُ تَنَاءٌ فِي نِظَامِ وَلايَةٍ تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لآلِيَتُهُ وَسَطُ (٥)
 عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وَشَاحٌ مُفْصَلُ وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِي جِيدِهَا سِمَطُ (٦)
 عَدَا سَمْعُهُ عَنِّي وَأَصْفَى إِلَى عِدَى لَهُمْ فِي أَدْيِي كَلِمًا أُسْتَمَكَّنُوا عَطُ (٧)
 بَلَغَتْ الْمَدَى إِذْ قَصَّرُوا - فَحَلُّوهُمْ مَسَاكِينَ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقَطُ (٨)

(١) النثر: الذي لم يجرب الأمور، وفي المنسل: «هو يخبط خبط عشواء» يضرب للذي يركب رأسه، ولا يهتم لعاقبة أمره، كالفأفة العشواء التي تخبط يديها كل ما مرت به لسوء بصرها، والعشواء: هنا ظلمة الليل لا النافقة، يريد أن ظنسه حمله على الاغترار بالمني، يخبط لغرارة في عشواء من ظنسه أي في ظلمة ولبس. (٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا، ولتحقيق الكلام الذي يتلوه بمعنى حقا، والأخمص باطن القدم الذي لا يلمص بالأرض عند الوطء. يقول: حقا لقد أوطأت خدي لكل واطىء في حال أنها ارتنى فيما مضى النجم موطىء أخمصي (٣) العتبي: الرضا، والعتب: السخط، وفي رواية: «قد أنى» (٤) صاغية الرجل من يلم به وينسى مجلسه من أهله وحاشيته، وفرط يريد بهذا أنهم يفرطون عليه في القول أي يسهفون، والمعنى وما زال يقربني منه هوى متجاوز حد الاعتدال ويبعد قبوله حاشية مسرفة في القول. وقد جرى في هذا البيت على أساليب اللف والنشر المرتب، فهو يرى أن ممدوحه مسرف في هواه فهو يدينه لذلك وإن حاسديه مسرفون في الوشاية به فهو ينشئه عنه لما يسمعه من وشاياتهم المتكررة (٥) أي وما زال يقربني منه نظم تناء أبحره في نظام ولاية كأنه العقد النفيس تحلت به الدنيا كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد لنفاستها.

(٦) أي على خصر الولاية من نظمه وشاح مفصل، وفي رأسها تاج مرصع، وفي جيدها سمط من لؤلؤ (٧) الأديم: الجلد، والعمط: شق الثوب طولاً أو عرضاً من غير إبانة، والمعنى صرف ابن جهور سمعه عنى وأصفى لى أعداء كلما تمكنوا من عرضي قدوه كما يتد الأديم وشقوه كما يشق الثوب.

(٨) المدى: الغاية، والأضغان: الأحقاد، والأساود، الحيات، والرقط: جمع رقطاء، وهي التي في لونها سواد وبياض، والمعنى بلغت الغاية التي قصروا عنها فكمن في قلوبهم من الأحقاد ما يشبه الحيات الرقط التي تنث السبوم الفاعلة.

يُؤَلِّوْنِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقَلِيَّ وَمَا دَهَرُهُمْ إِلَّا النَّفَاسَةُ وَالنُّعْمَطُ (١)
 وَقَدْ وَسَمُونِي بِأَلَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا وَلَمْ يُعْنِ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ (٢)
 فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْضُ (٣)
 وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدِّهَا لِي الشَّيْمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ (٤)
 وَحِلْمُ أَمْرِي تَعَفُّو الذُّنُوبُ لِعَفْوِهِ وَتَمَحِّي الْخَطَايَا مِثْلَ مَا مَحَى الْخَطَا
 فَالِكَ لَا تَحْتَضُّنِي بِشَفَاعَةٍ يُلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمِسْمِهَا عَلَطُ (٥)
 يَفِي بِدَسِيمِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحُهَا إِذَا شَعَشَعَ الْمِسْكُ الْأَحْمَ بِهِ خَلَطُ (٦)
 فَإِنْ يُسْعِفِ الْمَوْلَى فَنَعْمَى هَنِئْتُهُ تَنْفَسُ عَنْ نَفْسِ الظِّبَا بِهَا ضَغَطُ (٧)
 وَإِنْ يَأْبَ الْأَقْبَضَ مَسْطُوطِ فَضْلِهِ فَنِي يَدِ مَوْلَى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ

(١) وفي رواية: الغبط والمعنى يجعلونني أستقبل منهم ناحية الكراهة والبغض ، وليس منهمم أبد الدهر (إلا النفاسة) من نفس عليه بالشيء ضن به وكره أن يصل إليه ، و (الغبط) : من غبط الرجل ينبطه غبطا من باب ضرب حسده ، ومن معانيه أيضاً تمنى الوصول إلى نعمة غيرك من غير أن تزول عنه .
 (٢) أي جعلوني معروفا بالسمة والصفة المعيبة التي لست متأهلا لها ، والتي ما مني أي ابتلي بها أمثالي فيما مضى .
 (٣) إرابة : سبب في الريبة والشك . والاتهام ، والمعنى فررت من السجن ، فان قالوا إن في الفرار ما يجعلني متهما ، فقد فرَّ موسى من الغبط حين ائتمروا به وهووا بقتله بشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم »

(٤) السبب : السهل . (٥) الميسم : المسكواة يوسم بها البعير ، والعلط : الوسم عرضا في العنق يقول : لماذا لانرضى عنى وتمحنى شفاعتك لأنظب بها على دهرى وأذله وأدمنه في فقاء دمعته بينة الأثر يخط أو خطين أو خطوط . (٦) العنبر : الطيب المعروف ولونه أسود ، ويطلق العنبر أيضا على الزعفران ، وهو المراد هنا ، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة ، وشعشع : مزج ، والأحم : الأسود من كل شيء ، أي يفي تنفع هذه الشفاعة برائحة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود .
 (٧) تنفس : تفرج ، وألظ بها - وفي روية : ألظ بها - لازمها . قال أبو العلاء :

ألظوا بالقبیح وتابعوه ولو أمروا به لتجنّبوه

أي لازم الناس القبيح عناداً منهم حين نهام الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تنكبه، ضغط: أي ضيق

في مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صَبْ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)

وَيَا فُؤَادِي أَنْ تَدُوبَا

إِذِ الرَّزَايَا أَصْبَحَتْ ضُرُوبَا (٣)

لَمْ أَرِ لِي - فِي أَهْلِهَا - ضَرِيْبَا (٤)

قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الْحَشَا نُدُوبَا (٥)

فِي الْغَرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيْبَا

عَلِيْلَ دَهْرٍ سَامِنِي تَعْذِيْبَا (٦)

أَذَنْ (٧) الضَّنِي إِذْ أَبْعَدَ الطَّيْبَا (٨)

*
*
*

لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحَدْتَهُ هَبُوبَا

رِيْحٌ يَرُوحُ عَهْدَهَا قَرِيْبَا (١٠)

بِالْأَفْقِ الْمُهْدِي إِلَيْنَا طَيْبَا (١١)

(١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقع غربي قرطبة. وهذه الأرجوزة تذكرنا بالأرجوزة المشهورة : « دع المطايا تنسم الجنوبيا » الخ (٢) انسكب يادمعى ما شئت أن تنسكب ، والأصل في الصوب نزول المطر ، والفعل صاب يصوب والأمر صب . قالوا : وكلت نازل من علو إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهم صابت عليهم سحابة » . (٣) أصنافا . وفي رواية : إن الرزايا (٤) نظيراً أو مثيلاً . يقول : انسكب يادمع فقد صبت عليك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزوقين . (٥) آثار الجروح إذا لم ترتفع عن الجلد ، ومنه قول الفرزدق :
ومكبل ترك الحديد بسافه ندبا من الرسفان في الأحجال

(٦) أمرضني دهر قد جشمتني ذلّ الاغتراب وسامني سوء العذاب . (٧) وفي رواية : أضي الضني (٨) قرب الدهر من السقام في وقت أبعد فيه عن الطبيب . (٩) ما يستقبلك بين يديك من الريح إذا وقتت في القبلة . (١٠) أى يكون رواح ما تحمله الريح من المطر قريبا ، والعهدها معناها المطر الأول الذي يليه الوسمى . (١١) أى متصلا بالأفق الذي طالما أهدى إلينا من ناحية الحبيب طيبا .

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبًا
يُبْرِدُ حَرَّ السَّكْبِدِ الْمَشْبُوبَا (١)

* * *

يَا مُتَّبِعًا إِسْنَادَهُ (٢) التَّأْوِيبَا
مُشْرِقًا وَقَدْ سَسَمَ التَّغْرِيبَا
أَمَّا سَمِعْتَ الْمَثَلِ الْمَضْرُوبَا
أَرْسَلَ حَكِيمًا (٣) وَأَسْتَشِرْ لِيَدِيَا

* * *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطْنَ الْحَبِيبَا
وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضِحَ (٤) الْعَجِيبَا
وَالْحَاضِرَ (٥) الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا
فَحَيَّ (٦) مِنْهُ مَا أَرَى الْجَنُوبَا

(١) يطفى ذلك الطيب الذي تعطرت منه جيوب الصبا كبدًا مشبوبة فيها نيران الشوق. وفي الأصل «المشوبا»

(٢) الأوساد سير الليل كله لانعريس فيه ، والتأويب : سير النهار كله لانعرج فيه .

(٣) وفي رواية : أرسل حلما .

(٤) المبحوث عنه أو الذي يستوضحه الراكب أي يستنفره ويستكفه بأن يضع كفه على عينيه في الشمس

لينظر هل يراه . (٥) الحاضر : ضدّ البادى . (٦) مرتبط بالأبيات قبله . يقول : أيها

المواصل سير الليل كله بسير النهار كله مشرقا قد ملّ السير إلى الجانب النربى أي مرسلك في حاجة ،

ومتبع المثل المشهور :

إذا كنت في حاجة مرسلا فارسل حكيمًا ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصمه

ذلك أنك إذا أتيت ذلك الوطن المحبوب ، والجانب المأهول والحاضرة الفسيحة ففى مما قد ترى الجنوب

حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما رأى جملة معترضة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعُ^(١) تَجْتَذِبُ^(٢) الْقُلُوبَا
 حَيْثُ أَلْفَتْ الرَّشَاءُ الرَّيْبَا^(٣)
 مُخَالَفًا^(٤) فِي وَصْلِهِ الرَّقِيْبَا
 كَمْ بَاتَ يَدْرِي^(٥) لَيْلَهُ الْغَرِيْبَا
 لَمَّا أُتِنِّي فِي سُكْرِهِ قَضِيْبَا
 تَشْدُو^(٦) حَمَامٌ حَلِيْبِهِ تَطْرِيْبَا
 أَرْشُفُ مِنْهُ الْمَبْسِمِ الشَّنِيْبَا^(٧)
 حَتَّى إِذَا مَا أُعْتِنِّي لِي مُرِيْبَا^(٨)
 شَبَابُ أَفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيْبَا
 بَادَرْتُ سَعِيًّا ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيْبَا ؟^(٩)

(١) ديار وأبنية وقصور . قال لبيد :

بليتنا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرشأ : الظبي إذا قوى وتحرك ودشى مع أمه ، والريب : المرابي من قوهم

صبي مربوب وريب . وفي رواية : الليببا

(٤) من المخالفة بمعنى عدم الموافقة أو من قوهم جاء فلان خلاف صاحبه ومخالفته إذا أتى بعده مخالفاً له .

(٥) يدري يحتال من قوهم دريت الظبي أى احتلت له وختلت حتى أصيده ، والغريب : الشديد السواد

ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألفت فيها الرشأ المترن في حجر النعمة مخالفاً أى آتيا في غفلة الرقيب ، فكثيراً ما بات يحتال ليله الشديد السواد ليصيب منه غرّة ويختلس منه غفله .

(٦) تغنى ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلي (٧) أرسف : كأنصر وأضرب مضارع رشف

الماء والريق ونحوهما رشفاً ، وهو المصّ والتقبيل وشرب الماء قليلاً قليلاً ، والمبسم ، المقبل ، والشنيب : صفته مأخوذ من الشنب وهو برد وعذوبة في الأسنان . قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعل وفي اللثات وفي أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريبا : ذاريب . (٩) يقول في هذا البيت والأبيات قبله : بتّ ناعما

ليلتي بالعناق والتقبيل حتى إذا اعترضني مارابني من سواد أفقٍ وشك أن يفضحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسمى ، هل رأيت الذئب ، يريد : هل رأيت الذئب في خفته وسرعة عدوه وفراره ويعنى : أنه قد فرّ فرار الذئب .

هَصْرَتُهُ^(١) حُلُوَ الْجَنَى رَطِيْبًا

*
*
*

أَهَاجِرِي أُمُّ مُوسَى تَأْنِيْبًا

مَنْ لَمْ أَسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبًا^(٢)

مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لَا تَثْرِيْبًا^(٣)

وَلَا مَلَامَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا

قَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمُ الذُّنُوبَا^(٤)

وَلَمْ يَدْعُ فِي الْعُذْرِ لِي نَصِيْبًا

*
*
*

إِنْ قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أُوْبَا^(٥)

لَمْ آلْ أَنْ أَسْتَرْضِي الْغَضُوبَا

حَسْبِي أَنْ أُحْرَمَ الْمَغِيْبَا

قَدْ يَنْفَعُ الْمَذْنِبَ أَنْ يُتُوبَا

يوم بوصول ساعة

بِاللَّهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِي

كَيْمَا أَنْالَ بِقَرَضِ

يَوْمًا وَصِلْنِي سَاعَةَ

مَا لَمْ أَنْلَ بِشَفَاعَتِهِ

(١) أمله إلى وعظفته على وهو جواب لما .

(٢) هل هذا الحبيب الذي غصصت بفراقه ولم أجد بعده مسأغا للشراب إلى حلقى هاجري أو موسى

لوما وتثريا . (٣) أي ضرر عليه إذا هو قبل العذر ونفى الملام والعتاب .

(٤) كثيراً ما ادعي على ذنوباً لم أعملها (٥) يقوله في هذا البيت والذي بعده : إن قرَّت العين

بالرجوع إلى الوطن بذلت جهدي في استرضائه ، وكفاني أن أحرّم على نفسي ترك هذا الوطن وأتوب

فقد تنفع توبة المذنب .

في عيد الأضحى (١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتضد بالمكان الذي حلّ ، وانتكث عقد شدائده وانحلّ ، تسلت نفسه من شجونها ، وحتت إلى صفا « ولادة » وحجونها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها وأسأها ، وحنّ إليها حنين من حيل بينه وبين ما يشتهي ، وقنع باهداء تحية تبلغ إليها وتنتهي . فقال يتغزل فيها ويمدح المعتضد (٢) :

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفُ مُعْرِفُ أَنَا هَلْ لِدَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفُ (٣)
فَنَقَضِي أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةِ لَنَا كَلْفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ (٤)
ضَمَانُ عَلَيْنَا أَنْ تُرَارَ وَدُونَهَا رِقَاقُ الطُّبَا وَالسَّمَهْرِيُّ الْمُثَقَّفُ (٥)
وَقَوْمٌ عِدِّي يُبْدُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحَقْدِ أَكْلَفُ (٦)
غِيَارِي يَعْـدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةً بِهَا وَالْهُوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُؤَسِّفُ (٧)

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من ضمن قصائده التي يمدح بها المعتضد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن بسام في النخيرة ، وقد بعث أبياتها ، وذكر طائفة منها كذلك صاحب فلائد العقيان في ضمن ما ذكره من طرف ابن زيدون وأخباره ، وقره وأشعاره . (٢) فلائد العقيان .
(٣) أما استفهام فيه معنى التني ، والعرف : الريح الطيبة ، والجزع : منعطف الوادي ، ولوقف : السوار - من العاج وغيره - قال جرّان المود النخيري :

كوقف العاج من ذكي مسك تحيء به من اليمن التجار

أو هو الخلل من الفضة وغيرها . والمعنى : ليت لنا في هبوب النسيم طيب رائحة يعرفنا هل المحبوبة واقفة بمكان وقوفها من منعطف الوادي فنقضى الخ . وفي رواية : يعرف .
(٤) المعنى : هل لها وقفة بالمنحني فنقضى حاجات النفس من زيارة لنا ولع بما تجشمه من مشقة التعرض لها .
(٥) الضبا : جمع ظبة ، وهي حد السيف ، والسهمري : الريح ، والمثقف : السوي بالثقاف ، وهي خشبة فيها خرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اعوج منها ، أي نحن ضامنون على أنفسنا أن تزار ، ودون زيارتها ظبا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفي بعض النسخ عزيز علينا أن تزار .
(٦) أي ودون الوصول إليها أيضاً قوم معادون يظهر ما يحفونه من العداوة والشر على وجوههم ، والمشرق المضيء من تلك الوجوه أكلف أي به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غياري وغياري - بفتح الغين وضمة - كسكاري وسكاري جمع غيران من غار الرجل على امرأته بنار غيره ، والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل على نفسه أو يجريها على غيره ، ويؤسف : كيغضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم » .

يَوْدُونَ لَوْ يَثْنِي الْوَعِيدُ زَمَاعِنَا
وَهِيَهَاتَ رِيحِ الشَّوْقِ مِنْ ذَلِكَ أَعْصَفُ^(١)
يَسِيرُهُ لَدَى الْمُشْتَاقِ فِي جَانِبِ الْهُوَى
نَوَى غُرْبَةً أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسِّفُ^(٢)
هَلِ الرَّوْعُ إِلَّا غَمْرَةٌ تُمُّ تَنْجَلِي
أَمْ الْهُوَلُ إِلَّا غَمَةٌ تُمُّ تُكْشَفُ^(٣)
وَفِي السَّيْرَاءِ الرَّقْمِ وَسَطًا قِبَابِهِمْ
بَعِيدُ مَنَاطِ الْفَرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ^(٤)
تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْلٌ مُنْعَمٌ
تَأَوَّدَ فِي أَعْلَاهُ لَدُنْ مُهْفَهْفُ^(٥)
فَلِعَامَانِكَ الْمُرْتَجِّحِ مَا حَازَ مِزْرُ
وَلِلْفُغْصَنِ الْمُهْتَرِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ^(٦)
حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ
إِذَا نَحْنُ زُرَاهُ وَنَهْنَاهُ وَنُسَعْفُ
وَلَيْلَةٌ وَافِينَا الْكَثِيبَ لِمَرْعِدِ
سُرَى الْأَيْنِ لَمْ يَعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَرْحَفُ^(٧)

- (١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والزماع : بالفتح المضى في أمر الزيارة والعزم عليه ، وأعصف : اسم تفضيل من عصفت الريح تعصف بالكسر فهي عاصف أى شديدة تضي بما سرت عليه من تراب ونحوه ، أى يودون لو يصرفنا تهديدهم مما أزعمناه من أمر زيارة تلك الحسنة التي يفارون عليها ، وهيها أن يصرفنا عن ذلك صارف ، فان ربح الشوق أشد مضيا بنا إلى ناحيتهم من تهديدهم ووعيدهم .
(٢) يقول يسير علينا في جانب الهوى الاغتراب واعتساف المجال .
(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدة .

(٤) السيراء : بكسر ففتح نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتب عليه ثمنه ، أو اسم التاجر ، ومناط الفرط معلقة ، وأحور : وصف من حور العين . وهو شدة سواد المقلة في شدة يباضها ، وأوطف . طويل شعر أهداب العين ، وفي الأصل أوظف ، والمعنى أن حبيبته التي تلبس تلك الحلة السراء الثمينة تقيم وسط قباب الأعداء وهي بعيدة مهوى الفرط أى طوبلة العنق ، في عينها حور ، وفي أهدابها وطف . (٥) عبل : أى ردف ضخم تام ، ومنعم : من النعمة والراحة ، وعدم الامتنان في عمل البيت لتوفر الخدم ، ويلزم ذلك العبالاة والامتلاء ، وتأود : ثنى ، ولدن أى غصن لين ، ومهفهف أى خصر دقيق ناعل ، يقول : تباينت خلقته أسفله وأعلاه ، فردف ثنيل وخصر نحيل .

(٦) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع ، وفي الأصل : العانك . والمترز : معروف وهو ما يشد على الوسط ، والمطرف - وهي مثلثة الميم - من ثياب الخز ما جعل في طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى فللكتيب المرتجح ما حواه المترز ، ولانصن المهتر ما ضمه المطرف . (٧) وافينا الكتيب : أى توافينا على موعده في الكتيب ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعباء والتعب ، والمزحف الغاية وهو من الزحف وهو المشى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المشى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسيابها في الرمل قال الشاعر :
كأن مزاحف الحيات فيه قبيل الصبح آثار السياط

تَهَادَى أَنَاةَ الْخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا
 كَمَا رِيحَ يَعْفُورُ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفُ^(١)
 فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَّاتِهَا
 سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينِ الْمُنْصِفُ^(٢)
 فَدَيْتُكَ أَنِّي زُرْتِ نُورُكَ وَاضِحٌ
 وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَحَدِيكَ مُرْجَفُ^(٣)
 هَيْبِكَ أَعْتَرَزْتِ الْحَىِّ وَأَشِيكَ هَاجِعٌ
 وَقَرْنُكَ غَرِيْبٌ وَيَسْلُكَ أَغْضَفُ^(٤)
 فَأَنَّى أَعْتَسَفْتَ الْهُوْلَ خَطْوُكَ مُدْمَجٌ
 وَرِدْفُكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفُ^(٥)
 جَلَّاجٌ، تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
 وَأَمَّ الْهُوَى الْأَفْقَ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ^(٦)
 وَأَنْ تَتَلَقَّى السُّخْطَ - عَائِنَ - بِالرَّضَى
 لَغَيْرِ أَنْ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطَفُ^(٧)
 كِفَاءًا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةً
 فَيَوْمِي طَرْفُهُ أَوْ بَنَانُهُ مُطْرَفُ^(٨)

- (١) تهادى أصله تهادى أى تشبى فى تمايل وسكون ، وأناة الخطو : منتهدة الخطو وصفها بالمصدر ، وهو الاناة بمعنى التؤدة للمبالغة ، ومرتاعة الحشا : متفرعة القلب ، وريح : فزع وأخيف ، واليعفور : الظبي والمشوف : المتطلع . وفى بعض النسخ المشرف ، وهو الذى يرفع رأسه ويمد بصره لينظر إلى الشيء .
- (٢) إياة الشمس - بالكسر والفتح - حسنهما وضوعها ، وإياة هى الشمس أيضا ، قال أبو العلاء :
 وبعض ذا العالم من بعضه لولا إياة لم يكن شخت
 أى لولا الشمس لما كان القمر ، والمنصف : الذى عليه النصف وهو الحمار ، أى ليست الشمس يستر القيم الرقيق حسنهما وضوعها إلا ما أراه ذلك الجبين من حسن يبدو من خلل النصف .
- (٣) وفى بعض الروايات : قعيدك وهو مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سأأت الله حفرك من قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أى حفيظ ، والمستعمل قعيدك الله - مثل عمرك الله ، وهو مصدر منصوب أيضا ناب عن الفعل تقديره عمرك الله بالنشيد ، ومعناه هنا : ملازمك ، ومرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب ، ويصح أن يكون من أرجف بالبناء للمجهول فهو مرجف ، وفى بعض النسخ بدل قعيدك فديتك . (٤) هيبك : يقال هبك فعلت ، وهيبك فعلت كذا ، ولا يقال هب أنك فعلت ، ولا هبى أنك فعلت ، والمعنى احسبى واعددى ، واعتزرت الحى : حبته وجزت به على غير علم ، وفرعك غريب : شعرك شديد السواد ، وأغضف حالك السواد ، يقال ليل أغضف إذا ألبس ظلامه .
- (٥) مدمج : داخل بعضه فى بعض ، ومخطف : ضامر يقال فرس مخطف الحشا : أى ضامره .
- (٦) نشنف : نبهض ، والمعنى أمرى لجلاج فقد تمادى فى حب من أهواه بين المعشر العدا ، وقصد الهوى : المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجلاج أيضا أن تتحمل السخطة ، وقد عنانا ردا صاحب غيرة يشتد جفاؤه وغلظته ، حين يظن لطفه وورقه . (٨) البنان : المطرف الذى طرف بالحناء .

خَلِيلِيَّ مَهَلًا لَا تَلُومًا فَإِنِّي
فَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لِحَاجَةٍ
وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ يَنِي الْبَرَقُ صَبْوَةٌ
وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوْهَمٌ
وَتَذْكَرُنِي الْعِقْدُ الْمُرْنُ مَجَانُهُ
فَمَاقِبَلٍ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ
وَلَا قِبَلَ «عَبَادٍ» حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ
فُوَادِي أَيْفُ الْبَثِّ وَأُجْسَمُ مُدَنَفٌ
عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحُبِّ حِينَ يُعْمَفُ
إِلَى بَرَقٍ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ
إِظْلَمَ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتْرَشَفُ^(١)
مُرِنَاتٌ وَرُقٍ فِي ذُرَا الْأَيْكِ تَهْتَفُ^(٢)
وَلَا صَانَ رَيْمٍ الْقَفْرِ خِدْرٌ مُسَجَفُ^(٣)
وَلَا سَحَلَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ رَفْرَفُ^(٤)

(١) اظلم به : أى بالثرى فى البيت قبله . قال فى اللسان ، والظلم : الماء الذى يجرى ويظهر على الاسنان من صفاء اللون لامن الريق كالفرند حتى يتخيل لك فيه سواد من شدة البريق والصفاء ، قال كعب بن زهير : تجلو غوارب ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معاول
لو يترشف : لو هنا لالتمنى ، وفى بعض النسخ إذ يترشف ، والترشف : مس الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام :
« أراه بيت أبى الطيب : وما شرقى بالماء إلا تذكر الماء به أهل الحبيب نزول
(٢) المرن : اسم فاعل من الأرنان ، وهو الصوت الحزين ، والجان : حب يتخذ من صغار اللؤلؤ ، أو من الفضة أمثال اللؤلؤ ، والورق : جمع ورقاء وهى الحمأة التى لونها بين السواد والغبرة وهى ما تسمى فى عرف أهل مصر باليامة ، وفى مثل هذا يقول الشاعر المحسن جران العود النمرى :
..... ثم هاجنى حمام ورق بالمدينة هتف

والأيك : جمع أيبكة ، وهى الشجر الكثير اللتف ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : ما تركب فيه المرأة يكون مقببا وغير مقبب ، وفى بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الظبي الخالص البياض ، والحدرد المسجف : ما على كل مدخل أو نافذة من نوافذه سجان أى ستران بينهما مشقوق كالصرايين .
(٤) (ولا قبل عباد) هو المعتضد بالله أبو عمر عباد بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد بن إسماعيل قاضى اشبيلية يذهب نسبه إلى النعمان بن المنذر آخر ملوك المايمة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاها من جزيرة الأندلس ، ولى الملك بعد وفاة أبيه الظافر محمد بن إسماعيل القاضى سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتضد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشدهم بأسا ، وأكثرهم عبيدا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة فى بلاد الأندلس ، وإلى سياسته يعزى السبب فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذى انتهز فرصة ضعفهم ، ونفرك كلمتهم فعلم على ازالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم - والررف - الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفى التنزيل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفه وررفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للقسطلى بجملمته حيث يقول فى ابن أبى عامر :
وكيف أسوى بالبر والبحر مجلس وقام بعبد الراسيات سرير

هُوَ الْمَلِكُ الْجَمْعُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ
 هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلُهُ
 يَتِيهُ بِمِرْقَاهُ سَرِيرُهُ وَمِنْ بَرِّ
 رَوِيَّتُهُ فِي الْحَادِثِ الْإِدِّ لِحِظَةٌ
 يَدِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيْفَةً بِأَسِيهِ
 حِذَارِكَ - إِذْ تَبَغَى عَلَيْهِ - مِنْ الرَّدَى
 سَتَعْتَمُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى
 أَنْعَرْتُ مَتَى نَدْرُسُ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ
 إِذَا نَحْنُ قَرَضْنَا قَصْرَ مُطْنِبٍ
 تُكْفُ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ^(١)
 مَلِكٌ فَقِيهُ كَاتِبٌ مُتْفَلْسِفٌ
 وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفٌ
 وَتَوْقِيْعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرَفُ^(٢)
 وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلُجُ الْمُتَعَطِّفُ^(٣)
 وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ
 كِتَابَيْ تُرْجِي أَوْسَقَانِ تُجْدَفُ^(٤)
 يَرْقُنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ^(٥)
 وَلَمْ يَتَجَاوِزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفُ^(٦)

(١) الجعد : قال في اللسان « والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان ، أحدهما : أن يكون معصوب الجوارح ، شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني : أن يكون شعره جعدا غير سبط ، لأنَّ سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب ، فاذا مدح الرجل بالجعد لم يخرج عن هذين اللمينين » الخ ماقال في الجعد على كلا الاعتبارين المدح أو الذم فانظره ، والمعنى هو الملك المجتمع الخالق الذي ليس رهلا مسترخى الاعضاء ، أو الجعد الشعر ، أو الكريم الذي في ظله وكنفه تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستظلين بظله بالسوء .

(٢) الاد العظيم ، والتوقيع : ما يكتبه الملك في الكتاب من جل قصيرة ، وأحرف بسيرة ، لانفاذ أوامره ، وإمضاء شؤون دولته ، والمعنى تفكيره في الحادث العظيم الفطيع الداهي سريع لايحتاج إلى تريث ، وعدم تعجل ، وتوقيع الكاشف ظلمة الخطوب كلمات قليلة جامعة لمضمون ما يريد إنفاذه .

(٣) الأبلج : الأبيض ، والمتعطف : السيد السرى المختال في مشيته .

(٤) سعتامهم : سعتارهم ، والتوى : الهلاك ، وترجي : تساق وتسير ، وتجدف تدفع بالمجاديف .

(٥) أنعر كريم الأفعال واضحا ، وندرس : أى متى نرض أنفسنا على قراءة ماسطر في دفتار مجده ، يرقنا : أى يعجبنا الخ ، وفي الأصل : « متى تدرس » ، والغريب : الغامض البعيد عن الفهم ، والمجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان ، والمصنف : المميز بعضه من بعض ، وللمبين خفاؤه وإجماله .

(٦) قرظناه : من التقرظ وهو المدح والثناء ، وأصله من تقرظ الجلد أى دبهه بالقرظ ، والمطنب : المسهب المتوسع في القول ، والنقص : التوسط والاعتدال .

- وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغِي أَخَاهُ مُبْلَغُ
 مِمْرُ الْقَوَى لَا يَمَلُّ الْخَطْبُ صَدْرَهُ
 لَهُ ظِلُّ نَعْمَى يَذْكَرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ
 جَجِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ
 مَحَاسِنُ ، غَرَبُ الدَّمِّ عَنْهَا مُفَلَّلُ
 تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلُ
 طَلَاقَةٌ وَجْهِهِ فِي مَضَاءٍ كَمَثَلِ مَا
 عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مَيْسَمُ
 سَجَايَا لِمَنْ وَالَاهُ كَالْأَرَى مُجْتَنَى
 يُرَاقِبُ مِنْهُ اللَّهُ « مُعْتَصِدٌ » بِهِ
- مُنَاهُ وَلَا الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوِّفُ (١)
 وَلَيْسَ لِأَمْرِ قَانِتٍ يَتَلَهَّفُ (٢)
 ظِلَالُ الصَّبَابِ لِكَأَنَّ أَنْدَى وَأَوْزَفُ (٣)
 وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تَرْزَفُ (٤)
 كِهَامُ ، وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ (٥)
 سِنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مَفُوفُ (٦)
 يَرُوقُ فِرْنِدُ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرَهْفُ (٧)
 وَفِي الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زُخْرُفُ (٨)
 تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرَى يَنْقَفُ (٩)
 يَدُ الدَّهْرِ يَنْقَسُو فِي رِضَاهُ وَيَرَأْفُ (١٠)

- (١) الأروع : الذي يروعك حسنة ، ويعجبك مرآة ، ومعنى سائر البيت ليس الذي ينبغي له مثيلاً يبالغ منه ، وليس الذي يرجو نداء مؤخراً عطاؤه . (٢) الأمر : الحبل الذي أجد فته ، والقوى : طاقاته يريد أنه مستحكم القوى وليس رخوا ضعيفاً يملأ أهول صدره فزطاً ، وبأسى على ما فإنه تلهفاً وتحسراً . (٣) الهم : الشيخ الكبير الغاني ، يعني أن الشيخ الهم يذكر عند استظلاله بظل نعماء الوارف أنه في ظل الشباب الندى المتمد بل إن ظل نعماء أكثر نداوة وورواً وامتداداً . (٤) ترزف : تقرب ، وفي التنزيل العزيز « وأزلفت الجنة للمتقين » أي قربت . (٥) القرب : الحد ، مقلل : فيه كسور ، وكهام : كليل ناب عن الضريبة لا يقطع . (٦) السناء : الرفعة ، وبرد مفوف : رقيق من نسج اليمن . (٧) فرند السيف : جوهره وماؤه الذي يجري فيه وطرائقه ، والمعنى : يعلو وجهه ماء كفرند السيف المترقق ، مع مضاء عزم كده المرهف في التصميم والقطع ، وفي رواية : « طلاقة مجد » (٨) ميسم أثر وعلامة . وفي الأصل : « من تلك الطلاقة مظرف » (٩) الأرى : العسل ، والشرى : الحنظل ، وينقف : أى يشق لأخذ ما في داخله قال امرؤ القيس :
 كأنني غداة البين يوم تحمّلوا
 لدى سمرات الحى نائف حنظل
 (١٠) يد الدهر : مدى الدهر ، قال أبو العلاء :
- فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى - يد الدهر - أو متنا مماتاً بلا نشر
 ومعنى البيت أنه يراف ويعنف دائماً في سبيل مرضاة الله وحده ، ويقال أيضاً يد الحياة ، قال أبو العلاء :
 لو كان لي أمر بطاوع لم يشن
 ظهر الطريق - يد الحياة - منجم

قَقْلُ الْمَلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى أُدْعَى سِبَاقَ الْعَتِيقِ الْفَأْتِ الشَّوِ مُقْرِفُ (١)
 أَلَيْسَ « بَنُو عَبَادٍ » الْقِبْلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا لِأَمَالِ الْبَرِيَّةِ مَعَكْفُ (٢)
 مَلُوكٌ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخَرَ دَهْرِهِمْ وَيَخْلَفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءً مُخْلَفُ (٣)
 بِهِمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهُ شُمُوسُهُ وَأَيْدِيهِمْ حَيَا الْمُنْزَا أَوْ كَفُ (٤)

* *
 * *

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مَعْمَسُ وَمُجْزِلَ حَظِّ الْحَمْدِ وَهُوَ مُسْفِسُ (٥)
 لَعَمْرُ الْعِدَا الْمُسْتَدْرِجِيكَ بَزَعْمِهِمْ إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ (٦)
 لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لَوْمَ سَجِيَّةٍ وَكَيْلَ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطْفَفُ (٧)
 لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا فَأَعْجَلَهُمْ عَقْدُهُ مِنْ أَلْهَمِّ مُحْصَفُ (٨)

- (١) العتيق: النجيب الكريم من الخيل، والشأو: الناية، والمقرف: الهجين وهو الذي أمه برذونة وأبوه عربي أو بالعكس. (٢) معكف مصدر ميمي بمعنى العكوف أى إقامة وملازمة.
- (٣) أى بنو عباد ملوك يرى الناس أحياء، هم مفخرة الزمان، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن وثناء موروث يتحدث به الناس، ويتناقله الخلف عن السلف.
- (٤) الحيا: المظر، والمنز: السحاب، وأوكف: أهطل وأغزر والمعنى: فاخرت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات، وآثار نعمهم، ومزنا أيديهم أغزر وأهطل من السحب الهاطلات.
- (٥) معمس: ملبس ملتوعن جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له، ومسفسف: نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض، والمعنى: يا من بفعالك المجيده أبنت معنى المجد فى حال كونه غامضا ملتبسا، وأجزلت بأثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير، وجواب النداء فى الآيات بعده.
- (٦) لعمر العدى: يقسم بحياتهم متهكما للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا، المستدرجيك: أى الذين حاولوا فى زعمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة، ويأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجرأتهم، وهول ما أنعموا عليه. (٧) لكالوك: أى لقد كالوك من لؤم سجيته صاع الغدر، وكنتهم صاع الجزاء والعقوبة على غدرهم، والمطفف: فى الأصل المنقوس المنبغوس من طفف الكيل تقصه وبخسه، وقد يستعمل بمعنى الوافى وهو المراد هنا.
- (٨) لقد حاولوا العظمى: أى الفتنة العظمى، التى لا شوى لها: أى التى لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل، فأعجلهم عقد: أى رأى وتديبر من همك وعزمك، محصف: محكم شديد لاخلاف فيه.

وَمَا رَأَيْتَ الْعَدْرَ هَبَّ نَسِيمُهُ تَلَقَّاهُ إِعْصَارُهُ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ (١)
 أَظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَأْمٌ لَقَدْ تَعَدُّ الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخَلِّفُ (٢)
 دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرْتِكَ بِأَنَّهُ سَيَشْرِي وَيَذْوِي الْعَضُوءُ مِنْ حَيْثُ يُشَافُ (٣)
 تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكَلَّمْتَهُمْ بِنِعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنْعَمِ مُتَرَفٌ (٤)
 فَإِنْ يَكْفُرُوا النَّعْمَى فَنَلِكْ دِيَارَهُمْ بِسَيْفِكَ قَاعُ صَفْصَفِ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
 وَطَى الثَّرَى مَشْوَى يَكُونُ قُصَارَهُمْ وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ (٥)
 وَبُشْرَاكَ عَيْدٌ بِالسَّرُورِ مُظَلَّلٌ وَبِالْحِظِّ فِي نَيْلِ الْمَنَى مُتَكَنَّفُ (٦)

(١) النسيم : الريح تهب هبوباً ضعيفاً ، والأعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض ، وتثير الغبار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي التي تسمى بالزوبعة ، وفي المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » يضرب للرجل يلقى نده في البسالة والقوة ، والمرجف : البارد وصف بها الأعصار. وفي الأصل « خرجف » (٢) الفسل : الرذلة الذنء الأحمق ، والمعنى لم يتحقق ظن الأعداء أن تدبيرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما تعد الظنون الحقى الأرزال فتخلفهم .

(٣) يشري العضو : أى يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى السكى ، ويذوى : يذبل ويضمهر ، ويشاف أى تكوى شأفته أى قرحته لتذهب بالسكى ، والبيت تمثيل لحال طائفة نجم فيها النفاق والشر فكانت كالعضو المريض لج به الداء فلم يكن بد من معالجته بالسكى لاستئصال شأفته ، وفي رواية « يدوى العضو » (٤) أى كفيهم مؤونه السى ، وحملت عنهم العبه ، فكلمهم في ظل نعماك دائم التنعيم والترف .

(٥) قصارهم : يقال تصرك وقصارك وقصارك أن تفعل كذا أى غايتك ، والأداهم : القيود لسوادها جمع أدهم وتسمى بالأساود أيضاً ، والمرسف : مصدر ميمي من الرسفان وهو مشى المقيد ، أى أن هؤلاء الأعداء سيكون ما لهم أن يموتوا في الحبس ، بعد إن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظهر من مظاهر الدولة عند خروج الملك للصلاة العيد ، وترتيب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صبح الأعشى أن ينادى في عامة البلد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويتحى أهل كل سوق ناحية ، متجملين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب قوساً أو منقلد سينا ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم ، ويكر الملك بالركوب فيركب وعن يمينه ويساره فارسان ، ويمسك بركابه رجلان مقلدان سيبين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوناً يشمون قدامه ، والمولوج خلفه ملثفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصلى العيد ، ثم يعود فينصرف عامة الشعب ويمد السماء فيحضر طعامه خواصه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبشره بالعيد : بذلاله السرور ، ويكتنفه الحظ ببلوغ المنى .

بَشِيرٌ بِأَعْيَادِ تُوَافِيكَ بَعْدَهُ كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصِفُ^(١)
 تَجَرَّدَ فِيهِ سَيْفٌ دَوْلَتِكَ الَّذِي دِمَاءُ الْعِدَى دَأْبًا بِغَرَبِيهِ تُظْلَفُ^(٢)
 هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ وَحَلِيَّتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالْتَعَفُّفُ
 هُمَامٌ سَمَّا لِلْمَلِكِ إِذْ هُوَ يَابِعُ وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْفِ^(٣)
 كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قَنِيَّةٍ فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَيُشَغَفُ
 غَدَاً بِجَمِيسٍ يُقْسِمُ الْغَيْمُ إِنَّهُ لِأَحْفَلٍ مِنْهَا مُكْفَهَرًا وَأَكْشَفُ^(٤)
 هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرَقُهُ وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ

* * *

فَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانًا أَدَاؤُهُ وَكُلُّنَا بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَلَاحِفُ^(٥)
 قَرْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ حَمْدَكَ إِنَّهُ لِأَوْكَدُ مَا يُحْظَى لَدَيْهِ وَيُزْلَفُ^(٦)

(١) ينسق النظم : أى يبايع بينه ويجعله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أى ينظم وينضد ، والمعنى هذا العيد بشير بأعياد تأتي بعده على نسقه وترتيبه .

(٢) بنزريه : بحديه ، وقظف : تهذب من قولهم ذهب دمه ظلفاً أى هدرأ .

(٣) التلام اليابع الذى شارف الاحتلام ، والمخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى سما بهيته إلى الملك وهو دون الاحتلام ، وتمت له علاماته ورسومه ومميزاته ، وهو مشكوك فى احتلامه .

(٤) الحميس : الجيش الجرار التام الفرق من المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساق وأراد به العسكر السائر فى موكب الملك عند خروجه لصلاة العيد ، والقيم : السحاب ، وأحفل : أى أكثر منها احتشاداً واجتماعاً فى حال كونه (مكتهراً) أى مظلاماً أسود لما على الجند من الدروع والسلاح ، وأكشف : أى أكثر كثافه وتراكمه من السحاب لثدة الزحام وكثرة العدد وأعاد الضمير فى قوله (منها) على النهم مؤثراً سراطة للمعنى . (٥) أى فلما أدينا ما أهمنا أداؤه من صلاة العيد : وكل الناس داعٍ فلاح فى الدعاء بما يرضيك ، وجواب لما أتى بعد .

(٦) يحظى : أى يوجب الحظوة والتفضيل ، وبزلف : يقرب ، والمعنى : ولما اتهمنا من صلاة العيد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ فى بلوغ الحظوة لديه ، والزلفى إليه .

وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ يُغَادِيهِ مِنَّا نَاطِرُهُ أَوْ مُطَرَفٌ (١)
 فَإِذْ نَحْنُ طَالِعَاهُ وَالْأَفُقُ لَابَسٌ مَجَاجِئُهُ وَالْأَرْضُ بِاخْيَلٍ تَرْجُفُ (٢)
 رَأَيْتَكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا تَطَّلَعُ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ (٣)
 وَمَا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَّهْرُ خَادِمٌ تُشِيرُ فِيمَضَى وَالْقَضَاءُ مُصَرَّفٌ (٤)
 وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

* * *

لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا يَنْفَسِي خَصَاعَةً وَأُمِنْتَ حَتَّى مَا بَقَلْبِ تَخَوْفٍ

(١) يغاديه : أى يباكره ويغدو عليه فى أول النهار ، والمطرف : الذى يديم النظر فى القصر من حب وإعجاب ، وهو فى الأصل الذى أصاب طرفه أى عينه عود فهو دائماً يثبت نظره فى الشيء ، ولا يغمض طرفه أو هو اسم فاعل من طرف الشيء اختاره ، قال الشاعر :

أطرف أبكاراً كأن وجوهها وجوه عذارى حسرت أن تقنعا

(٢) طالعه : أى القصر ، والمعجاجة : ما تثيره سناك الخيل من النبار ، وترجف : تضطرب .

(٣) المصلى : للمكان المعد لصلاة العيد ، وتطلع : طلع وأشرف عليهم من محراب ، وروى عن الزجاج فى قوله تعالى « وهل أناك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود » قال : المحراب أرفع بيت فى الدار ، وأرفع مكان فى المسجد ، والمعنى : رأيتك حين عودتنا إلى القصر ومطالعنا إياه مشرفاً بأعلى المصلى من غرفة قصر كأنما أشرف من محراب داود فى يوم نسك وعبادته وجه يوسف رائماً فى حسنه وجماله .

(٤) قال ابن بسام :

وقوله ولما حضرنا الاذن البيت مع الذى بعده أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد فى أبيات أنشدها لحسبها وهى من أحسن ما قيل فى الهيبة :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرجت رجال عن الباب الذى أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة فأقبل بدر التم حين أقابله

كما انتصب الرمح الردينى ثقفت أنابيدسه واهتز للطنع عامله

وكاليد وافته لم سعووده وتم بناء واستهلت منازلها

وسلمت فاعتافت جنائى هيبة تنازعى القول الذى أنا قائله

فلما تأملنا الطلافة وانثنى إلى بشر أنسفتى مخالبه

دنوت فقبلت الندى من يداسرى كرم حياهه سبباط أنامله

صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ورقت كما رق الذسيم شمالكه

وقول ابن زيدون وصلنا فقبلنا الندى من يد اسرى معنى مليح ولفظ صحيح ، إلا أنه كما تراه انط بيت البحرى

ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بخرى زماننا وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده .

وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهَلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ
لَكَ الْخَيْرُ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ؟
وَأَفْذَتَ بِهِمِ الْحَالِ مِنْ غُرَّةِ
وَبَوَّأَتْهُ دُنْيَاكَ دَارَ مَقَامَةٍ
وَلَا ذَلَّ مُقْتَادُ وَلَا لَانَ مَعْطِفُ
وَكَيْفَ أَوْدَى فَرَضَ مَا أَنْتَ مُسَلِّفُ؟^(١)
يُقَابِلُهُمَا طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيُطْرَفُ^(٢)
بِحَيْثُ دَنَا ظِلُّ وَذُلُّ مَقْطِفُ^(٣)

* * *

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبَسْتُمَهَا سُنْدِسِيَّةٍ
مَوَاهِبُ فَيَاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّهَا
فَإِنَّ أُمَّكَ عَبْدًا قَدْ تَمَلَّكَتْ رِقَّةً
أَسْرَبَلُهُمَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأُحْلَفُ
مِنَ الْمُزْنِ تُمَرِّى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُعْرِفُ
فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ^(٤)

(١) نهضة : أى طافة وقدرة أى كيف يكون لى قدرة على القيام بشكرك ، ومسلف : امم فاعل من أسلفه أى أقرضه ، وفي رواية : « قرض ما أنت مسلف »

(٢) المعنى اكسبت سواد الحال منى غرة بيبضه يواجهها طرف الطموح الذى يمد بصره إلى الشيء فيطرف أى يثبت فيها نظره من قولهم فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .

(٣) أى أنزلتنى وأحلتنى من دنياك الشبيهة بدار المقامة جنة دنا ظلها وذلك طوفونها .

(٤) فإن أُمَّكَ بما أوليتنى من نعم عبداً مرفوقاً لك فانى أعد انتمائى إليك بالعبودية والرق اسنى أحوالى وأرفعتها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبي « ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا » .

ولنذكر - بمناسبة هذه القصيدة الفسدة التى قالها ابن زيدون بحترى الغرب فى المعتضد بالله بمناسبة عيد الأضحى - قصيدة بحترى الشرق التى قالها فى التوكل بمناسبة عيد الفطر - ليرى القارىء صورتين قارب بينهما اتحاد الغرض والشاعرية وان اختلفت القافية والبحر :

الله مكن للخليفة جعفر ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلهما والله يرزق من يشاء ويتقدر
فاسلم أمير المؤمنين ، ولا تزل تعطى الزيادة - فى البقاء - وتشكر
صمت فواضلك السبرية ، فالتقى فيها المقل على الغنى والمكتر

* * *

بالبرصمت - وأنت أفضل صائم - وبسنة الله الرضية تظفر
فانهم بيوم الفطر عينا ، إنه يوم أفر - من الزمان - مشهر
أظهرت عز الملك فيه بحجفل لجب ، يحاط الدين فيه وينصر

في طروشة (١)

عَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢)
تَحْمَلُهَا مِنْهُ السَّلَامَ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي أَحْتِمَالِهَا
سَلَامٌ هَوَى يُهْدِيهِ جِسْمُهُ إِلَى قَلْبِ (٣)

خلنا الجبال تسير فيه ، وقد غدت
فالحليل تصهل ، والفوارس تدعى ،
والأرض خاشعة تמיד بشقلها ،
والشمس مائة توند بالضحي
حتى طلعت بضوء وجهك ، فأنجحت
واقفت فيك الناظرون ، فاصبح
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا لطلعتك النبي فهلوا
حتى انتهت إلى المصلى لا بسأ
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما
عددا يسير بها العديد الأكثر
والبيض تلمع ، والأسنة ترهر
والجو معتكر الجوانب أغبر
طورا ، وبطفها العجاج الأ كدر
تلك الدجى ، وأنجاب ذلك العثير
يومي لإيك بها ، وعين تنظر
من أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يزهي ، ولا يتكبر
في وسعه لسمى لإيك المنبر



أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النبي مذكرا
ومواظفت شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراءك آخذين بعصمة
فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل
الله أعطاك المحبة في الورى
ولأنت أملا للعيون لبيهم
تنبى عن الحق المبين وتخبير
بالله تنذر تارة وتبشر
باعتادها وشفاؤها متعذر
نفس المروى واهتدى للمتخير
من ربهم وبذمة لا تخفر
يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
وحباك بالفضل الذى لا ينكر
وأجل قدراً فى الصدور وأكبر

- (١) هي مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهي من أعمال بلنسية . قالوا :
وكانت متقنة العمارة ، وهي من الغرض البحرية التي يبتاعها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد
استولى عليها الافرنج وعلى جميع حصونها في سنة ٥٤٣ هـ (٢) ربح الصبا ، وهي التي تهب من
الشرق ، وتقابلها الدبور (٣) ليت الصبا تحتمل أنفاسها سلاما من جسم في الشرق إلى فؤاده النائي
عنه في الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي وساكنيه بأرض
قد ر الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

إلى الوزير أبي عبد الله (١)

« لم تزل الأيام تدنى « ابن زيدون » وتبعده ، وتسوءه وتسعده ،
وتقذف به إلى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى
أحلت له « بلنسية » وهلال ذكائه كما أقر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ،
وبنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلسكها ، يفوضون بحور الندى ،
ويومضون في كل منتدى ، فحل منهم محلّ الحيا في الكؤوس ،
ووقع منهم موقع البشائر في النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة
تغازله ، ومكارمة تفاديه ، ومجاملة كرايح القطر وغاديه ، فاما انفصل ،
وحصل ما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد
صوح ، وغصن سنه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يهصر غير
فننه غصنا رطيبا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز (٢) :

رَاحَتٌ فَصَحَّ^(٣) بِهَا السَّقِيمُ رِيحٌ مُعَطَّرَةٌ النَّسِيمُ
مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو لَا^(٤) فَهِيَ تَعْبِقُ فِي الشَّمِيمِ^(٥)
أَفْضِيضُ مِسْكِ أُمَّ بَلَدٍ سَيِّئَةٌ لِرِيَّاهَا^(٦) نَعِيمِ^(٧)
بَلَدٌ حَيْبٌ أَفْقُهُ لِفَقْتِي يَحُلُّ بِهِ كَرِيمِ

(١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز . (٢) فلأند العقيان .

(٣) وفي رواية « فراح لها السقيم » راحت أى بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح
للأمر يراح » إذا أخذته أريحية وخفة ونشاط ، أى فارتاح لطيبها السقيم .

(٤) القبول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تتبها .

(٥) أى أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تنسم منه طيب الشذى ،

(٦) لريحها الطيبة . (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشذى الذى تستروح النفس إليه قد هب علينا .

* *
* *

أَيْهَا أبا عَبْدِ الْإِلَهِ دُعَاءُ مَغْلُوبِ الْعَرِيمِ (١)
 إِنَّ عَيْلَ صَبْرِي مِنْ فِرَا قِكِ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمٌ (٢)
 أَوْ أَتَبَعْتِكَ حَنِينَهَا تَقْسِي فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمٌ (٣)
 ذِكْرِي لِعَهْدِكَ كَالْمَهْمَا دِ (٤) سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمِ
 مَهْمَا ذَمَّمْتُ فَمَا زَمَا نِي فِي ذِمَامِكِ بِالذَّمِيمِ (٥)
 زَمَنْ كَمَا لَوْفِ الرِّضَا عِ شُوقُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمِ (٦)
 أَيَّامَ أَغْقَدُ نَاطِرِي بِذَلِكَ الْمَرَأَى الْوَسِيمِ (٧)
 فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّةً فِي ثَوْبٍ أَوْاهِ حَلِيمِ (٨)
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكَ مِنْ فُؤَادِي بِالصَّمِيمِ (٩)
 وَلَيْسَ تَحْمَلُ عَنْكَ لِي جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمِ (١٠)

- (١) أيها : بكسر الهمزة بمعنى زدن من الحديث ، وبفتحها بمعنى اكفف واسكت ، أو للتباعد بمعنى هيهات ، أي بعد دعاء مغلوب العريم ، والعريم : الأمر الداهي العظيم ، والمعنى هيهات يجدي دعائي وأنا من غلبته الحادثات على أمره . وفي الأصل : « مغلوب العريم »
 (٢) لي العذر إذا ضجرت بفراقك وعيل صبري فقد اشتدّ بي الألم لبعادك .
 (٣) التقسيم : شطر الشيء المقسوم ، أي أنت شطر نفسي الثاني فلا غنى لي عنك .
 (٤) وفي الأصل : « كالعداد »
 (٥) الدمام : الحق والحرمة ، والمعنى مهما ذممت : من عهود الزمان الغادر فلن أذم ذلك العهد الجميد الذي قضيته معك وانعمت فيه بقربك ووطابتك .
 (٦) فقد كان في ذلك العهد المحبوب مبعث ذكريات سارة أحن إليها كما يحن الطفل المغطوم إلى عهد الرضاع القريب . وفي الأصل « زمن كالون الرضاع » (٧) أيام ينعم ناظرى برؤية حياك البهي .
 (٨) الأواه : الكثير التأوه إشفاقاً وفرحاً ، قالوا : « وهو الكثير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء أو هو الرحيم الرقيق » والمعنى : فأرى الفتوة - في عنفوانها - مقترنة بالخشية والتضرع والحلم ، وفي الكتاب الكريم : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (٩) الصميم : المحض أو الخالص .
 (١٠) وإذا رحل عنك جسمي فإن قلبي لم يرحل عنك ولم يحل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي يَا خِلَالَ سِرِّهِ وَكَ (١) قَبْلُ أَفْتَنُ أَوْ أَهِيْمُ (٢)
 أَبْجَدِكَ الْعَمَمِ (٣) الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ (٤)
 أَمْ ظَرَفِكَ الْخُلُو الْجَنَى أَمْ عَرَضِكَ الصَّافِي الْأَدِيمِ
 أَمْ بَرِّكَ الْعَذْبِ الْجَمَا مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضِّ الْجَمِيمِ (٥)
 أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّا لِي مِنْ تَشْيِيرٍ أَوْ نَظِيمِ
 وَبِلَاغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْلُهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمِ
 فَقِرُّ تَسْوِغُ بِهَا الْمَدَا مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمِ (٦)
 إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الطَّلَا قَةٌ فَالْنَدَى مِنْهَا مُقِيمِ

* * *

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْخُطُو ظَ حَبَاكَ بِاخْلُقِ الْعَظِيمِ
 لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نَعْمِي فِيكَ ، لَا بَلَّ أَسْتَدِيمِ
 فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمِ
 حَسْبِي الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بَرِّكَ مَا بَدَأَ بَرَقَ قَشِيمِ (٧)
 ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنَّأَ طُولَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمِ
 ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغْنَاهُ فُغَيْبُ ، مُهْدِيهِ سَلِيمِ (٨)

(١) السرو : الفضل والسخاء في الروءة . (٢) لاني لا أدري أى خلال فضلك جدير بالاشارة والتنويه ، وأى زياك جدير بأن يهيم به طرفك ويفتن . (٣) الشامل .
 (٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمام - جمع جمة بتشديد الميم - الماء الكثير المجتمع ، يقال : جت البئر جوما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بعد نزح ما فيها ، قال زهير :
 « ولما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم »
 والجم : النبت الكثير . (٦) كلمات تمذب بها الحجر إذا ردها النديم .
 (٧) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يطر ، وفي الأصل : « لحسن بركة » .
 (٨) وفي رواية : « ثم السلام تبليغنه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابٍ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطيبي :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار

وقلّ منا ومنك اليوم زوّار

ويدننا كل ما تدرّيه من ذم

وللصبا ورق خضر ونوّار

وكل عتب وإعتاب جرى ذله

مواقع حاوة عندي وآثار

فاذكر أخاك بخير - كلما لعبت

به الليالي - فان الدهر دوّار

جوابه بديها في ظهر رقعة : »

لَوْ أَنِّي لَكَ فِي الْأَهْوَاءِ مُخْتَارُ لَمَا جَرَّتْ بِالذِّى تَشْكُوهُ أَقْدَارُ

لَكِنَّهَا فِتْنٌ فِي مِثْلِ غَيْبِهَا تَعْمَى الْبَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَ أَبْصَارُ^(١)

فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لِاتِّرْتَبِ بَعْدِ فِتْي تَعْفُو الْعُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ

لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فِي الْأَمْرِ يُمَكِّنُهُ لَمَا أَغْبَكَ - يَوْمًا - مِنْهُ زَوَّارُ^(٢)

فَلَا يَرِيْنُكَ فِي ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

(١) لو كان لي الخيار فيما تهواه وتجه لما جرى القدر بما يسوءك ويبعثك على الشكوى ، ولكنه قدر

لا سبيل إلى رده ، وفتنة تضل في غيابها العقول وتعمى الأبصار .

(٢) لو كان الأمر بيدي لما تخلفت عن زيارتك يوما واحدا .

في الغزل

وَضَحَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَتَقَى الشَّكَّ الْيَقِينُ
 وَرَأَى الْأَعْدَاءَ مَاغَرَّ تَهْتُمُ مِنْهُ الظُّنُونُ
 أَمَلُوا مَا لَيْسَ يُعْنَى وَرَجَّوْا مَا لَا يَكُونُ
 وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ أَلْسَمَهُدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ (١)
 فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِيمٌ وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ (٢)

*
*

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِي وَهَوَاهُ لِي دِينُ
 يَا جَوَادًا بِي إِنِّي بِكَ وَاللَّهِ صَنِينُ
 أَرْخَصَ الْحُبُّ فُؤَادِي لَكَ وَالْعَلِقُ (٣) تَمِينُ

*
*

يَا هِلَالًا تَتَرَا ءَاهُ نَفُوسٌ لَا عِيُونُ
 حَبِيبًا لِلْمَلْبِ يَتَسَوُّ مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ (٤)
 مَا الَّذِي ضَرَّكَ لَوْ سُرَّ بِمِرَاكِ الْحَزِينُ
 وَتَلَطَّفْتَ لِصَبِّ حَيْمُهُ (٥) فِيكَ يَحِينُ
 فَوَجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى وَالْمَعَاذِيرُ فُنُونُ (٦)

(١) وفي رواية: وتمنوا أن يخون ال عبيد مولى لا يخون

(٢) تخاب ظن الأعداء وظهر أنني لم أذن لمولاي عهداً، وأن إخلاصي ووفائي لها سليمان وودي له لا يتغير

(٣) النفيس، وفي رواية: « والعلق التمين ».

(٤) وفي رواية « والمطف يلين » . (٥) هلاكه . (٦) شتى .

في مدح ابن جهور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّفِيعَ شَبَابُ فَيَقْضُرُ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ^(١)
 عِلَامَ الصَّبَا غَضُّ يَرِفُ رِوَاؤُهُ إِذَاعَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ^(٢)
 وَفِيمِ الْهُوَى مَحْضٌ يَشْفُ صَفَاؤُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْهُ تَوَابُ^(٣)
 وَمُسْعِفَةَ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرَّ بِعِ الْحِمَى لَهَا كَلَّمَا قَطْنَا الْجَنَابَ جَنَابُ^(٤)
 تَظُنُّ النَّوَى تَعَدُّ وَالْهُوَى عَنْ مَزَارِهَا وَدَاعِي الْهُوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ^(٥)

(١) ألم تعلم أن خير شافع المحب إذا جنى ذنبا هو غضارة شبابه ، وأن الشاب لحسنه في الأعين ولما فيه من الترفه والخفة يعتبر شفيعا في تخفيف العقوبة وتنزيلها من لوم عنيف إلى عتاب خفيف بلطف مدخله على القلب ، وإذ كان الشاب خير شافع للحسان فما أجدرهن بالاقصار عن اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فان تسألوني بالنساء ، فأنبي خبير بأدواء النساء طيب
 إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودهن نصيب
 يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرح الشباب عندهن عجيب

(٢) غرض : طرى ناعم ، يرف رواؤه : يترقق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشاب وغضارة الصبا إذا اخفقا في ترفيب الحسان وعجزا عن اكتساب ودهن .

(٣) محض : خالص لا شائبة فيه ، ويشف من شغوف الماء أي يبدى ما وراءه أي وفيه جتنا خالص لا يشوب صفاه كدر إذا لم يكن من الحسان مثوبة عنه وجزاء عليه .

(٤) المربع : الموضع الذي ينزلون فيه زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلاً يحميه أهله من أن يراه غيرهم ، وقظنا : من الفيظ وهو صميم الصيف يقال قظنا بمكان كذا أي أقبنا فيه زمن الصيف والمقيظ والمصيف بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أي قظنا في المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثاني الناحية ، أي رب حسناء تسعفني بوصولها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً في زمن الربيع ، وفي هذا البيت جناس متكلف كما ترى .

(٥) تظن مسافة البعديني وبينها تصرف تسمى عن زيارتها والحال إن داعي الهوى الذي يناديني من ناحيتها مجاب الدعوة .

وَقَلَّ لَهَا نِضْوُ بَرَى نَحْضَهُ السَّرَى وَبِهِمْ أَمْ غُفْلُ الصَّحْصَحَانِ تَجَابُ (١)
 إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهًا مَضَوْا لَهُ فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَحُبَّ رِكَابُ (٢)
 عَرُوبُ الْأَحْتِ مِنْ أَعَارِبِ حِلَّةٍ تَجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهْمِيلِ عَرَابُ (٣)
 غِيَارَى مِنَ الطَّيْفِ الْمَاوِدِ فِي الْكِرَى مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ (٤)
 وَمَاذَا عَلَيْهَا أَنْ يُسَنَّى وَصَلَهَا طِمَآنُ - فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا - فَضِرَابُ (٥)
 أَلَمْ تَدْرِ أَنَّا لَا نَزَاحَ لِرَيْبَةٍ إِذَا لَمْ يَلْمَعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ (٦)
 وَلَا نَنْشُقُ الْعِطْرَ النَّمُومَ أَرِيحُهُ إِذَا لَمْ يُشْعَشِعْ بِالْعَجَاجِ مَلَابُ (٧)

(١) النضو: المهزول والمراد به البعير الذي أنضاه السفر أى أهزله ، وبرى نحضه السرى : أى أذهب لجه السير بالليل ، والبهام : الفلاة لا يهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامة بها ولا أثر يعرف ، والصحصحان : المستوية الجرداء ، أى وتل لهذه المحبوبة النائية بعير أنضاه السفر وفلاة مجهولة لا أثر فيها للعمارة والطرق تجاب وتقطع سيرا لأجلها . (٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وكنت إذا ما جئت لىلى أزورها أرى اليد تطوى لى ويدنو بعيدها

(٣) العروب : المطيعة لزوجها المنجبة إليه ، والأحت : ظهرت أولوحت بطرف شىء من مكان بعيد والأعارب : الأعراب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الخيل العربية ، والمعنى : زوجة من طاعة زوجها والتحبب إليه بحيث لا تلتفت لى غيره . قد لوحت بطرف مندبل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب الفيورون حيث ارتبطوا خيولهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من الغيرة وهى الحمية والأفقه . يقال رجل غير على أهله وكذلك غيران والأثنى غيرى ، والمشيع : الحذر المجد المرع إليك لمدافعة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أبت لى همى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الريح

وأقدامى على المسكروه نسي وضربنى هامة البطل المشيع

(٥) يسنى : أى يسهل ويسر ، ومنه تسنى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وأعلم علما ليس بالظن انه إذا الله سنى عقد شىء تيسرا

والمعنى : وأى تبعة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق لى وصلها مطاعنة بالرماح فان لم تكن فضارية بالسيف (٦) نزاح : كنعاف من قولهم فلان يراح للمعروف إذا أخذته له أريحية وخفة ، ويلمع أى يلون بلون النجيع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصول الغافيات إذا لم ندفع ثمنه من دم الأعداء .

(٧) النموم : مبالغة فى النم كنى به عن سطوع الرائحة ، والأريج : ما يفوح من العطر ، وبشعشع : يختلط ، والعجاج : الغبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا نستريح لى انتشاق عطرهن الساطع الأريج إلا بعد امتشاق الحسام ، واختلاط ما تثيره سنابك الخيل من التراب ، بما ينوح من رائحة الملاب ، والمعنى أنه لا يجب أن يظن بتلك اللذائذ إلا إذا اغتصبها اغتصابا بمجد السيف . فهو لا ينزل الريبة إلا بالدم ولا ينشق العطر إلا مشوبا بغبار الهبياء .

وَكَمْ رَاسِلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيْدَهُ
 وَمَ يَدْنِنَا أَنَّ الرَّبَابَ عَقِيْلَةَ
 وَأَنَّ رُكِرَتْ حَوْلَ الْخُدُوْرِ أَسِيْمَةُ
 وَلَوْ نَذَرَ الْحَيَانَ غِبَّ الشَّرِي بِنَا
 وَلِيْمَةَ وَافْتَنَّا تَهَادَى فَنَمْتَرِي
 يُعَذِّبَهَا عَضُّ السَّوَارِ عِمْعَمِ
 لِأَبْرَحَتْ مِنْ شِيْحَانَ حُطَّ لِثَامُهُ
 ثَوَى مِنْهُمَا ثِنَى النَّجَادِ مَشِيْعِ
 فَارَاعَهُ إِلَّا الطَّرُوقَ جَوَابُ (١)
 تَسَانَدُ سَعْدُ دُونَهَا وَرَبَابُ
 وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ (٢)
 لَكُرَّتْ عِظَالِي أَوْ لَعَادَ كِلَابُ (٣)
 أَيَسْمُو حَبَابُ أَوْ يَسِيْبُ حُبَابُ (٤)
 أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيْمَ عَذَابُ
 إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ (٥)
 نَجِيْدُ وَمِيْلَاءُ الْوَشَاحِ كَعَابُ (٦)

(١) الغيران : وصف من الغيرة ، والطروق : طروق الحى بالليل ، وفي التمتع بالوصل رغم الغيور يقول ابن الرومي .

ألا ربما سؤت الغيور وساءني وبات كلانا من أخيه على وحر

وقلت أفواها عذاباً كأنها ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر

(٢) القب : جمع قباء وأقب والأقب الضامر من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذي قبله لم يصر فنا عن زيارة هذه المحبوبة التي كنى عنها بالرباب أن تساند هاتان القيلتان وتماوتتا دون الوصول إليها .

(٣) نذره كفرح علمه فخره وعظالي وكلاب بضم أولهما يومان من أيام العرب ، أي لو علم بسرانا إليها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومي عظالي وكلاب في الشهرة والهول .

(٤) يسمو : أي يرتفع للناظر إليه من بعيد فيستبينه وحباب - بالفتح - توجج الماء وطرائقه التي كأنها

كطرائق النسيج وبالضم الحية ، ويسمو الينا حباب بالفتح وهو الماء في تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق النسيج وهو تمثيل لاختلاس الخطا في المشى ، والمعنى : واذكر ليلة وافتنا مخفية فنشك أيقبل نحونا حبيب أو تنساب الينا حية . يقول : لقد كنا لا ندري أنكون ليلتنا ليلة أنس واغبطا بقرب الحبيبة ، أم

ليلة حرب وضراب بغزو أهدأنا إيانا ، وسمو الحباب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إِيها - بعد مانام أهلها - سمو حباب الماء ، حالا على حال

(٥) لأبرحت : لقد أفرطت في الحذر وتوقع موائبة العدو ومشايخته ، والشيجان : الغيور الحذر على الحرم ، والخفر : الحياء ، والاثام : للرجل ، والنقاب : للمرأة ، يقول : لقد وضعت الاثام عن وجهي وتمتعت بحبيد لم يرفع عنه وجهه نقاب لفرط حيائه . ولقد كنت - إلى ذلك - دائم الحذر والتوقع لموائبة العدو .

(٦) ثوى : أدام ، وثى النجاد : بكسر أولهما أي طى الفرش والوسائد ، والمشيع : كمظم الشجاع ، والنجيد : الأسد - وهو يعنى بذلك نفسه - وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار ليهود ثديها وضمور كشحها ، والكعاب : كسحاب التي كعب ثديها - وهو يعنى بها حبيته - وفي معنى هذا البيت

يقول الطنراني : وبنا على رغم الغيور يضمننا جميعاً حواشى بردها وردائنا

وكانت إساءات الليالي كثيرة فما برحت حتى شكرنا الليالي

يُعَلَّلُ مِنْ إِغْرِيزٍ تُعْرَى يَعْلُهُ (١)
 غَرِيضٌ كَمَا الْمَزْنِ وَهُوَ رُضَابٌ (١)
 وَنُقِرَّ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابٌ (٢)
 وَنُقِرَّ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابٌ (٢)
 وَقَدْ كَادَتْ الْجُوزَاءُ تَهْوِي فَخَلَّتْهَا (٣)
 ثِنَاهَا مِنَ الشَّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابٌ (٣)
 كَانَ الثَّرِيَا رَايَةً مُشْرِعٌ لَهَا (٤)
 جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهَابُ (٤)
 كَانَ سُهَيْلًا فِي رِبَاوَةِ أَفْقِهِ (٥)
 مُسِيمٌ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابٌ (٥)
 كَانَ الشَّمَا فَانِي الْحُشَاشَةِ شَفَهُ (٦)
 صَتَى فَخُفَاتُ مَرَّةً وَمَثَابُ (٦)
 كَانَ الصَّبَاحُ أُسْتَقْبَسَ الشَّمْسُ نَارَهَا (٦)
 فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابُ (٦)
 كَانَ آيَةَ الشَّمْسِ بِشْرًا بِنِ «جَهْوَرِ» (٦)
 إِذَا بَدَلَ الْأَمْوَالَ وَهِيَ رِغَابٌ (٦)
 هُوَ الْبَشْرُ شِمْنَا مِنْهُ بَرَقَ عَمَامَةٌ (٦)
 لَهَا بِاللَّهْمَا فِي الْمُعْتَفِينَ مَصَابٌ (٦)

(١) يعلل : أى يكرر من التعليل وهو جنى الثمرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فقلت لها سيري وأرخی زمامه ولا تعديني من جنائك المعلن

والأغريض : الطلع جعل ما ناله مكررا من تقيلها بمنزلة إغريض أبيض حلوا تكرر جناه ، ويعلمه أى يسقيه

مكررا ، والغريض : ماء الأسنان ، والرضاب : الريق المرشوف ، قالوا : وهو الريق مادام فى الفم .

(٢) الذممة : سواد الليل ، والنرة : بياض الصبح ، شبه الصبح فى استعماله الدجى بمن يطير غربا ،

ونظير هذا قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غربا ذا قوادم جوث

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، والشعرى : شعريان « إحداهما » الشعرى

العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها - كما يقال - عبرت السماء عرضاً ولم يعبر

السماء عرضاً غيرها وهى التى عبدها طائفة من العرب فى الجمالية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى

قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » أى التى تبدونها « والثانية » انبصاء تقول العرب فى أحاديثها

لأنها تحمضت من بكائها على العبور ، وتناها : عطفها ، والجناح : الناحية والفناء .

(٤) سهيل نجم ، ورباوة أفقه ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أسام الابل أى أرهاها ، شبه

سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء النجوم براع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها ضوؤها وحسنها .

(٦) اللها : بالضم العطايا ، والمعنى : كالعاقى طالب الفضل والجود ، والمصاب : بالفتح نزول

المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصبوب إذا نزل .

جَوَادُ مَتَى أَسْتَعَجَلْتَ أَوْلَى هِبَاتِهِ
 غَنِيٌّ عَنِ الْإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ
 إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الرَّهِيدَ مَنِيْلُهُ
 عَطَايَا يُصِيبُ الْحَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ
 مُوْطَأً أَكْنَافِ السَّمَاحِ دَنْتَ بِهِ
 فَرْزُهُ تَرُّزُ أَكْنَافِ غَنَاءِ طَلَّةِ
 زَعِيمُ الْمَسَاعِي أَنْ تَلَيْنَ شَدَائِدِ
 مَهِيْبٌ يُغْضُ الطَّرْفُ مِنْهُ لِأَذِنِ
 لِأَبْلَجِ مَوْفُورِ الْجَلَالِ إِذَا أَحْتَبِي
 وَذِي تُدْرَأِ يَعْذُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ
 إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمَ لَمْ يَكْ هَفْوَةٌ

كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمِّ عُبَابُ
 إِذَا اسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَكِيَّ عِصَابُ^(١)
 فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ^(٢)
 عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُحْبَوْا بِهَا فَيَحَابُوا
 خَلَاقُ زُهْرِهِ إِذْ أَنَا فَنِصَابُ^(٣)
 أَرَبَّتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ^(٤)
 يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلَيْنَ صِعَابُ
 مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ^(٥)
 عَلَا نَظْرُهُ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ
 غِلَابُ فَهَمَّا عَزَّهُ فَنِغْلَابُ^(٦)
 يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ^(٧)

(١) الناقة البسوس : هي التي لا تدر إلا على الإبساس بأن يقال لها « بس بس » تسكيناً لها ،
 والدر اللبن ، والبكي الناقة التي قل لبنها ، والمصاب : بالكسر شد نخذي الناقة لتدر . يقول : إن نواله
 قريب ميسور لا يكفك مشقة ولا يجوجك إلى إلحاف . (٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر
 بمعنى الكثير الكافية صفة لعطاياه ، ومنه قوله تعالى « عطاء حساباً » أي كانياً ، والمعنى : إذا عد
 العطاء القليل منيله ومعطيه ليحصيه فما لعطاياه الكثير الكافية عد ولا إعطاء .
 (٣) يقال رجل موطأ الأكناف : كعظم أي سهل دمت الأخلاق سمح كريم ، والنصاب : كالمنصب
 الأصل ، والمعنى : أنه سهل جوانب السماح يقربه منك ويدنو به إليك دماثة أخلاقه وإن علمنصبه وسما أصله
 (٤) النناء : الكثير الشجر ، والطللة : الروضة بلها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه
 والرباب السحاب . (٥) يقول إن ابن جهور مهيب يفضى من مهابته ومع هذا فهو يفضى طرفه
 حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« يفضى حياء ، ويفضى من مهابته فلا يكلم إلا حسين يبتسم »

(٦) ذو تدرأ : بضم أوله أي صاحب عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أي مغالبة ،
 وعزه : غلبه ، وخلاب : من خلبه إذا خدعه ، وفي المثل « إذا لم تغلب فأخلب » .
 (٧) يقول إذا أمضى العزم لم يك إمضاؤه هفوة بعض عليها أنامله ندماً وغیظاً .

عَزَائِمٌ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُرِّهَا كَمَا رَهَبْتَ يَوْمَ النَّضَالِ رِهَابٌ^(١)
صَوَائِبُ ، رِيشُ النَّصْرِ فِي جَنَابَاتِهَا لَوْأَمٌ ، وَرِيشُ الطَّائِشَاتِ لِعَابٌ^(٢)
حَلِيمٌ تَلَاقَى الْجَاهِلِينَ أَنَاتُهُ إِذِ احْلَمْتُ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابٌ^(٣)
إِذَا عَثَرَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ حَافِظٍ بِنُعْمَى لَهَا فِي الْمُذْنِبِينَ ذِنَابٌ^(٤)
شَهَامَةٌ نَفْسٍ فِي سَلَامَةٍ مَذْهَبٍ كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطَابٌ^(٥)
« بَنِي جَهْوَرٍ » تَهْمًا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلٍ فَسَرَّ مِنْ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابٌ
حَطَّاطٌ بِحَيْثُ أَسَدَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعَلَا وَأَوْقَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابٌ
بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهُ شُمُوسٌ وَأَيْدٍ فِي الْمُحُولِ سَحَابٌ

* *
* *

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابٌ^(٦)
مُحْيَاكَ بَدْرٌ وَالْبُدُورُ أَهْلَةٌ وَيُمَيِّنَاكَ بَحْرٌ وَالْبُحُورُ نِعَابٌ^(٧)
رَأَيْتُكَ جَارَكَ الْوَرَى فَعَلَبْتَهُمْ لِذَلِكَ « جَرَى الْمَذْ كِيَاتِ غِلَابٌ »^(٨)

- (١) الانصياع الرجوع أى يرجع الأعداء عما أسره من العزائم خوفا ورهبة كما رهبت يوم النضال رهاب أى اتصال رقيقة جمع رهب كحل . (٢) صوائب : صفة العزائم فى البيت قبله يريد أنها عزائم صائبة كالسهام ، واللغاب : ريش السهم إذا لم يعتدل فإذا اعتدل فهو لؤام . (٣) وهذا قريب من قول المتنبي : « ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عقاب »
(٤) الذناب : بالسكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر به أى يحركه يمينا وشمالا فيسألا راكمه ، أى أنه بما يسديه إلى الجنة من نعمى بمنهم من الوقوع فى الذنب كما يمنع الذباب ذنب البعير عن تلوث راكمه بخطرانه
(٥) قطاب : بالسكسر مزاج . (٦) معمس : خفى مشتبه ، والمعنى : المنزل .
(٧) نعباب : بالسكسر جمع نعب وهو القدير . أو هو مسبل الوادى ، وجمعه نعباب ، قال ابن دريد : « والناس ضحاح نعباب وأضى » ويجمع أيضا على نعبان ، قال الحريرى فى أحاجيه التى ذكرها فى مقاماته : « أمجوز الوضوء من ماء النعبان » فقيل : « وهل أحسن منه للعربان »
(٨) والمذكيات - والمذكيات بالانضعيف - الخيل التى بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفى المنل : « جرى المذكيات غلاب » أى أن تغالب الجرى غلابا .

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَانِكَ أَعْيُنُ^١ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ^٢

* * *

فَتَحَّتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ الْهَامِنَا بِهَا^١ وَقَدْ صَاعَ إِفْلِيدُ وَأَبْرَهَمَ^٢ بَابُ^(١)
 مَدَدَتْ ظِلَالَ الْأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَهَا^٣ مِنَ الْعَيْشِ فِي أَعْدَى الْبِقَاعِ شِعَابُ^(٢)
 حَمَى سَأَلْتُمْ فِيهِ الْبُغَاثَ جَوَارِحُ^٤ وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرَّتَاعِ ذِيَابُ^(٣)
 فَلَا زِلْتَ تَسْعَى سَعَى مَنْ حَظُّ سَعِيهِ^٥ نَجَاحُ وَحَظُّ الشَّانِدِيهِ تَبَابُ^(٤)
 فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لِمَلَامُ^٦ وَإِنَّكَ لِلْمَلِكِ الثِّي لِرِنَابُ^(٥)
 إِذَا مَعَشَرُ أَهْلَاهُمْ جَلَسَا وَهُمْ^٧ فَلَهُوْكَ ذِكْرُ وَالْجَلَيْسُ كِتَابُ^(٦)
 نَعْنَبُكَ عَنْ شَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِي انْقَضَى^٨ فَإِنَّكَ مَفْجُوعٌ بِهِ فَمُصَابُ^(٧)
 هُوَ الزَّوْرُ لَوْ تُعْطَى الْمُنَى وَضَعَ الْعَصَا^٩ لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ مُثَابُ^(٨)
 شَهِدْتُ لَأَدَى مِنْكَ وَاجِبَ فَرَضِهِ^{١٠} عَلِيمٌ بِمَا يُرْضَى الْإِلَهِ نِقَابُ^(٩)
 وَجَاوَرَتْ بَيْنَ اللَّهِ أَنْسَاءُ مِعْشَرِ^{١١} خَشَوْهُ فَخَرُّوا رُكْعًا وَأَنَابُوا^(١٠)
 لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَقَّ تَبْتُلُ^{١٢} وَبَالَغَ إِخْلَاصٌ وَصَحَّ مَتَابُ^(١١)

(١) إيهام : الباب إغلاقه ، وباب : مبهم أى مغلق ، والانليد : المفتاح .

(٢) أعنى : أفعال تفضيل من عذبت الأرض يقال أرض عذاة وهى الطيبة التربة الخامة من الزرع البعيدة من ماء الأنهار والجداول ، والشعاب : جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء ، يقول أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وجعل الخصب يمتد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .

(٣) البغاث : ضعاف الطير ، البهم : واحدها بهمة بالفتح وهى أولاد الضأن والمز والبتر . وهذا البيت من أبداع ما قرأناه فى وصف استنباب الأمن . (٤) الشعيب : المنفرد ، والثئى : الفاسد من ثأى يتأى فهو ثأى كندر إذا فسد ، ورثاب : جمع رؤبه وهى القطعة من الخشب يشعب بها الاتاء ويسديها ثلمة الجفنه

(٥) يشير إلى قول المتنبي : « وخير جليس فى الزمان كتاب »

(٦) النقاب : بالكسر العالم بالأمر .

(٧) الاخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخشع وتواضع ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى .

سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا بِهِ لَكَ مَفْخَرٌ
وَبُشْرَاكَ أَعْيَادُ سَيْنَمِي أُطْرَادَهَا
تَرَى مِنْكَ سَرَّو الْمَلِكِ فِي قَشْفِ الثَّقَى
فَأَبْلُ وَأَخْلِفَ إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ
فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاعِرَ مِنْ عِدَا
عَفَا عَنْهُمْ قَدْرِي الرَّفِيعُ فَأُهْجَرُوا
وَقَدْ تَسْمَعُ الْبَيْتَ الْجَحَاشُ نَهَيْقَهَا
إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرِّوْضِ أَوْ فَاحَ طَيْبُهُ
فَلَا بَرِحَتْ تِلْكَ الضَّعَّانُ إِنَّهَا
يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَعَرِّبْ صَرِيمَةً
فَأَنْتَ الْحَسَامُ الْعَضْبُ أُصْدِي مَتْنَهُ
وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانَ مَضَاوُهُ
وَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ كُدَّرَ صَفْوُهُ
وَقَدْ أَخْلَفْتُ مِمَّا ظَنَنْتُ مَخَائِلُهُ
فَنَنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمْ
لِيُخْزِهِمْ إِنْ لَمْ تَرُدَّنِي نَبْوَةً

- (١) الفواعر : جمع فاغره من فرفراه إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والثقاب : ما أُنقبت به النار واشتملتها به من صغار العيدان . يقول : نفسى نداؤك ، كم ألقى الكوارث من أعداء خبيثاء ذوى مكر خفى في تدبير الفتن ، ودعاء في نصب الشراك . (٢) لصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لرق به من شدة الهزال يريد ان ما يحملونه من ضعف له لنع في صدورهم كلذع الأفاعى سبب لهم الهزال . (٣) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، والنهاب : بالكسر الغنائم جمع نهب . (٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

وَقَدْ تَغَشَى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُدْرَةً
 سُرُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ
 وَإِنْ يَكُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمَّلٌ
 أَيْعُورٌ مِنْ جَارِ السَّمَاكَيْنِ جَانِبٌ
 قَائِنٌ ثَنَاءَهُ يَهْرُمُ الدَّهْرُ كِبَرَةً
 سَأَبُكِي عَلَى حِطِّي لَدَيْكَ كَمَا بَكَى
 وَأَشْكُو بُؤْسَ الْجَنْبِ عَنِ كُلِّ مَضْجِعٍ
 فَثِقَ يَهْزِبُ الشَّعْرَ وَأَصْفَحَ عَنِ الْوَرَى
 وَلَا تَعْدِلِ الْمُثْنَيْنِ بِي فَأَنَا الَّذِي
 يَنْوُبُ عَنِ الْمُدَّاحِ مِنِّي وَاحِدٌ
 وَرَدَّتْ مَعِينِ الطَّبْعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ
 وَتَحَدَّنِي عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ
 فَعَدُّ بِيَدٍ بَيْضَاءَ يَصْدَعُ صِدْقُهَا
 وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَعَمَّرَ مَرِيرَةٌ
 وَيَغْطُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابٌ^(١)
 وَأَرَى الْمُنَى مَا لَمْ تُثَلِّ بِكَ صَابٌ^(٢)
 فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهُوَ سَرَابٌ
 وَيُعْزُ فِي ظِلِّ الرَّبِيعِ جَنَابٌ^(٣)
 وَحِلْيَتُهُ فِي الْغَابِرِينَ شَبَابٌ
 رَبِيعَةٌ لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابٌ
 كَمَا يَتَجَافَى بِالْأَسِيرِ ظِرَابٌ^(٤)
 قَائِنُهُمْ - إِلَّا الْأَقْلَّ - ذُبَابٌ
 إِذَا حَضَرَ الْعَقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا
 جَمِيعُ الْخِصَالِ أَيْسَ عَنْهُ مَنَابٌ
 أَنْسُ لَهُمْ فِي حَجَرَتَيْهِ لُؤَابٌ^(٥)
 كَمَا يَتَوَالَى فِي النِّظَامِ سَخَابٌ^(٦)
 فَإِنَّ أَرَجِيْفَ الْعُدَاةِ كِذَابٌ
 لِعَهْدِكَ أَوْ يُخْفَى عَلَيْكَ صَوَابٌ^(٧)

(١) غطا يغطو : ستر والضباب سحب رقيق يشبه الدخان .

(٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابه .

(٣) يعور : من أعور المكان إذا بدت منه عورة ، ويعمز : أى يصاب ومنه المعزاء للأرض الصلبة .

(٤) الظراب : ككفت ما تأ من الحجارة وحد طرفه والجمع ظراب بالكسر .

(٥) زيد : بالبناء للمجهول منع ، والحجرة : بفتح فسكون الناحية ، ولواب : بالضم عطش ، والمعنى : أنه طبع

على الشعر وورد معين الطبع في حين أن غيره من الشعراء حبس عن وروده فله في جانبه لواب أى عطش

(٦) المنجد : كمظم الذى جرب الأمور وقاسها بعقله وعلته التجارب ومثله المنجد بالذال المعجمة ،

والسخاب : بالكسر العقد . (٧) المرير : والمريرة الحبل ، والاستمرار إحكام فله ، يقول حاشاك

أن أدهوك إلى إصلاح حادث من عهدك ، أو يخفى عليك وجه الصواب .

بعد خمسمائة يوم في السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة في مدح ابن جهور واستعطافه ، وقد وردت في آخر رسالته الجديدة التي بعث بها إلى ابن جهور (١) بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر (٢) ، ومتى أعتذرت (٣) في فك أسرى لم يتعذر ، وعامك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة (٤)

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه ، فكأنها من ماله لعلى ألقى العصا بذراك (٥) ، وتستقر بي النوى في ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظه (٦) ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلابي (٧) بهذه الطلبة ، واشكأني من هذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبا أنت خليق له ، وأنا منك حرى به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالى غرر هذا النثر واتسقت (٨) درره ، فبوز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه (٩) ، عارضه النظم مباحيا ، بل كأيديه مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك الطافة ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، وما زال

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة في مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها اقرأى إذا شاء .

(٢) ان يسرت ما تعقد من أمرى تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد تضمت العتول أن الشفقة على الصديق والعدو صدقه

وأفضل العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه

ومن أذكأ البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا

(٥) في كنتك . (٦) فلا يجيد الحاسد سيديلا إلى السماتة بي وتمتعه بالنظر إلى وأنا متكوب .

(٧) أسعافى وانالتي ما أتبعيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره وزهوه .

يستكد الذهن العليل ، والناظر الكليل حتى زف إليك عروسا
بجلوة في أثوابها ، منصوصه (١) بحليها وملابها (٢) وهاهي القصيدة»

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذلك النسيم
سمرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطر ما اتقضى إلى أن تقضى زمن ما ذمامه (٣) بالذميم (٤)
إذ ختام الرضا المستوع مسك ومزاج الوصال من تسديم
وغريض الدلال (٥) غرض (٦) جنى الصبوة (٧) نشوان من سلاف (٨) التميم
طالما نافر الهوى (٩) منه غر (١٠) لم يطل عهد جيده بالتميم (١١)

*
* *

أيها المؤذني بظلم الليالي ليس يوفى بواجده من ظلوم (١٢)
قمر الأفق - إن تأملت - والشمس ههما يكسفان دون النجوم

(١) مرفوعة .

(٢) الملاب : الزعفران . قال الشاعر : « كالخفة الصفراء صاك عبيرها بملابها »

(٣) ذمامه : عهده . (٤) لم يتقض لنا سرور بتلك الحياة الناعمة والعيش الرغد

حتى تولى ذلك الزمن غير مذموم العهد . (٥) وذلك الدلال اللطيف الحسن .

(٦) الغرض : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) خر .

(٩) نافر الهوى : غالبه . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تميمية ، وهو العود : جمع عود . أى الخرزات ونحوها مما يعاق على الصبي لينقى

عنه العين ، وقد أنكر الاسلام ذلك ، وفي هذا يقول القائل :

وإذا للنية انشبت أظفارها الفيت كل تميمية لا تنفع

ومعنى ذلك البيت : أن حبيبه قد طامى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزال قريب العهد بالتمام ، فهو

لا ينفك كالغزال النافر لحرارته وحدائه عهده .

(١٢) أيها المحبني بما تدخره لى الليالي من كيد ، رويدك لا تخفنى بذلك فليست بمحائق يوما على دهرى

لأننى انت منه الظلم دائما .

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو بِالْمَصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ (١)

* * *

بَوَّأَ اللَّهُ « جَهْوَرًا » شَرَفَ السُّو
وَأَحَدُهُ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْرُ
دَدٍ فِي السَّرْوِ (٢) وَاللَّبَابِ الصَّمِيمِ (٣)
رَ، فَكَانَ الْخُصُوصُ (٤) وَفَقِيَ الْعُمُومَ (٥)
وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ (٦)
قَلَدَ الْعُمُرُ (٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ
خَطَرُهُ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِمَوْعَى
خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ (٨)

* * *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْعَصَا بَدءُ قَرَعِهَا لِلْحَلِيمِ (٩)

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى في صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه بنفس هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تتكرى عطل الكريم من الغنى فالسبيل حرب للمكاتب العالى

ومنه قول أبي العلاء :

والخطب يحتاج الجليل وكم شكا نبأ على ، ما شكاه فنبير

(٢) المروءة . (٣) المحض : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

ابن خنيس خيلى عند هند فلا زلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) انتق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) العمر : بالضم والفتح ، الذى لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، وانتق عايتهم وخاصتهم على الاعتراف له بالفضل فأولو العلم عرفوا بالعلم فضله ، ثم تقدم في ذلك الجاهلون ، واكتفى العمر الجاهل بعلم الجاهل بالمجرب ، قالوا : وابن زيدون ينظر من طرف خفى إلى قول البحرى :

وذوو الفضل يجمعون على فضد لك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلم . وقال الجاهل بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلو منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ الغاية لما أحرزه من جلال السجايا ، ووسامة الخلفة .

(٩) والعصا بده قرعها للحليم : تضمين للمثل العربى المشهور : « إنَّ العصا قرعت لذى الحلم » وهم يضربون هنا المثل للذكي الذى إذا نهته انتبه .

مَا عَمَانَا أَنْ يَأْتِفَ السَّابِقُ الْمَرْ
 وَبَقَاءَ الْحُسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي
 أَفْصَبْرُهُ مِئِينَ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ
 وَمَعْنَى مِنَ الضَّرْفِ بِيَهْنَاتٍ
 سَقَمَهُ لَا أَعَادُ فِيهِهِ وَفِي الْعَا
 نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ أَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (١)

*
* *

بِأَبِي أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٥)

(١) السابق : الفرس ، الربط : اسم مكان - بكسر العين وفتحها - والعنق في الخيل : السكرم ، والتطعيم : تمام الحسن فيها يشبه نفسه - وهو على هذه الحال من الاعتقال - بالصافن الذي سُم مكانه الذي ربط فيه - لعنقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت في ديوانه على هذه الصورة :

..... يَأْتِفُ الْمَرْ بَطُ فِي الْعُنُقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ

فَأَكَلْنَاهُ مِمَّا وَرَدَ فِي الرُّوَايَاتِ الْأُخْرَى .

(٢) المعنى : المحبوس من العناية وهي الحبس الطويل ، والضنى : المرض الملازم ، والهناث : جمع هنة وهي الشدائد أو كنى بها عن الأشياء ، ونكأت : أى قشرت الجرح قبل أن يبرأ فأدمته ، والكوم : الجراحات والمعنى : ومحبوس من المرض الملازم بسبب أشياء أدمت قرح جراحاته بجراحات أخرى ، يريد أن عناء السجن أضيف إليه عناء المرض فهو في محبين ، يعانى ألم شديتين .

(٣) أى مرض لا يعودنى فيه - وأنا فى السجن - طأء وفى عيادة من يزورنى ما يكفى وفى شغائى لو أمكن ذلك (٤) أى نار بنى وظلم استعر لظاها فى جنة الدعة والراحة والأمن فأصبحت كالصريم : أى كالليل فى السواد بعد الاحتراق ، وفيه تلميح إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة فى قوله تعالى فى سورة القلم « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين » الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبيهم هذه الجنة فكان يأخذ منها قوت سذته ويتصدق بالباقي ، فلما مات رأى بنوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وعيالهم فحلفوا ليصرمنها مصبحين ، أى ليقطنن شمارها مبكرين فى الصبح خفية عن أمهين المساكين « فظاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » أى احترقت فصارت فى السواد كحفمة الليل .

(٥) أفديك أنت أيها الممدوح بأبى ، إن تشأ تكن تلك النار التى صرت إلى جنة الأمن برداً وسلاماً فلا تحترق كنار إبراهيم إذ قذف فيها بأمر نمرود فكانت برداً وسلاماً عليه فلم يحترق ، وفيه تلميح إلى قوله تعالى « قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوِّهِ بِالْحَيَا لِلرِّيَّاحِ ، لَا لِلغُيُومِ (١)
 وَزَعِيمٍ بِأَنْ يُدَلَّلَ لِي الصَّعْبَ مَثَانِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٢)
 وَوِدَادُ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى بَقَاءَ عَوْدِ الْكَرِيمِ
 وَثَنَاءُ أَرْسَلْتُهُ سَأْلَوَةَ الظَّا عَنِ عَن شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ (٣)
 فَهَوَّ رِيحَانَةَ الْجَلِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِرْاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ -
 لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي مُصِيحًا إِلَى أُعْذَارِ الْكَرِيمِ -
 وَمَتَى يَبْدَأُ الصَّنِيعَةَ يُوَلِّعُكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالسَّمِيمِ (٤)

(١) أى للشفيع الثناء والحمد لا المشفوع إليه ، كما ان الحمد في نزول المطر للرياح التي تؤلف بين الغيوم فينزل المطر بسببها لانفس الغيوم ، وهو كقول البحترى :

حاز حمدي وللرياح الواقي تجلب الغيث مثل حمد الغيوم

(٢) كقيل بتذليل ما استصعب تذليله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد في بعض النسخ البيت التالي بعد هذا البيت :

أمل يرغم الحفاء إليسه وهو ثبت المقام ماضى العزيز

(٣) أى مدح أرسلته فسار على ألسنة الناس مسير المثل إذا تلاه الضامن تسلى به عن شوقه إلى وطنه وحينئذ إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه طوه وأنسه .

(٤) أى متى يبتدئك بالجميل تغفلك خصاله التامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبة بتميم ما ابتدئك به من معروف ، وتكتميل ماشرع فيه من صنيع يريد - بعبارة أوضح - أن ماله عليه من نعمة مبتدأة ، ويد سابقة يبعث في نفسه أملا قويا في إتمام تلك النعمة بأنجاز ما وعده به ، وفي هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سبحانه أنت سقت نعماه فعليك - بعد الله - فيض نعماه

إن ابتداء العرف مجد باسقى والمجد - كل المجد - في استتمامه

وقرب منه قول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كقص القادرين على التمام

وقول الفال :

إذا أسديت مكرمة فأتهم فأت البدر يسطع بالتمام

من قصيدة صنعها ببطلْيوس (١)

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجأه إلى بني عباد باشبيلية سنة ٤٤١ هجرية ، وكان قد وافاه الفطر فالأضحى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد بقرطبة ، كان يخرج إليها في العيد ، ويتفرج بمنازها ، ويلهو بمحاسنها مع من بهوى ، وقد أذكي تذكرها في فؤاده لأعج الشوق ، ونبه كامن الوجد ، فأخذ يذكرها مبهماً مبهماً ، ويصف ما خلفته في نفسه من الأثر ، وبين ما أثارته دواعي الذكرى في قلبه من الصباية والأسى والشوق ، ويتول صاحب قلائد العقيان في هذه الأماكن التي يذكرها بهد : — « هذه معاهد لبني أمية نعمت بها ليالي وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاموا (بشرق العقاب) وشاموا به برقاً يبدو من نقاب ، ونموا (بجوف الرصافة) ، وطعموا عيشا تولى الدهر جلاءه وزفاهه ، وأبعدوا نصح الناصح ، وحمدوا أمس (مجلس ناصح) ، وعموا (بالزهراء) ، وصموا عن نبأ صاحب (الزوراء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ما عوضهم » إلى آخر ما قال .

خَلِيْلِي لَا فِطْرُمُ يَسْرُ وَلَا أَضْحِي فَمَا حَالُ مَنْ أُمْسِي مَشُوقًا كَمَا أَضْحِي
لَنْ شَاقِبِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ أَخْصُ بِمَحْوُضِ الْهُوَى ذَلِكَ السَّفْحَا (٢)
وَمَا أَنْفَكُ جُوفِي (الرُّصَافَةَ) مُشْعِرِي دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرْحَا (٣)

(١) بطليوس : بفتحين وسكون اللام ، وياء مضمومة ، وسين مهملة مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربي قرطبة كما في معجم البلدان . (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة في عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، ومحموض الهوى : خالصة .

(٣) (جوف الرصافة) : الجوف بضم الجيم الواسع الجوف . قال في اللسان وشيء جوف أي واسع الجوف ، ودلاء جوف : أي واسعه ، و (الرصافة) : بضم ففتح اسم لعدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما ببلدية صغيرة عند بلنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسي الرصافي الشاعر المشهور والأخرى وهي التي ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أول ملوك الأندلس من بني أمية وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التي كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب لياقوت الحموي اسمه « المشترك وضعاً المختلف صنعا » ، والبرج : بفتح فسكون العذاب والشدة وصف به الأسف مبالغة والمراد أنها تعقب أسفاً مبرحاً شاقاً شديداً .

وَيَهْتاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً
 لِقَلْبِي لَا تَأَلَوْ زِنَادَ الْأَسَى قَدْحًا (١)
 وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحِ)
 فَاقْبَلْ فِي فَرَطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحًا
 كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ)
 نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا (٢)
 وَقَائِعُ جَانِبِهَا التَّجَنِّي فَإِنْ مَشَى
 سَفِيرُ خُضُوعٍ يَبْتَنَّا كَدَّ الصِّلْحَا (٣)
 وَأَيَّامُ وَصِلِ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ
 فَإِلَّا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا (٤)
 وَأَصَالُ هُوَ فِي مُسْنَأَةِ مَالِكِ
 مُعَاطَاةً نَدَمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا (٥)
 لَدَى رَاكِدٍ يُصْبِيكَ مِنْ صَفْحَاتِهِ
 قَوَارِيرُ خُضْرٍ خِلْتَهَا مَرَدَّتْ صَرْحَا (٦)

- (١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسي لقلبي صباية لانفتر عن قرح زناد الحزن ، والزناد : ما يفتح به النار
 (٢) يعني أنه عبأ لجهوته في هذا المكان جيش عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحاً .
 (٣) التجنى ادعاؤها عليه ذنباً لم يفعله ، والسفير المصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جناها ادعاؤها
 الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أي
 قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيّد النصارى ، والمعنى أن أياماً معلومة من السنة كنت أحصل فيها
 (بالعقيق) على الوصل واقتضيه في ميعاده كما يقتضى أي يقبض الغريم دينه ، فإن لم يكن ذلك الاقتضاء
 موعده العيد فالفصح . (٥) الأصال : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب ، والسنة : سدّ
 بيني في وسط الوادي لاحتجاز الماء ورد ما لا يفلج منه ومنعه عن الجرى في طريقه المعتاد ، له أبواب
 تفتح لإطلاق الماء بحسب الحاجة ، وهي العرم . قال في الصحاح ، « والسنة العرم لا واحد له
 من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التي كان يلهو بها مع الأصيل في تلك السنة الملكية مرة بمعاطة
 الراح إذا شاء ، وأخرى بالسبح والعموم في الماء ، وهذا مما يثبت أنهم كانوا يبنون (الخرانات) لاختصاص
 الأرض وإمداد البرك بالماء بعد تملته . (٦) قال بعض المفسرين في قوله تعالى (قيل لها ادخلي
 الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير ، ومن معاني الصرح الساحة أيضاً ، فكانه أراد تشبيه
 ماء السنة الراكدة في خضرته واستوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أي ماس صرحاً أي ساحة ، ستوية
 من زجاج .

مَعَاهِدُ لَدَاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ أَجَلْتُ الْمُعَلَى فِي الْأَمَانِي بِهَا قِدْحًا (١)
 الْأَهْلَ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةً نَازِحٍ تَقَضَى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحًا (٢)
 مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا فَخَلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحًا (٣)
 يُمَثِّلُ قُرْطَيْنَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً فَقَمِيَّتَهَا فَالْكُوكَبُ الرَّحْبُ فَالسَّطْحَا (٤)
 مَحَلُّ أَرْتِيحٍ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طَيْبُهُ إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (٥)

(١) القدح : بكسر فسكون واحد السهام التي كانوا يستقمون بها الجزور في الميسر ، وكانت قداح الميسر عشرة ثلاثة منها غفل ، وسبعة من ذوات الانصاء ، وكان المعلي أوفرها خطأه سبعة أجزاء من الجزور ، فاذا أجال مخرج القداح يده في الخريطة ، وأخرج المعلي باسم أحد المتقارمين كان هو الفائز بأكبر الأقسام وأوفر الحظوظ . يقول : هذه معاهد لذات قضيت فيها من اللذات ، وبلغت فيها من الأمانى ما جعل قدحى فيها المعلي . (٢) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد السوراري التي فيها ٤٣٠٠ سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر ينفق على عمارتها ثلث جباية بلاد الأندلس التي كانت تبلغ في ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهي من أحسن منازره الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم في ذلك تصانيف ، والأوبة : الرجوع ، والنازح : البعيد ، وتقضى أخذ وتناول حقه من غريمه ، وهي المدامع هنا ، والنزح : من نزح البئر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت في بعض النسخ (تقضت مبانها مدامعه سفحا) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على حيالها تقصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هي الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مقاصر ومقاصير ، والجنبت : جمع جنبه كسجدة ومسجدات ، وفي اللسان ما يفيد اختلاف اللغويين في إسكان النون وفتحها في المفرد ، ونقل عن ابن جنى قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا في ذراك وجنبتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبي صعتره البولاني :

فما نطفة من حبّ من تقاذفت بها جنبنا الجودى والليل دامس

بأطيب من فيها وما ذقت طعمها ولكننى فيما ترى العين فارس

والجون : هنا الأسود ، والمعنى أن تلك المقاصير أضيئت نواحيها بالمصابيح والسرّج ، فحسبنا العشاء في داخلها صبحا (٤) يمثل له الوهم هذه المواضع من الزهراء كأنه يراها جهرة (٥) في بعض النسخ عن بدل عز وفي بعضها يعنى بدل يصدى ، ولعلها مصحفة عن يعرى ، والأشبهه بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هُنَاكَ الْجِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافَهَا ظِلَالٌ عَهَدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فِتَى سَمْحًا (١)
تَعَوَّضْتُ مِنْ شِدْوِ الْقِيَانِ خِلَافَهَا صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحًا (٢)
وَمِنْ حَمَلِي الْكَأْسَ الْمَفْدَى مُدِيرُهَا تَقَّحَمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا
أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نَيْطَةِ لَأَقْصُرُ مِنْ لَيْلِي بِأَنَّةٍ فَالْبَطْحَا (٣)

في الغزل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولِ فَدَيْتُكَ وَأَعْتَرَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ (٤)
وَفِيمَ أَنْفَتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبِّ صَحِيحِ الْوُدِّ ذِي جِسْمٍ عَلِيْلِ
فَهَلَّا عُدَّتِي إِذْ لَمْ تَعُودَ بِشَخْصِكَ بِالْكِتَابِ أَوْ الرَّسُولِ (٥)
لَقَدْ أَعْيَا تَلَوْنُكَ أُحْتِيَالِي وَهَلْ يُغْنِي أُحْتِيَالُ فِي مَلُولِ (٦)

الزهراء محل ترناح النفس إليه يذكر طيبه جنة الخلد حيث يمنع أن يصدى التي أي يعطش أو يضحى أي يبرز للشمس ، وفيه الإشارة إلى قوله تعالى « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ولا شك أن الجوع ، والعرى ، والظمأ ، وعدم السكن أركان الشقاء في هذه الحياة وبدونها يكون النعيم والراحة والسعادة ، وأن الشخص في الحياة الدنيا معنى يطلب هذه الأشياء بخلافه في دار النعيم والخلد ، وقد توفرت له في الزهراء أسباب الراحة والنعيم فاذا ذكره ذلك جنة الخلد .

(١) الجمام : جمع جمة ، وهي مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للجمام بمعنى المياه المجمعة ، وحفافها : جوانبها وما يطيف بها من حولها ، والمعنى هناك في الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تطلنا حفافها وحولها ظلال بليّة ندية (٢) أي أبدلت من سماع صوت المغنيات خلال تلك النوادي الآهله بأنواع الطرب سماع صدى هذه الفلوات الخفيفة يتردد فيها ضبح العاديات من الخيل فيطير النوم من العين (٣) نيطه وآنه : نهران (٤) يقول : لماذا قطعت حبل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على عبدك الخاضع القليل .
(٥) هلاعدتني بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودني بشخصك .
(٦) من أجل ما قرأناه في هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

لو كنت طابفة لسكن لوعتي أملى رضاك وزرت غير معان
لسكن ملات فليس لي من حيلة صدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وقريب منه قول ابن الرومي :

ولكنكم كنتم تريدون علة فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد
أردت صلاح القبل بالبعد فانبرى لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

بين صديقين

« كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتباً :

تباعدنا على قرب الجوار
 كأننا صدنا شحط المزار
 تطلع لى هلال الهجر بدرا
 وصار هلال وصلك فى سرار
 وشاع شنيع وصلك لى رهجرى
 فهلا كان ذلك فى استنار
 أيجمل أن ترى عنى صبورا
 وأصبح مولعا دون اصطبار
 ولما أن هجرت وطال غفرى
 عقرت هموم نفسى بالعقار
 وكنت أزيد سمعك من عتابى
 ولكن عافنى قرب الخمار
 فراع مودتى واحفظ جوارى
 فان الله أوصى بالجوار
 وزرنى منعما من غير أمر
 وآنس موحشا من عقردار
 جفاو به ابن زيدون : «

هَوَاىَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِى -
 مَقِيمٌ لَا تَغْيِيرُهُ عَوَادِى
 كَمَثَلِ هَوَاىَ فِي حَالِ الْجَوَارِ
 رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصْلَ بَدْرٌ
 تَبَاعَدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
 وَرَأْبَكَ أَنْبَى جَلْدُ صَبُورٌ
 مَتَى خَلَّتِ الْبُدُورُ مِنَ السَّرَارِ (١)
 وَكَمْ صَبْرٌ يَكُونُ عَنِ اصْطِبَارِ (٢)

(١) متى أفترت أن الوصل بدر فأنت خلى أن تعلم أن للبدر حلات شتى فهو إذا اكتمل نموه فى وسط الشهر لحقه الحاق فى آخره .

(٢) إن صبرى ليس طبيعيا ولكنى انكفه اضطرارا إليه لأنى لا أجد مندوحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتَبٍ غَيْرَ أَنِّي أَضْرَّتْ بِي مُعَاقَرَةُ الْعُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ^(١) مُبْرِحٌ بِي ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ^(٢)

* * *

وَهَلْ أَنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ كَوَشِي الْخَدِّ طُرُزًا بِالْعِدَارِ
وَسَاعَاتٍ يَجُولُ اللَّهُوُ فِيهَا مَجَالَ الطَّلِّ فِي حَدَقِ الْبَهَارِ^(٣)
وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِي - فُذَيْتَ - فَمَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارِ^(٤)
وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلَ عِلْقٍ^(٥) لَدَى ، فَكَيْفَ إِذَا صَبَحْتَ جَارِي^(٦)؟

دعوة

« كتبها إلى ذى الوزارتين أبي عامر يدعوهُ إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَةَ فَلْتُمْسِنَاهَا هَذِهِ التَّالِيَةَ^(٧)
أَبَا الْمَعَالِي نَحْنُ فِي رَاحَةٍ فَأَنْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَةَ
لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبْ عَنَّا ، فَزُرْنَا كَيْ تَرَى حَالِيَةَ
أَنْتَ الَّذِي لَوْ تُشْتَرَى سَاعَةٌ مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ خَالِيَةَ

(١) سورة . (٢) إذا كانت الخمر التي لا سكر فيها تبرح بي فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمي قد قرَّ قراره بعيداً عنك فإن قلبي لا يزال يهفو إليك . (٥) العلق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إنك - مع البعاد الذي يندى الألف - كنت أجل مخلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادني الجوارح جانيك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنكررها ، وليندنا ما يغمرنا من السرور في ليلتنا التالية ما نعمنا

قال في الوزير الشيخ أبي الحزم

« بَنِي جَهْوَرٍ » أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي وَالْكِنَّ الْمَدَامِحَ تَعْبَقُ (١)
تَعْدُونِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ (٢) إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ (٣) حِينَ يُحْرَقُ

* *
* *

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنًا فَكَانَ السَّجْنُ مِنْهُ تَوَابِي
لَا تَخْشَ فِي حَقِّي مِمَّا أَمْضَيْتَهُ مِنْ ذَلِكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي (٤)
لَمْ تُخْطِ (٥) فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصال

وَشَادِنِ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً (٦) فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ (٧)
فَبِتُّ أَسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيْقِهِ وَأَجْتَنِي الْوَرْدَ مِنْ الْخَدِّ

(١) عبق : الطيب يعبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتهم فوادى بنار الجفاء ، وقابلتم شكواى بعدم الاصغاء ، فان مدحى باق فيكم ملازم لكم ملازمة الطيب صاحبه .
(٢) الزعفران لمرته . (٣) ما يذيعث عنه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تجملونى فى عداد ما يحرق من الطيب الذى ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن بسام عند إيراد هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبى على بن رشيقي القيروانى حيث يقول :
أراك اتهمت أخاك الثقة وعنديك مقت وعندي مقه
وأبنى عليك وقد سؤتني كما طيب العود من أحرقه
وأخذاه معا من قول أبى تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

(٤) لا تخش في حقى لوما بما أنفدته في من حكم السجن ولا تتوق عتابى فاني أنا الحقيق بالوم والعتاب
(٥) أبدل الهمزة من الياء وحذفها للجازم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تخطى ، يقول : لم تعد في أمرى الصواب وقد وقتت في حكمك على بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمدحك ، وهذا جزاء من يكذب في شعره ويمدح من لا يستحق المدح ، وقريب من هذا الهجاء قول ابن الرومي :

إن كنت من جهل حقى غير معتذر وكنت من ردمدى غير متذب
فأعطني من الطرسى الذى كتبت فيه الفصيصة أو كفارة الكذب

(٦) خراً : يعنى خير ريقه . (٧) أى ورد وجنته .

وقال معاتباً من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمِ وَرِشْتِ^(١) فَلَا تَبْرِي
وَأَمْرَضْتَ حُسَادِي وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِي^(٢)
أَرَى نَبْوَةَ لَمْ أُدْرِ سِرًّا أَعْتَرَا ضِهَا^(٣)
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أُدْرِ^(٣)
جَفَاءَ هُوَ اللَّيْلُ أَدْلَهُمْ ظَلَامُهُ^(٤)
فَلَا كَوَّ كَبُّ الْعُذْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي^(٤)
هَبِ الْعِزْلَ أَضْحَى لِلْوَلَايَةِ غَايَةً^(٥)
فَمَا غَايَةُ الْمَوْفِي مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِي^(٥)
فَقِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً^(٦)
تُسَوِّغُ بِي إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي^(٦)
أَنْاسُ هُمْ أَخْشَى لِلذَّعَةِ مِقْوَلِي^(٧)
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضِرًّا^(٧)
فَإِنْ عَاقَتِ الْأَفْدَارُ فَالْنَفْسُ حُرَّةٌ^(٨)
وَإِنْ تَكُنَّ الْعُتْبَى فَأَحْرَبُ بِهَا أَحْرَبُ

موقف وداع

وَلَمَّا التَّقِينَا لِلْوَدَاعِ غُدِيَّةً^(٩)
وَقَدْ خَفَقَتْ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ
وَقُرْنَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ^(٨) وَصَفَقَتْ^(٩)
طُبُولٌ وَوَلَّاحَتْ لِلْفِرَاقِ عِلَامَاتُ
بَكِينًا دَمَا حَسَى كَانَ عِيُونَنَا
جِرْمِي الدُّمُوعِ الحُمْرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ
وَكُنْنَا تُرْجَى الْأَوْبِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ
فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ

- (١) من راح صديقه كساه وأصلح حاله . (٢) من البرء : وهو الشفاء من المرض .
(٣) أرى جفوة لم أدر سرّاً اعتراضها أى منعها الود من أن يسير في طريقه الأول ، وقد يكشف ماعرض
ل من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سرّاً تلك النبوة والجفوة .
(٤) جفاء كالليل اشتدّ ظلامه فلم يسر في أفقه كوكب عذر واضح . وفي الأصل :
« حياء هو الليل ادلهم ظلامه »
(٥) أكرى : الظل يكرى نقص ، والمعنى : هب العزل أضحى خاتمة ما وليته من عمل فلا ينبغي أن تكون
غاية ما أوفى على من ظلك ورعايتك أن يكرى أى ينقص . (٦) معنى البيت : في أى ذنب أراك تشير
بالسلام إشارة تسوغ وتجوّز لمن شاء أن يزرى بى الأزراء بى والنهتغير لثانى .
(٧) اضراء : بالصيد ونحوه أغراه به فهو مضر أى مفر ، يقول : أوائك الزارون على المحقرن لثانى
أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد اضريتهم بى وأغريتهم بالزراية على .
(٨) الجباد السكرية . (٩) دقت الطبول إيذاناً بالسير .

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَهْدِنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الكِلَالَ (١)
 أَمْ قَضَيْبُ البَابِ يَعْنِيهِ الهَوَى
 أَمْ عَهْدِنَا البَدْرَ يَجْتَابُ (٢) الحُمَّلَ
 أَمْ غَزَالُ القَفْرِ يُصْبِيهِ الغَزْلُ (٣)
 حَشَدًا (٤) الحُسْنُ عَلَيَّهَا فَاحْتَفَلَ (٥)
 مَشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصَّبَا
 مَشْبَعُ الوَجْنَةِ مِنْ صَبْغِ الخَجَلِ
 مَنْ عَذِيرِي (٦) مِنْهُ إِنْ أُغْبِيَتْهُ (٧)
 نَسِيَ العَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلَّ

(١) جمع كله بالكسر، وهي ستر رقيق يحاط كالبيت يتوق فيه من البعوض ونحوه، وتقدم هذا المعنى عند قوله في القصيدة النونية:

كانت له الشمس ظئرا في أكلته بل ما تجلى لها إلا أحيينا

(٢) يجتاب يلبس من قولهم: اجتاب القميص إذا لبسه، وشاهده قول لبيد:

فتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب اكامها

أى لبست الاكام أردية السراب، والحلال بالضم جمع حلة أثبت أن من يهواه شمس وأنه بدر على الحقيقة، وتعجب من احتجاب الشمس في الكلال، واجتباب أى لبس البدر الحلال، وأنكر أن يكون ذلك معهودا في العادة. (٣) يعنيه: يهيمه، ويصبيه: يشوقه ويدعوه إلى الصبا والحنين إلى من يحب، والغزل: مغازلة النساء ومحادثتهن، أى ولم نعهد أيضا أن الهوى يهيم قضيب البان، وأن المغازلة تدعو غزال القفر إلى الصبا فيحن إلى من يهوى. (٤) اجتمع.

(٥) احتشد واجتمع: أى أتى بالهجزات ذلك الذى طلع علينا بصورته الغائسة الجامعة لفنون الحسن، الحفاة بأنواع الجمال.

(٦) يقال من عذيرى من فلان أى من نصيرى، ويقال: عذير فلان بالنصب أى هات عذرا له، ومنه قول ذى الاصبع المدوانى:

عذير الحى من عدوان كانوا حية الأرض

بغى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أى هات عذرا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى، والقتل، والتباعد، والتباغض، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد، ويقال عذيرى من فلان أى من يعذرنى، ومنه قول الآخر:

عذيرى من الانسان لاإن جفوته صفارى ولاإن كنت طوع يديه

ولانى لمشتاق إلى ظلِّ صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

(٧) من الغب في الزيارة، أى جئته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال: «زرعبا تزدد حبا» وفى اللسان: «الغب في الزيارة قال الحسن فى كل أسبوع»

قَاتِلْ لِي بِالتَّجَبُّنِي ، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِي أَحْلَالَ مَا أَسْتَحَلُّ ؟

* * *

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ^(١) فِي زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْحَالِ^(٢) فَخَلْ^(٣)
لَكَ إِنْ أَدَلَّتْ^(٤) عِذْرُكَ وَاصْبِحْ كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ^(٥) الْحُسْنُ أَدَلُّ
سَبَبُ الشُّقْمِ الَّذِي بَرَّحَ بِي صِحَّةٌ كَالشُّقْمِ فِي تِلْكَ الْمُقَانِ^(٦)
إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتْ الْآمَلُ عَنْهُ فَفَعَلْ^(٧)
مَلِكٌ لَدَّ جَنِّي الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وَرَدُ الْآمَنُ لِلصَّادِي عَدْلٌ^(٨)

(١) ذو الخيلاء المعجب بنفسه المتباهى بزِينته وجماله .

(٢) الحال له معان كثيرة منها الخيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن بري أحياناً في معاني الحال ، والمناسب منها لما نحن فيه قوله :

وإذا أنا خدن للفوى أخی الصبا وللنزل للمريح ذی اللهو والحال

أى الخيلاء . (٣) أى كن ذا خيلاء وزهو وتكبر ، من خال يخال بمعنى اختال ، ومنه بيت الحماسه :

فان كنت سيدنا سددتنا وإن كنت للخال فاذهب نفل

معناه : إن فعلت ما يوجب لك السيادة علينا سددتنا ، وإن حاولت أن تسودنا مجرد الكبر والاختيال فاذهب فاختل ما شئت أن تختمال ، فانك لن تستطيع أن تسودنا حينئذ ، ومعنى البيت الذى نحن بصدده : أيها المختال الزهو صلفاً وكبراً بزِينته وجماله كن ذا خيلاء ونظرٍ وإعجاب فأنت أولى الناس بذلك لفرط جمالك .

(٤) يقال أدل عليه وتدلل : انبسط واجترأ وتجنى في غير موضع تجن .

(٥) ساعده وواتاه وأسعفه باجتماع أسبابه لديه ، ومعنى البيت : إن أفرطت في الدالة على ثقة بمحبتي لك ، واعتماداً بمساعفة الحسن ومواتاه فلك في الإدلال عذر واضح .

(٦) يقول : أن سبب الضنى والسقم الذى اشتد بى تبريحه وأذاه فتور فى لحظ تلك العيون الصحيحة المريضة ، وهذا معنى مطروق للشعراء ، ومن أحسن ما جاء في مرض العيون قول ابن المعتز :

علم بما تحت الصدور من الهوى سريع بكر اللحظ والقلب جازع

ويجرح أحشائي بعين مريضة كالآن من السيف والسيف قاطع

(٧) يعنى أن « ابن جهور » : إذا قالت الآمال عنه قولاً صدق قولها فعله .

(٨) شرب بعد شرب .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنِ مِنَّا فَجَزَى مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيءٌ فَأَحْتَمَلَ (١)
 سَعِيَهُ فِي كُلِّ بَرٍّ مِثْلَهُ (٢) إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ (٣) مِثْلُهُ (٤)
 لَا يَزَلُ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْبَرٌ أَوْ مُقْبَلٌ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ (٥)

*
* *

« يَا بَنِي جَهْوَرَ » الدُّنْيَا بِكُمْ حَلِيَّتِ أَيَّامَهَا بَعْدَ الْعَطْلِ (٦)
 إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَاسِطَةٌ (٧) أَهَدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلِ
 نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَدَتِ عَهْدَ الرَّيِّعِ الْمُقْتَبِلِ (٨)
 طَابَ كَانُونٌ (٩) لَنَا أَثْنَاءَهَا فَكَانَ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلِ (١٠)
 زَهْرَتِ أَخْلَاقِكُمْ فَأَبْتَسَمَتْ كَابْتِسَامِ الْوَرْدِ عَنِ لَوْلُو طَلَّ

- (١) أحسن المحسن منا جزاه وكافاه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسمى فاحتملها عفوا منه وكرما .
 (٢) أى كالمثل السائر يشيع في الناس ذكره ، ويحمد أثره .
 (٣) يفخره ويغاديه . (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي المدوح في صلة الناس بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، فى حين أن مساعي أعدائه المناوئين له صور جائمة أملاك - كاترى - لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو باستمرار حاسديه على الاكثار أو الافلال من لومه على ما يصبه على رءوسهم من وبلا ، وينزله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيف العدل » أى فلامنى لوم أكثر الأعداء منه أم أنلوا ، وهو مثل مشهور يضرب للأمر الذى فات فلم يمكن تداركه .
 (٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضد « حليت » .
 (٧) هى الدرزة التى فى وسط العقد وتمد أنفس جوهرة فيه .
 (٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الزمان ، ونفصرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع عند استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه النور والسكلا ، والربيع الذى تدرك فيه الثمار . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .
 (١٠) الحمل : برج من بروج السماء .

* *
* *

أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي مَهَّمَا تَفِضُ بِالنَّدَى (١) يُمْنَاهُ فَالْبَحْرُ وَشَلْ (٢)
مَنْ لَنَا فِيكَ بَعِيبٍ وَاحِدٍ تُحَذِّرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمَلُ (٣)
شَرَفُ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ مِثْلُ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكُحْلُ (٤)

* *
* *

أَنَا غَرَسٌ فِي ثَرَى الْعَلِيَاءِ لَوْ أَبْطَأْتُ سَقِيَاكَ عَنْهُ لَدَبَلُ
لِي ذِكْرُهُ بِالَّذِي أَسْدَيْتَهُ نَابِهِ وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلُ (٥)
فَلَيْمْتُ بِالذَّاءِ مِنْ حَالِ فَتَى أَدَبْتَهُ سَيْرُ النَّاسِ الْأَوَّلُ
فَوَعَى الْحِكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ : « الزَّمِ الصِّحَّةَ يَلْزَمَكَ الْعَمَلُ »

* *
* *

أَقْبَلْتُ نِعْمَكَ تُهْدِي نَفْسَهَا لَمْ أُرِغْ (٦) حَظِّي مِنْهَا بِالْحَيْلِ
فَقَبِلْتُ الْيَدَ (٧) مِنْ بَطْنِ يَدٍ ظَهَرُهَا - الدَّهْرُ - مَحَلُّ الْقَبْلِ
كَلْنَا بُلُغَ مَا أَمَلَهُ فَا بُلُغِ الْعَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ
وَإِذَا مَارَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِيَّ فَنَلْ

(١) الكرم . (٢) ماء قليل يتحلب من جبل أو صخرة .
(٣) يقول من لنا بمن يعد فيك عيبا واحدا فانا نحن نحذر عليك وقد كذبت فضائلك عيون الحاسدين ، وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

(٤) الكحل : محرّكة أن تسود مواضع الكحل من العين خلقه ، أي شرف تستغنى بسببه عن المدح كما تستغنى العين المكحولة خلقه عن التكحل بالكحل صناعة . (٥) أسديته : أعطيته ، والذكر النابه : الشريف المشتهر ، وهو خلاف الخامل . (٦) لم أطلب وفي الأصل : « لم أدع » .
(٧) الجليل .

مداعبة

« كتبها إلى أبي عبد الله بن القلاس البليوس

يداعبه بها »

أَصِخْ لِمَقَالَاتِي وَأَسْمَعْ وَخُذْ - فِيمَا تَرَى - أَوْ دَعْ
وَأَقْصِرْ - بَعْدَهَا - أَوْ زِدْ وَطِرْ - فِي إِثْرِهَا - أَوْ قَعْ

* * *

أَلَمْ تَعْلَمْ بَانَ الدَّهْرَ يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعُ
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يَكْدِي (١) وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعُ
وَكَمْ ضَرَّ أَمْرًا أَمْرًا تَوَهَّاهُمْ أَنَّهُ يَنْفَعُ

* * *

فَإِنْ يُجْدِبُ مِنَ الدُّنْيَا جَنَابٌ طَالَمَا أَمْرَعُ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرٌ وَمَا إِنْ فَاضَ لِي مَدْمَعُ
وَكَأَنَّ رَامَتِ الْأَيَّامُ مُ تَرْوِيحِي فَلَمْ أَرْتَعْ (٢)
إِذَا ضَاقَتْني الْجُلَى تَجَلَّتْ عَنِّي أَرْوَعُ (٣)
عَلَى مَا فَاتَ لَا يَأْسِي وَمِمَّا نَابَ لَا يَجْزَعُ
تَدْبُّ إِلَى مَا تَأَلُو عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعُ

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى في سببته فقال :

« ولكم أجسدى قعود ولكم اكدي التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تخيفني فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لا تنال منه منالاً ، ضافت من ضافه لهم إذا نزل به ، والجلي : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الذكي الحديد الفؤاد الحمى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بى جلى الحوادث تكشفت عن فتي حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفي الأصل « صابني » من صاب السهم القرطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نظن أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته .

كَأَنَّا لَمْ يُوَفِّفْنَا زَمَانُ لَيْنِ الْأَخْدَعِ (١)
 إِذِ الدُّنْيَا - مَتَى تَقْتَدَ أَبِي سُرُورِهَا - يَنْبَعُ (٢)
 وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالُ وَإِذْ فِي الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعٌ
 وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُو وَإِذْ أَقْدَاخُنَا تُتْرَعُ (٣)
 وَأَوْطَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعُ
 فَمِنْ أَدْمَانَةٍ (٤) تَعْطُو (٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعُ
 أَعْدُ نَظْرًا فَإِنَّ الْبَغْ - سَى مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعُ
 وَلَا تُطْعِ - أَلَّتِي تُغْوِيكَ، فَهِيَ لَبِغِيهِمْ أَطْوَعُ (٦)
 تَقْبَلُ - إِنْ آتَى - خَطْبًا وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرَعُ (٧)

- (١) يقول : إنك مولع الآن بالكيد والاساءة إلى متناسيا تلك الأيام التي ألف فيها بيننا الزمن المواتي ، حين كنا أخوين متآلفين ، وفي الأصل : « كأننا لم يوليننا » ،
 (٢) وفي الأصل : « إذ الدنيا مني » . (٣) تملأ .
 (٤) الأدمان - بالفتح - شجر الجنة ، وهي أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانة : بضم فسكون قالوا لأنه جمع إدماء كحمراء وهي الظبية الخالصة البيضاء ، قال ذو الرمة :
 من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في متنها يتوضح
 وصحح بعض اللغويين أن أدمانة مفرد كحصانة وإذن فهي مرافاة لأدماء ، وتعطوا : تتناول إلى الشجر لتتناول منه . (٥) تميل .
 (٦) دع غواية هذه الماكرة فانها أطوع لغواية أعدائك ومنافسك ولن تستطيع أن تتغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفي الأصل : « نهى لبغيتهم أطوع » .
 (٧) قرع الأنف رمز للهوان ، قالوا : وخس الأنف بالضرب لأنه محل الأنفة والكبر والشم .
 والعرب تقول في أمثالها : « أنف الفحل لا يقرع » وهي تقوله : للخطاب الكف .
 والأصل فحل الأبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التي يريدون تتاجها منه .
 قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلنه زواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال :
 « ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .
 وفي الأصل : « وأنف الفحل لا يقرع » يقول : إن العظيم لا يهن عزمه أمام الخطوب والكوارث ، فليكن لك في هذا عزاء ولتقبل أي خطب إن أنك بصدور رحيب ، غير واجد على تلك المرأة الغادرة التي لا قيمة لها ولا خطر .

وَلَا تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّارُ بِالْمَرْأَى وَلَا الْمَسْمُوعُ
فَإِنَّ قُصَارِكَ الدَّهْلِيَّ زُ، حِينَ سَوَّكَ فِي الْمَضْجَعِ (١)

جَرَّبِ النَّاسَ وَأُمَّتِحْنِ

خُنْتُ عَهْدِي وَلَمْ أَخُنْ بَعْتَ وَدَى بِلَا ثَمَرٍ
قَائِلًا : « هَلْ مُزَايِدُهُ رَاجِحًا ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِينُ (٢) »
عُدَّتِي كُنْتُ لِزَمَانِي ، فَقَدَّ حُلَّتِ وَالزَّمَنُ (٣)
أَرْخِصَ الْبَيْعَ كَيْفَ شِئْتَ وَذَرَّنِي ، لَتَنْدَمَنَّ (٤)
سَوْفَ تُبْنَلِي بَغَيْرِنَا ، جَرَّبِ النَّاسَ وَأُمَّتِحْنِ

(١) وتناس تلك الدار التي كانت ذكرياتها مبعث آلامك وأحزانك ، فليس لك أمل في اكتساب ودها ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون في الدهليز حين ينعم غيرك بالمضجع .

(٢) بعث عهدي رخيصاً مع صدق وودادى لك ، وأخذت تدل عليه في السوق زاهداً فيه باحثاً عما يشتره بأجنس الأمان . (٣) كنت عدتي التي أحارب بها الزمن فأصبحت حرباً على أنت والزمن .

وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومي :

« تخذتكمو دروا ! مینمایا ! تمتعوا سهام العدا عنى فكتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر على حين خذلان البين إشمالها »

إلى أن يقول :

« قفوا وقفة المذور عنى بنجوة واخلوا نبالى للعدا ونبالها »

وقول القائل :

« واخوان حسبتمو دروا فكانوها ، ولكن للأطادى
وختهمو مهاما صائبات فكانوها ، ولكن فى فؤادى
وقالوا : « قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ، ولكن عن وودادى »

(٤) ازهد في ودى كما شئت فوالله لتندمن على زهادتك في ، وما أجل قول ابن الرومي .

« وأربأ بودى أن يذال فأنى فى غير ذلك من الأمور أرخص
إياك لا تستغل ما أرخصته بطرا ، فأغلى منه ما لا أرخص
سترى - متى استغفرتى وطلبتنى - أنى سأزهد عند ذلك وتحرص »

في مدح ابن جهور

« قالها في مدح أبي الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هَذَا الصَّبَاحُ عَلَى مُرَاكِ رَقِيْبًا فَصَلِي بِفِرْعَكِ لَيْسَكِ الْغَرِيْبًا (١)
وَلَدَيْكَ - أَمْثَالَ النُّجُومِ - قَلَانِدٌ أَلِفَتْ سَمَاءَكِ لَبَّةً وَتَرِيْبًا (٢)
لِيَنْبُ عَنِ الْجَوْزَاءِ قُرْطُكَ كَمَا جَنَحَتْ تَحْتُ جَنَاحَهَا تَغْرِيْبًا (٣)
وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَآؤُهُ طَلَعَتْ ثُرِيًّا لَمْ تَكُنْ لِتَغْيِيْبًا (٤)

(١) سراك : سيرك ليلا ، الغريب : الشديد السواد يقول كاد الصباح يفضحك فصلي سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :
قوله : « فصلي بفركك ليلك الغريبا » من قوله أبي الطيب :

« كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا »

وينظر إلى قول المعري :

« يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وللهامى :

« وتود لو جعلت سواد قلوبها وسواد أعينها سواد عذار »

وقال محمد بن هانئ :

قد أظلموا بالدهم منها فجرهم فتكورت شمس النهار تفضيا
واستأنفوا بشباتها بحرا ، فلو عقدوا تواضعا أأادوا الغيبا

(٢) اللبنة بوزن الحبة المنحرة - والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهي موضع القلادة منه - والمعنى لديك قلادة شبيهة بالنجوم تسكن سماء النحر والصدر منك كما تسكن النجوم السماء - وأمثال النجوم بالنصب حال من قلادة النكره متقدم عليه ، وهو الذي سوغ مجيء صاحب الحال نكره ، قال ابن مالك :

« ولم ينكر غالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهد قوله : « وما لام نفسي مثلها لي لام »
فمثلها بالنصب حال من لأم النكره ، ويجوز أن يكون أمثال مبتدأ خبره لديك وقلادة بدلا منه .

(٣) الجوزاء : نجم يعترض في جوز السماء أى وسطه ، شبه قرطها بالجوزاء وجنحت أى مالت مغربة كأنها طائر يرحب جناحه . يقول أنبى عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتنيب في الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين ثانيتها وكشحيها وتشبه الثريا إذا تعرضت أى سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه - وأثناء الوشاح ما أنثى منه ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

أى أعوجت ولم تستقم في سيرها اعوجاج ما انثى من الوشاح على جارية اتشحت به .

وَلَطَمًا أَبَدَيْتِ إِذْ حَيَّتِنَا كَفَّاهِ الْكَفَّ الْخَضِيبُ خَضِيبًا

* *
* *

أُظْنِنَةً ، دَعَوَى الْبَرَاءَةَ شَأْهَهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمَ دُعِيتِ حَبِيبًا (١)
مَا بَالُ خَدِّكَ لَا يَزَالُ مُضَرَّجًا يَدَمٍ وَلَحْظُكَ لَا يَزَالُ مُرِيبًا (٢)
لَوْ شِدَّتْ مَا عَدَّبْتَ مُهْجَةَ عَاشِقٍ مُسْتَعَذِّبٍ فِي حُبِّكَ التَّعْذِيبَا
وَلَزُرْتَهُ - بَلْ عُدَّتِهِ - إِنَّ الْهُوَى مَرَضٌ يُكُونُ لَهُ الْوِصَالُ طَيِّبًا
مَا الْمَهْجَرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْ لَا أَنَّهُ لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيمًا (٣)

(١) يا متهمة بقتل العاشقين يا مخضوبة الكف بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حبيبا .

(٢) مثله قول الحمصري :

« عينك قد اعترفا بدمي وعلى خديك تورده »

(٣) شعا فاه يشحوه : فتحه ، والتعيب والنقاب : صوت الغراب ، والمعنى : ما الهجر إلا البين إلا أن الغراب في هذه المرة - لم يفتح فاه لينذرنا بذلك الهجر المعيت ، والتعيب نذير الفراق عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، قال عنتره :

« ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع »

وقال النابغة الذبياني :

« زعم الأجنة أن رحلتهم غدا وبذلك تنعاب الغراب الأسود

لا سرحبا بند ، ولا اهلا به إن كان تفریق الأجنة في غد »

وقال قيس ابن ذريح :

« ألا يا غراب البين ، قد طرت بالذي أحاذر من لبني فهل أنت واقع

وإنك لو أبغتها : قبلي اسلمي بكت حذرا وأرفض منها المدامع »

وقال المعري : « نبي من الغرابان ليس على شرع يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

أصدقه في صرية ، وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال في رثاء الشريف المرقضي :

« من شاعر للبين قال قصيدة يرثي الشريف على روى الغاف »

إلى آخر هذه الأبيات التي لاجابة بنا إلى تفصيلها .

وقد شد أحد الشعراء فأحى باللائمة على من مذهب هذا المذهب الخاطيء في ذم الغراب ، وبرأه من تهمة

التفريق ، فقال :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا

وهل غراب البين إلا ناقة أو جل

وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَىٰ فِيكَ التَّجَلُّدُ نَجْبَهُ فَثَوَىٰ وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيبًا
وَأَرَىٰ دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيًّا

* * *

مَالِي وَاللَّيَّامِ لَبِجٌ مَعَ الصَّبَا
عُدْوَانِهَا فَكَسَا الْعِدَارَ مَشِيبًا
مَحَقَّتْ هِلَالَ السَّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ
وَذَوَىٰ بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبًا
لَا مَ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقِ
لَأَنْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيبًا (١)
فَلَنْ تَسْمُنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَىٰ
لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ «الطَّرِيرِ نُذُوبًا» (٢)
وَلَنْ عَجِبْتُ لِأَنَّ أَضَامَ «وَجْهَوْرًا»
نِعْمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبًا
مَنْ لَا تَعْدَى النَّائِبَاتُ جَارِهِ
زَحْفًا وَلَا تَمَشِي الضَّرَاءَ دَيْبًا (٣)
مَلِكٌ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مُوقِنٌ
مَا زَالَ أَوَابًا إِلَيْهِ مُنِيبًا
يَأْتِي رِصَاهُ مُعَادِيًا وَمُؤَالِيًا
وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمَشِيبًا
مُتَمَرِّسٌ بِالذَّهْرِ يَقَعْدُ صَرْفُهُ
إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبًا

- (١) المعنى : لقد نزل بي ما لو نزل بجبل شاهق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيلا أى رملا قد هيل وانتثر - وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »
- (٢) تسمى : أى تجشعني مكرورها من قولهم سامه خسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه - والجفن : النعمد - والعضب : السيف - والطرير : القاطع - والندوب : جمع ندب بفتحين وهو فى الأصل أثر الجرح فى الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد - وأراد به هنا أثر الصدأ الذى يعلو فرند السيف لطول مكثه فى النعمد - والمعنى فى غيرنى طول المكث فى السجن فان السيف يصدأ بطول المكث فى الجفن .
- (٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع فى العدو - وزحفا من زحف الجيش - والضراء : من قولهم فلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر - والديب : مصدر دب النمل والشيخ منى على هيئته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره زحفا ولا تدب إليه مستخفيا .

لَا يُوسَمُ الرَّأْيُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا
تَأْنِي ضَرَائِبُهُ الضَّرْبَ نَفَاسَةً
يَعْتَادُ إِرسَالَ الْكَلَامِ قَضِيبًا (١)
مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النُّفُوسَ ضَرِيبًا (٢)
بَسَامُ تَعْرِ الْبِشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا
مَلَأَ النَّوَظِرَ صَامِتًا وَلَرُبَّمَا
عَقْدُ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاسَةٍ
يَعْنِي التَّجَارِبَ كَهَلْمُهُمْ مُسْتَعْنِيًا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيَدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ
لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أُدِيبًا (٥)

(١) الرأى الفطير: ما فيه عجلة وأصله من اختباز العجين قبل أن يختمر — والقضيب: المقتضب من قولهم اقتضب الخطبة والسلام أى أرسلها من غير إعداد وتهيئة — والمعنى: أنه لا ينتم بسمة العجلة فى الرأى ولا يرسل السلام مقتضيا مرتجلا من غير إعداد له ورياضة عليه .

(٢) ضرائبه: سجاياه — والضروب: جمع ضرب وهو المثل والشبه كالضرب، أى تمنع سجاياه أن يكون له أمثال وأشباه نقاسة بتلك الخلال الكريمة أى ضنا بها وأباء من أن تقيس به النفوس ضربيا وشديبا (٣) الحبوة: كثرفة وسدرة تجمع على حبا كثرن وسدر، والاحتباء أن يضم الجالس رجله إلى بطنه ويجمعهما مع ظهره بثوب وقد يحتجى يديه، وهو يقوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه، يعنى أنه كثير الاتسام فى طلاقة وبشر أن جلس محتنيا فنظرت منه وضاح الجبين مشرق الطلعة مهيبا .
(٤) المعنى: أنه ملأ النواظر — روعة وهيبه فى حال صمته والمسامح حكمة ويؤانا سامعا من الناس ومجيبا قال ابن بسام :

قوله: « ملأ النواظر صامتا » من قول ابن زيدون أيضا :

اسألها واجعل بكاك جوابا تحدم الشوق سائلا ومجيبا

وينظر أيضا إلى لفظ هذا البيت دون معناه قول أبى الطيب :

فدناك حاسدك الرئيس وامسكوا ودناك خالفك الرئيس الأكبر

خلفت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمى من أبصرا

ويلمح أيضا هذا البيت قول أبى نواس — على ما فسره بعض الناس —

« أفاستنى خرا وقل لى : هى الخمر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وببت بن شرف أشبه من هذه كلها بيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملاء السامع والافواه والمقل

(٥) لبك : أجاك — ورقراق السامح : يريد أن سماحه يترقرق أى يجرى كالماء جريا سهلا — وأدبيا :

لعلها أربيا بالراء المهملة أى طافلا .

هَمُّ تَنَافُسِهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبًا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى رِقَائِقُ ذِكْرِهَا فَكَادُ تُوهَمُكَ الْمَدِيحُ نَسِيبًا (١)
كَالَاسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً، وَالْوَزْدِ أَحْمَرَ بِهَجَّةً، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ (٢) طِيبًا
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَمَانُوهُ فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبًا (٣)
غَالِيًا بِمَا فِيهِ فَعَبِيرُ مَوَاقِعِ سَرَفًا وَلَا مَتَوَقِّعٌ تَكْذِيبًا (٤)

* * *

كَانَ الْوُشَاةُ وَقَدْ مَنِيَتْ بِإِفْكَهِمْ - أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيَا (٥)
وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضُّ الْجَنَى هَزَّتْ ذَوَائِبَهَا فَلَا تَثْرِيَا
أَنَاسِيْفُكَ الصَّدَى الَّذِي - مَهْمَا تَشَأْ - تُعِدِ الصَّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيَا (٦)
كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبِ فَشَمَيْتُهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيَا
«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ - حِينَ مَطَرَتْهُ بِسَحَابِ النُّعْمَى - فَرَدَّ خَصِيْبًا (٧)

(١) قال ابن بسام :

قوله : « فكاد توهمك المدح نسيبا » من قول أبي تمام :

(٢) أذفر : ذكي طيب الريح .

طاب فيك المدح والتذحق فاق وصف الديار والنشيبا

(٣) إذا تفنن : أي أطرده مديحه في اللسان - فافتن : أي أخذ في فنون وضروب من المدح لم يكن

مراد المادح غريبا لأنه يستعمل من صفاته فيقول .

(٤) مواقع : مدان ، والمتوقع : المنتظر - والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانيا

إفراطاً ولا متخوفاً تكذيباً .

(٥) منيت بليت - والافك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد انه يرى مما ابلى به من إفكهم براءة

الذئب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التعديد .

(٧) وجد هذا البيت في الأصل وفي غيره من اللطائف نافسا ، والزيادة يعطيها السياق .

* *
* *

فَتَهَنَّا بِالْأَعْيَادِ عَادَةً لِأَبْسِ يُبْلِي الدَّرِيسَ فَيَسْتَجِدُّ قَشِيبَا ^(١)
وَمَتَى سَعَيْتَ لِنَارِحٍ مُتَعَدِّرٍ فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ الْمَرَامِ قَرِيبَا ^(٢)
وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ الْقَدْرُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيبَا

عتاب

أَحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ مِنْ وِدَادِي وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ مِنْ فُؤَادِي
وَقَادَنِي الْهُوَى فَانْقَدْتُ طَوْعًا وَمَا مَكَّنْتُ غَيْرَكَ مِنْ قِيَادِي
رَضِيتَ لِي السَّقَامَ لِإِبْسِ جِسْمِ كَحَلَّتْ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالشَّهَادِ ^(٣)

* *
* *

أَجَلَ عَيْنَيْكَ فِي أَسْطَارِ كُتُبِي تَجِدُ دَمْعِي مِرَاجًا لِلْمِدَادِ ^(٤)
فَدَيْتُكَ إِنِّي قَدْ ذَابَ قَلْبِي مِنْ الشُّكْوَى إِلَى قَلْبِ جَمَادِ

- (١) يقال تهنا الطعام وتهنا به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أي تهنا بالأعياد غير مخالف عادتك فيها من إبلاء النوب الدريس أي الخلق ، ولبس القشيب أي الجديد ، وهنأ نظير قوله في البائية .
فأبل وأخلف إنما أنت لابس لهذي الليالي العر وهي ثياب
(٢) ومتى سعيت لعل الأصل ولكم سعيت البيت — والذي يظهر ان هذه الأبيات التي ختمت بها هذه القصيدة وقع فيها شيء من التعريف فليحرج .
(٣) يقول : « أحين أيقنت اني لا أحل أحداً محلك من فلبي وعلمت أنني أسير هواك جزيتني على ذلك الاخلاص في الحب سقاماً وتهيداً . وما أجل قول المجنون :

وأدنيته حتى إذا ما فتنني بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناهيت عني حين لالي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

(٤) تأمل في سطور الكتب التي أبعت بها إليك تجد دهمي مختلطاً بمدادها .

رثاء فتاة

« قال يرثي ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

- سَرَكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ فَاقِنَ شُكْرًا وَعِزًّا (١)
كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْرًا وَأَقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءَ (٢)
أَنْتَ إِنْ تَأْسَى عَلَى الْمَفْقُودِ الْفَاءَ وَأُجْتَبَاءَ (٣)
فَأَسْأَلُ عَنْهُ غَيْرَةَ وَأُحْسَمِلِ الرِّزْءَ إِبَاءَ
أَيْهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مُلِمَّتِ الْبِقَاءَ (٤)
وَتَزِيدَتِ مَعَ الْأَيَّامِ عِزًّا وَعِزًّا (٥)
إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْنَ نَعْنَاءَ لَا غِنَاءَ (٦)
أَنْتَ طَبَّ أَنْ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاءَ (٧)
فَتَأْسَى (٨) إِنْ ذَاكَ الْخَطْبَ غَالَ الْأَنْبِيَاءَ
وَسَيَفْنِي الْمَلَأُ الْأَعْلَى إِذَا مَا اللَّهُ شَاءَ

*
*
*

حَبْدًا هَدَى عَرُوسٍ دَفْنَهَا كَانَ الْهِدَاءَ
عَمَّيَّرَتْ حِينًا وَمَاءَ الْمُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاءَ

(١) اقن : الزم من قولهم قنيت حياتي أي لزمته ، قال عنتره :

فأجبتها إن النبيسة منهل لا بد أن أسقى بذلك المنهل

فاقني حياك لا أبالك واعلمي أني امرؤ ساموت إن لم أقتل

والعنى : سرك الدهر وساءك فاشكره على أن سرك وتمز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاصطفاء .

(٤) ملمت البقاء : متمك الله بالبقاء . (٥) البلاء : الرفعة .

(٦) إنما يكسبنا الحزن إنما لا فائدة فيه ولا جدوى منه .

(٧) أنت طالم خبير بأن داء الموت لا دواء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَدْنَا أَرْجَ (١) الْمِسْكِ ثَنَاءً
 جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَاءً (٢) وَفَضْلًا وَذَكَاءً
 سَتَوَفَى مِنْ جِجَامِ الْكُوْثِرِ الْعَذْبِ رَوَاءً (٣)
 حَيْثُ تَلْقَى الْأَتْقِيَاءَ الشُّعَدَاءَ الشُّهَدَاءَ

* *
 * *

هَانَ مَلَاقَتِ عَلَيْنَا أَنْ غَدَتَ مِنْكَ فِدَاءً (٤)
 غُئِمُ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْقَى وَإِنْ عُمُوا فَنَاءً (٥)
 فَالْبَسِ الصَّنْعَ مُلَاءً وَأَسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاءً (٦)
 وَرِثِ الْأَعْدَاءَ أَعْمَاءَ رَهْمُ وَالْأَوْلِيَاءَ (٧)

في الغزل

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمٌ وَعِلَّتِي أَنْتَ بِهَا عَالِمٌ
 يَهْنِيكَ يَا سُوَيْلِي وَيَا بُغَيْتِي أَنْكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمٌ (٨)
 تَضْحَكُ فِي الْحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللَّهُ - فِيمَا يَبْنِنَا - حَاكِمٌ
 أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّي الْكُرَى قَوْلَ مَعْنَى قَلْبُهُ هَامٌ
 « يَا نَائِمًا أَيَقْظَنِي حَبَّةُ هَبْ لِي رُقَادًا أَيُّهَا النَّاسُ (٩) »

- (١) طيب . (٢) الاخبات : الخشوع . (٣) ستروى من ماء الكوثر .
 (٤) هون عليها خطب الموت أنها افتدتك بنفسها من الردى .
 (٥) إن أحبابك ليرون في بقائك أكبر فوز لهم ولو افتدوك بأنفسهم .
 (٦) الللاء والملاءة : الربطة ذات لفتين ، والمعنى : ارفل في حلل المعروف والسعادة .
 (٧) وهبك الله أعمار أعدائك وأصفيائك .
 (٨) من أبدع ما قرأناه في هذا المعنى قول الشريف الرضى :
 « أهون عليك - إذا امتلأت من الكرى - أنى أبيت بليسة لللسوع »
 (٩) يقول : « ليس من العدالة أن تنام وأسهر ، فانهم طلى بالكرى بعد أن أيقظنى هجرتك » .

تهنئة

« وقال يهني المعتصد وقد شرب دواء »

أَحْمَدَتَ عَاقِبَةَ الدَّوَاءِ وَنَلَّتْ عَافِيَةَ الشِّفَاءِ
 وَخَرَجْتَ مِنْهُ مِثْلَمَا خَرَجَ الحُسَامُ مِنَ الجِلَاءِ
 وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا فَأَنْتَ دَوَاوُهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ
 وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ العِدَى وَقَسَمْتَهَا فِي الأوَّلِيَاءِ (١)
 يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ أَجِيَا دَسَارَ فِي ظِلِّ اللَّوَاءِ
 وَأَجْتَالَ يَوْمَ الحَرْبِ قُدَّ مَا وَأَحْتَبِّي يَوْمَ الحِبَاءِ (٢)
 بُشْرَاكَ عُقْبِي صِحَّةٍ تَجْرِي إِلَى غَيْرِ انْتِهَاءِ
 فِي دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا ء الدَّهْرِ آمِنَةً الفَنَاءِ
 وَمَسْرَةٍ يُفْضِي بِهَا زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ
 وَأَشْرَبَ فَقَدَّ لَدَّ النَّسِيمِ وَرَقَّ سِرْبَالُ الهَوَاءِ
 لِنَرِي بِكَ البَهْوِ المَطْلِ يَمِيسُ فِي حُلَلِ البِهَاءِ
 وَبَقِيتَ مَفْدِيًّا بِنَا إِنْ نَحْنُ جُزْنَا فِي الفِدَاءِ (٣)

(١) قوله : « وقسمتها في الأولياء » يذكرونا قول العباس الأحنف :

لو كات هذا الحب يند فذفيه حكيمى أو قضائى

لطلبته جمعتيه من كل أرض أو سماء

فقسمته بينى وبين بن حبيب نفسى بالسواء

حتى إذا متنا جميعاً ، والأمور إلى انتهاء

مات اهوى - من بعدنا - أو عاش في أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجابة الفداح في الميسر ويناسبه فدحا أى فاز بالظفر والنصر على الأعداد ، واجتال في الحرب وجال بمعنى واحد ويناسبها قدما بضمتي - والتخفيف بالاسكان في مثله جائز - ومعناه جال في الحرب يمضى قدما أى إلى الامام ، والجباء : بالكسر العطاء .
 (٣) فدتك أعمارنا إن كان يقبل منا هذا الفداء .

تهنئة بفصد

« وقال يهنيه بفصد »

لِيَهْنِكَ أَنْ أُحَدِّتَ عَاقِبَةَ الْفُصْدِ فَلِلَّهِ مِنَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَيَا عَجَبًا مِنْ أَنْ مَبْضَعٌ فَاصِدٍ تَلَقَيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِي الْحَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلَّى فَصْدٍ يُمْنَاكَ كَيْفَ لَمْ يَهْلُهُ عُبابُ الْبَحْرِ فِي مُعْظَمِ الْمَدِّ
وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ الْمُنِيرُ شُعَاعَهَا فَيُخْطِئُ فِيهَا رَامَهُ سَنَنَ الْقُصْدِ

* * *

سَرَى دَمُكَ الْمُهْرَاقُ فِي الْأَرْضِ فَكَتَسَتْ أَفَانِينَ رَوْضٍ مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ
فِصَادُ أَطَابِ الدَّهْرِ فَالْقَطْرُ فِي الثَّرَى كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فِي الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
لَقَدْ أَوْفَتِ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نُصْرَةً كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْدِ (١)
لَدَى زَمَنِ غَضٍّ أَنْبِقَ فِرْنْدُهُ (٢) كِمِثْلِ فِرْنِدِ الْوَرْدِ فِي خَجَلَةِ الْخَدِّ
تَسْوَعُ مِنْهُ الْعَيْشَ فِي ظِلِّ دَوْلَةٍ مُقَابَلَةَ الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكِبِ السَّعْدِ

* * *

فَهَبَّ إِلَى اللَّذَاتِ مُؤَثِّرَ رَاحَةٍ تُجْمِئُ بِهَا (٣) النَّفْسَ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ (٤)
وَوَالَ بِهَا فِي لَوْلُوٍ مِنْ جَنَابِهَا (٥) كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرَّوْدِ فِي لَوْلُوٍ الْعَقْدِ
وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ - عَنْ أُرْيَحِيَّةٍ - فَقَدْ يَأْتِسُ الْمَوْلَى إِذَا أُرْتَاخَ بِالْعَبْدِ

(١) يقال وفي بالعهد أوفى بالعهد وكلاهما بمعنى واحد قال تعالى « وأوفو بعهد الله » ومعنى البيت لقد شاهدتك الدنيا على النصرة ووفت بالعهد ولم تنقضه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أنبِق الوشى . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جت وأجها هو أى تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات منفضلا الراحة قليلا ، وارك نفسك تستجمع ما فقدته من قوتها لتستأنف الكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم .

في مدح ابن جهور

- مَا طَوَّلُ عَدْلِكَ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعِ - ذَهَبَ الْفَوَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ (١)
 فُنَدْتُ حِينَ طَمَعْتِ فِي سُلُوَانِهِ - هَيْهَاتَ لَا ظَفْرَهُ هُنَاكَ لِطَامِعِ (٢)
 فَذَعِيهِ حَيْثُ يَطْوُلُ مَيْدَانُ الصَّبَا - كَيْمَا يَجْرُ بِهِ عِنَانُ الْخَالِعِ (٣)
 مَاذَا يَرِيكَ مِنْ فَتَى عَزَّ الْهُوَى - فَعِنَّا لِنُخْوَتِهِ بِذِلَّةٍ خَاصِعِ (٤)
 هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحْضَ الْوَفَاءِ لِنَاغِدِرِ - أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الْوِصَالُ لِقَاطِعِ (٥)
 لَمْ يَهُوَ مَنْ لَمْ يُمَسِّ قُرَّةَ عَيْنِهِ - سَهْرُ الصَّبَابَةِ فِي خَلِيِّ هَاجِعِ (٦)
 وَاهَا لِأَيَّامٍ خَلَّتْ مَا عَهْدُهَا - فِي حِينِ ضَيَعَتِ الْعُهُودَ - بَضَائِعِ (٧)
 زَمَنٌ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى - يَسْتَنُّ فِي صَفَحَاتٍ وَرْدٍ يَانِعِ (٨)
 أَيَّامٌ إِنْ عَتَبَ الْحَيِيبُ - لِهَفْوَةٍ - شَفَعَ الشَّبَابُ فَكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ (٩)

- (١) العدل : اللوم ، والمعنى : لامتدليه فليس العدل بنافع مجازاً ذهب فؤاده مع من يهواه فليس يرجعه كثرة اللوم والتعنيف . (٢) فندت : أى نسبت إلى الكذب وضعف الرأى حين تطمعين في سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع في سلوانه بطائل .
 (٣) الخالِع : من خلع الفرس عذاره ألفاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركه وشأنه في الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، وسراح الشباب ، كى يطلق لنفسه المنان في اللهو والراح . (٤) ماذا يريك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شيء يجعلك منه في ريبة وشك ، وعنا : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى : « لو حيث يستمع السرار وبقتما لعجبتما من عزه وخضوعي »
 (٥) معناه : هل يعرف غير محض الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .
 (٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة في خلى نائم حبيبا إلى نفسه ، وقررة لعينه .
 (٧) واهأ : كلمة يتعجب بها من طيب الشيء وحسنه ، والمعنى : ما عهدت تلك الأيام التى تروق بهجتها بضائع عندي في حين ضيعت أنت كل العهود .
 (٨) راق : أجب ، والسقيط : ماسقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع في صفحة الورد
 (٩) قريب من هذا المعنى قوله في مطلع بائنته :

أما علمت أنت الشفيح شباب فيقصر عن لوم المحب عتاب
 علام الصبا غش يرف رواؤه إذا عن من وصل الحسان ذهاب

مَالِي وَلِدْتُيَا غُرِرْتُ مِنْ الْمُنَى فِيهَا بِيَارِقَةَ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أزالُ أرومُ شَهْدَةَ عَاسِلٍ أَغشى مُجَابَّتَهَا بِإِبْرَةِ لَاسِعِ (١)

* *
* *

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي الْبِلَادَ إِذَا نَبَتْ أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأَلُوفِ بِبَاخِعِ (٢)
أَمَّا الْهُوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً أَغشى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ (٣)
فَلْيُرْغِمِ الْحِظَّ الْمَوْلَى أَنَّهُ وَلَّى فَلَمْ أَتْبِعْهُ خُطْوَةَ (٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغِنَى هُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي يَشْتَفُ نُظْفَةَ مَاءٍ وَجْهَ الْقَانِعِ (٥)

* *
* *

اللَّهُ جَارُ « الْجَهْوَرِيِّ » فَطَالَمَا مُنِيَّتْ (٦) صَفَاةُ (٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

(١) شهدة : بالضم والفتح واحدة الشهيد وهو العسل مادام لم يعصر من شمعته ، والعاسل : الذي يشتر العسل أى يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يبيعه النحل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » جناس القلب ، والمعنى : ما زلت أطلب من الدنيا أملا يحكى بمجاجة عاسل حتمها لمرة لاسع .
(٢) نبت : لم يوافقها المقام بها قال : « وإذا نباك منزل فتحول » ، وباخع : مزق نفسى وقتلها غما والمعنى : من يبلغ عنى ساكبي تلك البلاد التي نزحت عنها مع شدة تعلقى بها أتى لست بقاتل نفسى أسفا وغما على مفارقتها إذا نبت بى ولم توافقى الإقامة فيها ، وفي معنى التحول عن منزل الضيم يقول بشار :
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد
أى على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارِع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشعره سدده له وهو نظير قول الآخر :

نمرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم ما بين القدمين وتجمع على خطأ وخطوات .

(٥) النظفة الماء : القليل ، ويشترها : يشرها عن آخرها ، يقال اشترف فى شربه إذا أتى على آخر ما فى الأناة . فلم يستر ، والمراد هنا أنه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفى الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع - بالفتح - فنوما إذا سأل ، لامن قنع - بالكسر - قناعة إذا رضى ولم يرق ماء وجهه بذل السؤال ، يقول أن الغنى عنى النفس بالقناعة لا غنى المال الذى يستنزف فيه السائل ماء وجهه ، ويشترف آخر قطرة لمن حياته .

(٦) ابتليت .

(٧) الحبر العريض الأماس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أَنَّ الْمَسَاعِيَّ مُسْمَعَةٌ فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلْسَّامِعِ
 شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ عَنْهُ الْكَهَامُ فِي الضَّحَاءِ (١) الْمَاتِعِ (٢)
 أَعْرَى مُنَافِسَهُ لِيُذْرِكَ شَأُوهُ فَشَآهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ (٣)
 ثَبَّتُ السَّكِينَةَ فِي النَّدِيِّ كَأَنَّمَا تَمَكَّ الْحُبَابُ لِيَمْتَّ بِهَضْبِ مَتَالِعِ (٤)
 عَذْبُ الْجَنِيِّ لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهْجِجْ فَالَسَّمُ يَا بُنِي أَنْ يَسُوغَ جِرَارِعِ

* *
* *

يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى لَوْلَاكَ كَأَنَّ حَمِيَّ قَلِيلَ الْمَانِعِ
 أَنْسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ ، فَهَمُّ بِهِ مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ
 مَبْتُوُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُونِقٍ مُتَفَيِّئُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَائِعِ
 فَتَضَرَّبْنَ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ
 خَيْرُ الشُّهُورِ أُخْتَرَتْ عِنْدَ طُلُوعِهِ خَيْرَ الْبِقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ (٥)

(١) النهار قبل انقضاؤه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشأو : الطلق والشوط والغاية ، وشأه : سبقه .

(٤) الندى : المجلس ، والجا : بالضم والكسر جمع جبه وهو أن يجتمع الجالس سائيه إلى بطنه يديه أو يجمع ظهره وسائيه بثوب ، والاحتباء من عادة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويغنيه عن الجدار الذي يسند إليه ظهره ، وليت : لفت وطويت حوله كما تطوى العمامة ، والمعنى : أنه وقور في مجلسه رابط الجأش كأنما شددت تلك الجبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسابيل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع .

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع

حرمه في إحدى جناته . »

غَمَرْتَنِي لَكَ الْيَادِي ^(١) الْبَيْضُ نَسَبُ ^(٢) وَافِرُهُ وَجَاهُهُ عَرِيضُ
كُلِّ يَوْمٍ يَجِدُّ مِنْكَ أَهْتِبَالَ ^(٣) ، عَهْدُ شُكْرِي عَلَيْهِ غَضُّ غَرِيضُ ^(٤)
بِوَأْتَنِي ^(٥) نُعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالٍ فِي وَصْفِهَا فَضْلَ الْقَرِيضُ
مُجْتَنِي مُدْنٍ ، وَظِلُّ بَرُودٍ ، وَنَسِيمٌ - يَشْفِي النُّفُوسَ - مَرِيضُ ^(٦)
وَمِيَاهُ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ عَا رَضَ تَذْهِيبَهُ لَهَا تَفْضِيضُ
كَلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَامُ قُلْنَا : « مَعْبُدٌ - إِذْ شَدَا - أَجَابَ الْغَرِيضُ ^(٧) »

(١) النعم . (٢) النسب : المال والعقار . (٣) غم .

(٤) الغريض : ماء المطر ، وكل أبيض طري ، والمعنى : إنني أظفر منك كل يوم بنغم جديد أقالبه منك

بشكر جديد . (٥) أحتني أو أنزلني أو أسكنني .

(٦) يصف الجنة التي أحلها ممدوحه بأن قطوفها دانية وظلها ظليل ونسيمها عليل يشفي النفوس .

**
**

(٧) معبد والغريض

علمان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبعا مضرب الأمثال في
إجادة الغناء والافتنان فيه ، وقد كان معبد يتدرّب في الغريض ويشيد به ، كما تدل على ذلك قصة تعارفهما
التي تترك لمعبد روايتها بأسلوبه الممتع ، فل :

« خرجت إلى مكة في طلب لقاء الغريض ، وقد بلغني حسن غنائه في لحنه :

وما أنس ملاً شيئاً لا أنس شادناً بكما مكحولاً أسبيلاً مدامعه

وقد كان بلغني أنه أول لحن صنعه ، وأن الجنّ نهته أن يغنيه لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه

وفي هذا التمهيد ما يدل على تصويرهم واعتقادهم في ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريض فنسبوا إليها

المعجزات وأنشأوا حولها الأساطير .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فدللت على منزله فأتيته ، ففرعت الباب ، فما كلني أحد ، فسألت بعض الجيران
قلت : هل في الدار أحد ؟ فقال لي : نعم فيها الغريض ، قلت : إني قد أكثرت دقّ الباب فما أجابني أحد
قلوا : إن الغريض هناك ، فرجعت فدققت الباب ، فلم يجيني أحد ، قلت : إن نفعني غنائى يوماً نفعني اليوم
فاندفعت فنيت لحنى في شعر جميل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، قلت : بطل سحرى ، وضاع سفرى
وجئت أطلب ما هو عسير علىّ واحتقرت نفسى ، قلت : لم يتوهمنى لضعف غنائى عنده ، فما شعرت إلا
بصائح يصيح يا معبد المنفى ، أفهم وتلق عنى ، شعر جميل الذى تفتى فيه ياشقى البخت ، وغنى :

« وما أنس مل أشياء لا أنس قولها . . . »

(قال) فقد سمعت شيئاً لم اسمع أحسن منه وقصر إلىّ نفسى وعلمت فضيلته علىّ بما أحسنّ من نفسه ،
قلت : انه لحرىّ بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وتعظيماً لغيره وان مثله لا يستحقّ الإبتدال ، ولا ان
تداوله الرجال ، فأردت الانصراف إلى المدينة راجعاً ، فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بى :
يا معبد انظر أكلك فرجعت ، فقال : إن الغريض يدعوك ، فأمرعت فرحاً فدنوت من الباب . فقال لي :
أتحبّ الدخول ، قلت : وهل إلى ذلك من سبيل ، ففرع الباب ففتح ، فقال لي : ادخل ولا تطلّ الجلوس فدخلت
فاذا شمس طالعة في بيت ، فسلمت فردّ السلام ثم قال : اجلس بجلست ، فاذا أنبل الناس وأحسنهم وجهاً
وخلقاً وخلقاً ، فقال : يا معبد كيف طرأت إلى مكة ، قلت : جعلت فداءك وكيف عرفنى ؟ فقال : بصوتك
قلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به قلت : إن كان معبد في الدنيا فهذا ،
قلت : جعلت فداك فكيف أجبتنى بقولك : « وما أنس مل أشياء لا أنس قولها » ، فقال :
قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتى :

« وما أنس مل أشياء لا أنس شادنا بكرة مكحولاً أسيلاً مدامعه »

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه فغنيتك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت ،
قلت : والله ما عدوت ما أردت فهل لك حاجة ، فقال لي : يا أبا عباد لولا ملامة الحديث وتقل إطالة الجلوس
لا استكثرت منك فاعذر ، ففرجت من عنده وإنه لأجلّ الناس عندى ورجعت إلى المدينة ، فتحدثت بحديثه
وعجبت من فطنته وقيافته ، فما رأيت انساناً إلا وهو أجلّ منه في عيني .

**
**

ومما نخّاره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له في السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الفناء جارية من
جوارى الحجاز تدعى ظبية وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة
وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل منذهب وغلبت عليه ،
ثم ماتت - بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان - وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبته

إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعصب له والميل إليه والتقديم لفتائه على سائر أغاني أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما ورد لها صادف الرجل وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة يتحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه في مؤخر السفينة ففعل وانحدروا ، فلما صاروا في فم نهر الأبله تغدوا وشربوا وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت وهو في ثياب السفر وعليه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بانت سعاد وأمى حبلها انصرما واحتلت النور فالاجراع من إضنا

(والغناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إن غناءك هذا ليس بمستقيم (قال) فقال له مولاهما - وقد غضب - أنت ما يدريك الغناء ؟ ما هو إلا أن تمسك وتلزم شأنك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يا بنه الأزدي قلبي كئيب . . . » (والغناء لمعبد) فأخلت ببعضه ، فقال لها معبد : يا حارية لقد أخلكت بهذا الصوت لإخلالا شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويحك ما أنت والغناء ، ألا تكفّ عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الجوارى ملياً ثم غنت إحداهن :

خليلي عوجا منكما ساعة مى على الربيع تقضى حاجة ونودّع

(والغناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تهوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن طاوت لأخرجنك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجوارى سكتة اندفع ينفى الصوت الأوّل حتى فرغ منه ، فصاح الجوارى : أحسنت يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع ينفى الثاني ، فقلن لسيدهن : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذنه عنه فانه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الاساءة فاصبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : ياسيدى اخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغي لك أن تثبت ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلى وتخطئنى ، فقال : أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل : بمن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ، فقال : أخذته عن جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن أبى عباد معبد وعنى بتخريجها فكانت تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزّ وجلّ بها وبقي هؤلاء الجوارى وهنّ من تعليمها فأنا إلى الآن اتمصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعا وأفضل صنعته على كل صنعة . فقال له معبد : أو إنك لأنت هو افتعرفنى ؟ قال : لا (قال) فصك معبد بيده صلعته ، ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأتصدك بالأهواز ووائته لاقتصرت في جواريك هؤلاء ولأجملنّ لك في كل واحدة منهنّ خلفا من الماضية ، فأكب

الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا حتى جفوناك في المحاطبة وأسانا عشرتك وأنت سيدنا ومن تمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه في وقته ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذته ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

*
* *

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماحه من المغنين وغناؤه لهم فقال :

قال معبد : غنيت فأعجبني غنائى وأعجب الناس وذهب لى به صيت وذكرك ، فقلت : لآبين مكة فلا سمعن من المغنين بها ولأغنيهم ولأعرفن إليهم ، فابتعت حمارا فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعثت حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل : بقميخان في بيت فلان فحئت إلى منزله بالنلس فقرعت الباب ، فقال من هذا ، فقلت : انظر طافك الله ، فدنا وهو يسبح ويستعبد — كأنه يخاف — ففتح ، فقال : من أنت طافك ، الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئا وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك وقد أحببت أن تنزلنى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فانه لا مؤونة عليك ولا عليهم منى ، فلوى شيئا ثم قال : انزل على بركة الله (قال) فنقلت متاعى فنزلت فى جانب حجرته ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا : من هذا الرجل . قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتغى الغناء ويطرب عليه ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وشربوا وغنوا ، فجعلت أعجب بننائهم وأظهر ذلك لهم وبمعجبهم منى حتى أقننا أياماً وأخذت من غنائهم وهم لا يدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج : فديتك امسك على صوتك :

قل هند وتربها قبل شحط النوى غدا

قال : أو تحسن شيئا ، قلت : تنتظر وعسى أن أصنع شيئا . واندفعت فيه فننيت فيه فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنت فأنك الله . قلت : فأمسك على صوت كذا فامسكوه على فننيتته فازدادوا عجباً وصياحا . فما تركت أحداً منهم إلا غنيت من غنائهم أصواتاً قد تخيرتها (قال) فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرفوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا عنا منا ، قلت : فامسكوا على ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فننيت صوتنا من غنائى فصاحوا بى ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلى وقالوا : نخلف بالله إن لك لصيتنا واما وذكراً وان لك فيما هاهنا لسهماً عظيماً فن أنت ؟ قلت أنا معبد فقبلوا رأسى وقالوا : لنفت علينا وكنا نتهاون بك ولا نعدك شيئا وأنت أنت . فأقت عندهم شهراً أخذ منهم وبأخذون منى ثم انصرفت إلى المدينة .

*
* *

ومن الطرف النادرة ما حدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلى بعض أمراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان إن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى فى بعض تلك الأيام واشتدت على الحر والعطش فانتبهت إلى خباء فيه أسود ، وإذا جاب

جَاوَرَتْ سَمَّةً ^(١) مُشِيدَةً الْمَبْنَى لِبَرْقِ الرَّخَامِ فِيهِ وَمِيضُ
مَرْمَرٍ أَوْ قَدَّ الْفِرْنْدَ ^(٢) عَلَيْهِ سَسَلَسَلُ بَحْرُهُ الزُّلَالُ يَفِيضُ
وَسَطَهَا دُمِيَّةٌ يَرُوقُ أُجْتِلَاةً الْكُلُّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبَعِيضُ ^(٣)

ماء قد بردت فلتت إليه فقلت : يا هذا اسقني من هذا الماء ، فقال لا ، فقلت : فأذن لي في الكنّ ساعة قال : لا ، فأخضت نائتي ولجأت إلى ظلها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئاً من الغناء أقدم به عليه ولعلني إن حرّكت لسانى ان يبلى حلقى ربقى فيخفف عنى بعض ما أجده من العطش . فترنمت بصوتى : « القصر فالنخل فالجماء بينهما » فلما سمعنى الأسود ما شعرت به إلا وقد احتملتنى حتى ادخلنى خبائه ثم قال اى أبى أنت وأمى ، هل لك فى سويق السلت بهذا الماء البارد ، فقلت : قد منعتنى أقل من ذلك وشربة ماء تجزئنى (قال) فسقانى حتى رويت وجاء الغلام فأقتت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : اى أبى أنت وأمى الحرّ شديد ولا آمن عليك مثل الذى أصابك فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقى وأسمى بها معك فكلما عطشت سقيتك وغنيتنى صوتاً (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقتنى يسقيني وأغنيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معبد والنريش طويلة متفرقة فى كتاب الأغاني فليرجع إليها من شاء .

(١) الجمّة — بالفتح — العين الحارة الماء يستشفى بها الأعداء ومنه الحديث : « مثل العالم كمثل الجمّة يأتمها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم ونقى أتوام يتفككون أى يتقدمون » والجمّة مدينة ذات ينابيع معدنية حارة وباردة بالقرب من مدينة «لوشة» وقد زارها «ابن بطوطة» ودخل مسجدها ووصف ما فيها من صيد البر والبحر ، والجمّة — أيضاً — اسم لمداين أخرى ذات ينابيع معدنية حارة فى إقليم «غرناطة» وإقليم مرسية وغير ذلك ، وجمّة غرناطة ، وتسمى مدينة الجمّة عند أهل غرناطة .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو مايرى فيه شبه غبار أو مدب نخل ، والفرند : الورد الأحمر أيضاً .

(٣) أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى وحيد المغنية :

وغرير بحسبها قال : « صفها » قلت : « أمران ، هين وشديد .

يسهل القول : إنها أحسن الأشياء بياء طراً ويصعب التحديد »

وفى هذه القصيدة يقول :

غادة زانها — من النض — قد ومن الظبي مقلتان وجيسد

وزهاها من فرعها ومن الحديد ذاك السواد والتوريد

نحى برد — بنجدها — وسلام — وهى للعاشقين جهد جهيد

مألما نصطليه — من وجنتها — غير ترشاف ريقها تبريد

مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ — وجود ، لولا الآباء والتصريد

وفى قول : تنجلي للناظرين إليها فشقى بحسبها وسعيد

ظبية — تسكن القلوب وترعاها — وقرية لها تنريد

بَشْرُهُ نَاصِعُهُ وَخَدُّهُ أَسِيلُهُ
وَمُحِيَّا طَلِقُهُ وَطَرَفُهُ غَضِيضُهُ
وَقَوَامُهُ كَمَا أُسْتَقَامَ قَضِيبُ الْبَابِ إِذْ عَلَّهُ (١) تَرَاهُ الْأَرِيضُ (٢)
وَأَبْتِسَامُهُ لَوْ أَنَّهَا أُسْتَعْرَبَتْ فِيهِ أَرَاكَ أَسَافَهُ الْإِعْرِيضُ (٣)
وَالْتِفَاتُهُ كَأَنَّهَا هُوَ بِالْإِيحَاءِ - مِنْ فَرَطٍ لُطْفِهِ - تَعْرِضُ

* *
* *

لَمَعُ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ لِلْهَوَى عَنْ حَمَلَهَا تَعْوِيضُ
سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتُ الْمُنَى - مِنْ سَحَابِهَا - تَرْوِيضُ
تَابَعْتَهَا يَدُ الْهُمَامِ أَبِي عَمْرٍو فَمَا غَمَرُهَا لَدَيْ مَغِيضُ (٤)

تغفني كأنها لا تغفني - من سكون الأوصال - وهي تحيد
لا تراها هناك تجحظ عين - لك منها - ولا يدر ويريد
من هدوء وليس فيه انقطاع ، وسجوت وما به تبليد
مد في شأو صوتها نفس كما ف - كأفاس طاشقيا - مديد
وأرق الدلال والبنج منه وراه الشجا ، فكاد يبسد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسبطه والذشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغ - م مصوغ يختال فيه التصيد
طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذلك شهيد
ثقب ينقع الصدى ، وغناء عنده يوجد السرور الفقيد
فلها - الدهر - لائم مستزيد ولها - الدهر - سامع مستعيد
في هوى مثلها يخف حلیم - راجح حله - ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا أصابت به - واهها منهن حيث تريد

إلى آخر هذه القصيدة الفذة التي تجتري منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء في ديوانه ليقارن بين هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) عله : سقاه ، والأريض : الزكي الثربة الخليق للنبت . (٢) المعجب .

(٣) استعربت : بالغت في الضحك ، والأريض : الطلع وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : النعمة ، والعمر : الماء الكثير ، ومغيض : اسم مفعول من غييض الماء فهو مغيض إذا غار ونضب ، أي تابعت تلك اللع من رغد العيش يد مضافة إلى « أبي عمرو » لا تزال تغدونا بمينها الذي الذي لا يغيض ماؤه فليس معينها الغزير الماء ناضيا عندي .

مَلِكٌ ذَادَ عَنِ حِجَى الدِّينِ مِنْهُ مَنْ إِلَيْهِ فِي نَصْرِهِ التَّفْوِيضُ
 وَسَمَّا نَاطِرُهُ مِنَ المَجْدِ فِي دُنْيَاهُ قَدْ كَانَ كِفَّهُ التَّغْمِيضُ^(١)
 إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيضَ النَّقِيضُ^(٢)

* *
* *

يَا مُعِزُّ الهُدَى الَّذِي مَا لِمَسْعَا هُ إِلَى غَيْرِ سَمِيهِ تَغْرِيبُ
 يَا مُحِلِّي يَفَاعَ حَالٍ ، مَكَانُ النَّجْمِ - مَهْمَا يُقَسِّ إِلَيْهِ - حَضِيضُ^(٣)
 إِنْ أَنْزَلَ أَيْسَرَ الرِّغَابِ فِيهِ يَرْضَ فَوْزَ القِدَاحِ مَنِي مُفِيضُ^(٤)
 لَوْ يَفَاعُ المَجْرَةَ أُعْتَضَتْ مِنْهُ رَاحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ المُسْتَعِيضُ
 حَظٌّ سِنَّ أُمْرِي نَأَى مِنْكَ قَرَعُ وَقُصَارَى بِنَانِهِ تَعْضِيضُ

* *
* *

حَسَبِي النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرُهُ عَطَّرَ الدَّهْرَ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيضُ
 دُمٌ مُوَقِّي وَليكَ - الدَّهْرُ - مَحْبُوبُ رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعَدُوُّ مَهْبِضُ
 فَاعْتَرَفُ المُلُوكِ أَنْكَ مَوْلاً هُمْ حَدِيثُ مَا بَيْنَهُمْ مُسْتَفِيضُ

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كف ناظره كثرة التغميض . يريد أنه بعد أن ذاد عن حوزة الدين

سما بنظره في شؤون دنيا كان قد صرفه عنها كثرة التغميض والاعراض .

(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

ضدآن لما استجمعا حسنا والصدّ يظهر حسنه الضدّ .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض . يقول : يامن أحللتني حالا رفيعا ، إذا قيس إليه النجم - على رفعته -

عد حضيضا . (٤) المفيض : من أفاض الرجل بقدم الميسر إذا ضرب بها فوقعت منبثة متفرقة .

شفاعة

قال هذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويحرم بمجنازه ويطلب شفاعته ، قال ابن بسام :

« كان أبو الوليد من أنشأته دولة الجهاورة واصطفته اصطفاء الفرس للأساورة ، وقد اختص بابي الوليد اختصاص الفرع بالنور وارتبطهم ارتباط الافاضة بالفور ، وأبو الحزم بن جهور - إذ ذاك - رأس الجماعة وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدهى من عمان وأجرأ من ليث خفان وأدهى من عمرو بن الحفان . وكان ابن زيدون متصلاً بابننه أبي الوليد أطول عقبه اتصال أبي زيد بالوليد بن عقبه وبينهما تآلف أحرماً بكهنته وطافا وسقيا من تصافيهما نطافا وابن زيدون يمتد ذلك حساماً مساوياً ويرى أنه يرد به صعب الخطوب ذلولاً ، إلى أن طلب عند أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدفع به تلك الأسنه والأسل فماتت إليه عنان عطفه ولا كف عنه سنان صرفه مع استعطفاه له بكل مقال يحمل سخائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب سلس القيادة ، فمن بدع ذلك وأحسنه قوله :

يه أبا الحزم اهتبل غرة السنة الشكر عليها فصاح

أَمَّا وَالْحَاطِظِ مِرَاضٍ صِحَاحٍ تُصْبِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوِي صَوَاحٍ
لِبَائِنٍ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ وَرَدُّهُ وَأَثْنَاءُ ثَنَائِيهِ رَاحٍ
لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً وَشَاحَهُ اللَّاصِقِ دُونَ الْوِشَاحِ (١)
أَلَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْهُ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجِنَاحِ
لَأَصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى (٢) « جَهْوَرًا » عَهْدًا لِرَوْضِ الْحَزَنِ عَمَّهُ أَنْتِضَاحِ

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاحه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ومن أنزبه عصرًا قوله الفحل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حمل منك مالا يحمل

نغذى له جسمي مكان وشاحه إن العليل بشكله يتعلل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس »

(٢) وفي رواية ابن بسام : « لأصفيين المرتضى جهورا »

جَزَاءَ مَا رَفَعَهُ شُرْبَ الْمُنَى وَأَذَنَ السَّعْيُ بِيُوشِكِ النَّجَاحِ (١)
يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيلِهِ فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحِ (٢)
لَمْ أَشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ أَقْتَدِحِ الصَّمَّ بِيِيضِ الصَّفَاحِ (٣)
مَنْ مِثْلُهُ - لَا مِثْلَ يُلْنِي لَهُ - إِنْ فَسَدَتْ حَالٌ فَعَزَّ الصَّلَاحُ
يَا مُرْشِدِي جَهْلًا إِلَى غَيْرِهِ أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْؤُهُ الصَّبَاحُ
رَكِينٌ مَا تُنْمِي عَلَيْهِ الْحُبَا يَهْفُو بِهِ نَحْوَ النَّشَاءِ أُرْتِيَاخِ (٤)
ذُو بَاطِنٍ أَقْبَسَ نُورَ الثُّقَى وَظَاهِرٍ أَشْرَبَ مَاءَ السَّمَاخِ
أَنْظُرُ تَرَ الْبَدْرَ سَنَا وَأَخْتَبِرُ تَجِدُهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِثَّ فَآخِ (٥)

* * *

إِيهِ « أَبَا الْحَزْمِ » أَهْتَبِلُ غِرَّةً أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحُ (٦)
لَا طَارَ بِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحِ

(١) رفة : من ورود الابل رفها ، وهي أن ترد الماء في كل يوم متى شاءت .

(٢) يسرت يجوز أن يكون بالتشديد بمعنى سهلت وبالتخفيف من يسر يسر إذا ضرب بقداح اليسر - والمعنى على الثاني ضربت بقداح آمالي ياسراً فلم يعدنى أن فزت بأوفر القداح حظوظاً ، وفي رواية ابن بسام : « نسرت آمالي بتأميله »

(٣) أى لم انظر البرق ليس فيه مطر ، ولم اقتدح صلدا لم يور ناراً .

(٤) ركين من الركاة أى الرزاة - والمعنى : أنه وقور الحبوة رزينها يهفو به ويحركه نحو المدح أريحية فيهتز بعد سكون في مجلسه ووقار .

(٥) مات الشيء يميته إذا مرسه بيده في الماء فذاب من مسك ونحوه - يقول انظر تراه كالبدر سنا وبهاء وأختبره تجده كالسك فاح شذاه وقد ميث أى مرس باليد ، والمسك - إذا سحق - فاح شذاه ، وقد قال المعري في هذا المعنى وأجاد ما شاء أن يعيد .

« عل البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا »

(٦) اهتبل : اغتم يقال اهتبلت غفلته - والغرة : بالكسر الغفلة ، وفي النمل « الغرة تجلب الدرهم » أى الغفلة تجلب الرزق - والمعنى : أستكثر أبا الحزم في غفلة أعدائك من المنام والأموال تنطق الألسنة مفضحة بشركك ، وفي رواية ابن بسام : « ألسنة الدهر عليها فصاح »

عَبَّكَ - بَعْدَ الْعَتَبِ - أُمِّيَّةٌ
 لَمْ يَشْنِي عَنِّي أَمَلٌ مَا جَرَى
 فَاشْحَذْ بِحُسْنِ الرَّأْيِ - عَزَمِي يُرْعِ
 وَأَشْفَعْ فَلِلشَّافِعِ نَعْمَى بِمَا
 إِنَّ سَحَابَ الْأَفْقِ مِنْهَا الْحَيَا
 وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ

مَا لِي عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا أَقْتِرَاحٌ^(١)
 قَدْ يُرْقِعُ الْخَرْقُ وَتُؤَسِّى الْجِرَاحُ
 مَنِ الْعِدَاءِ، أَلَيْسَ شَاكِي السَّلَاحِ؟^(٢)
 سَنَاهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النِّوَاحِ^(٣)
 وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحِ^(٤)
 تَعَبْتِ فِي تَأْمِينِهِ وَأَسْتِرَاحِ

هدية تفاح

« وقال في تفاح أهدها إلى المعتضد بالله

أبي عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيْنَتْ الرِّيَا
 وَلَهُ يَدٌ يَدِسُ النِّعْمَا
 سَةِ حِينَ أَلْبَسَ ثَوْبَهَا
 مٌ مِنْ أَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا^(٥)
 جَاءَ تَكَ جَامِدَةٌ الْمَدَا
 مٌ فَخَذَتْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا^(٦)

- (١) العتبي : الرجوع إلى ما يرضى العائب أى رجوعك بعد العتاب إلى ما يرضيني أمنيته لا اقترح على الدهر سواها . (٢) قو بحسن الرأى عزمى يخف منى العدا ، أليس عزمى شاكي السلاح ؟ (٣) سنه : سهله ويسره - من عقد : أى من حل عقد - وثيق النواح : أى عسر الحل من أى نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا فى أمالى أبى القاسم الزجاجى ، إن معاوية بن أبى سفيان صرف روح ابن زباع عن صله لحياة بلقته عنه ، وأمره بالقدوم عليه ففعل ، فأمر بضره فلما أخذته الشياطين قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركننا أنت بيته ، أو تضع منى خسيصة أنت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سنى حل عقد تيسر ، خليا عنه » - ومعنى البيت أنه يطلب شفاعته ، ويبين أن للشافع على المشفوع له يد ونعمة بسبب ما سهله ويسره من حل عقد تيسر بعد أن تعقدت أواخيه وتوقفت نواحيه . (٤) الحيا : المطر - يريد أن الحمد للشافع لا للذى قبل منه الشفاعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التى منها المطر بل للرياح التى تزيجها ثم تؤلف بينها فتمطر ، وقد كرر هذا المعنى فى بعض قصائده فقال :
 للشفيح البناء - والحمد فى صوب الحيا للرياح لا للغيوم
 انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحرى إلى هذا المعنى فقال وأبعد :
 « حازمدي ، وللرياح - اللواتى تجلب الغيث - مثل حمد الغيوم »
 (٥) نزول المطر . (٦) جعل المدام وهي الخمر نوعين جامدة وهي التفاح وذائبة وهي الراح وطلب إلى الممدوح أن يشرب عليها ذوبها وهي الراح الحقيقية .

لا يهنا الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور وقد كتبها
إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكَ لِحْطِي فِي سَنَا الْقَمَرِ
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ
نَاهِيكَ مِنْ سَهَرٍ بَرَحَ تَأَلَّفَهُ
فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلُ
إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثْرِ (١)
إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقَصْرِ (٢)
شَوْقٌ إِلَى مَا أَنْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّمْرِ
لَوْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ (٣)

* * *

أَمَّا الضَّنَى فَجَبَّتُهُ لِحْطَةٌ عَنْهُ
فَهَيْتُ مَعْنَى الْهُوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكَ لِي
وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهًا نَوَاحِيَهُ
كَأَنَّهَا وَالرَّدَى جَاءَا عَلَى قَدَرِ (٤)
إِنَّ الْخَوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْخَوَرِ
تَوْمُ الْقَلَائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدْرِ (٥)

(١) أى لم أجعل بلحظى فى نور القمر بعد غيبتك عنى إلا ذكرتك كما يذكر الرأى عن الشىء وذاته بما يراه من آثاره . (٢) الذمء : بالفتح البقية الباقية من الليل - أى ما تميت أن يطول ما بقى من عمر الليل إلا أسفا على ليلته اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما ينعنون ليل الوصال بالقصر ، ومن أبداع ماقرأناه فى ذلك قول الشريف الرضى :

« أشكو الليالى غير معتبة إما من الطول أو من القصر

تطول فى هجرهم وتصرف فى الوصل . فلا نلتقى على القدر

يا ليللة كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر »

(٣) يمتنى أن يصل ظلام الليل بما يستعيره من سواد القلب والبصر ، ولو لئمنى أى وليته استعار ، ولا خفاء أن سويداء القلب وسواد العين من أغس الأشياء وأعزها ، ولكنه يذمها طارية فى سبيل استدامة الليل وطوله ، وجاء لابن بسام فى الذخيرة فى نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ المعرى حيث يقول :

يودّ أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٤) العنن : بفتح العين من عن الشىء إذا ظهر أملك واعترض .

(٥) رفها : هو أن ترد الابل الماء كل يوم - توم القلائد : جمع تومه بالضم وهى اللؤلؤة ، استعار ورود الابل رفها للامزجة الحلى صدرها من غير أن تجنح بعد الورد إلى الصدر .

حُسْنُ أَفَانِينُ لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا
وَاهَا لِشَعْرِكَ تَعْرًا بَاتَ يَكْلُوهُ
يَقْضَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمُضًا مُرَاقِبَةً
لَا لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِي مُرْتَجِعًا
إِذْ لَا التَّحِيَّةُ إِيمَاءُ مُخَالَسَةً
مُنَى كَانَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهَا

* *
* *

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنِّ حَالِي فَشَاهِدْهَا
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى
مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُعْنِي عَنِ الْخَبَرِ
بَرَقَ الْمَشِيبِ أَعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ (٣)
وَلِلشَّيْبَةِ غُضْنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرٍ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبٌ

(١) يكلوه : يحفظه ويغار عليه - وغيران : وصف من الغيرة - والعوالى صدور الرماح - الشعر : جمع ثغره بالضم وهي الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهي الثغرة في النحر .
(٢) النور : جمع غرة بالكسر وهي الغفلة ، والمعنى : أنه ينتهز غرات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، فيقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته وتنبيه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من موافاة حبيبه .
(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن - والعارض : الخد يقال أخذ الشعر من عارضيه - والمعنى : أن يياض المشيب وخط طارضيه قبل أن يخضع برد الشباب وقبل أن يعد من سنه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبو نواس في هذا المعنى أيما إبداع إذ يقول في سينته :

« وإذا عدت سنى ، كم هي لم أجد
للسيب عنرا في النزول براسي
قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي
عن أن تسير إلى في بالكاس »
وقال ابن الرومي : « قد يشيب الفسى وليس عجيبا
أن يرى النور في الفضب الرطيب »
وقال الآخر : « يا عز هل لك في شيخ فتى أبدا
وقد يكون شباب غير فتيان »
وقال أبو العلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقادما
فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر
فكم ثلاثين حولا شيبت ، ومضت
ستون ، والشيب فيها غير مستر
وليس ذلك إلا صبغة جعلت
طبعها ، وإن قيل : شاب الرأس للذعر .

هَذَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبي طَائِرُ الشَّرِّ (١)

* * *

لَا يَهْنِي الشَّامِتَ المَرْتاحَ خَاطِرُهُ أَنَّى مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعِ الخَطَرِ (٢)

هَلِ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ؟ أَمْ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٣)

إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي، فَلَا عَجَبُ قَدْ يُودِعُ الجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذَّكْرِ

وَإِنْ يُدْبِطُ - «أَبَا الحَزْمِ» الرِّضَى - قَدَرُهُ عَن كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبُ عَلَى القَدْرِ

* * *

مَا لِلذُّنُوبِ - الَّتِي جَانِي كِبَارِهَا غَيْرِي - يُحْمَدُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي (٤)

(١) أى أنها لوعة تقدح نار الأسمى والحزن في صدره ، ومشيب رأسه ما تطاير من شر تلك النار

الموقدة فيه ، وجاء في الذخيرة لابن بسام قبل هذا البيت قوله :

يا للرزايا لقد شافته منهلها غمرا فما اشرب المكروه بالغمر

والغمر القدح الصغير ، فهو يعني أنه لا يشرب من المصائب بالقدح الصغير .

وجاء بعده في نسختي الديوان المخطوطتين هذا البيت ناقصا هكذا :

حوادث استعرضتني ما نذرت لها غراره

ونحن تثبتها هنا كما وجدناها .

(٢) لا يهني : يقال هنا الأمر أى تهنا به - معنى الأمانى : اسم مفعول من العناء وهو التعب - والخطر

الشرف والمنزلة - والمعنى : لا يتهنا الشامت المثلوج الفؤاد بكوني في عناء ونصب بسبب الأمانى وبكوني

ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد بنجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر

يسجدان » وهذا البيت تمثيل للبيت قبله أى لا تفرح أيها الشامت فالريح لا تعصف إلا بما له ساق من

الشجر ، والكسوف : لا يكون لغير الشمس والقمر - وهو معنى طرده الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبي تمام

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيदान نجم ولم يعبأ بالتم

بنات نمش ونمش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر في رقم

وقريب منه قوله أيضا :

لانتكرى عطل الكريم من الأذى فالسبيل حرب لللكات العالى

(٤) الوزر : بالكسر الذنب والوزر بفتحين المعين والملبأ - والمعنى : لأى سبب يحملني ملجئى ومعصمى

تبعه ما جناه غيرى من كبار الذنوب ، وهو نظير قول المعري :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جاره المقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ وَ لَمْ أَبْتِ مِنْ تَجَنُّبِهِ عَلَى حَذَرٍ (١)
 ذُو الشَّيْمَةِ الرَّسُلِ - إِنْ هَيِّجَتْ حَفِيظَتُهُ - وَ الْجَانِبِ السَّهْلِ وَ الْمُسْتَعْتَبِ الْبَيْسِرِ (٢)
 مَنْ فِيهِ لِمَجْتَلِيٍّ وَ الْمُبْتَلِيٍّ نَسَقًا جَمَالَ مَرَأَى عَلَيْهِ سَرُّوَ مُخْتَبِرٍ (٣)
 مُذَلَّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًا عَلَيْهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَ النَّفِرِ (٤)
 وَ زَيْرُ سَلْمٍ كَفَاهُ يَمْنُ طَائِرِهِ شَوْغَمَ الْحُرُوبِ وَ رَأَى مُحْصِدَ الْمِرْرِ (٥)
 أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَعْنَى تِجَارِيهِ وَ نَابَتْ اللَّمْحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفِكْرِ (٦)
 كَمْ أَشْتَرَى - بَكَرَى عَيْنِيهِ - مِنْ سَهَرٍ ، هُدُوهُ عَيْنِ الْهُدَى فِي ذَلِكَ السَّهَرِ
 فِي حَضْرَةِ غَابِ صَرَفِ الدَّهْرِ - خَشِيئَتُهُ - عَنْهَا ، وَ نَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يَثِرِ
 مُتَمِّعٌ بِالرَّيِّعِ الطَّلَقِ نَازِلُهَا يُلْهِيهِ عَنِ طَيْبِ آصَالٍ نَدَى بُكْرِ
 مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتَ فِي جَلْدِ - مُدْسَاسَهَا - وَ يَفِيضُ الْمَاءَ مِنْ حَجَرِ (٧)

* * *

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرْنٍ فَفَقِيمٌ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًا إِلَى الْعَفْرِ (٨)

(١) التأني : التمهّل ، والتجني : ادعاء ذنب لم يفعله - أي أنا على ثقة من الحصول على أمئتي ، وإن تأني ، ولا أحتذر أن ينسب إلي ذنبا لم أفعله .
 (٢) الشبية الرسل : الخلق السهل السمح - والحفيظة : الغضب - والمستعتب : مصدر ميمي بمعنى الاستعتاب أي الاسترضاء يقال استعتهبه أي استرضاه فأعتهبه أي أرضاه - والبسر : الميسر .
 (٣) المجتلي : الناظر ، والمبتلي : المختبر ، والسرو : الشرف أي مختبر سرى شريف .
 (٤) المساعي المآثر أي مذل لمساته أن تشتط عليه في الحكم وهو العزيز النفس المنيع الجانب .
 (٥) محصد المرر : مقتول القوى .
 (٦) يقول انه لألمعيته لا يحتاج إلى تجارب وان بداعته تفنى عن رويته ونظراته السريعة تنفي عن إطالة الفكر وقديماً قالوا :

الألمي الذي يظن بك الظنن كأن قد رأى وقد سمعا
 (٧) الجلد : الأرض الصلدة ، أي أنه منذ ساس المملكة وهو دائب على بثّ النبات والزرع في أرض لا تنبت لصلابتها وإفاضة الماء إليها من عيون تنفجر من الصخر .
 (٨) يقول : ما بالك أخلنت آمالي وبدلت مكاني العالية عندك التي كنت تحملني بها فوق ذروة النجم فأترلني إلى حضيض الهوان .

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبِي غَرَسَ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ (١)
وَسِيْلَةً سَبَبًا - إِلَّا تَكُنْ نَسَبًا - فَهَوَّ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَّرِ

* *
* *

وَبَابُنْ مِنْ ثَمَاءِ حُسْنُهُ مَثَلٌ وَشَى الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعَلِّمُ الطَّرْرِ
يُسْتَوْدَعُ الصُّحُفَ لَا تَخْفَى نَوَافِحُهُ إِلَّا خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِي الصَّرْرِ (٢)
مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْجَبْرِ رَافِلَةٌ فِيهِ أُخْتِيَالُ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْجَبْرِ (٣)
تُجْنَى لَهَا الرَّوْضَةُ الْغَنَاءُ أَضْحَكُهَا مَجَالٌ دَمَعِ النَّدَى فِي أَعْيُنِ الزَّهْرِ (٤)

(١) رف النبات اهتز - يقول : هل حين انتشرت آدابي ومدامحي في الأفاق فاجنت يانع الثمر ، ولم

يذكر جواب الاستفهام في البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهي عادة مألوفة كما قال الشاعر :

«الآن لما كنت أكل من مثنى وافتر نابتك عن شباة الفارح
وتكاملت فيك المروءة والتقى وأعنت ذلك بالفعال الصالح»

وقول النائل :

«أبت لي همي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وإجشامى على المسكروه نفسي وضربني هامة البطل المشيح
وقولى - كلما جشأت وجاشت - مكانك تحمدى أو تستريحى»

وربما ذكر الجواب كما ترى في قول ابن الرومي :

«الآن حين زأرت واستمع الورى زأرى وأنذر كلب شر ذيبه
الآن حين سبقت كل مسابق فتركت اسرع جريه تقريسه
يتكاف المتكافوت رياضتى ليطسل بذلك معجب تعجيبه»

(٢) أى يستودع ذلك التناء - المضروب بحسنه المثل - بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يفوح من

أريجيه إلا إذا خفي ربح المسك في الصرر .

(٣) أى من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذى سطرته به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية

التي كعب ثدياها بما تلبسه من وشى منمر وبرد مخبر .

(٤) أى أنه يصطحب المحبرة التى يكتب بمدادها آيات بلاغته ويخفو لأجلها الروضة الغناء أضحكها الحيا ،

وجالت في أعين أزهارها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهَوًّا - إِنْ فَنَيْتَ
 لِي فِي اعْتِمَادِكَ - بِالتَّامِيلِ - سَابِقَةً
 فَفِيمَ غَضَّتْ هُمُومِي مِنْ غَلَا هَمَمِي
 هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَهَاءُ الْعُتْبِ لِي أَسْنُ
 نَذَرْتُ سُكْرَكَ لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ
 حَيَاتُهُ - زِينَةُ الْآثَارِ وَالسَّيْرِ (١)
 وَهَجْرَةٌ - فِي الْهُمُومَى - أَوْلَى مِنَ الْهَجْرِ
 وَحَاصَ بِي مَطْلَبِي عَنْ وَجْهِ الظَّفَرِ؟ (٢)
 إِلَى الْعُدُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصْرِ؟ (٣)
 إِنْ أُسْفَرْتُ لِي عَنْهَا أَوْجُهُ الْبَشْرِ (٤)

* * *

لَا تَلُهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفًا
 وَأُسْتَوْفِرِ الْحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاعِيَةٍ
 هَبْنِي جَهَلْتُ فَكَانَ الْعَلِقُ سَيِّئَةً
 إِنْ السِّيَادَةَ بِالْإِعْضَاءِ لَا بِسَةِ
 رَدَّ الصَّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكَبِيرِ (٥)
 كِلَاهُمَا الْعَلِقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِّ (٦)
 لَا عُدْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبَشْرِ
 بَهَاءَهَا وَبَهَاءِ الْحُسْنِ فِي الْخَفْرِ

(١) نهي في هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا يرزق ، وقد أخذ هذا المعنى - ولم يحسن الأخذ - من قول أبي العلاء :

« جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد المات جمال الكتب والسير . »

(٢) حاص : حاد ومال .

(٣) العتب : السخط وإظهار الوجوده تخالفة ارتكبت ، والعتي : الرضا والرجوع إلى السرّة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل بعد العتب الشبيه بالماء الآسن أى التغير الذى لا يستسيغه شاربه إلى العتي الشبيهة بالماء العذب البارد السائغ شرابه - وقد أحسن أبو العلاء في جعل برد الماء الذى يصير به أطيب لشاربه سببا في هجره لا فراطه في الخصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اخصرتهم من الاحسان زرتكم والعذب يهجر للافراط فى الخصر . »

(٤) الضمير في « عنها » حائد إلى العتي ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أى لم أعتسف فى السؤال ولم أطلب مستجيلا .

(٦) استوفى : استكثر ، وصاعية : الانسان خاصته الذين يميلون إليه ويفشون مجلسه ويطلبون ما عنده والعلق : الشيء النفيس الذى يرضن به نفاسته فلا يوهب ولا يعار ، وقد ورد فى ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت العن إن سكا ب عاق نفيس لا يعار ولا يباع
 مفسدة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع
 سائلة سابقين تناجلاها إذا نسبا يضمهما الكراع . »

لَكَ الشَّفَاعَةُ لَا تُؤْتَىٰ أُعْنِيهَا ۖ دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعِذْرِ (١)
وَالْبَسَ مِنَ النُّعْمَةِ الْخِضْرَاءَ أَيَكْتَهَا ۖ ظِلًّا حَرَامًا عَلَىٰ «الْآفَاتِ وَالْغَيْرِ» (٢)
نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا - إِنَّ هِيَ أَنْصَرَمَتْ - نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَّاتِ وَالنَّهْرِ

اترع الكأس

أَدْرِهَا فَقَدْ حَسَنَ الْمَجْلِسُ ۖ وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْوَسُ
وَلَا بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّيِّعُ ۖ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقَدَهُ الْأَنْفُسُ (٣)
فَإِنَّ خِلَالَ أَبِي عَامِرٍ ۖ بِهَا يَخْضُرُ الْوَرْدُ وَالزَّرْجِسُ (٤)

لا حيلة في الحب

يَا مُنْجِلَ الْعُصْنِ الْفِيَّانِ إِنْ خَطَرَا ۖ وَفَاصِحَ الرَّشَاءِ الْوَسْنَانَ إِنْ نَظَرَا (٥)
يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبٌّ شَانُهُ يُحِبُّ ۖ مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلَّا جَاءَ مُعْتَدِرَا (٦)
لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ ۖ هَيْهَاتَ كَيْدُ الْهُوَى يَسْتَهْلِكُ الْحَذَرَا
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلَّا فِتْنَةً قَدِرْتُ ۖ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا (٧)

(١) العذر: جمع عذره كسدره مصدر كالعذر . (٢) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :

وَأَبَسَ مِنَ النُّعْمَةِ الْخِضْرَاءَ أَيَكْتَهَا ۖ ظِلًّا حَرَامًا عَلَى الْآفَاتِ

ووجد في هامش بعض النسخ تكملة لهذا البيت كلمة (والغير) وهذه السكامة يناسبها الآفات لا الآفات فخلصت تكملة البيت بكلمتين كما ترى لإحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطيها السياق .

(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس واغناه حسنه عن حسن الربيع فلم تعد نحس للربيع فقدا .

(٤) فان خلال أبي عامر تذكرنا بالورد والزرجيس وينينا عليها عنهما .

(٥) يقول : « إنك ترى بالعصن المورق إن مشيت وتررى بالظلي الغرير الطرف إن نظرت .

(٦) يقدم لك الفداء محب أمره عجيب ، فانك كما أتيت ذنباً أبي إلا أن يتلس لك الأعذار وبخلفها لك خلفاً

(٧) كنت أفدر أنك تهجرني بعد الوصال وكنت اتلافى كل سبب يؤدي إلى ذلك وأحاذر جهدى ألا يقع ماخفته ولكن القدر لا بد أن ينفذ حكمه وليس يدفعه حذر . وما أجل قول الشاعر النابغ محمود أبي الوفا :

« يالائمي في الهوى دعني وما خلقت روجي له ، ليس أمرى في الهوى بيدي . »

وقول العباس بن الأحنف :

« لقد ولدت حواء منك بليسة على أفاستها ، وخبلا من الخول . »

في مدح ابن جهور

مَرَادُهُمْ حَيْثُ السَّلَاحُ خَمَائِلُ وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدَّمَاءُ مَنَاهِلُ^(١)
 وَدُونَ الْمُنَى فِيهِمْ جِيَادٌ صَوَافِنُ وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَامِلُ^(٢)
 لِكُلِّ نَجِيدٍ فِي النَّجَادِ كَأَنَّمَا تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمَحِ مِنْهُ الحَمَائِلُ^(٣)
 طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ كَأَنَّ صَبَابَاتِ النَّفُوسِ طَوَائِلُ^(٤)
 كِنَاسٌ ذَنَا مِنْهُ الشَّرَى فِي مَحَلَّةٍ بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالغَزَالُ يُغَازِلُ^(٥)

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلباً للنجدة والسكلاً ، والحمائل : جمع خميلة وهى الشجر الكثير المتجمع اللتف الذى يستر ما فى داخله ، والمناهل - جمع منهل - وهو موضع النهل وهو الشرب أولاً يقال شرب علا بعد نهل يريد أنهم ينهلون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حى أولئك العرب الانجناد حيث تسكن الحبيبة يرود هناك خمائل يكثر فيها السلاح وتشتجر الرماح ، ومن يرد متجمعهم يجد مناهل تنهل فيها الدماء وتعرض واردها لاسباب الفناء .

(٢) الصوافن : من الخيل جمع صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ويأبى سنبك الرابعة ، ومأثورة صفة السيف ، يقال سيف مأثور أى فى منته أثر بفتح فسكون وهو فرند السيف وجوهره وديباجه ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع طامل ، يقول دون ما تتمناه حى منبع بالصابغات الجياد يحى ببيض السيف وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نجدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتناط : تعاق ، بتن الرمح : أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتذم العمامة والقصر ، قال رجل من لبي :

«ولما التقى الصفان واختلف الفنا نهالا وأسباب المنايا نهالها

تبين لى أنت الفماعة ذلة وأن أعزاء الرجال طوالها

دعوا يا لسعد واتمينا لطي^٤ أسود الشرى إندامها ونزالها .

وقد أجاد أبو العلاء فى مدح القصر ، فقال :

«عجب الأنام لطول همة ماجد أوفى به قصر على أضرايه

سهم الفتى أتقى مدى من سيفه والرمح ، يوم طمانه وضرايه .

(٤) الحفيظة : الغضب ، والصبابات : جمع صبايه وهى العشق ، والطوائل : جمع طائفة وهى الترة والثأر يقول بطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغضب علينا ، وكان العشق وصبابات النفوس أوجبت له عندنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليثأر منا .

(٥) الكناس : مأوى الظباء والبقر الذى تستكن فيه من الحر ، والشرى : موضع تنسب إليه الأسود .

أَعْمَرُ الْقِيَابِ الْحُمْرِ وَسَطَّ عَرِيْنِهِمْ
 أَمْحُجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُحْضَبِ الْقَنَا
 أَنَاةٌ عَلَيْهَا مِنْ سَنَا الْبَدْرِ مَيْسَمٌ
 يَجُولُ وَيَسَاكُهَا عَلَى خَيْرَانَةٍ
 وَلَيْلَةٌ وَاقْتَنَا الْكَيْبَ لِمَوْعِدِ
 تَهَادَى - أَنْسِيَابَ الْأَيْمِ - يَعْفُو إِثَارَهَا
 لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السُّرُوبُ الْعُقَائِلُ^(١)
 وَلَا حَجَبَتْ شَمْسُ الضَّحَاءِ الْقَسَاطِلُ؟^(٢)
 وَفِيهَا مِنْ الْعُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ^(٣)
 وَتُشْرِقُ فِي «مَوْشِيَتَيْنِ» الْخَلَاحِلُ^(٤)
 كَمَا رِيْعَ وَسَنَانُ الْعَشِيَّاتِ خَازِلُ^(٥)
 مِنْ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْعِطَافَيْنِ ذَائِلُ^(٦)

(١) العين : مأوى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات في الخيام » أي محبوسات في الخيام مخدّرات على أزواجهن في الجنات ، والسروب : جمع سرب بالكسر وهو الفطيم من الطباء والنساء والطير ، والمنصوف في كتب اللغة أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأباه كما في حمل وحمول وضرس وضرروس ، والعقائل : جمع عقيلة وهي من النساء الكريمة المخدرة ، والمعنى أقسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حانها والذابين عنها من أوائك الأسود لقد حبست فيها أسراب العقائل ومنعت من السروب إلينا والخروج لملقاتنا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى قبل اتصاف النهار ، والفساطل : جمع قسطل وهو الغبار الساطع
 (٣) الأناة : المرأة التي فيها فتور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أناة تزين البيت إما تلبست وإن قدمت هلا فأحسن بها هلا

أي تزين البيت لابسة حلتها ومتفضلة بثوب واحد ، والسنا : الضوء ، والميسم : ما عليها من أثر الوسامة والحسن ، والشمائيل : الطباع .

(٤) وفي الأصل « وتشرق في بردتين الخلال » وهذه الرواية يخل وزن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « موشيتين » الموضوعه بين قوسين لأنها بمعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها في رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : فزع لأمر مفاجئ ، والوسنان : الفاتر الطرف شبه بالمرأة الوسنى من النوم ، والعشيات : جمع عشية وهي آخر النهار ، والخازل : من خذلت الظبية فهي خازل تخلخت عن صواحبه وانفردت ، يقول ما أنس لا أنس ليلة واقتنا في الكتيب لوقت حددناه موعدا للقاء فكانت كما ريع ظني فاتر لاحظ انفراد عن سائر سرب الطباء ، وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت في قصيدته الغافية ص (٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة واقتنا الكتيب لموعده سرى الأين لم يعلم لسراه مزحف
 تهادى أناة الخطو مرتاعة الحشا كما ريع يعفور الفلا المنصرف

(٦) تهادى : أصله تهادى ، وهو مشى في تناقل وتمايل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يمحو والاثار : جمع أثر جمعه على فعال بالكسر جمعا قياسيا كما في جبل وجبال وجمل وجمال ، قال ابن مالك : « وفعل أيضا له فمال مالم يكن في لامة اعتلال . »

قَعِيدِكَ ، أَنِّي زُرْتِ ضَوْءَكَ سَاطِعُ
 هَمِيكَ اغْتَرَزْتِ الْحَىِّ وَاشِيكَ هَاجِعُ
 فَأَنِّي اَعْتَسَفْتِ الْهُولَ خَطُوكِ مُدْمَجُ
 خَلِيلِي مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةَ
 أَرَاخُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَامِيَا
 صَلَالًا تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
 وَطَيْبِكَ نَفَّاحُ وَحَلِيكَ هَادِلُ (١)
 وَفَرَعُكَ غَرِيْبُ وَكَيْسُكَ لَائِلُ (٢)
 وَرِدْفُكَ رَجْرَاجُ وَعِطْفُكَ مَائِلُ
 تَعَرَّضَ شَوْقُ دُونَ ذَلِكَ حَائِلُ
 كَانَ شَمُولًا مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ (٣)
 وَلَجَّ الْهُوَى فِي حَيْثُ تُخَشَى الْغَوَائِلُ (٤)

ولم نعثر فيما راجعناه من كتب اللغة على هذا الجمع ، والعطف : بالكسر وللعطف كل ثوب كالرداء والطيلسان تعطف أى تردت به ، وسمى عطفا لوقوعه على عطفى اللابس وهما ناحيتا عنقه ، والرقوم : ذو الوشى والننش أو المكتوب عليه رقم التاجر ، والدائل ذو الذيل ، وهو أيضا من الدالان وهو مشى مقارب الخطو فيه ضعف وعجلة شبيهة بشمية الذئب أو المتقل من حمل ، أو هو مشى سريع خفيف في ميس وسرعة وبه سمي الذئب ذؤالة ، والمعنى الأول هو المقصود هنا ، يقول وافتنا للوعد في تلك الليلة تهادى في مشيتها كانبياحية في الرمل يحو ما تركته من آثار المشى ، ذيل ثوبها الموشى ، وهو قريب من قول امرئ القيس :
 « خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل . »

(١) قعيدك : مصدر منصوب لنيابته عن النعل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسفل (٣ و٢) مكرران مع قوله فيما تقدم في الفأية :

« هيك اعتررت الحى واشيك هاجع وفرعك غريب وليك اغضف »

فأني اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخضرك مخطف . »

ولكن بتغير الفأية كما ترى ، واغتررت : بالعين المعجمة أنست منهم غرة وغفلة فزرتنا ، وقد ضمنه معنى خدعت فعدها إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين المهملة بمعنى جئت الحى وطففت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل غالبا في المعتر أى طالب المعروف . قال حاتم الطائي :

« أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صرّ »

لعل أن يبصرها العتر إن جلبت ضيفا فأنت حر . »

(٣) أراخ : كأخاف من الارتياح ، وراخ : من الرواح ، والشمول : من أسماء الحجر ، والشمائيل : جمع

الشمال بالفتح وهي ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفي الشمال والشمول يقول الشاعر :

« ألت سليمان والنسيم عليل تخيل لى أن الشمال شمول »

كأن الخزامى صفت منه فرقا فلاسكرا أعناق المطى تطول . »

(٤) معنى مكرر بلفظه ولكن بتفسير الفأية مع قوله في النائية المتقدمة :

« لجاج تمادى الحب في المعشر العدا وأم الهوى الأفق الذى فيه نشنف . »

كَأَنَّ لَيْسَ فِي نَعْمَى الْهُمَامِ « مُحَمَّدٍ »
 أَعْرَثُ إِذَا شِمْنَا سَحَابَ جُودِهِ
 يَبْشُرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَمْرِ « جُودُهُ »
 لَدَيْهِ رِيَاضٌ لِلسَّجَايَا أُنَيْقَةٌ
 أَتَى مَا تِلْكَ السَّمَاحَةُ نُهْرَةٌ
 زَعِيمٌ الدَّهَاءُ أَنْ تُصِيبَ مِنَ الْعِدَا
 فَسَا سَيْفُ ذَلِكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ بِمِعْضِدِ
 بَنِي « جَهْوَرٍ » عِشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ
 تَفَاضَلَ فِي السَّرْوِ الْمُلُوكُ ، فَخَلَّتْهُمْ
 مُسَلِّ وَفِي مَثَى أَيَادِيهِ شَاغِلٌ (١)
 تَهَلَّلَ وَجْهَهُ وَأُسْتَهَلَّتْ أَنْامِلُ (٢)
 وَقَبَلَ الْحَيَا مَا تَسْتَطِيرُ الْمُخَايِلُ (٣)
 تَغْلَغُلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَدَاوِلُ
 وَفِي مَا تِلْكَ الْحِبَالُ حَبَائِلُ (٤)
 مَكَائِدُهُ مَا لَا تُصِيبُ الْجَحَافِلُ
 وَلَا سَهْمٌ ذَلِكَ الرَّأْيِ أَفُوقُ نَاصِلُ (٥)
 فَلَوْ لَا كُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ طَائِلُ
 أَنْايِبَ رُمَحٍ أَنْتُمْ فِيهِ عَامِلُ

- (١) مسل : أى صارف عن الهوى الذى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة ، ومثى الأيادى : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والانصباء من جزور الميسر يشرها الجواد فيطعمها الأبرام ، قال النابغة :
 « بنيتك ذو عرضهم عى وطلهم وليس جاهل أمر مثل من علما
 أنى آسم أيسارى وأمنحهم مئى الأيادى وأكواجفنه الأدماء. »
 والبيت من أحسن أبيات التخلص من النسيب إلى المدح .
- (٢) تهلل : أشرق وظهرت عليه أمارات السرور ، واستهلت : من استهلل المطر وهو انصبابه بشدة حتى يسمع له صوت ، شبه أنامله فى الجود بالسحاب المنهل .
- (٣) الحيا : المطر ، ما تستطير : ما زائدة أو مصدرية ، وتستطير : تنتشر وتعم الأفق ، والمخايل : جمع نخيلة وهى أن ترجو وتظن أن السماء خليقة بالمطر ، وفى الأصل « يبشرونا بالنائل الغمر » وبعده يياض وقد أكدنا الشطر بلفظ « جوده » الموضوعه بن هلاين أخذنا من السياق ، ومعنى البيت يبشرونا بالمطاء الكثير جوده وقبل استهلل المطر تنتشر مخايله وعلاماته فى السماء .
- (٤) الأتى : النافذ الذى يتأتى للأمر ، ونهزة : يريد أنه لا يغفل السحابة انتهازاً وافتراضاً إذا سحبت له الفرصة بل يتأتى لها ويمضى عليها فى كل وقت غير متعین لها الفرص ، والحبل : العهد والذمة والتواصل وعدم التقاطع ، والحبال : جمع حباله وهى القصيدة وفى الحديث « النساء حبال الشيطان » أى مصاديه .
- (٥) المعضد والمعضاد : سيف متهن على شكل المنجل يتخذونه القصابون لقطع العظام ، والرعاة لقطع فروع الشجر ليمتنوا بما يسقط من ورقها غنمهم وإبلهم ، وأفوق : مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان فى إحدى زمنى السهم أى حرفيه انكسار فذلك السهم أفوق ، والناصل : السائط النصل وهو حديدة السهم ، والمعنى : أنه ماضى العزيمة صائب الرأى ، وفى الأصل : « أفوف ناضل » .

لَنْ قَلَّ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ
فِدَاؤُكُمْ مَنْ إِنْ تَعَدَّهُ ظُنُونُهُ
مَنَا كِيدُ^(٢) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلَّفُ
فَإِنْ سُوِّرَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِتَخَلُّقِ
لَكَ الْخَيْرِ، إِنْ قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ
لَعَمْرُ سَرَاةِ النَّعْرِ وَافَاكَ وَفَدَّهُمْ
لَأَعْدَرْتَ لَمَّا لَمْ يُمَلِّكَ مُكْتَمُهُمْ
نَضَدْتَ رِيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً
فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَدِيدُ نَزَاعِهِ
ضَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سِيُؤْتَرُ عَنْهُمْ

فَإِنَّ دَرَارِيَّ النَّجْمِ قَلَّالٍ^(١)
لِحَاقِكُمْ فِي الْمَجْدِ فَالَّذَهُرُ مَا طَلُ
إِذِ الشَّرُّ طَبَعُ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ
فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ^(٣)
فَمَنْ لِي بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ ؟
لَمَّا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النَّزْلَ نَازِلُ
إِذَا عَدَرَ الْمُسْتَقِيلَ الْمُتَنَاقِلُ^(٤)
وَرَفَّرَتْ مَاءَ الْبَرِّ وَهُوَ سَلَاسِلُ
إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمِ رَاحِلُ
عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فِي الْمَحَافِلِ حَافِلُ^(٥)

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى في صور مختلفة نختار منها قول السموأل في لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقايا مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول. »

وقول العباس بن مرداس :

« بغات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلدة زور. »

(٢) جمع منكود من تكد الرجل بالبناء المجهول فهو منكود إذا كثر سؤاله وقل خيره .

(٣) خضيب : مخضوب ، وناصل : وصف من نصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الخضاب ، وهو معنى كثير الورود في كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم. »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيما . »

وقال ذو الأصبغ العدواني .

« كل امرئ صائر يوما لشيمته وإن تخلق أخلاقا إلى حين. »

(٤) لأعدرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستقل : السقطي ، لكثرت مما تستلزمه موجبات الضيافة ، والمتنازل : المتباطي الذي أتقل على مضيقه فأله وأضجره ، يقول أنبت عذرا لنفسك واضحا حين لم تمل ولم تسأم طول مكث سراة النعر الوافدين عليك في وقت يعرف فيه التناقل عذر مضيقه إذا مل مكثه وعده نفيلًا .

(٥) ضمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك في المحافل حافل بأنواع الحماد والمدائح .

تَحَلَّى بِهَا جَيْدَهُ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ
وَتَخَصَّبُ مِنْهَا الْأَرْضُ وَالْأَفْقُ مَاحِلُ

تَرُوقُ الضُّحَا مِنْهُ وَتَنْدَى الْأَصَائِلُ
فَبُشْرَاكَ أَلْفُ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ
نَنَا صَالِحِ الْأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ
فَلَمْ تَرْضَ حَتَّى شَيْعَتَهُ النَّوَافِلُ
لَكَ اللَّهُ بِالْأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ
لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهُوَى مِنْكَ وَاصِلُ
تَنَاقَلَتِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ الْمَنَارِلُ
وَكُلُّ مَدِيحٍ - لَمْ يَكُنْ فِيكَ - بَاطِلُ
وَلَا لِلِوَاءِ الْمُلْكِ - غَيْرُكَ - حَامِلُ

وَبَلَّغْتَنِي الْحِظَّ الَّذِي أَنَا آمِلُ (٣)
لَهُ شَاحِدٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
تَرِينُ ، وَلَكِنْ أَنْطَقْتَنِي الْفَوَاضِلُ
خَوَالِدِ حِينَ الْعَيْشِ كَالظِّلِّ زَائِلُ
لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ (٤)

مَسَاعٍ هِيَ الْعِقْدُ أَنْتِظَامَ مَحَامِينِ
تُنِيرُ بِهَا الْأَمَالُ وَاللَّيْلُ وَقَبُ (١)

هَتِينًا لَكَ الْعَيْدُ الَّذِي بِكَ أَصْبَحْتَ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى
لَنْ يَنْصَرِمَ شَهْرُ الصَّيَامِ لَبَعْدَهُ
رَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرَضِ ضَرْبَةً لِأَزِمِ
سَدَنْتَ (٢) بَيِّتَ اللَّهِ حُبَّ جِوَارِهِ ،
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آفِ
فَإِنْ تَتَنَاقَلَكَ الدِّيَارُ فَطَامَا
أَلَا كُلُّ - رَجْوَى فِي سِوَاكَ - غُلَالَةٌ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ - حَاشَاكَ - رَافِعُ

لَأَمْتَنَتْنِي الْخَطْبَ الَّذِي أَنَا خَائِفُ
أَرَى خَاطِرِي كَالصَّارِمِ الْعَضْبِ لَمْ يَزَلْ
وَمَا الشَّعْرُ مِمَّا أَدْعِيهِ فَضِيلَةٌ
بَقِيَتْ كَمَا تَبَقِيَ مَعَالِيكَ إِنَّهَا
فَمَا نَسْتَزِيدُ اللَّهَ بَعْدَ نِهَائِيَّةِ

(١) في الأصل «رأيد» (٢) وفي الأصل «سدت» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :

« أَلَمْ هَمِي فَمَا أَنَا لَا غَفْلَ وَلَا أَنْتَ غَافِلٌ . »

وقد أثبتناه نافصا كما ورد بالأصل .

(٤) قريب من هذا المعنى قوله من قصيدة سابقة :

« لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نَعْمَ مَعِي فِيكَ ، لِأَبْلِ أَسْتَدِيمِ »

إلى ابن جهور

« وقال أيضا مع تفاح أهداه إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْمُحَبِّ الخَجِيلَ تُخَالِطُ لَوْنَ الْمُحِبِّ الوَجِيلَ^(١)
 ثَمَارُهُ تَضَمَّنَ^(٢) إِذْرَاكَهَا هَوَاءُهُ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَدِلٌ
 تَأْتِي^(٣) لِإِلْطَافِ تَدْرِيجِهَا فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلِّهَا
 إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ العَمَلِيلِ وَأُنْسَ المَشُوقِ وَلَهْوِ العَزَلِ
 فَلَوْ تَجَمُّدُ الرِّاحِ لَمْ تَعُدْهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمْرٌ مَحَلٌّ^(٤)
 لَهَا مَنَظَرٌ حَسَنٌ فِي النُّفُوسِ كَذُنَيْكَ لَكِنَّهُ مُنْتَقِلٌ^(٥)
 وَطَعْمٌ يَلِدُ لِمَنْ ذَاقَهُ كَلِذَّةِ ذِكْرِكَ لَوْ لَمْ يُعَلِّ^(٦)
 وَرِيًّا إِذَا نَفَحَتْ خِلْتَهَا يُعَلِّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِّلُ^(٧)
 يُعْتَمَلُ مَلْمَسُهَا لِلْأَكْفِ لَيْنِ زَمَانِكَ أَوْ يَمْتَثِلُ^(٨)

(١) معنى البيت: أتتك هذه التفاحات بجمرة كجمرة حدود الملاح عند الخجل، تخالطها صفرة كصفره حدود العاشقين عند الوجيل . (٢) أى تكفل بانفاج هذه الثمار هواء معتدل متوسط بين الحرارة والبرودة (٣) تأتي للامر ترفق له وأناه من وجهه ، والمعنى : تلتطف ذلك الهواء في تدرج نموها وصبغها بتلك الألوان الزاهية فننقل معها من حر شمس إلى برد ظل حتى نضجت وأبعت .
 (٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى جد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحر لم يعد أن يكون خمرًا حلالًا لا إثم على شاربها .
 (٥) يعنى : أن منظرها حسن ينظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لا يحول ولا ينتقل .

(٦) ولها طعم حلو المذاق لذيد كاذة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل .
 (٧) ولها رياء : أى ريح طيبة ، تمل : أى تملى مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك .
 (٨) بصور ملمس التفاح الناعم للأكف لئين زمانك حتى كأنها تحسه ، أو يمثّل أى يضرب نفسه مثلا

صَفَوْتُ فَأَدَلَّتْ^(١) فِي عَرَضِهَا وَمَنْ يَصِفُ مِنْهُ الْهُوَى فَلْيَدِلْ^٢
 قَبُولُكُمَا نِعْمَةٌ غَضَّةٌ وَقَضَلٌ - بِمَا قَبَلَهُ - مُتَّصِلٌ
 وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي أَخْتَصِرُ تَ عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلِ^(٢)

مجلس أبي علي

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل في دار
 ذى الوزارتين الكاتب أبي علي بن جبلة وهو
 يبني فيها مجلسا ، فصنع أبياتا فكتبت فيه : »

عُمَرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا أَطْوَلَ عُمُرٍ يُنْجِجُ الْأَنْفَسَا
 وَبَعْدَ ذَا عَوْضَ عَنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمَنْ دِيْبَا جِهَ السُّنْدُسَا
 وَوَفَى الْفَوْزَ بِهَا وَالرِّضَى وَوَقَى الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْوَسَا^(٣)
 وَدَامَ عِبَادُ لِعَهْدِ الْهُدَى يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الْأَحْرُسَا^(٤)

* * *

مُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ إِحْسَانُهُ جَمَّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
 الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنَى مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عَلِقَهُ الْأَنْفَسَا^(٥)
 إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصَفَ عَلَيْهِ إِهْ مَفَوَّةٌ مُقْتَدِرٌ أَخْرِسَا^(٦)
 لَا زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نِيرًا يَكْشِفُ مِنْ أَمَانِنَا الْحِنْدِسَا^(٧)

(١) الأدلال التدلل والانبساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وقتت بما بيننا من الصفاء والود فأفرطت في الدالة عليك بعرض هذا التفتاح الذى يتهدى بمنله الأصفياء المحاصون ، ومن يصف في الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ فى الاهداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاهداء أهديت نفسى لاخترت ، على أنها غاية ما احتفل وأبالغ فى تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبوس جمع بؤس .

(٤) الأخرس : الدهور ، جمع حرس بفتح فسكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى ظفر من الثناء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام اللسن المبين أن يصف مجده أعياء الخرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالمستحيل .

(٧) الظلام .

جواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأجاس

« أبو طالب بن مكي » يتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو

لا بقلبي ولساني

ربما باعدك الده

رفأدنتك الأمانى . »

فكتب إليه الآيات التالية : «

لَا أَفْتِنَانِ كَأَفْتِنَانِي فِي حُلَى الظَّرْفِ الحِسَانِ^(١)
خَصَّصَنِي بِالْأَدَبِ اللهُ فَأَعْلَى فِيهِ شَانِي
خَاطِرِي أَنْفَعْدُ - مَهْمَا قَيْسَ - مِنْ حَدِّ السَّنَانِ

*
*
*

أَيْهَا المرْسِلُ أَطْيَا رَ المَعْنَى لِامْتِحَانِي
هَآكِ كَيْ تَزْدَادَ فِي الْآدَابِ عِلْمًا بِمَكَانِي
قَدْ أَتَيْتَنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَيْآتِ الْأَغَانِي
بِرَطَانَاتٍ قَضَيْنَا مَا اقْتَضَيْنَا مِنْ بَيَانِ

*
*
*

إِنْ تَعَنَّى البُلْبُلُ أَهْتَا جَ غِنَاءِ الْوَرَشَانِ^(٢)

(١) قال في اللسان : الظرف البراعة وذكاء القلب بوصف به الفتیان الأزوال والفتيات الزولات ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالظرف بمبالغة ، ويجوز أن يكون بالضم جمع ظريف ، فإنه يجمع على ظرف بضمين ، والاسكان في مثله جائز ، والمعنى : ليس يجيد أحد - كما أريد - الا فتنان في صوغ تلك الحلى الحسان التي يملها الظرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لجه - فيما يقولون - أخف من الحمام ، والمعنى : أن غناء البلبل يحتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير احتاجه فحرك فيه بواعث الشعر كما احتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأْدَى مِنْهُ يَتَا غَزَلٍ مُنْفَرِدَانِ
لِحَبِّ فِي حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٌ مِنْهُ دَانِ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لَّا بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَا بَاعَدَكَ الدَّهْرُ فَأَذْنَتِكَ الْأَمَانِي »

كن كيف شئت

يَا غَزَالَ أَصَارَنِي مُوثِقًا فِي يَدِ الْمِحْنِ
إِنِّي - مَذْهَجَرْتَنِي - لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسْنِ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةٌ مِنْكَ، أَوْ لِحَظَّةٌ عَنِّي (١)
شَافِعِي يَا مُمَذَّبِي - فِي الْهَوَى - وَجْهَكَ الْحَسَنِ
كُنْتُ خِلَؤًا مِنَ الْهَوَى فَأَنَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنٌ (٢)
كَانَ سِرِّي مُكْتَمًا وَهُوَ الْآنَ قَدْ عَلَنَ (٣)
لَيْسَ لِي عَنكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا شِئْتُ لِي فَكُنْ (٤)

(١) يقول : لأنني اقتنع منك بالفيل النافه وأكتفي بأن يكون حظي من حبك إشارة أو لغتة سريعة ، وقد دار الشعراء حول هذا المعنى ، ولعل أبداع ما قيل فيه قول جميل بثينة :

« واني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لغرت بلاه
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنغضى أو اخره - لانتقى - وأوائله . »

(٢) الخلو : الخالي . يقول « كنت طليقاً خالياً من إيسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتهناً . »

(٣) يقول : « كان سرى خافياً لا يعلمه أحد فأصبح معلناً ، وما أجل قول صرود في شبيه هذا المعنى :

« وقد كشف الغطاء فما نبألى أصرحنا بذكرك أم كنبنا
نسائل عن ثمامات مجزوى وبات الرمل يعلم من عيننا
ولو أنا ننادى « ياسليمي » لقالوا : ما عينت سوى لبيبي »

(٤) يقول : « لافكك لي من إيسار حبك فاصنع بي ما أنت صانع . »

حين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِيَنِي
 إِذْ لَا كِتَابَ يُؤَافِيَنِي فَيُحْيِيَنِي (١)
 قَدْ مِتُّ إِلَّا ذَمَاءٌ فِي مَيْسِكُهُ
 أَنْ الْفَوَادَ بَلَقِيَاهُمْ يُرَجِّيَنِي (٢)
 مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ
 إِلَّا أَعْتِيَا ذَائِبِي فِي الْقَلْبِ مَسْجُونِ (٣)
 صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي ،
 كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَفِي كَانُونِ (٤) فَارَقَنِي
 شَخْصٌ يُدْكَرُنِي فَاهُ وَغَرَّتَهُ
 لَنْ عَطَشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
 وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بَاكِيَةٌ
 وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَصْنَعْتَنِي الْهُمُومُ لَقَدْ
 أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَاكُمْ
 قَلْبِي وَهَاتَخُنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ (٥)
 تَمَسُّ التَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيَاحِينِ
 قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسْقِيَنِي فَيُرْوِيَنِي
 فَكَمْ أَرَاهُ يُغْنِيَنِي فَيُدْشِحِيَنِي (٦)
 عَهْدُهُ وَهُوَ يُدْنِيَنِي فَيَسْأَلِيَنِي
 حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ (٧)

- (١) هل يوافيني رسول من قبل من أحبه فيحمل إلى تحييتهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تميد إلى الحياة.
 (٢) لقد كدت أحسب في عداد المهلكي لولا بقية قليلة من الروح يعيشها في الرجاء والامل في لقائهم .
 قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تعزى القلب سلوته أني بأن ألفاك مرتين . »

- (٣) لم يفض دمي إلا ذكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تمتادني حيناً بعد حين وتطيف بنفسى فنطلق الدمع وتسرحة . (٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه حميم الماء ، فأقدم يا شبايط
 تشابه أنفاس الحشرات نفسى يكون لهن بالصيف ارتباط

- (٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ أكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ أكتوبر والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تشرين الثاني . (٦) في الأصل : فيرويني .

- (٧) عقد عزائي : العقد ضدّ الحلّ ، والعزاء : الصبر ، والنأى : البعد وعقد الثمانين : أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون بوسط الإبهام والسبابة معا متلاصقتين بلا فرجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأى الحبيب وبعمده عقد عزائي وسلواني عنه ، فكثيراً ما حللت عن خصره نطاقاً يشبهه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الخصر الذي وصفه ابن زيدون يدق في الوهم ، ويلطف في الخيال والحس إلى حدّ أنا لا نعتز له على شبيهه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقات



يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُوبِ بَدَتْ
كَوَا كِبًا فِي لَيْالِي بُعْدِهِ الْجُونِ (١)

من بنات أوروبا وباريس في العصر الحاضر عصر التفنن في الرشاقة ، ودة الحضور ، والافراط في تضيق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة في بيت « ابن زيدون » هذا لا يبين فيها وجه التعقيد والمعاظة التي يعمد إليها ابن زيدون أحياناً ، إلا بعد بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العربية للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين في التشهد ، أى قبض الخنصر والبنصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بتلخيص ماهو مبسوط في بعض كتب الآلة والنحو متعلقاً بهذا الموضوع فقول :

جعلوا للدلالة على الآحاد من أصابع اليد اليمنى الخنصر والبنصر والوسطى ، وللعشرات إلى التسعين الوسطى والسبابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بالصاق الخنصر بباطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بالصاق البنصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة بضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بالصاق البنصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بالصاق الوسطى وحدها كذلك ، وعلى الستة بالصاق البنصر وحدها كذلك ، وعلى السبعة بالصاق الخنصر وحدها ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يخالف شكل الواحد . وعلى العشرة بوضع ظفر السبابة في وسط باطن أكلة الإبهام بحيث يحصل شكل حلقة ، ولكن مع نشوز رأس الإبهام بقدر نصف الأكلة ، وعلى العشرين بجمل المفصل الأوّل من السبابة على ظفر الإبهام بحيث تكون السبابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس باطن السبابة إلى باطن رأس الإبهام على هيئة لاقط الابرّة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أكلة الإبهام على ظاهر أصل السبابة مما يلي الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للإبهام على محز العقدة السفلى للسبابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأعلى للإبهام منحنيّاً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أكلة الإبهام على باطن أعلى أكلة السبابة ، بحيث تكون السبابة على شكل قوس وتره الإبهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظفر الإبهام على العقدة الوسطى لباطن السبابة على هيئة رامي الحصاة بالحذف « وهو رمى صغار الحصى بعد أخذها بين طرفي السبابة والإبهام » ، وعلى الثمانين ببسطهما معاً لاصتتين بلافرجة بينهما كما أسلفناه في شرح البيت الذى نحن بصدده ، وعلى التسعين بطنى السبابة إلى أصلها ووضع الإبهام على ظهر العقدة الوسطى للسبابة كما تتحوى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السبابة والإبهام طبق ما في اليد اليمنى . فالمائة في اليسرى كالعشرة في اليمنى ، والمئتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف في اليسرى كلواحد في اليمنى ، والألفان كالثمانين ، وهكذا إلى تسعة آلاف ، والعشرة آلاف بضم أمتلى السبابة والإبهام بطناً لبطن ، وتستعمل عقد أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المتقدمة .

(١) أى أن ليلالى الوصال تبدو مضىبات لامعات في ليلالى البعاد السود .

وَاللَّهِ مَا فَارَقُونِي بِاخْتِيَارِهِمْ . وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِي
 وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ . إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي ^(١)
 أَفْدِي الْحَيِيبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا . لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي
 يَا رَبِّ قَرِّبْ - عَلَى خَيْرٍ - تَلَاقِنَا . بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمِيَامِينَ .

في الغزل

أَيُّوحِشُنِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ أَنْسِي . وَيُظْلِمُ لِي النَّهَارُ وَأَنْتَ شَمْسِي
 وَأَغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي . فَأَجْنِي الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرْسِي ^(٢)
 لَقَدْ جَازَيْتَ غَدْرًا عَنْ وَفَائِي . وَبِعْتِ مَوَدَّتِي ظُلْمًا بِبَخْسِ
 وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي . فَدَيْتُكَ - مِنْ مَكَارِهِهِ - بِنَفْسِي ^(٣)

في بعض مجالس الأُنس

يَأْيَهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ بِكُلِّ السُّفْنَا جَلَالُكَ
 انظُرْ إِلَى مُحْتَلَنَا ^(٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ أَحْتِلَالُكَ
 نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا تُفَيِّدُنَا ظِلَالُكَ ^(٥)
 قَدْ فَاضَ فِي هَذَا نَدَاكَ وَنَعَمْتَ هَذَا خِلَالُكَ .

(١) إن إيماني بجهنم كإيماني بديني سواء بسواء وليس في مقدور أمد أن يبدلني بمن أحب إلا إذا استطاع أن ينقلني من ديني إلى الكفر .

(٢) يقول : « هل من العدل أن أكره من الآمال والأمانى فلا أجنى من ذلك كراهة إلا الاخفاق :

(٣) ليت الزمان يقبل حكمي ، اذن لفديتك بنفسي ، وإن كنت لا تجازيني بحبي إلا بالقدر .

(٤) المكان الذي حللنا فيه .

(٥) وفي الأصل : « تَوَلَّفْنَا ظِلَالًا . » والظلال : ما أظلك من سحاب ونحوه ، وظلال البحر : أمواجه ، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب في غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شكوى وألم !

« قال في مدح ابن جهور »

ألم يأن أن يبكي العمَامَ على مثلي
وهلّا أقامت أنجمُ الليلِ ما تَمَّا
ولو أنصفتني - وهى أشكالُ همّي -
ولأفترقت سبعُ الثرياَ وغاضها (١)
ويطلبُ ثأري البرقُ منصَلتِ النَّصْلِ (٢)
لتندبَ في الآفاقِ ماضاعَ من شملي (٣)
لألقتُ بأيدي الذلِّ لما رأتُ ذلي
بمطلعها ما فرقَ الدهرُ من شملي

* *
* *

لعمُرُ الليالي إن يكن طالَ نزعها
تحلّتْ بأدأبي وإنّ ماري
أخصُّ لفهمي بالقلبي وكأنا
وأجنى على نظمي إكلّ قلادة
ولو أنّي أستطيعُ كي أرضى العدا
لقد قرطستُ بالنبلِ في موضعِ النبْلِ (٤)
لسانحةٌ في عرضِ أمنيّةٍ عطلِ
يبيتُ لذي الفهمِ الزمانُ على ذحلِ (٥)
مفصّلةِ السمطينِ بالمنطقِ الفصلِ
شريتُ ببعضِ الحلمِ حظاً من الجهلِ (٦)

- (١) الذي في الأصل المنقول « ألم يأن أن يبكي الحمام على قتلي » والذي أثبتناه هنا هو ما نقلناه عن الخيرة لابن بسام وهو أنسب مما ذكر في الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تبكي لبعائه ، وتأثر من أعدائه .
(٢) تثلّي : أي ما انتقلته واستخرجته في حياتي من جاه ومنصب ومال .
(٣) غاضها : غيضا أي أخفاها .
(٤) نزعها : جذبها وتر القوس مصوّبة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أي أصاب القرطاس ، وهو فرض من أديم يتخذ للنضال وتسيّد الرماية .
(٥) الفلى - بالسكسر - البفض ، والدحل النار ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الحظوة والقربى ، وهو انهمه خص بالقلبي والبعء وكأنه قد جنى على الزمان فبات يطالبه بثأره .
(٦) الحلم : العقل ، والحفظ : النصيب . يقول : لو أستطيع لإرضاء العدا وشفاه ما في نفوسهم من الحقد لاستبدت بشيء يسير من الجهل ، حظا عظيما من العتل .

* * *

أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالِهَامَا
 أَلْمُ تُرِكِ الْأَيَّامِ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي ^(١)
 أَقَلِّي بُكَاءَ لَسْتِ أَوْلَ حُورَةٍ
 طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الشُّكْلِ ^(٢)
 وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ
 إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَأَعْتَبِرِي وَأَسْلِي ^(٣)
 لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمَلَ الصَّنْعِ - قَادِرَا
 لَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمَلُ صُنْعًا لِي ^(٤)
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا
 بِهِ - عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ - مِنْ حَكَمِ عَدَلٍ ^(٥)

* * *

هُمَامٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ ، وَقَلَمًا
 تَرَى الْفَرْعَ الْإِ مُسْتَمَدًّا مِنَ الْأَصْلِ
 نَهْوُضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالشُّقَى
 سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمِمْ فَإِنَّهُ
 وَآرَاءُهُ كَأَنْخَطَّ يُوضِحُ بِالشُّكْلِ

* * *

وَذُو تَدْرٍ لِلْعَزْمِ - تَحْتَ أَنْاتِهِ -
 كَمُونِ الرَّدَى فِي قَتْرَةِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ ^(٦)

(١) أمقوتولة الأجان ، الهزرة فيه للنداء أي يامن في أجفانها فتور وتكسر ، ولواله : الشديدة الحزن على فقد ولدها شبهها في شدة حزنها على نجمة الهاوى في غياة السجن بالمرأة الشكلى التي لا تفتقر أجفانها الفاترة المفرحة عن البكاء لفقد الحبيب .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استمر عليه ، والمضض : ألم المصيبة ، والشكل - بالضم - فقدان الولد والحبيب : أي لا تبكى باستمرار فلست أول حرّة لازمها وجع مصيبة التكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزنى إنا رادوه إليك » أي اعتبرى بهذه القصة واصبرى .

(٤) لعل للملك المعتاد صنع الجميل - قادرا لصنعه قدره - سوف يعمل على خلاصى بعد يأس .

(٥) بلى هذا البيت بيت وجد في الأصل ناقصا هكذا :

..... آل جهور مستحکم الأسباب مستحصد الجبل

(٦) ذو تدرى - بالضم - أي ذو عدة وقوة على مدافعة أعدائه إذا وجه عزيمته لفعل أمر كمن الردى تحت تأنيه كونه تحت فتور الأعين النجل أى الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفترة بمعنى انكسار جفون العين وضعفها ليعقد بينها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

- يَرِفَ عَلَى - التَّامِيلِ - لَأَلَاءِ بَشْرِهِ
 كَمَارَفَ لَأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)
 مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ
 سِوَى أَنهَاءِ بَانَتِ تَمَلُّ فَيَسْتَمَلِي (٢)
 تُعِصُّ ثِنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا
 سِوَارُ الْفِتَاةِ الرَّادِ بِالْمَعْصَمِ الْخُدَلِ (٣)
 وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ - اكِتِفَاءً بِمَرْوَهَا -
 غِنَى الْمُقَلَّةِ الْكَحْلَاءِ عَنِ زِينَةِ الْكُحْلِ

* *
 * *

- « أبا الحزيم » إني في عتابك - مائلٌ
 عَلَى جَانِبِ - تَأْوِي إِلَيْهِ الْعَلَا - سَهْلٌ
 حَمَامٌ شَكْوَى صَبَحْتِكَ هَوَادِلًا
 تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَابِي الْهُدَلِ (٤)
 جَوَادُ إِذَا أُسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى
 تَمَطَّرَ فَاسْتَوَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ (٥)
 ثَوَى صَافِنًا فِي مَرَبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي
 بِتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّكْلِ (٦)

- (١) يرف - بالكسر - يرق ويتلأأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو بريق السيف ولعانه حين تصقله وتجلوه .
 (٢) تملّ مضارع أمل : يقال أملاه النول وأمله ألفاه عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتبتها فهي تملى عليه » وقوله تعالى : « فليمل وليه بالعدل » واستتملته الكتاب طلبت أن عليه على ، أى هذه محاسن للمدوح الشبيهة بالبدر لا عيب فيها سوى أنها بانت تملى على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .
 (٣) تنص ثنائي : أى تجمله بنفس كما بنفس الشارب بالماء فلا يمكنه أن يستوفي هذه المحاسن كلها أو يسيفها ، كما بنفس سوارا الفتاة الراد أى التي ترود بيوت جاراتها بالمعصم الخدل - بالدال المهملة - أى المبتلى فلا يتحرك .
 (٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهده ، وهو صفة الأفنان ، يقال : تهدلت أغصان الشجرة أى تدلت - ينزل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهديها من أعلى شجرة الأدب وتد تدلت أفنانها ، وتهدلت أغصانها .
 (٥) استنت الجراد : مضت على وجهها في السباق ، والمدى : الغاية تمطر : جاء إلى النابتة مسرعا ، فاستولى على الخصل : غلب على الرهان - يصف الشاعر نفسه بالسبق على غيره .
 (٦) ثوى : أقام ، والصانن : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حافر الرابعة ، والشكل - بفتح فسكون - شدّ قوائم الدابة بالشكال - يصف حاله في محبسه وما يبته من الشكوى بحال الجواد المقيم على الهون يشكو بتصهاله ، أذى شكاله ، قال ابن بسام في الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبي :
 « وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جرى فلي فيهن تصهال . »

*
* *

أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَبْرِي رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيَّ عَدْلٍ
أُعِدُّكَ لِلْجَنِّيِّ وَأَمَلُ أَنْ أَرَى بِنِعْمَتِكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغَفْلِ
وَمَا ذَاكَ وَعَدُّ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحِلِّ (١)

*
* *

أَنْ زَعَمَ الْوَأَشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعَذِّرُ فِي خَذَلِي
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِعِ الْجَنَى وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظَّلِّ (٢)
وَلَوْ أَنَّ نِيَّ وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً لَمَا كَانَ بَدْعًا مِّنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُتَمِّلِي (٣)
فَلَمْ أَسْتَبِرْ حَرْبَ « الْفِجَارِ » وَلَمْ أُطِعْ « مُسَيْلِمَةَ » إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ (٤)

(١) في معنى هذه الآيات يقول ابن الرومي معانيها :

« إذا أنت أزمعت الصنعة مرة فلا تقصر ماء الصنعة بالمطل
ولا تخلط الحسنى بسوء فانه يجشمنا أن نخلط الشكر بالعدل
أرضى بأن تكفى بسهل وأن ترى وما مطلب الحاجات عندك بالسهل
أفت لعشاق المسكارم أن ترى مواعيدهم مثل البوارق في المحل . »

(٢) أصدى : مضارع صدى - بالكسر - أي أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحى - بالفتح
والكسر - أي أبرز للشمس ، ومنه قوله تعالى : « وأنت لا تظلم فيها ولا تنحى » واستعمله هنا
في البروز إلى إنصافه السابغ الظل ، لا في البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد في الأصل بعض بيت
على هذه الصورة :

وحاشاك رام العذب إبلاغ سمعه فضم

(٣) واقمت دانيت ، وعمل تمهل ولا تتعجل العقوبة ، أي لو أني دانيت متعمدا لوقعت في الخطيئة لم يكن
من سجايك غير العفو والامهال .

(٤) يقول : إن هفوتى صغيرة لا ينبغي أن تجسم إلى حد أن أكون كثير حرب الفجار أو كقطع مسيلة
في دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب
جفروا فيها إذ فاتلوا في الأشهر الحرم ، وكانت للعرب قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم أربع مجازات
آخرها حرب الفجار التي ذكرت في كتب السير ، وكانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان
وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمض أيامها وسنة عشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان ينبل على
أعمامه أي يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم ، وأما « مسيلمته » فكان من خبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِي قَدْ تَهَفُّوْا بِهِ نَشْوَةَ الصَّبَا
وَمِثْلِكَ قَدْ يَمْفُوْا ، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلٍ
وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نَهَائِي عَنِ النَّبِيِّ
أَشَادَ بِهَا الْوَأَشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي (١)

* *
* *

أَأَنْكُثُ فِيكَ الْمَدْحَ - مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ -
وَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزَلِ ! (٢)
ذَمَّمْتُ إِذَا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلُ
مُمرًا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمَحْلِي (٣)
وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودِّ الْخَنَاءِ
وَمَا لِي لَا أَتْنِي بِالْآءِ مُنْعِمٍ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي ، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ
لِقَيْلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحُسْلِ (٤)
وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطُّوْلَ شَافِعًا
فَتُنَجِّحَ مَيْمُونَ النَّقِيْبَةِ أَوْ تُتْلِي (٥)

« بنو حنيفة » على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رجع ومن معه من قومه إلى « اليمامة » ادعى النبوة ، وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع عليه « بنو حنيفة » وكانوا أربعين ألف مقاتل ، وفي عهد الخليفة « أبي بكر » رضى الله عنه أرسل إليه « خالد بن الوليد » على رأس جيش ، وجرت حرب بين الفريقين انتهت بقتل « مسيلة » وتفرق أصحابه .

(١) نهى أى عقلى فاستعمله مفردا ، قال فى اللسان : « والنهى العقل يكون واحدا وجمعا ، وفى التزليل العزيز : إن فى ذلك آيات لأولى النهى » اه ، وكان عليه حيث اعتبره مفردا وأضافه إلى نفسه أن يجرد الفعل من علامة التأنيث إلا أن يكون قد أراد جمع نهييه ، وأن عقله لفوته بثابة نهي متعددة ، عن التى : أى التهمة التى ، أشاد بها : أشاعها وندد بها ، ويعقلنى يحبسنى ويعنى .

(٢) ناقضة الغزل ، فى الكشاف عند قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » قيل هى ريطه بنت سعد بن تميم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع ، وصنارة مثل أصبع ، وفلسكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجوارها من النداء إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ماغزلن .

(٣) ممرًا من أمر الطعام صيره مرا ، والمحلى اسم مفعول من حليت العيش أحلاه أى استحلته .

(٤) الخسة والدناءة ، والحسل - بالكسر - ولد الضب ، ويكنى الضب : « أبى الحسل » .

(٥) تشفع : من قولهم شفع الوتر من العدد شفعا صيره زوجا ، والطول : القدرة والفضل ، وتلى : تتبع مضارع أتليت به إياه أتبعته ، والمعنى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شانعا منك يشفع لى فى الخلاص من السجن فتسغنى بادرارك حاجق فى حال كونك ميمون النقيبة أو تتلى أى تتبع الاحسان والشقاعة بأمثالهما : هذا مبلغ مايفهم من البيت ، وقد وجد فى الأصل « تلى » بالباء الموحدة ، وقد فهمنا من السياق أنها تلى لاتبلى ليناسب قوله « تشفع » أى تضم .

أَجْرُ أَعْدَاءِ مَنْ أَحْسَنَ ابْدَأُ عِدَا كَفِّ حُطِّ تَحَفُّ ابْسُطِ اسْتَأْلِفِ صُنِّ أَحْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ (١)
مُنَى - لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا بِيَدِ الرَّضَا - تَبَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَضْعَبِ الْحَلِّ (٢)

أَلَا إِنْ ظَنَى - بَيْنَ فِعْلَيْكَ - وَاقِفٌ ❖
وُقُوفِ الْهُوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ
فَإِنْ تُتَمَّنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ
لِذَلِكَ الْفِعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ (٣)
وَالْأَجْنِيَتْ الْأَنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى
وَهُوَلِ الشَّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ (٤)

سِعِينِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظٌ ❖
وَيُلْنِي لِمَا أَرَخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي
وَأَيْنَ جَوَابُ عَنكَ تَرْضَى بِهِ الْعَلَا
إِذَا سَأَلْتَنِي بَعْدَ أَلْسِنَةِ الْحَفْلِ (٥)

(١) في هذا البيت كما يرى الفارسيء محاكاة لقول المتنبي ، وقد سئل بيتاً يتضمن أكثر ما يمكن من الحروف ، فقال :

« عش ، ابق ، اسم ، سد ، جد ، قد ، مر ، انه ، اسر ، فه ، تسل

غظ ، ارم ، صب ، احم ، اغز ، اسب ، رع ، زع ، دل ، اثن ، نل
وهذا دماء لو سسكت كفيته لأنني سألت الله فيك ، وقد فعل .
وخير من هذه المعاطلة قول ابن الرومي :

« أُنظي ، ورفهني ، وأجزل مثوبتي وثابر على إدرار برى وواظب
لنأيتني جدواك - وهي سليمة من الذم - ما فيها اعتلال لعائب . »

(٢) لو تسنى : أي تسهل وتيسر لإحكام أمر تلك المني بيد المدوح لتسهل منها ما استصعب حله .

(٣) تمن : تقدر من مناه الله بمنيه قدره ومنه قول الشاعر :

« لا تأمن الدهر في حل وفي حرم إن المنايا توافي كل أناس

واسلك طريقك فيها - غير محتمم - حتى تلاق ما يعي لك الماني »

أي يقدر لك القادر ، والفعال - بالفتح اسم جامع لكل فعل حسن ، والقصد المتوسط بين طرفي الانفراط
والنفريط ، والرسل - بالكسر - الرفق والتؤدة يقال افعال كذا على رسلك أي على هيئتك وليس مراداً
هنا بل المراد الرسل - بالفتح - أي السهل يقال سير رسل أي سهل .

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأمانى على يديك ولم تجر على طاعتك وخلقك في إسعافى بحاجتى فأطلق
سراحي لأضرب في الفيافي وأجنى من وحشة النوى وهول السرى أنسا .

(٥) وأين جواب عنك أي بماذا يكون جوابى عنك إذا سئلت عما أسديت من معروف أو قدمت من
معونة . قال ابن بسام في باب الموازنة والنقد : « وأين جواب فيك ترضى به العلا » مأخوذ من
قول الآخر :

« فاختر لنفسك ما أقول فاني لا بدت أخبرهم وإن لم أسأل . »

جواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة
في يوم أخذ فيه دواء :

مولاي نفسي إلى مطالعة الـ

حسنى بعقبى الدواء مطالعه

وكيف ذاك الحس الذكى وقد

باشرتك المذاقة البشعة

وددت لو أننى خصصت بما اسـ

تبشعت منه وحزت منتفعه

أعقبك الله من فظاعته

أسوغ صنع فى مثله صنعه

بصحة تصحب الزمان فتبـ

ليه وتبقى جديدة نصعه

فأنت روح العلاء نسأه الـ

له وشمل الوفاء لا صدعه

جوابه ابن زيدون :

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِي الَّذِي صَنَعَهُ عَارِضُ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهُ

تَبَارَكَ اللَّهُ إِنَّ عَادَةَ حُسْنَاهُ - مَعَ الشُّكْرِ - غَيْرُ مُنْتَزَعَةٍ

*
*
*

يَا سَيِّدِي الْمُسْتَجِدَّ (١) مِنْ مَقَّتِي (٢)

وَأَفَانِي الْعَيْدُ - زَيْنَ نَاظِمُهُ - وَالْوَشْيُ لِأَرَاعِ حَادِثِ صَنَعِهِ (٣)

بَثَّتْ فِيهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِيًا كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرَّبَابِ قِطْعَهُ

أَزَاحَ كَرَبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعَهُ لَمَّا بَدَأَ طَالِعُ الشَّرُورِ مَعَهُ (١)
 كَمْ دَعْوَةٍ - قَدْ حَوَاهُ - صَالِحَةٍ ، مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَةً (٢)
 جُمْلَةً مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا لِي إِلَى عِلْمٍ كُنْهٍ طُلَعَهُ
 أَنْ الدَّوَاءِ التَّدَّتْ عَوَاقِبُهُ مِنِّي نَفْسٌ تَبَشَّعَتْ جُرْعَهُ (٣)
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لا شَرِيكَ لَهُ - إِنْ بَدَأَ الطَّوَلُ مِنْعِمًا شَفَعَهُ

حبيب

وَرَامِشَةَ (٤) يَشْفِي العَلِيلَ نَسِيمَهَا مُضْمَخَةً (٥) الأَنْفَاسِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ (٦)
 أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنْعَمٌ لِأَغْيَدِ مَكْحُولِ المَدَامِعِ بِالسَّحْرِ (٧)
 سَرَّتْ نَضْرَةَ - مِنْ عَهْدِهَا - فِي غُصُونِهَا وَعَلَّتْ بِمِسْكِ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرُ
 إِذَا هُوَ أَهْدَى اليَاسِمِينَ بِكَفِّهِ أَخَذَتْ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ البَدْرِ
 لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحَسَّنٌ (٨) وَظَرْفٌ كَعَرَفِ الطَّيِّبِ أَوْ نَشْوَةِ الخَمْرِ (٩)
 يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثِ تَلَذُّهُ كَمَثَلِ المُنَى وَالْوَصْلِ فِي عَقْبِ الهَجْرِ (١٠)

- (١) لما بدا شعرك الجميل ومعه طالع الشرور أنساني سرارة الدواء .
 (٢) كم دعوة حواها شعرك ادعو الله أن تكون مستجاب .
 (٣) كانت طاقبة الدواء حميدة وإن جزعت نفسي من شربه .
 (٤) في النابوس الرمش : الطاقة من الريحان ونحوه . وفي شفاء النليل ، رامشه : قال الصولي هي ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :

« لها روامش ينتحين لنا نظل آذانا مطاياها . »

- (٥) معطرة . (٦) طيبة : الرائحة .
 (٧) رب طاقة من الزهر معطرة الشذى طيبة الأنفاس قدمها إلى من أهواه .
 (٨) خلقة حسنة . (٩) يعني أن سحر عينيه يفعل في النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .
 (١٠) العقب : بضمين ، والعقب بضم فسكون العاقبة مثل عمر وعمر . قال تعالى : « هو خير ثوبا
 وخير عقبا . »

في مدح ابن جهور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوارالم برعه ، وأملأ ضيعه ، ويتمنى إنجاحه في طلبته ، وإسماعفه بأمنيته . »

- « جَنَاحِي » فِي جِوَارِكُمْ الدَّلِيلُ وَحَدَى فِي رَجَائِكُمُ الكَلِيلُ (١)
 نَصِيبٌ مِنْ وِلَايَتِكُمْ كَثِيرٌ وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيلٌ !
 لِمُخْتَلِفَاتٍ مِنْ حَالِي مَهْمَا أَجَالَ الفِكْرَ يَدْنَهُمَا مُجِيلُ (٢)
 أَتَحْيَا أَنفُسُ الآمَالِ فِيكُمْ وَلِي - أَتُنَاءَ هَا - أَمَلٌ قَتِيلُ ؟ (٣)
 وَءَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِي لَدَيْكُمْ إِلَى غَلَلِ النَّجَاحِ وَبِي غَلِيلُ ! (٤)
 وَقَدَحِي فِي وِدَادِكُمْ مَعَلَّى وَبَاعِي فِي اعْتِمَادِكُمْ طَوِيلُ (٥)
 وَكَأَنَّ لِي ثَنَاءَهُ رَاحَ يَثْنِي إِلَيْهِ العِطْفَ مَجْدُكُمْ الأَثِيلُ (٦)

(١) وجد هذا البيت في نسخة الديوان على هذه الصورة .

..... في جواركم الدليل وحدى في رجائكم الكليل

والتكلمة من عندنا كما يعطها السياق .

(٢) يقول : إن حالي لمختلفان عند إجابة النظر ، فنصيب من ولايتكم ونصرتكم وحي لكم كثير ، وحظي من عنايتكم وتفقدكم قليل .

(٣) ينكر عليهم أن تكون آمال الناس حية بسببهم وأمله بينها كالتفيل بين الأحياء .

(٤) القائل : السبيل الضعيف الذي يجري في أصول الشجر فيروها قبل أن تضعف ، والثليل : العطش أي وأعجب ما حدث لي أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نجاحي وانتعاش آمالي ، وبني ظمأ شديد فيحال بيني وبين ما يبرد غلتي ويشقي غليلي .

(٥) المعلى من قدح الميسر المشره ، والقدح : بالكسر اسم للسهم ، وكانت قداح الميسر عندهم معروفة بعلامات خاصة ، يضعونها في خريطة على يدي عدل يجليها ويخرج باسم كل واحد من الياصرين قدحا ، فان كان غنلا أي لا نصيب له غرم صاحبه ، وإن كان من ذوات الانصباء أخذ نصيبه بحسبه ، والذي يخرج له القدح المعلى يمدد أكبر فائر بأوفر نصيب لأن له سبعة أنصباء ، وكانوا يتقارون على جزور يقتسمونها والذي يخرج لهم من الانصباء ، يوزعونه على الفقراء .

(٦) وكم من ثناء ومدح راح يثنى إليه مجدكم المتأصل عطفه .

تُنَافِسُهُ الرِّيَاضُ مُنَوَّرَاتٍ تَنْفَسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الْأَصِيلُ^(١)

«أَبَا الْحَزْمِ» الزَّمَانُ - بِأَنَّ مُنَدِّي^{*} إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُكُمْ - بِخَيْلٍ^(٢)

عَلَوْتَ النَّجْمَ إِذْ مَلَّ الْمَسَامِي وَحُزْتُ الْخِصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ^(٣)

رَأَيْتُ النَّاسَ - مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ - بَلَاءُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ جَمِيلٌ

وَمَا الْعَيْشُ بَيْنَهُمْ فَضِيضٌ وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمْ ظَلِيلٌ^(٤)

وَلَوْ فَقَدُوا - لَا فَقَدُوا - حَوَاهِمُ مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمْ وَيَيْلُ^(٥)

وَشَاقَ نَفْسَهُمْ رَسْمٌ مُحِيلٌ - مِنَ الدُّنْيَا - وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلٌ^(٦)

فَخَاصِرُ دَوْلَةٍ تَفْنَى لِلْيَالِي وَلَمْ يُلَمِّمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلٌ^(٧)

وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي عُدَاتِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ

أَيُّدُسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي وَأَنْتَ - إِلَى نِهَائِيَّتِهَا - سَبِيلٌ؟

(١) النوافح : جمع نافحة وأراد بها أقباس الرياض التي تحملها نسمات الأصيل فنفوح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك الثناء الطيب تنافسه الرياض وهي منورات قد تنفس الأصيل عن نوافحها أي ما نفوح من طيب روائحها ، ويجوز أن يكون عن نوافحها جمع نافحة المسك . (٢) ثناء يقنيه جعل له ثانيا ، أي

يا أبا الحزم الزمان بخيل بأن يعدك ثانيا في الفضل إذا عدت فواضلكم . (٣) حزت الخصل : أي أحرزت الغلبة في الرهان أو أدركت الغاية في السبق ، والرسيل المناضل ، أو المسابق ، وقد جاء في الأصل «المسامي» فوضعنا في مكانها «المسامي» كما يرشد إليه المعنى .

(٤) الفضيض : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المنفرد ، وظل ظليل : أي دائم لا ينسخه الضح . (٥) مراد - بالفتح - اسم مكان من رادت الأبل تروء ، أي اختلفت ذهابها وبجئتها في المرعى ، والوييل الوخيم الذي لا يستمرأ ، والمعنى : لو فقدوك - لا قدر الله - ولم يستظلوا بظل

دولتك لاحتواهم من زمانهم مرعى وييل فلم يهناً لهم عيش ولم ينم لهم بال . (٦) الرسم ما بقي من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والمحيل : المتقادم العهد الذي مرت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أي لو فقدوك لاستوخوا العاقبة ، ولنازعهم نفوسهم - إذا استمرعوا فقدك ولم يقوموا بنصرتك - إلى دنيا تحولت جدها إلى بلى ، وشبابها إلى هرم ، وتغير عهدها من سعادة وهناء

إلى سحنة وشقاء . (٧) الخاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله : ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي على مرمر ملس ، والمدبل المتقلب الذي تنتقل إليه الدولة ، يدعو

للمدوح ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال .

إلى المظفر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن
عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لَبِيضِ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّمَمِ بِعَقْلِي - مُذْنٍ عَنِّي - لَمَمٌ (١)
فَفِي نَاطِرِي - عَن رَشَادِي - عَمِي وَفِي أُذُنِي - عَن مَلَامِي - صَمَمٌ (٢)
قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى الْعَادِلِينَ شُمُوسٌ مُكَلَّمَةٌ بِالظُّلْمِ (٣)
فَمَا سَقَمَتْ لَحَظَاتُ الْعِيُو نِ إِلَّا لِتُغْرِبَنِي بِالسَّقَمِ
يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ وَقَدَمَنْجِ الشَّوْقِ دَمْعِي بِدَمٍ (٤)
وَمَا ذُو التَّدَكُّرِ مِمَّنْ يَلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُدَمُّ (٥)
وَإِنِّي أَرَا حُ إِذَا مَا الْجَنُوبُ بُ رَاحَتِ بَرِيًّا جَنُوبِ الْعَلَمِ (٦)

(١) الطلاة : بضم الطاء هي العنق والجمع طلى مثل نقاة وتقى ، واللمم : بكسر اللام جمع لمه - الشعر المجاور شحمة الأذن - لمم بفتح اللام - الجنون .

(٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمى عن الرشاد وصم عن الملام وصار في حال جنون مذ بان وبعد عنه الحسان بيض الأعناق سود اللمم .

(٣) شمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره - العرب تقول روضة مكلمة ، يعني محفوفة بالنور ، فقول الشاعر : شمس مكلمة : أي مجللة بليل الشعر الأسود - وهذا البيت بمثابة التكملة لوصف حالته في البيتين السابقين فكأنه يقول وكما عمت عن الرشد وصممت عن الملامة كذلك فقد قضى على هذا الجلال أن أشمس على العاذلين . (٤) الخلي : كغني الفارغ ، وفي المثل العربي القديم « ويل للشجي من الخلي » .

(٥) انتقل الشاعر لتبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم فألزم لومه بالحجة وقذف في وجوههم بالبرهان الذي ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائي وحنوني ولوعتي كل أولئك لالوم فيه ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستثلاً »

(٦) أراح - استريح - ريح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال - « راحت » - من الراح ، وهو ضد الغدو يقول : إنني لكثرة تذكرى الأحبة ولكثرة حفاظي بهودهم أستريح إذا ريح الجنوب طادت إلى برائحة أمكنتهم المقدسة المحبوبة .

وَأَصْبُو لِعِرْفَانَ عَرِفَ الصَّبَا وَأَهْدَى السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمٍ»^(١)
 وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُودِ» قِ «أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمَ»^(٢)
 أَمَا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ حَمِيدًا - لَقَدْ جَارَ لِمَا حَكَمَ
 قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأَنْسُ حَتَّى انْصَرَمَ^(٣)
 لِيَالِي نَامَتْ عِيُونَ الْوُشَاةِ عِنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَتَمَّ^(٤)
 وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهُوَى فَأَجْنَتْ ثَمَارَ الْمُنَى مِنْ أُمَّمٍ^(٥)
 وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ^(٦)

(١) أصبو - أميل - وعرفان - معرفة ، والعرف هو الشذى . يقول : أنى أيضا أميل صبوة وحبا إذا هبت الصبا - ربح الشمال - لأنها معطرة بشذى من يحبهم ويهوهم فيهدى السلام إلى ذى سلم للموضع الذى حملت منه الصبا ذلك الشذى المحبوب .

(٢) أجھشت : ارتفع صوتى بأكيا ، يقول : كما أنى أسترخ للجنوب إذا عادت برياً ربح العلم وأصبو إلى شذى الصبا كذلك أبكى من طرب يماودنى إذا ابتسم البرق ولمع ، وللمعنى فى هذه الأبيات أنه يستريح لكل قادم من جهات أحبته لأن فى ذلك نوحاً من الذكرى . ولانظن شاعراً لم يبك لابتسام البروق ولم ينتش من ربا الصبا والجنوب .

(٣) انصرم : هو القطع ، وللمعنى أن الزمان الذى مضى حميداً حاد عن العدل حين حكم وهل أتل من وسم هذا الزمن بمجانفة العدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصباية والاستمتاع حتى انتضى وشيكا ، وما كادت تتصل أوقات الأنس حتى صرمه عنا وحال بيننا وبينه .

(٤) الوشاة : فى الأصل هم الذين يمشون بالشر والسعاية فيذيعون الأسرار ، والمراد بهم هنا الخصوم على الإطلاق والمراد بعين الرضى حالة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساطات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا البيت شرع يفصل الصباية التى انتقضت والانس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أجنت ثمار المنى : أى أعطت ، والأمم هو القرب ، تقول : رأيت من أمة ، أى من قرب ، يقول أيضا فى تفصيل الأس الذى انصرم : ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى ظللتنا هذه النصوص - فجزينا منها ماشئنا -

(٦) مذهبات البرود : أى موحاة البرود - جمع برد - بالذهب ، وقوله « رفاق الحواشى » كناية عن رقة وخضرة العيش فى تلك الأيام ورفده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الجلد . قال المتنبي :
 « فبأيما قدم سمعت إلى الملا أدم الهلال لأخصيك حذاء . »

كَانَ «أَبَا بَكْرٍ» الْأَسْمَىٰ أُجْرَىٰ عَلَيْهَا فِرْنَدُ الْكَرَمِ (١)

وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زَهْرٍ تِلْكَ الشِّيمِ (٢)

هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعَلَا شَمَائِخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشْمِ (٣)

مَلِيكَ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ حَوَى الْخِصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهْمِ (٤)

فَأَطَوْهُمْ - بِالْأَيْدِي - يَدًا ، وَأَثْبَتَهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمَ (٥)

وَأَرْوَعَ لَا مُعْتَفَى رِفْدِهِ يَخِيبُ وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ (٦)

(١) كان أبو بكر الأسامي أجرى محاسن جوده وديباجة كرمه على تلك الليالي والأيام التي نامت عنها عيون الوشاة وظلالته غصون الهوى فيها ، وهذا مما يفعل الشعراء كثيرا تخلصا من الغزل والنسيب إلى المدح وهو ما يسميه علماء البديع : حسن التخلص .

(٢) وكان أبو بكر بما أحرز من شمائل يبيض كأنها زهر النجوم قد وشح تلك الأيام بما وشحها به من نضرة وحسن .

(٣) شمرايح : جمع شمراخ أو شمروخ - أعلى الجبال - كل منيف أشم : أي كل طال مرتفع . يقول : إن أبا بكر هذا لا يقف في العلاء عند حد فهو في سبيلها قد تسنم ذرا كل منيف ، وعلا فوق كل حال .

(٤) حوى الخصل : أحرز الشيء المعلوم الذي تراهونوا عليه في السباق ، يعني أحرز نصب السبق ، وساهمته : أي قارعه الملوك وناضلته فسهمهم أي غلبهم ، والمعنى : أن هذا الملك سابقه الملوك في الجهد فأحرز دونهم نصب السبق ، وقارعه في مضار النضال فقرعهم وغلبهم .

(٥) بالأأيدي : بالنعم ، وبدا : يريد بعباء ، وهذا البيت توضيح أو تأكيد لسابقه أو هو بيان للميزات التي بها يغلب هذا الملك أقدار الملوك من أمثاله ويسبقهم .

(٦) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته كالرائع ، وقالوا في الأروع : إنه الرجل الكريم الحى النفس الذكي الجميل الذى يروطك بحسنه ، ويعجبك إذا رأيت ، والمعنى : كالعاقى كل من جاء يطلب رفقاً وعطاء وفضلاً ، قال الأعشى :

« تطوف العفافة بأبوابه طواف النصرارى بيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد :

« ترى العفافة عكوفاً حول حجرته يرجون أروع رحب الباع بساما . »

وقال أبو تمام :

« كم أعطيت راحتاه من نشب سلامة المعتفين في عطيه . »

والرغد : العطاء - وقوله لا معتفى - في القاموس اعتفت الابل اليبس واستعتت أخذته بلسانها فوق التراب مستصنية له ، والرغد هو العطاء ولا جاره يهتضم هضم الجار وتهضمه بمعنى ظلمه يقول إن هذا الملك اجتمع له حسن الخلق فهو يعجب الناظر إليه بحسنه وجمال هيئته كما اجتمع له حسن الخلق ، لأنه لا يخيب طالب رفقده ولا يظلم جاره .

ذَلُولُ الدَّمَائَةِ صَعْبُ الإِبَاءِ تَقِيفُ العَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ^(١)
 سَمَاءُ المَجَبَّةِ فِي أَفْقِهَا فَجَرَ عَلَيهَا ذُيُولَ الهِمَمِ^(٢)
 وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطْفَ الدَّيْمِ^(٣)
 نَهَيْكَ إِذَا جَنَّ لَيْلُ العَجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تَمِّ^(٤)

(١) الدماثة سهولة الخاق - وقوله تقيف العزيم - تقف إذا صار حذفاً حصيفاً فظناً، وتقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم والعزيمة والعزم واحد ، يعني أن المدوح مع ما تقدم من صفات رجولته وسمو فروسته وبطولته ليس بمتكبر ولا متعجرف ، وإنما هو سهل الخاق دمث الطبع ولكن في إباء ، كما أنه كثير الحدق والفظنة منتقف العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب القنائص والرباب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا المدوح قد سما المجرة أى علا إليها وزاد عليها بما لو المهم التي فصلها بقوله في الأبيات السابقة لامتنى رفده يخيب ولا جاره يهتضم وأنه إذا سابق الملوك غلبهم ، وأنه أطولهم يدا ، وأثبتهم قدما ، وليس المجرة من الماسر في الناس ما يعادل ما سترهم هذا المدوح .

(٣) ناصت مساعيه زهر النجوم : أى أن مساعيه ارتفعت حتى ساوت النجوم الزاهرة كالمجرة والنثرة والأكيل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاء ، وحى السحابة اللسترخية من المظر ، والديم : جمع ديمة ، وحى مظر يدوم في سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب الممطرة الدائمة بلا جلبة ولا ضوضاء فكان هذا البيت برهان لسابقه ، وكأنه يقول : لم لا تفضل على المجرة من هذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) النهيك : الشجاع القوى المبالغ في الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيبلغ منه ما يريد ، جن ليل العجاج : كل ما ستر عنك فقد جن عنك ، والعجاج : الغبار المثار واحده عجاجه ، وجنح الليل - بكسر الجيم ونضم - الطائفة من الليل ، وبدر تم : هو القمر إذا أبدر في ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول : حسبك من هذا المدوح أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر في ليلة التمام يكشف ظلام هذا العجاج ، ويبين عن جبهة النصر والنور ، فهو بعد أن فرغ من إثبات كرم ومدوحه ، وحسن خلقه بما يعلو به على مكانة النجوم ويزهو بقدره فوق هام الكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشف ويل ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت عجاجة الهيجاء ، وادهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكِمَاةِ وَرَوَى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبِهِمِ^(١)
 جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمِ^(٢)
 يَهِيحُ النَّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا لُ لَيْشَاهُ صُورًا وَبَحْرًا خِضَمِ^(٣)
 شَهْدَنَا ، لَأَوْتَى فَصَلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النَّهْيِ وَالْحِكْمِ^(٤)
 وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمُ^(٥)

(١) فشام السيف : معناه أممدها أو سلبها فهو من الاضداد ، ولكن يتعين هنا أن يكون معناه أممدها في هام الكيمة ، يقال شام الشيء في الشيء ، أدخله فيه أي جعل من رءوس الكيمة أممادا للسيف - هام : جمع هامة ، وهي الرأس ، والكيمة : جمع كمي ، وهو الفارس المدجج في السلاح والقنا : جمع قناه ، وهي الرمح ، والبهيم : جمع بهيمة بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذي لا يهتدى من أين يؤتى - أو هو الجيش ، فهو يقول : إذا جن ليل العجاج وسرى من ذلك المددوح في تلك الداجية - بدرتم - هناك رأيت كيف ينمد السيف في رؤس الفرسان المدججين في السلاح ، ورأيت كيف تسقى الرماح من دم نخور الشجعان الذين لا تعرف ما تبهم في الحروب .

(٢) يقول : ان ممدوحه جواد وإن في داره مطافا ومثابة للعفاة من طلاب الرغد والمطاء وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما تقبل من شفاه المرقودين أصبحت كالبحر الأسود المستلم الذي يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد الحمول المعطاء . قال في القاموس : هو خاص بالرجال ومن معانيه البحر أيضا - النزال : بالسكر أن ينزل الفرعان المتحاربين عن إبلهما إلى خيلهما فيتصاربوا ، ويقال : نزال : كقطام ، أي انزل - لواحد والجمع والمؤنث ، والليث من أسماء الأسد ، والمصور - كالمهصار - والمهصير - أمها ، للأسد أيضا ، وقوله « وبجرا خضم » ، وكذلك قوله في بيت سبق في هذه القصيدة نفسها : « فأطولهم بالأيدى يدا وأبنتهم في المعالي قدم . »

أجرى فيه المنصوب المنون في الوقف مجرى الرفوع والمجروز ، فوقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف . وذكر النحاة أن اللغة الفاشية من لسان العرب قلب التنوين ألفا في المنصوب المنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، وبجرا خضما ، وريمة يجيزون لإجرامه في الوقف مجرى الرفوع والمجروز ، قال الشاعر : « ألا جبذا غم وحسن حديثها فقد تركت نلي بها هاتما دنف . » « وابن زيدون » على فحولته ما كان يبنني له أن يضطرر إلى استعمال هذه اللغة القليلة في شعره . ومعنى البيت أن دعوة الحرب تهيج من هذا المددوح ليثا هصورا كما أن سؤال رفته وعطائه يهيج منه سيدا حمولا لما يكلف معطاء ، لما يسأل كالبحر .

(٤) في هذا البيت الجناس بين فصل الخطاب وفضل النهي ، ومعنى البيت أن المددوح حكيم لا في غبا وبكم وذرب اللسان والمنطق ولكن لا في طيش وخفة ، وهذا قلما يتاح إلا لمن هياهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفضل النهي أن يشهد له زمنه ويعترف له بالزامة . والرياسة والفضل . (٥) يؤكد ما قاله في البيت السابق ، فيقول : هل ترك المددوح أو فات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم لإحرازه من غير أن يجرزه ؟

*
* *

وَمُسْتَحَمِدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِـ عَفْوًا إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَدَمَّ (١)
شَمَائِلُ شُهَجْرٍ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتُجْنِي لَهَا مُشْحِيَاتُ النَّعَمِ (٢)
عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُؤَاةٌ يَرُوقُ وَفِي الْمِسْكِ طِيبٌ أَرِيحُ يُشَمُّ (٣)

*
* *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ وَلَا ءَمَّ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمَّ (٤)
وَلَا ذَبَّهِ الدِّينُ مُسْتَعَصِمًا بِذِمَّةِ أَبْلَجٍ وَافِي الذَّمِّمْ (٥)
وَجَاهَدَ - فِي اللَّهِ - حَقَّ الْجِهَامَا دِ مَن دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمِ (٦)

(١) مستحمد: أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الشيء عفواً أى من غير عمل ولا طلب ، واستدم: فعل ما يدم عليه ، والمعنى فى هذا البيت أنه من طبيعته الاستعداد - عفواً - لأنه كريم الفعال التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيه أوامر الأئمة عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يبدو فيه لؤم الأئمة رغم أوامرهم وريائهم يظهر كرمه الفطرى وميوله الحقة التى ترغمه أيضاً على إحراز المحامد .

(٢) الشمول: من أسماء الخمر - تجنى: تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تبنى عن الخمر والغناء الشجى لأنها يتبنى بها فتنطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن - الأريج: الرائحة الطيبة ، يقول: إن هذه الشمائل تانى فى رواء الحسن الذى يروق الناظر فى الروض ، وكذلك تانى فيما يلد المعاطس فى الأريج الطيب المشوم من المسك .

(٤) فلَّ غرب الضلال: أى تلم حده الذى يشبه حدَّ السيف فى المضاء ، وقوله - ولاءم شعب الهدى فاللتأم - معناه أصلح شعب الهدى فانصلح ، والمعنى أن أباه رآب صدع الهدى وفرق حزب الضلال وخضد شوكرته .

(٥) الأبلج: هو كل واضح ، ويقال: أبلج الصبح وضع يقول بابى الممدوح: احتفى الدين منه واعتصم بواضع المكاة وافي الذمم .

(٦) يقول: وإن أباً هذا الممدوح أبلى البلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله ولياً لأولياته عدواً لدوداً لأعدائه .

فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَدَلَّ وَلَا سَامِيحَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ^(١)
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ حَمِيرٍ - مَقَاوِلَ عَزَّوْا جَمِيعَ الْأُمَمِ^(٢)
هُمْ نَعَشُوا الْمَلِكَ حَتَّى أُسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمَ
نُجُومٌ هُدَى - وَالْمَعَالِي بُرُوجٌ - وَأَسْدٌ وَعَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمٌ^(٣)

*
* * *

« أَبَا بَكْرٍ » أُسْلِمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَلَا زِلْتَ مِنْ رَبِيهَا فِي حَرَمٍ^(٤)
أُنَادِيكَ - عَنِ مِقَّةٍ - عَهْدُهَا كَمَا وَشَتِ الرِّوَضِ أَيْدِي الرَّهْمِ^(٥)
وَإِنْ يَعُدُّنِي عَنْكَ شَحَطُ النَّوَى فَحَظِّي أَحْسَنَ وَنَفْسِي ظَلَمَ^(٦)

(١) رغم : أرغم يقول : إنه لم يترك من أعدائه ، سامي الطرف إلا أدله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أنفه يعني أدله عن كبره بمعنى أرغمه .

(٢) تقيل أباه أشبهه - مَقَاوِلَ ومَقَاوِلَةٌ وأَقْيَالٌ وأَقْوَالٌ جمع مَقُولٍ ككَبِيرٍ أو جمع قِيلَ - الملك من ملوك حمير - وأهو مادون الملك الأعلى، وسمى قبلا لأنه يقول ماشاء فينفذ ، وحينئذ فعني البيت أنه في عزه ومجده ومناعته أشبهه أباه وأجداده من ملوك وأقبال حمير الذين سادوا وغلبوا جميع الأمم .

(٣) بروج السماء معروفة - الوغى: غبار الحرب أو الحرب - العوالى صدور الرماح - والأجم بالضم وبضمتين وبالتحريك جمع أجمه - محركة - الشجر الكثير اللثف ، والمعنى أن المفاولة الأقبال آباء هذا المدوح كانوا في المعالي يشبهون النجوم في بروجها في السماء كما كانوا في الحروب يشبهون الأسد تظلمهم رماح كأنها أجم الأسد .

(٤) يدعوه له أن يظال في مأمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يظال في موضع لا تهتكه الحادثات ولا تصل إليه ريبها .

(٥) اللفة : الحبة ، والرهم : كعنب جمع رهمه بكسر الراء وسكون الهاء وهي المطر الضعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبسة عهدتها في الجدة والشباب كما نقشت أيدى السحاب الماطر ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداه عن الأمر صرفه وشغله ، ويعدني عنك : يصرفني ويشغلي عنك ، والشحط : البعد ، والنوى الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشغلي ويصرفني عنك فإنه لم يرخص إلا حظي ولم يظلم إلا نفسي فضرر هذا البعد واقع بي وحدي وليس يقع منه شيء عليك .

وَإِنِّي لِأَصْفِيكَ مَحْضَ الْهُوَى وَأَخْفِي لِبُعْدِكَ بَرْحَ الْأَلَمِ (١)
وَعَايِرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذَّمَامِ إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمَّ (٢)

وَمُسْتَشْفِعٍ بِي بِشَرَّتَهُ - عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْأَتَمِّ (٣)
وَقَدَمًا أَقَلَّتْ الْمَسِيءَ الْعِمَارَ وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمَ (٤)
وَعِنْدِي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّالِي التَّوَمُّ (٥)
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ (٦)
فَعَيْشٌ مَعْصَمًا بِيَفَاقِ السُّعُودِ وَدُمْ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النَّعَمِ (٧)
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ أَيَّامَهُ لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِي خَدَمَ (٨)

(١) محض الهوى : خالصه - والبرح : الشدة يدعم بهذا البيت معنى سابقه فيقول إني لأصفيك وأمحضك الهوى خالصا لاشائبة فيه وإني في بسدك لأشعر في نفسي بالألم المبرح واللوعة المرة ولكني أخفي ذلك في حنايا الضلوع وفي موضع الأسرار من القلوب .

(٢) أخفر به : تقض عهده وغدره - الذمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال - أذم له عليه أي أخذ له ذمة أي حرمة أو اجارة . يقول : إن غيرك بأبا بكر هو الذي يخفر عهد الذمام ويضيعه ويغدر به إذا جعل حسن ظني وطيب قلبي له حرمة عندي أو أذما لي عليه ذمة .

(٣) يقول : ما بشرت المستشفع بي لديك بالنجاح إلا تم له مطلبه وقيل له ثق بنجاحك فقد تشفعت بالذي لا ترد شفاعته عند أي بكر ولا يحجب له رجاء لديه .

(٤) قدما أي قديما وأقلت فلانا من كذا يعني أغنيته منه واجترم أي أتى الذنب أو الجريمة والصفح هو العفو يقول وانا نعرفك تقبل العائر من عترته وتعفو عن الباغي في جريمته .

(٥) التناسق هو التمام جات العقود ولآلئها واللائي التوم أي المتشابهة وتسمى اللؤلؤة التوأمة وتوأم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها يعمد الشاعر إلى تشويق الممدوح لافتناء مدائحه وشعره الذي يشبه العقود المنظومة المتناسقة بتوأم اللائي .

(٦) أجد الثوب صيره جديدا يعني أن نظم هذه العقود المتسقة يجد ويعيد إيراد الشباب من الفخر بها جديدة في الوقت الذي يلبس فيه الزمن ثوب الهرم ، أو أن شعر الممدوح نفسه هو الذي يظل بتلك المدائح الجديدة .

(٧) يفاع : كسحاب النمل والمقصود به هنا المرتفع يدعو للمدوح أن يعيش معتصما بمرتعات السعود وان يدوم مظلا بالنعم الظليلة الوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمته الذين يفضضون له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والحدم جمع خادم . يقول : لازال الدهر خادما لك .

في نكبة بني ذكوان

«قال عند نكبة بني ذكوان وابن حذام

في سنة ٤٤ هـ أر بعين وأر بعائة.»

- هَلِ النَّدَاءُ - الَّذِي أَعْلَنْتُ - مُسْتَمَعٌ
 إِنْ لَأَعْجَبُ مِنْ حَظِّ يَسُوفُ بِي
 تَأْتِي الشُّكُونُ إِلَى تَعْلِيلِ دَهْرِي لِي
 لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا ذَلِيلَ حَجًّا
 تَأْتِي الرِّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا
 أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِي لِدهْرِهِمْ
- أَمْ فِي الْمَثَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُ مُسْتَمَعٌ (١)
 كَأَلْيَاسٍ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ (٢)
 نَفْسٌ - إِذَا خُودِعَتْ - لَمْ تُرْضِهَا الخُدْعُ (٣)
 فَإِنَّهَا دَوْلٌ أَيَّامَهَا مُتَعٌ (٤)
 إِذِ الْفَوَائِدُ فِي أَثْنَائِهَا لَمَعُ (٥)
 بِقَصْرِهُمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ (٦)

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذي أعلنت فيه شكواي ، أم حل فيما قدمته من ماثات القصائد والرسائل غناء وقع ، وهو بهذا الاستفهام ينكر أن تكون شكواه قد سمعت ، وأن تكون قصاده قد نفعت .

(٢) الطمع : ضد اليأس ، والمعنى : إنى لأعجب من حظ امتدّ بي في نيله تموير المدوح ومطله ، حتى لقد أصبح شبيهاً باليأس منه طمع يجذبني إليه يريد أن الطمع فيه أخو اليأس منه .

(٣) يقول : إن دهرى يملئني ببيل تلك الأمانى البعيدة ، ولكن نسي لا تسكن إلى هذا التعليل لأنها لاتنخدع إذا خودعت .

(٤) الحججا : العقل والظننة ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس فيه دليل على ذكاء وفضنة من بركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والمتمتع بها مغرور مفتون .

(٥) يقول : ان الرزايا في هذه الدنيا تأتي على نسق وتتابع من الحوادث التي يتخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لج فيه وحرص عليه ، يعنى أن الدهر مولع بالحيلولة بين التابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .



- لَوْلَا بَنُو «جَهْوَرٍ» مَا أَشْرَقَتْ هِمَمِي كَمَثَلِ بَيْضِ اللَّيَالِي دُونَهَا الدَّرْعُ (١)
- هُمْ الْمُلُوكُ مُلُوكُ الْأَرْضِ دُونَهُمْ غَيْدُ السَّوَالِفِ فِي أَجْيَادِهَا تَلَعُ (٢)
- مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلَا تَعْجَبُ لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْجُمُعُ (٣)
- قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلُ فِي وَصْفِ سَوَدِّدِهِمْ لَا يَأْخُذُ الْوَصْفُ الْإِبْعَضَ مَا يَدْعُ (٤)
- تَجْهَمَ الدَّهْرُ فَأَنْصَاتَتْ لَهُمْ غُرْرُ مَاءِ الطَّلَاقَةِ فِي أَسْرَارِهَا دَفَعُ (٥)
- بَاهَتْ وَجُوهُهُمُ الْأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمِ فَكَلَّمَا رَاقَ مَرَأَى طَابَ مُسْتَمَعُ سَرُو تَرَاحِمُ فِي وَصْفِ الْمَدِيحِ لَهُ (٦)

(١) الدرع : الليالي التي اسودت أو اثلها وبيض سائرها ، والليالي البيض هي التي يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أي لولا الجهاورة ما أشرفت همي إشرافا كاشراق الليالي البيض دونها في البياض الدرع أي الليالي التي أظلمت أو اثلها .

(٢) غيد جمع أغيد : أي مائل ، والسوالف : جمع سالفة ، وهي صفحة العنق مما يلي الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : بنو جهور هم ملوك الأرض لايدانهم في المنزلة أو تلك الملوك الذي أمالوا سوالفهم ، ومدوا أعناقهم خيلاء وكبرا .

(٣) أي هم من الوري وليس عجيبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الشهر ولكنها تفوق سائرهم .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما تبالغ في وصف سوددهم فلا يمكنك أن تثبت من صفاتهم في السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرة ، وعجزك عن الاحاطة به .

(٥) تجهم : عبس وتكرت أيامه ، وانصات : اشتهرت ، والأسرار : جمع سر ، ويجمع أيضا على أسارير ، وهي خطوط في الغرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهي الدفقة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الزمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم في أثناء تجهمه غرر بيض يجري في غضوناتها ماء الطلاقة والبشر مترقرا متسلسلا .

(٦) جمع قرعه ، وهي السهمة ، أي حتى يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدق وأحسن وأجدر بسنى الجواثر .



« أَبُو الْوَلِيدِ » قَدْ أُسْتُوفِي مَنَاقِبَهُمْ فَلِتَفَارِيْقٍ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمِعٌ ^(١)
هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي سَنَّ الْكَرَامَ لَهُ زُهْرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعُ
مِنْ عِتْرَةٍ أَوْهَمَّتُهُ فِي تَعَاقِبِهَا أَنْ الْمَكَارِمَ إِيْصَاءٌ بِهَا شَرَعٌ ^(٢)
مُهَذَّبٌ أَخْلَصَ صَيْتُهُ أَوْلَيْتُهُ كَالسَّيْفِ بَالِغٌ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنْعُ ^(٣)

(١) يعني أن (أبا الوليد) استوفى مناقب الملوك حتى اجتمع فيه ما تفرق في غيره منها وعبر بالتفاريق للإشارة إلى قولهم في المثل السائر « هو خير من تفاريق العصا » ، يريد أن مناقبه كالعصا جمعت كثيرا من المنافع ، وأن مناقب غيره من الملوك كتفاريق العصا اختصت كل واحدة منها بفائدة ومنفعة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ ما نسخته : « ومن جل القول في العصا » وما يجوز فيها من المنافع والمرافق ، تفسير شعر « غنية » الأعرابية في شأن ابنها ، وذلك أنها كان لها ابن شديد العرامة كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أمر ، ودقة عظم ، فوائب مرة فتى من الأعراب ، فقطع النقي أنفه وأخذت « غنية » دية أنه ، لحنت حالها بمدقة مدقع ، ثم وائب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال وحسن الحال ، ثم وائب بعد ذلك آخر فقطع شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الأبل والنفث والمناع والسكسب بجوارح ابنها ، حسن رأيها فيه فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها :

« أحلف بالمروة يوما والصفاء إنك خير من تفاريق العصا . »

فمثل ابن الأعرابي ، ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساجورا وتقطع عصا الساجور فتصير أوتادا ، ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظا ، فان كان رأس الشظا كالفلكة صار للبختي مهارة ، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي ، وإذا فرق المهار جاءت منه التوادى ، والسواجير تكون للسكسب والأسراء من الناس - وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، « يؤتى بناس من هاهنا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير » - وإذا كانت قناة فكل شقة منها قوس بندق ، قال فان فرقت الشقة صارت سهاما ، فان فرقت السهام صارت حظاء ، وهي سهام صغار ، والواحدة حظوة وسروه ، فان فرقت الحظاء صارت مغازل ، فان فرق المغزل شعب به الشعاب أفداحه المصدوعة المشقوقه على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :

« نوافذ أطراف الفنا قد شككته كشكك بالشعب الإناء المنما . »

فاذا كانت العصا صحيحة سالمة ففيها من المنافع الكبار ، والمرافق الأوساط والصفار ، ملا يصحيه أحد ، فاذا فرقت ففيها مثل الذي ذكرنا وأكثر» إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أى شرائع ومناهج يجري فيها على سنة الملوك من آباءه . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سن المكارم فيمن يخلفهم من أبنائهم أو هموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .

(٣) الحاذق في صنعه .

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا فِي أَوَّلِ الطَّبَعِ لَمْ يَعْلَقَ بِهَا طَبَعُ (١)
 جَدْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شِيمِ - كَالرَّوْضِ تَضَحَّكَ مِنْهُ فِي الرُّبَا قِطْعُ
 كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ لَدَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ - لِشَارِبِ غِبِّ تَبْرِيحِ الصَّدَى - جُرْعُ (٢)

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِي تَأْمِيْلُهُ وَزَرِي إِنَّ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالٌ مُطْلَعٌ (٣)
 أَصْبَحَ لِهَمْسِ عَنَابٍ تَحْتَهُ مَقَةٌ وَكَلَّفَ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسْعُ (٤)
 مَا لِعَتَابِ - الَّذِي أَحْصَفَتْ عَقْدَتُهُ - قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ (٥)
 لِي فِي الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسْرُهُمْ أَنِّي لَهُمْ فِي اللَّيِّ نُجْزَى بِهِ تَبِعُ (٦)
 أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يَلْبَسُنِي جَمَالَ سِيْمَاهُ؟ أَمْ مَا فِي مُضْطَنَعُ؟ (٧)

(١) الطبع : الصدا ، يقول : إن السيوف في مبدأ طبيعتها إذا طاب جوهرها لم يعلق بها شين الصدا ،
 يعني أن المدوح طابت أوليته فخلص جوهره ولم يشنه عيب .

(٢) فيه تشبيه المدوح بمورد الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرعة أطفاة غلة صدره بعد ظمأ
 مبرح شديد .

(٣) وزرى : ملجئ ومتمسكى ، ومضطرب اسم مكان من الضرب وهو السير في الأرض ، ومطلع :
 مكان الاطلاع من مشرف عال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه
 قال عند موته ، « لو أن لي ما في الأرض جميعا لافتديت به من هول المطلاع » وهو بالنشيد مكان الاطلاع
 أراد به ما يشرف عليه من أمر الآخرة ويطلع عليه عقيب الموت .

(٤) اقبل رقيق عناب كالمس في الأذن ينطوي على مقة ومجبة وكلف نفسك من تحقيق أميبي
 فوق طانتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأي والتدبير ، والمعنى : فدكان من العقل وحصافة
 الرأي أن أبادر إلى التوبة وهأنذا تائب مما نسب إلي ، فإ لتوبتي قد ضيقت ولم تقبل مما جعل قلبي يخاطبه
 الجزع وعدم الصبر ، ويمارجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أنا أول الناس في الولاء لكم وغيري تبع ، وأتباعي في الموالية يسرهم أن أكون في
 الجزاء تبعا وتاليا لهم ، فهم دائما يسمون لاستنطاق منزلي وإجباط مسعاى .

(٧) يقول : أنتكر اختصاصى منك بما يجعلنى متعليا بجمالك هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع
 لي في الولاء والاخلاص ؟ أم هل تنكر أنى قبل غيرى أهل لرب الصنعة وإسداء الجليل ؟

لَمْ أَوْتِ فِي الْحَالِ مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ - وَنِي ^(١) بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ
 لَا تَسْتَجِزُ وَضَعُ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَهُ
 تَقَدَّمَتْ لَكَ نِعْمِي رَادَهَا أَمَلِي
 مَا زَالَ يُونِقُ شُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا ^(٢)
 شُكْرُ يَرُوقُ وَيُرْضِي طَيْبُ طُعْمَتِهِ
 ظَنَّ الْعِدَا - إِذْ أَعْبَتْ - أَنَّهَا تَقَطَّعَتْ ،
 لَا بَأْسَ بِالْأَمْرِ - إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ ^(٣)
 فِي طِيهِ نَفَحَاتٌ يَبْنِيهَا خِلْعٌ ^(٤)
 هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعٌ ^(٥)
 نَفْسَ الشَّقِيقِ - إِذَا مَا سَرَّتِ الرَّجْعُ

* * *

إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ اُقْتِضَائِهِمْ - مِثْلَ الشَّجْبِي فِي لَهَا هُمْ لَيْسَ يُنْتَزَعُ ^(٦)

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجدود : جمع جد بالفتح وهو الحظ والبخت والمعنى : لم أوتى ولم يذهب بسعى عندك فتور ولا تنصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى تعدى عن درك أمنيته عندك إنما هو حظى الذى به يعاى الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمنى أمل أرسلته فى طلب النجاة ، وارتباد النعمة ، فصادف جانباً مبرحاً ، ومراداً لنعماك ومنجماً .

(٣) الترع : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روض شكرى موقفاً معجباً غب سماء نعماك ، كالمرن أى السحاب يعجبك على أثر نزول المطر منه الرياض والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأبعت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمته : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلعة بالسكر ، وهى ما تخلعه من الثياب وتطرهه على آخر ، أى شكر يروق السامع حسنه . ويرضى الشاكر ما يهره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل نفحات الروض بينها وفى أنفائها تخلع علينا خلع ثمينة ، وحلل فاخرة .

(٥) ظن العدا أن هذه العطايا والنفائس مذ أعبت وتأخرت أياماً أنها انقطعت عني ، هيهات أن ينتزع عطاء يشبه البحر الذى ليس لمدته انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى بعده :
 أن الذين كنت - من قبل انتضاح أمرهم وظهور صريح العداوة منهم كالشجبا معترضا فى خلوقهم لا يمكن انتزاعه ، لم أحظ منهم وهم أعداء منافقون ، إلا بما كنت أحظى به منهم وهم شيعة مسالمون ، يريد أن نصيبه منهم فى الحالين لم يكن سوى الشر والأذى والوقية .

لَمْ أَحْظَ - إِذْهُمْ عَدَا بَادٍ نِفَاقُهُمْ -
 مَا غَظَاهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدْحِ
 كَمْ غَرَّةٍ لِي تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمْ
 إِذَا تَأَمَّلْتَ حُسْبِي غِيبَ غَشْمِهِ
 تِلْكَ الْعَرَانِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمُّهُ
 أَوْ دَعَتْ نِعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرًّا مُغْتَرِسٍ
 لَقَدْ جَزَّتْهُمْ جَوَازِي الدَّهْرِ عَنْ مِينِ
 لَا زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَضْرَعُهُمْ
 إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْهُمْ شَيْعُ
 فِي صَائِكَ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ (١)
 كَمَا تَلَقَى شِهَابَ المَوْقِدِ الشَّمْعُ (٢)
 لَمْ يَخْفَ مِنْ فَلَاقِ الإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ (٣)
 فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الجَدْعُ (٤)
 لَنْ يَكْرُمَ الفَرَسُ حَتَّى تَكْرُمَ البُقْعُ (٥)
 عَفَّتْ فَلَمْ يَمْنَحْهُمْ عَنْ نَمَطِهَا وَرَعُ (٦)
 إِنْ كَانَ بَيْنَ جَدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ

(١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :

« ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العير بأجلادها . »

وسياتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :

« ثناء عنفل كأن ثناءه مسك بأردان المحافل صاكا . »

والفنع : نفحة المسك ، ومسك ذوق ذكى الرائحة طيب الأناص . قال الشاعر :

وفروع ساغ أطرافها عللتها ريح مسك ذى فنع

وجاء بالأصل « صايك » بالياء ، و « كنع » بالكاف ولا معنى لها .

(٢) كم غرة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتتقاها قلوبهم وهى متأججة مستنيرة ، كما يتلقى الشمع عند الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .

(٣) يقول حبي واضح كفناق الصبح ، وجههم منشوش كاذب .

(٤) العرائين : جمع عرين ، وهو أعلى الأنف عند ملق الحاجبين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ، قال ذو الرمة :

« نثى النقاب على عرين أرنية شاء مارنها بالمسك مرثوم . »

والشمع : ارتفاع قصبه الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراق الأرنبة ، وإذا وصف الرجل بالشمع فاعناه يعنون أنه سيد شريف النفس ذو أنفة وشموخ وحمية ، ويقال هم شم العرائين كناية عن ذلك ، قال كعب بن زهير :

« شم العرائين أبطال لبوسهم سن نسج داود فى الهيجا سرايل . »

والجدع : القطع البائى فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدد كفرح فهو أجدع .

(٥) يقول : لقد استندت نعامك فى بقعة خبيثة من نفوس عرفت بغمط النعمة وتكران الجميل .

(٦) يقول : إن الدهر جازاهم عن من أسدبتموها إليهم ، فعفوا على آثارها ولم يتورعوا فى نمطها والامتناع عن شكرها .

تهنئة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عبد الله ومهنيه بالبناء على السيدة
بنت الموفق مجاهد رجهما الله . »

أَخْطَبَ فَلَمَّا كَفَّ يَفْقِدُ الْإِمْلَاكَ كَأ
وَأَطْلَبُ فَسَعَدُكَ يَضْمَنُ الْإِذْرَاكَ (١)
وَصَلَ النُّجُومَ بِحِطِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا
هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهُرُهَا الْأَفْلَاكَ كَأ (٢)
وَأَسْتَهْدُ مِنْ أُمَّحَى مَرَاتِعِهَا الْمَهَا
فَالصَّعْبُ يُسْمَعُ فِي عِنَانِ هَوَا كَأ (٣)
يَأْيَأُهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَدْبِيرُهُ
أَضْحَى لِمَمْلَكَةِ الزَّمَانِ مِلَاكَ كَأ (٤)
هَذِي اللَّيَالِي بِالْأَمَانِي سَمَحَةَ
فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيلَةَ
فَتَى تَقُلْ: «هَاتِي» تَقُلْ لَكَ: «هَا كَأ»
أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تُحْفَةَ
وَأَفَتْ مُبَشَّرَةً بِنَيْلِ مُنَاكَ كَأ
لَمْ تَعُدْ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَاكَ كَأ
شَمْسٌ تَوَارَتْ - فِي ظَلَامٍ مَضِيعةٍ -
ثُمَّ اسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَاكَ كَأ (٥)

(١) الاملاك : عقد الزواج ، يقول : اخطب فملككك يعوزها الصهر والنسب ، واطلب فسعدك يضمن لإدراك ما تطلب .

(٢) وصل النجوم بحط ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لو رام مصاهرة من ارتفع نسبه من الملوك إلى مستوى زهر الكواكب في أفلاكها ، لساتوا إليه من زهر عرائنها ما يرومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره نسا وصهرا .

(٣) استهد : اطلب الهداء من هدى العروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفي الأصل (استهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أي اطلب من أمنع أحياء العرب وأشدها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبهات بالها أي بقر الوحش في البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فإن الصعب يسلس وينقاد في عنانه مرادك وهواك .

(٤) أي أضحي تديره قوام المملكة ونظامها الذي يعتمد عليه في أمورها .

(٥) مضية : يقال هو بدار مضية كمشية أي بدار ترك واطراح وإضاعة ، واستطار : إنتشر ، والسنا : بالقصر الضياء ، أي كانت قبل هذا الاملاك شمساً محتجبة وراء حجب الاعمال والترك ، فاستطار إليها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنْتَ بِبَدْرِ السَّمِّ كَافِلَةً لَهُ
 هِيَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ أَخْتَرْتَهُ
 أَنْ سَوْفَ تُتْبَعُ فَرَقْدَيْنِ سِمَاكَ (١)
 فَقَدَدْتَ إِذْ خَلَقَ الشَّرَاكَ شِرَاكَ (٢)
 وَأَسْتَأْنِفِ النُّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَ (٣)

لَمْ يَبْقَ عُدْرٌ فِي تَقْسَمِ خَاطِرٍ
 كَفَّارُ أَنْعَمِكَ الْأَلَى حَلِيَّتِهِمْ
 إِلَّا الصَّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَ
 أَطَوَّقَهُمْ ، سَيَطَوَّقُونَ ظُبَاكَ (٤)
 تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَ (٥)
 وَجَرَى الْفَرِيدُ بِصَفْحَتِي دُنْيَاكَ (٦)
 وَبَدَا زَمَانُكَ لِأَبْسَا دِيَابَجَةِ
 دُنْيَا لِرَهْرَهَاتِهَا شِعَاعُ مَذْهَبٍ
 تَجَلُّو لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي سِيمَاكَ
 لَوْ كَانَ وَصْفًا كَانَ بَعْضَ حُلَاكَ

(١) يقول : قرنت هذه العقيلة ببدر التم ضامنة له أن ستتع فرقدين نجما يريد أنها ستنجب أمثال الكواكب النيرة من الذكور .

(٢) الأديم : الجلد ، وخلق : بلى ، والشراك : أحد سيور النعل التي على ظهرها ، يقول : هذه العقيلة وزوجك الفقيدة كالأديم قطعت منه بدل الشراك الذي بلى شراكا جديدا ، أى اخترت بدل الفقيدة ، زوجا أخرى جديدة ، وقد ألف العرب أن يشبهوا المرأة بالنعل ، وجاراهم ابن زيدون في ذلك ، وقد قال الحريري في مقامه من حوار طويل : « فان لمس ظهر نعله ، فقد انتقض وضوءه بفعله » أى إن لمس امرأته .
 (٣) أى فتلك النعمى بالجديدة ، عوض من ذلك الرزء بالفقيدة ، فاضرب صفعا عما يعاودك من ذكريات تؤلم نفسك وتبتعك على الحزن .

(٤) جمع طبة بالضم ، وهى حد السيف ، يقول : إن الذين طوتهم بأنعمك فوجدوا بها ، ستجعل لهم غدا من سيوفك فى أعناقهم أطواقا يطوقونها .

(٥) أعرض عن كل خطرة تخطر بقلبك ، وتقع فى بالك من جهة تدير المملكة ، فانك منصور على أعدائك ، ولو شئت لتناولت نجوم السماء جعلتها أسنة لرمحك .

(٦) جعل للنعمى عطفًا كمعطف الحسناء تهصره أى تميله إليك فينبئ كما تهصر الفصن وتميله نحوك لفظف عماره ، وجعل لدنيا الممدوح التي احتوت النعمى فرندا يجرى فى صفحتها ماؤه وتترقق ديباجته ، فأعطاك صورة ساحرة فائنة لما يتصل بالممدوح من دنيا يحفها النعمى .

فَتَمَلَّ فِي فُرْشِ الْكَرَامَةِ نَاعِمًا وَأَعْقَدُ بِمَرْتَبَةِ الشُّرُورِ حُبًّا كَا (١)
 وَأَطَّلَ - إِلَى شَدْوِ الْقِيَانِ - إِصَاخَةً وَتَلَقَّ مُتْرَعَةً الْكُوْسِ دِرَاكًا
 تَحْتَهَا مَثْنَى مَثَانِي غَادَةٍ شَفَعَتْ بِحَتِّ غِنَائِهَا الْإِمْسَاكَ (٢)
 مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارَهَا الْأَخْلَاكَ (٣)
 لَكَ أَرْيَحِيَّةٌ مَاجِدٍ - إِنْ تَعْتَرِضُ فِي لَهْوِ رَاحِكٍ - تَسْتَهْلِ لَهَا كَا (٤)
 مَنْ كَانَ يَمَلِّقُ فِي خِلَالِ نِدَامِهِ ذِمٌّ يَبْعُضُ خِلَالِهِ فَخَلَا كَا (٥)
 أُسْبُوعُ أَنْسٍ مُحْدِثٌ لِي وَحِشَةٌ عِلْمًا بَأَنِّي فِيهِ لَسْتُ أَرَا كَا (٦)
 فَأَنَا الْمُعَذَّبُ غَيْرَ أَنِّي مُشْعَرٌ ثِقَةٌ بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَا كَا
 إِنِّي أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا مَلَأَتْ مِنْ الدُّنْيَا يَدَيَّ يَدَا كَا
 بَرَدَتْ ظِلَالُ ذَرَاكَ ، وَأَحْلَوْلَى جَنِّي نِعْمَاكَ لِي ، وَصَفَتْ جِهَامٌ نَدَا كَا
 وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ الْعِدَا الْأَفْتَالِ مُدُّ أَعْصَمْتُ فِي أَعْلَى يَفَاعٍ جَمَا كَا (٧)

(١) تمل : تتمتع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متمك وأطاشك معه طويلا ، والحب : جمع حبة وهو أن يجمع الجالس ظهره وساتيه بثوب أو نحوه .

(٢) تحتها : أى الكؤوس أصوات تعاد مثنى من رنات مثنى عود في يد غادة ضمت إلى حث الغناء لإمساك الصوت بعد إطلافه .

(٣) جاسدت : خالط بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى في إبان لهوك بشرب الراح : وتستهل تخطر والها : جمع لهوة بالضم ، وهى المطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان في أثناء المنادمة على الشراب يعاقب بعض خلاله وخصاله ما يعاب ويذم عليه ، فغلاك ذم وحاشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى بأنس فيه يبروسه ، ولا يخرج إلى خاصته الدرا : بالفتح كل ما استذريت به ، يقال أنا في ذرا فلان أى في كنفه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والنسدى : العطاء أى صفا عطاؤك الشبيه بالماء فى الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأفتال : الأقران المساوون له فى الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعتصمت أى استمسكت وامتنعت ولجأت ، والبفاع : المكان المرتفع .

جَهْدَ الْمَقْلِ نَصِيحَةً مَمْحُوضَةً أَفْرَدْتَ مُهْدِيهَا فَلَا إِشْرَاكَ (١)
وَتَنَاءً مُخْتَلِفٍ كَأَنَّ تَنَاءَهُ مِثْلُ الْقِرَاعِ يَجِدُ سِلَاحِي شَاكَ (٢)

لَا تَعْدَمَنَّ الْحِظَّ غَرَسًا مُطْلِعًا تَمَرَ الْفَوَائِدِ دَانِيًا لِحْنَاكَ
وَالنَّصْرَ جَارًا لَا يُجَاوِلُ ثِقْلَةً وَالصَّنْعَ رَهْنًا لَا يُرِيدُ فِكَاكَ
وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ دَرْكُ الْمَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَ
فَالدَّهْرُ مُعْتَرِفٌ بَأَنَّا لَمْ نَكُنْ لِنُسْرَمِنَهُ بِسَاعَةٍ - لَوْلَا كَا

عهد

كَمَا تَشَاءُ فَقُلْ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلًا لَا تَخْشَ مِنِّي نِسْيَانًا وَلَا بَدَلًا (٣)
وَكَيفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَدْرِ بَعْدَكَ مَا طَعْمُ الْحَيَاةِ وَلَا بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلَا
أَتَلَفْتَنِي كَلْفًا ، أَبْلَيْتَنِي أَسْفًا قَطَعْتَنِي شَفَفًا ، أَوْرَثْتَنِي عِلَلًا

* *

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوفَ فَلَا بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الْأَمَلَا (٤)
وَاللَّهِ لَا عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمْ وَلَا أَخَذْتُ سِوَاكُمْ مِنْكُمْ بَدَلًا

(١) أهدى إليك نهاية ما يستطيع إهداءه مقل مني ، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بما لم تصرف معه فيه غيره .

(٢) الثاني : المبعض ، والقِرَاعُ المفاخرة بالسيف ، وشاك : السلاح يشاك شوكا ظهرت شوكته وحدته ، أى أدعى لمنازلة ومجادلة عدوك الثاني المبعض فإنه متى يرم ذلك يجدي شاكى السلاح ، مستعدا لمفارعة .

(٣) يقول : إننى احتمل منك كل شيء وليس ذلك بمعولى عن حبك ولا هو بدانى إلى نسيانك أو الانتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « طابن الله بياضى منك وحرمنى عطفك وودادك إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء (١)

« قال يمدح المعتمد ، ويرثي المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فَمَنْ شِيمِ الْأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهَا - الصَّبْرُ
 سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ (٢) فَلَا تُؤَثِّرُ الْوَجْهَ الَّذِي مَعَهُ الْوِزْرُ (٣)
 حِذَارُكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرِّزْقَ فِتْنَةً يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ إِيْمَانِكَ - الْعَذْرُ
 إِذَا أَسِفَ الشُّكْلَ اللَّيْبُ فَشَقَهُ رَأَى أَفْدَحَ الشُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ (٤)
 مُصَابُ الَّذِي يَأْسَى بِمَيِّتِ ثَوَابِهِ هُوَ الْبَرْحُ لِأَلْمَيْتِ الَّذِي أَحْرَزَ الْقَبْرَ (٥)

* *
 * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهَجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهِيْعٌ (٦) لَهْمُ فِيهِ إِضَاعٌ (٧) كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ (٨)

(١) جاء في ص ٤٧٩ من نفع الطيب مانصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، قال ذوالوزارين ابن زيدون يرثي المعتضد بقصيدة طويلة أولها :

« هو الدهر ، فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفع الطيب أكثر أبيات هذه القصيدة وإن اختلفت في قليل من الألفاظ في بعض أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسيرى القارى تشابها كثيرا بين هذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التي قالها ابن زيدون في رثاء الوزر أبي الحزم .

(٢) حسة : احتساب الأجر ، وفي رواية نفع الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفي رواية نفع الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذي معه العذر »

(٤) وفي رواية نفع الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفي رواية نفع الطيب : « بأس يموت ثوابه » (٦) طريق .

(٧) الايضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرحل إلا بعد ابيضاع فكيف شاهدت ابيضاعى وإزماعى . »

(٨) السفر : المسافرون .

فِيَاهَادَى الْمِنهَاجِ جُـرَّتْ ، فَإِنَّمَا
 إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصَرَ (٢) كُلُّ مُعَمَّرٍ
 هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوْ الْبَجْرُ (١)
 فَإِنْ سَوَاءَ طَالَ أَوْ قَصَرَ الْعُمُرُ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضَيِّمٌ ذِمَارُهُ
 بِحَيْثُ اسْتَقْلَّ الْمَلِكُ ثَانِي عِطْفِهِ
 هُوَ الضَّيِّمُ لَوْ غَيْرَ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ
 إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْعِنَاجِجِ (٤) فِي الْقِنَا
 فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارُهُ عَدِيدُهُمْ دَثْرُ (٣)
 وَجَرَّرَ مِنْ أَدْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
 ثِنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسَلَكُ الْوَعْرُ
 بَدِيلُ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ

* *

أَنْفَسَ نَفْسٍ فِي الْوَرَى - أَقْصَدَ الرَّدَى
 أَعْبَادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا
 وَأَخْطَرَ عِلْقٍ - لِلْهُدَى - أَفْقَدَ الدَّهْرُ
 عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيئِهِ الْعَدْرُ
 وَذَكَرَكَ - فِي أَرْذَانِ أَيَّامِهِ - عِطْرُ
 فَهَلَّا عَادَاهُ أَنْ عَلَيْكَ حَلِيئُهُ .

* *

عُشِيَتْ فَلَمْ تَعَشَ الطَّرَادَ سَوَاجِحُ ،
 وَلَا جُرْدَتِ بِيضُ ، وَلَا أُشْرِعَتْ سُمُرُ (٥)

(١) البحر بالفتح والضم : المكروه والأمر العظيم ، وقد روى المبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه حين حضرته الوفاة . قال في آخر كلمة له : ياهاذي الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أو البحر وقوله « إنما هو والله الفجر أو البحر » يقول : « إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت تصدك وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » وضرب ذلك مثالا لغمرات الدنيا وتحيرها أهلها (الكامل : ج ١ ص ٥ و ٦ و ٧)

وجاء في اللسان قوله : وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه : إنما هو الفجر أو البحر (الكامل : ج ١ ص ٥ و ٦ و ٧) والضم - الدهية والأمر العظيم . أي أن انتظرت حتى يضيء الفجر أبصرت الطريق ، وإن خبطت الظلماء أنضت بك إلى المكروه . قال : ويروى البحر بالهاء يريد شمرات الدنيا شبهها بالبحر لتحير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو غاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياذ الخيل والأبل . (٥) بيض وسمر : سيوف ورماح .

وَلَا تَنْتِ الْمَحْذُورَ عَنْكَ جَلَالَةً

وَلَا غُرْرَ مَبْتُ وَلَا نَائِلَ غَمْرٍ (١)

لَنْ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ هِيَّ أَنْسَهُ

بِأَنَّكَ تَأْوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ التَّرَى

لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءَهَا النِّعْمُ الْخَضْرُ

عَلَيْكَ - مِنْ اللَّهِ - السَّلَامُ تَحِيَّةً

يُنْسَمُكَ الْغُفْرَانَ رِيحَانَهَا النَّصْرُ

وَعَاهَدَ ذَلِكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَابٍ

إِذَا أُسْتَعْبِرَتْ فِي تَرْبِهِ - ابْتَسَمَ الزَّهْرُ (٢)

فَفِيهِ عِلَالَةٌ لَا يُسَامَى يَفَاعُهُ (٣)

وَقَدْرُ شَبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدْرُ

وَأَبْيَضَ فِي طَيِّ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ

صَفِيحَةٌ مَأْتُورٍ طَلَّاقَتُهُ الْأَثْرُ (٤)

كَأَنَّ لَمْ تَسِرْ حَمْرُ الْمُنَايَا تُظِلُّهَا

إِلَى مُهَجِ الْأَفْيَالِ (٥) رَايَاتُهُ الْحَمْرُ

وَلَمْ يَحْمِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ حَمِي الْهُدَى

فَلَمْ يُرْضِهِ إِلَّا أَنْ أُرْتَجِعَ النَّعْرُ

وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ الْمُعْتَفُونَ (٦) ، فَأَقْبَلَتْ

عَطَايَا كَمَا وَلى شَأْبِيئَهُ (٧) الْقَطْرُ

(١) النائل النمر : العطاء الجزيل الكبير .

(٢) يدعو الله أن يمطر جدته بسحاب تدرف ماءها على الأرض فتروى أزهارها فتضهرها .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرند السيف ، وروثه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« جلاها الصيقلون فأخلصوها خفافا ، كلها يتقى بأثر . »

أي كلها يستقل بك بغيره . ويتقى مخفف من يتقى .

وقالت إعرابية :

« فإذا رقدت فأنت منقبه وإذا انتهت فعمرك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أي في منته أثر . وأخذ من الأثر كأن وشبه أثر فيه ، أو منته حديد أئنت

وشفرته حديد ذكر ، وقد زعموا أنه السيف الذي يعمله الجن .

(٥) الأفيال - جمع قبل - وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتفون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والندى .

(٧) شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَفِ آرَاءَهُ الْمَعِيَّةُ كَأَنَّ نَجَى الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا - جَهْرٌ^(١)
وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلْأُمُورِ^(٢) مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقْرُ

* *
* *

كِلَا لَقَبَيْ سُلْطَانِهِ صَحَّ فَالَهُ فَبَا كَرَهُ عَضُدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرٌ^(٣)
إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَاجَابَهُ وَقَدْ قَدَّمَ الْمَعْرُوفَ وَأُسْتَمَجَدَ الذُّخْرُ
فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَدَّى لِحِمْلِهِ سَرِيرٌ فَلَمْ يَبْهَضْهُ^(٤) مِنْ هَضْبِهِ إِضْرُ

* *
* *

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عَيْبِدَهُ لَقَدْ رَابْنَا أَنْ يَتَلَوَّ الصَّلَاةَ الْهَجْرُ
تُعَادِيكَ - دَاعِينَا السَّلَامَ - كَعَهْدِنَا فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي وَلَا يُرْفَعُ السِّرُّ
أَعْتَبْ عَلَيْنَا ذَادَ عَنْ ذَلِكَ الرَّضَى فَنُتَبَّ أَمْ بِالْمَسْمَعِ الْمُعْتَلِي وَقُرْ^(٥)
أَمَّا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغَكَ بَعْدَهُ سَيَنْصَاتُ إِلَّا أَنْ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ^(٦)
أَأَنْسَاكَ - لَمَّا يَنَا عَهْدُ - وَلَوْ نَأَى سَجِيسَ اللَّيَالِي لَمْ يَرَمْ نَفْسِي الذِّكْرُ^(٧)
وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي جِسَامُ أَيَادِي مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ

(١) كأن لم تتكشف فطنته وألمعيته مستور الغيب الذي يتبدى لها رغم خفافه واضحا جليا .

(٢) تشذر الأمور : نشط إليها وترسع ، وتشذر الرجل تهباً للقتال والحلثة .

(٣) يشير إلى تلقيبه بالعتضد والمنصور . (٤) بهضه : يهظه ، أى ينقل عليه حمله .

(٥) في رواية فتح الطب :

« أَعْتَبْ عَلَيْنَا ذَاوَعْنَ ذَلِكَ الرَّضَى فَنَسْمَعُ أَمْ أَلْخُ »

(٦) يقول : إنك في شغل لن ينتفضي إلا إذا جاء يوم الحشر .

(٧) رام يريم : فارق يفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدي بك ولو طال أهد الدهر لم أنساك

ولم تفارق قسى ذكراك .

* *
* *

لَنْ كُنْتَ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَّةَ الَّتِي تَمَلِّتُهَا تَتَرَى لِأَوْبَقِنِي ^(١) الْكُفْرُ
فَهَلْ عَلِمَ الشَّلُوُ الْمُقَدَّسُ أَنِّي مُسَوِّغٌ حَالِ ضَلَّ فِي كُنْهَهَا الْفِكْرُ ^(٢)
وَأَنَّ مَتَابِي لَمْ يُضِعْهُ « مُحَمَّدٌ » خَلِيفَتُكَ الْعَدْلُ الرِّضَى وَأَبْنُكَ الْبِرُّ
هُوَ الظَّافِرُ الْأَعْلَى الْمُوَيْدُ بِالذِّي لَهُ فِي الذِّي وَلَاهٌ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ
رَأَى فِي اخْتِصَاصِي مَا رَأَيْتَ وَزَادَنِي مَزِيَّةَ زُلْفِي ^(٣) مِنْ تَنَاجُجِهَا الْفَخْرُ
وَأَرْغَمَ فِي بَرِّي أَنْوَفَ عِصَابَةٍ لِقَاوَهُمْ جَهْمٌ وَحَلْظُهُمْ شَزْرُ
إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ وَقَامَ سِمَاطًا حَفْلِهِ فَلَئِي الصَّدْرُ ^(٤)

(١) لأهلكني (٢) الشلو : العضو جمعه أشلاء . يقول : هل علم الجسد الميت الطاهر
أنني أحاول أن أستنبح ما لا سبيل لي استنابته أي أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى بما حدث
فلا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) قرني .

(٤) استوى : جلس ، والدست : معرب دشت ومعناها بالفارسية اليد - كما يؤخذ من شفاء العليل
وترك هذه المادة في اللسان ، وفي القاموس : « الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت
مغربات . » واستعملها المولودون لمعان منها المجلس كما في البيت الذي نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعري :
« من آلة الدست ما عند الوزير سوى تحريك لحيته في حال إيماه
فهو الوزير ولا أزر يشدّ به مثل العروض له ببحر بلاماء . »
وورد في المقامة الحادية عشرة من مقامات الحريري عند قوله :

« تبصر ودع اللوم وقل لي هل ترى اليوم

فنتي لا يقمر القوم إذا مادسته ثم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى تمت حيلته ، ويقال فلان تم عليه الدست في القمار أي لم يفز وورد
في آخر المقامة الثامنة عشرة عند قوله :

« فنادرنا بعد أن وخذت عنسه ، وزايلنا أنسه ، كدست غاب صدره ، أو ليل أفل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد في أوله المقامة الثالثة والعشرين عند قوله :

« فركضت في إثر النظارة ، حتى وافينا باب الاماره ، وهناك صاحب المعونة مترعبا في دسسته ،
ومروعا بسمته . »

وَفِي نَفْسِهِ الْعَلِيَاءِ لِي مُتَّبِعًا يُنَافِسُنِي فِيهِ السَّمَا كَانِ وَالنَّسْرُ
يُطِيلُ الْعِدَا فِي التَّنَاجِي خُفْيَةً يَقُولُونَ: «لَا تَسْتَمْتِ، قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ»
مَضَى نَفْسُهُمْ - فِي عُقْدَةِ السَّعْيِ - صَلَّةً فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذَلِكَ السَّحْرُ
يَسِبُّ مَكَانِي عَنِ تَوَقِّي مَكَانِهِمْ كَمَا شَبَّ قَبْلَ الْيَوْمِ - عَنِ طَوْقِهِ عَمْرُو^(١)

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد في آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالى وقد خلا مجلسه ، وانجلي تعبه ، أخذ يصف أبأ زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله - ألسنت الذى أطاره الدست ؟ قلت : لا والذى أحلك فى هذا الدست ، ما أنا بصاحب هذا الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست . فالدست الأول هو الثوب ، والثانى المجلس ، والثالث هو الثوب أيضا ، والرابع الخيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتجمع على حباى أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو يديه ، ويقال حل فلان حبوته ، وهذا الأمر مما تحمل له الحبا ، والحبوة - بالفتح - المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام القوم حوله سباطين أى صفين ، ومشى بين السباطين أى بين الصفين ، يقول إنه يفسح لى الجلوس فى الصدر إذا استوى فى مجلسه ومثل حوله صفان من حفله .

(١) أصل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفى رواية أساس البلاغة : « جل عمرو عن

الطوق » ، وفى رواية يجمع الأمثال المبدانى « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت :

« لقد جل مكافى عن أن أحاذرهم ، كما جل عمرو عن الطوق . »

قال ابن تقيية فى كتاب المعارف : وعمرو هذا هو عمرو بن عدى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو الذى كان يقول - إذ اجنى الكمأة بين يدى خاله وهو صبي - :

« هذا جنابى ، وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حينما ، ثم ظهر فوجدته مالك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأتابه جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكهما فسالاه منادته . »

وقد ضربت الأمثال بندمانى جذيمة ، فقال متمم النويرى حين رثى أخاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن تصدقا

وعشنا بخير - فى الحياة - وقبلنا أصاب المنايا رهط كبرى وتبعا

فلما تفرقتا كأتى ومالكا - لطول افتراق - لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلى :

« ألم تعلمى أن قد تفرقتا قبلنا - خيلا صفاء مالك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء الممرى إلى ندمانى جذيمة إشارة ناعمة فى رسالة النفران (ج ١ ص ١٣٢) فليرجع إليها من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو نظفته وألبسته ثياب الملوك وطوقته بطوق فى عنقه وأمرته بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا .

قالوا : « وكانت الزباء قتلته خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلها . »

* * *

لَكَ الْخَيْرُ ، إِنَّ الرِّزْقَ كَانَ غِيَابَةً
 فَفَرَّتْ عِيُونُ كَانَ أَسْخَنَهَا الْبُكَاءُ
 وَلَوْلَاكَ أَعْيَا رَأْبُنَا ذَلِكَ الثَّأْيُ (١)
 وَمَا قَدَمْتَ الْجَيْشَ بِالْأَمْسِ أَشْرَقَتْ
 فَقَضَيْتَ مِنْ فَرَضِ الصَّلَاةِ لِبَانَةَ
 وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَمْتَ مَثْنَى نَوَافِلِ
 وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي غَضَّ طَرْفَهُ
 فِدَامَا مَعًا فِي خَيْرِ دَهْرٍ ، صُرُوفُهُ
 وَأَجْمَلُ - عَنِ الثَّأْوِي - الْعَزَاءُ فَإِنْ تَوَى

طَلَعَتْ لَنَا فِيهَا كَمَا طَلَعَ الْبَدْرُ
 وَقَرَّتْ قُلُوبُ كَانَ زَلْزَلَهَا الذُّعْرُ
 وَعَزَّ فَلَمَّا يَتَمَعَّشُ ذَلِكَ الْعَبْرُ
 إِلَيْكَ - مِنَ الْأَمَالِ - آفَاقَهَا الْغُبْرُ (٢)
 مُشِيْعَهَا نُسْكَ وَفَارِطَهَا طُهْرُ (٣)
 يُبَلِّغُ بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عَيْدِهِ فِطْرُ
 بُعَيْدَ التَّسَامِي أَنْ غَدَا غَيْرَهُ الْقَصْرُ (٤)
 حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورَهُمَا هَجْرُ (٥)
 فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي ، وَلَا الضَّرْعُ الْغُمْرُ (٦)

(١) الثأى : الفساد ورأبه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يرأب الصدع والثأى برصين من سجايا آرائه وبغيره . »

(٢) قدمت : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدمه ، قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار » والمعنى : ولما تقدمت الجيش صبيحة يوم الفطر أشرفت إليك شمس الأمال من آفاقها الغبر يريد أن الأمال ابتسمت له مشرفة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللبانة : الحاجة يقال قضى فلان لبانته أى حاجته ، والفارط : المتقدم أى قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب ، وفى رواية نفع الطيب : « فشيعها نك وقارنها طهر »

(٤) أى بعد أن عدت من صلى العيد - رححت إلى القصر الذى غض طرفه حياء - بعد أن سما يبصره إليك - لأنك تبدلت به نصرا غيره . (٥) لايطورها : لايقربهما والضمير تأد على القصرين .

(٦) الوانى : الضعيف ، والضرع : الخاضع الذليل ، والغمر : الذى لم يجرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجل عزاء عن الراحل الثاوى فى قبره ، فانك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يجرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فانك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفع الطيب ، قال الشاعر :

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ قَبْلُ - أُولَى الْحِجَا - مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتِكَ عِشْرُونَ وَالْعَشْرُ (١)

* *

أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ ضَاقَ ذَرْعُ بِحَادِثٍ تَبَدَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَأَتَّسَعَ الصَّدْرُ (٢)
فَلَا تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ فَمِنْكَ - لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا - جَبْرٌ
وَلَا زِلَتْ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقِرَّةٍ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ
فَإِنَّكَ شَمْسٌ - فِي سَمَاءِ رِيَاسَةٍ - تَطَّلَعُ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمُ زُهْرُ

* *

شَكَّكْنَا فَلَمْ تُثَبِّتْ (٣) أَلْأَيَّامُ دَهْرِنَا بِهَا وَسَنُّهُ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرٌ؟
وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ - فِي مَفَاصِلِهَا (٤) - حَجْرٌ
سِوَى نَشَوَاتٍ - مِنْ سَجَايَا مُمَلِّكٍ - يُصَدِّقُ فِي عَلَيَّامِهَا الْخَبَرَ الْخُبْرُ

* *

أَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَأَنْتَ يَمِينُهُ وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا ثَغْرُ
وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكَ - أَجَبْتُهُ: هُنَاكَ الْأَيْدِي الشَّفْعُ وَالسُّودُودُ الْوِترُ (٥)
هُنَاكَ الثَّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى وَبَدَلُ اللَّهِامِ وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ

(١) أولى الحججا : أرباب العقول ، والارب : العقل والدعاء والبصر بالأمور ، يقال أرب ككرم أرابية فهو أريب أى حافل وجاء فى نفع الطيب « اللب » بدل « الارب » ، وعشرون : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه النون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : « هذه عشرون وعشرون » بتشديد الياء كسلى ، أى أن ثلاثين حجة أفادتكم من الحججا والعنل مالم تعطه غيرك السبعون .
(٢) ألسنت الذى إن ضاق الناس ذرعا بحوادث تهمل له وجهك بشرا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبرا ، ثقة منك بأنك ستكشف النازلة ، وتدفع الكارثة .
(٣) وفى نفع الطيب : « فلم ندرك » (٤) وفى نفع الطيب : « مماطفها » .
(٥) أى : هناك الايدى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد الفذ .

مَهَامٌ - إِذَا لَاقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ - وَإِقْبَالُهُ خَطْوُهُ ، وَإِذْ بَارُهُ حُضْرٌ^(١)
 مَحَاسِنٌ ، مَا لِلرَّوْضِ - خَامِرُهُ النَّدَى - رُؤَايَهُ إِذَا نُصِّتَ حُلَاهَا وَلَا نَشْرٌ^(٢)
 مَتَى أَنْتَشِقَّتْ لَمْ تُطَّرِ دَارَيْنِ مِسْكَهَا - حَيَاءٌ ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَبْرَةِ الشَّجَرِ^(٣)
 عَطَاءٌ وَلَا مَنًى ، وَحُكْمٌ وَلَا هَوَى - وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلَا كِبَرٌ
 قَدْ أُسْتَوْفَتِ النِّعْمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا - عَلَيْنَا ، فِنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبي العباس بن حاتم بن ذكوان »

لَسْتُ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ^(٤) أبا العباس ، دَعَهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِكَ
 مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ - إِذَا اخْتَصَّكَ - أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي إِدْمَانِكَ
 أَتْرَاهُ لَا يَسْتَرِيبُ لِإِمْسَا - كَيْكَ سَرَدَ الْعِرَاقِ تَحْتِ لِسَانِكَ^(٥)
 مُذْ نَهَانَا - عَنِ الْمُدَامِ - أَنْتَهَيْنَا - مَعَ أَنَا نَعُدُّ مِنْ صِيَّانِكَ .

(١) المناجز : من المناجزة وهي المبارزة في القتال والمقاتلة ، قال عبيد :

كألهندوانى المهنة هزه القرن المناجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاق عدوه المناجز في الحرب والقتال رده منهزما في حال كون لإقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على المنصة بكسر الميم وهي سرير العروس الذي تنص وتجلى عليه ليلة الزفاف ، والنشر : الرائحة الطيبة ، وفي الأصل « ولا بشر » والذي أثبتناه هنا رواية نفع الطيب .

(٣) لم تطر : لم تدمح ، ودارين : ثغر على الخليج الفارسي يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذي نفع الطيب « لم تدر » والشحر : ساحل البحر - بين « عمان » و « عدن » - أو هو صنع على ساحل الخليج الفارسي وإلى هذا الصقع ينسب العنبر الشحري ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من معجم البلدان ، والمعنى : متى فاح عبير تلك المحاسن لم تنن دارين على مسكها ولم يفخر الشجر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التي تصلح لهم ، ويقال : « هذا شيء من بابتك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيتهم . »

(٥) العراق : بالكسر الجلد المخروز على فم السقاء والزق ونحوها تشبه بجزره الأسنان في السرد ، والاستواء ، وجاء في الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع في الريبة لوضعك مسرودة

العراق تحت لسانك ، يريد أنه يحتمى الحجر من فم زق معرق أى على فم عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوقه إلى تعاطي

الحيا في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا (١). »

فُزْ بِالنَّجَاحِ وَأَحْرِزِ الْإِقْبَالَ
وَحُزِ الْمُنَى وَتَنْجِزِ الْأَمَالَ
وَلِيَهْنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفْرُ اللَّذَا
صَدَقَاكَ فِي السِّمَةِ الْعَلِيَّةِ - فَالَا
يَأْيَأُ الْمَلِكُ الَّذِي لَوْلَاهُ لَمْ
تَجِدِ الْعُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَا لَا

* *

أَمَّا « الثَّرِيَا » (٢) فَالْثَّرِيَا نَصْبَةٌ
قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنهَا
رَفَهُ (٣) وَرُودُكَهَا لِتَنْعَمَ رَاحَةً
وَإِفَادَةٌ وَإِنَافَةٌ وَجَمَالًا
لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَّتْ إِلَيْكَ خِيَالًا
وَأَطْلُ مَزَارِكَهَا لِتَنْعَمَ بِالَا

* *

وَتَمَثَّلِ الْقَصْرَ « الْمُبَارَكَ » وَجَنَّةً
وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنَ الْمُدَامِ أُمَّتَهَا
قَصْرٌ يُقْرَأُ الْعَيْنَ مِنْهُ مَصْنَعٌ
لَا زِلْتَ تَفْتَرِشُ الشَّرُورُ حَدَاتِهَا
قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا « الثَّرِيَا » خَالًا
أَرْجَا زَكَ وَأَشْفَهَا جِرِيَالًا (٤)
بِهَيْجِ الْجَوَابِ، لَوْ مَشَى لِأَخْتَالًا
فِيهِ، وَتَلْتَحِفُ النَّعِيمِ ظِلَالًا .

(١) وردت هذه النصيدة في الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من نفع الطيب .

(٢) يعني قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك أياها ريفها أى كل يوم ، يقال وردت الإبل ريفها إذا كانت ترد للماء كلما

شاءت الورود . (٤) الجريال : الحمر ، أو حمرتها وسيأتي تفسيرها في ص « ١٥٥ »

مدح ورثاء وتهنئة (١)

« وقال أيضا بمدحه ويرثى الوزير الكاتب الأعلى

أبا الحزم أباه رحهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ صَمَّهَا الْقَبْرُ وَأَنْ قَدْ كَفَانَا - فَقَدْنَا الْقَمَرَ - الْبَدْرُ
وَأَنَّ الْحَيَا (٢) - إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ -
إِسَاءَةٌ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا ،
فَلَا يَتَهَنَّى الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا
وَإِنْ يَكُ وُلَى « جَهْوَرُ » ، « فَحَمْدُ »

* *

لَعَمْرِي لَنِعَمَ الْعَلِقُ (٣) أَتْلَفَهُ الرَّدَى
هَزْزَنَا بِهِ الصَّمَّصَامُ (٤) فَالْعَزْمُ حَدُّهُ
فَتَى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمَفْرَقَ هَمُّهُ
أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ
سَرَتْ - حَيْثُ لَا تَسْرَى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُنَى -
لَبَسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ
وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَانَتْهَا
بِهَا وَسَنُ أَوْ هَزَّ أَعْطَاهَا سُكْرُ

* *

مَلِيكُ لَهُ مَنَا النَّصِيحَةُ وَالْهُوَى وَمِنْهُ الْأَيَادِي الْبَيْضُ وَالنِّعَمُ الْخَضْرُ

(١) ارجع إلى ص « ١٤٠ » و ص « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفس . (٤) الحمام .

نُسِرُهُ وَفَاءَ - حِينَ نَعْلَمُنْ طَاعَةَ -
فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرٌ
فَقُلْنَا لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَأَ عِلْمُ الْهُدَى »
وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ: « قَدْ قَضَى الْأَمْرُ (١) »

* *

« أَبَا الْحَزْمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى -
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعُ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ
فُلُوبٌ مِنْهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
فَمَا لِنَفْسِي - مُدْطَوَاكَ الرَّدَى - قَدْرُ
تَهُونُ الرَّزَايَا بَعْدُ - وَهِيَ جَلِيلَةٌ -
وَيُعْرِفُ - مُذْفَارَقَتَنَا - الْحَادِثُ النُّكْرُ
فَقَدْ نَاكَ فِقْدَانُ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ
لَهَا أَمْرٌ يُعْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
مَسَاعِيكَ حَلِيٌّ لِلْيَالِي مُرْصِعٌ
وَذِكْرُكَ - فِي أَرْذَانِ أَيَّامِهَا - عِطْرُ
إِلَيْهَا التَّنَاهِي طَالَ أَوْ قَصَرَ الْعُمْرُ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَةَ فَايَةٌ

* *

عَزَاءَ - قَدَّتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ - فَإِنْ تَوَى
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ
فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرْعُ النُّعْمُ
أَمَامَكَ - مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ - طَلِيْعَةٌ
بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْنِكَ الْأَجْرُ
وَحَوْلَاكَ - مِنْ آيَاتِهِ - عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ
كَفَّتْكَ مِنَ اللَّهِ الْكَلَاءَةُ (٢) وَالنَّصْرُ

* *

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَائِقٌ بِكَ شَاكِرٌ
تَحَامَى الْعِدَا - لَمَّا أَعْتَلَقْتُكَ - جَانِي
لِمَثْنَى أَيْادِيكَ الَّتِي كَفَرُهَا الْكُفْرُ
وَقَالَ الْمُنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو (٣)

(١) قريب من هذا قول ابن هاني الأندلسي :

تقول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقل لبني العباس : « قد قضى الأمر »

(٢) الرماية والحفظ . (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل في (ص ١٤٥) من هذا الكتاب .

يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَحْسُنُ مِنْهُمْ وَيَفْتَرُ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّ

* *

فَصَدَّقَ ظُنُونًا لِي وَفِيَّ ، فَإِنِّي لِأَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ
وَمَنْ يَكُ - لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ - سَهْمِيَّةٌ فَتَقْرِيكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَكَ الْوَفْرُ (١)

هدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبي بكر
محمد بن محمد بن إبراهيم جدّه لأمه عنبا عذارى
وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحْيِيًّا عَنِّي أَعْتَذَارًا عَدَارَى دُونَهُ رِيْقُ الْعَدَارَى (٢)
تَخَالَ الشَّهْدَ مِنْهُ مَسْتَمَدًّا وَنَفَحَ الْمِسْكَ مِنْهُ مُسْتَعَارًا
يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارًا
وَلَوْ لَا أَنِّي قَدْ نَلْتُ مِنْهُ - وَلَمْ أُسْكِرْ - خَلِيتُ بِهِ عَقَارًا
بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، لَسَكَانَ مِنْ بَرِّي أِقْتِصَارًا
فَأَنْعِمَ بِالْقَبُولِ قَرَبًا نَعْمَى أَعَدْتُ بِهَا دُجَى لَيْلِي نَهَارًا .

(١) يقول : إن من كانت غايته من الدنيا أن تقبل عليه وأن ينال الغنى فإنه يظفر بهما جميعاً حين تدنيه منك وتقبل عليه .

(٢) العذارى : صنف من العنب يشبه بأصابع العذارى لطوله ، يقول : أنك يجعل تحبتي معتذراً إليك « عنب عذارى » . حلو دونه في الحلاوة ريق العذارى .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثي القاضي أبا بكر بن ذكوان . »

عَجِبَ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ وَالدَّوَلَةَ العَلِيَاءَ كَيْفَ تُدَالُ (١)
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ المُنَى إِنَّ أُغْتَرَارَكَ - بِالْمُنَى - لَضَلَالُ
مَا أَمْتَعَ الآمَالَ لَوْلَا أَنَّهَا تَعْتَاقُ - دُونَ مُبْلُوغِهَا - الآجَالَ (٢)
مَنْ سُرَّ - لَمَا عَاشَ - قَلَّ مَتَاعُهُ فَالعَيْشُ نَوْمٌ وَالسَّرُورُ خِيَالُ (٣)

* * *

فِي كُلِّ يَوْمٍ نُنْتَحَى بِرِزِيَّةٍ لِلأَرْضِ - مِنْ بُرَحَاهَا - زَلْزَالُ (٤)
إِنْ يَنْكَدِرْ بِالْأَمْسِ - نَجْمٌ تَأَقِبُ فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ (٥)
إِنَّ النَّمِيَّ « جِهَورٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » أَبْكَى العِمَامَ ، فَدَمَعُهُ مُنْثَالُ (٦)
شَكْلَانِ - إِنْ حَمَّ الحِمَامُ - تَجَاذَبَا لِأَغْرَوْ أَنْ تَتَجَاذَبَ الأشْكَالُ (٧)

(١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أعجب لهذا المجد كيف حال عن عهده وتحول ، وأعجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت . (٢) يقول : إن أحسن شيء تتمتع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تعمق دون بلوغ الآمال .

(٣) من سره العيش في هذه الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انتباه لهم ولا يقظة إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وغرورها باطل .

(٤) ننتحى : نقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .

(٥) ينكدر : ينقض ويستط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أي تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبي بكر القاضي جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكركهما في البيت التالي لهذا البيت .

(٦) النمي : كئيب الناعي ، من نهي الميت ينعاه إذا أخبر بموته ، ومنثال : من نثل الدمع وغيره استخرجه .

(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فاجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

*
* *

وَلِيَّ « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى هَوْلٌ تَقَاصَرُ - دُونَهُ - الْأَهْوَالُ
 قَرُّهُ هَوَى فِي التُّرْبِ - تُحْنِيْ فَوْقَهُ -
 قَدْ قُلْتُ - إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقْلَهُ -
 الْآنَ بَيْنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ
 مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُودَعٍ غَنَيْتَ بِهِ فِي حُسْنِهَا تَحْتَالُ (٢)

*
* *

يَا قَبْرَهُ الْعَطِرِ الثَّرَى لَا يَبْعَدُنْ حُلُوٌّ مِنَ الْفَتِيَانِ فِيكَ حَلَالُ (٣)
 مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طِيَهُ نَصَلٌ عَلَيْهِ - مِنَ الشَّبَابِ - صِقَالُ (٤)
 فَهِنَّكَ نَفَّاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شِمَالُ (٥)

(١) تحنى : تهال فوقه ، والترى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لا يلبثون خلافاً لإفليلاً » أى خلفك كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ما أفتيح الدنيا بعد هذا الراحل المودع الذى كانت

الدنيا به تختال كالعروس المستغنية بجمالها عن الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دميمة .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاربية فيه الموثوق به ، قال الشاعر :

« ألا ذهب الحلو الحلال الحلال ومن قوله حكم وعدل ونائل . »

وقال الآخر :

« رأيت رباطاً حين تم شبابه وولى شبابى ليس فى بره عتب

إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الشذى العطر ثراه لا يبعدن فيك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولاربية فى رجولته وفتوته .

(٤) ما أنت أيها القبر إلا جفن طوى فيه فتى كـنصل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر وورى فتى شمائله وطباعه تنفع بأنواع العطر مثل ما هبت بأنفاس الرياض

ريح الشمال .

دَانٍ مِّنَ الْخُلُقِ الْمُزِينِ ، نَازِحٌ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالٌ (١)
 شِيمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانَهَا كَالرَّاحِ نَافِسَ طَعْمَهَا الْجُرْيَالُ (٢)

* * *

يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالِ ، مِنْهُ وَاحِدٌ ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودِّ الْأَمْثَالُ (٣)
 تَقَصَّتْ حَيَاتِكَ حِينَ فَضْلِكَ كَامِلٌ هَلَا أَسْتُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ - كَمَالٌ (٤)
 وَدَعَّتْ عَنْ عُمُرٍ عُمُرٌ قَصِيرَهُ بِمُكَارِمِ أَعْمَارُهُنَّ طَوَالَ
 مَنْ لِلنَّدَى إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ فَاسْتَجَبَلَتْ حُلَمَاءُ هُ الْجُهَالُ (٥)
 لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ لِأَعْرَفَ فِيهِ - مَعَ الْفَتَاءِ - جَلَالُ (٦)

(١) دان : قريب من كل خاق حميد يزبه ، نازح : بعيد عن كل فعل فيه عليه لوم ومؤاخذة وعيب ، ولفظه كلفظ قول الشاعر :

« إذا أنت لم تعص الهوى فادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال . »

(٢) جريال الخمر : حرمتها الشديدة ، قال الأعشى :

« وسيئمة مما تمنق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها . »

ومعنى سلبتها جريالها - أى لونها وحرمتها - أن لونها ظهر على وجهه حين شربها ولكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، ويطلق الجريال والجريالة على الخمر نفسها ، قال ذو الرمة :

« كأنى أخو جريالة بابلية كيت تمتت في العظام شمولها . »

وقالوا في السلاف - وهو أول ما يجرى من ماء العنب من غير عصر ولونه أصفر - إنه أجود من الجريال . قال المتنبي :

« ولقد خبأت من الكلام سلافه وسقيت من نادمت من جرياله . »

ومعنى البيت الذى نحن بصددده : نافس إحسان شبيهك وخلالك حسناتها كما نافس لون الراح طعمها ، حين جمعت إلى لذة الطعم حسن اللون .

(٣) وفى الأصل : « يامن شاء . »

(٤) طابلك المنية فى الوقت الذى كمل فيه فضلك ، فهلا ندىء فى صمرك حتى تستضيف كجالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجبلت نسبتهم إلى الجهل ، والحلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لاحتهم فلم يماروك ويمجادلوك إذعانا لأعرف فيه مع فناء السن وقار وهيبة .

* * *

مَنْ لِلْعُلُومِ؟ فَقَدْ هَوَى الْعِلْمُ الَّذِي
 مِنْ الْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) - فِي أَثْنَائِهِ -
 مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ؟
 أَعَزُّ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعَى شِمَاتَةٍ
 لِبُحْبُوحِ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا
 وَسَمِتَ بِهِ أَنْوَاعَهَا الْأَغْفَالُ (١)
 إِضْحَاحُ مُظْلَمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ؟
 هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِي وَضَاعَ الْمَالُ!
 لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعَشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)
 لَيْتَ الْحَسُودَ فِدَاكَ فَهَوَ ثِفَالُ (٤)

* * *

زُرْنَاكَ لَمْ تَأْذَنْ كَأَنَّكَ غَافِلُ
 أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى
 أَيَّامَ مَنْ يَعْزِضُ عَلَيْكَ وَدَادَهُ
 مَهْمًا نُعْبِكَ لَا تُرْبِكَ وَإِنْ نَزُرُ
 هَيْهَاتَ لَا عَهْدُ - كَعَهْدِكَ - عَائِدُ
 مَا كَانَ مِنْكَ لِوَأَجِبِ إِغْفَالُ
 أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشْرُهَا سَلْسَالُ
 يَكُنِ الْقَبُولُ بِشِيرُهُ الْأَقْبَالُ
 رِفْهًا فَمَا لِزِيَارَةِ إِمْلَالُ (٥)
 إِذْ أَنْتَ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الحوض فيها لإعلى أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع فلا يوجد لاشكالها حل .

(٣) أعزز : أعظم على نفسى منعاك نعى شماتة أى يمز على ويشق على نفسى أن ينعاك الأقتال أى الأعداء نعى شماتة لأوليائك وأصفيائك .

(٤) قطب الرحى : الحديدية القائمة فى وسط الرحى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا جعل للإسلام رحى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الإسلام ، ومدار الأحكام ، والنفال ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه لبقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى رحى اليد ، قال زهير . « فتعرككم عرك الرحى بثفالها » ، والمعنى جفع الإسلام بقطب العلماء ورئيسهم وليت الحسود كان فداء لك فمركه الموت عرك الرحى فوق ثفالها أى ليت رحى الموت دارت على حاسدك وشانك .
 (٥) نعبك : الاغياب أن تزوره يوما وتغيبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، ورفها : هو من ورود الأجر ورفها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الورد ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودنا ، ولا زرنالك رفها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَأَذْهَبَ ذَهَابَ الْبُرِّ أَعْقَبَهُ الضِّيَّ
لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شِيعَتْهَا
وَالْأَمْنِ وَاقْتِ بَعْدَهُ الْآجَالُ (١)

حَيًّا حَيًّا مَثْوَاكَ ، وَأَمْتَدَّتْ عَلَى
وَأِذَا النَّسِيمُ أُعْتَلَّ فَأَعْتَمَتْ بِهِ
بِالْبُرِّ سَاعَةً تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ
**

صَاحِي ثَرَاكَ - مِنَ النَّعِيمِ - ظِلَالُ (٢)
سَاحَاتِكَ الْغَدَوَاتُ وَالْأَصَالُ (٣)
قَدَرْتُ ، فَكُلُّ مَصُونِهِ سَيِّدَالُ (٤)

سَيَّحُوطٌ مَنْ خَلَفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ
فِي حِفْظِ مَا اسْتَحْفَظْتَهُ لَا يَالُو

كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهَمْ
مَلِكٌ سَجِيئُهُ الْوَفَاءُ فَفَالَهُ

بِالْعَهْدِ - فِي ذِي خُلَّةٍ - إِخْلَالُ
قَدْ تَعَثَّرُ الْحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ

حَتْمٌ عَلَيْهِ لَعْمًا (٥) لِعَثْرَةِ حَالِهِمْ
**

إِيهَا: بَنِي ذَكْوَانَ - إِنْ غَلَبَ الْأَسَى -
فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَالُ

إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ
مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرَّبَّالُ (٦)

(١) اذهب على رغم منا ذهاب العافية جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأجل .

(٢) الحيا : المطر ، والمنوى ، القبر ، وصاحي ثراك : أى ثراك الضاحى أى البارز للشمس .

(٣) اعتمات : اختارت ، ومنه قول طرفه :

« أرى الموت يعتم الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد . »

والمعنى : اعتمات أى اختارت الغدوات والأصال ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .

(٤) أذالك : أهانك ، أى لئن اهتمتك القدر بعد طول صيانته ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر

سيذال ويهان يوماً من الأيام .

(٥) دعاء للعائر أن يقبضه الله من عثرته ، وإذا قيل « لالما للعائر » فعناها لأقاله الله من عثرته .

قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وألت نفسى من هاتا - فقولا: « لالما »

وإن تكن مدتها موصولة بالتحف ، سلطت الأسى على الأسى . »

وقال الأخطل :

« فلا هدى الله قيسا - من ضلالتهم - ولا لما لبني ذكوان إذ عثروا . »

(٦) الساهور : دائرة القمر ، والرئبال : الأسد .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله

أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعْرَفُكَ رَاحَ فِي عُرْفِ الرِّيحِ ؟ فَهَزَّ مِنَ الهَوَى عِطْفَ أُرْتِيَا حِي (١)
 وَذِكْرُكَ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابُ ؟ غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَّاحِ (٢)
 وَهَلْ أَنَا مِنْكَ فِي نَشَوَاتِ شَوْقٍ - هَفَّتْ بِالْعَقْلِ - أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ (٣)
 لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرَيْتَ زِنَادُ لَوْصِلَ مِنْكَ طَالَ لَهَا أَقْتِدَا حِي (٤)
 وَكَمْ أَسْتَقَمْتِ - مِنْ قَلْبِ صَحِيحٍ - بِسُقْمِ جُفُونِكَ الْمَرَضَى الصَّحَّاحِ

* *
* *

مَتَى أَخْفِ الْفَرَامَ يَصِفُهُ جِسْمِي بِالسِّنَةِ الضَّنَى الْخُرْمِ الْفِصَّاحِ (٥)
 فَلَوْ أَنَّ الثِّيَابَ فُحِصْنَ عَنِّي خَفَيْتُ خَفَاءَ خَصْرِكَ فِي الْوِشَّاحِ

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبة ، والعرف : بالضم واحد أعراف الرياح وهي أوائلها وأطالها ،
 والعطف : الجانب وماتنتيه إذا عطف على شيء - حذوا وإشفاقا ، وتحركه إذا هزتك أريحية ، والمعنى :
 أعرفتك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التي هبت مائجة من ناحيتك ، فتننى نحوك بماطفة الهوى والارتياح .
 (٢) غصصت : كشرقت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف في حلقه فلم يسعه ، والقراح : الماء الذي لم يخالطه
 غيره ، يقول : وهل ما تعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأجله بالماء العذب الذي لم تشبهه شائبة فلم أسفه ، وفي
 الأصل « وذكرك ما تعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوة ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهي من السكر أوائله ومقدماته ،
 وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : هفت الريح بالشيء تهفو أي ذهبت به ، والمعنى . هل أنا من أجل هواك ،
 وبسبب ذكراك ، في نشوات من ريح الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلي وأذهبت لي .

(٤) أقسم بهواك إن طول اقتداحي لزناد الوصل لم يورثاً .

(٥) في الوقت الذي أخفى فيه غرامي عن العاذلين يتم على نحو قول جسمى بالسنة المرض الخرساء المنفضحة .

لَلْقَيْنَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى رَضِينَا الرُّسُلَ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ (١)
وَرُبَّ ظَلَامٍ لَيْلٍ جَنَّ فَوْقِي فَنُبْتُ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ (٢)
فَهَلْ عَدَّتِ الْعَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي - فَدَيْتُكَ - أَوْ جَنَحْتُ إِلَى الْجُنَاحِ (٣)

*
* *

وَكَيْفَ أَلْجُ لَا يَثْنِي عِنَانِي وَرَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ (٤)
وَمِنْ سِرِّ ابْنِ «عَبَادٍ» دَلِيلٌ بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ
هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَّرَتْ خِلَالَ مَنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي
هُمَامٌ خَطٌّ - بِالْهَمَمِ السَّوَامِي - مِنْ الْعَلِيَاءِ فِي الْخِطَطِ الْفِسَاحِ (٥)
أَغْرُ إِذَا تَجَمَّهَمْ وَجْهَهُ دَهْرٍ تَبَلَّجَ فِيهِهِ كَالْقَمَرِ اللَّيَّاحِ (٦)

(١) لقد تعلمنا من الواشين حيلهم في الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصبحنا نقنع بأن تكون أنفاس الرياح بريداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومي حيث يقول :

« أبى كم لي نحوكم من تحية أهلها هبات كل جنوب
فلا تتركوا رد السلام إذا جرت شمال على نائي المحل غريب . »

(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فبنت في ظلامه عن الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من هذا قول أبي تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقاً فأقن الصباح فيه عموداً . »

(٣) لم تعد نفسي في تلك الليلة التي نعمت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف طبيعة الحب البريء مما فيه لثم علينا وجناح ، وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز :

« كم قد خلوت بها وثائنتا التقي يحمي على العيشان برد المورد . »

(٤) في هذا البيت والذي بعده تخلص من الذئب إلى المدح حيث يقول : كيف أُلج في الهوى ، وأتمادى في الفئ ، ولا يثنى عنان جامي اعتزالي الرشيد ، في حال أن لي من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل عرفت به الرشيد من الفئ ، والصلاح من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيئها ، والخطط : جمع خطة بكسر أولهما ، وهي الأرض التي يختطها لنفسه لبيئها عليها .

(٦) اللياح : بكسر وفتح أوله الأبيض المتلألئ .

سَمِعَ النَّصْرَ لِاسْتِعْدَاءِ جَارِ
 صَمُّ الْجُودِ عَنِ تَفْنِيدِ لَاحِ (١)
 ضَرَائِبُ جَهْمَةٌ - فِي الْعَتَبِ - تُثَلَّى
 بِأَخْلَاقِ لَتَى الْعُتْبِيِّ مِلَاحِ (٢)
 إِذَا أَرَجَ النَّهَاءَ الرَّوْعُ مِنْهَا
 فَكَمَّ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنْ أَفْتِضَاحِ
 هُوَ الْمُبْقِيُّ مُلُوكَ الْأَرْضِ تَدْتِي
 قُلُوبُهُمْ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ
 رَأَهُ اللَّهُ أَجُودَ بِالْعَطَايَا
 وَأَطْعَنَ بِالْمَكَائِدِ وَالرِّمَاحِ
 وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي
 وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عَرِضِ مَصُونِ
 فَرَاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ
 وَابْتَهَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السَّلَاحِ (٣)
 وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عَرِضِ مَصُونِ
 فَرَاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ
 « لِمُعْتَصِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعِيًّا
 فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا
 وَإِلَيْهِ إِتَاوَةٌ الْحَى اللَّقَاحِ (٤)
 فَاقْبَلْ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ (٥)
 فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا
 كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَّاحِ (٦)

(١) الاستعداد : الاستعانة وطلب النصرة ، والتنفيد : اللوم وتضعيف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لجاه يلجاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجايا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : طائفة من جهمة إذا استقبله بوجه كرهه ، والعتبي : الرجوع إلى ما يرضى العاتب . وفي المثل « لك العتبي ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرضيك ولا أعود إلى ما يسخطك .

(٣) أفرس : أفلت تفضيل من الفراسة بالفتح والفروسة والفروسية وهى الخنزق بركوب الخيل ، وفى المثل : أفرس من ملاعب الأسته ، وأفرس من طامر ، وأفرس من بسطام ، والمذاكي : الخيل التى أقي عليها بعد تمام السن أى - بلوغها النهاية فى الشباب - سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق الملوك باعلاء المنابر وركوب الخيل وأبهام لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الخراج وكل ما أخذ بكره أو فرض من أموال الجباية ، والحى اللقاح : فى اللسان قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابي :

« لعمر أيبك والأنباء تنمى نعم الحى فى الجسلى رباح
 أبوا دين الملوك فهم لقاح إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشئ أى جعلته يلى قبائه ووجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبوادي دانوا بالطاعة « لمتعضد » بالله أرضت مولاة مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يستقبل جهة الفلاح : (٦) إلى أرض ظاهرة .

وَمُعْتَقِدِ الرِّيَاسَةِ فِي سِوَاهُ كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَّاحٍ (١)

(١) هي « سجّاح » بنت الحرث بن سويد بن عقفان التيمية ، وكانت تسكن الجزيرة في أخوالها من بني تغلب ، فادعت النبوة وخرجت تريد غزو المدينة في عهد « أبي بكر » رضی الله عنه ، وجرت بينها وبين مسلمي قوما - من بني تميم - حروب انتهت بعجزها عما اعتزمت من الذهاب إلى المدينة لغزوها ، فأتقلت إلى اليمامة وتقاتلت مع مسيلمة ، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت في أخوالها - من بني تغلب - إلى أن تظلم « معاوية » عام المجاعة : وجاءت معهم فأسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم .

حروب الردة وقصة سجّاح ومسيلمة

وقد كتب المؤرخ « دوزي » كلمة ممتدة عن « سجّاح » و « مسيلمة » وعن حروب الردة في كتابه القيم : « تاريخ الاسلام » وقد نشرنا بعض فصوله في كتاب « مختارات كامل كيلاني » ، ونحن نجتريء منه بما يلي : كان الوقت عصيبا ، وكانت الظروف غاية في الحرج ، وقد كان موت النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر مؤذنا بالثورة في كل مكان ، ولقد كنت ترى الثائرين - في حينها ذهبت - رافدين علم الثورة والتمرد ، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا ولائهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم . وكان لا يمر يوم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين ، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم : « إن أخالف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولو أصبحت المدينة نفسها نهبا للثائرين والمتردين ولا بد لي من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم باديا . على أنه - على الحقيقة - خطر أقل مما تدل عليه ظواهره ، فان قوة الحضم الحقيقية لانقاس بما لديه من عدة ورجال بل بما عنده من قوة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها بأذلا في سبيلها النفس والنفيس . فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون ؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرار هذه الحرب ؟ أهو لإيمان وثيق متوشح في أعماق قلوبهم كما يمتهم القديم الذي كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم !

ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فانهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطبقون احتمالاه .

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماسهم ويحفزهم إلى الاتيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال ، فقد كان رؤساء القبائل المترددة أنفسهم شاعرين كل الشعور بضعف قوتهم المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيطة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخبل إليهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم ينتج إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمراً واحداً - هو سر نجاحه في بث دعوته - ذلك أنه كان مؤمنا بما يدع إليه إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذي يعوزهم ويغيره لا يتم نجاح .

أُبْحِرَ الْجُودِ - فِي يَوْمِ الْعَطَايَا - وَلَيْتَ الْبَأْسِ فِي يَوْمِ الْكِفَاحِ

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء - على ما أريق فيها من دماء غزيرة إذا قورنت بما آتاه المسلمون في غزواتهم التي عز بها الاسلام - ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتمثل فيها الانسان - غير قصد - كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية - التي مثلها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - مهزلة وعبثاً ! ألا ترى إلى مسيامة لنى مثل دور النبي صلى الله عليه وسلم في اليمامة ؟ ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشئ قرآناً سخيفاً يقلد به محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمر أنى شاءوا ، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت في « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها - على رأس جيش عظيم فإذا يصنع مسيامة ؟ ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة - وقد فعل - فأرسل إليها هدايا فاخرة ودناها إلى مدينته ، وظال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها في « مسيامة » فقالت لهم - :
 « لقد رأيته نبياً حقاً فتزوجت منه ! »
 فسألها التيميون - : « هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : « لا » فقالوا لها - :
 « حار علينا أن نزوج نبيقتنا بلا مهر ! ولن نقبل ذلك بحال ما ! »
 فأرسلت إليه بذلك - وكان « مسيامة » خائفاً متحصناً - فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له :
 « عد إلى قومك فأخبرهم أن « مسيامة بن حبيب » رسول الله قد رفع عن التيميين - من الصلوات الخمس - صلاة الصبح والعشاء »

ولقد فرح التيميون بذلك وظلوا يتبعونه حتى بعد أن طادوا إلى الاسلام من جديد .

ومن ثم ترى أن هؤلاء الثائرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلاغرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الايمان قوى الارادة صلب العزيمة لايعرف هوادة في إرغام أنوفهم ولا رحمة ! ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل - أو ضمن حيادهم على الأقل - فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم :

« إن الاسلام قانون واحد لايتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »
 وتد كان هذا الاصرار الحازم وذلك الحق الشديد - على أهل الردة - سبباً في منحه توة أكثر مما تصوره .

ولم يكذب ينتهى من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يراجه « طليحة » الذى كان بطلا من قبل وقد جاء يدعى النبوة كغيره ثم جين عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب - وهو بعيد من الميدان - مدثراً في عباءته

لَقَدْ سَفَرَتْ بِعِلَّتِكَ اللَّيَالِي لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةِ وَقَاحٍ ۱)

كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلاً ثم وقعت المعجزة - إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام - وحينئذ صاح في جنده « احتذوا حذوى إن استطعتم . » ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمن في فراره .



وكانت تلك المعركة التي اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة ، وفي الحق أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب كانت أكثر مما أريق في تلك الحروب الطاحنة التي نشبت - فيما بعد - بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقرت العرب من الفطاح في هذه الحرب « حرب الردة » شعاعاً لم يعرفها الاسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه وسكوا به . لأن الردة جزاؤها القتل ، لاهوادة في ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله - :
« عليك بآبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة فيهم قط »



ولقد انهزم أصحاب « مسيلة » - وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل - ومزقهم المسلمون شرّ مزق ، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء ا
ولكن الاسلام قد خرج من تلك المارك - الناشبة في كل مكان - مؤيداً منصوراً ، ودان به العرب بعد ذلك . - طوعاً أو كرها - فقد أقتنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامي ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن فاعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لا تجدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكذبهم انتصار أبي بكر حتى وجه هؤلاء البدو الضامنين إلى السماء ، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية ، وهذا العمل - عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها - جراً وتهور ، ولكنه - على الحقيقة - رزاة وتعلل .

ولمّا سار أبو بكر في هذا على خطة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يتبعها ، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالاسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم .



وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، وقد كان عقاب الردة اقل ، ومن هنا تظاهر الناس بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ونحن - إذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب - لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية في القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا - حتى بعد مضي قرن من الهجرة - لا يعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر . أما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ما تحدثوا عن الاسلام أو شنلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحنين .

(١) وقاح : صلبة الوجه لاجياء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لاجياء فيه ، والأنتي وقاح بغير هاء .

أَلَسْتَ مُصِحِّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِي حُسْنِ أَوْجُهَهَا الصَّبَاحِ
وَلَوْ كَشَفْتَ - عَنِ الصَّفَحَاتِ - شَامَتَ بُرُوقَ الْمَوْتِ مِنْ بِيضِ الصَّفَاحِ (١)

* * *

وَقَاكَ اللَّهُ مَا تَخْشَى وَوَالِيَّ عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ الْمُنْدَى الْمِرَاحِ (٢)
قَالُوا أَنْ السَّعَادَةَ سَوَّغْتَنَا تَجَمَّرَتْهَا الْمِلْثَةَ بِالرَّيَاحِ
تَجَافَيْنَا عَيْدِكَ عَنْ نَفُوسِ - عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى - حَرَى شِحَاحِ (٣)
سَهْنًا فِيكَ بِالْبُرءِ الْمَوْفَى وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالْأَلَمِ الْمِرَاحِ

* * *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُورٍ - لَدَيْكَ - وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طَمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِي بِسَاعَاتِ الْمُنَى رَفُلُ الْمِرَاحِ (٤)
وَأَنِي - مِنْ ظِلَالِكَ - فِي زَمَانِ نَدَى الْأَصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِي
تُحْيِيَنِي بِرَيْحَانِ التَّحْنِي وَتُصْبِحُنِي مُعْتَقَةً السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ تَمَلْتُ مِنَ الْأَيْدِي إِذِ اتَّصَلَ أُغْتَبَاقِي فِي أَصْطَبَاحِي

(١) لو كسفت هذه الياالي ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لشامت سيوف بأس للمدوح تلمع يبروق موت وهلاك تلك الياالي التي فاجأتنا بمرضه ، بعد أن أصحها من كل داء وخلع عليها من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقاك الله ماتخشي من عارض المرض وعصمك من كل محذور ومخوف ، وتمهدك بجميل صنعه المندى المراح أى الذى يجعله يندو عليك فى أول النهار ، ويروح فى آخره ، فلا يقبك صنيعه ، ولا يتخلف عنك إحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحة من الشح وهو البخل .

(٤) الرفل : جر الذيل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أنى من فارقت من فتیان « قرطبة » أنى

أجر ذيل مرح وأرفل فى ثياب النعمة وغضارة العيش .

(٥) التحنى : الحفاوة ، والسماح : الجود .

فَإِنْ أَعْجَزْ فَإِنَّ النُّصْحَ تَقَفْ وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا كَسَبْتَ قَدْرِي مِنْ سَنَاءِ وَمَا لَقَيْتَ سَعْيِي مِنْ نَجَاحِ

* * *

لَقَدْ أَنْفَذْتَ - فِي الْأَمَالِ - حُكْمِي وَأَجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى أَقْتِرَاحِي
وَهَلْ أَخْشَى وَفُوعًا - دُونَ حَظِّ - إِذَا مَا أَتَّ رِيْشُكَ مِنْ جَنَاحِي
فَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ غَيْمِ جَهَامِ وَلَا اسْتَرَوَيْتُ مِنْ زَنْدِ شِحَاحِ
وَوَاصَ لِمَنِي جَمِيلُكَ - فِي مَعِي - وَطَالَعَنِي نَدَاكَ مَعَ أَهْتِرَاحِي
وَلَمْ أَنْفَكْ - إِذْ عَدَّتِ الْعَوَادِي - إِلَيْكَ رَهَيْنَ شَوْقِ وَالْتِيَاحِ
فَحَسْبِي أَنْتَ - مِنْ مُسَدِّ لِنُعْمِي - وَحَسْبُكَ بِي بِشُكْرِ وَأَمْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ،

فبدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَةً وَقَدَّتْ خَيْرَ وَافِدَةٍ
وَجَدَّتْ سُوقَ ذَوْبَهَا - عِنْدَ تَقْوَاكَ - كَاسِدَةٍ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجُمُودِ دِ وَجَاءَتْ مُكَابِدَةٍ

والقطعة التي بعثت هي هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولِ فِي الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ وَلَمْ تَنْلَ حَظَّ الْقَبُولِ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَالَةً وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لِأَحْوِيلٍ (١)

لَوْلَا انْقِلَابُ الْعَيْنِ سُدَّتْ دُونَ بُغَيْتِهَا السَّبِيلُ (٢)

لَهَجَرَتْهَا صَفْرَاءُ فِي بَيْضَاءَ هَاجَرُهَا قَلِيلٌ

الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحَى وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الْأَصِيلِ

آثَرَتْ عَائِدَةَ الثُّقَى وَرَغِبْتَ فِي الْأَجْرِ الْجَزِيلِ

يَأْيُهَا الْمَلِكُ الَّذِي مَا فِي الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلٌ

يَا مَاءَ مَزْنٍ ، يَا شِهَا بَ دُجَيْتَةٍ (٣) ، يَا لَيْثَ غَيْلِ

يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُودَ دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلِ

بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٌ فِي ظِلِّ إِقْبَالِ ظَلِيلِ

رَقَّتْ كَمَا سَالَ الْعِدَا رُ بِجَانِبِ الْخَدِّ الْأَسِيلِ

وَتَأَوَّدَتْ كَالْغُضَنِ قَا بَلَّ عِطْفَةً نَفَسَ الْقَبُولِ (٤)

يُضِي مَقْبَلُهَا الشَّهِي وَحَظُّهَا السَّاجِي الْعَلِيلِ

فَتَمَلَّهَا (٥) فِي الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءَ وَالْعُمُرِ الطَّوِيلِ

(١) الحويل : الخيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومحالة ، قال دؤاد يعاتب زوجته :

« حاولت - حين صرمتني - والمرء بعجز لا اماله »

والدهر يلعب بالفق والدهر أروغ من ثماله

والمرء يكسب ماله بالشح ، يورثه السكالة .

وفي المثل المشهور : « المرء يعجز لا المحالة » أو « لامحالة » في رواية أخرى ، أي لاتضيق مخارج الأمور

إلا على العاجز الذي لا يعرف وجوه الخيل . ويقال : احتال وتحيل وتحول ، قال أبو العلاء :

« لا يعجبك خطيب - قام في ملا بخطبة زات معناها وطولها

فما العظات - وإن راعت - سوى حيل من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة اسدت دون ما تبنيه من إهداء نفسها إليك السبيل

لأنك لا تبيع لها أن تزور مجلسك وهي ذائبة . (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة : الظلمة والغم المطبق

الريان المظلم لا مطر فيه . يقول : إنك نور تبدد الدياجي والظلمات .

(٤) القبول : ربح الصبا ، قالوا وذلك بأنها تقابل الدبور . (٥) إنعم بها .

شكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد
ابن المعتض بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد
شرفه بالعبادة في بعض علاله . »

لَسْتُ بِالْجَاحِدِ آلاءَ الْعِلَلِ كَمَ لَهَا مِنْ أَلْمٍ يُدْنِي الْأَمَلَ
أَجْتَلِي - مِنْ أَجْلِهَا - بَدَرَ الْعَلَا مُشْرِقًا فِي مَنْزِلِي حِينَ كَمَلَ
حُلَّةُ الْبَسِّ عَيْنِي فَخَرَهَا فَأَعْتَدْتُ تَرْفُلًا فِي أَبْهَى الْحُلَلِ
رَفَّ بِشْرِ الْأَفْقِ فِي عَيْنِي لَهَا لَا لِأَنَّ السَّمْسَ حَلَّتْ فِي الْحَمَلِ (١)
مَا أَبَالِي مِنْ زَمَانِي بَعْدَهَا - إِذْ أَصَحَّ النَّفْسَ - إِنْ جِسْمِي أَعَلَ (٢)

أَيُّهَا الْمَوْلَى لَقَدْ حُمِلْتُ مَا لَمْ يَدْعَ فِي وَسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلٍ
وَضَحَّ الطَّوْقُ الَّذِي حَلَّيْتَنِي قَرَاءَتُهُ نَفُوسٌ لَا مُقَلَّ (٣)
أَنَا لَوْ طَوَّقْتُ مِنْهُ بَدَلًا أَنْجُمَ الْجَوَازِءِ لَمْ أَرْضَ الْبَدَلَ
كَمْ مَرَادِي - مِنْ نَعْمَائِكُمْ - وَارِفِ الظِّلِّ وَكَمْ وَرِدِ عِلَلٍ (٤)
لَا تَرَلْ دَوْلَتِكُمْ مَبْسُوطَةً بَسْطَةً فِي طَيْهَا قَبْضُ الدُّوَلِ
وَرَأَى الْمُعْتَضِدُ الْمَنْصُورُ مَا أَنْبَأْتَهُ فِيكَ لَيْتُ أَوْ لَعَلَّ
فَسَتَلْقَاهُ اللَّيَالِي طَلْقَةً بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جَمَلٍ (٥)

(١) الحمل : برج في السماء من البروج الربيعية ، يقول إن الأتقى أشرق بنوره وازدان بيهانه لايهيه الشمس التي حلت في برج الحمل .

(٢) يقول : لا أبالي بعد أن صحت نفسي بزيارته وتأثيره منزلي إن أمرض الدهر جسمي .

(٣) يقول : إن إحسانك الذي طوَّقْتُ به عنقي قد وضح للنفوس لالعيون . وفي الأصل : تماءته من مأي في الشيء يماى مايا بالغ وتماى الجلد إذا مددته، وقد سبق له هذا المعنى في قوله :

« يا هلالا تقرأ . نفوس لاعيون . » انظر صفحة ٣٩ .

(٤) العلل : الشرب الثاني ويقال علل بعد نهل أي شرب ثان بعد شرب أول أي أنه ورد حياض كرمه

مرة بعد أخرى . (٥) أي سينيله الدهر جملة أمانيه المنفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئة

« وقال يهنيه أيده الله بقدم وإبلال » .

أَقْدَمَ كَمَا قَدِمَ الرَّبِيعُ الْبَاكِرُ
 قَسَمًا لَقَدْ وَفَى الْمُنَى وَنَفَى الْأَسَى
 لِيُسْرًا مُكْتَتِبٌ وَيُعْفَى سَاهِرٌ
 قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ - عَقِيبَ مُطِيفَةٍ -
 وَأَطْلَعُ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ
 مَنَ أُقْدَمَ الْبَشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ
 وَيَرَّاحَ مُرْتَقِبٌ وَيُوفَى نَاذِرُ
 غَشِيَتْ كَمَا غَشَى السَّبِيلَ الْعَابِرُ (١)
 فَلَرُبَّمَا وَعِكَ الْهَزْبُ الْخَادِرُ (٢)
 لَبَسَ الْفِرَ نَدَبَهَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٣)
 شُكْرُهُ يُجَاذِبُهُ الْخَطِيبَ الشَّاعِرُ
 فَكَذَلِكَ أَيْمَنَ مِنْ قَفُولِكَ (٤) طَائِرُ
 وَاللَّيْلُ مِسْكٌ مِنْ خِلَالِكَ - عَاطِرُ
 حَذَرِي لِذَلِكَ النَّقْدِ فِيهَا عَازِرُ
 صَفَتِ الْقَرِيحَةَ وَأَسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)
 لَوْلَا تُقَاكَ لَقُلْتُ : إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)
 فَالْتَحَلُّ يُحْرِزُ مُجْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

- (١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطافت بك وغشيتك غشيان طبر سبيل .
 (٢) الوطك : الحمى أو ألمها والموعوك المحوم ، والخادر : الفاتر الكسلان ، والأسد الخادر : القيم في خدره أي الذي لزم عربته . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة عاد بعدها الحسام إلى جلاله ورواقه .
 (٤) رجوعك . (٥) الصريمة : العزيمة ، يقال : « هو رجل ذو صريمة وصرائم » أي ذو عزيمة ، يقول : إني هجرت قبل قدمك الشعر هجرا صارما قاطعاً ، وعذري في ذلك واضح وهو ما كتبت أحذره من ذلك النقد الذي يتعرض له شعري ، أما الآن فقد صفت القريحة لأوبتك بارئاً . (٦) يقول كنت اعتزمت هجراً بشعر حتى إذ أنس خاطري بإبابك من سننك صفت قريحتي وشخذ فكري ففتحت أممي طرق الشعر .
 (٧) يقول إنك أهمت العبي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقي لانهمتك بالسر في ذلك . وفي الأصل : « عي رددت إلى البلاغة عينه . »

(٨) يقال لفح النخلة وأفحها وأفح الفحل النافذة أهلها ، وألقت الريح الشجر والسحاب أحملتها ، والواقع من الرياح : التي تحمل الندى ثم تتجمه في السحاب فاذا اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لفت ذهني - كما يلفح الزارع النخلة - فأني بأحسن التمر وأشواه ، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك غارسه ومنتجده .

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ - غِيبَ ذِكْرِكَ - فَأَنْتَشَى مُتَدَكِّرٍ مَنِي وَغَرَدَ شَاكِرٍ (١)

يَأْيَاهَا الْمَلِكُ الَّذِي عَلَيَاؤُهُ * * * مَثَلٌ - تَتَأَقَلُهُ اللَّيَالِي - سَأُرُّ
يَا مَنْ لِبَرَقِ الْبَشْرِ مِنْهُ تَهَلُّهُ مَا شِيمَ إِلَّا أَنْهَلَّ جُودٌ هَامِرٌ
أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَّدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهَوَ مِنْهَا نَاطِرٌ
مَلِكٌ أَعْرُ أُرْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللَّهِ مِنْهُ نَاصِرٌ
أَبْنَاكَ فِي ثَبَجِ الْمَجْرَةِ قُبَّةٌ فَهَنَّاكَ أَنْكَ لِلنُّجُومِ مُخَاصِرٌ (٢)
وَتَلَقَّ - مِنْ سِمْتِيكَ - صِدْقَ تَفَاؤُلِي فَهَمَّا « الْمُوَيْدُ » بِالْإِلَهِ « الظَّافِرُ » (٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت
غيبته في بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأَهْدِي النَّفْسَ فِي نَفْسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشْوِيقُ عَن خِيَالِ
إِلَى الشَّنَنِ الْعَزَائِمِ - إِنْ أَثِيرَتْ حَفِيظَتُهُ - إِلَى اللَّذَنِ ائْتَلَالِ (٤)
إِلَى الْوَصَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِي ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِي ،
إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَبَّلِي بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ
إِلَى مَنْ لَا مَشِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَأَ فِي السَّرْجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ
هَدِيَّةٌ مِنْ - لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ سَنَى مُنَاهُ - هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخِيَالِ
فَكَمْ بَوَّأْتَنِي سَاحَاتِ نُعْمَى عَذَابِ الْوَرْدِ وَارْفَةِ الظَّلَالِ

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا نمت من نشوة الفرح وغردت بالثناء عليك . وفي الأصل :
« وعربد شاكر . » (٢) تيج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتخاصر : أي تمشي إلى جنبها ،
يقول : « لقد بنى لك أبوك قبة في ذروة المجرة فهيننا لك هذا المقام الرفيع الذي تخاصر فيه النجوم في عليائها . »
(٣) يقول : تقي بتفاؤلي فيك فسيحقق الله صدق لفيك وهما المؤيد والنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك .
(٤) إلى ذي العزيمة القوية إن هاجه مثير والخلال المرضية السمحة إذا لاينه سالم ، وقرب من هذا
قول ابن دريد :

إلى أبي القاسم

« كتب إلى أبي القاسم بن رفق »

عِدْرِي^(١) - إِنْ عَدَلْتِ فِي خَلْعِ عُدْرِي^(٢) - غُصْنٌ أُمُتَتْ ذُرَاهُ بِيَدْرِ^(٣)
 هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا - وَتَجَافَى - عَنِ الْوِشَاحِ - بِشَطْرِ
 رَشَاءٍ أَفْصَدَ^(٤) الْجَوَانِحَ قَصْدًا - عَنِ جُفُونِ كُحْلِنَ - عَمْدًا - بِسِحْرِ
 كُسْبِي الْحُسْنِ فَهَوَّ يَفْتَنُ فِيهِ - سَاحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبِكِ^(٥)
 تَحْتَ ظِلِّ - مِنَ الْغَرَارَةِ - فِينَا - نَ وَوُزْقٍ^(٦) مِنَ الشَّبِيبَةِ نُضِرَ
 أَبْرَزَ الْجَيْدِ فِي غَلَائِلِ بِيضٍ - وَجَلَّا الْخَدَّ فِي مَجَاسِدِ حُمْرٍ^(٧)
 وَتَنَّتْ بِعِطْفِهِ - إِذْ تَهَادَى - خَطْرَةٌ تَمْرِجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ
 زَارِنِي - بَعْدَ هَجْعَةٍ - وَالثَّرِيَا - رَاحَةٌ تَقْدِرُ^(٨) الظَّلَامَ بِشِبْرِ
 وَالذُّجَا - مِنْ نُجُومِهِ - فِي عَقُودٍ - يَتَلَاوَنَ مِنْ سِمَاكِ وَنَسْرِ
 تَحْسَبُ الْأَفْقَ يَنْهَاهَا لِأَزُورِدَا - تُبْرِتُ - فَوْقَهُ - دَنَانِيرُ تَبْرِ
 فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْدَبَ رَشْفٍ - وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ الْطَفَّ هَصْرِ

(١) عذر - جمع عنزة بالكسر - أي معاذير . (٢) عذر : بضم أوله وثانيه جمع عذار وهو

الحياء ، وخلق العذار أي ترك الحياء .

(٣) يقول لاني إذا خلعت عذارى في الهوى فان معاذيري واضحة نقد فتني قوامه المياد الذي يشبه الغصن

ووجهه المضي كالبدر . (٤) يقال أفصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : السترسل ، والمسبكر كل شيء امتد وطال .

(٦) الورق الحائم التي يضرب لونها إلى خضرة ، قال جرير العود :

« وكان فؤادي قد صحا ، ثم هاجني حائم ورق بالمدينة هتف . »

(٧) المجاسد - جمع مجسد - وهو الفميص الذي يلي البدن ، قال ابن الأعرابي : « ولا تخرجن إلى

المساجد بالمجاسد » (٨) تقيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفِّ جِسْمِ بِجِسْمِ - لِلتَّصَافِي - وَقَرَعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ
يَالهَا ! لَيْسَةَ تَجَلَّى دُجَاهَا - مِنْ سَنَا وَجَنَّتِيهِ - عَنْ ضَوْءِ جَفْرِ
قَصَرَ الوَصْلُ عُمْرَهَا، وَبُوْدَى أَنْ يَطْوَلَ القَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِي

*
**

مَنْ عَذِيرِي مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ خَثُونٍ - كَلَّ يَوْمٍ - أَرَأَيْتَ مِنْهُ بِغَدْرِ
كَلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلَامِي » نَهَسْتَنِي مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِي (١)
وَتَرْتَنِي خُطُوبُهُ فِي صَفِيٍّ فَاضِلٍ نَابِهِ - مِنْ الدَّهْرِ - وَتَرِ (٢)
بَانَ عَنِّي - وَكَانَ رَوْضَةَ عَيْنِي - فَعَدَا اليَوْمَ وَهُوَ رَوْضَةُ فِكْرِي (٣)
فَكَهْ يُبْهِجُ الخَلِيلَ بِوَجْهِهِ تَرْدُ العَيْنِ مِنْهُ يَنْبُوعَ بِشْرِ
لُوذَعِي - إِنْ يَبْلُهُ الخُبْرُ يَوْمًا - أَخْجَلَ الوَرْدَ عَنْ خَلَاقِ زَهْرٍ
وَإِذَا غَازَلْتَهُ مُقَلَّةٌ طَرْفٍ كَادَ مِنْ رِقَّةٍ يَدُوبُ - فَيَجْرِي (٤)

*
**

يَا « أَبَا القَائِمِ » الَّذِي كَانَ رِدْئِي وَظَهِيرِي - عَلَى الزَّمَانِ - وَذُخْرِي

(١) حاك : رسخ أو أثر فيه ، ونهستني : عضتني ، يقول : « كلما قلت إن زمني قد اراعوى وأثر فيه عتاي ظهر لي خطأي في ظني وعضتني عقارب لوم تدب إلى تسري في الظلام من عقارب دهرى » ولله در أبو العلاء إذ يقول في الزمن :

« وَغِيظُ بِنُوهِ مِنْهُ ، وَغِيظُ مِنْهُمْ فَعَدَّ ذَبَّ سَاكِنِيهِ وَءَدَّ ذُبُوهُ

وَمَا يَجْنِي الوَعِيدَ فَيُوعِدُوهُ وَلَا يَرَى العِتَابَ فَيُعْتَبُوهُ

أَسَاءَ - بِجَهْلِهِ - أَدْبَا عَلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ فَيُؤَدِّبُوهُ . »

(٢) وتر : فذ . (٣) كنت أراه أمامي فتنعم به عيناى واليوم لا أراه - بعد نأيه - فأصبح

ينعم خاطري بذكراه .

(٤) يقول إنه كاد من رفته يسيل . وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومي :

« أَيْضِي مِغْنِي خَشْتِ الشَّمَائِلِ - لَوْ نَفِضَا عَنْهُ غَلَاكُ - حِسَاهُ الحَاسِي . »

يَا أَحَقَّ الْوَرَى بِمَمْحُوضِ إِخْلَا صِي وَأَوْلَاهُمْ بِغَايَةِ شُكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي - مِنْ تَنَائِيكَ - بِجَهْمٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُكْرِي

* * *

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ بِمُجْدِي عَلَى الْفَتَى : «لَيْتَ شِعْرِي» (١)
هَلْ لِحَالِي زَمَانًا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانًا مِنْ مَكْرٍ ؟

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيْالٍ كَرِيَاضِ لَيْسَنَ أَفْوَافِ زَهْرِي
وَزَمَانُ كَأَنَّهَا دَبَّ فِيهِ وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرَطُ سُكْرِي
حِينَ نَعْدُو إِلَى جَدَاوِلِ زُرْقِي يَتَغَلَّغْنَ فِي حَادِئِ خُضْرِي
فِي هِضَابٍ - مَجْلُوءَةِ الْحُسْنِ - مُهْرِي مَصْقُولَةِ النَّبْتِ - عُفْرِي
تَتَعَاطَى الشَّمُولَ - مُذْهَبَةَ السَّرِّ بَالٍ - وَالْجَوْ فِي مَطَارِفِ (٢) غُبْرِي
فِي فُتُو (٣) تَوَشَّحُوا بِالْمَعَالِي وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مُجْدِي وَفَخْرِي
وُضِعَ تَنْجَلِي الْغِيَاهِبِ مِنْهُمْ عَنَ وَجُوهِ - مِثْلَ الْمَصَائِيحِ - غُرِّي
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُ ظَرْفًا زَانَ مَرَأَى بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِي (٤)

(١) يقول «ليت شعري»، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية، قال ابن الرومي :

« يا ليت شعري وليت غير مجدية لإلاستراحة قلب وهو اسوان . »

وقال الشاعر :

« ليت وهل ينفع شيئا « ليت » ليت شبابا بيع فالشريت . »

(٢) مطارف - جمع مطرف بضم الميم وكسرهما - مع فتح الراء في كليهما - : رداء مربع من خز ذو أعلام . (٣) فتو - جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .

(٤) الحرق : من الفتيان الظريف في ساحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« محض حالي نفع المسك عرفها طيب نشر . »

وقد أثبتناه كما ورد ناقصاً بالأصل .

وَسَجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُفُوسٌ
أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ
يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِنِّي قَبُولٌ
كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا أَرْتَاحَ صَدْرِي
فَهُوَ يَسْرِي مُحْمَلًا - مِنْ سَجَايَا
كُ - نَسِيمًا يُرْهِى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

* *
* *

يَا خَلِيلِي وَوَاحِدِي وَالْمَعْلَى
لَا يَضَعُ وَدِّي الصَّرِيحُ الَّذِي أَرُ
وَتَوَالِي أَدِمَّةٍ نَظَمْتَنَا
لَا يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْوُدَّ
وَأَعِدْ - بِالْجَوَابِ - دَوْلَةَ أَنَسٍ
وَأَكْسُ مَثَنَ الْقِرْطَاسِ دِيْبَاجَ لَفْظِي
عُرْرٌ مِنْ بَدَائِعِ لَا يَشْكُ
تَتَوَالِي عَلَى الثُّفُوسِ دِرَاكًا
شَدَّ فِي حَلْبَةِ الْبَلَاغَةِ حَتَّى
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْجَلْ جَوَابِي
فَأَبْقَ - فِي ذِمَّةِ السَّلَامَةِ - مَا أُنْجَا
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَا غَنَّتِ الْوُرُ * قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ (٥)

(١) أى الفصح المعلى . (٢) يقول : لا يكن قصاراك الجفاء فان قصاراى الوداد أى لا تكن

فاينك قطيعتى فان غابتي وصلك .

(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات تتعلل بها .

(٤) إذ لم تمجل بارسال الرد على كتابى كان هذا آخر كتاب أبعث به إليك .

(٥) السدر : شجر النبق يقول : « تحببى إليك كلما غنت الحمام ومالت بها أفصان الشجر . »

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون في هذه القصيدة أكثر

الآيات السابقة التي ذكرناها في ص « ١٤٠ »

من هذا الديوان .

هُوَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ
فَمَنْ شِيمَ الأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهَا - الصَّبْرُ
سَتَصْبِرُ صَبْرَ اليَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةِ
فَلَا تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِي مَعَهُ وِزْرُ
حِذَارِكَ مِنْ أَنْ يُعْقَبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً
يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ أَخْلَاقِكَ - العُدْرُ
إِذَا أَسِفَ الشُّكْلَ اللَّيْبُ فَشَفَهُ
رَأَى أَبْرَحَ الشُّكْلَيْنِ أَنْ يُحْبَطَ الأَجْرُ
مُصَابُ الَّذِي يَأْسَى بِمَيْتِ ثَوَابِهِ
هُوَ البَّرْحُ لِأَمَيْتِ الَّذِي أَحْرَزَ القَبْرُ

*
**

حَيَاةُ الوَرَى نَهَجٌ إِلَى المَوْتِ مَهِيْعٌ
لَهُمْ فِيهِ إِضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ
فِيهَا هَادِي المِنَاجِ جُورَتٌ فَإِنَّمَا
هُوَ الفَجْرُ يَهْدِيكَ الصَّرَاطُ أَوْ البَجْرُ
كُنَّا - فِي سِوَانَا - عِبْرَةٌ غَيْرَ أَنَّنَا
نُعْرُ بِأَطْمَاعِ الأَمَانِي فَتَفْتَرُ
إِذَا المَوْتُ أَضْحَى قَصَرَ كُلُّ مُعَمَّرٍ
فَإِنَّ سِوَاءَ طَالَ أَوْ قَصَرَ العُمُرُ

*
**

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ رِبْعَ ذِمَارُهُ
فَلَمْ يُعْنِ أَنْصَارُهُ عَدِيدُهُ وَلَا وَفْرُهُ
بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ المُلْكُ ثَانِي عِطْفِهِ
وَجَرَّرَ مِنْ أذْيَالِهِ العَسْكَرُ المَجْرُ
هُوَ الضَّمِيمُ لَوْ غَيْرَ القَضَاءِ يَرُومُهُ
شَاءَ المَرَامُ الصَّعْبُ وَالمَسَلْكُ الوَعْرُ

إِذَا عَتَرَتْ جُرْدُ السَّوَابِحِ فِي الْقَنَا
لَقَدْ بَكَرَ الذَّاعِي عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ
بِدَلِيلِ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُهُ
عَوَانٍ أَمْضَتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُهُ

* * *

أَنْفَسُ نَفْسٍ فِي الْوَرَى - أَقْصَدَ الرَّدَى؟
هَنِئْنَا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أَنْسٌ مُجَدَّدٌ
وَأَخْطَرُ عِلْقٍ - لِلْهُدَى - أَهْلَكَ الدَّهْرُ؟
بِشَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظُّهْرُ
بِطَاهِرَةِ الْأَنْوَابِ ، قَاتَتِ الضُّحَى
مَسْبَحَةَ الْآنَاءِ ، مَحْرَابَهَا الْخِذْرُ
فَإِنْ أُثْبِتَتْ فَالْنَفْسُ أَنْأَى نَفِيسَةٍ
إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِنَدِّ كَبِيرِهِ ذِكْرُ
حَصَانٍ - إِنْ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا -
فَمَنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضِحُ الْجَهْرُ
يُطَاطَأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا
فَيَرْفَعُ - عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا - السِّتْرُ

* * *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ الثَّرَى
عَلَيْهَا سَلَامٌ اللَّهُ تَتَرَى تَحِيَّةً
لَقَدْ أَدْرَجْتَ - أَثْنَاءَ هَا - النِّعَمُ الْخَضْرُ
يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانَ رِيحَانِهَا النَّضْرُ
وَإِذَا اسْتَعْبَرْتَ فِي تَرْبِهَا أَبْتَسَمَ الزَّهْرُ
عَاهَدَ تِلْكَ الْأَرْضَ عَهْدُ غَمَامَةٍ

* * *

فَدَيْنَاكَ ، إِنْ الرُّزْءُ كَانَ غَمَامَةً
أَلَسْتَ الَّذِي - إِنْ صَاقَ ذَرْعٌ بِمَجَادِيثِ -
طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهَ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
تَعَزَّ بِحَوَاءِ - الَّتِي الْخَلْقُ نَسَلُهَا -
فَمَنْ دُونَهَا فِي الْعَصْرِ يَتَّبِعُهُ الْعَصْرُ
نِسَاءَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى أُمَّهَاتِنَا
ثَوَيْنَ فَمَغْنَاهُنَّ - مُذْ حُتْبٍ - قَفْرُ
تَحَقَّقِي بِهَا ابْنُ كُلِّ أَفْعَالِهِ بِرُ
وَجَازِيَتَهَا الْحُسْنَى ، فَأَمُّ شَفِيقَةٍ

تَمَّتْ وَفَاةٌ - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا
كَانَ الرَّدَى نَذْرًا عَلَيْهَا مَوْكَدًا
تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ - مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا -
تَمُّ بِهِ النُّعْمَى ، وَتَتَسَّقُ الْمُنَى ،
فَلَا تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا
وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقِرَّةِ

* *
* *

بَنِي « جَهْوَرِ » أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاةِ
تَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَنَكْمُ يَمِينُهُ
لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ
سَحَابٌ نَعْمَى أُرْقَتْ وَتَدَفَّقَتْ
إِذَا مَا ذُكِرْتُمْ ، وَأَسْتَشِفَّتْ خِلَالَكُمْ
طَرِيقَتَكُمْ مُثَلًى ، وَهَدَيْكُمْ رِضَى
وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ - أَجَبْتُهُ
عَطَاءً وَلَا مَنْ ، وَحُكْمٌ وَلَا هَوَى
قَدْ اسْتَوْفَتِ النِّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا

لِعَافِيكُمْ - فِي أَفْقِهَا - أُنْجُمُ زُهْرُ
وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا تَعْرُ
حُسَامٌ عَلَيْهِ - مِنْ طَلَاقِهِ - أَثْرُ
فَصِيْبَهَا الْجَدْوَى ، وَبَارِقَهَا الْبِشْرُ
تَضَوَّعَتِ الْأَخْبَارُ ، وَأَسْتَمَجَدَ الْخَبْرُ
وَنَائِلُكُمْ حَمْرٌ ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرُ
هُنَاكَ الْأَيْدِي الشَّفْعُ وَالسُّودْدُ الْوِثْرُ
وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلَا كِبْرُ
عَلَيْنَا ، فِنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

في مدح ابن جهور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلٌ ، إِنْ لَيْتَ حَيْثُ أَحْيَاوْهَا الْأَسْدُ مَهَاةٌ حَمْتَهَا - فِي مَرَاتِعِهَا - أُسْدُ (١)
يَمَانِيَةٌ تَدْنُو وَيَنَائِي مَزَارُهَا فَسَيَّانٍ مِنْهَا فِي الْهُوَى الْقُرْبُ وَالْبَعْدُ (٢)
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرْدٌ « مَارِدٌ » وَعَزٌّ - فَلَمْ تَظْفَرْ بِهِ - « الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)
تَحْوُلُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ أَعْتِيَادِهَا وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ
لِحَى لِقَاحٍ تَأْتَفُ الضَّمِيمِ مِنْهُمْ جَحَاجِحَةٌ شَيْبٌ وَصِيَابَةٌ مُرْدُ (٤)
أَبٌ ذُو أَعْتِرَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسْرُعٍ فَشَيْحَانُ مَاضِي الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكٌ جَلْدُ
فَمَا شِيمَ مِنْ ذِي الْهَبَةِ الصَّارِمِ الشَّبَا وَلَا حُطَّ عَنْ ذِي الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللَّبْدُ

* *
* *

وَفِي الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءِ وَسَطَ قِبَابِهِمْ فَتَاةٌ كَمِثْلِ الْبَدْرِ قَابِلُهُ السَّعْدُ

(١) الأسد : لغة في الأزدي ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ابني من قبيلة الأزدي وهي طيبة تحمينا
الأسود وتزود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبعدها سيان لأن وصلها - على القرب ، والبعد - بعيد المنال ، وما أجل
قول المعري :

« فيادارها بالخيف ، إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال . »

(٣) الأبلق الفرد : حصن السمور بن طاديا بناه أبوه . قالوا بل بناه سليمان - عليه السلام - بأرض
تيماء ، وتصدته الزباء فجزت عنه وعن مارد ، فقالوا : « تمرد مارد ، وعز الأبلق . » وفي هذا الحصن
يقول السمورل - من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحتله من نجيره منبع ، يرد الطرف وهو كليل

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز - على من رامه - ويطول . »

(٤) الحى اللقاح : دم الذئب لا يدينون للملوك ولا يؤدون لهم الاتاة ، والججاجحة : جمع ججاج ، وهو
السيد السمح أو هو الكريم وهو وصف خاص بالرجال ، قال الشاعر : « بيض غطرفة غلب ججاجحة . »
ويجمع أيضاً على ججاج ، قال ابن الزبيرى :

« ماذا يسدر فالعقنقل من مرازية ججاج . »

صياغة القوم وصوابهم : لباهم .

عَقِيلَةٌ سِرْبٍ لَا الْأَرَاكَ مَرَادُهُ (١)
 تَهَادَى فَيُضْدِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ
 إِذَا اسْتَحْفِظْتَ سِرَّ الشَّرَى جُنْحَ لَيْلِيهَا
 لَهَا عِدَةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غَيْبَهَا
 عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خِيَالَهَا
 كَفَى لَوَاعَةً أَنْ الْوِصَالَ نَسِيئَةٌ
 سَدَّبَلِغُهَا عَنَا الشَّمَالُ تَحِيَّةٌ
 فَمَا نُسِيَ الْإِلْفُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا

*
* *

لَنْ قِيلَ : « فِي الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » لَقَلَّ غَنَاؤُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ (٧)

(١) المراد: الثمن من ثمر الأراك أو نضيجه . (٢) ناس : الشيء ينوس نوساً ونوساناً تحرك وتذبذب واضطرب متديلاً ، وسمى ذرنواس - وهو من ملوك - اليمن بذلك لدؤار بين كانتا تنوسان على ظهره . (٣) الألوة : عود هندي يتبخر به ، وقال أعرابي حين مرّ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدفن :

« ألا جعتم رسول الله في سقطة من الألوة أحوى ملبساً ذهاباً . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) نمد : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسمعنا بالوصال في فترات الكرى المنقطعة القليلة . (٥) يقول : كفانا ألماً ألماً ألماً نحن علينا بالوصال إلا وعوداً مؤجلاً يعني اقتضاؤها وأداؤها في مواعيدها مع أننا نصفها الهوى طاجلاً غير متملحين ولا مؤجلين . (٦) الشمال : ربح الشمال ، والجنوب : ربح الجنوب ، وفي الأصل نوافج ، والنوافج : السحب الكثيرة المطر ، ويقال نفج الشدى القيمص أي رقعته ونفجت الريح أي جاءت بقوة ، والنوافج - جمع نافلة وهي النسيم . (٧) يقول ابن دريد في هذا المعنى :

« لا ينفع الجد بلاجد ولا يحدك الجهل إذا الجدد علا . »

ويقول الشاعر :

« عش بجد ولا يضرك نوك »

وقد أكرت الشعراء من الكلام في الجدود ، ومن أبدع ما قرأناه في ذلك قول ابن الرومي :

« إن للحظ كيمياء إذا ما مس كبا أحله إنساناً . »

يَنَالُ الْأَمَانِي بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الْكَدُ^(١)

* * *

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الْفِعْلَ مَرَّةً فَعَنْ خَطَاً ، لَكِنْ إِسَاءَةٌ عَمْدُ
حِذَارِكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ تَوَائِبِهِ « سَعْدُ »^(٢)
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيْدُ مِنْ آلِ « جَهْوَرٍ » لَأَعُوَزَ مَنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو
مُلُوكٌ لَبَسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَابَتِهِمْ رَقِيقَ الْحَوَاشِي مِثْلَ مَا فُوفَ التُّرْدُ
بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ صَافٍ ظِلَالُهُ وَفِي مَنَهْلِ الْعَيْشِ الْعُدُوبَةُ وَالْبَرْدُ
هُمُ النَّقَرُ الْبَيْضُ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ تَرَوْقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ
كَرَامٌ يَمُدُّ الرَّاعِيُونَ أَكْفَهُمْ إِلَى الْأَجْرِ مِنْهُمْ لَهَا بِاللُّهَاءِ^(٣) مَدُّ

وقول المتن :

« هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيدا . »

وقول المعري :

« والجد يدرك أقباما فيرفهم وقد ينال الى أن يعبد الحجر »

وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علائها - الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفا من أقوال الشعراء في هذا المعنى في رسالة النفران (ج ٢ ص ٩٨) فليرجع إليها من شاء .

(١) الحظيرة : عني بها هنا الأموال المحظورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله

من تضيق ، ويقال للرجل الذليل الخير « إنه لنكد الحظيرة » وسويت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها

عنده ، والوداع : الذي ينال حظه من العيش من غير كافة ولا مشقة ، يقول : « كثيرا ما ينال الوداع الذي

هو في خفص وودة من العيش أمانيه بأمواله المحظورة عنده كما أنه كثيرا ما يخفق ذو السعي والكسد فلا

يحصل من تعب وكده على طائل » ، ولعل أربع ما قرأناه في هذا المعنى قول ابن الرومي :

« إذا كان مجرى كوكب سمت هالة علاها وإلا اعتاص ذلك مطلبا . »

وقول الآخر :

« سبحانه ربي يعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيد ، وهذا يأكل السمكة . »

(٢) يقال « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » يريدون بذلك أن في كل جهة كفاءها من الشر

والأذى . قلوا وأصل المثل أن الأصبط بن فريع بن عوف بن كعب بن - عد بن زيد مائة - رأى من أهله وتومه

أمورا كرهها ففارتهم متفلا في القبائل فرأى من غيرهم مثل مارأى منهم فقال : « في كل أرض سعد بن زيد . »

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلَا يُنْعِ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهَوَ خَالِدٌ
«أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَأَبَا لِأَيِّكُمْ
بِأَثَارِهِ ، إِنَّ الشَّيْءَ هُوَ الْخَالِدُ
مِنَ اللَّوْمِ ، أَوْسَدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا»^(١)
سِجَاحُ عَلَيْنَا كَحُلِّ أَجْفَانِهِمْ سُهْدُ

*
* *

الْبَيْسَ «أَبُو الْحَزْمِ» الَّذِي غِيبَ سَعْيِهِ
أَعْرَهُ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفْضَ^(٢) بَعْدَ مَا
تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ
أَقْضَ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَأٌ مَهْدُ^(٣)
لَشَمَّرَ حَتَّى أُجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ
تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَأَصْطَخَبَ الرَّعْدُ
فَسَالِمٌ مَنْ كَانَتْ لَهُ الْحَرْبُ عَادَةً
وَوَافَقَ مَنْ لَاشَكَ فِي أَنَّهُ ضِدُّ^(٤)
هُوَ الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ
تَوَلَّى قَلْوَلًا أَنْ تَلَاهُ «مُحَمَّدٌ»
تَطَلَّعَتِ الْعَلْيَاءُ وَأَسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ
لَاوِطًا خَدَّ الْحُرِّ أَحْمَصَهُ الْعَبْدُ^(٥)

*
* *

مَلِيكَ يُسُوسُ الْمَلِكَ مِنْهُ مُقَلِّدٌ
سَجِيئَتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيْمَتُهُ الرِّضَى ،
رَوَى عَنِ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ
وَسَيَّرْتُهُ الْمُثَلَّى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

(١) ورد هذا البيت في الأصل :

« عليهم ، لا أبا لأبيكم من اللوم ، أوسدوا المكان الذي سدوا . »

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو انتباس ، وأصل البيت كما أثبتناه ، وهو من القصيدة المشهورة التي يقول فيها الشاعر :

« وتمذلني أبناء سعد عليهم ومافلت إلا بالذي علمت سعد . »

(٢) الخفض : الدعاء . (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمننا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد ساله أشد الأعداء ولوعا بالحرب ووافقه من لاشك في خصومته ولده بعد ما رأوا من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأذلوهم أذلالا وداسو خدودهم بأرجلهم .

هُمَّامٌ إِذَا زَانَ النَّدَىٰ بِحَبْوَةٍ تَرَجَّحَ فِي أَثْنَاهَا الْحَسْبُ الْعَدُوَّ
 زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ عَلَيْهِمْ بِهِ تُتْنَى الْخَنَاصِرُ إِنْ عَدُوا
 بَعِيدٌ مَنَالِ الْحَالِ ، دَانِي جَنَى النَّدَى إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجَلَ الْوَرْدُ
 تَهَلَّلَ فَانْهَلَّتْ سَمَاءُ يَمِينِهِ عَطَا يَا تَرَى الْأَمَالَ مِنْ صَوْبِهَا - جَعْدُ (١)
 مُمِرٌّ لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَآؤُهُ يَلِدُ لَهُمْ كَالْمَاءِ شَيْبَ بِهِ الشُّهُدُ
 إِذَا أُعْتَرِفَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ قَادِرٍ عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِجَ بِهِ حَقْدُ (٢)
 وَمُسْتَدُّ لَوْ زَا حَمَّ الطَّوْدَ حَامُهُ لَحَاجِرُهُ رُكْنٌ مِنَ الطَّوْدِ مُنْهَدُ
 لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَةٌ فِي سَكِينَةٍ كَمَا لَانَ مَتْنُ السِّيفِ وَأَخْشَوْشَنَ الْحَدُ (٣)
 يُوَكَّلُ بِالتَّدْبِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ إِنْ أُقْتَدِحَتْ فِي خَاطِرِ أَثْقَبِ الزَّنْدُ (٤)
 ذِرَاعٌ - لِمَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ - وَاسِعٌ وَبَاعٌ - إِلَى مَا يُحْرِزُ الْفَخْرَ - مُمْتَدُّ
 إِذَا أَسْهَبَ الْمُتَنُونَ فِيهِ شَأْنُهُمْ (٥) مَرَاتِبٌ عَلِيًّا كَلَّ عَنْ عَفْوِهَا الْجَهْدُ
 هُوَ الْمَلِكُ الْمُسْتَفْعُ بِالنَّسْكِ مُلْكُهُ قِيًّا فَضْلَ مَا يَخْفَى وَيَأْسِرُ وَمَا يَبْدُو (٦)
 إِلَى اللَّهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ وَبِاللَّهِ مُعْتَدُّ ، وَفِي اللَّهِ مُسْتَدُّ

(١) جعد: ندى .

(٢) قريب من هذا قول عنتره :

« لا يحمل المحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلامن طبعه النضب . »

(٣) في هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكاليف - إن لا يبتنه - لان حده وحده - إن خاشته - خشنان . »

(٤) أثقب الزند: أورى . (٥) شأنهم: فاتتهم وقصروا فيها عن الناية .

(٦) يقول هو الملك الذى يجمع إلى سطوة الملك نسيك الورعين فأ أنزل ما يسره في نفسه وما أنبل

وأشرف ما يملكه ، يعنى أن سره وإعلانه غاية في النبل والفضل .

*
* *

تَحْتِ غَرَضِ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعُدْ	لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً
حَتَّى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ	أَبَاحَ حَمِي الْحَمْرِ الْحَيْثِيَّةَ ، حَائِطًا
يَكَادُ يُودِّي شُكْرَهَا الْحَجْرُ الصَّلْدُ	فَطَوَّقَ بِأَسْنَتِنَا صَالِحًا الْمِصْرَ مِنْهُ
شَهِيرُ الْأَيْدِي مَا لِإِلَائِهِ جَعْدُ	هِيَ الرَّجْسُ إِنْ يُذْهِبُهُ عَنْهُ فَحَسِنُ
يُقَصِّرُ عَنِ أَدْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُّ	مَظَانَّةً آثَامٍ ، وَأُمُّ كِبَائِرِ
إِذِ الْعَوْضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرِيحُ يَغْدُو	رَأَى تَقْصَ مَا يُجَبِّئُهُ مِنْهَا زِيَادَةً

*
* *

عَزِيزٌ ، فَصْنَعُ اللَّهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ	عَنِّي ، فَحَسِنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ مَالُهُ
تَبَّتْ نَشَاهُ حَيْثُ لَا تَوْضِعُ الْبُرْدُ (١)	لِنَعْمَ حَدِيثُ الْبِرِّ تُوَدِّعُهُ الصَّبَا
لَهُ صُورَةٌ لَمْ يَنَعَمْ - عَنْ حُسْنِهَا - انْخَلَدُ	تَغْلَغَلَ فِي سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ
لَا لِي نَشْرٌ ، وَالنَّشْرُ عَنَبْرٌ وَرُدُّ	مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحَصَى
وَفِي نَفَحَاتِ الْمِسْكِ - مِنْ طِيبِهَا - وَقُدُّ	لَدَى زَهْرَاتِ الرَّوْضِ - عَنْهَا - بِشَارَةٌ

*
* *

بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ	فَدَيْتُكَ ، إِنِّي قَائِلٌ فَمَرْضُ
فَلَمْ يَكُ الْمَصْدُورِ - مِنْ نَفْسِهَا - بُدُّ	مُنَى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاءِ (٢) تَعَرَّضَتْ

(١) يقول : نعم حديث البر أردعته ربح الصبا لحملته وبث خبره في الجهات النائية حيث لا توضع البرد أي حيث لا تمدو خيل البريد اليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفي الأصل : « توضع »
(٢) اللهاء : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ، وجمعها لهوات ولهيات وهي . قال ابن دريد :

« والناس كالنبت ، فمنه رائق ، فمنه نضير عوده من الجسي ومنه ما تقتحم العين ، فان سفت جناه لإنساع عذبا في الهوى . »

أَمْثَلِي غُفْلُهُ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعُ
ضَيَاعِ الحُسَامِ العَضْبِ أصدَاهُ الغِمْدُ
أَبِي ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ
فَسُنِّي مِنْهُ - بِالذِّي نَشْتَهِي - العَقْدُ (١)

* *

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الهَزِّ غَرْبُهُ
إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِي تَطْبَعُ الهِنْدُ
بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تُوَالِهَا
فَحَسُنُ الأَلَى (٢) فِي أَنْ يُوَالِيهَا سَرْدُ
لِعَمْرِكَ مَا لِمَالِ أَسْمَى فَإِنَّمَا
يَرَى المَالَ أَسْنَى حَظَّهُ الطَّبِيعُ الوَعْدُ (٣)
وَلَكِنْ حَالٍ - إِنْ لَبَسْتُ جَمَاهَا -
كَسَوْتُكَ تَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الحَمْدُ

* *

أَتَيْتَكَ القَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا
مِنْ الغَيْبِ فَأَقْبَلَهَا فَا غَرَكَ الشَّهْدُ
لِيَحْظِي وِلْيَ - سِرُّهُ وَفِي جَهْرِهِ -
فَظَاهِرُهُ شُكْرُهُ ، وَبَاطِنُهُ وُدُّ
يُمَيِّزُهُ - مِمَّنْ سِوَاهُ - وَفَاوُهُ
وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَايَةِ هِنْدُ (٤)

(١) سنى منه العقد ، أى تيسر الصعب وسهل . قال الشاعر :

« وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد أمر تيسرا . »

(٢) الألى : النعمة جمعها آلاء .

(٣) الطبع : يقال رجل طبع طبع (بكسر ثانيهما) متدنس العرض ذو خاق دنى لا يستحي من

سوءه ، والوعد : الخفيف الأحق الضعيف العقل والبدن الدنى الحسيس النذل .

(٤) كل غاية هند : مثل يضرب عند تساوى القوم في فساد الباطن .

رثاء أم المعتضد

« قال يرثي السيدة الكبرى والدته . »

أَلَا هَلْ دَرَى الدَّاعِي المَثُوبُ - إِذْ دَعَا
وَأَنَّ التُّشَقَّى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرُوقَةٍ
لِرُزْئِكَ تَنْهَلُ الدُّمُوعُ ، فَمِثْلُهُ
لَقَدْ أَجْهَشَ الإِخْلَاصُ بِالأَمْسِ بِأَكْيَا
بِنَعْيِكَ - أَنْ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟
وَأَنَّ الهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكَ فَوَدَّعَا ؟
- إِذَا حَلَّ - وَدَّ القَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَمَا
عَلَيْكَ ، كَمَا حَنَّ اليَقِينُ فَرَجَّعَا

* * *

وَدُنْيَا وَجَدْنَا العَيْشَ فِي غَفْلَاتِهَا
نُعَلُّ فِيهَا بِالْمَنَى فَتَعْرُنَا
طَرِيقًا - إِلَى وَرْدِ المَنِيَّةِ - مَهِيَعًا (١)
بِوَارِقِ لَيْسَ الآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعَا (٢)

* * *

أَصَبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِجِ
مَنَارٍ - مِنَ الإِيمَانِ - لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى ،
وَحَبْلٌ - مِنَ التَّقْوَى - وَهَى فَتَقَطَّعَا
وَكَانَ لَهَا المِخْرَابُ - فِي الأَخْدَرِ - مَطْلَعَا (٣)

* * *

لَنْ أَتُبِعَتْ مِنَّا غَمَامَةٌ رَحْمَةٌ
لَقَدْ ظَلَلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ المُرْفَعَا

(١) المهيج : الطريق الواسع الواضح البين .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تمرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . والله دز مهيار إذ يقول :

« شد ماني غرورا نفسه تاجر الآمال في أن يربحا . »

وقوله : « ربما يقر بالظن الكذوب . » ، وفي هذا المعنى يقول ابن زبانه السعدي :

« وأقسم ما الدنيا بدار إقامة ولا هي إلا مثل بعض المنازل

نسير إلى الآجال حول رجائها ونطوى بها الأيام طي المراحل . »

(٣) يقول : أنها شمس أشرقت في خدرها ثم غربت في قبرها .

سِرِيرُهُ بِأَمْلَاكِ وَزُهْرٍ مَلَانِكِ
لِتَبْكِ الْأَيَامِي وَالْيَتَامَى فَتَقِيدَةَ
أَصْلَهُمْ فَقَدَانَهَا ، فَكَأَنَّمَا
مُسَبِّحَةَ الْآنَاءِ ، قَانِتَةُ الضُّحَى
تَبَيْتُ مَعَ الْإِخْبَاتِ ^(١) مُسْعِرَةَ الْحَشَا
إِذَا مَا هِيَ أَسْتَوْفَتُ مِنَ الْبِرِّ غَايَةَ
كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَأَجِبَاتِ مُخْرَجٌ
أَصْرَفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلسَّيْفِ مَضْرِبًا
فَلَوْ كُنْتُ - إِذْ سَأَرْتُ - رَامٌ مُجَاهِرٌ
إِذَا لَشَأَهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ الْأَيْسِ ^(٢)
« وَمُعْتَصِدُهُ بِاللَّهِ » يَحْمِي ذِمَارَهُ
وَلَكِنْ عَرَزْتُ الْمَلِكَ - مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى -
- إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ - رَاحَ مُشِيْعًا
هِيَ الْمَزْنَ أَحْيَا صَوْبُهُ ثُمَّ أَقْشَعَا
أَصْلَتْ سَوَامُ الْوَحْشِ فِي الْجَدْبِ مَرْتَعَا
ثَوَتْ فَتَوَى مَعْنَى التَّأْوُهُ بَلَقْمَا
تَقِيْمَةٌ مَنْ يَحْشَى إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَا
تَأْتَتْ لِأُخْرَى لِأَتْرَى تِلْكَ مَقْنَعَا
تَقْبَلُهُ إِلَّا بَانَ تَتَطَوَّعَا ^(٣)
لَمَّا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوْسِ مَنْرَعَا
ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحْوِطَ الْمُنْعَا
يُشَايِعُ قَلْبًا فِي الْحِفَاظِ مُشِيْعَا
فَلَا سِرْبَ يُلْفَى - فِي حِمَاهُ - مُرْوَعَا
فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمِ مَدْفَعَا ^(٤)

(١) الاخبات: التقوى والحشوع والفنوت ، يقول : هي البقية الباقية من النساء الصالحات تبنت من خشية الله مصلية داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، وفرقا من هول يوم المرجع والمآب .
(٢) يقول : أنها لحرصها على النظر وضم النوافل إلى الفرائض كأنها تمنع أن في أداء الفرائض وحدها غير مشفوعة بالتطوع حرجاً وإنما لا يجعل عبادتها متقبلة وعملها مثاباً عليه إلا بأن تتطوع ، نهى لذلك تبنت ليلها قائمة متبهجة .

(٣) الأيس : الشجاع الذي لا يبالى الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« تحال نديمهم مرضى حياء وتلقاهم غداة الروع إيسا . »

(٤) هرت : وطئت وترزت ، على غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عز وجل : « ولولا رجال مؤمنون لفساد مؤمنات لم تعلموهن أن تطووهن فتصديبكم منهن معرفة بغير علم . » ، وقال عمر رضي الله عنه : « اللهم إني أعوذ بك من معرفة الجيش » تبرأ رضي الله عنه من وطأة جيش المسلمين من مروا به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم لإيهم في حرمتهم وأمواهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه . من قبل الفرع . يقول : لو كان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لعجز عن غرضه ولئناه المعتضد الشجاع وجيشه الباسل ولكن صرف الدهر يأتي على غرة فلا يستطيع أحد أن يواجهه ويدفع غائكه ، والله در القائل :

يَغِيظُ الْعِتَاقَ الْجُرْدَ الْأَ تَرَى لَهَا
وَتَأْسَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُتَمَضِّي،
مَجَالًا ، فَتَعْنُو فِي الْمَرَابِطِ خُشْعًا
وَسُمِرُ الْقَنَا الْأَ شَهْرًا وَتُشْرَعًا

* *
* *

لَنْ سَاءَ كَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ
شَهِيدَنَا : لَقَدْ طَرَزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ
وَمَا فَخْرُهُ إِلَّا بِأَنْ كَانَ مُصْنَعِيًا
أَتَى الْعَثْرَةَ الْعُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ
وَهَاهُوَ مُتَقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَأَحْتَكِمْ
لَعَمْرُ اللَّهِ الَّتِي وَدَعْتَ أَمْسٍ - مُفَارِقًا -
تَمَّتْ وَفَاةٌ - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا
فَوَيْفَيْهَا مَا لَمْ يَدْعُ لِصَمِيرِهَا
خَفَضَتْ جَنَاحَ الذَّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً
تَرُوحُ أَمِيرًا فِي الْبِلَادِ مُحَكَّمًا
عِزَاءً فَدَتِكَ النَّفْسُ ، عَزَمَ مُسَلِّمٌ
بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَايِعًا
وَقَلَدَتْهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرْصَمًا
لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبِّي فَأَسْرَعًا
لَهُ حِينَ أَشَقِي مِنْ كَأَبْتِهِ : «لَعَا»؟ (١)
لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرُهُ لِيَصْدَقًا
لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعًا (٢)
حَسَدَتْ لَهَا الْأَمَالَ : مَرَأَى ، وَسَمِعَا
إِلَى غَايَةِ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلَعًا
لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتُخْضَعًا (٣)
وَتَعْدُو شَفِيعًا فِي الذُّنُوبِ مُشَقَّعًا
لِمَوْقِعِ أَمْرٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعًا

« اليوم بيني لدويد بينته يارب وجه حسن رأيته

ومعهم - ذى برق - لويته لو كان للدهر بلى أبلينه

أو كان قرني واحدا كفيته . »

(١) أشقى : من تولهم أشقى على الهلاك وأشقى على الموت إذا أشرف عليه ، والكآبة : الحزن ،
ولعا : كلمة تقال للعاثر وهي في الانبات دعاء له ، وإذا قيل : لا لعا للعاثر ، فعناه لا أقال الله عثرته ،
يقول : لقد أساء إليك الدهر في هذا الخطب فهل أنت صانع عنه ومقبله من عثرته .

(٢) للمرع : كالمصرعة والشريعة السكان الذى يتصدر منه الناس والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى في بر الوالدين :

« واخض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

مَتَى ظَنَنْتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَزِعٌ
 فَمَا أَرْبَدَّ وَجْهُهُ الْخَطْبِ إِلَّا لَقِيْتَهُ
 وَمَا كُنْتَ أَهْلًا أَنْ يُصِيبَكَ حَدِيثٌ
 فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ
 فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمْ غِبَّ قُدْرَةٍ
 مَتَى تُسَدِّ نَعْمَى - قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلَهَا -
 وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَدْوَاكَ يُعْطِيهِمْ
 وَيُعْرِى بِتَوْكِيدِ الْإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ
 خَلَّاقٌ مُمَهَّأَةٌ الْفِرْنِدِ كَأَنَّهَا
 تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودِدِ
 تَغْلُغُلُ فِي الْآفَاقِ أُسْرَى مِنَ الصَّبَا
 فَلَوْ صَرَفَتْ صَرْفَ الْمُنُونِ جَلَالَةً
 فَلَا زِلْتَ بِمُتَمَوِّعِ الْحِمَى مُسْتَعْفِ الْمُنَى
 وَدُمْتَ مَلَقَى أُنْجُمِ السَّعْدِ بَاقِيًا
 أَوْ اسْتَشَعَّرْتَ فِي قَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعًا
 بِصَفْحَةٍ طَلَّقِ الْوَجْهَ أَبَاجِ أَرْوَاعًا
 فَتُصْبِحَ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجِعًا
 وَلَا أَهْتَزُّ أَعْطَافًا ، وَلَا لَانَ أَخْذًا
 وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْمَعْرُوفِ إِلَّا لِيَشْفِعَا
 يُقَلُّ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبَدَا (١)
 جَوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعًا
 فَيَلْتَكَّ بِالْإِحْسَانِ أَعْرَى وَأَوْعَا (٢)
 حَدَائِقُ رَوْضِ الْحَزَنِ جَيِّدٌ فَأَيْنَعَا
 تَخَالُ قَتِيَتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا
 وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا
 لَكُنْتَ مُحْيَاً مَنْ تَوَدُّ مُمْتَعَا
 إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمُصَابِ الْمُفْجَعَا (٣)
 لِدَيْنٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخَرُّهُمَا مَعَا

(١) يقول كلما أسديت جيلا قال الناس : كم لهذا الجليل من أشباه ونظائر فهو - على نظده - نانه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائكك ، ولو أبدعت لم يسترع انظارهم إيدانك لطول ما ألفوا من روائك وبدائك .
 (٢) يقول : ان المني يطعمه دفوك عن زلته فهو إذا أوعل بتوكيد إساءته وجدك أشد ولو عا بتوكيد إحسانك ودفوك عنه .
 (٣) يقول : لا زال الزمن يمر من حاك وبسيفك بأمانيك على - بين يصيب عدوك ويفجعه فيما يجب .

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الدَّهْرُ - إِنَّ أَمْلَى - فَصِيحٌ أَعْجَمُ
 إِنَّ الَّذِي قَدَرَ الْحَوَادِثَ قَدَرَهَا
 وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلَا أُغْتَرَابُ يَتَقَضَى
 كَمْ قَاعِدٍ يَحْطَى فَتَعْجِبُ حَالَهُ
 وَأَرَى الْمَسَاعِي كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ
 وَلَكُمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ
 وَأَشَدُّ قَاجِعَةَ الدَّوَاهِي مُحْسِنٌ
 تَلْقَى الْحَسُودَ أَصَمَّ عَنِ جَرَسِ الْوَفَا
 يُعْطَى أَعْتَابِي مَا جَهَلْتُ فَأَعْلَمُ (١)
 سَاوَى لَدَيْهِ الشَّهَدَ مِنْهَا الْعَلْمُ (٢)
 كَدَرَ الْمَالِ وَلَا تَوَقَّ يَعْصِمُ
 مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الدُّهُوبَ فَيَحْرَمُ
 شَأْوَ الْمَضَاءِ فُنُنٍ وَمُصَمَّمُ
 خَطَرُهُ فَنَاصِبُهُ الْوَضِيعُ الْأَلَامُ (٣)
 يَسْمَى لِئِمْلَقَهُ الْجَرِيمَةَ مُجْرِمُ (٤)
 وَلَقَدْ يُصِيحُ - إِلَى الرِّقَاةِ - الْأَرْقَمُ (٥)

* * *

قُلْ لِلْبَغَاةِ الْمُنْبِضِينَ قِسِيَهُمْ
 أَسْرَرْتُمْ فَرَأَى نَجِيَّ عِيُوبِكُمْ
 سَرَّوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ
 شَيْحَانُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهُمُ

(١) يقول إن الدهر إن أملى بلسان الحوادث الفصيح الأجم يكسب اعتباري وقباصي الحوادث والعبر بعضها
 ببعض علم ماجهلت . (٢) إن الذي قاس الحوادث بمقياس صحيح استوى لديه حلو الحياة ومرها .
 (٣) وكثيرا ما يتسامى بالذي ارتفع منصبه خطره وشرفه فیناصبه العداة وضع لئيم حسدا منه وبنيا .
 (٤) وأشد ما يفتج الانسان من الدواهي محسن يسمى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة .
 (٥) يصيح مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهي ما ينفث فيه من العوذ ، والأرقم
 ذكر الحيات وهو أخبثها وأطلبها للناس ، أو هو ما يه يياض وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع
 صوت الوفاء في حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشد ما عداوة للناس يصيح بسبعه للراق الذي يتلو
 وينفث في العوذ ، وفي الأصل « ولقد يصيح إلى الرقاة الأرقم » .

وَعِبَائِهِمْ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِمَاعِيَّةٍ لَمْ يَعِدْكُمْ أَنْ رُدَّ وَهُوَ مُقَلَّمٌ
وَبَدَأْتُمْ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فَعَدَا بَغِيضَكُمْ التَّقِيَّ الْأَكْرَمُ
مَا كَانَ حِلْمٌ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ عَنْ عَهْدِهِ دَغِلُّ الضَّمِيرِ ^(١) مُدَمَّمٌ
مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاطِرِ غُرَّةً زَهْرَاءُ يُبْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَدْهَمُ
يَعْنِي النَّوَاطِرَ مِنْ جَهْرٍ رُوَائِهِ خَلَقَ - يُرَى مِلَّ الصُّدُورِ - مُطَهَّمٌ ^(٢)
وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ يُعْنِي - عَنِ الْقَمَرَيْنِ - مَنْ يَتَوَسَّمُ ^(٣)
صَلَتْ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِيغَتْ لَهُ تَاجًا تُرْصَعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ ^(٤)
فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكِي الْحَيَا - وَهَنَا عَلِيهَا - فَأَغْتَدَتْ تَبَسُّمٌ
بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضِعَ يَدِّنَ وَالشَّرَّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَّعِيمُ ^(٥)
جَذْلَانُ - فِي يَوْمِ الْوَعْيِ - مُتَطَلَّقٌ وَجَهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهَّمٌ ^(٦)
بَأْسٌ - كَمَا صَالَ الْهَزْبُ - إِزَاءَهُ جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِضْمُ الْخِضْرُمُ ^(٧)

- (١) بضميره فقد مكتم . (٢) الرواء : الحسن ، وخلق مطهم : تام بارع الجمال .
(٣) يستطير : ينتشر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والذي أجاز النونية مع اختلاف لفظ المفرد
التغليب كما هو معروف في كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضيء وحسنه .
(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوي ، أي تود الشمس لوأنها صيغت تاجا مرصعاً
بلائيء النجوم ، ووضعت فوق جبين الممدوح : (٥) في الأصل :
« بالفدر يبعد والتواضع يدني والبشر شمس والندى يتعيم . »
والذي أثبتناه هنا هو ما يعطيه المعنى .
(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجهه باشأ إلى الحرب والردى متجههم عابس
الوجه كرية النظر ، وفي الأصل : « والروا متجههم »
(٧) البحر العظمم العظيم .

❖

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
سَدَّتَ الْجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ
لَاغَرٌ وَأُمُّ الْمَجْدِ - فِي بَكَرِ الْحِجَابِ
فَاحْسِمِ دَوَاعِي كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ
كَمْ سَقَطَ زِينِدٍ قَدْ نَمَّا حَتَّى غَدَا
وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجَحَافُ فَإِنَّمَا
وَالْمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَن حَدِّهِمْ
وَإِذْ كَرُّ صَدِيعِ أَيْكَ أَوْلَ أَمْرِهِ
لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ
فَعَلَامَ تَنْكُلُ عَن صَدِيعِ مِثْلِهِ
وَجَنَابُكَ الثَّبْتُ الَّذِي لَا يَنْتَنِي
وَالْحَالُ أَوْسَعُ وَالْعَوَالِي جَمَّةٌ

❖

لَا تَبْرُكُنِ النَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ
قَدْ قَالَ شَاعِرٌ كِنْدَةَ فِيمَا مَضَى

(١) الذي لا يكون له توهم وظهير من الملوك .

(٢) لاغرو فان أم المجد عقيم في بكرها المدروسوم بالحجا والعقل قد بئست من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كغراب الذي يذهب بكل شيء .

(٤) الصريمة : العزيمة وأمرم أي أفزع ، وفي الأصل : « والصريمة ضينم . »

« لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ ^(١) »

* * *

فِرْقُ عَوْتٍ ، فَزَارَتْ زَارَةَ زَاجِرٍ رَاعِ الْكَلِيبِ بِهَا السَّبْتَى الضَّيْفَمُ ^(٢)
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودُ سَفِيهِمُ أَمْ قَدْ حَمَاهُ النَّبْحُ ذَاكَ الْمَكْعَمُ ؟
لِي مِنْكَ فَلْيَذِبِ الْحَسُودُ تَلْظِيًّا لُطْفُ الْمَكَانَةِ وَالْمَحَلُّ الْأَكْرَمُ
وَشُقُوفُ حَظِّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ
لَمْ تَلْفَ صَاعِغِي ^(٣) لَدَيْكَ مُضَاعَةٌ كَلًّا وَلَا حَفِيَّ أَصْطِنَاعِي الْأَقْدَمُ
بَلْ أَوْسَعَتْ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ ذِمَّةً مُوثِقَةً الْعُرَا لَا تُفْصَمُ
فَلْيَخْرِقَنَّ الْأَرْضَ شُكْرُهُ مُنْجِدُهُ مَنِيَّ تَنَاقَلُهُ الْمَحَافِلُ مُتْهِمُ
عَطْرُهُ هُوَ الْمِسْكُ السَّطْوَعُ - يَطِيبُ فِي شَمِّ الْعُقُولِ أَرِيحُهُ الْمُتَسَمِّمُ
وَإِذَا غُصُونُ الْمَكْرُمَاتِ تَهَدَّدَتْ كَانَ الشَّمَاءُ هَدْيِلَهَا الْمُتَرْتِمُ
الْفَخْرُ نَعْرُهُ - عَن حِفَاظِكَ - بَلِسِمُ وَالْمَجْدُ بُرْدُهُ - مِنْ وَفَائِكَ - مُعْلَمُ
فَأَسْلَمَ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا وَتَسْوَعُ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

(١) هذا البيت لا يتلوه وقد اقتبسها ابن زيدون في هذه القصيدة .

(٢) السبتى والضيفم من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصة : الذين يغشون مجلسه .

ذكرى قرطبة

سَقَى اللهُ أَطْلَالَ الْأَحْبَةِ بِالْحَمِي
وَحَاكَ عَلَيْهَا تَوْبَ وَشِي مُنْمَمًا
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلْأَزَاهِيرِ أَنْجُمًا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْخِرَائِدُ كَالدَّمِي (١)

* * *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَعُ (٢)
شَدَا الْمِسْكَ - مِنْ أَرْدَانِهِ - يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ - أَشْكُوهُ الْجَوِي - لَيْسَ يَسْمَعُ
فَمَا أَنَا - فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ - أَطْمَعُ وَلَا أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

* * *

قَضِيبٌ - مِنَ الرَّيْحَانِ - أُمْرٌ بِالْبَدْرِ
لَوَاحِظٌ عَيْنِيهِ مُلْتَمِسٌ مِنَ السَّحْرِ
وَدِيْبَا جُ خَدَيْهِ حَكِي رَوْتَقِ الْخَمْرِ
وَالْفَازَهُ - فِي النُّطْقِ - كَاللُّوْلُو الْمَثَرِ وَرَيْقَتُهُ - فِي الْإِرْتِسَافِ - مُدَامُ

(١) رذل : جر ذيله وتبخر ، قال الشاعر : « يرفلن في سرق الحرير وفره » الخرائد - جمع خريدة - وهي المرأة الحية ، وهي أيضاً اللؤلؤة التي لم تنقب ، قالوا : وكل عذراء خريدة ، والدمي - جمع دمية - وهي الصورة المنقشة المزينة فيها حمرة كالدَّم ، وقيل : هي من الرخام ، وقيل : هي من العاج ، وهي تضرب مثلاً في الحسن ، يقال « أحسن من الدمية »
(٢) قال الشريف :

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ النَّمَامِ -
وَعَنَى عَلَى الْأَغْصَانِ وَرَقُ الْحَمَامِ -
« بَقْرُ طَبَّةَ » الْعَرَاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ -
بِلَادُهَا شَقَّ الشَّبَابُ تَمَامِي (١) وَأُنْجَبِسِي قَوْمٌ - هُنَاكَ - كِرَامُ

فَكَمَّ لِي فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ -
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَصَاحِ -
يُقَدِّمُ (٢) أَفْوَاهَ الْكُؤُوسِ بِتَفَّاحِ -
إِذَا طَلَعَتْ فِي رَاحِهِ أَنْجُمُ الرَّاحِ - فَإِنَّا - لِإِعْظَامِ الْمُدَامِ - قِيَامُ

وَيَوْمٍ لَدَى « النَّبْتِي » فِي شَاطِئِ النَّهْرِ -
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةِ زَهْرٍ (٣) -
وَلَيْسَ لَنَا فَرَشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ -
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ الْمَاءِ أَهْيَفُ الْخَصْرِ - بِفِيهِ مِنَ النَّعْرِ الشَّيْبِ - نِظَامُ (٤)

(١) النمام - جمع تيممة - وهي عوذة تعلق على الأطفال مخافة العين ، ومنه قول الفاعل : « من علق تيممة فلا أتم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع . »

(٢) قدم ثم الآنية وأقدمها جعل عليها القدم أي الغطاء .

(٣) زهر : مشرق الوجوه ، وقريب من هذا - في باب الحمريات - قول أبي نواس :

« ودار ندأى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جنى ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس

حبست بها صحبي فجذدت عهدهم ولانى على أمثال تلك لحابس

- بشرق ساباط - الديار البساس

أفنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس

تدار علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع النصارير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدرها بالقسى القوارس

فلاخمر ما زرت عليه حيوبها وللماء ما دارت عليه القلائس »

(٤) الشيب - من الشب - وهو رقة أو هو عذوبة في الأسنان ، وقيل تقط بيض فيها .

وَيَوْمٍ « بِجُوفِي الرُّصَافَةَ » مُبْهِجٍ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأَقْحُونِ الْمَدْبُجِ
وَقَابَلْنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنْفَسَجِ
وَلَاخَ لَنَا وَرَدٌ ^(١) كَخَدِّ مُضَرَّجٍ نَرَاهُ أَمَامَ النُّورِ وَهُوَ إِمَامٌ

وَأَكْرَمُ بِأَيَّامِ « الْعُقَابِ » السَّوَالِفِ ^(٢)
وَلَهُوَ أَثَرُهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثَيْثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلْكَ الْمَطَارِفِ ^(٣) فَلَيْسَ - عَلَى خَلْعِ الْعِدَارِ - مَلَامٌ

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ « الْعَقِيقِ » وَجِسْرِهِ
قَعْدَانًا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَظَنِّي يُسَقِّمُنَا سُؤْلَافَةَ خَمْرِهِ
حَكِي جَسَدِي فِي السَّقْمِ - رِقَّةَ خَصْرِهِ لَوَاحِظُهُ - عِنْدَ الرُّنُوءِ - سِهَامٌ

فَقُلْ لِرِزْمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثَتْ - عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي - رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقٍّ فِيهِ - بِالْعَشِيِّ - نَسِيمُهُ
وَلَا حَتَّ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : « عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامٌ »

(١) في الأصل : « نجد »

(٢) السوالف - جمع سالفه - وهي صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمها من لدن معاق الفرط إلى الترقوة . وقد تقدم في ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعاهد بقرطة منها (جوف الرصافة) و (العقاب) فارجع إليها إن شئت . (٣) المطارف - جمع مطرف - وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

سَلَوَى الْمَضْطَرِ

لَنْ قَصَرَ الْيَأْسُ مِنْكَ الْأَمَلُ وَحَالَ تَجَنُّبِكَ دُونَ الْحِيلِ
 وَنَاجَاكَ - بِالْإِفْكَ - فِي الْحَسُودِ فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلَ
 وَرَأَقَكَ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى وَغَرَّكَ زُورُهُمْ الْمُفْتَعَلِ
 وَأَقْبَلْتَهُمْ فِي وَجْهِ الْقَبُولِ وَقَابَلَهُمْ بِشْرِكَ الْمُقْتَبَلِ
 فَإِنَّ ذِمَامَ الْهُوَى لَمْ أَزَلْ أَبْقِيَهُ ^(١) حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ

* *
 * *

فَدَيْتِكَ - إِنْ تَعَجَّلِي - بِالْجَفَا فَقَدَيْتَهُبُ الرِّيثَ بَعْضُ الْعَجَلِ ^(٢)
 عَلَامَ أَطْبَتِكَ ^(٣) دَوَاعِي الْقَلِي؟ وَفِيمَ ثَنَّتِكَ تَوَاهِي الْعَدَلِ؟
 أَلَمْ أَلْزِمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ؟ أَلَمْ أَكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لَا أَمَلُ
 أَلَمْ أَرْضَ مِنْكَ بِغَيْرِ الرِّضَى وَأَبْدَى السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنْلِ؟
 أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوْبِقَاتِ الذُّنُوقِ بِعَمْدًا أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلِ؟

(١) في الأصل : « أبقيه »

(٢) في هذا تصديق للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثا » ، قالوا : وأصل المثل فيما حكاه المفضل الضبي أن مالك بن عوف بن أبي عمرو بن عوف بن سلم شام غيما فأراد أن يرحل بامرأته جماعة بنت عوف بن أبي عمرو ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخي ؟ قال : أطب موقع هذه السحابة ، قال : لا تفعل فانه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك ، قال : لكنني لست أخاف فضي ، وعرض له عيسى فأعجله عن امرأته وجعلها بين نسائه ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن سنان : ما فعلت أختي ، قال : نفتني عنها الرماح فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، وفروقة يدعي ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

(٣) اطبتك : أعجبتك وراقتك . قال ابن دريد :

« ولا اطبي عيني - مذ فارقتهم - شيء يروق العين من هذا الوري . »

وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسِيءَ بِي الْفِعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَلَ
عَلَى حِينٍ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكَ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكَ مِنِّي وَفِي أَبِي لِعَلِّقَ الْعَلَاقَةَ أَنْ يُتَدَلَّ

* * *

سَعَيْتَ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَاً ، وَحَاوَلْتَ تَقْصَ وَدَادٍ كَمَلْ
فَاعُوفَيْتَ مِقْتِي ^(١) مِنْ أَدَى وَلَا أَعْفَيْتَ ثِقْتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكَ الْعِتَا بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ
كَأَنَّكَ نَاطَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ وَأَوْتَيْتِ فَهْمًا بَعِلْمِ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفِعَالِ وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأَوْلْ
فَلَمْ يَكُ حَظِّي مِنْكَ الْأَخْسَّ وَلَا عُدَّ سَهْمِي فِيكَ الْأَقْلَّ

* * *

عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ وَدَاعٍ هَوَى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ
وَمَا بِأَخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ ، وَلَكِنِّي : مُكْرَهُ لَا بَطْلَ ^(٢)
وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِي كَيْفَ التَّرْوَعُ إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةَ فَاثْمَلْ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ أَبِي الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ
يُحِيلُ عُدُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَّا وَيَشْنِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقْلَ .

(١) مقي : حي .

(٢) يقول : إنني مرغم على السلو وليس لي فيه اختيار وفي المثل « مكره أخوك لا بطل » يضرب لمن يحمل

على ما ليس من شأنه ، ولا هو داخل في حدود استطاعته .

في مدح المعتضد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل

الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ - فِي تِلْكَ الْقِيَابِ - مَرَادُ^(١) لَوْ سَاعَفَ الْكَلِفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ
لِيَغْرُ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَدَّ حِمَايَةَ لِقَاتَا نَجْدٍ فَنِيَّةُ أَنْجَادُ^(٢)
كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهُوَى بِالْوَصْلِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ نَجَادُ^(٣)
أَعْقِيلَةَ السَّرْبِ ! الْمُبَاحُ لَوِزْدِهَا صَفْوُ الْهُوَى إِذْ حُلَّى الْوَرَادُ^(٤)
مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنْلِكِ بِحَيْلَةٍ؟ إِنَّ الظُّبَاءَ لَتُدْرَى^(٥) فَتُصَادُ
إِنْ يَعْدُ عَنْ سَمَرَاتِ جِزْعِكَ سَامِرُ^(٦) فِي كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ^(٧)

(١) مكان ارتياد . (٢) ليغر : لينعدر إلى النور ، والانجاد : جمع نجيد وهو الشجاع ذو النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هذا التجلد والصبر ؟ إنه لن يسعفك الهوى بالوصل ما لم تكن شجاعا طويل النجاد بحيث يبابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة في حى قومها رغم زئيرهم ووعيدهم . (٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلى الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافيا ممنوع غيرها من ورده ، وجواب النداء في البيت بعده . (٥) المصايد : بلا همز جمع مصيده كعيشه ومعاش ، وتدرى : تفتعل من ادري الصائد الصيد إذا ختل واحتال له ليصيده ، قال الشاعر :

« وماذا يدري الشعراء منى وقد جاوزت حدَّ الأربعين . »

وقال أبو نواس في وصف كأس :

« قرارتها « كمرى » وفي جنباتها مها تدرىها - بالقى - الفوارس . »

(٦) سميرات : جمع سمرة (بفتح ضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كاني غداة البين - يوم ترحلوا - لدى سميرات الحى نائف خنظل . »

وجزعك : أراد به جزع الوادى أى منقطعه الذى يقطعه عرضا إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السر يقول : إن يعدنى ويعنى عن سميرات جزع واديك سهار من قومك لهم فى كل ثنية ومطلع لإرعاد وإبراق وزجر وتخويف ، وجواب الشرط فى البيت بعده .

فِيمَا تَرَقَّرَقَ لِلْمُتَمِّمِ بَيْنَهَا
 غَلَلٌ شَفَى حَرَّ الْغَلِيلِ بُرَادٌ (١)
 أَنَا حِينَ أُطْرَقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِي
 شَوْقٌ كَمَا طَرَقَ السَّلِيمِ عِدَادٌ (٢)
 يَنْهَى جَفَاؤُكَ عَنِّي يَارْتِي الْكَرَى
 كَيْلًا يَزُورَ خَيْالِكَ الْمُعْتَادُ
 لَا تَقْطَعِي صِلَةَ الْخَيْالِ تَجَنُّبًا
 إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوِصَالِ سِدَادٌ (٣)
 مَا ضَرَّ أَنَّكَ بِالسَّلَامِ ضَمِينَةٌ
 أَيَّامَ طَيْفِكَ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ
 هَلَّا سَمَّتِ السُّقْمَ عَنِّي جِسْمٍ لَهُ
 فِي كِلَّةٍ زُرَّتْ عَلَيْكَ فُؤَادُ
 أَوْعُدْتِ مِنْ سَقَمِ الْهُوَى، إِنْ الْهُوَى
 مِمَّا يُطِيلُ ضَنِّي الْفَتَى فَيُعَادُ
 إِيهَا! فَلَوْلَا أَنْ أُرْوَعَكَ بِالْشَرَى
 لَدَنَا وَسَادٌ أَوْ لَطَالَ سِوَادُ (٤)

(١) ترقق : تحرك وجاء وذهب كما يرى في ترقق الشراب والماء وفرند السيف ، والضمير في « بينها » تأيد على السررات ، والغلل : الماء الذي يتنقل بين الشجر ، والغليل : العطش ، والبراد : البارد ، يقول : إن معنى قومك من الوصول إليك فبمسيل الوادي الذي يتنقل ماؤه بين سررات الحى ما يشفى غليلي ويبرد قلبي ، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يطفى حرارة الشوق عنده ، وقد ورد هذا البيت والذي قبله في الأصل على هذه الصورة :

« إن يعدن ثمرات جردك سامر في كل مطع لهم إرهاد

فبما ترقق للمتيم بينها غلل تقي جر النيل براد . »

(٢) السلم : المدوخ ، وعداد السلم : احتياج الوجع عنده ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لبغ حاج به الألم ، أو عداده أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، يقول : أنا حين أطرق برأسى مفكرا يطرقتي من ألم الشوق ما يطرقت المدبغ حاج به الألم المعاد .

(٣) سداد : بالكسر هو كل شيء سددت به خلا ، ومنه سداد القارورة وهو صمامها الذي يسد به رأسها ، ويقال : سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما تسد به الحاجة .

(٤) الوساد : المحدة والسواد : السرار مصدر ساودها مساودة وسواد أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها ، وقيل لابنة الحس : « لم زينت وأنت سيدة قومك » ؟ فقالت : « قرب الوساد ، وطول السواد . » وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد ، أى دنو شخصها من شخصه ، وهو مثل يضرب للأمر يلقي صاحبه فيما يكره .

لَعَشِيْتُ سَجْفَكَ فِي مُلَاءَةٍ نَثْرَةٍ (١) فَضِيلٌ سَوَى أَنْ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)
لَأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّمَّا قَيِّبَتَ لِي - مِمَّا حَوَى ذَاكَ السَّوَارُ - وَسَادُ
فَعَدِي الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَوْمِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يَقْتَضِيَ الْمِيْعَادُ

* * *

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الْخُدُودِ إِذَا عَدَتْ جُرْدُ - تُبْلَغُنِي جَنَاهُ - وَرَادُ
وَأَرَاخُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرِيحُهُ أَنْ شِدْبَ بِالْجَسَدِ الْعَطِيرِ جَسَادُ (٢)
عَزَمُ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَدْنِهِ أَنْ الْقَنَا - مِنْ دُونِهَا - أَقْصَادُ (٣)
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ مَنْ تَطَيَّبَهُ - عَنِ الْحُطُوظِ - بِلَادُ (٤)
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ - إِذَا أَمَلُ سَمَا - نَفَذَتْ بِهِ سُورَى أَوْ اسْتَبْدَادُ (٥)

* * *

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الْأَحْبَبَةَ إِذَا بَتَ ذِكْرَاهُمْ أَنْ يَطْمئنَّ مِهَادُ
لَا يَأْسَ ، رَبِّ دُنُوِّ دَارِ جَامِعِ لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَى إِلَيْهِ بَعَادُ (٦)

(١) السجف: الستر، قالوا: أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة، أو دوكل باب ستر بسترين مقرونين، فكل شق سجف وسجاف، ويقال: اسجف الستر أي أرسله، والملاءة: الربطة، والنثرة الدرع السلسلة الملبس أو الواسعة، والفضل - كالمفضلة -: الثياب التي تبذل للنوم، وثوب فضل أي واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيجعلها على طاقه ويتوشح به، والنجاد: حائل السيف وضعها على طاقه فكانت بدل العطف، يقول: لعشيت سجفك، ودخلت عليك سترك في درع واسعة كالملاءة، فضل أي خالفت بين طرفيها فجعلتهما على طاقتي حين توشحت بها، أو فضل أي واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على طاقتي كالعطف من نجاد السيف أي حائله.

(٢) الجسد: الثوب المصبوغ بالزعفران أو العصفر، والجساد: الزعفران، قالوا: «والجسد والجساد: الزعفران» ويقال: أجسد ثوب فلان إجاداً فهو مجسد. يقول: لاني أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثوبك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعصفر.

(٣) أقصاد: يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد منكسر، ورمح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع، يقول: إذا اعتزمت زيوتها، وقصدت حماها لم يصرفني عن عزمي أن الرماح تتكسر دون الوصول إليها، وفي الأصل: «الفتى». (٤) اطباه: ازدهاه، وشاه وأعجبه.

(٥) وفي الأصل: «نفذت به شوري أو استبداد»

(٦) وفي الأصل: «لأبأس»

إِنَّ أَغْتَرِبَ فَوَاقِعَ الْكَرَمِ - الَّذِي
 أَوْ أَنَاء - عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي -
 الْمَجْدُ عُدْرَةٌ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى
 يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي - فَظَنُّوهُ
 أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرِينَ » كَلَيْهِمَا
 وَبَصُرْتُ بِالْأَبْرَدِينَ إِرْثٍ « مُحَرَّقٍ » (٢)

فِي الْغَرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ - أَرْتَادُ
 فَهْمُ الْعَبِيدِ مَلِيكُهُمْ « عَبَادٌ » (١)
 لِيَرَى الْمَصْنَعِ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)
 شَيْتِي تَرْجَحُ يَدْنَهَا الْأَضْدَادُ -
 فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلَّهُ فَسَادُ
 - لَمْ تَخْلُقَا - إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

(١) وفي الأصل :

« أو أناء عن صيد الملوك بجاني فهم العبيد ملوكهم عباد . »

(٢) وفي الأصل : « الجد عذر في العراق لمن نأى »

(٣) محرق

هو - كما في سرح العيون - « عمرو بن المنذر بن ماء السماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار الكندي ، وكان يقال لعمره مضطرب الحجارة لشدة بأسه ، وسمى محرقاً لقصة استوفى أبو الفرج شرحها في كتاب الأغاني ، فقال : كان فد قائد حياطي على ألا ينازعوا ، ولا يفاخروا ، ولا يغزوا ، ثم أنه غزا اليمامة ورجع منتبهاً ومربطاً ، فقال له زرار بن عدس التميمي ، وكان من خواصه أبيت اللعن أسب من هذا الحى شيئاً ، فقال ويلاك إن لهم عدداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأزواداً ، فقال في ذلك قيس بن وجرة الطائي :

« أراك ابن هند لم تعفك أمانة وما المرء إلا عهده وموائفه

فأقسمت جهدى بالأباطح من منى وما خب في بطحاءهن درادقه

لئن لم تغير بعض ما قد فعلته لانحنين للعظم ذوات عارقه . »

سمى طرفاً بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زرار بن عدس أبيت اللعن أتوعدك ؟ فقال عمرو لرميلة بن شعار الطائي أبهجوني ابن عمك وتوعدني . قال لا والله ما هجاك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن جفنة جاركم ما إن كساكم ضيعة وهو انا . »

وأراد رميلة أن يسأل سخيته ، فقال والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقاً ، فقال منشداً :

« أيوعدني والرمل بيني وبينه تين رويداً ما امامة من هند

غدرت بعهد كنت أنت أخذتنا عليه وشر الشبيعة النذر بالعهد

وقد يترك النذر الفتى وطعامه إذا هو أمسى جله من دم الفصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله فنزاً طياً فأسراً سرى من بني عدى بن أحزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله في الأسرى فأطلقهم له ، وكان المنذر بن ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عند زرار

ابن عدس ، وأن مالكا خرج وما يتصيد فأخفق ولم يجد شيئاً ، فرجع فرّ بابل لرجل من بني عبدالله بن دارم يقال له سويد ، وكان عند سويد ابنة زرارة ، فولدت له سبعة غلامه ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انبته شدّت على مالك بعضها فضربه فأتمته ، فمات وخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة ، وكانت طلى تطلب عنزة بن زرارة وبني أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخي الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائي :

« من مبلغ عمروأ بأن المرء لم يخلق صباره
وهو اودن الأيام لا تبقى لها إلا الحجاره
أن ابن عمرو أمته بالسفح أسفل من أزاره
تسفي الرياح خلال كشحيه وقد سلبوا أزاره
فاقتل زرارة لا أرى في القوم أوفى من زرارته .»

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى وفاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب وركب عمرو في طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهي حبلى ، فقال أذكر في بطنك أم أنتي ؟ قالت لا علم لي بذلك فبقر بطنها ، فقال قوم زرارة لزرارة والله ما نلتك أختا الملك فأنه فأصدته الخبر ، فأتاه فتنصل إليه ، فقال على بسويد ، فقال إنه لحق بمكة ، قال فملىّ بينيه ، فأتاه بينيه السبعة وأمهم بنت زرارة غلّة بعضهم فوق بعض ، فأمر يقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه وتعلق بزرارة الآخرون ، فقال زرارة : يا بعضي ، فذهب مثلا وقتلوا وآلى عمرو بن هند ألية ليحرقن من بني حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدنم وبعث على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائي فوجد القوم قد أئذروا فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلا بناحية البحرين فحبسهم ولحقه ابن هند فضربت قبتة وأسرهم بأخدود ثم أضرم فيه نارا ، فلما احتدمت وتلظت كذف بهم فيه فاحترقوا فأقبل راكب من البراجم وهم بطن من بني حنظلة لا يدري بشيء مما كان يصنع بغيره فأخذ وألقى في النار وأنام عمرو بن هند لا يرى أحدا ، فقتل له لو تحلكت بامرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلا ، فدعا بامرأة من بني حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ قالت الحمراء بنت ضمرة ، فقال إني لأظلك أعجبية ؟ ففالت : ما أنا بأعجبية ولا ولدتي العجم :

« إني لبنت ضمرة بن جابر سادا معدا كبيرا عن كابر .»

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتى أن تلد مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : «أما والذي أسأته أن يضع وسادك ويخفض سادك ، ما تقتل الانساء أعاليها دمي .» قال اقدوها في النار فالتفت وقالت : ألا تفي يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات صار الفتيان حمأ وسمى من ذلك اليوم محرقا ، ومن ملوك جفنة أيضا المحرق لكنه غير صاحب البردين - فأما أمر البردين فخفي أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه يلو الوفود وقال ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذها ، فقام طامر بن أحيمر فأخذها فأترز بالواحد وارتي بالآخر ، فقال له أنت أعزّ العرب قبيلة ؟ قال العزكاه في معد والعدد في معد ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في بهدلة فمن أنكرك هذا فلينا فرني فسكت الناس ، فقال هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك ؟ قال أنا أبو عسرة ، وأخو عسرة ، ، وهم عسرة ، وخال عسرة ، وما أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزلها من مكانها فله عسرة من الابل فلم يتم إليه أحدا ، وخرج بالبردين فضربت العرب بعزه المثل ويبرديه .

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو ^(١) تَأْرَهُ جَذِيْمَةَ الوَضَاحِ ^(٢) حِينَ يُكَادُ

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر ص « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضاح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن حامر النخعي ، وقبل الأزدى أول من فاد العرب ومالك على قضاة ، وكانت منازلهم الحيرة والانباء وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعُدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرص والوضاح ، وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرص ، وفي العرب من يفتخر بذلك . قال الراجز يمدح أبرص :

« أبرص فياض السيدن أكلف والبرص أدرى باللهما وأعرف . »

وهو أول من صنع له الشمع وأدج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمة وتيه مفرط ، ويقال له نديم الفرقدن كان إذا شرب قدحاً صب لها قدسين ولا ينادم غيرهما ، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان تكهن واتخذ صنيدين يقال لهما الغريبان يستسقي بهما ويتنصر على أعدائه ، وكانت اياد قد خرج قوم منهم من الحجاز وانتصروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما يلي الحيرة وكثروا بعين ألباغ ، فخرج جذيمة غازياً ، وكان في اياد رجل يقال له عدى بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة بساحتهم ، فبعث اياد قوماً منهم إلى صنيذة فسقوا مسدثهم الحجر وسرقوها فأصبحوا بها في اياد ، فبعث اياد إلى جذيمة تقول : إن صنيذك قد أصبحا عندنا زهداً فيك ورغبة فينا ، فان هادتنا على أن لا تنزونا وردناهما إليك ، فقال جذيمة وتمطوني أيضاً عدى بن نصر يكون عندي ففعلوا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان لجذيمة أخت تسمى رفاش وهي بكر ، فأجبت عديا وأحبها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بثياب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هذه الآثار يا عدي ؟ فقال آثار عرس رفاش ، فقال من زوجكها ويمك ؟ قال الملك ، فأكب على الأرض مفكراً وهرب عدى فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته تقول :

« خيريني رفاش لا تكذبيني أبحر زينت أم بيجين

أم ببسد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدرين . »

قالت بل أنت زوجتي امرأ غريباً ولم تشاورني في نفسي ، فكف عنها وآلى أن لا ينادم إلا الفرقدن وحملت رفاش غلاماً وسمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وجله مع ولده وخرج جذيمة متبدياً بأهله في سنة خصبة ، فأقام في روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يمتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا جنائ وخياره فيه ، إذ كلَّ جانَّ يده إلى فيه ، فضمه جذيمة إلى صدره وسرَّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أول عربي لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة في الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارح من الشام يريدان جذيمة وأهديا له طرفاً ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبس شعره فعرفهما نفسه فهضا وغسلا

وَأَتَى بِي النُّعْمَانُ^(١) - يَوْمَ نَعِيمِهِ - نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ المِيلَادُ
قَدْ أَلْفَتْ أَشْهُتَهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكُنُهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ^(٢)

رأسه وأصلحاً أمره وألبسها ثياباً ، وقالا ما كنا لنهدى جذية أفس من ابن أخته ، وخرجا به إلى جذية
فصرّ به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً ، وقال لما لك وعقيل حككما قالا
منادمتك ما بقينا وبقيت فكأنهما من ذلك وهما نديما جذية اللذان يضرب بهما المثل وإياهما عن متم بن
نوبرة بقوله في رثاء أخيه :

« وكنا كندمانى جذية حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدطا . »

وقيل إنما عنى الفرقدين ، ويحكى أن جذية سكر مرّة أخرى فقتلها ، فلما أصبح ندم ، وبني عليهما الزريبين
ونادم الفرقدين وقيل إن صاحب الغريبين المنذر الأكبر ، ثم إن جذية أرسل يخطب الزباء ملكة الحضرمي الحاجز
بين الفرس والروم ، وكالها وترعده فأجابته واستدعته إليها ، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى فخالفهم تصير
ابن سعد ، وكان ليبياً ، وقال : إن النساء يهدين إلى الأزواج فصاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعي بقة
استشارهم فأشاروا عليه لما يمامون من رأيه فيها ، فقال تصير انصرف ودمك في وجهك فأبى ، وظن
جذية حتى إذا طين الكتاب قد استقبلته . قال لتصير ما الرأي ؟ قال تركت الرأي بقة ، ثم ركب تصير
فرساً لجذية تسمى العصا فنجبا وأخذ جذية ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواهشه فقطعت والرواهش
عروق اليد واستنزفته حتى مات في خبر طويل مشهور ، وكانت مدة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة
مشهورة فمنها :

« أضحى جذية في بيرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله طاد
مستعمل الخير لا تفنى زيادته في كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلها ، فلما أصبح ندم على ذلك أشدّ الندم ، فبنى على
قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين في كلّ عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر
يوم يؤس . فأوّل من يطلع عليه في يوم النعم يعاينه مائة من الابل ، وأوّل من يطلع عليه في يوم يؤسه
يقتله ويطلق بدمه ضريحى نديمه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقي «عبيد بن الأبرص» في يوم يؤسه فقتله .
فقال له جلته التي صارت مثلاً فيما بعد وهي قوله : « حال المريض دون المريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين أزدانت بهم السير في شخص واحد هو المددوح ، فإذا لم
يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال الفاعل :

« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد . »

فَكَأَنِّي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا «عُرْوَةُ» الْوِفَادُ (١)

(١) عروة الوفاد

نلخص هنا طرفا من أخباره عن كتاب الأغاني فنقول :
هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لنيم بن عوذ بن غالب بن قطيعه بن عيس بن بنيش بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أجوادها المقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يصيبوا معاشا ، ولذلك سمي عروة الصعاليك ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولذنى بمن لم يلدنى إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إني امرؤ طاني لإنائي شركة وأنت امرؤ طاني لإنائك واحد
أترأ مني أن سميت وأن ترى بحسبي مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد . »

ويقال أيضا : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتما أسبح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباههم ثم يحفر لهم الأسراب ، ويتخذ لهم حظائر يكتفها عليهم ويؤويهم إليها ، ومن قوى منهم بأن يرى من مرضه أو ثابت إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه الباقين نصيبا ، وعن ابن الأعرابي قال : أجذب ناس من بني عيس في سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأثوا عروة بن الورد جلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فرق لهم وخرج لينزويهم ويصيب معاشا فنهته امرأته عن ذلك لحونها عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازيا ، فر بمالك بن حمار الفزاري فنحر له جزورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد النين فأغار عليهم فأصاب هجمة حاد بها على نفسه وأصحابه وقال في ذلك :

« أرى أم حسان النداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سليبي لو أقت لسرنا ولم تدر أني للمقام أطرف
لعل الذي خوتتنا من أمامنا يصادفه في أهله المتخلف . »

وقال في ذلك أيضا :

« أليس ورائي أن أدب على العصا فيشدت أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قمر البيت كل عشية يطيف بي الولدان أهدج كالرأل
أقيوا بني أمي صدور ركابكم فكل منايا النفس خير من الهزل
فانكروا لن تلبوا كل همتي ولا أرنى حتى تروا منبت الأثل
لعل ارتيادي في البلاد وحيلتي وشدى حيازيم المطية بالرحل
سـيـدفعني يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبعثل . »

فِي قَصْرِ مَلِكِ كَالسِّدِيرِ^(١) أَوْ الَّذِي نَاطَتْ بِهِ شُرَفَاتِهَا سِنْدَادُ^(٢)

(١) السدير

« السدير » قصر — وهو معرب — قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أي قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعرّبه العرب ، وقالوا : « سدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورتق » كان النعمان الأكبر اتخذ له بعض ملوك العجم .
وسبأني ذكره في شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » في شرح هذه القصيدة .
وقد ذكره « عبد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » في خلافة أبي بكر فقال :

« أبعد المنذرين أرى سواما تروح بالخورتق والسدير
تحاماه فوارس كل حي مخافة أغلب على الزئير
فصرنا بعملك «أبي قبيس» كتيل الشاء في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من «معد» كأننا بعض أعضاء الجزور»

وقال المجل في تصديده المشهورة :

« فاذا سكرت ، فاني رب الخورتق والسدير
وإذا صحت ، فاني رب الشوية والبعير .»

(٢) سنداد

« سنداد » قصر بالمذنب وهو المقصود هنا ، وسنداد — في رواية أبي الحسين الأديبي : نهر ، وقد استدلل على ذلك بقول أبي دؤاد الايادي :

« أفقر الدير فالأجارع من قو مي ، فروق ، فرامح ، بخفيه
فتلاع الملا إلى جرف سنداد د ، فقو ، إلى نعاف طيبه
موحشات من الأنيس — بها الوح ش خناطيل موطن أو بنيه .»

قالوا : وسئل عنه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرهما ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسماي بالكسر .

وفي رواية « السكوني » : « سنداد منازل لا ياد نزلتها لما قاربت الريف ، بعد لاصف وشرج وناظرة ، وهو أسفل سواد الكوفة ، وراء نجران الكوفة .»

قال حمزة في تاريخه : « وكان قد تملك في القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب ستة عشر مرزباناً ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سحنت ، وطال مكثه في الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب اقصر ذى الشرفات من « سنداد » الذي يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَوَهَّمُ الشَّهْبَاءَ فِيهِ كَتِيبَةٌ بِفِنَاءٍ ، الِيَحْمُومُ فِيهِ جَوَادُ
يَحْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسَطَهُ يِيضُ كَمَرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِعَادُ^(١)

*
* *

فِي «آلِ عِبَادٍ» حَطَطْتُ فَأَعَصَمْتُ هَمِي بِحَيْثُ أَنْفَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَازِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وَهَادُ^(٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعَدُّ عَقِيلَةَ مَاءَ السَّمَاءِ ، فَهَمُّ لَهَا أُوْلَادُ
يَبْتُ تَوَدُّ الشُّهْبُ فِي أَفْلَاكِهَا لَوْ أَنَّهَا - لِبِنَائِهِ - أُوتَادُ

قال ابن الكبي :

وكانت «إباد» تنزل سنداد - وهو نهر فيما بين «الحيرة» إلى «الابلة» وكان عليه قصر تخرج العرب إليه ، وهو القصر الذي ذكره الأسردي بن يعفر .
قالوا : وصر «عمر بن عبد العزيز» بقصر لآل جفنة فنبتل «مناجم» مولاه بقول «الأسود» ابن يعفر النهشلي :

«ومن الحوادث - لأبائك - أنني ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهدى فيها لمدفع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أو مل - بعد آل محرق - تركوا منازلهم وبعده إباد
أهل الخورنق والسدير وبارق والنصر - ذى الشرفات - من سنداد
حلوا بأقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجي من أطواد
أرض تخيرها - لطيب مقلها - كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراض ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
وتعد غنوا فيها بأفضل عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعم وكل ما يلهي به يوماً يصير إلى بلى ونقاد .»

فقال له عمر : ألا قرأت : «كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين
كذلك وأورثناها قوماً آخرين»

(١) يقول يحنال القصر من سير الجداول وسطه متجددة كبيض السيوف المرهفة ، وفي الأصل :
«يحتال من سر الأشاهب وسطه ييض كرهفه السيوف جعاد .»

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :

«هم الصمراخ المنيفات الذرى والناس ضحاح ثناب وأضى .»

مَمْدُودَةٌ يُلْهَى ^(١) النَّدَى أَطْنَابُهُ
 مَرَّةً فُوعَةً - بِالْبَيْضِ - مِنْهُ عِمَادُ
 مُتَقَادِمٌ إِلَّا تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا
 لِدَّةٌ لَهُ ، فَتُجْمِئُهَا أَرَادُ ^(٢)
 نَيْطَتْ «بِعِبَادٍ» لَأَلِيَّ مَجْدِهِمْ
 فَتَلَّالَاتٌ - فِي تُومِهَا ^(٣) - الْأَفْرَادُ
 مَلِكٌ إِذَا أَفْتَنَتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ
 فَتَقَاصَّرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الْأَعْدَادُ
 نَسَبَتْ زَيْدُهُ ^(٤) عَمْرُهَا بَلْ أَعْرَضَتْ

(١) اللهم : العطايا :

(٢) أَرَادَ - جمع رَأَى - يقال رَأَى الضحى : أى ارتفاعه ورأى الأرض : خلأها ، قال الطغرائى :

« مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل . »

(٣) التوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسببت تومة لأنها تومة نظيرتها فى القدر أو فى الأذن ، والأفراد : جمع فرد وهو ما لانظيره فى القدر يقال : فرد وفريد ، ويقال : نام أخاه أى ولد معه ، فهو تومة ، وتومعه .

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدي

ويضرب المثل بأقدامه وشجاعته .

اقسام عمر فى سباحة حاتم فى حلم أخنفت فى ذكاء إبليس .

هو - كما فى سرح العيون - عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيدي ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب النارات والوقائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، وقد على رسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأفلا من « تبوك » فأردت أن أدنو إليه ، فثمنى من حوله .

فقال : « دهوره » فدنوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « يا عمرو أسلم تسلم ويؤمنك الله من الفزع الأكبر » فأسلمت

وطاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاه حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف فانزمت وانزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الخنعمى ما رأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له طليح فقتله ، ثم آخر فقتله ثم انزموا فنبعهم وتبعته ، ثم انصرف إلى خباء له أسود فنزل فدعا بالطفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال مررنا يوم القادسية بعمر بن معديكرب وهو يحضّ الناس بين الصفيين ويقول : أيها الناس كونوا أشدّ مناشأ إنّ هذا الرجل من الأعاجم إذا لقي مزارفا فاتمما هو تبس ، فبينما هو كذلك يمرحنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصفيين فرماه بنشابة ، فما أخطأت سية قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حمل عليه فاتعنته ، ثم أخذ بمنطقته فاحتله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عنقه ،

ثم أمر الصمصامة على حلقة فذبحه ونزع سواريه ومدنقته وألقاه وقال : « هكذا فاصنعوا بهم » قلنا : « من يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال : لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالاً عظيمة فنزل سعد بن أبي وقاص الخنيس ثم قسم البقية فأصاب الفارس ستة آلاف وبقي مال دثر ، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الخنيس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ففعل ذلك ، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حيلة القرآن ، فأناه عمرو بن معديكرب ، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : لاني أسلمت ، ثم شغلت بالنزول عن حفظ القرآن ، وقبل أناه بشر بن ربيعة ، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي بسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم ، فقال سعد مالك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو منشداً :

« إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد فالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ ولاسوية إذ تعطى الدنانير . »

وقال بشر أبياتاً فكتب سعد إلى عمر بما قال ، فكتب إليه : « أعطهما على بلأهما » فأعطاهما أربعة آلاف درهم ، وحكى المدائني قال : كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل ، فرمى عمرو على فرس له ، فقال هذا هجين ، فقال عمرو عتيق . قال فأمر به نعطش ، ثم دعا بقرس ، فقلب فيه ماء فدعا بجمل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو ، فثنى يديه وشرب وهكذا يصنع الهجين ، فقال له ألا ترى ؟ قال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر ، فكتب إليه قد بلاني ما قات لأميرك ، وبلاني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندى سيف مصعوم بالله ابن وضعت على دامنك لا أتلع حتى أبلغ به شراسيفك فان سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد ، ويروى أن عمر رضى الله عنه سأله يوماً ، فقال ما تقول في الحرب ؟ قال مرة المذاق إذا كشفت عن ساق ، فن صبر درف ، ومن ضعف تاف . قال فما تقول في الريح ؟ قال خليلك وربما خارك . قال فالنبل ؟ قال منايا تخيلى وتصيب . قال فالقرس ؟ قال عليه تدور الدوائر . قال فالسيف ؟ قال عبدك فكذلك أمك . قال عمر بل أمك ، فقال الجنى أضرعتنى ، فأذلل له عمر في الكلام ، فقال :

« أنوعدى كأنك ذور رحين بأقم عيشة أو ذر نواس

فلا تفخر بملكك كل ملك يصير لذلة بعد الشماس . »

قال عمر صدقت فاقصص منى قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها منك لجلتلك بالسيف أخذ منك أم ترك ، قال وما هي ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، والله لو علمت انى إذا دخلتها مت لعمرك ، وحكى أن عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أفام أياماً ، ثم قال : والله مالى بأبى ثور عهد ، ثم ركب فرساً وسأل عن حلة بنى زيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤثراً كأنما كسر وجبر ، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم ، فقال دعنا مما لانعرف انزل فان عندى كبتاً سينا فنزل فعدد إلى الكباش فذبحه ثم ألقاه في قدر وطبخه ، وجلس يتحدث إلى أن أدرك فترد في جفنة عظيمة وألقى الفدر عليها وقمدا فأكلها منها ثم قال : أى الشراب أحب إليك الابن أم ما كنا نتقدم عليه في الجاهلية ، فقال أو ليس حرمها الله تعالى في

الاسلام ، فقال : أنت أقدم إسلاماً أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فاني قد سمعت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريماً إلا انه قال : فهل أنتم منتهون . قلت : « لا » ثم جاء بنيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أسيما ، فلما أراد عينة الانصراف . قال عمرو إن انصرف أبو مالك بنير حياءً لأنها لوصفة فأمرله بنافة أرحبية وحمله عليها ثم أتى بمزود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا ألمسه ، فانصرف وهو يقول :

« جزيت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن في عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال : وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث — على عادتهم — قال : « غزوت في الجاهلية على بني مالك فخرجوا مستدنين بمخالد بن الصقبة فحمت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه » وكان خالد بن الصقبة حاضراً ، فقال بعض الجماعة : « مهلاً أبا ثور قتيلك يسمع كلامك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أرقم ، ثم النفث إلى خالد وقال : « إنما نرهب هذه المعديفة بهذه الأخبار » ومضى في حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع في الحرب والكذب » فقال : « إني كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسن فقال لا تظنن ما بقي من قوّة أبا ثور فأدخل يده بين ساقه وجنب الفرس فظن عمرو لذلك نضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن يتزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال : « يا ابن أخي مالك ؟ » قال : « يدي تحت سائك » تغلى عنه وقال : « إن في عمك بقية بعد » ومن كلامه حكى أنه أتى بجاشع بن مسعود فقال : أسألك حلالن مثلن وسلاح مثلن فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فر بنى حنظلة فقالوا : « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ » قال : « لله بنو بجاشع ما أشدّ في الحروب لقاءها ، وأجزل في اللزبات عطاءها ، وأحسن في المسكرات بناءها ، والله لقد فانتها فما أجبنتها وسألتها فما أبجنتها ، وهاجبتها فما أحمّتها » ومن جيد شعره :

« ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول ماء أرسلت فأسبّطت
بجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروها فاستقرت
ظلت كأنني للرماح دريشة أقاتل عن أحساب جرم وفرت
ولو أن قومي أنظقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت . »

قوله أقاتل عن أحساب جرم من الهجاء الممض ، وذلك أنه ذكر أن قرماً نرواً وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومي أنظقتني ، يعني لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم نرواً ، فأسكتوني عن المدح ، والأصل في الاجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضام وفي القصيدة التي أولها : « أمن ريحانة الداعي السميع »

يقول :

« وقد عجبت أمامة أن رأني تفرع لمتي شيب فظيع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الضلوع
وزحف كتيبة للقاء أخرى كأن زهاءها رأس صليح

وإسناد الأسنة نحو نحري وهزّ المشرفية والوقوع
فإن تنب النوائب آل عصم تجد حكاهم فيها رفوع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شيء سما لك أو سموت له نزوع .
وقوله أيضاً :

« يا أيها المغتاتبا - جهلابنا - وولدت عبدا
ليس الجمال بمعتز - فاعلم - وإن رديت بردا
إنّ الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثات سا بقة وعداء عندي
نهدا وإذا شطب يقد البيض والأبدان قدا
كل امرئٌ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

لما رأيت نساءنا يفصحن - بالمعزاء - شدا
وبدت محاسنها التي تخني ، وطاد الأمر جدا
نازلت كبشهم ، ولم أر - من نزال الكش - بدا
هم يندرون دمي وانذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت - مثل السيف - فردا .

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحقّ بها التقدم على بشر كثير » وأما الصمصامة فهي سيفه
المشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف ، وهي : ذو الفقار ، وذو النون ،
ومجنوب ، ورسوب ، والصمصامة . فأما ذو الفقار : فكان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذه
من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومجنوب ورسوب : للحرث بن جبلة النسائي ، وذو النون والصمصامة :
لعمر بن معديكرب ، وحكى أن عمرو بن الخطاب قال لعمر بن أبي بكر الصمصامة ، فبعث به إليه فلم يره كما
بلغه ، فقال له في ذلك ؟ فقال إنى بعث إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التي تضرب به ، وحكى أبو عبيدة
أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بني زيد ، وكان خالد بن
سعيد من جملة أمرائه أوقع بهم وأمر رجحانة أخت عمرو بن معديكرب ففداها خالد وأباه عمرو الصمصامة ،
ثم فقد يوم الدار في مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدي البصرة ، فلما كان بواسط أرسل
إلى بني العاص يطلب الصمصامة ، فقالوا إنه في السبيل محبباً ، فقال خسوف سيفاً فاطعاً في السبيل أغفى من
سيف واحد وأعطاهم خمسين سيفاً وأخذه ، فلما صار إلى الهادي أحضره وأمر الشعراء بوصفه ، فقال
بعضهم من أبيات :

« حاز صمصامة الزبيدي عمرو من جميع الأنام موسى الأيمن

ما يبالي من انتضاه لضرب أشمال سقطت به أم يمين . »

ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه « باغزا » التركي فقتله به ، ومن عند « باغزا » تقطع خبره .

عَنْ وَصِيفٍ «كَعْبٍ» ^(١) بِالسَّمَاكِ إِيَادُ
لَعْنًا «الْمُغِيرَةُ» أَوْ أَقْرَبَ «زِيَادُ» ^(٢) فَضَحَ الدُّهَاءَةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ

(١) كعب بن مامة

هو كعب بن مامة الايادي ، وكان أحد أجنود العرب يضرب به المثل في الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه فقل عليها الماء فتصانفاه ، والتصانف أن يوضع في الماء مقلعة أي حجر صنير يغمر بالماء لثلاث يتناوبوا في القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فاذا جاء دور كعب . قال له رفيقه وقد جهده العطش : « أسق أخاك » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورضت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فبات عطشاً ، وفي ذلك يقول أبو دواد الايادي :
« أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وراذ لنا وودا . »
ارجع إلى الكامل للمبرد « ص ١٣٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أئذاف العرب وساستهم ودعاتهم وأخبارهما مستفيضة في كتب التاريخ ، ولسكننا نجتزئ القول اجتزاء فيما يلي :
قالوا :
وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية للعارث بن كعدة الثقفي ، فزوجها بعبد له رومي يقال له : « عبيد » فولدت « سمية » زيادا على فراشه ، فهو ولد « عبيد » شرعا . قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار في الجمالية إلى « الطائف » فنزل على بائع خمر يقال له : « أبو مریم » - وقد أسلم فيما بعد - فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو مریم : « هل لك في سمية ؟ » فقال أبو سفيان :
« هاتما على طول ثديها وذفر بطنها »
فأتاه بها ، فوقع عليها ، فذال إنها علفت منه زياد ، ثم وضعت في السنة التي هاجر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونشأ « زياد » فصيحاً .
وحضر « زياد » يوماً بمحضر جماعة من الصحابة في خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص » : لو كان أبو هذا النلام من قريش ، لساق العرب بعصاه .
فقال أبو سفيان لعلي بن أبي طالب :
« إني لأعرف من وضعه في رحم أمه »
فقال علي :
« فما يمنعك من استلحاقه »
قال :
« أخاف الأصلح (يعني عمر) أن يقطع إهابي بالدرة »

لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ
 مَلِكٍ - إِذَا مَا أُخْتَالَ - غُرَّةٌ فَيَلْقَى قَدْ أَمْطَيْتُ عِقْبَانَهُ الْأَسَادُ (١)
 أَسَدٌ، فَرَأْسُهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوَعْيِ، لَكِنَّ بَرَائِنَهَا - هُنَاكَ - صِعَادُ (٢)

فلما كانت قضية شهادة اليهود على المغيرة بالزنا وجلدهم لعدم ثبوت الزنا عليه - ومنهم أبو بكره أخو زياد لأمه - وامتناع « زياد » حين كان يؤدى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه - اتخذ المغيرة لذلك زياديدا .

ثم لما ولى « على بن أبي طالب » الخلافة ، استعمل « زيادا » على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل في طاعة « معاوية » واهتم معاوية بالأمر ، وخاف أن يدعو إلى أحد من بني هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولى « المغيرة بن شعبه » السكوفة ، فقدم « المغيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المغيرة » :

« أتأذن لي في السير إليه ؟ »

فأذن له ، وكتب « معاوية » زيادا أماناً ، فتوجه « المغيرة » إليه - لما بينهما من المودة - ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبايعه .

وفي سنة ٤٤ هـ استأحق « معاوية » « زياداً » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد زياد بالنسب ، وكان من حضر لذلك « أبو مرزم » تابع الحجر الذي أسلفنا ذكره - وهو الذي أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبي سفيان » بالطائف - فشهد بنسب « زياد » من « أبي سفيان » .

قالوا : « فاستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأكروه لاسيما بنو أمية لأن زيادا ابن عبيد الروى قد ألحق نسبه ببني أمية بن عبد شمس ، وقد قال « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » في ذلك :

« ألابلغ « معاوية بن سحر » : « لقد ضاقت بما تأتى اليان »

أتنضب أن يقال : « أبوك عاف ؟ » وترضى أن يقال : « أبوك زانى ؟ »

وأشهد أن رحلك - من زياد - كرحم الفيل من ولد الأنان . »

ثم ولى « معاوية » « زياداً » البصرة ، وأضاف إليه « خراسان » و « سجستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان .

(١) عقبان - جمع عقاب - وهو من سباع الطير التي تصيد . قال المتنبي :

« شكوى الجريح إلى العقبان والرخم »

وقال البعترى :

« ضاقت بسعد أرضها لما رى ساحاتها بالخيل والفرسان »

بفوارس - مثل الصقور - وضمر مجذولة ، ككواسر العقبان . »

(٢) صعاد - جمع صعدة - وهي القناة التي تثبت مستقيمة لا تحتاج إلى التنقيف ، والصعدة - من

النساء - المستقيمة القائمة - على التشبيه - قال « كعب بن جعيل » يصف امرأة شبه قديدا بالقناة :

« فإذا قامت إلى جاراتها لاحت الساق مجلخال زجل »

صعدة نابتة في حائر أينما الريح تميلها تمل . »

خِلْتِ اللِّوَاءَ نَمَامَةً فِي ظِلِّهَا قَرْمٌ ، بَغْرَتِهِ السَّنَا الْوَقَادُ

* * *

شَيْحَانُ مُنْعَمِسُ السَّنَانِ مِنَ الْعِدَا فِي النَّقْعِ - حَيْثُ تَفْلَعُلُ الْأَحْقَادُ
تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ (١)
جَبَشٌ - إِذَا مَا الْأَفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ مَعَهُ - فَبِي ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ (٢)
مُسْتَطْرَفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبُهُ مَجْدٌ - يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ - تِلَادُ (٣)
مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رِفَاهَةٍ رَاحَةٍ حَتَّى يُخْلَدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ
أَرَجُ النَّدَى ، مَتَى تَفْزُ بِجِوَارِهِ يَطْبُ الْحَدِيثُ وَيَبْقُ «الْإِنْشَادُ» (٤)
لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مُفْرَقٌ فِي الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحْسَ جَمَادُ

* * *

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي زَهْرُ النُّجُومِ - لَوَجْهِهِ - حُسَادُ
تَبْدُو عَلَيْكَ - مِنَ الْوَسَامَةِ - حُلَّةٌ يَهْفُو إِلَيْهَا - بِالنَّفُوسِ - وَدَادُ
لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنَ أَوْلُ نَظْرَةٍ لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتَ تَرْدَادُ

- (١) النقع : الفبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول : « تشكو إليه الشمس سطوع النبار ، والنقع المنار لأنه أرمدها فأنقضتها ولم تبصر . »
(٢) يقول : إن هذا الجيش إذا سارته في الأفق عقبان الجو وجوارح الطير ، في ذمة الصوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .
(٣) مستطرف : أي مستحدث لنفسه مجدا طريقا أي جديدا مكسوبا غير موروث ، والحسب : محرمة وقد يسكن كما هنا ما يمهده الانسان من مفاخره ، والتلاد : التقديم للموروث عن الآباء .
(٤) الندى : المجلس ، يقول : هو أراج الندى أي عطر ما ينبعث عن مجلسه من طيب القول وطاهر الثناء ، إذا فزت بقربه ودنوت من مجلسه ، يطيب الحديث ، ويعبق في أرجاء المجلس عبر الانشاد ، وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا :

« أراج الندى ، متى تفز بجواره يطب الحديث ويعبق . . . »

والتكلمة يعطيها السياق .

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ فِي الدَّهْرِ - أَوْ أَوْدٍ فَأَنْتَ سِدَادُ^(١)
 الدِّينِ وَجْهَهُ أَنْتَ فِيهِ غِرَّةٌ وَالْمَلِكُ جَفْنُهُ أَنْتَ فِيهِ سِوَادُ
 اللَّهُ مِنْكَ يَدٌ عَلَّتْ ، تُوَلِّي بِهَا صَفًّا أَفِيحَمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ^(٢)
 لَوْ أَنَّ أَفْوَاهَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ فِيهَا لَوَافِقَ حَظَلَهَا الْإِسْعَادُ
 نَفَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ^(٣) مِنْكَ ، لِأَنَّهُ بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْأَكْبَادُ
 يَنْصَاعُ مَنْ جَارَكَ مَقْبُوضَ الْخَطَا فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ^(٤)

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةٌ *
 « أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِحَادُ :
 كَرَّمْ كَمَاكَ الْمَزْنِ رَاقٍ خِلَالَهُ لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ .
 وَمَحَاسِنُ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا أَدَبٌ كَرُوضِ الْحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ^(٥)
 فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أَعْيَادُ^(٦) »

(١) يقول : ما كان من خلال في الزمان فأنت سداه الذي يسد به ، أو كان من أود فيه واعوجاج فأنت سداد ، أي بك سداه وصلاحه وتقويمه .

(٢) الصغد العطاء ، والصفاد : ما يوثق به المفيد من قيد ونحوه ، يقول : لله منك يد تولى الجبل وتهب العطاء ، لا تزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ما قيدتنا به من أصفاد النعم ، وقد جانس بين الصغد بمعنى العطاء ، والصفاد بمعنى القيد ، وجعل الاحسان صفادا وقيدا مستغيب في كلام الشعراء ، قال الشاعر :
 « ومن وجد الاحسان قيد تقيدا . » ، وقال ابن الرومي :

« ما على الأحرار من رق إذا تقدموا شكرهم مولى أيادى

إنما النعمى صـفـفـاد فاذا لقيت شكراً فليست بصفاد . »

وقال ابن حيوس :

« عقلتهم بالجبل فانقلوا ربعةأهأصفادهاالصفـفـد . »

أي قيودها العطاء ، وفي الأصل : « تولى بها * صفـفـد . »

(٣) في الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته في المجد كل من جراه ، ويقف حيث ابتداء مقبوض الخطا كأنما عضت بسبقانه القيود فتمتته من المضي .

(٥) الزن : السحاب ويجمد يعطر بالجوهر (يفتح فسكون) وهو المطر النزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا الكرم الذي وصفه في البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ،

فكأنما كل يوم من أيامها عيد .

* *
* *

يَأْيُهَا الْمَلِكُ الَّذِي - فِي ظِلِّهِ -
يَا خَيْرَ « مُعْتَصِدٍ » بِمَنْ أَقْدَارُهُ
لَمَّا وَرَدَتْ - بِوَرْدِ حَضْرَتِكَ - الْمُنَى
فَأَسْتَقْبَلْتَنِي الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً
فَدَلَّتْ فَحَرَّتْ - بِمَا بَلَغَتْ - لَقَلَّ لِي
مَهْمًا أُمْتَدَحْتُ سِوَاكَ - قَبْلَ - فَإِنَّمَا
يَغْشَى الْمِيَادِينَ الْفَوَارِسُ - حِقْبَةً -
فَلَأَسْحَبَنْ ذَيْلَ الْمُنَى فِي سَاحَةِ
وَلَيْسَتْ تَفِيدُنَّ السَّنَاءَ مَعَ الْعِنَى
وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شَيْمَةٍ مِنْ أَنْ يَرَى
هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ مَرَى
لَا تَعْدَمَنَّ - مِنَ الْحُظُوظِ - ذَخِيرَةٌ

رِيضَ الزَّمَانِ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ
- فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ - لَهُ أَعْضَادُ
فَهَمَّتْ لَدَى جَمَاهَا الْأَعْدَادُ (١)
لِلْبَحْرِ - مِنْ نَفَحَاتِهَا - أَسْتِمْدَادُ
أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عِتَادُ
مَدْحِي - إِلَى مَدْحِي - لَكَ أَسْتِطْرَادُ
كَيْمَا يُعَلِّمُهَا النَّزَالَ طِرَادُ (٢)
- إِلَّا أَوْفَ بِهَا الْمُنَى - فَأَزَادُ (٣)
عَبْدٌ يُفِيدُ النَّصْحَ حِينَ يُفَادُ
- لِنَفِيسِ أَعْلَاقِي لَدَيْكَ - كَسَادُ
أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعِيهِ الْإِحْمَادُ (٤)
تَبْقَى فَلَا يَتَلَوُّ الْبُقَاءَ نَفَادُ

(١) فهتت : جواب لما أى سالت ، وجماءها : جمع جم (بالفتح) وجمه (بالضم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت في حضرتك ورد المنى ، همت جماءها ، وسالت مياها الأعداد ، يريد أنه رأى فيض المنى ينبثق من راحتيه ، وفي الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك لنا فهتت لدى جماءها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضا للمران على الحرب .
(٣) فلاسحين من المنى ذيلها في ساحة جواد إن لم أوف بها ما تطمح إليه نفسى من الأمانى فأنا سأزاد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن يبق له بما تسو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيده عليها فوق ما يريد ويتنى .

(٤) يشير إلى النمل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى . » وسيمر بك شرحه في ص (٢١٧) من هذا الديوان .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد ، ويذكر
بعض مواقف له مع خاصته من أصفائه ،
والمناوئين له من أعدائه . »

لِيَهْنِ الْهُدَىٰ إِنْجَاحُ سَعِيكَ فِي الْعِدَا
وَتَهْجُكَ سَبِيلُ الرَّشْدِ فِي قَمْعِ مَنْ غَوَىٰ
وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالَاكَ فِي نَشْوَةِ الْغِنَىٰ
وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةِ الْعَهْدِ طَلْقَةً
وَدَوْلَةً سَاعِدٍ لَا أَنْتَهَاءَ حِدَّةِ
دَعْوَتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبِيكَ مَائِلًا
وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللَّهِ نَحْوَكَ وَأُغْتَدَىٰ^(١)
وَعَدْلُكَ فِي اسْتِصْالٍ مَنْ جَارَ وَأُغْتَدَىٰ^(٢)
وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِي غَمْرَةِ الرَّدَىٰ^(٣)
كَمَا ابْتَسَمَ الثَّوَارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَىٰ^(٤)
إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَىٰ تَوْلَدًا
وَلَمْ تَكُ كَالدَّاعِي يُجَاوِبُهُ الصَّدَىٰ

(١) السمي : التصرف في كل عمل من خير أو شر ، أي أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل تهمة وبشرى حيث أنجح الله سعيك في مناجرة أعدائك ولم يزل يعمدك بمجيب صنعته ولطيف إحسانه في الراح والغدو ، والصبح والعشى .

(٢) وليهن الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشده ، وإجراؤك سنة العدل في قمع الغاوين المفسدين ، واستئصال شأفة الجائرين المعتدين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وتطهير المملكة من مفسادهم وشرورهم .

(٣) والى : الموالاته ضد العاداته ، وقد طابى في البيت بين «بات» و «أصبح» و «والى» و «عادى» و «نشوة الغنى» و «غمرة الردى»

(٤) الثوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحدته نواره وقد نور الشجر والنبات أى أزهر ، وفي البيت تشبيه الثوار بالنفر الباسم عن لؤلؤ الطل .

وَأَمَّحَدْتَ عُمِّي الصَّبْرِ فِي دَرَكِ الْمَنَى كَمَا بَلَغَ السَّارِي الصَّبَّاحَ فَأَمَّحَدَا (١)

« أَعْبَادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةِ ^{***} وَأَرْعَاهُمْ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا
تَبَايَنْتَ فِي حَالِيكَ : غُرَّتَ تَوَاضَعًا لَتَسْتَوِي الْعَلِيَا ، وَأَنْجَدْتَ سُودَدَا (٢)

(١) الدرك : محركا للحاق والوصول إلى الشيء ، يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال جعدر يخاطب الأسد :

« لَيْتَ وَلَيْتَ فِي مَكَانِ ضَنْكَ كِلَاهِمَا ذُو أَنْفٍ وَمَحَكِ
وَبَطْشَةِ وَصَوْلَةِ وَفَنَكِ إِنْ يَكْشِفُ اللَّهُ قَنَاعَ الشَّكِ
يَظْفَرُ مِنْ حَاجَتِي وَدَرَكِ فَنَذَا أَحَقَّ مَنْزِلَ بِتَرَكِ
الذَّبِّ يَمُوعِي وَالغَرَابِ بِيكِي »

والساري : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل « عند الصباح يحمد القوم السرى » وأول من قال ذلك كما في مجمع الأمثال عن « المفضل » الضبي هو « خالد بن الوليد » لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنها وهو « باليمامة » أن سر إلى « العراق » فأراد سلوك المفازة ، فقال له « رافع » الطائي : قد سلكتها في الجاهلية ، هي خمس للابل الواردة ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشتري مائة شارف فغطسها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكعم أفواهما ، ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والحيل وخشى أن يذهب ما في بطون الابل ، نحر الابل ، واستخرج مافي بطونها من الماء وسقى الناس والحيل ومضى فلما كان في الليلة الرابعة ، قال « رافع » : انظروا هل ترون سهدرا عظاما ؟ فان رأيتوها وإلا فهو الهلاك . فظفر الناس فرأوا السهدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

« اللَّهُ دَرِ رَافِعٍ أَنِّي اهْتَدَيْتُ فَوْزَ مِنْ قَرَارَتِي إِلَى سَوَى
خَسَا إِذَا سَارَ بِهِ الْجَبِشُ بِي مَسَارَهَا مِنْ قَبْلِهِ لِأَسْ يَرِي
عِنْدَ الصَّبَّاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِي وَتَجَلَّى عَنْهُمْ غِيَابَاتُ الْكُرَى . »

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى الغور وهو ما انحدر مسيله ، ويقال النجد : يقال : غار وأنجد وأغار وأنجد ، قال جرير .

« يَا أُمَّ حِزْرَةَ مَا رَأَيْنَا مِثْلَكَمْ فِي الْمَنْجِدِينَ وَلَا بِنُورِ الدَّائِرِ . »

وقال الأعشى :

« نَبِي يَرِي مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا . »

وأنكر الجوهري أغار ، وقاله الأصمعي : أغار وأنجد في بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف الثاني من البيت روى مخزوما هكذا : « غار لعمرى في البلاد وأنجدنا » ، يقول : بين حالك من التواضع والسو إلى مراتب السيادة بون شامع ، فقد انحدرت إلى غور النواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك من العلياء ، وبلنت أسمى مراتب السودد والرفعة .

وَمَا أَعْتَضَدْتَ اللَّهُ كُنْتَ مُوَهَّلًا لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا
 وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْفَحْتَ سَعِيًّا تَجْتَهُ وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمْدًا (١)
 وَكَمْ سَاعَدَ الْأَعْدَاءَ أَوْلَ مُطْمَعٍ رَأُوكَ بِعُقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْعَدَا
 فَلَا ظَافِرٍ إِلَّا - إِلَى سَعْدِكَ - أُعْتَزَى وَلَا سَائِسٍ إِلَّا بِتَدْبِيرِكَ أُقْتَدَى

*
* *

ضَلَالًا لِمِفْتُونٍ سَمَوْتَ بِحَالِهِ إِلَى أَنْ بَدَتْ - بَيْنَ الْفِرَاقِدِ - فَرَقَدَا
 رَأَى حَطَّهَا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحَلَّهَا حَضِيضًا بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ أَوْهَدَا (٢)
 وَمَا زَادَ - لِمَا لَجَّ فِي الْبُغْيِ - أَنَّهُ سَمَى لِلَّذِي أَصْلَحَتْ مِنْهَا فَأَفْسَدَا
 فَزَلَّ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبِجَ الشَّهَا وَصَلَّ وَقَدْ لَقَيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى (٣)
 طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ: «لَعَا» (٤) بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَدَا (٥)

(١) ألفت من ألقح الفعل النافعة ، ولقحت هي ، قال الحرث بن عباد :

« قربا مربوط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حبال . »

والسبي : التصرف في الأمور ، ونتجه : من قولهم نتج نلان النافعة إذا ولي نتاجها وهي ماخض حتى تضع ، وفي المثل : « هل نتج النافعة إلا لمن لقت له » ، وكتب عليه صاحب بجمع الأمثال ما نسخته : يقال نتجت النافعة على ما لم يسم فاعله ، وأنتجتها إذا أنتهت على ذلك ، والناجح للنوق كالتغالبه للإنسان ، ولقحت تلتج لفتحا ولفحا والنافعة لاتفح ولقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب في التشبيه ، ويروي « لما لقت له » أي لتفاحها أي لقبول رحمتها ماء الفحل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لقت » للمصدر ، وغيرك شاو : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد » والقرميد لقاء الشواء في الرماد ، يضرب - كما في بجمع الأمثال للميداني - لمن يفسد اصطناعه بالمن ، ويردف صلاحه بما يورث سوء الظن ، ويروي عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه : أنه سرَّ بدار رجل عرف بالصلاح فسمع من داره صوت بعض الملاحى فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : الفرار من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أنفل تفضيل من الوهدة وهي الهوة ، يقول : رأى ذلك المفتون انحطاط حاله أولى به فأنزله المددوح من مستوى الفراقد إلى أحط قرار من الأرض بسبب كفران النعمة ونكران الجليل .

(٣) ثبيج السها : أعلاه ، والسها : نجم صغير في بنات نعش الكبرى يمتحنون به أبصارهم خلفائه ، وفي المثل « أربها السها وترين القمر »

(٤) دعوت له بأن يقيمه الله من سقطته . (٥) غطى على جهله وستره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَةً ، وَلَمْ تَأَلُهُ بِقِيَا عَلَيْهِ تَنْظُرًا
فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلَا قَلَدَ الْحِجْبَى ،
كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضَمْرًا
وَأَجْرَزْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ (٣) تَأَلَفًا
سَلَّ الْخَائِنَ الْمُعْتَرَّ : كَيْفَ احْتِقَابُهُ
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هَزَبْرًا مُصَمَّمًا ،
دَهَاهُ - إِذَا مَا جَبَّتْهُ اللَّيْلُ - أَنَّهُ
وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدَّدًا (١)
لِفَيْئَةٍ مِنْ أَكْرَمَتِهِ فَتَمَرَّدَا
وَلَا شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلَا حَفِظَ الْيَدَا
لِيَزَكُضَهَا - فِيمَا كَرِهْتَ - فَيَجْهَدَا (٢)
لِيَخْلُقَ - فِيمَا جَرَّ - حِقْدًا مُجَدَّدًا (٤)
- مَعَ الدَّهْرِ - عَارًا بِالْعِرَارِ مُخْلَدًا (٥)
فَلَمْ يَعُدْ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشْرَدًا (٦)
أَقَامَ عَلَيْهِ - آخِرَ الدَّهْرِ - سَرْمَدًا (٧)

- (١) يقول بدأ يتجنى عليك الذنوب ويخفيها خلفا ، فكان جزاؤه منك أن تحضه النصيح خالصا بريثا ، فلما لج في غروره وعصيانه صبيت عليه عقابك المتوالى لتزجره - على أساءته وتؤدبه .
- (٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليجارك بها ويجهد نفسه في توخي أعدائك وتذلل ما تكره .
- (٣) كأن هذا الخائن ظن أنك أهديته الجياد الضمر السوايح ليجهدا ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .
- (٤) أجرزته ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل النعمة .
- وكأنه ظن أنك تتألفه بما تلحق عليه من حبير أجرزته ذيله ليخلق لك مشاكل ويجدد أحقادا بسبب ما جرته من جرائر وجرائم . (٤) وفي الأصل : « للعقد مجددا »
- (٥) الخائن : الأحمق ، والمعتز الفقير المعترض المعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقبت الشيء : ادخره ، واحتقبت خيرا أو شرا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقبت الاسم : جمعه ، والعرار - جمع عرة وهي الحلة القبيحة .
- (٦) المصمم : الماضي في الأمر معتزما ، والظلم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :
« أنا الذي نكح النيلان في بلد ما طلّ فيه سماكي ولا جادا
في حيث لا يعمت الغادى عمائته ولا الظلم به يعني تهبادا
وقد هوت - بمصقول عوارضها - بكر تنازعي كاسا وعقنادا
ثم اقضى عصرها عني ، وأعقبه عصر المشيب ، قتل في صالح بادا . »
- أى نكح النيلان في بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ «المطر الخفيف» ولم يظفر فيه الظلم - « فرخ النعام » - بالهيد - وهو الخنظل - ليأكله ، وقد لها بفتاة من الأبقار مصقولة العارضين تنازعه كشمس الحجر وعناقيد العنب ، ثم انتفى ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .
- (٧) يقول : وقد أصبح يترقب جزا أن يكون حينه مرتبطا بيومه وصار يتوجس الشر خوفا من أن يكون ليله سمردا إذا قتلته .

يُحَاذِرُ أَنْ يُبَاقِيَ قَتِيلًا مُعَفَّرًا - إِذَا الصُّبْحُ وَافَى - أَوْ أُسِيرًا مُقَيَّدًا

* *
* *

لَبِئْسَ الْوَفَاءَ أُسْتَنَّ فِي «أَبْنِ عَقِيدَةَ»
قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ حَتَّى - إِذَا هَوَى -
عَشِيَّةً لَمْ يُصَدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أُوْرَدَا

فَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِشُكْلِهِ ،
فِدَاهُ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرْشَحٍ
تَبْرًا يَعْتَدُ الْبَرَاءَةَ أَرْشَدًا (١)
بُكَاءَ «لَبِيدٍ» حِينَ فَارَقَ «أَرْبَدًا»
إِذَا جُشِمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَدَّلًا (٢)

* *
* *

أَفَادَ مِنْ الْأَمْلَاكِ حِدَثَانٍ فَشَلِهِمْ
أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلُقَ لَيْلًا عَلَيْهِمْ
مَوَالِي، لَمْ يَشْكُ الصَّدِي مِنْهُمْ الصَّدَا (٣)
فَجَاءَ وَأَثْنِي نَاطِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدًا
تَلَا حِظَّهُ الْأَقَارُ - فِي الْأَفْقِ - حُسَدًا
فَحَلَّ هِلَالًا - فِي ظَلَامٍ عَجَابَةَ -
يُرَاجِمُ مِنْ «صِنْهَاجَةَ» وَ «زَنَااتَةَ»
مَثَلِ نُجُومِ الْقَذْفِ - مَثْنِي وَمَوْحَدًا (٤)

(١) يقول : أن قرينه زين له الضلال حتى إذا تردى في سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى في التخلي عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرشح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والحدوب التي أنزلها جيشه بالملوك قد أفادته موالى غاية في البسالة لا يشكو العطشان منهم عطشاً شدة ما أوتيه من صبر وجلد .

(٤) راجع عنه : ناضل ، وراجم في الكلام والحرب بالغ بأشده مساجلة ، ونجوم القذف ، أو شهب القذف هي الرجوم ، قال الشاعر :

« كَشَهَابِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ . »

يقول : لأنه يساجل بنصرة أهل زنااته وصنهاجة ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالشهب ويرجم بها شائثيه ، وقد اشتهرت صنهاجة بتلك المذبحة الكبرى التي حدثت في القرن الخامس من الهجرة سنة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير يوسف بن نازلة اليهودي ، وكان سبب هذه المذبحة أن ذلك الوزير - وكان قد استوزره باديس صاحب غرناطة - قد وشى بأبي إسحاق الفقيه زاهد البيرة فأقصاه السلطان عن بلاده .

قالوا : « وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع

هُمْ الْأَوْلِيَاءَ الْمَانِحُوكَ صَفَاءَهُمْ إِذَا أُمْتَاَزَ مُصْنِي الْوُدِّ مِمَّنْ تَوَدَّدَا

النفوذ — فوجد أبو إسحق من ذلك حافرا إلى إنشاء قصيدته البليغة التي دفعه إلى قولها غيظه من عدوه — ذلك الوزير الخطير — فلأها تحريضا وأفعما حججا وبراهين، أفلح في التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته — وما زال يتفنن في ضروب الاحتثات والنهييج حتى اشتمل الجمهور حماسة وهجم على ذلك الوزير قتله — في قصر السلطان نفسه — وليس من شك في أن أبا إسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النعمة الدينية وإظهار النفع الشديد على ما اتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدقيق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام نظم ، يتطير حماسة ويتأجج ناراً ، وشعر صارخ

« خارج من قلب فائله مثلما يفر بركان . »

وهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود — أخصامه — فرض لا مناص من أدائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم — إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى — فهم خالبون أن يتداركوه في الحال ، حتى لا تصب عليهم لعنة الله ، أو يحرق بهم غضبه ، فيخسف بهم الأرض ، أو ينزل عليهم السماء ، وكذلك لم يترك ناظما وسبيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها ، ولا نعمة من نعمات متعصب للمقيدة الدينية إلا ضرب على وتيراتها . كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل — لسهولته — إلى حد الركاكة في بعض الأبيات مع أنه من أجل الشعر وأبدعه ، وإن شئت نقل وأروعه ، وإليكم هذه القصيدة الفريدة في بابها :

« ألق لسنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرب

مقالة ذى مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين

لقد ذلّ سيديكم ذلة تقرّ بها أعين الشامتين

تخبر كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين

فجز اليهود به وانتخوا وتاهوا، وكانوا من الأردابين»

ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب لأرذل فرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين

فهلا اقتدى بهم بالألى من القادة الحيرة المنقين

في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله « بالألى من القادة الحيرة المنقين » ولكننا نتفهرها لما في لبيه من نعمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة .

وأترلهم حيث يستأهلون وردهم أسفل السافلين

فلم يستحقوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين»

ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أبا ديس ! أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف خفي عنك ما يهشون وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين

لَهُمْ كُلُّ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ (١) كَفِيلٍ بَانَ يَسْتَهْرِمَ الْجَمْعَ مُفْرَدًا
يَسْرُكُ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً وَيُرْضِيكَ فِي النَّادِي إِذَا أَعْتَمَّ وَارْتَدَى (٢)

* *
* *

كَرِهْتَ - لِسَيْفِ الْمَلِكِ - أَلْفَةَ غِمْدِهِ وَقَلَّ غِنَاءُ السَّيْفِ مَا كَانَ مَغْمَدًا
وَلَمْ تَرَ لِلشَّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى فَجَدَّ أَفْتِرَاسًا حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
هُمَامٌ - إِذَا حَارَبْتَ - فَأَرْفَعِ لَوَاءَهُ، فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللَّوَاءِ مُؤَيَّدًا
وَيَأْنَفُ مِنْ لَيْنِ الْمِهَادِ تَعَوُّضًا بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ - إِلَى الرَّوْعِ - أَجْرَدًا
وَقَدِّمًا شَكَا حَبْلَ التَّمَامِ يَا فِعْمًا لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفِرْنِدِ مُهْنَدًا
وَلَمْ تَرَ سَيْفًا - بَاتِكَ (٣) الْحَدَّ قَبْلَهُ - تَنَاوَلَ سَيْفًا - دُونَهُ - فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق وقارته وهو بئس الفرين ؟
ومنها :

« وباني حالت بغرناطة فكنت أراهم بها طابين
وقد قسموها وأعمالها ففهم بكل مكان لين »
ومنها :

« وهم أمننا كم على سرركم وكيف يكون أمينا خؤون ؟
ويأكل غديرهم درهما فيقصي ويدنون إذ يأكلون
وقد نهضوا - وكم إلى ربكم فما ينعون وما ينكرون »
ومنها :

« ورخم قردهم داره وأجرى إليها نير العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن - على بابه - قائلون
ويضعك منا ومن دينا فانا إلى ربنا راجعون »

(١) البازل : الرجل الكامل ، والبازل أيضا الناقة في طامها التاسع ، قال الشاعر :

« عذرت البزل إن هي غالبتي فما بال وبال ابني لبون »

(٢) أي تعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسجاحته التحف رماه وليس عمامته في السلم .

(٣) باتك الحد : فاطمة مرهفة .

* * *

لَبْنٌ أُنْجَزَتْ مِنْهُ الشَّمَائِلُ آخِرًا لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ الْمَخَائِلُ (١) مَوْعِدًا
قَرَّرَتْ بِهِ عَيْنًا ، فَكَمْ سَادَ عِثْرَةٌ وَكَمْ سَاسَ سُلْطَانًا ، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدًا
وَأَعْطَيْتُمَا - فِيمَا تُرِيغَانِهِ (٢) - الرِّضَى ، وَبُلَّغْتُمَا - مِمَّا تُرِيدَانِهِ - الْمَدَى

دولة عباد

كَمْ لِرِيحِ الْغَرْبِ مِنْ عَرَفِ نَدِيٍّ كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِ الصِّدِيِّ (٣)
حَيْثُ «عَبَادٌ» فَتَى الْمَجْدِ الَّذِي نَصَّتِ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الْهُدِيِّ
مَلِكٌ رَاحَتُهُ بَحْرُ النَّدَى مِثْلَمَا غَرَّتُهُ بَدْرُ النَّدِيِّ
ضَبَحَتْ دَوْلَتُهُ فِي عَصْرِنَا كَفَرِنْدِ عَادَ فِي سَيْفِ صَدِيِّ (٤)

إلى حبيب

يَا ظَبِيَّةَ لَطْفَتْ مِئِنِّي مَنَازِلَهَا فَالْقَلْبُ مِنْهُمْ وَالْأَحْدَاقُ وَالْكَبِدُ
حُبِّي لَكَ النَّاسُ طَرًّا يَشْهَدُونَ بِهِ وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَثْنِيهِمْ حَسَدُ
لَمْ يَعْرَبِ الْوَصْلُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَدًا لَوْ كُنْتِ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِي أُجِدُ

(١) الخيال من السحب : المنذرة بالمطر . قال مروان ابن أبي حفصية :

« إن أخلف النيث لم تخلف مخايله »

وهي هنا بمعنى الدلائل التي تتوسم بها الشيء والشمايل : الصفات ، قال أبو تمام برني طفلين :

« لطف على تلك الخيال منهما لو أمهلت حتى تكون شاملا

لعدا سكونهما حجا ، وصباهما عزما ، وتلك الأريحية نالا . »

(٢) تريغانه : تطلبانه ، تقول : أراغ الشيء أى أراده وطلبه ، وقد جاء في الأصل :

« وأعطيتما - فيما تريغانه - الرضى »

(٣) الصدى : الظلمان .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا روقه وبهائه فصار كالسيف عاوده الصقل والرواق بعد أن علاه الصدا .

في مدح أبي المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف السولة أبا بكر محمد

ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلِ وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلِ (١)
 وَغُصْنُ تَرَشَّفَ مَاءِ الشَّبَابِ تَرَاهُ الْهُوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلِ (٢)
 تَهَادَى لَطِيفَةً طَى الْوِشَاحِ وَتَرَنُو ضَعِيفَةً كَرَّ الْمُقَلِّ (٣)
 وَتَبَرُّزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْحَجَلِ (٤)
 بَدَتْ فِي لِدَاتِ - كَرْهُرِ النَّجُومِ - حِسَانِ التَّحَلَّى مِلَاحِ الْعَطَلِ
 مَشَيْنَ يَهَادِينَ رَوْضَ الرُّثْبَا يِيَانِعِ رَوْضِ الصَّبَا الْمُقْتَبَلِ
 فِينِ قُضْبٍ تَتَنَّى بَرِيحِ وَمِنْ قُضْبٍ تَتَنَّى بَدَلِ
 وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِمِسْكَ وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِطَلِ
 تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحُمَى وَلَا زَالَ مَرْبَعُهَا فِي مَلَلِ (٥)

(١) الكلال : جمع كلة ، وهي ستر رقيق مربع يتوق به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالضم وهي إزار وراية (برد أو غيره) ولا تكون حله إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحساء شمس تغرب في الكلال كما تغيب الشمس في مغربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهي غصن غرس في أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لأماء السحاب فأجنانا ثمرة الأول .

(٣) تهادى : تمشى مشية في مهل وتناقل ، وترنو : تنظر بمؤخر عينها ، يعني أنها تهادى بين أثرها بكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الخصر ، وتكر بسيف لحظها من جفون فائرة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت النقاب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب يصونها من عفتها وإذا بدت لهم سافرة ستر وجهها نقاب من الحياء والحجل .

(٥) العهد : المطر ، وصوبه نزوله ، والربيع : الموضع الذي ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مريعبها في ملل : أى ولا زال المطر يصوب في مريعبها حتى يميل لكثرة نزوله ، وفي الأصل :

« ولا مل مريعبها في ملل » وجاء في ابن الأثير : في حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا في رواية مسلم ، قيل هي من الملل أى كثر مطرها حتى مللنا . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير .

مَرَادٌ - مِنَ الْحَبِّ - غَضُّ الْجَنَى ،
 لِيَالِي مَا أَنْفَكَ يَهْدِي الشَّرُورَ
 لَدَيْهِ - مِنَ الْوَصْلِ - وَرِدُّ عِلَانٍ
 حَيِّبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلٌ
 تَكْنَفُهُ عَدْلُهُ فَاعْتَدَلُ
 بِهٖ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلِّ
 وَيُطْلَعُ نَجْمُ الْهُدَى إِذْ أَفَلُ -
 وَيُوضِحُ رَسْمَ الثَّقَى - إِذْ عَفَا -

حَمِدْنَا « الْمُظْفَرَ » لَمَا رَأَى
 مَلِكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةٌ
 « لِنَصُورِنَا » سِيرَةً فَاْمَثَلُ
 وَأَشْهَرُهُمْ - فِي الْمَعَالِي - مَثَلٌ (٢)
 وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرِ وَنَهْيِ
 يَمَانٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمْ
 سَنَامٌ - مِنَ الْمَجْدِ - عَلِي الدُّرَا
 تَقِيلٌ - فِي الْمَهْدِ - ظِلُّ اللَّوَاءِ
 وَنِيَطَتْ حَمَائِلُهُ الْوَأْفِيَاتُ
 وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُومُ
 تَأْمَلَهَا غِرَّةٌ شَهْتَبَلُ
 وَأَدْرَى الْمُلُوكِ بِعَقْدِ وَحَلِّ
 بِمَا أَوْرَثَ التَّبَعُونَ الْأَوَّلُ
 يَظُلُّ الْعِدَا مِنْهُ تَحْتِ الْأَظْلُ (٣)
 وَسِيمِ النَّهْوضِ بِهِ فَاسْتَقَلُّ (٤)
 - مَكَانَ تَمَائِمِهِ - فَاحْتَمَلُ
 عِ الْإِ وَفِي الْبُرْدِ لَيْثٌ أَيْلٌ (٥)

(١) في الأصل : « تبارك »

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تمييزاً ، وريضة يجررون للمنصوب في الوقف
 مجرى المرفوع والمجرور فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرت له التافية - في غير ما موضع - أن يترك
 الاستعمال الفاسي من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منسج البعير .

(٤) تقيل : استنقل ، وسيم : كلف ، بلغ إلى حد الأغراق فجعل اللمدوح وهو في المهد يقود الجيوش
 ويتقيل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء فيستقل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الألد الشديد الحصومة .

عَهْدَنَا الْمَكَارِمَ فِيهِ مَعَانٍ تُبَشِّرُنَا فِيهِ مِنْهَا الْجَمَلَنَ
تُرَى بَعْدَ بَشِيرِ يُرِيكَ الْغَمَامَ تَهْلَلَنَّ بَارِقُهُ فَاسْتَهَلَّ
يُصَدِّقُ مَا حَدَّثْنَا «عَسَى» بِهِ عَنْهُ ، أَوْ أَنْبَأْنَا «لَعَلَّ»
فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلَّا وَفَى وَلَا قَالَتِ النَّفْسُ إِلَّا فَعَلَنَ
فَلَقِيَ مُنَاوِئَهُ مَا اتَّقَى وَأَعْطَى مُؤَمَّلَهُ مَا سَأَلَ

كَمْ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاوُهُ ^{***} فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبَلٍ ^(١)
غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، وَبَحْرٌ يُفِيضُ ، وَسَيْفٌ يُسَلُّ
فَسِيمُ الْمُحْيَا ، ضُحُوكُ السَّمَاحِ ، لَطِيفُ الْخَوَارِ ، أَدِيبُ الْجَدَلِ
تَوْشَى الْبَلَاغَةَ أَقْلَامُهُ إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلٌ ^(٢)
يَبَانُ يُبَيِّنُ - لِلْسَّامِعِينَ - أَنْ مِنَ السَّحْرِ مَا يُسْتَحَلُّ ^(٣)
أَلْأَهْلَ سَبِيلٍ إِلَى الْعَيْبِ فِيهِ فَكَمْ عَيْنٍ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ كَمَلٌ ^(٤)

(١) يقال : لقيته من ذى قبل (بفتحين وبكسر وفتح) أى فيما يستقبل .

(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه ، وفى الكتاب العزيز : (فليكتب وليلال الذى عليه الحق) وفيه أيضا : (وقالوا أساطير الأوثان اكتبها فهي تملى عليه)

(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان ، وفيه الإشارة إلى المثل المشهور : إن من البيان لسحرا ، قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - حين وفد عليه ، عمرو بن الأهم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس ابن طاصم ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهم عن الزبرقان . فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يارسول الله ! إنه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدى » . فقال عمرو : « أما والله ! إنه لزمان المروعة ، ضيق العطن ، أحق الوالد ، لثيم الخال ، والله يارسول الله ما كذبت فى الأدبى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أتج ما وجدت » . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا » ، وإنما سمي البيان سحرا لتأثيره فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .

(٤) عين : أصيب بالعين ، من طان المحسود بعينه فهو طان والمحسود معين أصابه بالعين ، يقول : هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقبه شر أمين الحاسدين ، فكثيرا ما أصيب بالعين الكمال الذى لا تقص فيه ولا عيب . وهذا قريب من قول القائل :

« ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين . »

* * *

لَنْ لَبِسَ الْمَلِكَ رَحْبَ الْمَلَأِ فَاخْتَالَ مِنْهُ بِدَيْلٍ رَفَلٍ
فَإِنَّ تَرَوُدَهُ لِلْمَعَالِي وَإِنَّ تَأَهُبَهُ لِلْجَلِّ
فَأَخْبِرْ سُوَاسِ هَذِي الْأُمُورِ وَنَاسِكُ أَرْبَابِ هَذِي الدُّوَلِ

* * *

وَلَيْتَ الثُّغُورَ فَلَمْ تَعُدْ أَنْ رَأَيْتَ النَّأْيَ ^(١) وَسَدَدْتَ الْخَلَلَ
سِوَاكَ - إِذَا قُلِدَّ الْأَمْرَ - جَارَ ، وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِكَ النَّيْءُ - غَلَّ ^(٢)
حَمِي لَا يَزَالُ لِمَنْ حَلَّهُ أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ ، أَوْ وَجَلَّ ^(٣)
فَأَنْجِمُ دَهْرِهِمْ سَعْدَةً وَشَمْسُ زَمَانِهِمْ فِي الْحَمَلِ ^(٤)

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعِ أَحَادِيثَ لَوْ يُبْتِ بِسَمْعِ عَلِيلِ أَبَلٍ ^(٥)
سَأَشْكُرُ أَنَّكَ أَعْلَيْتَنِي بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَذَنَ مَحَلِّ
وَأَنِّي إِنْ زُرْتُمْ لَمْ تَحْتَجِبْ وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسٌ لَمْ تَمَلْ

(١) النَّأْيُ : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) النَّيْءُ : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفاوا بلا قتال ، وتقسيبه غير تقسيم الغنائم ، وغل : خان ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الخيانة) فى النَّيْءِ والمَغْنَمِ ، وهو من قول الله عز وجل : « وما كان لنبى أن ينزل . »

(٣) عدم أو وجل : أى فقرأ وخوف .

(٤) سَعْدَةٌ : صفة الأُنْجِمِ ، يقال : يوم سعد ليلة سعدة ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سعد » وسعد النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخيبة ، وسعد ناشره ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الهمام ، وسعد البارح ، وسعد مطر . »

(٥) صح من مرضه .

تَبَسَّمتَ مُمَّ ثَنَيْتَ الوِسادَ فَحَسَنِي مِنْ خَطَرٍ ما أَجَلٌ^(١)
 فلو صافحَ التَّبَرَّ خَدِّي لَهانَ وَلَوْ كَأَثَرِ القَطْرِ شُكْرِي لَقَلُّ
 بِأَمْثالِها يُسْتَرَقُّ الكَرِيمُ إِذا مَطْمَعٌ بِسِواهُ أَخْلُ

* *
 * *

فَلأ تَعْدَمَنَّكَ المَساعِي التي لِأَمِّ المِناوِيكَ فيها الهَبَلُ^(٢)
 فَأَنْتَ الجَرِيءُ - إِذا الشَّبَلُ هابَ - وَأَنْتَ الدَّليلُ، إِذا النَجْمُ ضَلَّ
 وَما أَبْنُكَ إِلاَّ جِلاءَ العُيُونِ إِذا نَظَرْتُ - بِسِواهُ - اُكْتَحَلَ
 رَيْبُ السَّيادَةِ - في حِجْرِها - تُدِرُّ لهُ نَدِيها إِذْ حَفَلُ^(٣)
 تَمَكَّنَ يَتَلوَكُ - في الصَّالِحَاتِ - فَلَمَّا تَقَمَّسَهُ ، وَمَما يَنَلُ

(١) ثنيت الوساد : الوساد المنكأ ، وثنيته أى رددت بعضه على بعض ، وذلك لئنه ، أو نذيقه جعلت له ثانيا وضعته عليه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، وهذه الحفاوة إما أن تكون حصلت بفعل مباشر من الملك تواضعا منه ومبالغة في إكرام ذى الوزارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول في هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إنك أعليت مكاني ، وأدريت محلي ، وإني إن زرتك لم تحتجب وإن طال بن الجلوس في مجلسك لم تسأم ولم تمل ، وأني إن جئتك زائرا تبسمت وثنيت الوساد احتفاء بي ، فحسبي هذا من خطر عظيم وشرف ما أجبه وما أعظمه .

(٢) يقال : هبلته أمه ثكنته ، ولأمه الهبل أى التكل . قال الشاعر :

« والناس من يلق خيرا ، فائلون له مايشتهى ، ولأم الخطى الهبل . »

وقال البحتري :

« ولاكم البغي ، ثم انساب نحوكم بالشرقية فيها التكل والهبل . »

وقال المعري :

« دع آدماء - لاشفاه الله من هبل - يبكي على ولده المقتول هاييلا . »

(٣) حفل : امتلا ، حفل اللين في الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهذا ضرع

حقل أى مملوء لبناً .

ذكرى قرطبة و ايام الصبا

تَنَشَّقُ - مِنْ عَرَفِ الصَّبَا^(١) - مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَدَشَوْفَا

وَمَا زَالَ لَمَعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا -

يُهَيِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعُ الْمَشُوقُ الْمَصْبَا؟^(٢)

*
* *

خَلِيلِيَّ - إِنْ أَجَزَعُ - فَقَدْ وَضَحَ الْعُدْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِيعُ صَبْرًا فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فِي يَوْمِنَا خَيْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرٌ^(٣) ، وَلَا عَجَبٌ ، إِنْ الْكَرِيمُ مُرَّرًا

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه داه ، أى يدعو الدمع ليتدنق ، والمصبا : ذو الصبوة ، والصبوة جهة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبي إليها - كرضى - حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خير وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم ناهو وننعم تاركين إلى النداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، وهو أيضاً لامرئ القيس : « اليوم تحاف ، وغدا تقاف » والتحفاف جمع تحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والتفاف : المناقفة من تفف الهامة شقها عن الدماغ .

*
* *

رَمْتَنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِي النَّوَابِ
فَمَا أَخْطَأْتُني مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَآوَى إِلَى لَيْلٍ بَطِيءٍ الْكَوَاكِبِ (١) وَأَبْطَأُ سَارِي كَوَكَبُ بَاتٍ يُكَلِّئُ

*
* *

أَقْرُطِبَةَ الْغُرَاءِ! هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ؟
وَهَلْ كَبِدُ حَرِّي لَيْنِكَ تَنْقَعُ؟
وَهَلْ لِلْيَالِيكَ الْحَمِيدَةَ مَرْجِعُ؟

إِذِ الْحُسْنُ مُرَأَى-فِيكَ- وَاللَّهُ مُسْمَعٌ وَإِذْ كُنْتُ الدُّنْيَا-لَدَيْكَ- مُوْطَأً (٢)

(١) إشارة إلى البيت المشهور في قصيدة النابغة الذبياني :

« كايـني لهم يا أمية ناصب وليل أفاـسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأثب
وصدر أراح الليل طازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

جعل صدره مألفاً للهوم وجعل الهوم كالابل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحها الرعاة في أماكنها
والنابغة أول من جعل الهوم تعزب بالنهار وتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء في ذلك ، فقال مجنون ليلى :

« يضم إلى الليل أطفال حبكم كما ضم أزوار القبيس البنائقي . »

وقال ابن الدمينية :

« نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزنتي إليك المضاجع
أقضى نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهـم بالليل جامع . »

ولهذا السبب تهرم الشعراء بتول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت وشممت فهذا الصبح راعمة فحوري »

وقال امرؤ القيس :

« فيا لك من ليل كأن نجومه بكل منار الفتل شدت يذبـل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعاني فلنجتزئ بهذه الأبيات .

(٢) موطأ : ميسر منذل .

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ تَشْطَّ النَّوَى بِكَ
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أُنْسَ نَفْحَ جَنَابِكَ
وَلَمْ يَلْتَمِمْ شِعْمِي خِلَالَ شِعَابِكَ
وَلَمْ يَكْ خَلْقِي بَدْوُهُ مِنْ تَرْابِكَ وَلَمْ يَكْتَفِنِي مِنْ نَوَاحِيكَ مَنَشَأُ

نَهَارِكَ وَصَاحُ ، وَلَيْلِكَ وَضِيَانُ
وَتَرْبُوكِ مَضْبُوحُ ، وَعُضْنِكَ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكَ تُكْسِي ، حِينَ جَوْكَ عُرْيَانُ
وَرِيَاكَ رُوحٌ - لِلنَّفُوسِ - وَرِيحَانُ وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكَ الْمُتَقِيًّا (١)

أَأَنْسَى زَمَانًا « بِالْعَقَابِ » مُرْفَلًا
وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلًا (٢)
وَمَعْنَى - إِزَاءِ « الْجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلًا
لِنِعْمٍ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضًا وَجَدَوْلًا وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوِّأُ

وَيَارُبَّ مَلَهَى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ
لَدَى تَرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ تَرْجِسِ
بِطَاحِ هَوَاءِ مُطْمِعِ الْحَالِ مُؤَيِّسِ
مَغِيمٍ وَلَكِنْ - مِنْ سَنَا الرَّاحِ - مُشْمِسِ إِذَا مَا بَدَتْ - فِي كَأْسِهَا - تَتَلَأَلُ

(١) ضحيان : أى بارز ظاهر لا يستتره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصايح والسرجه بالليل ، وعريان : صحو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها صحو صافى الأديم ، المنفيا : الذى يستظل به ويستريح فيه الليل .
(٢) الدغفل : العيش الواسع الخصب .

وَقَدْ ضَمَّنَا مِنْ «عَيْنِ شُهَدَاةٍ» - مَشْهُدُ

بَدَأْنَا وَعَدْنَا فِيهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

يَرْفُ عَرُوسَ اللَّهِوِ أَحُورُ أَغِيدُ

لَهُ مَبْسَمٌ عَذْبٌ ، وَخَذُّ مُورَدٌ ، وَكَفٌّ - بِحِجَاءِ الْمُدَامِ - تُقْنَأُ (١)

* *

وَكَأَنَّ عَدَوْنَا - مُضْعِدِينَ - عَلَى الْجِسْرِ (٢)

إِلَى الْجَوْسِقِ (٣) النَّصْرِيِّ بَيْنَ الرَّبَابِ الْعُفْرِ

وَرُخْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ (٤) مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ

بِحَيْثُ هُبُوبِ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عِلَا قُضْبِ النُّوَارِ ، فَهِيَ تُكَفَّأُ

* *

وَأَحْسِنُ بِأَيَّامٍ - خَلَوْنَ - صَوَائِحِ

بِمَضِيْعَةِ الدُّوَلَابِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ

تَهْرُ الصَّبَا - أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ -

صَفِيْحَةٌ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجَلُّوْنَ نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ (٥)

(١) تقنأ: تصبغ باللون الأحمر القاني ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح ما يشبه الحضاب بالحناء . (٢) وكم جرينا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق: النصر ، والريا: جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الأرض والعفر جمع عفراء - وهي أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء: رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(٥) يقول: إن ربح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح في الأباطح ، والشمس تجلجول فصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الطل .

* * *

وَيَا حَبْدًا « الزَّهْرَاءُ » بِهَجَّةٍ مَنْظَرٍ
وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّةَ جَوْهَرٍ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَأِ جَمَالٍ وَمُخْضِرِ
وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطْيِيكَ وَكَوْثَرِ بَمَرَايِ يَزِيدُ الْعُمُرَ - طِييَا - وَيَنْسَأُ^(١)

* * *

مَعَاهِدُ - أَبْكَيَهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا^(٢)
أَغْضَى - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا
لَبَسْنَا الصَّبَا فِيهَا حَبِيرًا مُنَمَّمَا^(٣)
وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَاتِ - جَيْشَاعَرٍ مَرَّمَا لَهُ الْأَمْنُ رِدِيهِ^(٤) وَالْعَدَاوَةُ مَرَبَأُ

* * *

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلِقُ وَشَى الْخَمَائِلِ^(٥)
وَرَاخَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَّاحِ الْبَلَائِلِ
وَعَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ

(١) تطييك : تعجبك وتزدهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مرَّ التعريف بالزهراء وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ - ٥٦) فارجع إليها إن شئت .

(٢) تصرم : اتقضى وفات :

(٣) الحبير : الناعم الجديد ، وضرب من برود اللبن والمنعم : اللقوش الموشى .

(٤) رده : ظهر أومعين .

(٥) الخمائيل - جمع خميلة - وهى الموضع الكثير الشجر .

أَخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلَا أَوْلَى إِلَّا سَيَتَلُوهُ آخِرُ
وَإِنِّي - لِإِعْتَابِ (١) الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ

فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ - وَالْجَدُّ عَائِرٌ - وَتَحَمَّدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَا زَالَ يُشْنَأُ (٢)

* * *

ظَعَمْتُ ، فَكَانَ الْحُرُّ يُخْفِي فَيَطْعَنُ (٣)

وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى (٤) حِينَ أَحْزَنُ

وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمَوْطِنُ

وَإِنْ بِلَادًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِي بِالذَّنِيَّةِ أَدْنَأُ

* * *

وَلَا يُغْبِطُ الْأَعْدَاءَ كَوْنِي فِي السَّجْنِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَحْضَنُ بِالذَّنَجِنِ (٥)

وَمَا كُنْتُ إِلَّا الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِي جَفْنِ (٦)

أَوِ اللَّيْثِ فِي غَابٍ ، أَوِ الصَّقْرِ فِي وَكْنِ (٧) أَوِ الْعَلِقِ يُخْفِي - فِي الصَّوَارِ - وَيُجْبَأُ (٨)

(١) الاعتاب : إرضاء العاتب .

(٢) يستقيل : ينفض ، والجد : الحظ . ويشنأ : يبنض .

(٣) أي رحلت فكان رحيلي هذا لأنني لقيت جفاه فترحلت عن مكان الجفوة والحز إذا نبت به أرضه

هاجر إلى غيرها . (٤) الأسي : جمع أسوة ، وهي التأسي والتجمل ، قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وألت نفسى من هاتا - فنولا : لالما . »

وإن تكن مدتها موصولة بالتحف سلطت الأسي على الأسي .

أي سلطت الصبر والتجمل على الحزن .

(٥) الذجن : النيم . (٦) جفن : نهد . (٧) الوكن : عش الطائر ، لوكتة مثله .

(٨) الصوار : وطء المسك .

* * *

يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِي

إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ مِنْكُمْ - مُهَذَّبٌ

مَفْضُضٌ لِأَلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبٌ (١)

يُنَافِسُ مِنْهُ الْبَدْرُ غُرَّةَ كَوْكَبٍ دَرَى أَنَّهُمَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

* * *

أَسِفْتُ ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تُشْمِلُ -

وَلَا أُسْعِفُ الْأَوْتَارَ - وَهِيَ تَرَسَّلُ -

وَلَا أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ - حِينَ أَعْدَلُ -

وَلَا لِي - مُذْ فَارَقْتُمْكُمْ - مُتَعَلِّلٌ سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْيِ - يَطْرَأُ

* * *

حَمْدِيكُمْ - مِنْ الْأَيَّامِ - لِيَنَّ خِلَالِهَا

وَسَرَّ نَكْمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلَالِهَا

مُؤَمَّنَةٌ مِنْ عَثْبِهَا وَمَلَاهَا

وَلَا زَالَ مِنْكُمْ لِأَبْسٍ مِنْ ظِلَالِهَا يُسَوِّغُ أَبْكَارَ الْمَنَى وَيُهِنُّهَا

(١) أسارير الوجه : محاسنه ، والأسارير - جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهي خطوط الكف .

إلى ابن عبدوس^(١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبي عليّ

ابن عبدوس معاتباً . »

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس عداوة أصيلة - بعد صداقة أكيدة - وكان من أكبر أسباب تلك العداوة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفي» وقد كانت هذه العداوة حافظاً لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافظاً له على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة التي ستمر بك في هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباتة في مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه العداوة كما كتب صاحب نفع الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلي :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء النرب الأمويين المنسويين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالخال - من بني عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتدل حجابها - بعد نكبة أبيها وقتله وتقلب ملوك الطوائف - في خير طويل - ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب وقماشهم وتحاضرم ويتعشقمها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غرض ونوادير عجيبة ، ونظم جيد فن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهي راضية عنه تقول :

«ترقب - إذا جن الظلام - زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر

وإن منك ما لو كان بالبدلم يترء ، وبالليل لم يظلم ، وبالنجم لم يسر . »

وقولها فيه وهي عليه غضبي :

«إن ابن زيدون - على فضله - يلهج بي شتما ولا ذنب لي

يلحظني شزرا إذا جئت - كما مما جئت لأخصي على . »

تعنى غلاماً له يسمى علياً . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبي طاهر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

«عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا - فيمن نحب - وما في ذلك من طار

أكل شهى ، أصبنا من أطايبه بعضاً ، وبعضاً صفحننا عنه لفار . »

ومن شعرها ما كتبت به على كها وقيل : على تاجها :

«أنا والله أصلح للمعالى وأشى مشيتي وأتبه تهما

وأمكن عاشق من لثم نثرى وأعطى قلبى من يشتمها . »

ومما ينسب إليها وهو عندي كثير على شعر امرأة :

«لحظكم تبحرنا في الحشى ولحظنا يبحركم في الحشود

جرح بجرح ، فأجملوا ذا بدا فما الذى أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والليل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها ، ثم إن الوزير «أبا طاهر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكان يعشقتها ، وكان تصدم الظرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها الظريفة أنها مرت يوماً بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه - وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأفذار - فوقفت عليه وقالت يا أبا طاهر :

«أنت الحصيب وهذه مصر فتدققا فكلا كما بحر . »

أَثَرْتُ هَزْبَ الشَّرَى - إِذْ رَبَضُ - وَنَبَّهْتُ إِذْ هَدَا فَأَغْتَمَضُ (١)
وَمَا زِلْتُ تَبْسُطُ (٢) - مُسْتَرَسِلًا - إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضُ

* *
* *

حَذَارِ حَذَارٍ فَإِنَّ الْكَرِيمَ - إِذَا سِيمَ خَسَفًا - أَبِي فَأَمْتَعَضُ
فَإِنَّ سُكُونَ الشُّجَاعِ النَّهْوُ - سِ (٣) لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعَضُّ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ - وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرَضُ
إِذَا رِيغَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ - مَسَاعٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا الْحَفِضُ (٤)
وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِّهِ - يُقَاسُ بِهِ مُسَدِّشُ الْبَرَضِ (٥)

فلم يجر جواباً، فضت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به وقتلته هذا النقل الحسن من - المدح إلى الهجاء - وكان كثيراً ما يجمعها ويغني التفرد بها، وفي ذلك يقول ابن زيدون:

« وغرك من عهد ولادة سراب تراهى وبرق ومض
هي الماء بأبي على قابض ويمنع زبدته من مخض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة: أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها حاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد بمواصلته، فبلغ ابن زيدون ذلك، فكتب هذه الرسالة البديعة جواباً له عن لسانها تتضمن هذه الغرائب من سب أبي عامر والتهمك له والهجاء له وجعلها جواباً له على لسان ولادة، وأرسلها إليه عقب رجوع المرأة - فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك «ابن عبدوس» عن التعرض لولادة إلى أن اتقل «ابن زيدون» إلى «اشبيلية» وتوفى بها تفنده الله برحمته، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه. هذا معنى ما ذكره ابن حبان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين.

(١) أثرت: هجت، والهزبر: من أسماء الأسماء، والشري: موضع تكثر فيه الأسود، وبرض: أوى إلى عربته، وهدأ: نام.

(٢) يقول: وما زلت تبسط يد البطش والبغي على ذلك الأسد الرابض في مجتمه على حين أمنت يده المنقبضة عنك.

(٣) النهوس: العضوض، والشجاع الذكر من الحيات، قال الفاعل:

« أتيج له - وكان أخا عيال - شجاع - في الحماطة - مستكن . »

(٤) الحفص: الجمل الضعيف.

(٥) العد: أراد به هنا معين الماء الذي له مادة لا تنقطع، يقال ماء عد أي كثير دائم لا ينقطع،

البرض: القليل. قال ابن دريد:

« أرمق العيش على برض فان رمت ارتشافا رمت صعب المنتسى . »

يقال ماء برض (بالسكون) أي قليل وهو خلاف النور، والمستشف: الذي يأتي على آخر ما في الأناء عند الشرب.

إِذَا الشَّمْسُ قَابَلَتْهَا - أَرْمَدًا - فَحَظُّ جُفُونِكَ فِي أَنْ تُغَضَّ (١)

* * *

أَرَى كُلَّ مُجْرٍ « أَبَا عَامِرٍ »
أَعِيدُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي (٢)
فَإِنَّ أَلَيْنُ لِمَنْ لَانَ لِي
وَكَمْ حَرَكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ
يُسْرُ إِذَا فِي خَلَاءٍ رَكَضُ
إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَايَا أَنْقَبَضُ
وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِي حَرَضُ (٣)
فَعَادَرَتْهُ ، مَا بِهِ مِنْ حَبَضُ (٤)

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَلِكَ الْوَفَاءُ
وَأَيْنَ الَّذِي كُنْتَ تَعْتَدُ مِنْ
تَشُوبُ وَأَحْضُ (٥) مُسْتَبْقِيَا
إِذِ الدَّهْرِ وَسُنَانُ ، وَالْعَيْشُ غَضُّ؟
مُصَادَقَتِي الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضُ؟
وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ يَمِّنُ مَحْضُ!

* * *

أَبْنُ لِي ، أَلَمْ أَضْطَلِعْ نَاهِيضًا (٦)
أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدْبِي نَفْحَةً
بِأَعْبَاءِ بَرِّكَ ، فِيمَنْ نَهَضُ؟
حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طَيْبًا يُفَضُّ؟

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزِع : السهم الذي يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به النلوة قال الأعمش :

فهو كالمنزِع المريش من الشو حط غالت به يمين المغالي

(٣) حرَض : ساقط لا يقوى على النهوض .

(٤) الحبيض : التحرك والصوت ، والقوة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع الغرور من قرب حينه إلى منا

وأنى فتركته ميتا لا حراك به .

(٥) أى تخرج الصافي بالسكدر وأصفبك الهوى خالصا من كل شائبة .

(٦) وفي رواية : « عاديا »

أَلَمْ تَكْ مِنْ شَيْعَتِي غَادِيًا إِلَى تَرْجٍ صَاحَكُنْهَا فُرْضٌ^(١) ؟
 وَلَوْلَا أُخْتِصَاصُكَ لَمْ أَتَفَقْتُ لِحَالِكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضٍ
 وَلَا عَادَتِي - مِنْ وِفَاءٍ - سُورُورُ وَلَا نَالَتِي - لِجِفَاءٍ - مَضَضُ
 يَعْزُّ أَعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدًا إِذَا الْبَارِدُ الْعَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضُ^(٢)

* *
 * *

عَمَدَتِ لِشِعْرِي وَلَمْ تَتَّعِبْ^(٣) تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضِ
 أَصَاقَتْ أَسَايِبُ هَذَا الْقَرِيضِ ؟ أَمْ قَدْ عَفَا رَسْمُهُ فَأَنْقَرَضُ ؟

* *
 * *

لَعَمْرِي لَفَوْقَتَ سَهْمِ النَّضَالِ وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَيْتَ الْغَرَضُ^(٤)
 وَشَمَّرْتَ لِلْخَوْضِ فِي جُلَّةِ - هِيَ الْبَحْرُ - سَاحِلِهَا لَمْ يُخَضْ
 وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ « وَوَلَادَةٍ »^(٥) سَرَابُ تَرَائِي وَبَرَقُ وَمَضْ
 تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظَّنُّو نٌ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ :
 « هِيَ الْمَاءُ يَا بِي عَلَى قَابِضٍ^(٦) وَيَمْنَعُ زُبْدَانَهُ مِنْ مَحْضُ »

(١) الغرض - جمع فُرْضَة ، والفُرْضَة من النهر ثلثة يستقي منها ومن البحر محط السفن .
 (٢) وفي الأصل : « ولكن يعز اغتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه العمص بالريق ، يقال
 جرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاعتصار : أن يغص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا
 قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغبر الماء حلقي شرق كنت - كالفصال - بالماء اعتصاري . »

(٣) ولم نأل جهدا . (٤) الغرض : الهدف .

(٥) وفي الأصل : « وغرك من عهد فعالة » ولكنه في بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفي رواية : « هي الماء يعز على قابض . »

وَبُغِّتَهَا بَعْدِي أَسْتَحْمِدَتْ بِسِرِّي إِلَيْكَ لِمَعْنَى غَمَضُ

* * *

« أبا عامر » عَثْرَةٌ فَاسْتَقِلُّ لَتُبْرِمَ مِنْ وَدْنَا مَا أَنْتَقِضُ

وَلَا تَعْتَصِمُ صَلَّةً بِالْحِجَابِ (١) وَسِيمٌ قَرُبًا أَحْتِجَابِ دُحِضُ

وَإِلَّا أَنْتَحَتَكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ مُنَاجِرَةٌ فِي قَضِيضٍ وَقَضُ

* * *

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضُ

كَفِيلٌ يَبِطُّ خِرَاجٍ قَسَا (٢) جَرِيٌّ عَلَى شَقِّ عَرِيقٍ نَبَضُ

يُبَادِرُ بِالْكَيِّ قَبْلَ الضَّمَادِ وَيُسْعِطُ بِالسَّمِّ لَا بِالْحَضَضُ

وَأَشْعِرُهُ أَنِّي أَنْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ وَأَعْلِمُهُ أَنِّي أَسْتَجِدْتُ الْعَوْضُ

فَلَا مَشْرَبِي - لِقِلَاةٍ - أَمْرٌ وَلَا مَضْجَعِي - لِنَوَاهٍ - أَقْضُ

وَإِنَّ يَدَ الْبَيْنِ مَشْكُورَةٌ لِعَارِ أَمَاطٍ وَوَصْمٍ رَحَضُ (٣)

وَحَسْبِي أَنِّي أَطَبْتُ الْجَنَى لِإِبَانِهِ ، وَأَبْحَتُ النَفْضُ (٤)

وَيَهْنِيكَ أَنْكَ يَا سَيِّدِي غَدَوْتُ مُقَارِنَ ذَلِكَ الرَّبَضُ (٥)

(١) الحجاج : الحاجة والجدل .

(٢) وفي الأصل : « خراج جرى . »

(٣) رحض : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والتمر وحب العنب حين يوجد بعضه في بعض .

(٥) الربض : الأمعاء ، أو ما في البطن سوى القلب ، وماوى النعم ، وقونك الذى يكفيك من اللبث .

مدح ابن جهور وشكر باديس^(١)

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير

الأجل محمد بن جهور . »

سَلِّ الْمَعَشَرَ الْأَعْدَاءَ - إِنْ رُمْتَ صَرَفَهُمْ -
عَنِ الْقَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوْكَ كَأَسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ
كَمَا أَجْفَلْتَ وَسَطَ الْفَلَاةِ نَعَامُ
مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ
فِيخْبِرُهُمْ - بِالْمُبْكِيَّاتِ - عِصَامُ^(٢)

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » في ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ،
فليرجع إليها من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء في بجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال
ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلنه جمال ابنة عوف بن سلم الشيباني وكلها وقوة عقلها ،
دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي
لي علم ابنة عوف ، فضت حتى انتهت إلى أمها ، وهي « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ،
فأرسلت « أمامة » إلى ابنتها وقالت : أي بنية لهذه خالك أنت لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئا إن
أرادت النظر ، من وجه أو خلق ، وناطقها إن استندقتك ، فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم تر قط مثله ،
فخرجت من عندها وهي تقول : « ترك الخداع ، من كشف القناع . » فأرسلتها مثلا ، ثم انطلقت إلى
الحرث فلما رآها مقبلة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح الخوض عن الزبد . » رأيت
جبهة كالمرأة المصقولة ، يزينها شـمر حالك كأذ ناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت
عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحجم ، تقوسا على مثل عين ظبية صهبرة ،
بينهما أنف كحد السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، في بياض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم
لتليذ اللبتسم ، فيه ثنابا غر ذات أشر ، تغلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ،
تلتقي فيه شفتان حراوان ، في رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدججان ،
يتصل بهما ذراعان ، ليس فيها عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، ابن
عصبهما ، تعقد إن شدت منهما الأمانل ، فتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك
بطن طوى طوى القباطى المدججة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك العكن سره كالمدهن الجبلو ،
خلف ذلك ظهر فيه كالجداول ، ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لابتقر ، لها كفل يقدمها إذا نهضت ،
وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبدنه سقوط الدل ، يحمله نخدان افواوان ، تحتهما ساقان خدجتان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ كَمِثْلِ الْقَطَا لَوْ مَيَّرَ كُونَ لَنَامُوا (١)

يحمل ذلك قدمان ، كذبو اللسان ، فذبارك الله مع صغرها ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فارسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه وبعث بصدقتها فجهرها إليه ، فلما أرادوا أن يحاموا إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لترك ذلك منك ، ولكنها تذكرة للعافل ، ومعونة للعافل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لنتى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، وهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقبيا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، إلى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سياقة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المتكلم به النابتة الذيباني قاله لعصام بن شهير حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النابتة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه ماخلفت من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد . (١) يشير إلى المثل المشهور : « لو ترك القطا ليلانام » يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته .

وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال على ابنه :
إني لحالس فى تلك العشية - التى قتل أنى فى صبيحتها - وعمتى « زينب » عندى تمرضنى ، إذ اعتزل
أبى بأصحابه - فى خباء له - وعنده « حوى » مولى « أبى ذر » - وهو يعالج سيفه ويصلحه -
وأبى يقول :

« يادهر : أف لك من خليل

كم لك - بالاشراق والأصيل -

من صاحب ، أو طالب قتيل

والدهر لا يقنع بالبدل

وإنما الأمر إلى الجليل

وكل حى سالك السبيل . »

قال على بن الحسين :

فأعادها أبى مرتين أو ثلاثاً - حتى فهمتها - نعرفت ما أراد ، فخطفتنى عبرتى ، فرددت دمعى ولزمت السكوت ،
وعلمت أن البلاء قد نزل ، فأما عمتى فأنها سمعت ما سمعت - وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع -
فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها - وإنها لحاسرة - حتى انتهت إليه ، فقالت :

« وائسكلاه ! ليت اليوم أعدمنى الحياة ! اليوم مانت « فاطمة » أمى و « على » أبى و « حسن »

أخى . يا خليفة الماضى ، وثمال الباقى . » فنظر الحسين ، فقال :

« يا أخيه ! لا يذمبن حلك الشيطان ! »

قال : « بأبى أنت وأمى ، يا أبأ عبده الله استغنتك ، نفسى فذاك ! » فردّ غصته ، وترقرقت

عيناه ، وقال :

« لو ترك القطا ليلانام ! »

* *

فِدَائِهِ « لِبَادِيسِ » النَّفُوسِ ، وَجَادَهُ مِنْ الشُّكْرِ - فِي أَفْقِ الْوَفَاءِ - غَمَامٌ
فَمَا لِحِقَّتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ وَلَا ذَمٌّ - مِنْ ذَلِكَ الْخِفَافِ - ذِمَامٌ (١)
وَمِثْلُكَ وَالِي مِثْلَهُ فَتَصَافِيَا كَمَا صَافَتْ - الْمَاءَ الْقِرَاحَ - مُدَامٌ
رَسِيْلُكَ - فِي شَأْوِ الْمَعَالِي - كِلَا كَمَا بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامٌ

* *

لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْضَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبْتَهُ كِرَامٌ
فَمَا أَنْفَكَ إِلَّا عَدَلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ فَلِلْجِسْمِ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامٌ (٢)
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطُهُ لِمِثْلِهَا فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال في معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالي من أرض

وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء . »

إِنَّ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْمَاءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لَا تُذَمُّ
هِيَ بَعْضُ اسْمٍ مِنْ أَحِبِّ وِلَاءٍ وَبِتَكْرِيرِ بَعْضِهَا يَسْتَتِمُّ

قالت :

« يا ويلتنا ! أفتنصب نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أفرح لقلبي ، وأشد على نفسي ! » ولطدت وجهها ،
وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها .

فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، وعزّأها بكلام طويل يرجع إليه الفارسي - إذا شاء في كتابنا

« مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) تهجد . (٢) وفي الأصل :

« فما ابنك إلا عدل نفسك ، إن يسر فللجسم - لا للنفس منك - مقام . »

وقال

« كان أبو العطف بن حبي إذ ورد إشبيلية
رسولا قد سأله أن يريه من شعره ، فظله
حتى كتب إليه شعرا يستبطئه فيه ، فخاربه
عليه في عروضه وقافيته . »

أَفَدَّتْنِي مِنْ نَفَائِسِ الدَّرْرِ مَا أُبْرَزْتُهُ غَرَائِرُ الفِكْرِ (١)
مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنْتَ نَظَائِرَتَهَا قِرَانَ سُقْمِ الجُفُونِ لِلْحَوْرِ (٢)
أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِئُهُ - فِي النِّظْمِ - حَازَتْ جَلَالََةَ الخَطَرِ
العِطْرُ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفْسٌ ، مِنْ نَفْسِ الرِّوْضِ رَقٌّ فِي السَّحْرِ (٣)

*
* *

يَارَاقِمَ الوَشَى - زَانَهُ ذَهَبٌ - رَقْرَقَ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِي الطَّرْرِ (٤)

(١) يقول : أفدتنى من نفائس الدر بالدر اشبعت عنه الأصداف ما أبرزته غرائر فكر من
مكتون روائع الكلام ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والحور : في العين شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض لون
الجد ، وقيل الحور أن تسود العين كلها كما في عين الظباء والبقر ، وهذا ليس بوجود في آدميين ،
يقول : أكتبني من نفائس درك كل لفظة وافقت قريبتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون ،
لحور العيون .

(٣) يقول : العطر من هذه الكلام البديعة التي أبدعها خاطرك سرى له نفس يحكى في الأريج والرقعة
نفس الروض العطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفي الأصل : « أعطر مهمما سرى له نفس . » ،
وما أثبتناه هنا دو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشى : النقش ، ورقرق : تحرك ولمع وصار له بصيص وتلاؤ ، ورف يقال : رف اللون
والذهب والبرق يرف (بالكسر) رفيقا برق وتلاؤ ، ورفرت الأسنان كذلك ، وفي الحديث أن
« النابتة » الجعدى أشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادى تحمى صفوه أن يكدرها

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا . »

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا يفضض الله فاك . « فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول :
يا كاتباً يرتم في الكتاب ما يحكى البرد الموشى المذهب الطرر والحواشى ، والذي لونه رقرق وبصيص ، وفي
الأصل « رقرق » وقد وضعنا بدلها « رقرق » ليستقيم المعنى والوزن .

- (١) وَنَازِمَ الْعِقْدِ - نَظْمٌ مُقْتَدِرٌ - يَفْضِلُ بَيْنَ الْعِيُونِ بِالْغُرْرِ (١)
 لِي بِالنِّضَالِ الَّذِي نَشِطَتْ لَهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ مَعَجَمُ الْأَثْرِ (٢)
 هَلْ أَنْصِلَ السَّهْمَ فِي الْجَفِيرِ وَقَدْ تَعَطَّلَتْ فُوقَهُ مِنْ الْوَتْرِ؟ (٣)

* * *

- مَا الشَّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ غَرِيضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الشَّمْرِ (٤)
 تَبَسُّمٌ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرْجٍ مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمَنَ عَنْ زَهْرٍ
 إِنَّ الشَّفِيعَ الْهَمَامَ سَوَّغَهُ اللَّهُ اتَّصَلَ التَّأْيِيدُ بِالظَّفْرِ
 الْفَاضِلُ الْخَبْرُ فِي الْمُلُوكِ إِذَا أَفْصَرَ خُبْرُهُ عَنْ غَايَةِ الْخَبْرِ (٥)
 نَجَلُ الَّذِي نُصِّحُهُ وَطَاعَتُهُ كَالْحَجِّجِ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعَمْرِ (٦)

(١) العيون : الخيار المنتخب من حبات العقد ، والغرر البيض ، يقول : ويا ناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقع كله ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحباته ، ويفصل بين الخيار المنتخب منها بنزر الآتى .

(٢) النضال : المرادة بالسهم وأراد به هنا المساجلة والمساابقة في مجال القول ، ومعجم الأثر : مبهم مشكل قد انماست معالمه وآثاره ، يقول : بعثت لى بهذه الكلم الثمينة ، والنظم الزائع تريد بذلك أن تجدد عهد النضال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بي عهده ، وأبهم على أمره ، واستعجم أمره .

(٣) أنصل . مضارع أنصل السهم جعل له نصلا ، والجفير : جعبة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشق رأسه فلم تمد صالحه لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النضال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لظول العهد .

(٤) غريضة النور : الفريضة ، والغض : كلاهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرها .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيه) العلم بالشىء ، عن عيان وخبرة ، والخبر : النبأ الذى يأتىك عن طريق السماع ، يقول : هو الملك الذى يفضل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبلغك عنه فى حين أن غيره من الملوك بقصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتىك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصل الزيارة ، وتنحقق شرعا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للإنسان أن يعتمر فى السنة كلها بخلاف الحج فإنه لايجوز الا حرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن نصحه وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِي لَكَ الصَّحِيحُ بِإِخْلَاصٍ نَأَى صَفْوَهُ عَنِ الْكَدْرِ

* * *

مَشَيْتُ فِي عَدْلِي الْبَرَازَ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ فِي الْعُدْرِ مِشِيَةَ الْحَمْرِ (١)
 وَقُلْتُ: مَطْلُ الْغَنِيِّ وَرَدُّ مِنَ الظُّلْمِ، يُلْقَى مَلَاوِمَ الصِّدْرِ (٢)
 وَلِي مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعَ فِي لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ
 مِنْهَا اتَّقَائِي لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجْرٍ (٣)
 لَكِنَّ سَيِّئَاتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ سَرُّوكَ دَابَّ الْمُسَامِحِ الْبَسْرِ
 فَكَتَفَ مِنْهُ بِنَظْرَةٍ عَنِّي (٤) لَاحِظًا فِيهِ لِكِرَّةِ النَّظَرِ

(١) البراز: من الأرض الفضاء الواسع الذي ليس به خمر يستره من شجر أو غيره، والحجر: ما يستر الماشي ويوارى الصيد من شجر أو جرف أو جبل من جبال الرمل أو غير ذلك، يقول: عدلك وملك لوما صريحاً لامواربة فيه، فكنت فيه كمن يمشي البراز لا يواريه خمر، ولا يستره ساتر من مرتفع أو شجر، وهو عدل أعلنه لمن لم يرض قبول عذر أستر وراءه عجزى عن مجاراته، وأخفى في التماسه ضعفه عن مباراته وفي المثل: «مشى إليه البراز» و «مشى إليه الملا والبراح» أى مشى إليه ظاهراً غير مستتر، وجاء في ضد هذا المثل مثل آخر وهو: «مشى إليه الحجر، ودب له الضراء.»

(٢) المظل: المد يقال مظل الحبل وغيره يعطله مثلاً، وفي الحديث: «مظل الغني ظلم.» والملاوم: جمع الملامة، والصدر: الانصراف والرجوع عن الشيء.

(٣) في المثل: «كسبضع التمر إلى هجر.» و «ناقل التمر إلى هجر» وهو مثل قديم متداول: يضرب في الخطأ لأن ناقل الشيء إلى معدنه مخطئٌ ويقال أيضاً كسبضع التمر إلى خبير. قال النابغة الجعدي:
 « وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كسبضع تمرأ إلى أرض خبيرا.»

وقد ورد هذا المثل في كتاب لسيدنا على كرم الله وجهه ورضي عنه بعث به جواباً إلى معاوية رضى الله عنه وهو من محاسن كتبه، وذلك حيث يقول عليه السلام في صدر هذا الكتاب: -

«أما بعد» فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله لدينه، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه، فلقد خبا لنا الدهر منك عجبا إذ طفت تخبرنا ببلاد الله عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك: «كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال.» إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب الممتع، فارجع إليه في نهج البلاغة إن شئت.

(٤) أى تفترض لك من غير عمل ولا قصد، يقول: سيأتيك نظى هذا الذى يجهزه سروك وإغضاؤك مما فيه أعضاء السامح السهل، فاكتف منه بنظرة مجلى، فانه لاحظ فيه لمعاودة النظر كره بعد كره.

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد
بنصر الله وهو جالس في فصيل من القصر
تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عني مجلسا
وله في القلب أعلى مجلس
بفؤادي لك حب يقتضى
أن ترى تحمل فوق الأرواس
جوابه ابن زيدون . »

أَسْقِطُ الطَّلَّ فَوْقَ النَّرْجِسِ	أَمْ نَسِيمُ الرُّوضِ تَحْتِ الحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلآلِ نَسَقِ	جَامِعٍ كُلِّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ (١)
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَ نِي عَن مَلِكِ	مَالِكِ بِالْبِرِّ رِقَّ الأَنْفُسِ
دَهَتْ فِكْرِي مِنْ إِبْدَاعِهِ	حَايِرَةٌ فِي مَنْطِقِي لِي مُخْرِسِ
بِتُّ مِنْهُ بَيْنَ سَهْلٍ مُطْمَعِ	خَادِعٍ يُتَلَى بِحَزَنِ مُؤَلِّسِ

* * *

يَا بَدَى يُعْنَى «أَبِي الْقَاسِمِ» غَمِّ	يَا سَنَا شَمْسِ المَحْيَا أَشْمِسِ
يَا بَهِيحَ الخُلُقِ العَذْبِ أْبْتِمِ	يَا مُهَيِّجَ الأَنْفِ الصَّعْبِ أَعْبِسِ
يَا جَمَالَ المَوْكِبِ الغَادِي - إِذَا	سَارَ فِيهِ - يَا بَهَاءَ المَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي	نِعْمَةً تَذْكُرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَيْتَنِي	مَوْلِيَا طَوْلِي مُحَلِّي مَلْبَسِ

(١) يقول : أم هي لآلى متسقة في نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا .

ذَٰكَ تَنْوِيهِ ثَنَانِي فَخَرُّهُ
 سَامِي اللَّحْظِ أَشَمَّ الْمَعْطِسِ
 شَرَفَتْ بِكَرِّ الْمَعَالِي خِطْبَةً
 مِنْكَ ، فَانْعَمْ بِسُرُورِ الْمُعْرِسِ
 تَمْنَحُ التَّأْيِيدَ يُجَلِّي لَكَ عَنْ
 ظَفَرِ حُلُوٍ وَعِزِّ أَقْعَسِ
 وَأُرْتَشِفُ مَعْسُولَ نَصْرِ أَشْنَبِ
 تَجَنَّبِيهِ مِنْ عَجَاجِ الْعَسِ
 وَأُرْتَفِقُ بِالسَّعْدِ فِي دَسْتِ الْمُنَى
 تُصْبِحُ الصَّنْعَ دِهَاقَ الْأَكْوَسِ
 فَأَعْتَرِضُ الدَّهْرَ - فِيمَا شِئْتَهُ -
 مُرْتَفِقِي فِي صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر وبعث إليه بخور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا - قَبْلَ الطَّهُورِ - مُطَهَّرُ
 وَقُرْبُكَ مِنْ دُونِ الْبُخُورِ - مُعْطَرُ
 قَلْوِ عَزِّ حَمَامٍ لَأَدْفَانَا ذَرَى
 يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى الْمُتَفَجِّرُ
 وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةٌ
 تَمْسُكُ مِنْهَا حَالِنَا وَتُعْبِرُ (١)
 فَلَا فَارِقَ الدُّنْيَا سَنَاؤُهُ مُقَدَّسُ
 بِعَيْشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَائِهِ مُجْمَرُ (٢)
 وَدُمْتَ مُلَقًّى - كُلَّ يَوْمٍ - صَبِيحَةً
 يُعَادِيكَ فِيهَا - بِالْفُتُوحِ - مَبْشَرُ

وقال

« مجاوبه عن شعر خاطبه به . »

أُمُؤْلَايَ بُلَّغْتَ أَقْصَى الْأَمَلِ
 وَسُوِّغْتَ دَأْبَانَ سَاءِ الْأَجْلِ (٣)

(١) لو لم نجد الطيب لأغنتنا عنه حفاوتك التي تعطرنا بالمسك والعنبر .

(٢) السناء : الرضة ، والثناء : المدح ، والجمر العبق ، يقال : حمر ثوبه : بخره ، وجر النار : هبها .

(٣) نساء الأجل : طول العمر .

وَعَمَّرْتَ مَا شِئْتِ فِي دَوْلَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا طَوَالَ الدُّوَلِ
 فَأَنْتَ الَّذِي غَرُّ أَعْمَالِهِ تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ العَطَلِ
 يُشْرِفُ مَمْلُوكَكَ المُسْتَرْقَّ نَظْمٌ مِنْ الكَلِمِ المُتَّخَلِّ (١)
 وَرَاحٌ تُعِيدُ إِلَى مَنْ أَسَنَّ طِيبَ زَمَانِ الصَّبَا المُقْتَبِلِ (٢)
 فَأَخْجَلَنِي البُرِّ مِنْ فَرْطِهِ وَإِنَّ الجَوَابَ لَيَبْدَى الخَجَلَ
 وَقَدْ يَقْبَلُ الدَّهْرَ مَوْلَى الأَنَا مِ جُهْدِ العَبِيدِ إِذَا مَا أَقَلَّ
 سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ المُشْتَرَى وَنِلْتَ عِلًّا لَمْ يَتَلَهَا زَحَلٌ (٣)

جواب

« وقال مجاوبه باله أيضا . »

هَلْ يَشْكُرَنَّ «أَبُو الوَلِيدِ» (٤)
 إِذْ نَاءَكَ الأَمَلِ البَعِيدِ
 أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً
 لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتْ الحَسُودَ
 إِنْ لَمْ يَدْنِ بِنَصِيحَةٍ
 تُرْضِيكَ فَهَوَ مِنْ اليَهُودِ
 لَأَزِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ
 تُضْحِي، السُّعُودُ لَهَا جُنُودُ

وقال يستهديه خمرأ

يَا بَابِيًّا كُلَّ مَجْدٍ وَهَادِمًا كُلَّ وَجْدٍ
 جِسْمُ الشَّرُورِ سَوِيٌّ مِنْ صَوِّغِ نِعْمَاكَ عِنْدِي
 فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ يَنْطِقُ بِأَحْفَلِ حَمْدِ

(١) المتخَّل: النقي المتخبر . (٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« أنت مع اسراء ما يقندي وأغرب باكورة تنقل . »

(٣) المشتري وزحل كوكبان معروفان . قال أبو العلاء :

« زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردي على ميعاد . »

(٤) يعني نفسه .

وقال مجاباً للمعتمد

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بِحَجْرِ النَّدَى وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدَى
 وَرَدَّ الشَّبَابَ أَعْتِلَاقَكَ بَعْدَ مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا (١)
 وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِي الْجَمِيلِ يُفْتَحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا (٢)
 وَحَسْبِي مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ رَضِيتَ قَبُولِي مُسْتَعْبِدَا (٣)
 وَيَا فَرَطًا مَا بِي (٤) إِذَا مَا طَلَعْتَ فَكُمْتُ أَقْبِلُ تِلْكَ الْيَدَا
 وَرَدَدْتُ لِحْطِي فِي غُرَّةِ إِذَا اجْتَلَيْتِ شَفَتِ الْأَرْمَدَا
 وَطَاعَةَ أَمْرِكَ فَرَضُ أَرَا هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْ كَدَا
 هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَحْدَا
 وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ فَيَعِدُونِي الْكُفْرَ عَمَّا بَدَا (٥)
 وَأَخْلَفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى لِدَهْرِي إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا (٦)

(١) يقول : رد على شبابي بعد أن فارقت ظله الأبرد اعتلاقاً بأسبابك واتصالاً بدولتك .

(٢) وما زال جميل رأيك فيّ يفتح لي من الآمال كل باب مغلق .

(٣) وكفاني نفرا خالداً أنك رضيت قبولى ضمن من استعبدتهم بإحسانك ، ومددت عليهم ظلّ نعتك الوارف . (٤) في الأصل : « يا فرط باوى . »

(٥) يقول : حاشاي أن أضل الصراط وأرفض أول فرض عليّ من طاعتك التي هي الشرع ، ومعتمد

الضمير ، فيعدني الكفر عما بدالي من صحة الإيمان .

(٦) في الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لا يعتمدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب

في أنه يتصل هنا من خلف الموعد أن « المعتمد » كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى « ابن زيدون » :

« العين بعدك تقضى بكلّ شيء تراه »

فليجل شخصك عنها ما بالغيب جناه . »

نعاقت « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توالى عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبعث إليه بالقصيدة

التالية معانبا :

وعدت وأخلفتني الموعدا وخالفت بالمتهمى المبتدا

أَتَانِي عِتَابُهُ مَتَى أَدْكِرُ هُوَ فِي نَشَوَاتِ الْكِرَى أَسْهَدَا^(١)
 وَإِنْ كَانَ أَعْقَبَهُ مَا اقْتَضَى شِفَاءَ السَّقَامِ وَتَقَعِ الصَّدَى^(٢)
 ثَنَاءُ نَنَى فِي سَنَاءِ الْمَحَلِّ زُهْرُ الْكُوَاكِبِ لِحُسْدَا^(٣)
 قَرِيضُهُ مَتَى أَنْعِ لِلْقَرَضِ مِنْهُ أَدَاءُ أَجْدٍ شَأْوُهُ أَبْعَدَا
 لَوِ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِيَّتٌ أَوْ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِدَا
 لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْنِ حِطْلًا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وأطمعني ثم أيشئتني ويعني الود أن أحقدا
 وأضعفت بالمطل جبل الرجاء فرث وأعهده محصدا
 وعاد ضياء ارتقاني ظلما وأصبح مصباحه أرمدا
 وكان فعلاك قبل المقال فماذا عدا الآن فيما بدا
 وقد كان ظني فيها رأيت به أنه الشيء بلّ اليدا
 وكم قد توكتفتها روضة تقرب لي الأمل الأبعدا
 ينور عليك أرجاءها ويقطر طبعك فيها ندا
 توكتفتها زمنا ناظري إذا سر يوم تهادى غدا
 على ذلك أنديك من ماجد تشبث بالظرف فيه الهدى
 حينا أزور به روضة وحينما أحيي به مسجدا
 لك العلم مهما أرد بجره لأروى به أحمد الموردا
 وفيك تجمت المأثرا ت طرا قصرت بها مفردا
 شمائل تنثر شمل الهدى م نترك بالرأى شمل العدا
 فتعني الله بالحظ منك ولا زلت لي مؤناسرمدنا
 ودمت ودمت على حالنا كما يصحب الفرقد الفرقدنا
 فلولاك كانت ربوع السرو رمي نجاب فيها الصدى

- (١) أتاني من قبل المدوح عتاب تسبب لي ذكراه الأرق والسهد كما رنجحتي نشوات الكرى وغشيتي أوائل النوم .
 (٢) يقول : أسهدي وأرتني اذكار هذا العتاب ، وإن كان أعقبه ما اقتضى شفاء النلوب ، وإطفاء وحر الصدور .
 (٣) ثناء ومدح رفعت به محلي ، فأثنت زهر النجوم تحمدني عليه .

فَدَيْتُكَ مَوْلَى: إِذَا مَا عَثَرْتُ أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَرْغَ أَرْشَدَا
 رَكَنْتُ^(١) إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ فَأَمَّنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا
 وَأَنْتُ سُوقَ أَحْتِمَالِ أَبِي لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرَانَ يَكْسِدَا^(٢)
 شَفِيحِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا
 وَمِنْ وَصَلِي هَجْرَةٌ لَا أَعُدُّ لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا^(٣)
 وَنَعْمِي تَفِيَّائِهَا أَيْكَةٌ فَشُكْرِي حَمَامٌ بِهَا غَرْدَا
 تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَعْجَدَا
 مَضَاهُ الْجَنَانَ وَظَرْفُ اللِّسَانِ وَجُودُ الْبَنَانِ بِسَكْبِ الْجَدَا
 رَأَى شِيَمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ وَقَفِّي فَأَظْفَرَ إِذْ أَيْدَا
 لِيَهْنِكَ أَنَّكَ أَزْكَى الْمُلُوكِ بَقِيءٌ وَأَشْرَفُهُمْ سُودَدَا
 سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُومِ مِذَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى^(٤)
 هُمَامٌ أَعْرُ رَوَيْتَ الْفَخَّارَ حَدِيثًا إِلَى سَرْوِهِ مُسْنَدَا^(٥)

- (١) في الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التي هي كدورتها في الخط ليستقيم المعنى .
- (٢) المستبضع: اسم فاعل من استبضع الشيء بجهه بضاعة ، والبضاعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة ، يقول : إن احتماله وإغضاه عن الهنوات بمثابة سوق تأتي لمن استبضع إليها الأعدار أن تكسد بضاعته ، وهو مأخوذ من المثل : « كستبضع التمر إلى هجر . »
- (٣) الوصل : جمع وصلة بمعنى الاتصال والأسباب والذرائع ، يقول : ومن أسباب اتصالي به وذرائعي إليه هجرة فارقت فيها موطني ، واتصلت على أثرها بدولته ، واعتلقت بجهه وذمته ، تلك الهجرة التي لأعد أن حالي استقرت وولدت ، إلا يوم أن حصلت وتمت .
- (٤) الناجل : السكريم النجل ، يقول : ليس في الملوك أزكي منك سوى والدك الذي نجاك وأنجيك .
- (٥) يقول : إن أباك همام أعز مشرق الوجه ، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروره ومجده وبه .

سَلَكْتَ إِلَى الْمَجْدِ مِنْهَاجَهُ فَقَدْ طَابَقَ الْأَطْرَفَ الْأَتْلَدَا (١)
هُوَ اللَّيْثُ قَلَدٌ مِنْكَ النَّجَادُ لِيَوْمِ الْوَغَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا (٢)
يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزْمٍ وَرَأْيٍ فَتَرْضِيهِ جُرْدٌ أَوْ أُغْمِدَا (٣)
وَمَا اسْتَبَهَمَ الثُّفُلُ فِي الْحَادِثَا تِ إِلَّا رَاكَ لَهُ مِقْلَدَا (٤)
فَأَمْطَاكَ مِنْكَبِ طَرْفِ النُّجُومِ وَأَوْطَا إِتْمَصَاكَ الْفَرْقَدَا
فَلَا زِلْتَمَا يَرْفَعُ الْأَوْلِيَا ءِ مُلْكُكُمْ مَا وَيْحُطُ الْعِدَا
وَنَفْسِي لِنَفْسِيكُمْ الْبَرِّيَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يَتَوَقَّى الْفِدَا
فَمَنْ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْنِ فِي الصَّالِحَاتِ فَاوْحَدَا (٥)

وقال

لَعَمْرِي لَبِنٌ قَلَّتْ إِلَيْكَ رَسَائِلِي لَأَنْتَ الَّذِي نَفْسِي عَلَيْهِ تَذُوبُ
فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ وَلَا أَنَّ قَلْبِي مِنْ هَوَاكِ يَتُوبُ

وقال

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصَادِفُ خَلْوَةٌ لَدَيْكَ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدٌ؟
رَعَى اللَّهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابِي وَأَجْفَانُ عَيْنِي - بِالْذُمُوعِ - شَوَاهِدُ

(١) الأطرف : الحديث ، والأتلد : القديم .

(٢) النجاد : حائل السيف ، والأنجد : الشجاع ذو النجدة والبأس ، يقول : هو أي والدك الملك ليث تلبه شبه الأنجد الشجاع ليوم الوغى والحرب .

(٣) يعدك صارم عزم وحزم في الحرب والسياسة ، فترضيه في الحاجين : جرد السيف ، أو أغمد .

(٤) استبهم : استتناق ، والثفل : ما يفتق به الباب ، والمقلد : الفتاح ، يقول : لا تستنق الحادثات إلا رآك مفتاحاً لأفقالها المغلقة ، وفي الأصل : « الفعل » فوضعنا مكانها « الثفل » ليناسب الاستبهام والمقلد .

(٥) يقول : أن من ينكر أنكما في البر والصالحات أو حدين قد بلغ في الجهد والانكار مبلغ من ينكر التوحيد ولا يقول بوحداية الله .

تهنئة

« وقال رحمه الله يهنيه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرِ وَأَجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّورِ
وَتَقِيًّا ظِلًّا سَعْدٍ تَجْتَنِي فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرِ
وَرِدِ الصَّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ غَرَضٍ ^(١) مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدْرِ
كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدِ عَطِرِ الْأَصَالِ وَصَاحِ الْبُكْرِ
كُلَّمَا شَاءَ تَأْتَى أَنْ يَرَى خُلُقَ الْبَرْجِيسِ ^(٢) فِي خَلْقِ الْقَمَرِ

(١) غرض : رصف من الغرض (محرّكة) وهو شدة النزاع نحو الشىء ، والشوق إليه يقال : غرض إلى لغائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فمن يك لم يفرض فاني وناقتي بمجر إلى أهل الحمى غرضان

بحن ذنبى ما بها من صباية وأخى الذى لولا الأسمى لفضانى

وفى الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشتري وهو أحد الدرارى الخمسة : المشتري ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهذه الكواكب الخمسة هي الجنس الكنسى المذكورة في قوله تعالى : « فلا أقسم بالجنس الجوار الكنسى . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر في الآية لأنها من الكواكب السيارة التي تجرى مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مزمرة بعد اختفائها في ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنىس الظهى والوحش إذا دخل كنىسه ، وفي النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، « أن النبي — صلى الله عليه وسلم — سئل عن الكواكب الكنىسى فقال هي البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشتري ، وبهرام : المريخ . »
والبرجيس : لفظة فارسية تدلّ على « المشتري » وهو كوكب معروف تطلق عليه الفرنجة اسم « جوبيتر » « Jupiter » وهو — في أساطير قدماء الرومان واليونان ، اله الآلهة ، المهين على كل الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمي المشتري — من الشراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يا ربّ ليل بت أرمى نجمة — حتى الصباح — بزفرة وعويل

والمشتري — فى الأفق — يخفق لامعا كغم الحبيب يشير بالتقبيل . »

فَتَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلْبِي يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرِ
 قُلْ لِسَاقِينَا: «يَحْزُنُ كَوْسَهُ» وَلِشَادِينَا: «يَصِلُ قَطْعَ الْوَتْرِ»
 حَسْبُنَا سُكْرُ جَنَّتِهِ ذِكْرُهُ دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِي يَجْنِي السُّكْرَهُ (١)
 لَمْ يُعَادِرْ لِي سَقَامِي جَلْدًا مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ تَبَتَ الْمِرْرَهُ (٢)
 أَيُّهَا الْمَاشِي الْبِرَازَ الْمُنْبَرِي لَزِمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمْرَهُ (٣)
 وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرَّضَى وَجَدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمِرَّ (٤)
 وَإِذَا أَعْتَبَ فِي مَعْتَبَةٍ لِأَنَّ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْحِ الْيَسَّرَ
 نَظَمِي الْمُهْدَى إِلَى أُرْبَعٍ مَن نَظَمَ السَّحَرَ بَيَانًا أَوْ نَثْرَ

(١) السكر: النى غير المطبوخ من ماء التمر المشد، والشراب المتخذ من التمر نوتان: ما يسبل من التمر حين يكون رطباً فإذا اشتد سمي سكرًا، وما يفضخ أى يشق من التمر ثم ينقع فى الماء ليستخرج الماء حلواته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلواته ويسمى فضيخًا وكلاهما مسكر. وقد ورد ذكر السكر فى قوله تعالى: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا.»، ومعنى هذا البيت والذى قبله: قل لساقينا: نبح كؤوسك عنا فقد أغفانا السكر الذى تحدته الذكر، عن السكر الذى يجنيه السكر، وقل لشادينا: صل قطع الوتر والغناء، فهما حلا فى السبع من ذكره الكفاية والذناء.

(٢) ثبت: ثابت، والمرر: جمع مره (بالكسر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلدًا وصبرًا مع أنى لم أزل ذا مرة قويًا، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا:

لم يغادر لى شفا من جلد مع أنى لم أزل ثبت الغرر

وما أمبنتاه من الاصلاح هو ما يرشد اليه السياق.

(٣) البراز: المنع من الأرض الذى ليس به ما يستره من شجر أو غيره، والخمر: ما يستر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو جبل زمل أو غير ذلك، يقول: يا من يدافع عنى إذا رأى زمانى مشى إلى منتكرا يريد ختلى وأخذنى على غره. (٤) الألوى: الشديد الخصومة الجدل السليط، والمستمر: من استمر استحككم مصدر ميمى يعنى أنه بعيد شأوا الخصومة، وفى المثل: «لتجدن فلانا ألوى بعيد المستمر.» وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز:

«إذا تخازرت وما بى من خزر ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر.»

أى وجدتنى خصما سلبط اللسان بعيد شأوا الخصومة.

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ عَنْ جَالِبِ التَّمَرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرَ
 غَيْرَ أَنَّ الْعُذْرَ رَسْمٌ وَاصِحُّ تُنْفِثُ الشُّكُورَى إِذَا الشُّوقُ صَدَرَ (١)
 ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدُهُ عَظُمْتَ نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرَ
 لَأَعْدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ تَرَى قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرٍ
 وَأَصْطَبِحَ كَأْسَ الرَّضَى مِنْ مَلِكٍ سِرَّتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السَّيْرِ
 حِينَ صَمَمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ فَأَنْتَحَتَهُمْ مِنْكَ صَمَاءُ الْغَيْرِ
 فَأَضَ غَمْرٌ لِلنَّدَى مِنْ فَوْقِهِمْ كَانَ يُرْوَى شُرْبُهُمْ مِنْهُ الْعُمْرُ (٢)
 سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزَّهْرَ أَقْتَفَرَهُ (٣)
 زِيْتًا الْأَيَّامَ إِذْ مُلْكُكُمْ سَالَ فِي أَوْجُهَهَا سَيْلَ الْغُرُرِ
 فَأَبْقِيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيهَا الْقَدْرُ
 مُسْتَدَلِّي مَنْ طَعَى مُسْتَأْصِلِي شَافَةَ الْبَاغِي مُقِيلِي مَنْ عَثَرَ
 عَلِمَى مَنْ ضَلَّ مُزْنِي مَنْ شَكَا خَلَّةَ الْإِحْمَالِ بَدْرِي مَنْ نَظَرَ
 تَضَحَّكَ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلِيًّا كَمَا ضَحِكَ الرَّوْضَةَ عَنْ ثَعْرِ الزَّهْرِ

(١) صدر : أصاب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .
 (٢) النمر : تدح صغير يتصافن به القوم في السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن
 أن يلتقوا فيه حصاة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغر الحصاة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره
 وجاء في شعر أعشى بأهله : -

« يكفيه حزة فلند إن ألم بها من الشواء ويروي شربه النمر »

(٣) اقتفر - من اقتفر الأثر - اقتفاه وتبعه ، والمعنى : « سبق أبوك بجملك مصلياً وتالياً بعده أنت يامن
 يقتفى آثار أبيه الزهر .

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدي هذه ويهيم ،
ويستضيء بنور تحيلها في الليل البهيم ، وكانت من
الأدب والظرف ، وتبتم المسمع والظرف ، بحيث تختلس
القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ،
فلماحل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ،
كر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية
مافياها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر
سوسنه وورده ، وأترع جدا وطها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح
ارتياح جيل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع
وربح طيبة السرى ، فتنشوق إلى لقاء ولادة وحن ،
وخاف تلك النوائب والحن ، فكتب إليها يصف فرط
قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال
تعهد ، ويصف حسن محضه بها ومشهده (١) : »

إِنِّي ذَكَرْتُكَ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَقًا
وَاللِّسِيمِ أَعْتِلَالٌ - فِي أَصَائِلِهِ -
وَالرَّوْضِ - عَنِ مَائِهِ الْفِضَى - مُبْتَسِمٌ ،
يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَدَاتِ لَنَا أَنْصَرَمَتْ ،
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ
وَالْأَفْقُ طَلَقٌ ، وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا (٢)
كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي ، فَأَعْتَلَّ إِشْفَاقًا
كَمَا شَقَّقْتَ - عَنِ اللَّبَاتِ - أَطْوَاقَا (٣)
بَدْنَا لَهَا - حِينَ نَامَ الدَّهْرُ - سُرَاقَا
- جَالَ النَّدَى فِيهِ - حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

(١) فلأند العقيان . (٢) وفي بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(٣) اللبات : جمع لبة ، وهي موضع الفلادة من الصدر ، والأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف
بالعنق من الثوب ، ولا شك أن الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضي في الروض تشبه الهيئة الحاصلة من
انشقاق طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر ، وجاء في بعض الروايات : « كما حلت عن اللبات أطواقا . »

كَانَ أَعْيُنُهُ - إِذْ مَايَنْتَ أَرْقِي - بَكَتَ لِمَا بِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقًا
 وَرَدُّ تَأَلَّقَ - فِي صَاحِي مَنَابِتِهِ - فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى - فِي الْعَيْنِ - إِشْرَاقًا
 سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرُ عَيْقُ كُلُّ يَهِيحُ لَنَا ذِكْرِي تَشَوَّقَنَا
 لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا ، عَنَ ذِكْرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ - بِجَنَاحِ الشَّوْقِ - خَفَاقًا
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصَّبْحِ - حِينَ سَرَى - وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى - فِي جَمْعِنَا بِكُمْ - لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقًا

* * *

يَا عَلِيَّ الْاِخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، إِذَا مَا أَقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقًا
 كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ - مُذْرَمِنَ - مَيْدَانَ أَنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
 فَالآنَ - أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ - سَلَوْنَهُمْ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَاقًا !

إلى ولادة

يَا نَارِحًا - وَصَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ - أَنْسَتِكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ
 أَلْهَتِكَ عَنْهُ فُكَاهَاتٌ تَلَذَّ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِي - يَبَالٍ مِنْكَ - ذِكْرَاهُ
 عَلَّ اللَّيَالِي تُبْقِيَنِي إِلَى أَمَلٍ ، الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

إلى أبي حفص بن برد

قُلْ لَابْنِ حَفْصٍ - وَلَمْ تَكْذِبْ - يَا قَمَرَ الدِّيَّوَانِ وَالْمَوْكِبِ :
مَا لِأَبِي صَفْوَانَ - مَا لَوْفَانَا - أَبْرَقَ فِي الْأَلْفَةِ عَنْ خُلْبِ ؟
وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِي مُسْتَرِقَ السَّمْعِ مِنَ الْكُؤُكِبِ ؟

* *
* *

عَفَّةٌ بِاللَّهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَأَشْتَمَ - وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ - فَأَضْرِبْ
وَعَاطِيهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةٍ يَرَى لَهَا الْمَشْرِقَ فِي الْمَغْرِبِ
وَلَيْشْرَبِ إِلَّا كَثْرَ مِنْ كَاسِهِ وَأَنْعَمْدُ - إِلَى فَضْلَتِهِ - فَأَشْرَبِ
عُقُوبَةً ، أَحْسِنَ بِهَا سُنَّةً - فِي مِثْلِهِ - مِنْ حَسَنِ مُذْنِبِ
وَبَا كِرَا الطَّيِّبِ ، وَرُوحَالَهُ ، فَأَنْثَمَا فِي زَمَنِ طَيِّبِ

ليل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية يقال : »

وَلَيْلٍ أَدْمَنَّا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ - فِي اللَّيْلِ - تَأْثِيرُ
وَجَاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ - تَضْرِبُ فِي الدُّجَا - فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَاللَّيْلُ مَقْهُورُ
فَحَزْنَا مِنْ اللَّذَاتِ أَطْيَبَ طَيْبَهَا ، وَلَمْ يَعْرِ نَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْدِيرُ
خَلَا أَنَّهُ - لَوْ طَالَ - دَامَتْ مَسَرَّتِي ، وَلَكِنْ لِيَالِي الوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاءَ حِينَ يَجْلُو - بِلُطْفِهِ - السَّخْنَاءَ (١)
 جَاءَ يُرْهِى بِمُسْتَشَفِّ رَقِيقٍ يَخْدَعُ الْعَيْنَ رَقَّةً وَصَفَاءَ (٢)
 تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشَّمُوسِ ضِيَاءَ
 أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ فَهَوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَارًا وَمَاءَ
 مَنْظَرُهُ يَبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمُهُ تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ أُسْتَمْرَاءَ
 لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ - كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الْجَفَاءَ (٣)
 يَفْضَحُ الشَّهْدَ طَعْمُهُ - كُلَّمَا قِيدَسَ - إِلَيْهِ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاءَ
 فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ - فِي النَّضْجِ - فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاءَ
 غَيْرَ أَنِّي بَعَثْتُ هَذَا غِذَاءَ - يَشْتَهِيهِ الْفَتَى - وَذَلِكَ دَوَاءُ
 مُلْطَفٌ يُبْرِدُ الْمِزَاجَ إِذَا جَا شَ النَّهَابَا ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاءَ

(١) بعثناه : أى الدواء المعهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت في الأندلس وبخاصة في القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كإبن رشد ، وإبن القاسم الزهراوى ، وإبن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق ببغداد : كإبن سينا والرازى ، وعلى إبن العباس أخذ علماء أوروبا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد إبن زيدون التى تتعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمر بك من هذا النوع وأشعباه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشعر بأثار المدنية . والسخناء : من قولهم : لاني لأجد في نفسى سخناء - بالمد - وسخونة أى حرارة شهيدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : إن هذا الدواء قد جاءك يزهى في رفته وسيولته بواء رقيق تستشف العين مافى داخله ، ويتخذ الناظر فلا يكاد يراه لشدة رفته وصفائه .

(٣) يقول : إن متعاطيه يستمره ويجد فيه لذة كلذة الكلف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُعِينٌ لِّوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِي بَرْدُهُ فِي الْحَسَا - فَيُرْوَى الظَّمَاءُ
(فَتَقَبَّلَهُ) شَافِعًا لِأَيْدِيكَ الَّتِي بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ (١)

حسي رضاك

إِلَيْكَ - مِنَ الْأَنَامِ - غَدَا أَرْتِيحِي ، وَأَنْتِ - عَلَى الزَّمَانِ - مَدَى أَقْبِرَاحِي
وَمَا أَعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا - وَمِنْ ذِكْرِكَ - رِيحَانِي وَرَاحِي
فَدَيْتُكَ : إِنْ صَبْرِي عَنْكَ صَبْرِي - لَدَى عَطَشِي - عَلَى الْمَاءِ الْقِرَاحِ (٢)
وَلِي أَمَلٌ - لَوْ الْوَأَشُونَ كَفَّوْا - لَا طَلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ - رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلْتِكَ لِي - أَخْتِلَاسًا - أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ (٣)
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ ، وَغُضْنَ الْبَانَ يَرْفُلُ فِي وِشَاحِ ،
فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ - شَوْقًا - وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ ؟
عَلَى حَالِي وَصَالِ وَأَجْتَنَابِ ، وَفِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَأُتْرَاحِ
وَحَسْبِي أَنْ تُطَالِعَكَ الْأَمَانِي ، بِأَفْقِكَ - فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ -

(١) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :

« شافعا لأيديك التي بعضها يفوق الثناء . »

والتكدة لا يأبأها السياق .

(٢) يقول : إن صبري عنك كصبري على الماء القراح لدى عطشي وشدة ظمئي .

(٣) يقول في هذا البيت والذي بعده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحيني ودلاكي التي

أنيح وقدر لي ، طلعت سائرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائة كما يرفل غصن البان في وِشَاحِ .

وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ - غِيَابًا - وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَّاحِ (١)
فُوَادِي - مِنْ أَسَى بِكَ - غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي - عَنْ هَوَى لَكَ - غَيْرُ صَاحٍ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتِ - بِالْإِعْرَاضِ - غَيْرَ مُبَاعِدٍ وَزَهَدْتِ فِيْمَنْ لَيْسَ فِيكَ بِزَاهِدٍ (٢)
وَسَقَيْتِنِي - مِنْ مَاءِ هَجْرِكَ - مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ
هَلَّا جَعَلْتِ - فَدَتِكَ نَفْسِي - غَايَةً لِلْعُتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ (٣)
لَا تُفْسِدِنَ - مَا قَدْ تَأَكَّدَ يَدُنَا مِنْ صَالِحٍ - خَطَرَاتُ ظَنِّ فَاسِدِ
حَاشَاكَ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ - شَجِيءِ الْعَدُوِّ لَهَا - بِذَنْبِ وَاحِدٍ (٤)
إِنْ أَجْنِهَ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتِنِي ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* *
* *

عُودِي لِمَا أَصْفَيْتِنِيهِ مِنَ الْهُوَى بَدءًا ، فَلَسْتُ لِمَا كَرِهْتِ - بِعَائِدِ
وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَمَا أُخِرَ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ (٦)

(١) وحسي أن تبعثني بالسلام غبا أي يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التي تهب من ناحيتك ، وفي الأصل « وأن تبتدي » وقد وضعنا بدلها « تهدي » التي هي كصورتها حتى لا تكون نائية في موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تاليه ، ولكننا آثرنا تقديمه عليه بحكم العطف على قوله :

« وحسي أن تطالملك الأمانى . »

(٢) باعدت فتى غير مباعد وذاك باعراضك عنه ، وزهدت في محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان ينبغي أن تجعلي بيني وبينك نهاية للعتب وغاية أبلغ فيها رضاك بجهد الجاهد وشق النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيع ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوى كالشجا معترضا في

حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتني بأن طافقتني عليه بأشد من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيلني عن وجه الرضا ما يستره من قناع السخط كما أكون أول ساجد على نعمة رضاك عني .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعاً من أشعار كان
يستحسن ألحانها فعارضها رجه الله بقطع وهي : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي ^(١) الطَّوِيلَا وَيَشْفِي وَصَالِكَ قَلْبِي الْعَلِيلَا
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصَّدُودِ فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا
كَمَا أَنَّنِي ^(٢) إِنْ أَطَلْتُ الْعِشَارَ وَلَمْ يُبْدِ عُدْرِي وَجْهًا جَمِيلَا
وَجَدْتُ « أبا القاسم الظافر المؤيد بالله » مَوْلَى مُقِيلَا
إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالْحَيَا شَاهُ ، وَعُدَّ الْجَوَادُ الْبَحِيلَا
وَأَقْلَامُهُ وَفَقُّ أَسْيَافِهِ يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِي الصَّلِيلَا

وقال

أَنْتَ الْمَسْبَبُ لِلْوُلُوعِ وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعِ
يَتَمَنَّيَانِ لَوْ أَعْفِيَا - مَهْمَا طَلَعْتَ - مِنَ الطَّلُوعِ
وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ وَاحِدُهُ عَدْلُ الْجُمُوعِ
الْبَدْرُ فِي سَحْبِ الْبُرِّ وَدِ اللَّيْتِ فِي لِبَدِ الدَّرُوعِ
عَنْتِ الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعِ

(١) في الأصل : « الليل »

(٢) في الأصل : « أفني »

آلام المحب

مَتَى أَتُبُّكَ^(١) مَا بِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي
مَتَى يَنْوِبُ لِسَانِي فِي شَرْحِهِ - عَنْ كِتَابِي ؟
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي
فَلَا يَطِيبُ^(٢) مَنَايِي وَلَا يَسُوعُ شِرَابِي

* * *

يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَرِّى^(٣) وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي :
الشَّمْسُ أَنْتِ، تَوَارَتْ - عَنْ نَاطِرِي - بِالْحِجَابِ

* * *

مَا الْبَدْرُ - شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ -
إِلَّا كَوَجْهِكَ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النَّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أَرَادُ ؟ يَا سُوءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !
أَضْفِي الْوِدَادَ مُدَلَّلًا ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ
يَقْضِي عَلَيَّ دَلَالَهُ - فِي كُلِّ حِينٍ - أَوْ يَكَادُ
كَيْفَ السُّلُوُ عَنِ النَّيِّ مَثْوَاهُ - مِنْ قَلْبِي - السَّوَادُ ؟

(١) وفي بعض الروايات : « متى أتبيك . »

(٢) وفي بعض الروايات : « لم يلد منايي »

(٣) وفي الأصل : « يا فتنة المنقرى »

مَلَكَ الْقُلُوبِ بِحُسْنِهِ ، فَلَهَا - إِذَا أَمَرَ - اتَّقِيَادُ

يَا هَاجِرِي كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ ، فَلَا أَفَادُ
 أَلَّا^(١) رَمَيْتَ لِي يَيْتٌ وَحَشُو مُقْلَتِهِ الشَّهَادُ ؟
 إِنْ أَجْنِ ذَنْبًا فِي الْهَوَى - خَطَأً - فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
 كَانَ الرِّضَى - وَأَعِيذُهُ - أَنْ يُعْقِبَ الْكُونَ الْفَسَادُ

قسم

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ أُصْنِي الْوَدَادَ لَهُ
 إِيَّاهُ الْوَدَّ غُرُورَ الْوَعْدِ ، يَصْفَحُ لِي
 تَجْلُو الْمُنَى شَخْصَةً لِي - وَهُوَ مُحْتَجِبٌ
 يَا بَدْرَتِي بَدَا فِي أَفْقِ مَمْلَكَةٍ ،
 أَفْدَى بَدَائِعَ شَكْلِ مِنْكَ مُضْمِرَةً
 مَحْضًا ، وَلَا مَ بِهِ الْوَأَشِي فَلَمْ أَطِعْ
 عَنْهُ ، وَيُقْنِعُنِي التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ
 عَنِّي - فَمَا شِدَّتْ مِنْ مَرَأَى وَمُسْتَمَعِ
 فَرَّاقَ مُطْلَعًا مِنْ خَيْرِ مُطْلَعِ
 لِقَتْلِ نَفْسِي - عَمْدًا - أَشْنَعَ الْبِدَعِ

تَاللَّهِ - أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينِ بِهِ
 مَا لَدَّ لِي قُرْبُ أَنْسِي أَنْتِ نَارِحَةٌ
 مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصَّدْقِ وَالْوَرَعِ -
 عَنْهُ ، وَلَا سَاعَ عَيْشٍ لَسْتُ فِيهِ مَعِي

خداع الأمان

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى
 مَنِتُّ نَفْسِي - مِنْ صِفَائِكَ - ضَلَّةً
 وَدَعَوْتُ - مِنْ حَقِّ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَّا
 وَلَقَدْ تَعَرُّهُ الْمَرْءُ بَارِقَةَ الْمُنَى

في الغزل

« وله يتغزل و يعاتب من يستعطفه و يتنزل . »

يا مُسْتَحْفَاً بِعَاشِقِيهِ وَمُسْتَفْشَاً لِناصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الوُشَاةَ فِينا حَتَّى أَطَعنا السُّلُوَ فِيهِ
الحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرانِي تَكْذِيبَ ما كُنْتَ تَدْعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزَمَ التَّسْلَى وَيَغابِ الشَّوْقُ ما يَلِيهِ

إلى هاجر

أَوْ سَلَبُ مَنْ وَصَّالِكَ ما كَسَيْتُ؟ وَأَعْزَلُ - عَنِ رِضَاكَ - وَقَدْ وَايَيْتُ؟
وَكَيفَ - وَفِي سَبِيلِ هَوَاكَ طَوْعاً - لَقَيْتُ مِنَ المِكارِهِ ما لَقَيْتُ ا
أَسِرُّ عَلَيْكَ عَتَباً لَيْسَ يَبْقَى ، وَأُضْمِرُ فِيكَ غَيْظاً لا يَبِيْتُ
وَمَا رَدَّى عَلَى الوَاشِينَ ، إِلَّا : « رَضَيْتُ بِجَوْرِ ما لِكْتِي رَضَيْتُ . »

دعاء محب

أَنِّي أَضِيعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعَدَّكَ
وَقَدْ رَأَيْتَكَ الْأَمَانِي رَضَى ، فَلَمْ تَتَّعِدْكَ

* * *

يَا لَيْتَ مَالِكَ عِنْدِي ! - مِنَ الهَوَى - لِي عِنْدَكَ ^(١)

(٢) وفي بعض الروايات :

« يا ليت شعري ، وعندى ما ليس - في الحب - عندك
هل طال ليلك بعسدي ؟ كطول ليلي بعديك ؟ »

فَطَالَ لَيْسَكَ بَعْدِي كَطَوَّلُ لَيْسَ لِي بَعْدَكَ
سَلَنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا ، فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
الدَّهْرُ عِبْدِي ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ - عَبْدَكَ

أنت حسبي

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ - فِي النَّاسِ - مُشْتَهراً قَابِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الِهْمَّ وَالْفِكْرَا
إِنْ غَبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤَدِّنِي (١)

ما الذي أنكروه ؟

قَالَ لِي : « أَعْتَلَّ مَنْ هَوَيْتَ » حَسُودٌ قُلْتُ : « أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيُنْحَكَ لَاهُو »
مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ (٢) ضَاعَفْتَ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ
جِسْمُهُ - فِي الصَّفَاءِ وَالرَّقَّةِ - الْمَا ، فَلَا غَرَوَ أَنْ حُبَابُ عِلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدْتُ ذِكْرِي الْهُوَى - مِنْ بَعْدِ نِسْيَانٍ وَأَسْتَحَدَّتْ الْقَلْبُ شَوْقًا بَعْدَ سُلْوَانٍ
مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَنَمٌ مِنْ اللَّجِينِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عِقْيَانٍ
فَرِيرَةٌ - لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَامُهَا - تَسْنِي الْعُقُولَ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسَنَانٍ
لَا سَتَجِدَنَّ - فِي عَشْقِي لَهَا - زَمَنًا يَنْسِي سَوَافِ أَيْامِي وَأَزْمَانِي
حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، نَسَخْتُ - فِي حُبِّهَا - كُفْرًا بِإِيمَانٍ

(١) في الأصل « يونسى » بابدال الهمزة واوا وهو إبدال مقيس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع

أسنى (بالتضعيف) أى أزال وحشقى كما نسى ، وجاء في كلامهم :

« إذا جاء الليل استأنس كل وحشى ، واستوحش كل لمنى » .

(٢) البثرات : واحدها بثرة كسجدة وسجدات ، وهى خراج صغار تظهر على الوجه ، فتنتظف جلده ،

وأغلب ما يكون ذلك فى أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة فى بلادنا (بحب الشباب) ، وقد علاه فى

البيت التالى تعميلا حسنا ، حيث شبهه بالحباب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب فى الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سؤَالَ نَفْسِي - إِنَّ أَحْكَمَ - وَاخْتِيَارِي إِنَّ أَخْيَرَ
كَمْ لَأَمْتِي فِيكَ الْحَسُو دُ ، وَفَنَدَّ الْوَأَشِي فَأَ كَثُرَ
قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوءِ وَبِاللَّمَامَةِ قَدْ تَعَيَّرَ »
وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْبًا بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرُ
وَبِرَعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرِّضَى بِالذُّونِ يُعْذَرُ
لَمْ يَعَامُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ (١)

معذرة

إِنْ تَكُنْ نَأَلْتِكِ بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكِ بِهَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - فَأَدِيَا لَكَ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَالِدِ
فَنَقِي مَنِي بَعْدَ ثَابِتِ وَضَمِيرِ خَالِصِ الْمُعْتَقِدِ
وَلَنْ سَأَاكِ يَوْمَ فَأَعْلَمِي أَنْ سَيَتَلَوُهُ سُورَةٌ بَعْدِ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفٌ لِلْهَوَى كُلِّ ظَرِيفِ أَنَا مُسْتَوْدَعٌ لِعَلْقِ شَرِيفِ
أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرَّاحِ إِذِ الرَّاحِ كَالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ
سَلُّ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهِيَ فُؤُونُ الْفَتَى فِي أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ
أَيُّ حُسْنٍ يَنِي بِحُسْنِي مَحْمُو لَا بِكَفَى وَصِيفَةٍ أَوْ وَصِيفِ

(١) من قولهم « الحسن أحمر » أي ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تمسق الحسن والجمال تحول في سبيله للمشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لمن يستقره الهوى ، وينبذ الحسن على أمره فيلق في سبيله الموت الأحمر .

غاية المحبين

لَيْنٌ كُنْتَ فِي السَّنِّ - تَرْبُ الْهَيْلَالِ ، لَقَدْ قُتَّتْ - فِي الْحُسْنِ - بَدْرُ الْكَمَالِ
أَمَّا وَالَّذِي نَكَّدَ الْحِظَّ فِي دُنُوِّ الْمَكَانِ يُمَعِدُ الْمَنَالِ
لَقَدْ بَلَغْتَنِي دَوَاعِي هَوَاكَ إِلَى غَايَةِ مَا جَرَّتْ لِي بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِمُ الْمَلَأَ الْعِنَانِ » فَيَدَانُ قَلْبِي رَحِيبُ الْمَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمْرًا مَطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِي - فِي حُبِّكَ - الْمَذْهَبُ
أَعْتَبُ - مِنْ ظُلْمِكَ لِي - جَاهِدًا ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَمْتِبُ
أَلْزَمْتَنِي الذَّنْبَ الَّذِي جِئْتَهُ ، صَدَقْتَ ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا الْمُذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا الْبَدْرُ الَّذِي يَمَلَأُ عَيْنِي مِنْ تَأَمُّلِ
حَمَلِ الْقَلْبِ تَبَارِيحَ التَّجَنِّي فَتَحَ مَلْ
لَيْسَ لِي صَبْرٌ جَمِيلٌ ، غَيْرَ أَنَّ أَتَجَمَّلُ
ثُمَّ لَا يَأْسَ ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤْمَلْ

عتب

أَوْحَيْتَنِي - بِإِلَاجِزْمٍ - وَأَقْصَى بِإِلَازِنِ ، سِوَى أَنْبِي مُحَضِّهِ الْهَوَى صَادِقِ الْحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشُّكْوَى ، فَأُضْحِي عَلَى الْقَلْبِ وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى ، فَأُظْفِرُ بِالْعُتْبِ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْمَاءِ - عَذْبًا عَلَى الصَّدَى - وَإِنْ سُمَّتِي خَسَفًا ، مَحَلِّكَ مِنْ قَلْبِي
وَلَوْ لَأَكَ ، مَا ضَاقَتْ حَشَايَ - صَبَابَةً - جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ

تجنى الحبيب

ثِقِي بِي - يَا مُعَدَّ بَتِي - فَإِنِّي سَأَحْفَظُ فِيكَ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّي
وَأِنْ أَصْبَحْتَ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكَ ظَنِّي
وَهَلْ قَلْبُ كَقَلْبِكَ فِي ضُلُوعِي، فَأَسْأَلُو عَنْكَ حِينَ سَلَوْتَ عَنِّي
تَمَنَّتْ - أَنْ تَنَالَ رِضَاكَ - نَفْسِي، فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي
وَلَمْ أَجْنِ^(١) الذُّنُوبَ فَتَحَقِّدِيهَا، وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكَ التَّجْنِي .

لا يأس في الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ، وَسَبِيلُ الهَوَى ، وَقَصْدُ الوُلُوعِ
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَالْكِنَ لَكَ - عِنْدَ الغُرُوبِ - فَضْلُ الطُّلُوعِ
لَيْسَ بِالمُؤَيَّسِي تَكَلَّفُكَ العَتَبَ - دَلَالًا - مِنَ الرِّضَى المَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ - وَالْحَسُودُ مَعْنَى - كَوَكَبٌ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ الرُّجُوعِ

بقية المسواك

أَهْدِي إِلَيَّ بَقِيَّةَ المِسْوَاكِ لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بَعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنْفَسَ سَاعَةٌ عَنْهَا بِتَقْبِيلِ المَقْبَلِ فَأَكِ
يَا كَوَكَبًا - بَارِي سَنَاهُ سَنَاءَهُ - تَزْهِي الفُصُورُ بِهِ عَلَى الأَفْلَاكِ
قَرَّتْ وَفَارَتْ - بِالْخَطِيرِ مِنَ المُنَى - عَيْنٌ تُثَلِّبُ لِحْظَهَا فَتَرَكَ

غرور المنى

إِنْ سَاءَ فِعْلُكَ بِي ، فَمَا ذَنْبِي أَنَا ؟
حَسْبُ الْمَتِّيمِ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَا
لَمْ أَسْأَلْ حَتَّى كَانَ عُدْرُكَ - فِي الذِّي
أَبْدَيْتَهُ - أَخْفَى ، وَعُدْرِي أَيْنَنَا
وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ - إِلَى الْهَوَى ،
وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
مَنْبِتُ نَفْسِي - مِنْ وَفَائِكَ - ضَلَّةً ،
وَلَقَدْ تَعَرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

صليني

أَغَابَةٌ عَنِّي ، وَخَاضِرَةٌ مَعِي ،
أُنَادِيكَ - لَمَّا عِيلَ صَبْرِي - فَأَسْمَعِي
أَفِي الْحَقِّ أَنْ أَشَقِيَ بِحُبِّكَ ، أَوْ أَرَى
حَرِيْقًا بِأَنْفَاسِي ، غَرِيْقًا بِأَذْمِي
أَلَا عَطْفُهُ تَحِيًّا بِهَا نَفْسُ عَاشِقٍ ؟
جَعَلْتَ الرَّدَى مِنْهُ بِمِرْأَى وَمَسْمَعٍ
صَلِيْنِي - بَعْضُ الْوَصْلِ - حَتَّى تَبَيَّنِي
حَقِيْقَةً حَالِي ، ثُمَّ مَا شِدَّتِ فَأُصْنَعِي

شكوى ضائعة

سَاحِبُ أَعْدَائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمْ (١)
يَا مَنْ يُصِخُّ - بِمِقْلَتَيْهِ - وَيُسْقِمُ
أَصْبَحْتَ تُسَخِّطُنِي فَأَمْنُحَكَ الرِّضَى
- مَحْضًا - وَتَطْلِمُنِي فَلَا أَتَظْلَمُ
يَا مَنْ تَأَلَّفَ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ ،
فَالْحُسْنُ بَيْنَهُمَا مُضِيٌّ مُظْلِمٌ
قَدْ كَانَ فِي شِكْوَى الصَّبَا بَقِيَّةَ رَاحَةٍ ،
لَوْ أَنَّي أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلَتْ اتِّصَالَ الْحُبِّ (٢) بِالْكَبِدِ
ثُمَّ أَمْتَزَجَتْ أَمْتَزَاجَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ

(١) وهذا قريب من قول الغائل :

« شابهت أعدائي فصررت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم . »

(٢) وفي الأصل : « الحب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكَ ، وَأَتَقَدَّتْ - فِي صَدْرِي كُلِّ عَدُوٍّ - جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلَيْسَ سَخَطِ النَّاسِ لَأَهْدِي الرِّضَى لَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُ لَكَ عَهْدُ آخِرِ الْأَبَدِ
لَوْ أُسْتَطَعْتُ - إِذَا مَا كُنْتُ غَائِبَةً - غَضَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلْ ، لَا أَشْتَهِي - إِلَّا بِوَصِيلٍ - قِصْرَكَ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي ، مَا بَثُّ أَرْعَى قَمَرِكَ
يَا لَيْلُ خَبِّرْ : أَنِّي أَلْتَدُّ عَنْهُ خَبْرَكَ
بِاللَّهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَا ؟ فَقَالَ : « لَا ، بَلْ غَدَرَكَ »

حذر العاشق

لَيْنٌ فَاتَنِي مِنْكَ حِظَ النَّظَرِ لَا كَتِفَيْنِ بِسَمَاعِ الْخَبْرِ
وَإِنْ عَرَضَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيبِ ، فَحَسْبِي تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصِرُ
أَحْذِرُ أَنْ تَنْظُقِي الْوُشَاةَ ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ
وَأَصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا : أَنَّهُ مَيِّحُظِي - بِنَيْلِ الْمُنَى - مَنْ صَبَرَ

قناعة المحب

سَأَقْنَعُ مِنْكَ بِلِحْظِ الْبَصَرِ ، وَأَرْضِي بِتَسْلِيمِكَ الْمُخْتَصِرِ
وَلَا أَتَخَطَّى التَّاسَ الْمُنَى ، وَلَا أَتَعَدَّى اخْتِلَاسَ النَّظَرِ
أَصُونُكَ - مِنْ لِحْظَاتِ الظُّنُونِ - وَأَعْلِيكَ عَنِ خَطَرَاتِ الْفِكْرِ
وَأَحْذِرُ - مِنْ لِحْظَاتِ الرَّقِيبِ - وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ

كيف السلو؟

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبٌ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَيْبٌ ؟
 يَا قَرِيْبًا - حِيْنَ يَنْأَى - حَاضِرًا - حِيْنَ يَغِيْبُ - !
 كَيْفَ يَسْأَلُوكَ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَيِّبٌ ؟
 إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
 قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لَا شَكَّ - مُصِيبٌ
 أَنْ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا أَضْمَرْتَ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتَنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتَنِي -
 بَادَرْتَنِي بِالْعَزْلِ عَنِ خُطَطِ الرِّضَى ،
 هَلَّا - وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرِكَ الْهُوَى -
 الصَّبْرُ شُهْدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتَنِي -
 كُنْتَ الْمَنَى ، فَادْقَتَنِي غُصَصَ الْأَذَى ،
 وَحَطَطْتَنِي ، وَلَطَمًا أَعْلَيْتَنِي
 وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَيْتَنِي
 عَلَّيْتَنِي بِالْوَصْلِ ، أَوْ سَلَّيْتَنِي
 وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصَلَّيْتَنِي
 يَا لَيْتَنِي مَا فَهَيْتُ فَيْكَ : بَلَيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتَنِي - عَنِ تَمَادِي الْوَصْلِ - هَجْرَانَا
 بِاللَّهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهُوَى خَطَأً
 عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ
 مَا صَحَّ وَدَى إِلَّا أَعْتَلَّ وَدُكَّ لِي ،
 يَا أَلَيْنَ النَّاسَ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ
 حَسُنْتَ خَلْقًا ، فَأَحْسِنِ لِاتِّسُوْ خَلْقًا ،
 وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلُوَانَا
 أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظَلَمًا وَعُدُوَانَا ؟
 وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ الْوَانَا
 وَلَا أَطَعْتُكَ إِلَّا زِدْتَ عَصِيَانَا
 لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسًا وَأَرْدَانَا
 مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُؤَلِّ إِحْسَانًا ؟

أين وفاؤك؟

أَشْمَتَ بِي فِيكَ الْعِدَا وَبَلَغْتَ مِنْ ظُلْمِي الْمَدَى
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةً مِنْ حُبِّكَ الْقَلْبُ أُفْتَدَى
كُنْتَ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ مُدْخِلْتَ أَيَقْنَ بِالرَّدَى
لَمْ يَسْلُ عَنْكَ، وَلَوْ سَلَا لَعَدْرْتُهُ، فَبِكَ أُقْتَدَى
صَيَّعْتَ عَهْدَ حَبَّةٍ كَالْوَرْدِ سَامِرُهُ النَّدَى
أَيْنَ ادْعَاؤِكَ لِلْوَفَا ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا (١)

صريع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتٌ» مَا كَانَ رَدِّي «لَا»
أَبْدَيْتَ لِي - مِنْ أَفَانِينَ الْقَلَى - عَبْرًا،
لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِي
فَلْيُغْنِ كَفَّكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ،
وَلتَقْضِ مَا سِدَّتْ - مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ -
سَقِيًّا لِعَهْدِكَ وَالْأَيَّامُ تُقْبِلُنِي
إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِي مُسَاعَدَتِي
إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلَّا رِضَاكَ، فَلَا
يَا جَائِرَ الْحُكْمِ، أَفَدِيهِ بِمَنْ عَدَلَا
أَرْسَلْتَنِي - فِي أَحَادِيثِ الْهَوَى - مَثَلَا
إِلَّا خَلَعْتَ عَلَيَّهَا - بِالضَّنَى - حُلَلَا
وَأَيْكَفِ طَرَفَكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلَا
لَا أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلُوانًا وَلَا مَلَكَا
وَجَهَ السُّرُورِ بِهِ جَذْلَانٌ مُقْتَبِلَا
يُهْدِي إِلَيَّ - تَفَارِيقَ الْمُنَى - مُجَلَا
بُاغْتُ - يَا أَمَلِي - مِنْ دَهْرِي الْأَمَلَا

(١) في الأصل: «وما عدا فيما بدا.» وأصل المثل كما في مجمع الأمثال للبيداني: «ما بدا مما بدا.»
أى ما منعت مما ظهر لك أولاً، قاله علي بن أبي طالب للزبير بن العوام رضى الله عنهما يوم الجمل يريدما الذى صرفك عما كنت عليه من البيعة، وهذا متصل بقوله: «عرفتني بالحجاز، وأذكرتني بالمرق، فما عدا مما بدا.»

وفاء المحب

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي الْبَدْرَ الَّذِي كَمَلَا
فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ وَالْعُصْنِ الَّذِي أُعْتَدَلَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ
إِلَى مُرْتَهِنٍ شُكْرِي بِمَا فَعَلَا
أَمَّا الْحَبِيبُ الَّذِي أَبْدَى الْجَفَاءَ لَنَا،
فَمَا رَأَيْنَا قِلَاهُ حَادِتًا جَلَلَا
وَلَمْ تَزِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلءَ أَعْيُنِنَا
بِالْمُشْتَرِي، فَتَجَبَّنَا لَهُ زَحَلَا
أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي مَا زِلْتُ الْخُفَّةُ
ظِلَّ الْهُوَى، وَأَسْقِيهِ الرِّضَا عَمَلَا
هَذِي الْحَقِيقَةُ، لَا قَوْلِي مُخَازَعَةٌ :
لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُت» مَا كَانَ رَدِّي «لَا»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قَلِي
لَا وَلَا ذَاكَ التَّجَنِّي مَكَلَا
سَرَّهُ شُكْرِي - إِذْ خَافِي - وَلَمْ
يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَأَبْتَلِي
أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ
لِي مَنْ لَوْ قَالَ «مُت» مَا قُلْتُ: «لَا»
مِثْلِي فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلَ مَا
صَارَ ذُلِّي - فِي هَوَاهُ - مِثْلَا
يَافَتَيْتَ الْمِسْكَ يَا شَمْسَ الضُّحَا
يَا قَضِيبَ الْبَانِ يَا رِيمَ الْفَلَا
إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا
مِنْكَ، لَا بُلَّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلَا

إلى هاجر

أَتَهَجَّرُنِي وَتَعْصِبُنِي كِتَابِي ؟
وَمَا فِي الْحَقِّ غَضْبِي وَأَجْتِنَابِي
أَيَجْمَلُ أَنْ أُيْحَكَ مَحْضُ وُدِّي ؟
وَأَنْتَ تَسُوْمُنِي سُوءَ الْعَذَابِ
فَدَيْتُكَ، كَمْ تَغْضُ الطَّرْفَ دُونِي
وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ - بَعْدَ قُرْبِ -
مَكَانَ الشَّيْبِ فِي نَفْسِ الْكِعَابِ

أَعِدْ - فِي عَبْدِكَ الْمَظْلُومِ - رَأْيًا
تَنَالُ بِهِ الْجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ (١)
وَإِنْ تَبَخَّلَ عَلَيْهِ قَرُبٌ دَهْرٍ
وَهَبْتَ لَهُ رِضَاكَ بِلاَ حِسَابِ

لا سبيل إلى السلو

أذْ كَرَّتْ نِي سَالِفِ الْعَيْشِ الَّذِي طَابَا
يَأْتِيَتْ فَائِبَ ذَلِكَ الْعَهْدِ قَدْ آبَا
إِذْ نَحْنُ فِي رَوْضَةٍ لِلْوَصْلِ - نَعْمَهَا
مِنَ السُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ شَوْقِ يُطَاوِلُنِي
فَكَلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا
كَمْ نَظْرَةٌ لَكَ فِي عَيْنِي عَامِتَ بِهَا
- يَوْمَ الزِّيَارَةِ - أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا
قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِي لِطَاعَتِكُمْ،
فَإِنْ أَكَلَّفَهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَأْبَى
مَاتُوا بِي بِنُصُوحٍ - مِنْ مَحَبَّتِكُمْ -
لَا عَذْبَ اللَّهُ إِلَّا عَاشِقًا تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكَ فَعَلِقْتُ مَالَهُ ثَمْنُ
لَوْ كَانَتْ سَاعِحِي فِي وَصْلِهِ الزَّمَانُ
تَبَكَّى فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاطِرُهَا
قَدْ لَجَّ فِي هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسْنُ
إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي عَهْدِي بِهِ حَسَنُ
قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّي وَجْهَكَ الْحَسَنُ
أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُقَدَّرُ فِرَاقَكَ لِي
فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُحْضَرِ الْكَفَنُ
وَاللَّهِ مَا سَاءَ نِي أَنِّي جُفَيْتُ ضَنِّي
بَلْ سَاءَ نِي أَنْ سِرِّي - بِالضَّنَى - عَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِي - فِي كَتَمِ الْهَوَى - يَيْدِي
مَا كَانَ يَعْلَمُ - مَا فِي قَلْبِي - الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الثَّغْبِ الشَّهْدِيِّ مَنِي تَحِيَّةٌ
زَكَتْ، وَعَلَى وَادِي الْعَقِيقِ سَلَامٌ
وَلَا زَالَ نَوْزُ فِي الرِّصَافَةِ ضَاحِكٌ
بَارِجَاهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامٌ

(١) قريب من هذا قول البحتري:

«أعبدى في نظرة مستتب توخى الأجر أو كره الأثاما»

مَعَاهِدُهُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا
 زَمَانُ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرُهُ
 فَإِنْ بَانَ مِنِّي عَهْدُهَا ، فَبَلَوَعَةٍ
 تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ
 وَصُحْبَةَ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ
 إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمَدِيرُ عَلَيْهِمْ
 وَأَحْوَرُ سَاجِي الطَّرْفِ حَشْوُ جُفُونِهِ
 تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ - فِي طَيِّ بُرْدِهِ -
 يُدِيرُ - عَلَى رَغَمِ الْعِدَا - مِنْ وِدَادِهِ
 فِإِنْ أَجَلِهِ أَدْعُو لِقَرُطَةِ الْمُنَى
 مَحَلُّ غَنِينَا بِالتَّصَابِي خِلَالَهُ
 فَمَا لِحَقَّتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلَامَةٌ ،
 تُدَارُ عَلَيْنَا - لِلْمُجُونِ - مُدَامُ
 تَرَفٌ ، وَأَمْوَاهُ الشَّرُورِ جِمَامُ
 يَسْبُ لَهَا - بَيْنَ الصُّلُوعِ - ضِرَامُ
 دُمُوعٌ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ
 - إِذَا هَزَّ لِلخَطْبِ الْمِلْمِ - حُسَامُ
 أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ
 سَقَامٌ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ
 إِذَا أَهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ
 سَلَافًا ، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ
 بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهُوَ رِهَامُ (١)
 فَأَسْعَدْنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ
 وَلَا ذُمَّ - مِنْ ذَلِكَ الْحَبِيبِ - ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُّ ، وَمِنْ أَهْوَاهُ - فِي الْحُبِّ - عَابِتُ
 حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي - مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى -
 جَفَانِي بِالْإِطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ
 تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِي ، وَمَا زِلْتُ وَاقِعًا
 وَمَا كُنْتُ - إِذْ مَلَكْتُكَ الْقَلْبَ - عَالِمًا
 فَدَيْتُكَ ، إِنْ الشَّوْقُ لِي - مُذْ هَجَرْتَنِي -
 وَأَوْفَى لَهُ بِالْمَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ
 مُقِيمٌ لَهُ - فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ - مَا كِثُ
 - عَنِ الْوَصْلِ - رَأَى فِي الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
 بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيْرَ تِلْكَ الْحَوَادِثُ
 بِأَنِّي - عَنْ حَتْفِي - بِكْفَى بِلِحْثُ
 مُمِيتٌ فَهَلْ لِي - مِنْ وَصَالِكَ - بَاعِثُ؟

سَتَّبَلِي اللَّيَالِي - وَالْوِدَادُ بِجَاهِهِ -
جَدِيدٌ ، وَتَقَنَى وَهُوَ لِلأَرْضِ وَارِثٌ
وَلَوْ أَنَّنِي أَفْسَمْتُ : أَنْكَ قَاتِلِي
وَأَنِّي مَقْتُولٌ ، لَمَا قِيلَ : « حَانَتْ . »

اصنع ماشئت

يَا نَاسِيَا لِي - عَلَى عِرْفَانِهِ - تَلْفِي
وَقَاطِعًا صِلَتِي - مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبِ -
مَاشِئْتَ فَاصْنَعُهُ ، كُلُّ مَنِكَ مُحْتَمَلٌ ،
لَوْ كُنْتَ حَظِّي ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا ،
ذَكَرَكَ مِنِّي بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولٌ
تَاللَّهِ : إِنْكَ - عَنِ رُوحِي - لَمَسْتُولٌ
وَالذَّنْبُ مُعْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولٌ
أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولٌ

أمنية

يَا قَاطِعًا حَبْلَ وُدِّي وَوَاصِلًا حَبْلَ صَدِّي
وَسَالِيَا ، لَيْسَ يَدْرِي بِطُولِ بَيْتِي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ - بَعْدِي - مِثْلِي ، وَبِتَّ - مِثْلَكَ - بَعْدِي

نفسى فداؤك

لَوْ تَرَكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنْ أَلْهَوَى أَسْتَظَارَ حَدِيثِنَا ، فَأُتَحْتَمْنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوْ أَنَّ النَّفُوسَ تَقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا - فِدَاءً - وَجَدْنَا

دين الحب

يَا غَزَالًا جُمِعَتْ فِيهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُنُونٌ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينٌ
بِهِوَالِكَ - الدَّهْرُ - أَلْهُو ، وَبِحُبِّيكَ أَدِينُ

مُنِيَّة الصَّبِّ : أَغْنَيْ ،
 قَدْ دَنَّتْ مِنِّي الْمُنُونُ ،
 وَأَحْفَظِ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي
 لَسْتُ - وَاللَّهِ - أَخُونُ
 وَأَرْحَمَنُ صَبَا شَجِيًّا
 قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ ،
 لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ،
 وَسَقَامٌ ، وَأَيْنُ
 شَقَّةُ الْحُبِّ ، فَأَمْسَى
 - سَقَمًا - لَا يَسْتَبِينُ
 صَارَ - لِلْأَشْوَاقِ - نَهْبًا ،
 فَنَبَّتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

يَبْنِي وَيَبْنِكُ مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعْ
 سِرٌّ إِذَا ذَاعَتِ الْأَسْرَارُ - لَمْ يَدِجْ
 يَا بَابِعَا حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُدِّلتْ
 لِي الْحَيَاةُ - بِحَظِّي مِنْهُ - لَمْ أَبِيعْ
 يَكْفِيكَ أَنْتَ - إِنْ حَمَلَتْ قَلْبِي مَا
 لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ - يَسْتَطِيعْ
 تَهْ أَحْتَمِلُ ، وَاسْتَطَلَّ أَصْبِرُ ، وَعِزَّ أَهْنُ ،
 وَوَلَّ أَقْبِلُ ، وَقَوْلُ أَسْمَعُ ، وَمُرُّ أَطِيعْ

في سبيل الهوى

قَدْ نَالَني مِنْكَ مَا حَسَبِي بِهِ وَكُنِي
 يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ - فِي الْإِطَافِهِ فَجَعَا
 عَلَّتَنِي بِالْمُنَى - حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ
 بِالنَّفْسِ - لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرْفَا
 غَيْرَتْ عَنْ خُلُقٍ - قَدْ لَانَ لِي زَمَانُ -
 لِيَنِ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَدَّ لِي عَصْفَا
 لَا يَحْبِطُنْ عَمَلٌ - أَرْضَاكَ صَالِحُهُ -
 فَنِي سَبِيلِكَ أَفْقَمْتُ الْهُوَى سَرَفَا

صلة المحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنِّي هَامٌ ،
 قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلَا لَأَمُّ
 لَا يَنْمِ الْوَأَشِي الَّذِي غَرَّنِي
 هَا أَنَا - فِي ظِلِّ الرِّضَى - نَأَمُّ
 عُدْتُ إِلَى الْوَصْلِ - كَمَا أَشْتَهِي -
 فَأَهْجُرُ بَاكِي ، وَالرِّضَى بَالِمِ

حَسْبِي - ، أَنَا الْمَظْلُوم - فِيمَا جَرَى ،
يَا سَائِلًا عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ -
مَعْنَى الْهُوَى أَنْتَ وَشَخْصُ الْمَنَى ،
وَأِنْ تَشَأْ قُلْتَ : « أَنَا الظَّالِمُ »
- تَجَنُّبًا - وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ
دَعْنِي مِمَّا يَزْعَمُ الزَّاعِمُ ،

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سُدِّي (١) حَقُوقِي ،
أَشْمَسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ !
أَمَا يُمْحِي عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟
يَمِيلُ - مَعَ الزَّمَانِ - كَمَا يَمِيلُ
وَبَاعِي فِي الْهُوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَمَّا لَكَ - فِي سِوَى قَلْبِي - أَقُولُ ؟
أَمَا يُرْجِي - إِلَى وَصْلِ - وَصُولُ ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطَرْتُ وَجَدًا ،
وَلَكِنْ مَا إِلَى هَذَا سَبِيلُ
كِتَابِي - عَنْ وَدَادِكَ - لَا يَزُولُ ،
وَعَهْدِي - مِثْلَ عَهْدِكَ - لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي - مِنْ وَصَالٍ كُنْتُ وَارِدُهُ -
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السَّقَمِ أَسْبَغَهَا -
إِنْ بَصُرْتُ الْهُوَى ، عَنْ مُقَلَّةٍ كَحَلَّتْ
لَمَّا بَدَأَ الصَّدْعُ مُسَوِّدًا بِأَحْمَرِهِ
أَوْفَى إِلَى الْخُدِّ ، ثُمَّ أَنْصَاعَ مُنْعَطِفًا
لَوْ شِئْتَ زُرْتُ وَسِلكَ النِّجْمِ مُنْتَظِمًا ،
صَبًّا - إِذَا التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرْمِي
هَذَا وَإِنْ تَلَفْتُ نَفْسِي ، فَلَا عَجَبُ ،
هَلْ مِنْكَ لِي غُلَّةٌ إِنْ صَحْتُ : « وَاعْطَشِي »
- ظُلْمًا - وَصِيرَتْ مِنْ حُلْفِ الضَّنَى فُرْشِي
بِالسَّحْرِ مِنْكَ ، وَخَدَّ بِالْجَمَالِ وَشِي
أَرَى التَّسْلِمَ - بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
كَالْعَقْرُبَانِ أَنْتَنِي مِنْ خَوْفِ مُحْتَرِشِ
وَالْأَفْقُ يُحْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْعَبْشِ -
جَفَا الْمَنَامِ ، وَصَاحَ اللَّيْلِ : « يَا قُرْشِي »
قَدْ كَانَ مَوْتِي - مِنْ تَلْكَ الْجُفُونِ - خُشْيِي

إلى المعتمد أيها الظافر لا زلت مدى الدنيا مظفر

(١) الأحاسي والألغاز والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب في طرق الألغاز والتعمية ليمتنحوا بها الذكاء والقدرة على فك الظلام والمعيات ، ويزجوا بها أوقات فراغهم الطويلة ، وهو عمل شاق مضمّن لا يقدم عليه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها . وأكثر أنواعه تافه لا خطر له ، وسنلم بطائفة كبيرة منها . وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأمراء إلى ذلك المهذم مقام الشفرة ، وتطير الحمام الزاجل وما إلى ذلك من وسائل الخابرة السرية ، ومن يدري ؟ فربما كان مدار بين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الذكاء لمخسب ، وإنما كان يقصد به فوق ذلك المران على بعض ضروب الخابرة السرية التي كانت تمس إليها حاجة الدولة ، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم . وربما كان للتسلية وحدها وترجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا .

والطريقة التي تبعها المعتمد وابن زيدون هي إحدى هذه النارق العديدة ، ولم نثر عليها - فيما قرأناه من كتب الألغاز على كثرتها - ولم نثر إليها المعاجم العربية ، ولكننا استنتجناها من الأشعار التي دارت بينهما ، ومن قول « المقرئ » صاحب « فنج الطيب » الذي عزز ما ذهبنا إليه .
وخلاصة هذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا في قصيدة أو بيتين ويرمز لكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه .
قال المقرئ :

« وكتب ابن زيدون إلى المعتمد :

« وافاك نظم لي في طيه معنى معنى اللفظ مستور

مراهه يصعب ما لم يجع بالسر - قري وشحورور .

قال : « ثم ذكر أبياتا ، فيها أسماء طيور ، عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير هو :

« أنت - إن نثر - ظافر - فليطع من يتافر . »

ففسكه « المعتمد » وجاوبه :

« جاءني الطير التي سرها نظم به قلمي مسرور . اه .

وستبرك هذه القصيدة في « ص ٢٩٩ » من هذا الديوان .

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد :

« أرسل طيور الشعر نحوى فقد بث نوادي شرك الفهم . »

وقول ابن زيدون للمعتمد :

« وافاك للطير سرب لديه سر مكم . »

ولا تكاد تخلو قصيدة - من هذا النوع - من ذكر الطيور كما يرى القاري في التصانيد التالية ، وسنتبت القصيدة التي نحن بصدها في المرح وتبعها بمجدول نورد فيه على الترتيب أسماء الطيور التي ذكرها فيها ،

وتقرن كل طائر بحرف هجائه ليسنى للقاري استخراج البيت المطير بنفسه ، وهامى الأبيات :

« فاسأل الشاهين ، والصقرين ، والعنقاء تخبر

أَنْتَ أَسْنَى ابْنِ لِأَسْمَى وَالِدِ فِي أَدَهْرِ فَأَفْخَرُ
 إِنْ تُرِدْ شَرَحَ مُعَمَّى هُوَ فِي نَظْمِي - مُضْمَرُ

ثم رال القفر ، والف - سياد ، والنسر المعمر
 ثم بعد الديك عد للذ - سر ، والرال المنفر
 ثم عد للنسر والرا ل ، فكل قد تكرر
 والحبارى ، والسباني والشقراق الحبر
 ثم سائل بعدها البا - زى - إن حل فصرصر
 معه الطاوس والديك - ك إذا بالصبح بشر
 تلاوه القمري مهما - ردد السجع ففرفر
 ثم ناد الهيق والرأ ل ، لعل السر يظهر
 وتعيف ما لدى القب - جين من خاف سيظهر
 ثم عد للنسر والرا ل ، هما - في الأمر أكثر
 وازجر العتق حق الزجر - ر ، إن الطير يزجر
 ولبل الرأل سباني وشقراق تأخر . «

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن نبينها للقارىء لتكون نموذجاً - لمن
 يعنيه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعنى الذى يستخرج من هذه الأبيات هو :
 « صدق لنا فال السمه تظنر على الكلمه . »

وأنت إذا تبعت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر في مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن
 نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائر الذى يدل عليه فى الجدول الآتى ليدين للقارىء طريقة الحل ،
 وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هيق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	حبارى	ى	قبيجين
ل	رأل	م	سباني	ا	نسر
ن	فياد	ه	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازى	ك	عتق
ف	ديك	ظ	طاوس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سباني
ل	رأل	ر	قمري	ه	شقراق

فَأَسْأَلُ - الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ - تُخْبِرُهُ
مُمُّ رَالَ الْقَقْرَ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمُعَدَّرَ

وإلى القارئ معاني هذه الكلمات :

الشاهين : ضرب من الصقور أ كدر أبنت أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافي لا وجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأل : ولد النعام ، وسيرت بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سبى بذلك لأنه ينسر الشيء ويقطعه ويقتنصه والكثير الريش منه يسمى النداف .

ديك - الديك : ذكر الدجاج .

رال : ولد النعام .

جبارى - الجبارى : طائر فى حجم الديك الهذى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

سمانى : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على سمانيات .

قالوا : وهو ينوص فى البحر بأحد جناحيه ويقم الآخر كالقلاع للسفينة ، فتدنهه الريح إلى ساحل البحر .

وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فإذا أقبل الربيع صاح . شقراق : طائر صغير بقدر حمام أخضر مشبع الخضرة ، حسن المنظر ، فى جناحيه سواد وعده الجاحظ نوما من الغربان . يألف الزواجر ورءوس الجبال . وله مشق ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثة ، إذا مرّ به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى - البازى : من الصقور الأزرق الأحوى ، والأرقط التصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو بنفسه والاعجاب بربشيه ، وفى الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه ، فإذا بدأ طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه .

قرى سيرت بك فى « ص ٣٠٤ »

هبق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة النفران :

« وأركب الهبق - فى الظلماء - معتسفاً أو لا ، فذب رباد بات منوروا . »

قبيج : مثنى قبيج وهو الكروان وسيرت بك فى « ص ٣٠٤ »

عقق - العقق طائر كالغراب ضخيم طويل المنقار يجعله جلانا ، وهو يدجن ولونه أبيض ببياض وسواد .

شقراق - الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض ويكون بأرض الحرم .

م - بَعْدَ الدَّيْكِ - عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّأْلِ الْمَنْقَرِ

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز - كما يروى النويرى - من ألغز اليربوع ولغز ، إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمينه ويسرة ليوارى بذلك ويعمى على طالبه .
وللغز أسباه ، فمنها : المعايه ، والمعويص ، والرمز ، والحاجه ، وأبيات المعاني ، والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والسكنية ، والتعريض ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعنى ، والمثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فإنك إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعاينك - أى يظهر لإعياءك وهو التعب - سميته : «معايه» وإذا اعتبرته - من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجها - سميته : «عويصاً .»
وإذا اعتبرته - من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب - سميته : «لغزاً .» وفعلاك له : «إلغزاً .»
وإذا اعتبرته - من حيث إن واضعه لم يفصح عنه - قلت : «رمز» وقرب منه الاشارة .
وإذا اعتبرته - من حيث إن غيرك جاحك - أى استخراج مقدار عقلك - سميته : «محاكاة .»
وإذا اعتبرته - من حيث إنه استخراج كثرة معانيه - سميته : «أبيات المعاني .»
وإذا اعتبرته - من حيث إن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره - سميته : «لخناً» وسميت فعلاك : «الملاحن»
وإذا اعتبرته - من حيث إنه ستر عنك ورمس - فهو «المرموس» ، والرمس القبر .
وإذا اعتبرته - من حيث أن معناه يؤول إليك - سميته : «مؤولاً .» وسميت فعلاك : «تأويلاً .»
وإذا اعتبرته - من حيث إن صاحبه لم يصرح بفرضه - سميته «تقرضاً» ، و «كنياً .»
وإذا اعتبرته - من حيث إنه ذو وجوه - سميته : «الموجه» وسميت فعلاك : «التوجيه .»
وإذا اعتبرته - من حيث إنه مغطى عليك - سميته : «مععى .»
طرق التعمية

ومن ضروب التعمية - ما ذكره الفلقشندي - وهو أن يصطاح الانسان على إبدال حرف معين بحرف آخر معين - حيث وقع في القلم المعروف بالنمى - وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف ميماً وبالعكس ، والألف واواً وبالعكس ، والذال راءً وبالعكس ، والسين عيناً وبالعكس ، والفاء ياءً وبالعكس .
فيكتب «محمد» «كط-كر» ، و «على» «سهب» ، و «مسعود» «كمسار»
وقس على ذلك .

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو ما يبدل به ، وهو :
« كم أو حط صلاله درسع في بز خش عض شج تدفق . »
ومنهم من يعكس حروف الكلمة ، فيكتب «محمد» «دحم» ، و «على» «يلع» . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقاً في سائر الكلام ، فيكتب : «محمد أخو على» : «حدم خاعويل» .
إلى غير ذلك من التميزات .

ثُمَّ عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّاءِ لِـ فَكُلُّ قَدْ تَكَرَّرَ

ومنهم من يسدل الحروف بأعدادها في الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة شاسبة .

ومنهم من يكتب - عوض عدد الحروف - حروفا ، وهو أبلغ في التعمية ، فيكتب « محمد » « لي ، بو ، لي ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهي عدد مالميم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهي عدد مالميم ، واللام والياء أيضا بأربعين ، وهي عدد ما للميم الثانية ، والألف والجيم بأربعة وهي عدد ما للدال ، فكأنه قال : « م ح م د . »

وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :

فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للفين من « ضئغ » .

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التعمي التي لا يأخذها حصر .

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يختصها فلما له مقطعة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق في ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لا يماثل الآخر ، فكما جاءه في اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلط . ثم يفضل بين كل كلمتين ، إما يحط أو ينقط ، أو يياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يميلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا .

وقد ذكر الفلقشندی - في ذلك - فصلا طويلا في الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارئ « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التي ذكرها النويري قول الحكيم أمير الدولة - المعروف بابن التليذ - ملفزا في الميزان :

« ما واحد مختلف الأسماء يدل في الأرض وفي السماء

يحكم بالتوسط بلا رياء أعمى يرى الرشاد كل رأي

أخرس - لا من علة وداء - يعني عن التصريح بالايحاء

يجيب - إن ناداه ذوامتراء - بالرفع والحفض عن النداء

يفصح إن علق في الهواء . »

فهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعني : « ميزان » الشمس ، والاصطرلاب ، وسائر آلات

الرصد وهو معنى قوله : « يحكم في السماء » . وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : « العروض »

وميزان المناني : « المنطق » وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقول آخر في الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق في الهواء ، له عين عمياء ، وكف سلاء ، ليس له - إن عدل -

وَالْحَبَّارِيُّ وَالسَّمَانِيُّ وَالشَّمِيرَاقِيُّ الْمَحَبَّرِيُّ

ثواب ، ولا عليه - إن جار - عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تضعفه الأنفاس . جسسه طار من غير لباس ، أخرس اللسان ، في أذنه خرصان ، مكرر الذكر في القرآن ، يتطوى - إذا نام - كالصل ، وفعله المستقبل ، معتل ، وله في الآخرة أكبر محل .

وقول ابن الرومي في فتيلة السراج :

« ماحية في رأسها درة تسبح في بحر قليل المدى ؟

إن غيبت كالعمى حاضراً وإن بدت للاح طريق الهدى ! »

وقول السريّ الرفاء في شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها عمياء ، ما لم تنفوس في ماء

وإذا هي انفتحت أفادت ربها ما لا ينال بأعين البصراء . »

وقول آخر في النوم :

« وحامل يحملني وما له شخص يرى !

إذا حصلت فوقه وهو لذيذ الممتطي

سريت لا أدري أفي أرض سريت ؟ أم بما ؟ »

وقول المعري في ركابي السرج :

« خيلان نيطا في جوانب مجلس جـداراه قدام له ووراء

مق يضع الرجلين ماش عليهما يزل عنه - في وشك - حفا وحفاء . »

قوله : « خيلان » لثناهما ، والجلس : « السرج » ، وجداراه : « قربوسه » و « رادفته » والحفا متصور : « وجع الرجل » ومدود ، من مشى الرجل حافياً بغير نعل .

وقوله في الملح :

« وبيضاء - من سر الملاح - ملكنها فلما قضت لاري حبوت بها صهي

فباتوا بها مستهتين ، ولم تزل نخثهم - بعد الطعام - على الشرب . »

قوله : سرأى : « خالصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر في الحرب :

« ما ذات شوك لها جناح يختطف الناس عن قريب

وهي عقيم ، ترى بنينا من بين مرد ، وبين شيب

يأكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب

تصنيفها الداء - غير شك - قد يحسم الداء بالطبيب

والداء منكوسه مكان يصلح للظائر النجيب

يعرفها من يكون طبيا بالشعر والنحو والفرج . »

فهذا لفر معمر في الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحها : « جانبها » ، ونقيم لأنها لا تلد ،

وبنوها : « رجالها . » وأكلهم : « قتلهم . » ، وتصنيفها : « الجرب » وعكسه : « برج »

وقول آخر في التدي :

« وما أخوان مشتبهان جدا كما اشتبه الفرابة والفراب

سَمَّ سَائِلٍ بَعْدَهَا الْبَنَاتُ زِيَّ إِنْ حَلَّ فَصَرَّصَرَّ

يضـ...سهما على من اللبالي - وما اجتماعا ، ولا افترا - إهاب
لذلك ، وذا ، دموع هاملات ، ولكن كل دمهما شراب
يصوتها عن الأبصار - دين ويضرب - دون نيلهما - حجاب . «
وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »
وقول آخر في الفخ :

« وما ميت كفتته ودفنته فقام إلى حي صحيح فأوثقه . »
وقول آخر في الصدى :

« وساكن يسكن في الفلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الخيام الشمع والأبيات
ولا بنى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع في الأحيان والأوقات . »
وقد ذكر النويرى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهاها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .
فن ذلك قولهم :

« امرأتان التقتا برجلين ، قالتا لهما : «مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »

وذلك أن كل واحد منهما تزوج بأمر الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما
وتولهم :

« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »

وذلك أن كل واحد من أبيهما تزوج بأمر الآخر ، فزرقت كل واحد منهما ولدا ، فسكل من الولدين عم
الآخر وابن أخيه .

وقولهم :

« رجلان ، كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »

وذلك أن كل واحد من أبيهما تزوج بابنة الآخر ، فزرقت كل واحد منهما ولدا ، فسكل من ولديهما خال
الآخر وابن أخته .

وقولهم :

« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهي خالته ، وعم الأخرى وهي عمته . »

وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بنتين ، فبنت أخته
خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .

وهذا أصل الأبيات المنظومة في ذلك :

« ولي خالة وأنا خالها ، ولي عمة وأنا عمها . »

مَعَهُ الطَّائِسُ وَالذَّيْكَ إِذَا بِالصُّبْحِ بَشَّرُ

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، فرزق كل منهما ولدا ، فكل من ولدهما ابن خال الآخر وابن عمته .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأم أب الآخر ، فكل من أولادهما عم أب الآخر .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »

وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادها عم أم الآخر .

وقوله :

« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادها خال أم الآخر .

وقوله :

« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر خاله » وذلك أن رجلاين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة

ابنها ، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .

وقوله :

« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »

وذلك : أن رجلاه أخ لأب ، وأخت لأم ، فزوج أخاه لأبيه ، بأخته لأمه ، فأولدها ولدا ، فهما كذلك .

وقد طلب الهمداني من الحواري — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا خاليا من الحروف العواطل ،

وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم الخ « فسمى الحواري ذلك شعبة . وصدق في تسميته

كل الصدق .

وما أجدر هذا الوصف بأمثال هذه الألعيب الكلامية .

أَلغاز الحريري

ومن أَلغاز الحريري الذي اُتفق أثر الحواري في مقاماته قوله في المقامة الفرضية — وهي مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم الفتيه الذي فا ق ذكاه ، فإله من شبيهه

أفتنا في قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل تقيه :

رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقى من أمه وأبيه

وله زوجة ، لها — أيها الجسر أخ خالس بلا تمويه

فحوت فرضها ، وحاز أخوها ما تبقى بالارث دون أخيه

فأشفتنا بالجواب عما سألنا فهو نص ، لا خلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللغز بقوله :

« قل لمن يلنز المسائل : إني كاشف سرّما الذي تخفيه

إن ذا الميت الذي قدم الشرع أخا عرسه عن ابن أبيه

تَلَوُّهُ الْقُمْرِيُّ مَهْمَا رَدَّدَ السَّجْعَ قَفَرَقَرَّ

رجل زوج ابنة - عن رضاه - بحماسة له ، ولا غرو فيه
ثم مات ابنه ، وقد علقت منه ، فجاءت بابت يسر ذويه
فهو ابن ابنة - يغير مرء - وأخو عرسه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجسد ، وأولى بارته من أخيه
لذا - حين مات - أوجب للزوجة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنة - الذى هو فى الأصل أخوها - من أمها باقية
وتحلى الأخ الشفيق ، من الارث ، وقلنا : يكفيك أن تبكيه
هاك منى الفتيا التى يحتملها كل قاض يقضى ، وكل قبيح .
المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

«عندى أطيب أروبا - بلا كذب عن العيان - فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أتواما غذاؤهم بول العجوز ، وما أعنى ابنة العنب .
» بول العجوز « لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الحجر .
» ومستئين من الأعراب قوتهم أن يشتوا خرقة تفى من السغب .
» الخرقة « القطعة من الجراد .

« وفادين - حتى ما ساء صنعهم ، أو قصر وافيهم - قالوا : الذب للحطب .
» الفادر « الطابع فى القدر والقدير المطبوخ فيها .
» وكاتبين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ما خط فى السكتب .

« السكاتبون « الحزازون يقال كتب السقاء والمزادة إذا خرزهما وكتب البغلة أو الناقة إذا جمع شفرها
وخاطهما . قال الشاعر :

« لا تأمنن فزانيا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار .

« وتابعين عقابا فى مسيرهم على تكميمهم فى البيض واليب .
» العقاب « الراية وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .

« وممتدين ذوى نبل بدت لهم نبيلة فانتثوا منها إلى الحرب .
» النبيلة « الجيفة ومنه تنبل البعير إذا مات وأروح يعنى تن .

« وعصبة لم تر البيت العميق وقد حجت جنبيا بلا شك على الركب .
معنى « حجت جنبيا » أى غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الركب وجنى جمع جاث .

« وأسوة بعد ما أدجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب .
» كاظمة « فى هذا الموضع من كظم الفيظ .

« ومديبين سروا من أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب .
» فى حلب « أى أصبحوا يحبون اللبن .

« ويانما لم يلامس نط ظانية شاهدهته وله لسل من العقب .
» الذل « ههنا العدو . قال تعالى - وهم من كل حذب ينسلون - « والعقب « مؤخر القدم .

ثُمَّ نَادِ الْهَيْقَ وَالرَّاءَ لَ، لَعَلَّ السَّرَّ يَظْهَرُ

« وشائبا غير مخف المشيب بدا في البدو وهو فتى السن لم يشب .
 « الشائب » ههنا مازج اللين و « المشيب » اللين المزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .
 « ومرضعا بلبات لم يفه فه رأيته في شجار بين السبب .
 « الشجار » المحفة مالم تكن مظالة ، فان ظلت فهو الهودج ، والسبب ههنا الجبل ، ومنه قوله تعالى
 — فليمدد بسبب إلى السماء —

« وزارا ذرة حتى إذا حصدت صارت غبراء يهاوها أخوالطرب .
 « الغبراء » المسكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا السكركة ، وفي الحديث : ليا م والغبراء فانها خر العالم .
 « وراكبا وهو منلول على فرس قد غل أيضا وماينتك من خبب .
 « المنلول » ههنا العطشان ، وغل أى عطش .
 « وذا يد طلق يقتاد راحلة — مستجلا وهو مسورا أو كركب .
 « المأسور » الذى يجرد الأسر وهو احتباس البول .

« وجالسا ماشيا تهوى مطيته به ، وما فى الذى أوردت من رب .
 « الجالس » الآنى نجد الماشى الذى كثرت ماشيته ، وعليه فسر بعضهم قوله تعالى — أن امشوا كأنه
 داء لهم بكرة المشية والنماء والبركة .

« وحائكا أجزم الكفين ذا خرس فان عجبتم فكم فى الخلق من عجب .
 « الحائك » ههنا الذى إذا مشى حرك منكيه ونجح بين ركبته .
 « الحذب » وذا شطاط — كصدر الرمح قامته — صادفته بمعنى يشكر من الحذب .
 « الحذب » ما ارتفع من الأرض .

« وساعيا فى مسرات الأنام يرى إفراحهم مأثما ، كالظلم والكذب .
 « إفراحهم » إتقاهم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يترك فى الاسلام مفرح أى متقل من الدين
 أو يقضى عنه دينه » .

« ومنسرا بمناجاة الرجال له وماله فى حديث الخلق من أرب .
 « الخلق » ههنا الكذب ، ومنه قوله تعالى — إن هذا إلا خلق الأوابين .
 « وذا ذمام وقت بالعهد ذمته ولاذمام له فى مذهب العرب .

« الذمام » الثانى جمع ذمة ، وهى البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .
 « وذا قوى ما استبان قط ليفته ولينه مستدين غير متمجب .
 « اللين » نخيل الدقل ، ومنه قوله تعالى — ما قطعتم من لينة —

« وساجدا فوق خلل غير مكترث بما أنى ، بل يراه أفضل القرب .
 « الفحل » الحصير المتخذ من خال النخل .
 « وماذرا مؤلما من ظل يعذره — مع التلطف — والمعذور فى صخب .

« العاذر » الخائن « والمعذور » المحتون .
 « وبلدة ما يبا ماء لمنترف ، والماء يجرى عليها جرى منسرب .

وَتَعَيَّفُ مَا لَدَى الْقَبْرِ جَيْنٍ مِنْ خَافٍ سَيَظْهَرُ

- « البلدة » الفرجة بين الحاجين وتسمى أيضاً البلدة .
- « وقرية - دون أخوص القفط - شحنت بديلم عيشهم من خلسة السلب .
- « القرية » بيت التمل « والديلم » التمل الكثير « وخلسة السلب » لحاء الشجر .
- « وكوكباً يتوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى في أمنع الحجب .
- « الكوكب » النكتة البيضاء التي تحدث في العين « والانسان » ههنا إنسان الدين .
- « وروثة قومت مالا له خطر - ونفس صاحبها بالمال لم تطاب .
- « الروثة » مقدّم الأنت .
- « وصحفة من نضار خالص ، شريت - بعد المكاس - بقيراط من الذهب .
- « النضار » هاهنا شجر النع ، ومنه قول بعض التاميين : « لا بأس أن يشرب في قرح النضار » عنى به هذا .
- « ومستجيشاً بحش - حاش ليدفع ما أظله من أطاويه فلم يجب .
- « الحشخاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .
- « وطالما سرّ بي كلب وفي فمه ثور ، ولكنه ثور بلا ذنب .
- « الثور » القطعة من الانط (وهو نوع من الجبن)
- « وكم رأى ناظرى فيلا على جل وقد تورك فوق الرحل والقضب .
- « الفيل » الرجل الفائل الرأى .
- « وكم لقيت - برض البيد - مشتكياً وما اشتكى قط في جدّ ولا لعب .
- « المشتكى » المتخذ شكوة وهي القرية الصميرة .
- « وكنت أبصرت كرازا زاعية - بالدوّ - ينظر من تينين كالشهب .
- « الكرازا » كبش يحمل عليه الراعي أدواته .
- « وكم رأيت مقاتي عينين - ماؤهما يجرى من النرب - والعينان في حلب .
- « النرب » مجرى الدمع « والعينان » المفلتان .
- « وصادعاً بالفنا من غير أن علقت كفاه يوماً برمح لا ولم يثب .
- « الفنا » ارتفاع الأنف وتحذب وسطه « وصدع به » أى كشفه .
- « وكم نزلت بأرض - لانخيل بها - وبعد يوم رأيت البسر في القاب .
- « البسر » جمع بيرة وهو الماء الحديث المهد بالمطر « والقاب » جمع قليب .
- « وكم رأيت - بأقطار الفلا - طبقاً يطير في الجرّ منصّباً إلى صيب .
- « الطبقي » القطعة من الجراد .
- « وكم مشاخ - في الدنيا - رأيتهم مخلدين ، ومن ينجو من العطب ؟
- « المخلد » الذى أبطأ شيبه .
- « وكم بدالى وحش - يشكى سغباً - بمنطق ذلق أمضى من القضب .
- « الوحش » الرجل الجائع .
- « وكم دعانى مستنج مخادئى وما أخل - ولا أخلت - بالأدب .

ثُمَّ عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّاءِ لِهَمَّا فِي الْأَمْرِ أَكْثَرُ

« المستنجدى » الجالس على نجوة وهو المكان المرتفع .

« وكم أنحت فلوصى - تحت جنبذة - تظلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »

« الجنبذة » انقبة « والعرب » جمع عروب وهي المتحبة إلى زوجها من قوله تعالى - عرباً أتراباً -
وكم نظرت إلى من سرّ ساعته ودعاه مستهلّ الفطار كالسحب . »

« سرّ » أى قطع سرره ويسمى ما يبقى بعد القطع السرة .

« وكم رأيت قيصاً ضرّاً صاحبه حتى انثى واهى الأعضاء والعصب . »

« القميص » الدابة الكثيرة القموص وهو الوثوب والقفز .

« وكم إزار لو أن الدهر أنلقه لطفّ لبد حثيث السير مضطرب . »

« الإزار » المرأة ، ومنه قول الشاعر : * فدى لك من أخى ثقة إزارى *
ثم يقول في ختام قصيدته :

« هذا وكم من أفانين معجبة عندى ، ومن ملح تلهى ومن نخب

فان نظنتم لالحن الفول بان لكم صدق ودلكم طلعى على رطبي

وإن شدهتم ، فان العار - فيه - على من لا يميز بين التبع والغرب . »

المقامة النجرانية

وقوله - فى المقامة النجرانية - فى مروحة الخيش ، وهى ثياب خشنة من الكتان تستعمل فى العراق تكون شبه شراع السفينة ، تعلق فى سقف البيت ، ويعمل لها جبل منها - نجر به - وتبل بالماء ، وترش بماء الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، جذب جبلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب معها النوم ، وقد ألتز فيها الحريرى بقوله :

« وجارية فى سيرها - مشعله - ولكن - على إثر المسير - قفوها

لها سائق - من جنبها - يستحبها ، على أنه - فى الاحتاث - رسيها

ترى - فى أوان الفيض - تنطف بالندى ، ويبدو - إذا زلى المصيف - قفوها . »

وقوله ملنزا فى جابول النخل ، وهو الجبل الذى يصعد به النخل ، ويتخذ من الاتجاه أى ليف النخل .

« ومنسب إلى أم تنشأ أصله منها

يعانقها ، وقد كانت نفته - برهة - عنها

به يتوصل الجاني ، ولا يلحى ، ولا ينهى . »

وقوله - ملنزا فى القلم :

« ومأموم ، به عرف الامام كما باهت بصحبته الكرام

له - إذ يرتوى - طيشان صاد ، ويسكن حين يعروه الأوام

ويذرى - حين يستقى - دموطا يرقن ، كما يروق الانسام . »

وقوله ملنزا فى المرود الذى يكتحل به :

« وما ناكح أختين جبراً وخفية ، وليس عليه - فى النكاح - سبيل ؟

مق يمش هذى يمش - فى الحال - هذه ، وإن مال بهل لم تجده يميل

يزيدهما - عند المشيب - تعهدا وبراً ، وهذا - فى البعول - قليل . »

وَأَزْجُرِ الْعَمَقَ - حَقَّ الزَّجْرُ - إِنَّ الطَّيْرَ تُزْجَرُ

وقوله - ملغزاً في الدولاب :-

«وجاف، وهو موصول ووصول ليس بالجافي
غريق بارز، فأعجب له، من راسب طافي
يسح دموع مہضوم وبہضم مضم متلاف
وتخشى منه حدته ولكن قلبه صافي.»

إلى آخر هذه الألفاظ التي تراها في هذه المقامة .

المقامة اللطيفة

وانظر قوله - في مقامته اللطيفة :

«يامن - إذا - أشكل المعنى جلتسه أفكاره الطليقة

إن قال يوماً لك المحامي : «خذ تلك» مائته حقيقة.»

وهو يعني بذلك كلمة : «هاتيك» وها للتذنية وبمعنى خذ، وتيك أي تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : «حمار وحش زينا .»

يعني كلمة «فرازين» والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للذي حجاجك : «أنفق تقم»

يعني كلمة «منتقم» من : الأمر من ما يمون ، تتم مضارع وقم ، من الوقم وهو الأذلال .

وقوله : ما مثل قولك للذي أضحي يحاجي : «غظ ملكي»

ومثله : «صنوبر» صن الأمر من الصون ، والبور : المهلكي .

وقوله : ماذا يماثل قولي : «استنش ربح مدماه»

ومثله : «رحراح» رح استنشق الرائحة ، والراح : الخمر .

وقوله : «سار بالليل مدة» أي شيء مثله ؟

ومثله : «سراحين» سري سار ليلاً ، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فين ، ما مثل : «أحب فروقه»

ومثله : «مقلع» من : الأمر من وسق : أي أحب ، واللاع : الجبان .

وقوله : ما مثل قولك «أعط اب - ريقا يلوح بنير عروة»

ومثله : «أسكوب» أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والاكوب : الابريق بغير عروة .

وقوله : ما مثل قولك للمحامي جى ذى الذكاء : «الثور ملكي»

ومثله «اللائي» واللائي : ثور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : «صغير جفلة» بينه تبيانا يتم به .

ومثله «مكاشفة» والمكاشفة : الصغير .

وقوله «ماذا يماثل قولي : جوع أمد بزاد ؟»

يعني «طوامير» ، طوى : جوع ومير : من ماره الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول المحامي : «ظهر أصابته عين ؟»

يعني : «مطاعين» جمع مطعون ، ومطأ مثل ظهر ، وعين - من طانه أي أصابه بالعين .

وَلَيْلِ الرَّالِ سُمَانِي وَشِقْرَاقٍ تَأَخَّرَ

- وقوله : ما مثل قولك للذي حاجيت : صادف جائزه ؟ «
ومثله « الفاصلة » وهي الحائلة بين الشيبين ضد الواصلة وكله ألقى مثل صادف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائزة أو عطية .
- وقوله : ألا اكشف لي مامل : « تنازل ألف دينار »
ومثله : « هادية » تأتي الهادي ، والعنق أيضا ، ومعنى ها : خذ وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتيل ، وهي من الذهب ألف دينار .
- وقوله : مامل : « أهمل حلية » بين هديت - وعجل .
ومثله : « العنابية » وهي اسم لمن يذهب الرجل من الأضياف ، وغاشية السرج ما يغطى به ومعنى النى أبطال وشية : حلية «
- وقوله : مامل قولك - للذي أضحي يحاجبك : « اكفف اكفف . »
ومثله : « مهمه » وهو الصجراء ، ومعنى هه : اكفف وتكررها للتأكيد .
- وقوله : بين - فما زلت ذا بيان - مامل قولي : « الشقيق أفلت »
ومثله : « أخطار » - جمع خطر ، وهو ما يؤدي إلى الهلاك ، وإذا فصلته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وطار : أفلت .
- وقوله : ما مثل قولك المحا جي ذى الحجي : « ما اختار فضه »
ومثله « أبارقه » جمع ابريق ، وإذا فصلت كانت أنى ما اختار ، ورقة : اسم من أسماء الفضة .
- وقوله : أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاجي : « دس جماعه »
ومثله : « طاية » وهي ما يطفو على الماء ، وطأ : أسر من وطئ ، والفئة : الجماعة .
- وقوله أنت المين ، نقل لنا ما مثل قولي : « خالى اسكت . »
ومثله : « خالصة » أى خال صه ، ومعناها خالى اسكت .
- وقوله في مقامته الطيبة في حوار طويل بين قميمين .
- ما تقول فيدن توضحاً ثم لمس ظهر نعله ؟
- انتقض وضوءه بفعله .
يعنى من لمس زوجته .
- فان توضحاً ثم أنكأه البرد ؟
- يجدد الوضوء من بعد ؟
يعنى بالبرد : النوم
- أيسح المتوضئ أئنيه ؟
- قد ندب إليه ، ولم يوجب عليه .
يعنى : الأذنين .
- أيجوز الوضوء مما يقذنه الثعبان
- وهل أنظف منه للعريان

لَكَ ذِهْنٌ - بِالَّذِي فِي الشَّعْرِ مِنْ خَبْءٍ - سَيْشَعْرُهُ

- يعنى : جمع ثعب ، وهو مسيل الوادى .
 - أَيْسْتَبَاحُ مَاءِ الضَّرِيرِ ؟
 - نعم ، وَيَجْتَنِبُ مَاءَ البَصِيرِ .
 يعنى بالضَّرِيرِ : حرف الوادى ، وبالبَصِيرِ : الكلب .
 - أَيْحَلُ التَّطْوُفِ فِي الرَّبِيعِ ؟
 - يَكْرَهُ ذَلِكَ لِلْحَدِيثِ الشَّنِيعِ
 يعنى بالتَّطْوُفِ : التَّنَوُّطُ ، وبالرَّبِيعِ : النهر الصَّغِيرِ .
 - أَيْجِبُ النَّسْلَ عَلَى مَنْ أَمْنَى ؟
 - لا ، وَلَوْ تَنَى .
 يعنى : مَنْ نَزَلَ « مَنِ » ؟
 - فَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْجَنْبِ غَسْلَ فَرْوَتِهِ ؟
 - أَجَلْ ، وَغَسْلَ اِبْرَتِهِ .
 يعنى بالفَرْوَةِ جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، وبالإبْرَةِ عَظْمُ المِرْفَقِ .
 وهكذا إِلَى أَنْ اسْتَوْفَى مِائَةَ مَسْأَلَةٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ .

المقامة النحوية

وقوله في المقامة الرابعة والعشرين :

فأكلته هي - إن شئتم - حرف شبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء - إذا التقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، وأين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل ، وما منصوب أبدأ على الظرف ، لا يخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أدخل من عرى الاضافة يعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذى يصل آخره بأوله ، ويعمل مكموسه مثل عمله ، وأى عامل نائبه أرحب منه وكراً ، وأأنظم مكرراً ، وأكثر لله - تعالى - ذكراً ؟ وفى أى موطن تلبس الذكران ، براقع النسوان ؟ وتبرز ربات الحجال ، بعدائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لا يعرف إلا باستضافة كلمتين ، أو الاقتصار منه على حرفين ، وفى وضعه التزام ، وفى الثانى إلتزام ؟ وما وصف - إذا أردت بالنون - تقص صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد فسره بقوله :

« أما الككمة التى هى حرف شبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب » نهى نعم . إن .

(وأما الككمة التى هى حرف شبوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) نهى نعم إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال نهى حرف وإن ثبتت بها الابل نهى اسم والتعم تذكر وتؤنث ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفى الابل الحرف وهى الناقة الضامرة سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف ، وقيل أنها الضخمة تشبيهاً لها بحرف الجبل (وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، فلى هذا القول هو فرد وكفى عن ضمه الحصر بأنه حازم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سراويل مثل شلال وشماليل ، وسرايل وسراويل ، فهو على

فَتَامَلْ مَا أَنْبَرَى فِكْرِي لَهُ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لا ينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثة ألف وبعدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لتقله وتفرده دون غيره من الجوع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هذه الأحجية عمالا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف بالملازم (وأما الهاء التى إذا التحقت أماط النقل وأطلقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صيارفة وصياقة فىنصرف هذا الجمع عند النحاك الهاء به لأنها قد أصارتها إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية تخف بهذا السبب وصرف لهذه العلة ، وقد كنى هذه الأحجية عما لا ينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لا ينصرف بالملازم (وأما السين التى تعزل العامل من غير أن تجامل) فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب فىرتفع حينئذ الفعل وتتفل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير الخفيفة من التفتيلة ، وذلك كقوله تعالى - علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفضه سوى حرف) فهو عند إذ لا يجمره غير من خاصة وقول العامة ذهب إلى عنده لحن (وأما المضاف الذى أدخل من عرى الإضافة بعروة واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للإضافة وكل ما يأتى بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فإن العرب نصبها بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نوتها أيضا ليتبين بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجرورات التى لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على ما هو فى ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو يا ومكوسها أى وكلتاها من حروف النداء وعملها ما فى الاسم المنادى سيات وإن كانت يا أجول فى الكلام وأكثر فى الاستعمال وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى القريب فقط كالهجرة (وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرأ ، وأكثر لله تعالى ذكرا) فهو باء القسم وهذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضا على المضمر كقولك بك لأفعلن ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنها من حروف الشفة ، ثم لتقارب معانيهما لأن الواو تفتيد الجمع والباء تفتيد الالصاق ، وكلاهما متفق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المسدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلق بالأقسام ، ولهاذا ألنر بأنها أكثر لله تعالى ذكرا . ثم إن الواو أكثر موطننا من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والوار تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة بضمائر وتنظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر (وأما اللوطن الذى يلبس فيه الذكر أن براع النسوان وتبرز فيه ربات الحجال بعمام الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فإنه يكون مع الذكر بالهاء ومع المؤنث بجدونها كقوله تعالى - سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام - والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وفائمة ، وطالم وطالمة ، وقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم الذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قالبه وبرز فى بزة صاحبه (وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشته الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيها أو فى إحداها ، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الإشارة نحو ذلك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة اللبس لإقرار

وَأُعْتَقِدُ أَنِّي فِي « تُمُّ » كَمَنْ خَطَّ فَسَطَّرَ

كل منهما في رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقديمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذي لا يفهم إلا باستضافة كلتين أو بالاتصاف منه على حرفين) فهو مهما وفيها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التي هي بمعنى أكفف ومن ما ، والقول الثاني وهو الصحيح أن الأصل فيها ما فزيدت عليها ما أخرى كما تزداد ما على أن ، فصار لفظها ما ما ، فنقل عليهم توالي كلتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف ما الأري هاء فصارتا مهما ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بهما لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلتين بعدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتضت منها على حرفين وهمامه التي بمعنى أكفف فهم المعنى وكنت ملزما من خاطبته أن يكف (وأما الوصف الذي أوردف بالنون نقص صاحبه في العيون وقوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحال إلى ضيفين وهو الذي يتبع الضيف ويتنزل في النقد منزلة الزيف .

ومن الأعيب الحريري قوله في مقامة أخرى - مما يقرأ طردا وعكسا في مقامته المغربية :

« لم أخال ، كبر رجاء أجز ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من تم لك تكس » وقوله :

« أس أرملا - إذا عرا وارع إذا المرء أسا

أسند أبا ناهة أبن أخاء دنسا

أسل جناب غاشم مشاغب إن جلسا

أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا

اسكن تقو ، فمسي يسمف وقت نكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله في مقامته القهقرية :

« أتعرفون رسالة أرضها ساؤها ، وصحبها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلت في لونين ، ووصلت إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن بزغت من مشرقها ، فناهيك بروقها ، وإن طلعت من مغربها ، فيا لعجبها »

وهذه الرسالة التي تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هي :

« الإنسان صنيفة الأحسان ، ورب الجبل فعل الندب ، وشيعة الحر ذخيرة الحد ، وكسب الشكر استثمار السعادة ، وعنوان الكرم تبشير البشر ، واستعمال الإدارة يوجب المصافاة ، وعقد الحبة يقتضى النصح وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الأبواب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الخلائق شين الخلائق ، وسوء الطمع يابن الورع ، والتزام الخزامة زمام السلامة ، وتطلب المثاب شر المئاب ، وتتبع العثرات يدحض المودات ، وخلوص النية خلاصة العطفية ، وتهتمة النوال تمن السؤال ، وتكلف الكلف يسهل الخلف ، وتيقن المعونة يسنى المؤونة ، وفضل الصدر ، سعة الصدر ، وزينة الرعاة مقت السعاة ، وجزاء المدامح يث المناخ ، ومهر الوسائل ، تشفيق المسائل ، ومجلة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحد ، بكل الحد ، وتمدى الأدب ، يحيط القرب ، وتناسى الحقوق ، يثنى العقوق ، ونحاشى الرب ، يرفع الرتب ، وارتفاع الأخطار ، لا تتعام الأخطار ، وتنوء الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال ، في تصغير الآمال ، وإطالة الفكرة ، تفتيح الحكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع اللجاجة ، تلتفى الحاجة ، وعند الأوجال تنفاض الرجال ، وتتفاضل المهم تتفاوت القيم ، وبترديد السفير ، بين التدبير ، وبخل الأحوال تدين الأحوال ، وبموجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاقه الاجاد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء المحافظة ،

وَتَيَقِّنَنَّ أَنْ مَا يَنْفِكُ أَمْرٌ سَوْفَ يَقْدَرُ

وصفاء المولى ، بتعهد المولى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتجان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصر العوالب بؤن المعاطب ، واققاء الشنعة بنشر السمعة ، وقبح السمعة ، وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار .
وقوله من خطبة لا تقط فيها ولا إعجام - في مقامته السمرقندية : -

« الحمد لله المدوح الأسماء الضمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم الأواء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السباح والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصرحله ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مارد حوله ، أحده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رده معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للإسلام مبهداً الخ »
وفي مقامته المراغية - رسالة ، « حروف إحدى كتيبتها يعنها النقط وحروف الأخرى - كما يقول - لم يعجم قط » وهي :

« الكرم - ثبت الله جيش سعودك - زين ، والثؤم - غض الله جفن حسودك - يشين . والأروع يشيب ، والمعور يجيب ، والخلائل يضيف ، والمائل يخيف ، والسبح ينذى ، والمك يقذى ، والعطاء ينجي ، والمطال يشجي ، والدعاء يقي ، والمدح ينقي ، والخمر يجزى ، والاطاط يجزى ، واطراح ذى الحرمة غنى ، ومحرمه بنى الآمال بنى ، وماضن إلا ضنين ، ولا ذنب إلا ضنين ، ولا خزن إلا شقى ، ولا قبض راحة تقي ، وماقتى وعدك بنى ، وآراؤك تشقى ، وهلاك يضى ، وحلك يفضى ، وآلاؤك تنى ، وأعداؤك تنى ، وحسانك يفتي الخ . »

وله رسالة سينية كتبها - على لسان بعض الأمراء - إلى بعض أصدقائه عتاباً :
باسم السميع القدوس أستفتح ، وبأسماؤه أستنجح ، سيرة سيدنا الأسفهلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرسن نفسه ، واستنارت شمسه ، وانسق أنسه ، وبق غرسه .
إلى أن يقول :

« وسيف السلاطين مستأثر بأنس السماع وحسو الكؤوس
سلاقي ، وليس لباس السـلو يناسب حسن سمات النفيس
وسن تناسي جلاسه وأسوا السجاليا تناسي المجلس
وسر حسودى بطمس الرسوم ، وطس الرسوم كرمس النفوس
وساقى الحسام بكأس السلاف ، وأسهنى بعبوس وبوس . »

إلى آخر القصيدة .

ورسالة سينية ، وهي التي كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :
« بارشاد المنشى أنشى ، شنقى بالشيخ شمس الشعراء ، ريش معاشه ، وفشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شغف المنقى بالثشوى ، والرثنى بالرشوى ، والشادن بشرخ الشباب ، والعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتجشمه ومشفته ، وشواهد شفقه ، يشاكل شكر الناشد للنشد ، والمسترشد للمرشد ، والمستشر العبير ، والمستجيش للجيش المشمر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشجابه الكاشح والمكاشح بنشره »
وهكذا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء للمشعلين شره نشانيه مشجو الحشا ، ومشاعره
وشوه ترقيش المرتش رفته ، فأشباعه يشكونه ، ومعاشره

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رجه الله إليه أيده الله . »

يَأْيُهَا الظَّافِرُ نِلْتِ الْمُنَى وَلَا يَنْلِنَا فِيكَ مَحْدُورُ
 إِنَّ الْخِلَالَ الزُّهْرَ قَدْ صَمَّهَا تَوْبُ عَلَيْكَ الدَّهْرَ - مَزْرُورُ
 لَا زَالَ لِمَجْدِ الَّذِي شِدَّتَهُ رَبْعٌ - تَعْمِيرِكَ - مَعْمُورُ
 حَتَّى يُوفَى فِيكَ مَا يَنْتَعِي مُعْتَضِدٌ بِاللَّهِ مَنْصُورُ

* * *

وَأَفَاكَ نَظْمٌ - لِي فِي طِيَّةٍ - مَعْنَى مَعَمَى اللَّفْظِ مَسْتُورُ
 مَرَامُهُ يَصْعَبُ ، مَا لَمْ يَبْخُ - بِالسَّرِّ - قُمْرِيٌّ (١) وَعُصْفُورُ
 وَبَلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكْرَهُ اللَّذَا تَقَدَّمَا ، فَالْفَظُّ مَكْرُورُ
 ثُمَّ تَرَى الْبَلْبُلَ قَدْ حَمَّه نَسْرُ ، بِهِ الشَّقْنَيْنِ (٢) مَنْسُورُ
 ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْرِيٌّ وَدَرَّاجٌ وَزَرْزُورُ

وشاق الشباب الشم والشب وشيه ، فنشوره بشرى المشوق، وناقره
 شمائله معشوة - كشموله - وشريه مستبشر، ومعاشره .

إلى آخر القصيدة .

(١) القمري : طائر حسن الصوت - ويجمع على قمارى - ويقال للذكر منه : الورشان .
 قال ابن سيده : « القمري طير صنير » وعده - في الحكم - من الحمام .
 وقد زعمو أن القمارى - إذا ماتت ذكورها - لم تزوج لأنثاها .

والورشان - الذى هو ذكر القمري - يوصف بالحنون على أولاده ، حتى أنه ربما قتل نفسه إذا رآها في
 يد القانص ، وقد مر بك في « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :

« إن تنفى البلبل اهتا ج غناء الورشان »

(٢) الشقنين - كما في حياة الحيوان وابن البيطار - نوع من الحمام ، قالوا : « وهو الذى تسيه العامة
 باليمام » وجمه شقناين .

ثُمَّ يَلِي الدَّرَاجُ (١) - مِنْ بَعْدِ غِرِّ نَيْقٍ (٢) - وَمُكَّاءَ (٣) وَشُرْشُورٍ (٤)
 وَبَاشِقٍ ، ثُمَّ إِذَا حَلَقَ الشَّاهِينَ - وَالْعُصْفُورُ مَذْعُورٌ -
 ثُمَّ سَلَّ الْمُكَّاءَ يَصْدُقُكَ ، وَالْعُصْفُورُ ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورٌ
 وَإِنْ جَرَى الدَّرَاجُ - فِي إِثْرِهِ الزَّرْزُورُ - فَالْمَطْوِيُّ مَنشُورٌ
 وَثُمَّ فَأَعْلَمُ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ ، لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورٌ
 وَفِي الذِّى عَمَسْتُ نُصْحٌ ، لِمَنْ جَدَّ - مِنَ الْأَعْدَاءِ - مَشْكَورٌ (٥)

- (١) الدراج - بضم الدال - طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنها أسود - في حجم الفظا إلا أنه أظف .
 والجاحظ يعبه من جنس الحمام ، لأنه يجتمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .
 قالوا : وهو كثير التناج يبشر ، بقدم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وضاء الهواء ، ويسوؤه حاله
 بهبوب الجنوب ، حتى لا يقدر على الطيران .
- (٢) الفرنيق أو الفرنوق : طائر مائي ، وقيل هو الكركي أو طائر يشبهه .
 قالوا :
 وهو دون الحمام - في القدر - ولونه الحمره مع كورة ، وفي صوته ترجيع وتحزين .
 ومن شأنها أنها تحسن أصواتها - إذا اختلطت - ومن طبعه أنه إذا فقد أتناه لم يزل - فيها يزعمون -
 أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأتبي إذا فقدت ذكرها .
 قالوا :
 وهو شديد الاحتراس ، وفيه ألفة للبيوت .
- (٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرتش » وجمعه شرشير .
 (٥) والبيت المطير في هذه القصيدة هو :
- « أنت - إن تمز - ظافر فليطع من ينافر . »
- ولنضع في الجدول التالي أمام كل حرف طائرة على الترتيب الذي ذكره في القصيدة هكذا :-

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفتين	ل	غرنيق	ى	مكا
ت	بلبل	ظ	غراب	ى	مكاه	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جواب^(١)

« جابو به ذو الوزارتين رحمة الله . »

حَظِّي - مِنْ نِعْمَاكَ - مَوْفُورٌ وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَعْفُورٌ
وَجَانِبِي - إِنْ زَمَنِي رَامَهُ - حَجْرٌ^(٢) لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورٌ

* *
* *

يَا ابْنَ الَّذِي سَرَبُ الْهُدَى آمِنٌ مِنْذُ أُبْرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورٌ

وليعلم الفارئ أن الشاهين في قوله : « ثم إذا خلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هجاء كغيره من طيور القصيد ، وقد أشار إليه بقوله :

« وتم فاعلم أن موضوعها حرف لفصل اللفظ مقدور . »
وقد فسكه المعتمد ، وجابو به بالقصيدة التالية :

« يا خير من يلحظه ناظري ، شهادة ما شابها زور
ومن إذا ما ليل خطب دجا لاح به - من رأيه - نور
رأيك - إما شتمه - صارم غضب على الأعداء مشهور
جاءتني الطير التي سرّما نظم به قلبي مسرور
شعر هو السحر فلا تنكروا أني به - ماعشت - مسحور
اللفظ والفرطاس - إن شها - قبل هما مسك وكافور
وإنه لما اعتدى خاطري مسائلًا جابوب عصفور
هوى لجيش الطير من فكرتي صقر فولي وهو مقهور
فلاح لي بيت فؤادي له دأبا على ودك مقصور
حظك من شكري يا سيدي بما بدا لي منك موفور
تصرت في نظمي فاعذر فن ضاماك في التقصير معذور
فأنت إن تنظم وتثر نقد أعوز منظوم ومنثور
لا يمدكم روض من الحظ في ال إكرام والترفيح ممطور . »

(١) بعث ابن زيدون بهذه القصيدة للمعتمد ردا على قصيدته التي ذكرناها في هذه الصفحة .

(٢) الحجر السكنف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أي حرام و « نشأت في حجر فلان »

أي في كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجَبْتَ أَمْرِي بِالَّذِي لَمْ يَزَلْ يُصْنَعِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
الْبِسَ مِنْكَ الْمَلِكُ أَسْنَى الْحَلِي بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُورُ

* * *

يَا مُرُويَ الْمَأْمُورِ ، يَا بِنَ لَهُ مَجْدُهُ - مَعَ الْأَيَّامِ - مَأْمُورُ
عَبْدُكَ - إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ - فَهُوَ بِمَا تَوَلَّيْتَهُ مَشْكُورُ
إِنْ تَعَفُّ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِمًا فَالَسَّرُوا^(١) أَنْ يُقْبَلَ مَيْسُورُ
إِنْ حَلَّالَ السَّجْرِ - إِنْ صُعِقَتْهُ - فِي صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظْمٌ زَهَّانٍ مِنْهُ إِذْ جَاءَ نِي عِلْقُ عَظِيمِ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هُوَ إِلَيْهِ طَرَبًا خَاطِرِي كَمَا تَلَقَى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرَوْا أَنْ أَفْتَنَ إِذْ لَاحَظْتَ فِكْرِي مِنْهُ أُعْيِنْ حُورُ
تَشَفَّ عَنْ مَعْنَاهُ الْفَاطَةُ كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُورُ
جَهَلْتُ - إِذْ عَارَضْتُهُ - غَيْرَ أَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُثَ مَصْدُورُ

* * *

يَا آلَ «عَبَادٍ» مُوَالَاتِكُمْ ، زَاكٍ - مِنَ الْأَعْمَالِ - مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُوَادَاتِكُمْ - مِنَ الْمُنَاوِينَ - لَمَغْرُورُ
مَكَانُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ مَنَزِلَةِ الْمَرْفُوعِ - مَجْرُورُ
يَدْتُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمْ إِنَّ الْعُلَى مِنْ أُنْسِهِ نُورُ
لَا زِلْمٌ تَشَاوَنَهُمْ مَا انْجَلَى - عَنْ فَلَاقِ الْإِصْبَاحِ - دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِي - بِإِيرَاتِكُمْ أَعْمَارُهُمْ - لِلَّهِ مَقْدُورُ

إلى المعتمد

« وكتب أيضا رجه الله إليه أيده الله . »

يَا مُرْضِيَا كُلَّ مَخْدَمٍ وَرُؤِيَا كُلَّ لَهْدَمٍ
 وَيَا سَمِيَّ الْمَصَلَّى عَلَى أَسْمِهِ وَالْمُسَلَّمِ
 وَيَا ابْنَ أَعْظَمِ مَنْ هَا بِهِ الْمُلُوكُ وَأَكْرَمِ
 وَأَفَاكٍ - لِطَيْرٍ - سِرْبِ لَدَيْهِ سِرٌّ مُكْتَمِ
 إِنْ تَسْأَلَ الطَّيْرَ عَنْهَا مُسْتَعْلِمًا مِنْهُ تَعَلَّمِ
 وَالنَّسْرُ وَالرَّهْوُ ^(١) يُنْبِئُكَ وَالظَّلِيمُ ^(٢) الْمُصَلَّمِ

(١) الرهو : الكركي ، وهو - كما جاء في صبح الأعشى - طائر أغبر طويل الساتين في قدر الأوزة ، ويجمع على كراكي ، وفي طبعه خور يحمله على التنحارس ، حتى إنه إذا - اجتمع جماعة من الكراكي - يحرسها بالنوبة بيثها ، ومن شأن الذي يحرس منها ، أن يهتف بصوت خفي ، كأنه ينذر بأنه حارس . فإذا قضى نوبته قام واحد ممن كان نائما يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدهما واحد منها - كالرئيس لها - وهي تتبعه ، يكون ذلك حينما ، ثم يخلفه آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما ، وخرها ، وفي طبعها التناصر والتعاوض ، ومن خاصتها أن أثنائها لا تقعد للسفاد بل يسفدها - وهي قائمة - ويكون سفاده سريعا كالعصفور .

وقال الفزوي - في عجائب المخلوقات :

والكركي لا يمشي على الأرض إلا باحدى رجليه ، ويعلق الأخرى ، أو يضعها وضعا خفيفا مخافة أن تحسف به الأرض .

قال - في « المصايد والمطارد » :

وهو من أبعد الطير صوتا يسمع على أميال .

قالوا : وكانت الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك ، وفي طلبها وصيدها كانت تتنالى ملوك مصر ، تنالها لا يدرك حده ، وتتفق في ذلك الأموال الجملة .

(٢) الظليم - ذكر النعام - وقد جاء في صبح الأعشى - في مفروض الكلام عن النعام - قوله :

« هو طائر معروف ، مركب من صورتى جبل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دوانش » . بمعنى « طير

جبل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومعناه « جبل طائر » وبسبب ذكر النعام : الظليم . قالوا :

ومساكنها الرمل ، وتضع بيضا سطرأ مستطيلا ، بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن

الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضن ، لأنها لا تستطيع ضم جميع البيض تحتها .

هُمُّ الْهَدِيدِ^(١) تَلِيهِ حَمَامَةٌ تَتَرَبَّمُ
 إِلَى عِقَابَيْنِ تَدْعُوهُمَا الظَّلِيمَ فَيَقْتَهُمُ
 هُمُّ الْعُقَابِ^(٢) مَعَ الصَّقْرِ، فَهُوَ بِالشَّرْحِ أَنْعَمُ
 وَالرَّألِ^(٣) وَالرَّهْوُ وَالْقَبْجُ^(٤) فَالثَّلَاثَةُ حَوْمٌ
 هُمُّ الْعُقَابِ فَسَلُهُ وَالصَّقْرُ لَا يَتَلَعَّمُ

- وإذا خرجت للطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه .
 ولذلك توصف - في الطير - بالحمق .
- ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا ، فنه ماتحضنه ، ومنه مايجعله غداء لها ، ومنه مايفتحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى به أفراسها إذا خرجت . قالوا :
- « وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : إنه يشم رائحة القاص من بعد . وفي أساطير العرب :
- أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنها .
 ومن خصائصها أنها تتلعق العظم الصلب والحجر فتذيبه معدتها .
- (١) الهديل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء في دالته المشهورة :
- « يا بنات الهديل : أسعدن أوعدن قليل البكاء بالأسعاد . »
- (٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالكاس ، قيل العقاب سيد الطيور والنسر عريفها « وتقول العرب : « أبهر من عقاب » قال ابن دريد في مقصورته الرائجة :
- « فاستنزل الرياء - قسرا - وهي من عقاب لوح الجو أعلى منتمى . »
- وقد جاء في صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعقب .
 وجاء في « المصايد والمطارذ » قوله :
- « وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير - أعظم منها وأصل لونها السواد . »
- فنها سوداء دجوجية ، وخدارية - وهي التي لايباض فيها - ومنها البقاء - وهي التي يخالط سوادها بياض - ، ومنها الشقراء وهي التي في رأسها ققط بياض - قال « أبو عبيدة » و « يونس » :
- « ويقال لذكر العقاب « القرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لانسأوى شيئا ، تلعب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيرانا . (ارجع إلى صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣)
- (٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :
- « قد كنت قلت - في كلام لي قديم - لاني قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »
- (٤) القبج : والكروان ، معرب « كبيج » بالفارسية وهو طائر في قدر الدجاجة طويل الرجلين حسن الصوت لاينام الليل .

إِلَى حُبَارَى ^(١) وَبَارِ وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَم ^(٢)
ثُمَّ السَّمَام ^(٣) مَعَ الرَّاءِ لِي كَيْ يَبُوحَ الْمُجْمَعِم ^(٤)
إِلَى عِقَابٍ وَرَهْوٍ يُفْصِحُ بِمَا شِئْتَ أَسْحَمَ
وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ فَلَوْ زَجَرْتَ أَتْرَجَمَ
ثُمَّ العُقَابُ سَيُوحِي لِلصَّقْرِ لَا تَتَكَلَّمُ
وَعَقَمْتُ وَهَدَيْتُ وَالْقَبِيحُ فِي ذَلِكَ مُلْتَمِ
وَتُحْمٌ فَضْلٌ كَمَا قَدْ عَهَدْتَ فِيهَا تَقْدَمُ
يَا مُلْدِسَ الدَّهْرِ وَشَيْئًا مِنَ الْجَمَالِ مُنْتَمِ
إِسْلَمَ سَنِيَّ الْأَمَانِي مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَم ^(٥)

(١) الحبارى : طائر - يقع على الذكر والأنثى - قالوا : « ويضرب به المثل - في البلاهة والحمق يقال :

« هو أبله من الحبارى » قبل ذلك لأنها إذا غيرت عشمها ذهلتها وحضنت بيض غيرها .

(٢) الأعصم : الظبي . قال ابن دريد :

« لو ناحت الأعصم لانحط لها - طوع القباد في شماريح الذرى .
وجمه عصم ، قال الشاعر :

« وادبني حتى - إذا ما فتنتني بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناءيت عنى حين - لالى حيلة - وغادرت ما غادرت بين الجوانح .»

(٣) السمام : ضرب من الطير ، واحده سمامة .

(٤) المجمعم : الذى لا يفهم ، قال المعرى :

« ججم هذا الزمان قولاً وكنا يرتجى بيانه .»

(٥) البيت المطير - فى هذا الشعر - هو :

« أهلك عدوك ، واسلم ، واطفر بدوئك - وانعم :»

وقد فكه المعتمد .

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أيده الله

يا سيدي يا معدن العلم

يا آله للحرب والسلام

وجه طيور الشعر نحوى فقد

بث فؤادي شرك الفهم

فبعث اليه بيت مطير وجاوبه رجه الله . »

يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ لَحْمِ	أَحَقِّي بِرُكِّ بِالنَّجْمِ
بِالْعِلْمِ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقْمِ	يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِي زَانَهُ
شَاقَهْتُ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّحْمِ	قَدْ لَثِمْتُ كَفِّي الدَّرَارِيَّ مَذُ
يَمِضِي مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَتْمِ	قُلْدًا مِنْكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا
وَحَدَّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزْمِ	فِرِيدُهُ الرَّقْرَاقُ مِنْ بَشْرِهِ

* * *

مُؤَافَّ اللَّوْثُ فِي النَّظْمِ	قَدْ جَاءَ نِي النَّظْمِ الَّذِي خِلْتُهُ
فِي غُفْلِ حَالِي رَائِقَ الْوَسْمِ	حَلَيْتَنِي مِنْهُ بِفَخْرِ يُرَى
يَصِيدَهَا فِي شَرِكِ الْفَهْمِ	مُسْتَدْعِيَا طَيْرَ الْمُعَمَّى لِكَيْ
يَسْتَخْرِجَ الْإِفْصَاحَ مِنْ عَجْمِ ^(١)	فَهَا كَمَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرِ

(١) البيت للمطير في هذه القصيدة هو :

« أنت - إن تنز ظافر نلبطع من ينافر . »

والبيت المطير

إظفر كما أنت ظافرٌ بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرٍ

وطير له أيدٍ الله يبتين وهما

«شعر من محض وده»

لك في علم طيره

فهى مهما زجرتها

لم تخبر بغيره . «

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا الْمَاجِدُ الَّذِي خَيْرُهُ وَفَقُّ خَيْرِهِ

وَالَّذِي سَيْرٌ مُشْتَرِيٌّ أَفْقًا دُونَ سَيْرِهِ

مَلِكٌ صَحَّ - مِنْ أَدِيمِ الْهُدَى - قَدْ سَيْرِهِ

فَهَوَ - الدَّهْرُ - نَفْعُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

* * *

يَا لِلَّيْلِ سَمِّتُ مِنْ سَهَرِي فِي قَيْرِهِ ؟

عَزَّ - فِي وَهْنِهِ - مَرَا مُمْ عَتَا فِي سُحَيْرِهِ

«شِعْرٌ مِنْ مَحْضٍ وَدَّهِ لَكَ فِي عِلْمِ صَيْرِهِ

فَهِيَ - مَهْمَا زَجَرْتَهَا - لَمْ تُخْبِرْ بِغَيْرِهِ

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن
المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله
تأييده ، في حياة أبيه - وكان قد عمي له بيتا :
« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »
ففكّه - أيده الله - وجاوبه بأربعة أبيات ، وهي :

ياسيدي ، الأعلى ومن
أعدده أ أقوى العدد
حلت طيورك بي ، وقد
قرّبت منها ما بعد
كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلىّ بها الصرد
بيتا يدلّ على اعتقا
دك يا جيل المعتد
الحاجب الأعلى العضد
قرة عين المعتضد
جفاوبه ذو الوزارتين بقصيدة ، وهي :

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدُ لَمْ يَجْزِ - عَنْ وَصَلِي - بِصَدُّ
سَيِّئِ عَهْدٍ - أَرْخَصَتْ عَيْنَاهُ فِي قَتْلِي الْعَمَدُ
مَالِكُ سُلْطَانِ الْهُوَي أَمْنَهُ مِنْ الْقَوْدِ (١)
مُخَلَّدُ خَلَدَ - بَرَّ حَ الشَّوْقِ - فِي كُلِّ خَلَدُ
وَعَرُّ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ نَهَجُ - إِلَى قَلْبٍ - جَدَدُ

قَاسٍ إِذَا مَا قِيلَ : « أَبْلَى حُلَّةَ الْهَجْرِ » أَجَدُّ
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِيمُ الْوَصْلِ لِي مِنْهُ » رَكَدُ
مَا كُنْتُ آبِي صَدَّهُ لَوْ أَنَّ سُلوَانِي صَدَّ

* * *

فِتْنَةٌ وَجِدٌ ، هِيَ كَالْفِتْنَةِ فِي الْعَجَلِ الْجَسَدُ
غَيْرُ مُبِينٍ ، طَرْفُهُ يَعْصِفُ بِالْخَصْمِ الْأَلَدُ
عَصَفَ « أَبِي الْقَاسِمِ » بِالْقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدُ
الْحَاجِبُ الْأَعْلَى الَّذِي لَوْ مَا جَدَّ الشَّمْسَ مَجَدَّ
مَحْضُ الثَّقِي ، عَفَّ الْهَوَى غَمْرُ النَّدَى ، صَدَقُ الْجَلْدُ
رَكِينُ طَوْدِ الْحِلْمِ إِنْ حُبَاهُ فِي النَّادِي عَقَدُ
مَوْفِقُ الْأَنْحَاءِ قَا دَ فِي أَسَالِبِ الرَّشْدِ
لَوْ قَصَّ كُنْهَ جُودِهِ لِلْبَحْرِ وَاقِي ، فَاسْتَمَدَّ
مُؤَمَّلٌ - مَعَ الرِّضَا - يُهَابُ فِي حِينِ الْبُعْدِ
إِنْ قَلَّدَ الْأَمْرَ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الثَّغْرَ سَدُ
مَا هُ سَمَاحٍ فَاضَ فِي جَمْرٍ ذَكَاءُ فَاتَّقَدُ
يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلَى بِيَارِيهِ أَعْتَضَدَا (١)
وَمَنْ - بِفَضْلِ اللَّهِ - حَا زَ النَّصْرَ فِي جِدِّ وَجَدَّ

(١) وفي الأصل :

يا عضد الدولة يا من يباريه اعتضد . «

أَصْبَحَ أَعْلَىٰ وَالِدٍ فَأَوْقَهُ أَسْنَىٰ وَلَدٍ
حَدَّثَنَا عَنْ سَرْوِهِ (١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبٍ سَمَدٍ

* * *

مَلِكٌ - إِذَا نَحْنُ اعْتَمَدْنَا مِنْهُ أَوْفَىٰ مُعْتَمَدًا -
تَهَلَّلْتُ شَمْسُ جَبِينٍ وَأُسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدِ
مُمَحَّصُ الدَّهْرِ الَّذِي أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدَ
وَعَاصِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدُ
وَنَاصِرُ الْعِلْمِ الَّذِي تَفَقَّهُهُ لَمَّا كَسَدَ
مَنْ لَمْ يَعِدْ إِلَّا وَفَىٰ، وَلَا وَفَىٰ إِلَّا وَعَدَ
شَاوَرِنِي - فِي أَمْرِهِ - شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدَّ
يُخْشَى الْعَدُوَّ مِنْهُ عَزَمَ قَسْوَرٍ شَاكِي اللَّبَدِ
سَمَّحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَّا - فَظٌّ عَلَيْهِ إِنْ عِنْدَ
كَالسَّيْفِ - فِي حَالِيهِ - إِنْ رَاقَ فَرِيْدٌ رَاعٍ حَدُّ
يَا مُهْدِي السَّمْطِ الَّذِي قُلَّدْتُهُ فَنَحَرَ الْأَبَدِ
أَحْسَنُ مِنْ رَفْمٍ عِذَا رِي سَائِلٍ فِي وَشِي خَدُّ
أَوْ مَبْسِمٍ حُلُوِّ اللَّمَّا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبٍ بَرْدِ

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ - لَمَّا هَزَّنِي مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقِدُ -
 « نَسِيمُ أَيْلُولِ سَرَى أَمْ وَرْدُ نَيْسَانَ وَرَدُ »
 خَاطِرِي السَّهْمُ وَشَى بِسِرِّ طَيْرِي لَا الصَّرْدُ
 وَفِطْنَةُ تَأَلَّفَتْ - مِنَ الْمُعَمَّى - مَا شَرْدُ
 شَنِشِنَةُ أَعْرِفَهَا فِي شِبْلِ مَلِكٍ مِنْ أَسَدُ

يَا آلَ « عَبَادِ » مِثَا لُ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدُّ
 مَنْ لِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبِدُ
 سُوِّعْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْقَعَسَاءَ فِي الْعَيْشِ الرَّغْدُ
 حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنَهْلُ صَفَا إِلَى ظِلِّ بَرْدُ
 كَأَنَّهَا لِي جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدُ
 يَحْمِلُهَا مِنِّي وَآ فِي الشُّكْرِ صَافِي الْمُعْتَقَدُ
 كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلْتَهُ فَقَعَدُ
 قَصَرَ ، لَكِنْ لَمْ يَقْصُرْ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدُ
 وَقِيْتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيكُمْ بِالْعَمَى لَا بِالرَّمْدُ

صرعى الحب (١)

أَخَذْتُ ثُلُثَ الْهَوَى غَضَبًا ، وَلِي ثُلُثُ ، وَالْمُحِبِّينَ - فِيمَا يَنْتَهُمُ - ثُلُثُ
 تَاللهُ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَاقُ : أَنَّهُمْ مُؤْتَى مِنَ الْوَجْدِ - يَوْمَ الْبَيْنِ - مَا حَسَبُوا

(١) من شعر ابن زيدون الذي قاله في مدة صباه ، وقد أورده المراكشي صاحب كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد في ديوان ابن زيدون .

قَوْمٌ - إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا - مَا تَأُوا ، فَإِنَّ عَادَ مِنْ يَهُوُونَتهُ بُعِثُوا
تَرَى الْمُجِبِّينَ صَرَغِي - فِي عِرَاصِهِمْ - كَفْتِيَةَ الْكَهْفِ ، مَا يَذْرُونَ مَا لَبِثُوا

ذكرى قرطبة

« وما قاله ينشوق ابنة المهدي ومعاينه بقرطبة ، وضمنها

بيت أبي الطيب - في أول قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،

ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أولها (١) :

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيبًا عَادَهُ شَجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفَأَ أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِي لَوَاعِجَهُ - وَالشُّوقُ يَفْضَحُهُ - فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْهِ - السَّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيُّبُقُ - فِي جَوَانِحِهِ - فُوَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَأَرَقَ الْعَيْنَ - وَالظَّلْمَاءَ مَا كِفَّةٌ - وَرَقَاهُ قَدْ شَفَّهَا - إِذْ شَفَّيْنِي - حَزَنُ
فَبِتْ أَشْكُو وَتَشْكُو - فَوْقَ أَيِّ كِتْمَا - وَبَاتَ يَهْفُو أُرْتِيَا حَا يَنْنَا الْغُصْنَ

* * *

يَا هَلْ أَجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمْ - كُنَّا وَكَأَنَّا - عَلَى عَهْدٍ - فَقَدْ ظَعَنُوا
أَوْ تَحْفَظُونَ عَهودًا لَا أُضِيعُهَا - إِنَّ الْكِرَامَ - بِحِفْظِ الْعَهْدِ - تَمْتَحَنُ
وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عِيدٌ ، قَرُبٌ فَتَى - بِالشُّوقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِي - مِنْ أَحْبَبْتِهِ - فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :
« بِمِ التَّعَلُّلُ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ ؟ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنٌ ؟ »

(١) ذكرها كتاب العجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم ترد في ديوان ابن زيدون .

ما امر بأحد يستأجرهم فهو مأذونون
تفنه غيرهم برضا ورضا
كل قبيح ولا حبه
كل ما رغبتم من رغبته
ما رغبتم من رغبته
ما رغبتم من رغبته
ما رغبتم من رغبته

رَسَائِلُ ابْنِ زَيْدٍ وَابْنِ إِخْبَارِهِ

وَشِعْرُ الْمَلِكَيْنِ

وَإِخْبَارُهُمَا

الرسالة الهزلية (١)

أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ
 غَلَطُهُ ، الْعَاثِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ - سُقُوطُ
 الذُّبَابِ - عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَابِتُ - تَهَابَتْ الْفَرَاشِ (٢) - فِي الشَّهَابِ ، فَإِنَّ الْعُجْبَ
 أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوَّبُ ، وَإِنَّكَ رَأَسْتَنِي مُسْتَهْدِيًا - مِنْ صِلَتِي -
 مَا صَفَرْتُمْ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكِ ، مَتَّصِدِيًا - مِنْ خُلَّتِي - لِمَا قَرِعْتَ دُونَهُ أَنْوْفُ (٣)
 أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلًا خَلِيلَتِكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتِكَ قَوَادَةً ، كَاذِبًا نَفْسِكَ
 أَنْكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَيَّ ، وَتَخْلُفُ - بَعْدَهَا - عَلَيَّ :

« وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعْتَهُ لِمَا آيَسَ بِالنَّائِلِ (٤) »

* * *

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَتَضَنَّ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَعْرِ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا
 أَعْدَرَتْ فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةٌ أَنَّ الْمَرْوَةَ لَفْظُ
 أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ أُنْمُ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولَاهُ (٥) ، قَاطِعَةٌ أَنْكَ أَنْفَرَدْتَ

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفراش مشهور بأنه يطرح نفسه في النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أتم إلا الفرا شراً رأى الشهاب وقد توقد

فدنا ، فأجرق نفسه ولو اهتدى يرشد الأبعد. »

(٣) قرع الأنف أى المجز والذلة ، والعرب تقول لكف : « هو الفعل لا يقرع أنفه » وقد قال

ابن زيدون في إحدى قصائده في « ص ٦٧ » : « وأنف الفعل لا يقرع . »

(٤) البيت للمتنبي ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للماقل

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل . »

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارىء في ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ ، وَاسْتَأْثَرَتْ بِالْكَمَالِ ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِي مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَاسْتَوَيْتَ
 عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاسَنَكَ فَغَضَبْتَ
 مِنْهُ ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ ^(١) رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ ^(٢) أَصَابَ بَعْضَ
 مَا كُنْتَ ، وَالنُّظْفَ ^(٣) عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ ، وَكِسْرَى ^(٤) حَمَلَ غَاشِيَتَكَ ،
 وَقَيْصَرَ ^(٥) رَعَى مَاشِيَتَكَ ، وَالْإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارًا ^(٦) فِي طَاعَتِكَ ، وَأُرْدَشِيرَ ^(٧) جَاهَدَ
 مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِحُرْمِ وَجْهِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ ، وَالضَّحَّاكَ ^(٨) اسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ ، وَجَدِيمةَ

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق وتقصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل في الثراء والني ، وقد جاء في الكتاب الكريم : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . »

(٣) قالوا : إنما عني النطف بن جبير بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقما بالبادية مع بني تميم ، وقد نهب أموالا كان أرسلها كسرى إلى عامله وذهباً ومسكاً ولآلى ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

«أبي النطف المباري الشمس، إنى عريق في السباحة والمعالى .»

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعني الاسكندر الأكبر المقدوني وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذي انتصر عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحاك يزعمون أنه قتل « جشيد » - سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأرل من عمل السلاح واستخرج الابرسم ، والفز ، وأزم أهل الفساد الأعمال الشاقة في قطع الصخور ، واستخراج المادن . قالوا : وطال عمر « جشيد » وتجبر ، وادعي الربوية ، فخرج عليه الضحاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جشيد » فظفر به الضحاك ، فهرب « جشيد » بين يديه فظفر به الضحاك وأمر بنشره بئشار ، وقال له : « إن كنت لها فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحاك - فيما يزعمون - وطني وتجبر وبجر ودان بدين البراهمة ، وكان - فيما يقولون - أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدرهم ، ولبس الناج ، ووضع العشور ، إلى آخر ما زعموه له .

الأبرش^(١) تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ^(٢) ، وَبَلْقَيْسَ^(٣) غَايَرَتِ الزَّبَاءَ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُورَةَ^(٤) إِنَّمَا أَرَدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرَ^(٥) إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكَلَيْبَ^(٦) بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسًا إِنَّمَا قَتَلَهُ

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبقت الإشارة إليه في «ص ٢٠٢» فليرجع إليها من شاء .

(٢) شيرين : هي زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هي ابنته ، وقد أشار المعري إلى شيرين بإشارة ظريفة في رسالة الغفران فقال :

ولو قالت شيرين للملك لكسرى : « جعلني الله فداءك » خالبتني في ذلك - ونافقتني ، وإن رافقتني وواقفتني ، على أنه أخذها من حال دنوية ، فجعلها في النعمة السنية ، وعتهب - في ذلك - الأحباء ، وجرت لهم - في ذلك - قصص وأنباء ، وقيل له - فيما ذكر - :

« كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »

فضرب لهم المثل بالفرح ، جعل في الاناء الشعر والدم ، وقال للحاضر :

« تجيب نفسك لشرب مانيه ؟ » فقال : « لأنها لا تطيب وهي بالأنجاس قطيب . »

فأراق ذلك الشيء ، وغسله وهذب وطأه ، وجعل فيه - من بعد - مداما . وعرضه على الندامى ، فسكهم بهش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .

(٣) بلقيس هي ملك بلاد سبأ ، والزباء هي التي قتلها عمرو بن عدس وقتل أباهما جذيمة بن الأبرش ، وقد مر ذكره .

(٤) مالك بن نورة : من مشهورى فرسان العرب وشجعانهم في الجاهلية ، وقد أدرك الإسلام . قالوا وارثه وبعث أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، فكان إذا صبح قوماً تسمع الأذان فإن سمعهم كف عنهم ، وإن لم يسمعهم قاتلهم إلى أن مرّ بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقيل إنهم لم يستمعوا أذاناً قاتلهم ، وأتى بمالك بن نورة أسيراً فأمر خالد بقتله . قالوا : واحتج قوم لخالد في قتله ، وطعن عليه آخرون في كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه متمم رثاءه الرائع ، وقد سمعه عمر فقال له رددت لو رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك ، فقال له متمم : والله لو علمت أن أخي صار إلى ماصار لايه أخوك لم أرته ولم أحزن عليه ، ومن أبيات متمم التي سارت في رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكي كل قبر رأيت قبر ثوى بين اللوى ، فالدكادك

قتلتهم : « إن الأسي يبعث الأسي دعوني فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر - كان ينتسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان هو السبب في حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة - هو رئيس الحيين من بكر وتغلب ، وقد بلغ من جبروته وبنفته أنه كان يحصى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويقول وحش كذا وكذا في جوارى فلا تهاج ولا يورد أحد مع أهله ولا توقد نار مع ناره ، ولا يحجتي في مجلسه ، ولا يتكلم إلا باذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل في رثائه :

« نبئت أن النار - بعدك - أوقدت - واستب - بعدك - يا كليب المجلس

بِأَنْفَتِكَ، وَمُهْلَهْلَا^(١) إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهَيْمَتِكَ ، وَالسَّمْوَلُ^(٢) إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ،
وَالْأَخْنَفُ^(٣) إِنَّمَا أَحْتَبِي فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا^(٤) إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ، وَاقِيَ الْأَضْيَافَ

وتكلموا في - أمر كل عظيمة - لو كنت حاضر أمرهم لم ينسوا .

وقد قتله جساس بن مرة زوج أخت كليب ، وكان ذلك سبباً في حرب البسوس .

(١) مهلهل بن ربيعة - هو أخو كليب والآخر بثأره في حرب طويلة تغنيننا شهرتها عن ذكرها .
(٢) السمول - هو السمول بن عديا ، وهو من يهودى يثرب ، ويضرب به المثل - في الوفاء - بعد حادثته المشهورة مع امرئ القيس الذي أودع عنده وديعة ومضى ، وحاول الحارث بن ظالم أن يأخذها من السمول فأبى ، ثم ظفر الحارث بابنسه ، فقال للسمول : إن لم تعطني وديعة امرئ القيس قتلت ابنتك فأبى .
قتل الحارث ابن السمول وانصرف ، والسمول هو صاحب اللامية المشهورة التي يقول في أهلها :

« إذا المرء لم يندس - من اللؤم - عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل - على النفس - ضيها ، فليس - إلى حسن الشاء - سبيل . »

(٣) الأحنف - هو الأحنف بن قيس ويضرب به المثل في الحلم .

(٤) حاتم - هو حاتم الطائي وهو أشهر من ضرب به المثل في الجود .

قالوا : - « وأجواد العرب في الجاهلية ثلاثة :

« حاتم الطائي ، هرم بن سنان ، كعب بن مامة »

قالوا « وحاتم أشهرهم ذكراً » .

وقد أدرك مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومات قبل بعثته ، ومن مختار شعره قوله : -

« أأذل إن المال غـير مخلد وإت النفي طارية فتزود

وكم من جواد يفسد اليوم جوده وساوى قد ذكرنه أفقر في غد

وكم لى آباء ، فما كف جودهم ملام ، ومن أيديهم خلقت يدي . »

وقوله :

« لحا الله صـعلوكا مناه وهمه من العيش - أن يلقى لبوسا ومطعما

ولله صـعلوك يساور همه ويمضى - على الأحداث - والهول مقبما

إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت تيمم كبراهن ، ثم صدما . »

وقوله :

« أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى - من المال - الأحاديث والذكر

أمازى ما يبنى التراث عن الفقى إذا حشرت يوماً وضاق به الصدر

أمازى إن يصح صدائى بفترة - من الأرض - لاما لدى ولاخر

ترى أن ما أهلكت لم يك ضررى وأن يدي - مما تملت - به صفر

وقد علم الأتوام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر

وأنى لا ألو - بمالى - صنيعه فأزله زاد وآخره ذخر

غنيا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقناه - بكأ - سبهما - الدهر

فما زادنا بنياً - على ذى قرابة - غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر . »

بِشْرِكَ ، وَزَيْدٌ^(١) بِنُ مَهْلِيلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخَذَيْكَ ، وَالسَّلْيُكُ^(٢) بِنُ السَّلْكَةِ إِنَّمَا
عَدَا عَلَى رَجُلَيْكَ ، وَعَامِرُ بْنُ مَالِكٍ^(٣) إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسٌ^(٤) بِنُ زُهَيْرٍ
إِنَّمَا أُسْتَعَانَ بِدِهَائِكَ ، وَإِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ^(٥) إِنَّمَا أُسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذِكَاكَ ،

(١) زيد بن مهليل - أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، بعيسد الصيت ، وشاعراً نابهاً ، وكان
يسمى زيد الخيل لكثرة ما عنده من الخيل ، فلما أسلم سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - زيد الخير .
(٢) السليك بن السلكة جاهلي قديم ، وهو أحد صاليك العرب وأحد لصوصهم العدائين الذين كانوا
لا يلحقون ، قال ابن الرومي في وصف شهر رمضان :

« يمشي الهويانا ، فأما حين يظلمنا فلا لسليك يدانيه ولا لسلكة . »

(٣) عامر بن مالك - المشهور بلعاب الأسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التي اقتضربها لبيد عند الزعمان
في قوله :

« نحن بني أم البنين الأربعة . »

(٤) قيس بن زهير - هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء)
وكان يضرب به المثل في الدهاء ، فيقال : « أدهى من قيس . »
(٥) إياس بن معاوية - هو صاحب الفراسة والأجوبة السديدة الرائجة ، وكان قاضي البصرة ، ويضرب
به المثل في الذكاء . قال أبو تمام :

« أقدام عمرو في ساحة حاتم في حلم أحنف في ذكاه إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلاً من أهل الشام وأمره أن يجمع
بين إياس والقاسم بن أبي ربيعة ويولي القضاء أقدمهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ،
فقال إياس للشأمي : « سل الحسن البصري عني وعن القاسم ، وسل بن سيرين . » فلم القاسم أنه إن
سأل عنهما أشارا به ، فقال للشأمي : « لا تسأل عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياساً لأفضل مني
وأعلم بالقضاء ، فإن كنت ممن يصدق ، فيذبني لك أن تصدق قولي ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن
أن توليني القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشأمي : « إنك جئت برجل فأقته على شفير جهنم فافتدى
نفسه من النار بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو من النار » فقال الشأمي : « أما إذ فظنت لها فاني
أريدك » فاستتقضاه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب . قالوا : « ولما ولي القضاء دخل عليه الحسن
البصري فبكى إياس وقال له : « بلغني أن القضاء ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد
فأخطأ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة » فقال الحسن « إن فيما قضى الله تعالى في النبي
داود ما يرد قول مولاي . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً »
فحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخبره كثيرة مشهورة في كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الإفاضة .

وَسَحْبَانَ^(١) إِنَّمَا تَبَكَّمٌ بِلِسَانِكَ ، وَعَمَّرُوا^(٢) بِنِ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِيَدِيكَ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ - بَيْنَ بَكْرٍ وَتَعْلِبَ - تَمَّ بِرِسَالَتِكَ^(٣) ، وَالْحِمَالَاتِ - بَيْنَ عَبَسٍ وَذِيانَ - أَسْنَدَتْ إِلَى كِفَالَتِكَ ، وَأَنَّ أَحْتِيَالَ هَرِيمٍ - لِعَلْمَمَةِ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا - كَانَ ذَلِكَ عَنْ

(١) سبحان وائل - يضرب به المثل في الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعي « وكان إذا خطب يسيل عرفاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم - سعيد بن عثمان - فطلب سبحان فلم يوجد في منزله فاقضب - من ناحيته - اقتضاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لي عصا تقوم من أودي . » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها مرمى وهو يخاطب ربه وعصاه في يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا فجاءوا بها إليه فركبها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاي » فأثاها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنتح ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى يخرج منه وقد بقى عليه منه شيء ، فإزالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سبحان : ألا تقطع على كلامي ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هي أمالك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعد - ووعيد » ، فقال معاوية : « أنت أخطب العرب . » فقال سبحان : « والعجم والجنّ والانس »

(٢) عمرو بن الأهم - من سادات بني تميم وخطبائهم في الجاهلية والاسلام ، وكان - لجماله - يدعوونه : « المسكحل » قالوا : « ووفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو والزرقان بن بدر فأسلما وأكرهما النبي - صلى الله عليه وسلم - » فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن الأهم عن الزرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع في أدنيه ، شديد العارضة في قومه ، مانع لما وراء ظهره » .

فقال الزرقان : « يارسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني . » فقال عمرو : « أما والله لئن علمت ما قد علمت ، إنه لزم من المروءة ، أحق الأب ، لثيم الحال ، ضيق العطن ، حديث النبي . » فرأى تغير النبي - صلى الله عليه وسلم - لما اختلف قوله ، فقال : « يارسول الله لانضب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أقيح ما علمت ، فوالله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية . » فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا . » وتوفي سنة ٥٧ هـ - ومن ما أثور حكه قوله :

« أشجع الناس من رد جهله بجماله . » وقوله « أفّ للخدر لو كان شيء يشتري ما كان شيء أنفس من العقل ، فالعجب لمن يشتري الحق بماله فيدخله في رأسه فيقي في جيبه ويسلح في ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر - على نفسه - في الجاهلية .

(٣) بكر وتعلب ابنا وائل - هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سبعين طوية قتل فيها عظاما الحسين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابُهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّهَا كَانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ^(١)، وَأَنَّ
 الْحَجَّاجَ^(٢) تَقَلَّدَ وِلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ، وَقَتِيْبَةَ^(٣) فَتَحَ مَآوِرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ^(٤)
 أَوْ هَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ يَنْبِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هُرْمُسَ^(٥)
 أَعْطَى بَلْدِيْنُوسَ^(٦) مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ^(٧) أَوْ رَدَّ عَلَى إِرْسُطَطَالِيْسَ^(٨) مَا نَقَلَ عَنْكَ،
 وَيَطْلِيْمُوسَ^(٩) سَوَّى الْإِصْطِرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: « أيهما كان الأفضل عندك يعني عامراً وعلقة » فقال: « لو قلت الآن فيها كلمة أعادت الحرب بين الجيئين . » فأعجب بذلك القول عمر وسر من سياسته وبعد نظره وقال له: « بحق حكمتك العرب »

(٢) الحجاج - هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف ، وولى الكوفة ، واشتهر بسفك الدماء ، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمنجنيق (انظر ص ١٦ من كتاب مصارع الأعيان) وحروبه مع شيبب ، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة ، وقد ذكرناها في مصارع الأعيان من «ص ٥٧ إلى ص ١١٥» فليرجع إليها من شاء ، وكان يعجب بسرعة الجواب ، وله نوادر كثيرة في ذلك ، قالوا : إنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس « فكرت في أمرك فوجدت دمك ومالك حلالا » فقال : « أيها الأمير أشد ما في القضية أن هذا الرأي بعد الفكر » فضحك وعفا عنه ، وقالوا إنه أتى بقوم من أصحاب بن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم ، فقام رجل فقال : « أيها الأمير إن لي عندك يدا » فقال « وما هي؟ » قال « شتاك رجل مجضرة ابن الأشعث فرددت عنك » فقال : « من يشهد لك؟ » فأشار : « هذا » وأشار بيده إلى رجل منهم ، فقال : « صدق أيها الأمير » فقال « مامنك أن تفعل كما فعل؟ » قال « بقضى لك » ، فقال الحججاج « أطلقوا هذا ليده عندنا ، وهذا صدقه في مثل هذا الوقت » قال مالك ابن دينار : « والله لربما رأيت الحججاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له حتى يحيل إلى أنه مظلوم » وقال الحسن البصرى « لقد وقدتني كلمة سمعتها من الحججاج « إن امرءا ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته . »

(٣) قتيبة - هو قتيبة بن مسلم الباهلي نشأ في مروانية وولى الأمارة ، وكان شجاعاً فظناً .

(٤) المهلب - هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الخوارج (انظر ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس - هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبي مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه شرائعهم في تعظيم للكواكب السبعة والبروج الاثني عشر والتقرب إليها بالذبايح وغيرها .

(٦) بليْنوس - هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه .

(٧ ، ٨) أفلاطون وإرسططاليس - ثلمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر المتنازين .

(٩) بطليموس - هو صاحب كتاب المجسطى ، والجغرافيا ، والاسطرلاب وغير ذلك ، وهو أول من

تعرض للفلك والهندسة .

وَبِقِرَاطٍ ^(١) عِلْمِ الْعِلْمِ وَالْأَمْرَاضِ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسٍ ^(٢) عَرَفَ طِبَّائِعِ
الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلْدُكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلْتُكَ عَنِ الْمِزَاجِ ،
وَأَسْتَوْصَفُكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَأَسْتَشَارُكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ ، وَأَنْتَ نَهَجْتَ
لِأَبِي مَعْشَرٍ ^(٣) طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ ^(٤) عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ،
وَأَعْظَيْتَ النَّظَامَ ^(٥) أَصْلًا أَذْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ ^(٦) رَسْمًا اسْتَخْرَجَ

(١) بقراط - علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) جالينوس - من العلماء الممتازين الذين كان لهم الفضل في ترقية فن الطب ، وقد عرف خواص
الحشائش ، وقاس أمرجتها وطباعتها ، وشرح الأعضاء ، ووضع الكتب الرئيسية في الطب .

(٣) أبو معشر : كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشغ على الكندي الفيلسوف
المعروف ويفرى العامة به - قالوا « ففس له الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فأحبها
ثم عدل إلى أحكام النجوم فتفتن ومهر واتقطع بذلك شره عن الكندي لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان - من أعلام العلماء العرب في الكيمياء .

(٥) النظام - إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية في الذكاء من صغره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن
أحمد ليعلمه ، فقال له الخليل يمتحنه وفي يده قرح زجاج : « يا بني صف لي هذه الزجاجية » فقال : « أمدح
أم يذم » قال « بمدح » قال « تريك الفذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال
« يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر » قال « قصف لي هذه النخلة » وأوماً إلى نخلة في داره . قال
« بمدح أم ذم ؟ » قال « بمدح » قال « حلو جناها ، باسق متهاها ، ناضر أعلاها » قال « فذمها » قال
« صعبة المرتقى ، بعيدة المحتقى ، مخوفة بالأذى » فقال الخليل « يا بني نحن إلى التلم منك أحوج » ثم اشتغل
على أبي الهذيل العلاف بمذهب السلام إلى أن برع وظهر في أيام العتصم وتبعه خلق كثير - وحكي عنه قال
« مات لصالح بن عبيد القدوس ولد ، ففى إليه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالتيغ له قرأه
محتراً ، فقال أبو الهذيل « لا أعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع » فقال صالح « يا أبا الهذيل
إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب
وضعت من قرأه شك فبما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام
« فشك أنت في موت ابنك ، واصل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً في أنه قد قرأ هذا الكتاب
وإن لم يكن قرأه » فخصر صالح وكان مذهبه مذهب السوفسطائية فانهم يزعمون أن الأشياء للاحقيقة لها ،
وإن مانستبعده يجوز أن يكون على مانشاهده ، ويجوز أن يكون على غير مانشاهده ، وأن حال اليقظان كحال
النائم ، وتوفى سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنة .

(٦) الكندي - يعقوب الكندي من كبار فلاسفة الاسلام - انتقل إلى بغداد واشتغل بفنّ الأدب ،
ثم بعلم الفلسفة - وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات بارعة - وهو مشهور بالبجل ، وكان يقول : من
شرف البجل أنك تفول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدَّقَائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْيِيفَ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ تَوَلِيدُكَ
وَابْتِدَاعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى ^(١) بَارِي أَقْلَامِكَ ، وَسَهْلُ ^(٢) بْنُ هَارُونَ مَدْوَنُ
كَلَامِكَ ، وَعَمْرُو بْنُ بَجْرٍ ^(٣) مُسْتَمْلِكُكَ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ^(٤) مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنَّكَ الَّذِي
أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ ، وَوَحَدَّ الْمَاهِيَةَ ، وَبَيَّنَّ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ ^(٥) ،

وَأنت مشير برأسك إلى أسفل ، ومؤلفاته كثيرة منها (أناسم النقل الانسى) وكتاب (الجوامع الفكرية)
وكتاب (الفلسفة الأولى) وغيرها .

(١) عبد الحميد بن يحيى - هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد
الحميد ، وختمت بإبن العميد ، وكان في أول نشأته معلم صبيان بالكوفة ، فلما اتصل بمروان الجمدي قبل أن
يصل إلى الخلافة صحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان
« لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنا فظرت عنا بمعنى بالخلافة » فقال « إذن تطير معي »
قال « الآن طاب السجود » وسجد وظل كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون - من أهل نيسابور - رحل إلى البصرة ففسب إليها وكان شعوبياً ، واشتهر
بالجمل . قال الجاحظ : لقي رجل سهل بن هارون فقال : « هب لي ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما
هو يا أخي ؟ » فقال : « درهم » قال : « لقد هونت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يهوى ، وهو
عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ، ألا ترى إلى أين
انتهى الدرهم الذي وهنته ، وهل يبورت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فانصرف الرجل ولولا
انصرافه لم يسكت » وحكى دعبيل الخزازي قال : « أفئنا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضر
به الجوع فطأ بغداده فأنى بصحفة فيها مرق نحتته ديك هرم فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة فلم يجد
رأس الديك فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال :
« لم أظنك تأكله » قال : « ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إني لأمقت من يرمى برجله ، فكيف برأسه؟ والرأس
رئيس يتفاد به ، وفيه الحواس الخمسة ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي
يتحرك به ، وعينه التي يضرب بصفتها المثل ، ودماغه عجب لوجع السكبية ، ولم أر عظماً قط أهش من رأسه
فإن كان بلغ من خبلك أن لا تأكله فمعدنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق ،
انظر أين رميته فقال : « والله ما أدري » قال : « لكني أدري أنك رميته في بطنك » .

(٣) عمرو بن بجر - هو الكاتب المشهور ويكنى بأبي عثمان ويعرف بالجاحظ وهو من يفخر به البيان
الربيعي حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب
في سياسته ، والحسن البصرى في علمه ، والجاحظ في بيانه » - نشأ يبعثاد وتعلم على النظام وانفرد
بمحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة في كتب الأدب فلا داعي للافاضة فيها -

(٤) مالك بن أنس - هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية - ماهية الشيء ، ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف الشخصيات عنه إن
كان جزئياً . قالوا : وهي أحد حدود العلم عند الحكماء . فإن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ ^(١) ، وَمَيَّزَ الصَّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ ، وَفَكَ الْمَعْمَى ^(٢) ، وَفَصَلَ
 بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى ، وَصَرَفَ وَقَسَمَ ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ ،
 وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ،
 وَثَنَى وَجَمَعَ ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ ،
 وَبَحَثَ وَنَظَرَ ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغِيلَانَ ^(٣) ، وَأَشَارَ
 بِذَنْبِ الْجَمْعِ ^(٤) ، وَقَتَلَ بِشَارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِدْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ
 الْمَعْهُودَاتِ ، فَأَحْلَمْتَ الْبِحَارَ عَذْبَةً ، وَأَعَدْتَ السَّلَامَ رَطْبَةً ^(٥) ، وَتَقَلَّتْ غَدَاً فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم) . فالعلم الذي يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهي ، والذي يطلب منه كيفيات
 الأشياء هو الطبيعي ، والذي يطلب منه كميات الأشياء هو الرياضي .
 (١) الجوهر والعرض : الجوهر - فيما يقولون - هو الجسم ، كالإنسان والفرس والحجر ونحو ذلك .
 والعرض الحال والوصف المتماقب عليه كالألوان من بياض ، وسواد وحمرة ، والحركات المختلفة من قيام وقعود
 واضطجاع ، وجميع ما عدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه .

(٢) ونك المعنى - وهو اللغز ، أرجع إلى « ص ٢٨٤ »
 وكان الجاحظ يقول « ليس المعنى بشيء قد كان كيسان مستملى أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب
 خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب ، وكان أعلم الناس باستخراج المعنى - قالوا : « وكان النظام - على
 قدرته على أصناف العلوم - لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعنى .

(٣) ماني وغيلان - ماني هو الذي تنسب إليه المانوية وهو تنوي - نسبة إلى الاثنين - لزمه أن صانع العالم
 اثنان ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا
 حساسين سميين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة ، متضادان في الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل
 حسن نير ونفسه خيرة قديمة نفاعه . منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشرّ شيء ، وجوهر الظلمة
 على ضد ذلك جميعه ، وقد أشار المتني إلى هذا المذهب بقوله :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب . »

وكان ماني راهباً بنجران . قالوا : « وكان مؤمناً بالسيح معظماً من أساقفة النصارى ، ثم وشى به حاسدوه
 فأحدث ديناً ودعا إليه وتبعه كثير من الجوس .

وغيلان هو ابن يونس القدرى الدمشقي . قالوا كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وكان غيلان أول من تكلم
 في القدر ، وخلق القرآن في الاسلام في رأى بعض المؤرخين .

(٤) الجمعد - هو مولى بني الحسكم وكان يعلم مروان بن محمد الجعدي ويقطن دمشق وينسب إليه بعض
 المؤرخين أنه أول من تكلم بمخلق القرآن .

(٥) السلام : الحجارة الصلبة .

أَمْسَا ، وَزِدْتَ فِي الْعَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ^(١) ، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ ^(٢) فِي جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ ^(٣) . »

وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

« فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا - عَلَى مَا فِيكَ - مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْبَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ^(٤) ، وَاسْتَسَمْتِ ذَا وَرَمٍ ^(٥) ، وَنَفَخْتَ فِي غَيْرِ صَرَمٍ ^(٦) ،

وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهْرًا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْرًا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ،

(١) العناصر : هي في رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد في جوف الفرا - مثل يضرب في وصف الشيء المرئي على غيره قالوا : « وأصله أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظيباً وآخر أرنباً وآخر فرا ، وهو الخمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد في جوف الفرا - يعنى أن جميع صيدكم يسير في جنب ما صدته ، وزعم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر : « وواد بكجوف العير قفر قطمته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان في واد خصيب فظلم عشيرته ، فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته وأحرق الوادى ثغلاً وسكنته الجن فقيل : أخلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما أذنت لي حتى تأذن لحجارة الجاهلين » فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أبا سفيان كل الصيد في جوف الفرا » . (٣) هذا البيت من قصيدة لأبى نواس في مدح الفضل بن يحيى .

(٤) كدمت في غير مكدم - عضضت في غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب ما يعجز عنه .
(٥) في هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« لو ناراً نفخت بها أضواء ولكن أت تنفخ في رماد

لقد أسبعت - لو ناديت حيا - ولكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قول المتنبي لسيف الدولة معرضاً بأبى فراس :

« أعيذها نظراتُ منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن لهُ ورم . »

وَمَنِّيَتَ الرَّجُوعِ بِخَفِيِّ حَيْنٍ^(١) ، لِأَنِّي قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ^(٢) مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأَنشَدْتُ :

« عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ^(٣) »

وَنَخَرْتُ^(٤) وَبَسَرْتُ^(٥) ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ

وَأَرَعَدْتُ^(٦) وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ،

وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَدَالِ^(٧) الدُّمَسْتَقِ ، وَالنَّعْلِ^(٨)

(١) حنى حنين - مثل يضرب لمن يرجع بالحيرة - وكان حنين فيما يقولون إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابي بحنين ولم يشد منه شيئاً فناظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الحفنين على شجرة في طريقه وتقدم قليلاً وطرح الآخر وكن ، فجاء الأعرابي فرأى أحد الحفنين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هذا بحنين حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه » ثم تقدم قليلاً فرأى الحنف الآخر مطروحاً فزول وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المسكن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابي إلى أخيه بحنين حنين .

(٢) لقد هان من بالت عليه الثعالب - شطر بيت هو :

« أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب . »

قاله زجل من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم .

(٣) البيت لأبي تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : « أحنى » قالوا « أخذ وقرابة » ؟

فقلت لهم : « إن الشكول أقارب »

وإن باعدتنا في الأصول المناسب

عجبت لصبري بعده - وهو ميت -

وكنت امرأاً أبكى دماً وهو ظأب

عجائب حتى ليس فيها عجائب . »

(٤) نخرت - النخير صوت الأنف عند الغضب .

(٥) والبسر - الاستعجال بالشئ . قبل أوانه . وهو في قوله تعالى : « عبس وبسر » معناه أظهر

العبوس قبل أوانه . (٦) الأبراق والارصاد - كناية عن الهديد وأصلها من البرق والرعد . قال الشاعر :

« فقل للسماء : ارعدى وابرقي فانا وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لعلت بهذه المرأة التي أرسلتها رسولاً من قبلك - لولا حرمة الضيافة - فمل سيف الدولة بالدمستق ،

وهو لقب يطلق على كل قائد من قواد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبي إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه كنبت إليه في قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن طادت العقرب عدنا لها وكانت النمل لها حاضرة . »

حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعُقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمَذْنِبُ ، وَهَبَهَا لَمْ
تَلَحِظْكَ بَعِيْنٍ كَلِيْلَةٍ عَنِ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيْبُهَا ^(١) ، حَسَنٌ فِيهَا ^(٢) مَنْ تَوَدُّ
وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحِلْمِكَ ، وَوَسَمَّتْكَ بِسِيْمَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً ، وَلَا
تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بِكْرِهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتْ
الْهُنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ ^(٣) بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ
عَلَيْكَ ، فَالْمَعِيْدِيُّ ^(٤) تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجِيْنُ الْقَدَالِ ^(٥) ، أُرْعَنُ ^(٦) السَّبَالِ ، طَوِيْلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ ^(٧) ، مُفْرِطُ الْحُمُقِ
وَالنَّبَاوَةِ ، جَانِي الطَّبْعِ ، سَيِّءُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيْفُ الذَّهَابِ
وَالجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُدْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيْرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

(١) إشارة إلى قول الجنون :

« أُمَايْكُ إِجْلَالًا ، وَمَايْكُ قَدْرَةً عَلَيَّ ، وَلَكِنْ مَلْءَ عَيْنَ حَبِيْبِيهَا . »

(٢) في هذا إشارة إلى قول عمر بن أبي ربيعة :

ولقد قالت لجارات لها وتعدت - ذات يوم - تبتد

أكما ينعتني تبصرني - عمركن الله - أم لم يقتصد؟

فتضحكن وقد قلن لها : « حسن في كل عين من تود . »

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور في مواضعها ، وهو نصف

بيت لدريد بن الصمة في الحناء وهو :

« متبذلاً تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب . »

(٤) مثل يضرب لمن يكون مخبره خيراً من منظره . فإله النعمان لشقة بن ضمرة ، وكان يعجبه ما يسمع

عنه ، فلما رآه استزرى منظره ، فقال النعمان : لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

قال له : « أبيت اللعن إن الرجال ليسوا بجزر ، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه . »

(٥) القذال - جماع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أى خسيس الأصل . قالوا : « لأن الذى يعرف

أؤم نسبه إذا ولى طأطأ رأسه حياءً وذلاً ، فكأن الأؤم يتبين من فذاله » وقيل « بل لكثرة انهمازه

في الحروب . »

(٦) أرعن : أحمق ، والسبال : جمع سبلة وهى شعرة الشفة العليا وخصت الرعونة بها لأنها علامة الرجل .

(٧) العلاوة - الرأس مادام على العنق ، وفى الفراسة أن طول العنق والرأس من دلائل الخيانة .

كَلَامُكَ تَمَّتْ ، وَحَدِيثُكَ غَمَّغَمَةٌ ، وَيَا بَنِيكَ فَهْفَهَةٌ ، وَصَحِيحُكَ قَهْقَهَةٌ^(١) ،
وَمَشِيكَ هَرَوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعَلْمُكَ مَخْرَقَةٌ^(٢) :
«مَسَاوِلُ قُسْمِنَ عَلَى الْغَوَازِي - لَمَّا أُهْرِنَ إِلَّا بِالْإِطْلَاقِ^(٣)»

حَتَّىٰ إِنْ بَاقِلًا^(٤) مَوْصُوفٌ بِالْبَلَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنْقَةٌ^(٥) مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ
الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُؤَيْسًا^(٦) ، مَا تُورُ عَنْهُ يُمِنُ الطَّائِرُ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ،
فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالْإِغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْحُبَيْبَةُ مِنْكَ ظَفْرٌ ، وَالْجِنَّةُ مَعَكَ
سَقْرٌ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكِرْمِي كِفَاءً ، وَضَعْتَكَ إِشْرَفِي وَفَاءً ، وَأَنْتَى
جَهَلْتِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَىٰ أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَىٰ الْأَفْهَاءِ ،
وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

(١) قال الجاحظ - التمتبه : التردد في التاء ، وأما نأه : التردد في الفاء ، والعقلة : النواء اللسان عند
إرادة الكلام ، والجساسة تمذر الكلام ، والقف : إدخال حرف في حرف ، والرتة تمنع الكلام ، فإذا
جاء منه بشيء اتصل ، وقيل العجبة فيه ، والثلثة أن يعدل من حرف إلى حرف ، والغنة أن يشرب الحرف
صوت الخيشوم والحنة أشد منها ، والاسكنة أن يمترض الكلام حرف أعجمي ، والططملة أن يكون
الكلام شبيهاً بالعجمي .

وأما الغنمة فهي أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف - والفهفة : الهى في النطق ، والقهقهة :
الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل .

(٢) الهرولة : بين المشى والعدو ، والمسألة : الفقر ، والمخرنة : نوع من الحرق ، الذي هو ضد الرفق ،
ومنه يقال : المخرق وهو شيء يلعب به كأنه يخرج لاظهار النوى بخلافه .
(٣) البيت لأبي تمام . (٤) باقل : مضرب المثل في الهى .

(٥) هبنقة : مضرب المثل في الجبل وضعف العقل - قلوا : ووضع عقداً في عنقه علامة لنفسه لثلاث يضعف
قالوا : وراقبه أخوه إلى أن نام ، فأخذ العقداً من عنقه وجعله في عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه ،
قال « أنت أنا ، فأنا ياترى ، من هو أنا » وهو جاهلي .

(٦) المعنى الماخن المشهور ، وكان يسكن المدينة ، وهو أول من غنى بها حتى الدف بالعربية ، ويضرب به
المثل في الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفداه يوم مات أبو بكر ، وختن يوم
قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وكانت أمه تسمى بالنخيمة بين نساء الأنصار ، ونوادر شؤمه كثيرة
مشهورة في كتب الأدب .

لَا يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : « الْخَيْبُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ » وَتَمَثَّلَتْ (١) :
« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الشَّرِيًّا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنَّ عِلْقَ لَا يَبَاعُ (٢) مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يَصِيدُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْ لَا أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ (٣) ، لَلَقَيْتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارٌ (٤) ، فَهَاهُمْ إِلَّا يَبْعُضُ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلَا تَعْرَضُ إِلَّا لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادْعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ ؟
أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بُؤْدَارِمِ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَاهَا الْحَبِطَاتُ ؟ »

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعمرك الله بالنصب فيها لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أي حياتك ، وبعده قوله :

« هي شامية إذا ما استقلت وسهبل إذا استقل يمانى . »

(٢) العلق : النفس وهو من قصيدة للحريث بن قحطان التميمي كانت له فرس اسمها - سكاب - فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تبع

مفسدة مكرمة عاينا تجاع لها العيال ، ولا تجاع

فلا تطعم أبيت اللعن فيها ومنعكها بشيء يستطاع . »

(٣) العجماء : البهيمة ، والجبار : الهدر ، والمعنى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) يسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبحه ويحسبن لنفثته معجبات به حتى نظرت لإيسه بنت مولاة فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد والله عشقتني مولاتي ، فلأزرونها الليلة » فقال له صاحبه « يا يسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار وإياك وبنات الاحرار » فقال له « والله ما رأيتني حرّة إلا عشقتني » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على الابل حتى أنصرف ، وأعود إليك » فنهاه فلم ينته حتى دخل على بنت مولاة يراودها عن نفسها ، فقالت له « مكانك فان للحرائر طيبا ، أشمك إياه » فقال لها « هانبه » فأتته بطيب وموسى قاطعة ، فأشمته الطيب ، ثم أنحت بالموسى على هنة قطعته ، فخرج هاربا حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلَّا عَشَيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ؟ وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَّاجِمِ^(١)، أَوْ
تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَمَسِّ^(٢)، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ،
إِذْ جَاءَهُ خَاطِبًا فَدَهَنَ أُسْتَهُ بَزَيْتٍ وَأَذْنَاهُ مِنْ قَرِيَةِ النَّمْلِ، وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِنَا
وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعًا ابْنَةَ الْخَسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طَوْلِ السَّوَادِ^(٣)،
وَقُرْبِ الْوَسَادِ؟ وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ^(٤) فَأُنْكِحَ فِي جَنْبِ^(٥)؟ أَوْ عَصَلَنِي
هَمَامُ بْنُ مَرْةٍ فَأَقُولَ: «زَوْجٌ مِنْ عُوْدٍ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ؟»
وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَأَرْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْخَطَّةِ، وَلَا رَضِيتُ بِهَذِهِ الْخَطَّةِ،
قَالَتَارُ، وَلَا الْعَارُ، وَالْمَنِيَّةُ، وَلَا الدَّنِيَّةُ، وَالْحَرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدَائِهَا^(٦):

(١) وافد البراجم: هو رجل من بني تميم - والبراجم خمسة من أولاد حنظلة - والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً من بني تميم لأثر له عندهم، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فيبنا هو يلتمس بقية المائة إذ مرَّ رجل اسمه عمار فاشتم رائحة الفتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فدخل إليه فقبل له «من أنت» فقال: «أنا وافد البراجم» فألقي في النار.

(٢) شاعر جاهلي وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبنبا طرفة يشرب يوماً معه وفي يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو، فأراها طرفة فقال: «ألا بأبي الظبي الذي تبرق شفتاه، ولولا الملك القاعد أُلْمِئِي فاه» فسمعها عمرو فأسرهما في نفسه وهم يقتله، ولكنه خاف من هجاء المتلمس، فكتب لهما كتابين إلى حامل البحرين، وقال: «إني كتبت لكما بصلة فاقبضاها من حامل البحرين» فخرجا من عنده بالكتابين، ومرت المتلمس بغلام من أهل الحيرة، فطلب إليه أن يقرأ كتابه فإذا فيه «إذا نأك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصبله» فأقبل على طرفة فقال «والله لقد كتب لك بمثل هذا، فادفع كتابك إلى الغلام بقرؤه» فقال: «كلاما كان ليحترى على قومي بمثل هذا» فألقي للمتلمس صحيفته في نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل.

(٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بعد لها، فلما قرعوها وعبروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم معتذرة: «لقد حملني على ذلك قرب الوساد، وطول السواد» وهي تعني بطول السواد: طول السراة، وفي الحديث: «السواد من السحر» تقول: سادته أي ساررتة، أنظر «ص ١٩٨» (٤) حتى من تغلب.

(٥) حتى من اليمن، وهو من شعر مهلهل التغلبي حين هرب وطالت عليه حرب البسوس فنزل في طريقه على حتى من اليمن فخطبوا إليه ابنته فساقوا للمهر وهو جلود من آدم وغصبوه على الزواج فقال:

«أعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرهين من جيش

أنكحها فقدما الأرقام من جن ب وكان الجباء من آدم

لوباً بأبائين جاء خاطبها ضرج ما أنف خاطب بدم.

(٦) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الاحدوث.

فَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مَنْكَحٌ وَفَتِيَانِ هَزَانَ الطَّوَالِ الْغَرَائِقَهُ^(١)

مَا كُنْتُ لَا تَخْطَى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْطَى الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا
يَتَيَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ
مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ ، وَاعْلَمَكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوْتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ
مُسَاعَقَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرِيحَانِ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكُوكِبُ غُلُوُّ
هِمِّمْ ، وَالرِّيَاضُ طَيْبُ شَيْمِمْ :

« مَنْ تَلَقَى مِنْهُمْ تَقَلَّ لَا قَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي^(٢) »
حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ، وَأَنْى تَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَأَوْ
عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ^(٣) فِي الْعِظْمِ يَبِينُهُمْ ، وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ
تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنِ بَعْضِ قُوتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانِكَ ، وَجَرَرْتَ هَمِيَانِكَ ،
وَاخْتَلْتِ فِي مِشْبَتِكَ ، وَحَدَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ،
وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءُ
الْإِكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْأَعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ
اسْتِكَ الْخَفْرَةَ^(٤) ، وَاللَّهُ لَوْ كَسَاكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ^(٥) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةٌ^(٦) بِالْقُرْطَيْنِ
وَقَلَّدَكَ عَمْرٍو الصَّمْصَمَةَ^(٧) ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ^(٨) ، مَا شَكَكَتُ فَيْكَ ،

(١) اسم قبيلة - والزراقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٢) البيت للعرندس أحد بني بكر بن كلاب .

(٣) قطعة العظم تكون زيادة في العظم الصميم - يقال فلان وشيظة في قومه أى حشو فيه .

(٤) مثل يضرب لمن يطلب أمراً فيخطئه ولا يناله . (٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر النسائي - وقد أهدت قرطها إلى الكعبة .

(٧) انظر ص « ٢٠٧ - ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبي من سادات بني وائل .

وَلَا سَتَرْتَ أَبَاكَ، وَلَا كُنْتَ إِلَّا ذَاكَ، وَهَبَكَ سَامِيَتِهِمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ
وَالْحَسْبِ، وَجَارِيَتِهِمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى يَنْتِ
قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ (١)؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ
لَا غَلَبَ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخْسَّ مِنْهُ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ،
وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ، وَالنَّفْسِ الْمَضْرُوفَةِ إِلَيَّ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ، وَبَيْنَ آخَرَ
قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَكَمْ يَبْقَى إِلَّا ضُرَاطُهُ،
وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ الْكَيْلَةِ (٢)، وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا
الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي يَنْتِ سَلُولِيَّةٍ (٣) :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ (٤)

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذِرْعِكَ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلَمِكَ، وَلَا تَكُنْ
بِرَاقِشٍ (٥) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَمْتِرَةِ لِحُفْهَا، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ
بِكَ الْعِشَاءَ عَلَى سِرْحَانَ (٦)، وَبِكَ لَا بِظَائِي أَعْفَرٌ (٧)، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا،
وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا (٨) .

(١) القعيدة : الزوجة ، والسكاع : اللثيمة ، والبيت للحطيئة يقول :

« أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع . »

(٢) مثل يضرب في الخلدن السيثين يجتمعان . قالوا أنه لعمر بن معديكرب ، والحشف أردأ التمر ،
والكيلة مصدر يدل على الهيبة .

(٣) وهي امرأة من سلول ، وهو مثل قاله طمر بن الطفيل عند ما توعد النبي - صلى الله عليه وسلم -
فدعا عليه وقال : اللهم اكفني عامرا بما شئت ، فظهر في رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة
البعير ، وموت في بيت سلولية . » (٤) البيت لأبي العنابية . (٥) يشير إلى النمل (جنت
على أهلها براقش) (٦) الذئب . (٧) مثل يضرب للشهامة بالرجل - أي نزل بك المكروه ولا
نزل بظي ، والأعفر الذي لونه لون التراب . (٨) يشير إلى قول المرعي :

« لقد أسمعتم لو ناديت حيا ولاكن لا حياة لمن تنادي »

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فيرماد . »

ولعله اقتبسها في قصيدته من شعر عمرو بن معديكرب .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِنَدَى الْحِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي (١)
وإن بادرت بالندامة ، ورجعت على نفسك باللامامة ، كنت قد اشتريت
العافية لك بالعافية منك ، وإن قلت جمعة ولا طخن ، ورب صلف تحت (٢)
الراعدة ، وأنشدت :

« لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظهُ وإن جرحاً (٣) . »

فعدت لما نهيت عنه ، ورجعت ما استعفيت منه ، بعثت من يزعمك إلى
الخصراء (٤) دفعا ، ويستحجك نحوها وكزا وصفعا ، فإذا صرت إليها عبث
أكاروها (٥) بك ، وتسائط نواطيرها عليك ، فمن قرعة موجهة تقوم في قفاك ،
ومن فجلة مننثة يرمي بها تحت خصاك ، ذلك بما قدمت يداك ، لتدوق وبال
أمرك ، وترى ميزان قدرك :

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى (٦)

(١) وهما مثلان يضربان في التحذير ، وقد نظمه المارث بن ولة البشكري ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه فقال :

« أتقتل سادتنا - بالتره - إلا لتوهن قوة العظم
ووطننا وطنا على جنف وطء المفيد نابت الهرم
وزعمت أنا لا حلوم لنا ان العصا قرعت لندي الحلم
لا تأمن قوما ظلمتهم وبدأتهم بالشر والغشم
ان بأبروا نخلا لسيرهم والشئ تحقره وقد ينمي
الآن لما ابيض مسربق وعضضت من نابي على جذم
ترجوا الأطادى أن أصلحها جهلا توهم صاحب الحكم
قوى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبني سهبي
فلئن عفوت لأعفون جلاا ولئن أصبت لأوهن عظمي . »

(٢) الجعجة : صوت الرحي ، والطخن : الدقيق ، والصلف : فلة الخير والبركة ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير
الرد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يفعل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد - وبعده قوله :

« عسر النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعدما جتا . »

(٤) الناحية : المزرعة من البلد ، والوكر : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب مجتمع اليد على الذقن .
(٥) الأكارون : الزارعون . (٦) البيت للمثنى - من قصيدة في ذم كافور الأشجدي وهجائه ، ومنها قوله :

« وقد كنت أحسب قبل الحظى أن الرؤوس محل النهي
فلما نظرت إلى عقله وجدت النهي كلها في الحظى
وقد ضل قوم بأصنامهم فلما بزق رياح فلا . »

الرسالة الجدية لابن زيدون^(١)

« كتبها لابن جهور »

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَادِي لَهُ ، وَأَعْتَادِي عَلَيْهِ ، وَأَعْتَادِي بِهِ ،
وَأُمْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ مَاضِي حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارِي زَنْدِ^(٢) الْأَمَلِ ، ثَابِتَ
عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ - لِبَاسِ نَعْمَائِكَ ، وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلِّي
إِنْيَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ^(٣) إِسْعَافِكَ ، وَنَقَضْتَ بِي كَفَّ حَيَاطَتِكَ ،
وَعَضَّضْتَ^(٤) عَنِّي طَرْفَ^(٥) حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِينِي لَكَ ،
وَسَمِعَ الْأَصْمُ ثَنَائِي عَلَيْكَ^(٦) ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِأُسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ - فَلَا غَرَوَ
قَدْ يَعْصُ بِالمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاهِ الْمُسْتَشْفَى بِهِ ، وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ
مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنَّى فِي أَمْنِيَّتِهِ^(٧) ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ
الْحَرِيصِ^(٨) :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى
وَتَهْوُنُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ
وَإِنِّي لِأَتَجَلَّدُ ، وَارِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لَرَيْبِ الدَّهْرِ لِأَتَضَعَّضُ^(٩) ، فَأَقُولُ :

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، ووري الزند هو اقتداحه وخروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) غضضت : خفضت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

« أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسعت كلماتي من به صمم . »

(٧) فيما يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : الهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب ، مشهور . قال عدى بن زيد :

« تد يدرك المبطل من حظه - والحين قد يسبق جهد الحريص . »

(٩) يشير إلى قول أبي ذؤيب الهذلي :

« وتجلدى للشامتين أريهم أنى لربب الدهر - لأتضعضع . »

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هَلْ أَنَا إِلَّا يَدُ أَدْمَاهَا سِوَاهَا ^(١) ، وَجَبِينُ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ ^(٢) ، وَمَشْرِفِي ^(٣)
 الصِّقَّةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمَهْرِي ^(٤) عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ ، وَعَبْدُهُ ذَهَبَ
 بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

« قَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ ^(٥) »
 هَذَا الْعُتْبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ ^(٦) عَمْرَةُ ^(٧) ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَهَذِهِ
 النَّكْبَةُ سَعَابَةُ صَيْفٌ عَنِ قَلِيلٍ تَقَشَعُ ^(٨) ، وَلَنْ يَرِيَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ
 أَبْطَأَ سَيْبُهُ ^(٩) ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ ^(١٠) ، فَأَبْطَأَ الدَّلَاءُ فَيَضَا
 أَمْلَوْهَا ^(١١) ، وَأَثْقَلُ السَّحَابِ مَشِيئًا أَحْفَلُهَا ^(١٢) ، وَأَنْفَعُ أَحْيَا مَا صَادَفَ ^(١٣)
 جَدْبًا ، وَالَّذُ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَدِيلاً ^(١٤) ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

(١) السوار : نوع من الخيل يابس في الساعد ، وقريب من هذا قول المتنبي :

« بنو كعب - وما أرت فيهم - يد لم يدهما إلا السوار

لها - من قطعه - ألم وتقس ، وفيها - من جلالتها - افتخار .

(٢) الأكليل : التاج . (٣) المشرفي : السبف .

(٤) السمهرى : الرمح .

(٥) البيت لأبى تمام ، وقريب من هذا المعنى قول المعرى :

« اضرب وليدك - تأديباً على رشد - ولا تقل هو طفل غسير شتم

فرب شق برأس جر منقعة ، وقس على شق رأس السيف والقلم . »

(٦) النبوة : الجفوة . (٧) النذرة : الشدة . قال الشاعر :

« وما هي إلا شجرة ثم تنجلي سريعاً وإلا نبوة تنصرم . »

(٨) مثل عربى : يشير إلى أن العسر سيتعبه اليسر بعد قليل .

(٩) سيده : جوده أو عطاؤه . (١٠) غناؤه : خيره أو نفعه .

(١١) مثل عربى ، يقولون : « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد اشتق به الحريرى فى إحدى

مقاماته ، ومعناه إن أبطأ الدلاء فى الصعود هى الدلاء المتلثة بالماء .

(١٢) أحفلها : أكثرها ماء .

(١٣) الحيا : الغيث أو المطر .

(١٤) الغليل : شدة العطش .

كِتَابٌ ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ اهْتِبَالِهِ ^(١) ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ ^(٢) :
 « فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ - الَّذِي سَاءَ - وَاحِدًا ، فَأَفْعَالُهُ - اللَّاتِي سَرَرْنَ - الْوُف . »

* * *

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعُهُ عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِمْلُكَ ،
 وَالتَّطَاوُلُ ^(٣) الَّذِي لَمْ يَسْتَعْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ أَحْتِمَالُكَ ،
 وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئًا ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئًا ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟
 إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعٌ ^(٤)
 حَنَانِيكَ ^(٥) قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّي ^(٦) ، وَنَالَنِي مَا حَسَبِي بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أَرَانِي
 إِلَّا أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ^(٧) فَأَبَيْتُ وَأَسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ ^(٨) :
 « أُرَكِّبُ مَعْنَا » فَقُلْتُ : « سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » وَأُمِرْتُ

(١) اهتباله : اغتنامه .

(٢) اغفاله : قناضيه وتغافله .

(٣) التطاول : التكبر ، والتطول : التفضل ، والتحامل : التكليف بما لا يطاق ، والاحتمال : هو القدرة على الحمل .

(٤) البيت الأول للبحتري ، والثاني مأخوذ من قول الشاعر :

« مَبِينٌ ظُلُومًا نَلْتَسُهُ بِسَاعَةٍ قِصَاصًا فَأَيْنَ الْأَخْذِ عِزٌّ بِالْفَضْلِ ؟ »

(٥) حنانيك : رحمتك وهو مثني كلمة حنان .

(٦) الزبي : جمع زبية وهي الحفرة في مكان مرتفع لا يعلوه الماء تحفر لصيد الأسد ، فاذا وصل إليها السيل كان سيلًا عظيمًا لا عهد للناس به ، وهج مثل يضرب للشيء يربى على غايته .

(٧) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، ففضل نفسه عليه لأنه من نار وآدم من طين ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٨) يشير إلى قصة نوح حين فاض الطوفان ، وركب السفينة هو ومن معه وخالفه ابنه وعصاه فهلك ، وقد أشار الكتاب الكريم إلى ذلك في قول نوح : « يا بني أركب معنا ولا تكن من الكافرين » وقول ابنه : « سأوى إلى جبل يعصمني من الماء » .

بَيْنَاءِ الصَّرْحِ (١) لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ (٢) ، وَأَعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ (٣) ، وَتَعَاطَيْتُ (٤) فَعَقَرْتُ (٥) ، وَشَرَبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي أَبْتُلِي بِهِ جِيُوشُ « طَالُوتَ » (٦) ، وَقُدْتُ الْفَيْلَ لِأَبْرَهَةَ (٧) ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ (٨) ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ (٩) ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعَيْرِ بِيَدْرِ ، وَأُنْخَذْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ (١٠) ، وَتَحَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْمَصْرِ فِي

(١) الصرح : الفصر - يشير إلى قصة فرعون وهي مذكورة في الكتاب الكريم حين قال : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا » .

(٢) يشير إلى عجل بنى إسرائيل الذي عبده .

(٣) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نبهوا عن الصيد في يوم السبت فخالفوا ما نبهوا عنه ، فحق بهم العذاب

(٤) تعاطيت : أى قتت على أطراف أصابع رجلى ورفعت يدي وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر البعير بالسيف أى ضربت قوائمه به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح وذنب

من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَدَمَدِمَ عَلَيْهِمْ رَبَّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَنَسُواهَا »

(٦) يشير إلى الذنب الذى أقرته جيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِكُمْ نَهْرٌ

فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ » ولكن أكثرهم خالفه وشرب

منه فوقعوا فى الاثم ، قال أبو العلاء :

« سقيا لدجلة والذنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشبينا

وبعدا لأرید الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا »

(٧) يشير إلى قصة أبرهة طامل اليمن من قبل النجاشي حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لنضبه عليها

إذ بنى كنيسة فى صنعاء اليمن ليحج إليها الناس بدل الكعبة فلم يعنوا بها وتنوط رجل فيها وأحرقها بعض تجار

اليمن ، وغضب النجاشي من ذلك ، وأمر أبرهة طامل اليمن بهدمها والقصبة مذكورة فى الكتاب الكريم

« أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ فَعَلَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ * أَلَمْ تَرَ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلِ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ

بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ . » وقد أشار المعرى إلى هذه القصة فى لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قايه ل - فى الدهر - وهابلا

وطير عكفت يوماً على الجيش أبابلا

مق نرحل عن دنيا تزيد العقل تحيلا . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التى كتبها قريش وعلقوها فى الكعبة يقررون فيها مقاطعة النبي - صلى الله

عليه وسلم - وشاربة الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحجرة الذى اعتز بها الدين .

(٩) قضت بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن شجة الصواب .

(١٠) يشير إلى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا

بثلث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ ^(١) ، وَجِئْتُ بِالْإِنْفِكِ ^(٢) عَلَى عَائِشَةَ الصَّدِيقَةِ ، وَأَنْفِتُ مِنْ
 إِمَارَةِ أُسَامَةَ ^(٣) ، وَزَعَمْتُ أَنْ يَبْعَهُ أَبِي بَكْرٍ ^(٤) كَأَنْتَ فَلَئِنَّ ، وَرَوَيْتُ
 رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ^(٥) ، وَزَعَمْتُ الْأَدِيمَ ^(٦) الَّذِي بَارَكْتَ يَدَ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
 وَصَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ ^(٧) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَدَلْتُ لِقَطَامٍ ^(٨) .
 « ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ »

(١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بعد عودته من غزوة

الحنديق أن يصلوا المعصر في بني قريظة يعني بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم .

(٢) يشير إلى جريمة مسطح وحسان في حادثة الانك ، وهي اتهام عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -

حين كانت طائفة من غزوة بني المصطلق ونزلت من اليهودج لفضاء حاجتها وسار أصحاب الرسول

- صلى الله عليه وسلم - من غير أن يتفقدوا طائفة ، وكانت قد تحلقت عن الركب ، ومرّ بها صفوان

وكان متخلفاً عن الركب فأركبها على جملة ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء عنها ما أشاعوه ، ثم برأها القرآن ،

وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الانك والبهتان .

(٣) يشير إلى تولية النبي - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذي ذهب إلى الشام

وإلى تعالى بعض المهاجرين ، وأتقتهم من إمارته ، وغضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم وتقربهم

ليأهم ، وصعوده المنبر وهو طاصب رأسه لمرضه .

(٤) يشير إلى رأى الشيعة في أن عليّ بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ، وأن أبا بكر

قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

(٥) يشير إلى ذلك أبي شجرة السلمي في بعض حروب الردّة بجيش خالد بن الوليد .

(٦) يشير إلى أديم «عمر» أي جلده الذي مزّقه أبو لؤلؤة الجوسى حين قتله ، ويشير إلى قول الشاعر في رثائه :

«جزى الله خيراً من إمام، وباركت يد الله في ذاك الأديم المذوّق .»

(٧) يعني بالأشمتط : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت في رثائه :

«ضحوا بأشمتط، عنوان السجود به ، يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً .»

(٨) قطام : اسم امرأة أقرت عبد الرحمن بن ملجم بقتل عليّ وفرضته مهراً لها ، فأجابها إلى ما طلبت ،

وبلى هذا البيت قوله :

«فلامهر أغلى من عليّ - وإن علا - ولا فلك إلا دون فلك ابن ملجم .»

وقد أشار البعثرى إلى ذلك أبداع إشارة حين قال :

« ولا عجب للأسد إن ظفرت بها

فخرية وحشى سقت حمزة الردى ، وموت عليّ من حسام ابن ملجم .»

وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرٍو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَعَجِعَ ^(١) بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ ^(٢) :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي - يَبْدُرِ - عَامُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ »

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِدَةَ عَلَى الثَّنِيَّةِ ^(٣) ، لَكَانَ - فِيمَا جَرَى عَلَيَّ - مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسْمَى نَكَالًا ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَابًا .

« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا ! »

* * *

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَمِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ^(٤) ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ .

وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَاءُونَ ^(٥) بِنَمِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا

الْعَصَا ، وَالْفَوَاةُ ^(٦) الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا ^(٧) صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ ^(٨) الَّذِينَ

ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصَّدَقُ مُحَمَّدٌ إِلَّا مِنْهُمْ »

« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً ، وَلَيْسَ - وَرَاءَ اللَّهِ - لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ »

وَاللَّهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا أَخْرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ ^(٩) ، وَلَا

نَصَبْتُ لَكَ ^(١٠) بَعْدَ التَّشْيِيعِ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفَلْتُ بِهِ

(١) يشير إلى تخريض عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتله وأعقبه بشمر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجمع بالحدين أي يضيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة - يشير إلى ما فعله يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لمحاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ ليزيد ذلك تمثل بقول ابن الزبيرى : « ليت أشياخي الخ . »

(٣) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عبد الله بن الزبير وهو يعنيه بالمائد أي المنجني ، ورائية : طريق العقبة . (٤) الكاشح : العدو .

(٥) الهمازون : الذين يكترون الهمز وهو النبية ، والمشاءون : الذين يكترون السمي بين الناس بالنميمة . (٦) النواة : جمع غار وهو المضلل . (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد . (٩) الصاعية : صاعية الرجل خاصسته الذين يسعون إليه ويفشون مجلسه . (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك .

الثقة عنك ، وعهدٍ أخذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . ففيمَ عبثَ الجفَاءِ بِأذمتي ^(١) ،
 وَعَاثَ العُقُوقُ فِي مَوَاتَاتِي ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقتُ
 مَدَاهِي ، وَأَكَدتْ مَطَالِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ المَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ
 مِنَ الغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ^(٢) ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي المَغْلَبُ ^(٣) ، وَفَخَرَ عَلَيَّ العَاجِزُ الضَّعِيفُ ،
 وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ^(٤) ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكُنِي
 وَلِمَا أَمَزَقَ ^(٥) ؟ أَمْ كَيْفَ لَاتتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الأَكْفَاءِ ^(٦) حَسَدًا لِي عَلَى الخُصُوصِ
 بِكَ ؟ وَتَتَقَطَّعُ أنْفَاسُ النُّظْرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الكِرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدَ
 زَانِي قَدِيمِ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسَمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ البَلَاءَ الجَمِيلَ فِي
 سِمَاتِكَ ^(٧) ، وَقَمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ عَلَيَّ بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ المُوَالِي فِيكَ غَرَّ قَصَائِدِ هِيَ الأَجْمُ اقْتَادَتِ - مَعَ اللَّيْلِ - الأَجْمَا
 ثِنَاءً يَطْلُ الرِّوَضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ضِحًا ، وَيُخَالُ الوَشْيُ فِيهِ مُنَمَّنًا »

(١) الأذمة : المهود والحرمات . (٢) رضية من الغنيمة بالاياب : مثل يضرب في القناعة بالسلامة
 قال امرؤ القيس :

« لغدطوفت في - الآفاق - حتى رضية من الغنيمة بالاياب . »

(٣) المنلب : أى الضعيف . قال الشاعر :

« فانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يفلبك مثل مغلب . »

(٤) في المثل « لو ذات سوار لطمتني » ، يشير إلى ضعف المعتدى وحقارته والعادة أن السوار
 لا تلبسه إلا الحرّة . قال الشاعر :

« بلاء ليس يعدله بلاء عداوة غيرذى حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يفره ويرتع منك في عرض مصون . »

وقال المعري : « خف يا كريم على عرض تمرضه لعائب ، فثم لا يقاس بك

إن الزجاجة - لما حطمت - سبكت وكم تحطم من در فما سبكا . »

(٥) وتدركني ولما أمزق : يشير إلى قول المنقب العبدى ، وقد اشتهد به عثمان بن عفان في كتابه إلى على :

« فان كنت ما كولا فكن أنت آكلى وإلا فأدركني ولما أمزق . »

(٦) الأكفاء : جمع كفاء وهو الندى أى الثليل .

(٧) السباط : الصف ، وقد مرّ بك قول ابن زيد بن فى ص « ١٤٤ »

« إذا ما استوى فى الست طاقدجوبة ، وقام سباطا حمله فى الصدر . »

أى صفا حمله .

وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِكَ ، وَتَقَلَّدَتْ الْجَوَزَاءُ إِلَّا عِقْدًا
 فَصَلَّتُهُ بِمَا تَرِكَ ، وَأَسْتَمَلَى الرَّيْبُوعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأَتْهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ^(١) الْمِسْكُ
 الْإِحْدِيثًا أَذْعَمَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ « حَلِيمَةَ » بِسِرِّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أُكْسِكْ
 سَكِيلِيَا^(٢) ، وَلَا حَلِيمَتِكَ عَطْلًا^(٣) ، وَلَا وَسَمْتِكَ غُفْلًا ، بَلْ وَجَدْتُ آجْرًا وَجِصًّا^(٤)
 فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أَعِدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ^(٥)
 وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ^(٦) الْمَنْصُوبَةِ نُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ
 - بِكَ وَبِي - فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِي إِنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أُنْحَوْلَ^(٧) إِذَا بَلَغْتَنِي
 الشَّمْسُ وَنَبَا بِي الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقَطُّعُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ .
 فَلَا أَسْتَوْطِنُ الْعَجْزَ ، وَلَا أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ . وَمِنَ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ :
 « خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ^(٨) » وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنْ أُجِلَّاءَ^(٩) سِبَاءَهُ^(١٠) وَالثَّقَلَةَ مُثَلَّةً^(١١) :

(١) بث : نشر ، وقوله « ما يوم حليمة بسر » مثل يضرب في كل أمر متعلم مشهور ، وأصله أن
 الحارث بن أبي شمر وجه جيشاً إلى المنذر بن ماء السماء في الغزوة التي قتل فيها ، وأمر ابنته حليمة فأخرجت
 لهم مراكناً فيه خالوق أي طيب ، فقال خلقهم مخرجت إليهم ، فجعلت تخلفهم وهي من أجل نساء عصرها ،
 ومضى التوم حتى أتوا المنذر ، فقالوا أتيناك من عند صاحبنا وهو يدين لك بالطاعة ويعطيك حاجتك ، فتباشر
 المنذر بذلك ، وغفل المنذر وعسكره بعض الغفلة فحلموا عليه فقتلوه ، وكان الحارث قد أوصاهم بذلك قبل أن
 يوجههم إليه ، فقيل : ما يوم حليمة بسر فذهبت مثلاً .

(٢) السليلب : المسلوب . (٣) العطل : العاقل . قال الطغرائي :

« أصالة الرأي صانتي عن الحطبل وحليلة الفضل زانتي لى العطل . »

(٤) الآجر : الطين ، والجمس : الجبر . وقد تناول الكتاب والشعراء هذا المعنى ، ولكننا لم نقرأ أبدع
 من قول أمير الشعراء في قصة قبيز على لسان وصيفة ملكة فارس :

« لاني وضعت ذهباً في بوتقه ولم أصف - بالطيب - إلا زنبقه »

وقلت عن شمس النهار : مشرقه .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عامة ناصبة تصلى ناراً حامية . »

(٦) يشير إلى قول عباس بن الأحنف :

« صرت كإني ذبالة نصبت نضية للناس وهي تحترق . »

(٧) في المثل « إذا بلغت الشمس فتجول » (٨) خامري أم طامر : مثل يضرب لمن عرف

الدنيا وتقلبها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها وينتر بها . قال البهاء زهير :

« خدعوك بالقول المحال فصح أنك أم طامر . »

(٩) الجلاء : النزوح عن الوطن . (١٠) السباء : الأسر . (١١) والمثلة : النكال .

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ - عَنْ قَوْمِهِ - لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسِيءُ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا^(١)»
عَارِفٌ أَنْ الْأَدَبَ الْوَطْنَ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^(٢)،
وَالنَّسِيبُ لَا يُجْفَى، وَالْجَمَالُ لَا يُخْفَى، ثُمَّ مَا قَرَأَ السَّعْدُ بِالْكَوَاكِبِ أَبْهَى
أَثْرًا، وَلَا أَسْنَى خَطْرًا، مِنْ أَقْبِرَانَ غِنَى النَّفْسِ بِهِ، وَاتِّظَامَهَا نَسَقًا^(٣) مَعَهُ،
فَإِنَّ الْحَاثِرَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْمًا تَوَجَّهَ وَرَدَّ
مَنْهَلَ بَرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ، وَأَعْطَى
حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ .

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ»
غَيْرَ أَنَّ الْوَطْنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ، وَاللَّبِيبُ يَحْنُ إِلَى وَطْنِهِ، حَنِينَ
النَّجِيبِ^(٤) إِلَى عَطْنِهِ^(٥)، وَالكَرِيمُ لَا يَخْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَائِلُهُ^(٦)، وَلَا
يَنْسَى بِلْدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ :

« أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ - إِلَى وَسْلَمَى - أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَامِي^(٧) وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي ثُرَابُهَا»
هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جَوَارِكِ، وَمُنَافَسَتِي بِلِحْظَةِ مَنْ قُرْبِكَ، وَأُعْتِقَادِي

(١) كبكب : الجبل . (٢) الزيال : المغارقة .

(٣) النسق : ما كان على نظام واحد . (٤) النجيب : الفحل الكريم من الابل .

(٥) العطن : مبرك الابل حول الماء .

(٦) القوايل : جمع قابلة وهي التي تتلقى للولود عند خروجه (الداية) .

(٧) وفي رواية : « عى الباب . » وفي أخرى : « شق الشباب » وفي رواية اللسان :

« نطت على تمامي » والتمام : ما يعلق للطفل ليقبه شر الحسد . قال الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع . »

أَنَّ الطَّمَع - فِي غَيْرِكَ - طَبَعٌ، وَالغِنَى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاءٌ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ أَعْوَرٌ،
وَالعَوَضَ لَفَاءً^(١) :

« وَإِذَا أَنْظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي - ضَنًّا بِهِ - نَظْرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ »

وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^(٢)، وَفِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ، وَأَسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ
وَالعَفَارُ^(٣)، فَهَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنكَ، وَهَلَا
كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا نُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ »

أَعِيدُكَ وَتَفْسِي مِنْ أَنْ أُشِيمَ^(٤) خَلْبًا^(٥)، وَأَسْتَمَطِرَ جَهَامًا^(٦)، وَأَكْدِمَ^(٧)
فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ، وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ^(٨) وَالرَّخَمِ، فَهَذَا
أَبْسَسْتُ^(٩) لَكَ إِلَّا لِتَدِرَّ، وَمَا حَرَّكَتُ لَكَ الْخُورَارَ^(١٠) إِلَّا لِتَحِنَّ، وَمَا
نَبَهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامٍ^(١١)، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ، إِلَّا لِأَحْمَدِ السَّرِيِّ^(١٢) لَدَيْكَ. وَإِنَّكَ

(١) لفاء : خسيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالضعيف فظلموني ولا حظي للقاء ولا الخسيس »

(٢) كل الصيد في جوف الفرا : انظر « ص »

(٣) المرخ والعفار : نوطان من الشجر سريعاً الاتقاد ، وقريب من هذا قول المعري :

« وأبضت فيك النخل والنخل مشمر - وأعجبتني من حبك الطلح والفضال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يعطر . (٥) الخلب : البرق الذي لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعرض - والمثل العربي : « كدمت في غير مكدم » - وهو يضرب لمن يريد الشيء من غير أهله .

(٨) يشير إلى قول المتنبي :

« ولا تشك إلى قوم فنشتمهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم . »

(٩) أبست : رفقت من الرفق . (١٠) الخوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد :

« إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ، ثم تم »

فنتى لا ينام على غسرة ولا يشرب الماء إلا بدم . »

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الضيق .

إِنْ سَنَيْتَ ^(١) عَقْدَ أَمْرِي تَيْسَّرَ، وَمَتَى أَعَذَّرْتَ ^(٢) فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ،
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمْرَةُ النَّعْمَةِ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ الْمَرْوَةِ، وَفَضْلُ
الْجَاهِ - تَعَوُّدٌ بِهِ - صَدَقَةٌ :

« وَإِذَا أَمْرٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً - مِنْ جَاهِهِ - فَكَانَهَا مِنْ مَالِهِ ^(٣) »

لَعَلِّي أَتَى الْعَصَا بِذَرَاكَ ^(٤)، وَتَسْتَقِرُّ بِي النُّوَى فِي ظِلِّكَ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ
بِأَدْبِكَ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ حَظَّةٍ ^(٥)، وَلَا أَدْعُ
لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ، وَاللَّهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إِبْلَاقِي بِهَذِهِ الطَّلِبَةِ ^(٦)، وَإِشْكَائِي ^(٧)
مِنْ هَذِهِ الشُّكْوَى، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ
مُسْتَوْدِعٍ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ، وَذَلِكَ بِيَدِهِ وَهَيْئٌ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذْرُ هَذَا الثَّرِ، وَأَسْقَتْ دَرْرَهُ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلُوثِهِ،
وَجَرَ ذَيْلَ خَيْلَانِهِ، عَارِضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا، بَلْ كَأَيْدِهِ مُدَاهِيًا، حِينَ أَشْفَقَ
أَنْ يَسْتَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الطَّافُهُ ^(٨) : فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ ^(٩)
مِنْهُ، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ، فَزَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَمِيلَ، وَالْحَاطِرَ الْكَلِيلَ،
حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً، فِي أَثْوَابِهَا، مَنْصُوصَةٌ ^(١٠)، بِجِلْبِهَا وَمَلَابِهَا ^(١١) :

(١) سنيت : يسرت وسهلت .

(٢) أعذرت : طلبت العذر .

(٣) البيت لأبي تمام . (٤) ذراك : كنفك وظلك .

(٥) لحظه : نظره .

(٦) الطلبة : المطلوب . (٧) إشكائي : إزالة شكواي .

(٨) الطافه : خيره وبره .

(٩) العائدة : الجليل أو الصنيع .

(١٠) منصوصة : مرفوعة على النصبة ليلة الزفاف . (١١) الملاب : الزعفران .

الهُمَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمَنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ الذِّسِيمِ^(١)
 سَرَّانَا عَيْشُنَا الرَّقِيقِ الْخَوَاشِي لَوْ يَدُومُ الشَّرُورُ لِلْمَسْتَدِيمِ
 وَطَرُّهُ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زَمَنٌ، مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
 إِذْ خَتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغِ مِسْكُ وَعِزَّاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
 وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّبِّ وَة، نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ النِّعِيمِ
 طَالَمَا نَافَرَ الْهُمَوَى - مِنْهُ - غِرَّةٌ لَمْ يَطْلُ عَهْدُ جِيدِهِ بِالْتَّمِيمِ

* *

أَيُّهَا الْمُؤَذِّنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي لَيْسَ يَوْمِي بِوَأَجِدِ مِنْ ظُلُومِ
 قَمَرِ الْأَفْقِ - إِنْ تَأَمَّلْتَ - وَالشَّمْسُ هُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو - بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ - نَحْوَ الْعَظِيمِ

* *

بِوَأَ اللَّهِ «جَهْوَرًا» شَرَفَ السُّو دَدِ فِي السَّرْوِ وَاللَّبَابِ الصَّمِيمِ
 وَاحِدُهُ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْرُ، فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ
 قَلَدَ الْعَمْرِ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ، وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ، بِنَوْعِي خَلْقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ

* *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرِ: هَا أَنَا أَشْكُو، وَالْعَصَا بَدُو قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ
 مَا عَنَانَا أَنْ يَأْتِنَا السَّابِقُ الْمَرْ بَطًا فِي الْعَتِقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَبَقَاءِ الْحَسَامِ - فِي الْجَفْنِ - يَثْنِي مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

أَفْصَبْرُهُ مِثِينَ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ م؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ !
وَمُعَنَى - مِنْ الضَّيِّقِ - بِهِنَاتٍ نَكَاتٍ بِالْكُلُومِ قَرَحِ الْكُلُومِ
سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ، وَفِي الْعَا ئِدِ أَنْسُ يَنْفِي بِيْرُهُ السَّقِيمِ
نَارُ بَغِيٍّ، سَرَى - إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ - لَهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ -
بِأَبِي أَنْتَ - إِنْ تَشَاءُ - تَكُ بُرْدًا وَسَلَامًا، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ -
لِلشَّفِيعِ الشَّاهِدِ، وَالْحَمْدُ - فِي صَوْ بِ الْحَيَا - لِلرِّيَّاحِ ، لَا لِلْغَيْومِ
وَزَعِيمٌ بَانَ يُدَلَّلَ - لِي الصَّعْبَ - مَثَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ -
وَوِدَادٌ - يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ - وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ -
وَتَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّأ عِنَ عَنْ شَوْقِهِ ، وَهَوَّوِ الْمُقِيمِ
فَهَوَّوِ رِيْحَانَةَ الْجَلِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ -
لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًا - عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي - مُصِيخًا إِلَى أَعْتِدَارِ الْكَرِيمِ -
وَمَتَى تَبَدَّ الصَّنِيعَةَ يُورِنُكَ تَمَامَ الْخِصَالِ بِالتَّسْمِيمِ -
وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ وَبَلَاءٍ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ
لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النَّحُولُ لِثَلِي ، جَسَدِي مُبْتَلَى بِقَلْبِ مَشُومِ . »

* * *

هَا كَمَا - أَعْرَكَ اللَّهُ - يَسْطُهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا الْخَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ ،
وَحَرَمَةُ الْإِخْلَاصِ ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحَرَمَةِ ، وَأَشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ ، لِيَتَأَنَّى لَكَ
الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إلى المظفر^(١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفتس ،

صاحب بطليوس ، وضمها قصيدة أولها :

لييض الطلى ، ولسود الملم

بعقلى - مذ بن عنى - لم »

لَمَّا لَبَسَ الْحَاجِبُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - رِدَاءَ الْمَجْدِ مُعَلِّمًا ، وَحَمَلَ لَوَاءَ الْحَمْدِ

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرم الناس - كما يقولون - على جمع علوم الأدب ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ، وقد ألف كتاباً كبيراً - في الأدب - في عشرة أجزاء ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبد الله بن مسامة » المعروف بابن الأفتس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ - بعد فتنة بنى أمية بالأندلس - فلما مات أعقبه ابنه « أبو بكر المظفر » وعظم أمره ونبه شأنه ، وما زال بها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وخلفه عليها ابنه المتوكل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يفرجه بقتله - فيما يقولون - وكان للمتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وقد رثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة ، وهى :

« الدهر يفجع - بعد العين - بالأثر
 أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة
 فالدهر حرب - وإن أبدى مساملة -
 ولا هواده بين الرأس - تأخذه
 فلا تفرّتك - من دنياك - نومتها ،
 ما لليالى - أقال الله عثرتنا
 فى كلّ حين لها - فى كلّ جارة
 تسرّ بالشيء ، لكن كي تفر به
 كم دولة - قدمضت والنصر يخدمها -
 هوت بدارا ، وفلك غرب قاتله ،
 واسترجعت - من بنى ساسان - ما وهبت ،
 وأتبع أختها طيما ، وطاد على
 وما أقال ذوى الهبات - من عين -
 ومزقت سبأ - فى كلّ قاصية - ،
 وأنفذت فى كليب - حكماها ، ورمت
 فى البكاء على الأشباح والصور
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسود مثل البيض والسمر
 يد الضراب - وبين الصارم الذكر
 فى صناعة عينها سوى السهر
 من الليالى ، وخانتها يد النسير -
 مناب جراح ، وإن زاغت عن البصر
 كالإيم نار إلى الجاني من الزهر
 لم تبق منها ، وسلك ذكراك من خبر
 وكان عضباً - على الأملاك - ذا أثر
 ولم تدع - لبنى يونان - من أثر
 حاد وجرهم منها ناقض المرر
 ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
 فى التقي رايح منهمم بمتصكر
 مهلهلا بين سبع الأرض والبصر

مُملِنًا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ ، وَأَسْتَضَاءَ فَأَمْحُ ذِكْرِهِ ، وَشَهْرَتٌ مُحَاسِنُهُ عَلَى
كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ ،

ولم ترد - على الضليل - صحته
ودوخت آل ذبيات وإخوتهم
وألقت بعدى - بالعراق - على
وأهلكت «أبرويزا» بانه، وورمت
وبلغت «بزد جرد» الصين واختزلت
ولم ترد مواضى «رستم» وقنا
يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى
ومزقت «جعفراً» بالبيض، واختلست
وأشرقت بخبيب - فوق فارعة -
وخضبت شيب عثمان دما، وخطت
ومارعت - لأبي اليقظان - صحبه
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن،
وليتها - إذ فدت عمراً بخارجة -
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى «حسن»
فبعضنا قائل : « ما اغتاله أحد »
وأردت ابن زياد بالحسين ، فلم
وصمت - باظفي - فودى أبى أنس،
وأزلت مصعباً - من رأس شاهقة -
ولم تراقب مكان ابن الزبير ، ولا
وأعمت - في لطيم الجن - حيلتها ،
ولم تدع - لأبى الذباب - قاضيه ،
وأحرقت شلو «زيد» بعدما احترقت
وأظفرت بالوليد - بن اليزيد - ولم
« حيابة » حب رمات أتيح لها ،
ولم تعد قضب السفاح ثانية
وأسبلت دمة الروح الأمين على
وأشرقت جعفرأ - والفضل ينظره -
وأخفرت في الأمين - المهدي ، وانتدبت
وماوفت بعهود المستعين ، ولا
وأوتفت في - عراها - كل معتمد ،

ولا نمت أسدأ عن رها حجر
عبساً ، وغصت بنى بدر على النهر
يد ابنه أحر العينين والشعر
يزد جرد إلى « سرود » فلم يجر
عنه - سوى الفرس - جمع الترك والخزر
« ذى حاجب » عنه سعدأ في ابنة الغير
قليب بدر - بمن فيه - إلى سقر
- من غيلة - « حمزة » الظلام للجزر
وألصقت « طلحة » الفياض بالعفر
إلى الزبير ، ولم تستحى من عمر
ولم تزوده إلا الضيغ في التمر
وأمكنك - من حسين - راحق شمر
فدت علياً بمن شاءت من البشر
أت بمعضلة الأبواب والفكر
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر
يؤ بشمع له - قد طاح - أو ظفر
ولم ترد الردى عنه قنا « زفر »
كانت بها مهجة المختار في وزر
راعت عيادته بالبيت والحجر
واستوسقت لأبى الذبان ذى البخر
ليس الطيم لها « عمرو » بمنتصر
- عليه وجداً - قلوب الآي والسور
تبق الخلافة بين الكأس والوتر
و « أحمد » قطرته فحسة القطر
عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
دم بفتح لآل المصطفى هدر
والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
لجعفر بابنه والأعبد الفدر
بما تأكد للمعز من سرر
وأشرقت - بقذاها - كل مقتدر

وَأَسْبَغَ مِنْ نِعْمِهِ ، وَوَطَأَ - لِلْأَمَلِينَ - مِنْ أَكْنَافِهِ ، وَهَزَّ - إِلَى الرَّاعِبِينَ - مِنْ
أَعْطَافِهِ ، وَرَفَرَفَتْ أَجْنِحَةُ الْأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَأَهْتَزَّتْ جَوَاحِجُ الْأَمَالِ إِلَيْهِ ،

وروعت كل مأمون ومؤتمن ، وأسلمت كل منصور ومنتصر
وأعترت آل عباد - لعالمهم - بذيل زباء لم تنفر من الذعر



بني المظفر - والأيام ما برحت
سحقا ليومكم يوماً ، ولا حلت
من للأسرة ؟ أو من للأعنة ؟ أو
من للظي ؟ وعوالى الخط قد عقدت
وطوّقت - بالمنايا السود - بيضهم
من للبراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو
أو دفع كارثة ؟ أو ردع آزفة ؟
ويح السباح ويح الباس - لو سلمنا -
سعت ثرى الفضل والعباس هامية
ثلاثة ما رأى العصرات مثلهم
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا
ثلاثة كذوات الدهر - منذ نأوا
ومر - من كل شيء - فيه أطيبه
أين الجلال الذى غضت مهابته
أين الإباء الذى أرسوا قواعده
أين الوفاء الذى أصغفوا اثرائه
كانوا رواسى أرض الله - منذ نأوا
كانوا مصايحها ، فذخبوا عثرت
كانوا شجى الدهر ، فاستهوتهم خدع
ويل امه من طلوب الثأر مدركه
من لى - ولا من بهم - إن أظلمت نوب
من لى ومن بهم إن عظمت سنين
من لى ومن بهم إن طبقت محن
على الفضائل - إلا الصبر - بعدهم
يرجو عسى ، وله - فى أختها - أمل
قرطت آذات من فيها بفاضة
مراحلا - والورى منها على سفر
بمثله - ليلة فى مقبل العمر
من للأسنة ؟ يهديها إلى الثغر
أطراف ألسنها - بالى والحصر
فأعجب بذاك ، وما منها سوى الذكر
من للسباحة ؟ أو لنفع والضرر ؟
أو وقع حادثة تعي على القدر ؟
وحسرة الدين والدنيا على عمر
تعزى إليهم - سماحا - لا إلى المطر
فضلا - ولو عززا بالشمس والقمر
وكل ما طار - من نسر - ولم يطر
عنى - مضى الدهر لم يربح ولم يخسر
حتى التمتع بالأصاال والبكر
قلوبنا وعبوت الأنجم الزهر ؟
على دعام من عزّ ومن ظفر
فلم يرد أحد منها على كدر
عنها - استطارت بمن فيها ولم تقر
هذى الخليقة - يا الله - فى صدر
منه بأحلام تاد فى خطي الحضر
منهم بأسد سراة فى الوشى صدر
ولم يكن ليها يفضى إلى صدر ؟
وأخفت ألسن الآثار والسير ؟
ولم يكن وردها يفضى إلى صدر ؟
سلام مرتقب للأجر منتظر
والدهر ذو عقب شتى وذو غير
على الحسان حصى الباقوت والدرر .

وَكَثُرَ التَّعَايُرُ عَلَى تَفِيؤِ ظِلِّهِ ، وَالتَّنَادُسُ فِي الإِعْتِلَاقِ بِجَبَلِهِ ، وَكُلُّهُ اسْتَفْرَعُ جَهْدَهُ ، وَتَرَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا غَرَوَّ أَنْ يُسْتَمَطَرَ النِّعَامُ ، وَيَكْثُرَ فِي الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ - الزَّحَامُ ^(١) .

وَمَا زِلْتُ - أَبَى اللهُ الْحَاجِبَ - أَتَلَقَى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ سَمْعِي بِمَآئِرِهِ الْمَآثُورَةِ ، مَا هُوَ أُنْدَى مِنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنْ اخْتِلَاسِ الْقَبْلِ ، وَأَغْضُ مِنْ جَنَى الزَّهْرِ ، وَمَاهُوَ الطَّفُّ مِنْ نَسِيمِ السَّحْرِ ، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمُودَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحِطِّهِ مِنَ الإِعْتِلَاقِ وَالْمَمَازَجَةِ ، وَتَنَزَّطَتْ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ البُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَأُمْتِدَادِ التَّأْنِي الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْحَيِيَّةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحًا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ الْأَمْنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ « أَبُو فُلَّانٍ » إِلَى مُحَاظَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّنَاقُلِ - عَنِ مُدَاخَلَتِهِ - مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِي فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذُخْرِ نُوفَسٍ فِيهِ ، فَطَرِبْتُ - إِلَى ذَلِكَ - كَمَا طَرِبَ النِّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ ، وَأَهْتَرَزْتُ كَمَا أَهْتَرَزَ - تَحْتَ الْبَارِحِ ^(٢) - الْغُضْنُ الرُّطْبُ ، وَرَأَيْتُ شُكْرَ يَدِ الْعَلِيَاءِ فِيمَا حَتَّنِي إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حَلِيَّةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرَمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ اسْتَفْتَحَ بَابَ الْمُكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُخَاطَبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ - بَعْدَ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ - مَا اسْتَقْصَرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي

(١) يشير إلى المثل المشهور : « المورد العذب كثير الزحام » .

(٢) ربح بارح - ربح شديدة .

خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِي ، وَبَعْدَ الْاِقْتِصَارِ بَغِيَّةَ كِتَابِي ، دُونَ
 أَنْ أَرْمَ إِيَّهِ رِكَابِي ، وَهُوَ فَتَى نَامَ جَدُّهُ ، وَأُسْتَيْقِظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الرَّيْمَانُ لَهُ ،
 وَأَعْتَرَتْ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذُنَابِ سَعَايَةِ عَوْتِ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وِشَايَةِ دَبَّتْ
 إِلَيْهِ ، وَأُصْلِي بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ
 عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَمْلَقِ تَمَائِهِ ، عَلَى ضَيْقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ،
 وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وِلَاءَهُ ، وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَنَاءَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ
 يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ - أَدَامَ اللَّهُ إِعْزَازَهُ -
 وَوَلِيَ بِأَعْدَانِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْفُشُومَ ، وَأَمَلِي بِأَنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظُّلُومَ ، بِإِلْبَاسِهِ
 مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرَى مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاهُ مَا حُلِيَ عَنْهُ ،
 وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفُقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى
 نَسِيمَ حَيَاةِ الْإِمْنَةِ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلَّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ،
 مُسْتَجْزِلَ شُكْرٍ مِنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَأُسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ،
 وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ ، وَاللَّهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .
 وَمَا أَطْرَدَ هَذَا النَّثْرُ بِحُسْنِ اتِّسَافِهِ ، وَلَدِيدِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النَّظْمَ أَرْجِيحِيَّةً
 جَذِبَ لَهَا بَعْنَانِهِ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِي مِيدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِإِلْقَائِهِ
 الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَتَسْبِيدَ بَأْسِ تَمَلُّحِ غَرَّتِهِ ، وَتُخْدَمَ بِالْحُضُورِ حَضْرَتُهُ ،
 فَأَبْتَتْ مِنْهُ مَا إِنْ أُنْعِمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ الَّذِي يَعْرِضُ فِيهِ ،
 وَالْحَلَلِ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةَ بِمِثْلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةَ بِشَكْلِهَا .
 لِبَيْضِ الطَّلِيِّ وَلِسُودِ اللَّمَمِ بِعَقْلِي - مُذْنِبٍ عَنِّي - لَمَمٌ ^(١)

فَفِي نَاطِرِي - عَنِ رَشَادِي - عَمِي ،
 وَفِي أُذُنِي - عَنِ مَلَامِي - صَمَمِ (١)
 قَضَتْ بِشِمَاسِي - عَلَى الْعَازِلِينَ -
 شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمِ
 فَمَا سَقَمَتِ لِحَظَاتِ الْعِيُو
 نِ إِلَّا لِتُعْرِينِي بِالسَّقَمِ
 يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ
 وَقَدْ مَزَجَ الشُّوقُ دَمْعِي بِدَمِ
 وَمَا ذُو التَّدَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ
 وَلَا كَرُمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُدَمُّ

✱

وَإِنِّي أَرَأِحُ إِذَا مَا الْجَنُودِ
 وَأَصْبُو لِعِرْفَانٍ عَرَفِ الصَّبَا
 وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوُ « الْبُرُودِ
 وَأَمَّا وَزَمَانِي - مَضَى عَهْدُهُ
 قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ أَنْقَضَى
 لِيَالِي نَامَتِ عِيُونُ الْوُشَا
 وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهُوَيِ
 وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ
 كَانَ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْمَاسِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرْنَدَ الْكَرَمِ
 وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى أَنْصَرَمَ
 عِنَّا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنْمَ
 فَأُجِنَّتْ ثَمَارُ الْمُنَى مِنْ أُمَّمِ
 رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ
 بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرٍ تِلْكَ الشِّيمِ
 شَمَارِيحَ كُلِّ مُنِيفِ أَشَمِّ
 حَوَى الْخِصْلَ أَوْ سَاهَمْتَهُ سَهْمِ
 وَأَثْبَتَهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمِ
 وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَلِكَ الزَّمَانِ
 هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعَلَا
 مَلِيكَ - إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ -
 فَاطَوْ لَهُمْ - بِالْأَيَادِي - يَدَا ،

(١) قال ابن هاني الأندلسي :

« وفي بصري - عن سواكم - عَمِي ، وفي أذني - عن سواكم - صَمَمِ . »

*
* *

وَأَرْوَعَ ، لَمْ تُعْتَنِي رِفْدِهِ	يَحْيِبُ ، وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ
ذُلُّ الدَّمَائَةِ صَعْبُ الإِبَاءِ	ثَقِيفُ العَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ
سَمَا لِلْمَجْرَةِ - فِي أَفْقِهَا -	فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الهِمَمِ
وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرُ النُّجُومِ	وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطْفَ الدَّيَمِ
نَهِيكَ - إِذَا جَنَّ لَيْلُ العَجَاجِ -	سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تَمِّمِ
فَشَامَ الشُّيُوفَ بِهَامِ الكِمَامَةِ	وَرَوَى القَنَا فِي نُحُورِ البُهَمِ
جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافِ العُقَاةِ	وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى المُسْتَلَمِ
يَهِيجُ النَّزَالَ بِهِ وَالسُّوَا	لُ لَيْشًا هَصُورًا وَبِحُرًّا خِضَمِ
شَهْدَانَا ، لِأَوْتَى فَصَلِ الخِطَابِ	وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكْمِ
وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ المَكْرُمَاتِ	جَرَى انْسِيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمِ

*
* *

وَمُسْتَحْمَدٍ بِكِرِيمِ الفَعَا	لِ - عَفْوًا - إِذَا مَا اللَّيْمُ اسْتَدَمَ
شَمَائِلُ يُهَجَّرُ عَنْهَا الشُّمُولُ	وَتَجْنِي لَهَا مُشْجِيَاتُ النِّعَمِ
عَلَى الرُّوضِ مِنْهَا رُؤَاةٌ يَرُوقُ	وَفِي المِسْكِ طِيبٌ أَرِيحُ يُشَمُّ

*
* *

أَبُوهُ الدِّي فَلَ غَرْبِ الضَّلَالِ	وَلَاءَمَ شَعْبَ الهُدَى فَالْتَأَمَ
وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعْصِمًا	بِذِمَّةِ أبلِجِ وَافِي الدَّمَمِ
وَجَاهَدَ - فِي اللَّهِ - حَقَّ الجِهَامِ	دِ مَنْ دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّمَمِ

فَلَا سَأَى الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ حِمِيرٍ - مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمِ
هُمْ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى أُسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمَ
نُجُومُ هُدَى - وَالْمَعَالِي بُرُوجٌ - وَأَسْدٌ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمٌ

* *
* *

« أبا بكرٍ » أَسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ ، وَلَا زِلْتَ - مِنْ رَيْنِهَا - فِي حَرَمٍ
أَنَا دِيكَ - عَنِ مِقَّةٍ - عَهْدَهَا كَمَا وَشَتِ الرَّوْضَ أَيْدِي الرَّهْمِ
وَإِنْ يَعْدُنِي عَنْكَ شَحَطُ النَّوَى فَحَظِي أَحْسَنَ وَنَفْسِي ظَلَمَ
وَإِنِّي لِأَصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأَخْفِي - لِيُعْدِكَ - بَرَحَ الْأَلَمِ
وَعَزِيرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذَّمَامِ إِذَا حُسْنٌ ظَنَنِي عَلَيْهِ أَدَمَ

* *
* *

وَمُسْتَشْفِعِ بِنِي ، بِشَرَّتَهُ - عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْإِثْمِ
وَقَدِمًا أَقَلْتَ الْمُسِيءَ الْعِثَارَ وَأَحْسَنْتَ - بِالصَّفْحِ - عَمَّا جَرَمَ
وَعِنْدِي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقَ فِيهَا اللَّالِي الثُّومِ
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ
فَعِشْ مَعْصَمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ وَدُمْ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النَّعَمِ
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ ، وَاللِّيَالِي خَدَمٌ

*
* *

هَذَا أَعَزَّ اللَّهُ الْحَاجِبَ مَا اقْتَصَصْتُهُ الْقَرِيحَةَ مَعَ اقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْهَا بِهِ
الْبُدِيهَةَ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذَّهْنَ ^(١) عَلِيلٌ ، وَالطَّبِيعَ كَلِيلٌ ، وَالرَّوِيَّةَ فَاسِدَةً ،
وَسُوقُ الْأَدَبِ - إِلَّا عِنْدَهُ - كَاسِدَةٌ ، وَلَوْ أَنِّي أُوتَيْتُ - فِي النَّثْرِ - غَزَارَةَ عَمْرٍو ،
وَبِرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ ، وَأَمْدَدْتُ - فِي النَّظْمِ - بِنَظْمِ الْبُحْثَرِيِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِي ^(٢)
لَمَا رَدَدْتُ - إِلَى الْحَاجِبِ - إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلَا أُرَدِّدُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَا صَدَرَ عَنْهُ ،
وَلَا أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلَّا بَيْنَ أَمَلٍ يَبْسُطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأَيْتُهُ مُوَفَّقٌ فِي
أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ اسْتِعَافًا ، وَمَا أُوجِبَ الْخَجَلُ إِغْضَاءً ، لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانَ مِنْ
جِهَاتِهِ ، وَيَسْئَلَ - إِلَى الْفَضْلِ - طُرُقَاتِهِ . وَمُرَّاجَعْتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدِ كَرِيمٍ يَكُونُ
كُحْلًا لِعَيْنِ الرَّضَا بَوْحِيَّةِ الْقَوْلِ ، أَقْفُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَأَنْتِظَامِ
الْأَحْوَالِ - بِالصَّلَاحِ لَدَيْهِ - عَلَى مَا تَبْتَهِّجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ أُنْسِي ،
يَدُّ عِنْدِي جَنَاحًا شَهْدٌ ، وَشَدَاهَا عُنْبَرٌ وَوَرْدٌ ، وَرِدَاؤُهَا الشُّكْرُ الْجَزِيلُ ،
وَأُتْبِعُهَا النَّتَاءَ الْجَمِيلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَلِيُبَلِّغَنَّ مِنِّي سَلَامًا يَهْدِي إِلَيْهِ نَدَاهُ ^(٣) ، وَتَحِيَّةً أَوْهَا عِنْدِي وَآخِرُهَا عِنْدَهُ .

(١) وفي الأصل : « والدهر » .

(٢) يعني أبا تمام .

(٣) الند (بالفتح) وبكسر : الطيب أو العنبر ، وفي الأصل : « يهدي إليه نداء » .

إلى ابن مسleme

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسleme باشبيلية

قبل تحوله إليها : »

يَا سَيِّدِي وَأَرْفَعُ عُدَدِي ، وَأَوَّلُ الذَّخَائِرِ فِي عَدَدِي ، وَأَخْطَرَ عِلْقِي مَلَأْتُ مِنْ
اِقْتِنَائِهِ يَدِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عَيْشَةٍ بَارِدَةٍ الظَّلَالِ ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الأَذْيَالِ ،
قَدْ تَقَاصَرَ الشَّهَادَةُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الحَدِيثُ الحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الأَمَانَةِ ،
وَكَنتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الوَطَنِ ، وَثَبَاتِ الطَّوْبَةِ ، وَاللَّهُ يُمَتِّعُكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنْ
الخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فِي عِلْمِكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - مَا تَقْتَضِيهِ العُطْلَةُ مِنْ إِظْلَامِ الخَاطِرِ ، وَصَدَأِ النَّفْسِ ،
وَيَجْنِيهِ طَوْلُ المَقَامِ مِنْ إِخْلَاقِ الدِّيَابِجَةِ وَإِرْخَاصِ القَدْرِ ، وَقَدْ آتَى أَنْ أُجْتَنِيَ
ثَمَرَةٌ مِنْ آدَابِ أَطْلُتِ الإِعْتِنَاءُ بِهَا ، وَأَخْلَاقِ أَدَمْتُ رِيَاضَةُ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَمَا
مَحْضَتْ المُلُوكُ وَجَدَتْ عِبْرَهُمُ النَّبِيُّ أُنْسِي ^(١) السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ ،
وَأَتَعَبَ الغَابِرَ بَعْدَهُ ، الحَاجِبَ فَخَرَ الدَّوْلَةَ مَوْلَايَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَكَتَبْتَ
أَعْدَاءَهُ ، مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ سِنِّي الهِمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيمِ ، وَأَنْتِظَامِ أَسْبَابِ
الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَأُجْتِمَاعِ المَنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ عَنِ النُّظَرَاءِ ،
وَأَعْلَمْتَهُ عَنِ مَرَاتِبِ الأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَحْتَمِلَ لِغَيْرِهِ نِعْمَةً ، أَوْ أُوسِمَ
مِنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ - أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرِضَ مَنْ لَا يَوْمَ مَلْهَا
- لِإِجَارَتِهِ - إِلَّا بِالأَسْتِجَارَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا - فِي قَبُولِهِ - إِلَّا بِالمُسَاحَةِ ، فَلَوْ
كُنْتُ الوَلِيدَ بَنَ عُبَيْدِ بَرَاعَةَ نَظَمَ ، وَجَعْفَرَ بَنَ يَحْيَى بِلَاغَةَ شَرِّ ، وَإِبْرَاهِيمَ

أَبْنُ مَهْدِيٍّ طَيْبٌ مُجَالَسَةٌ ، وَإِمْتَاعٌ مُشَاهِدَةٌ ، ثُمَّ حَضَرَتْ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ الْإِفِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتِ غَمْرَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرَسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وِلَايَةِ أَخْلِصِهَا وَنَصِيحَةِ أَمْحُضِهَا ، وَشُكْرِ أُجْنِيهِ الْغَضِّ مِنْ زَهْرَاتِهِ ، وَنَنَاةِ أَهْدِي إِلَيْهِ الْعَطْرِ مِنْ نَفْحَاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللَّهُ مِنَ الْمَوْهَبَةِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفٌ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَمٌ سَجِيَّتِكَ ، وَصِحَّةٌ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا أُسْتِجَابِي ، وَلَا أُسْتَدْعَاهَا بِمِثْلِ أَسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلْفِ ، وَالْإِتِمَاءِ إِلَى أُسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتْ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحِظْ أَقْبَلَ ، وَعَبْدُ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَّلَ .

وَلَمْ أَقُلْ - عَمْرُكَ اللَّهُ - كَمَا قِيلَ فِي النُّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حَرِّ مَانُ عَادَتُهُ أَنْ يُعَوَّقَ عَنِ الظَّفْرِ ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأَعْلَمُهُ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - أُنِّي فِي حَالِي الْعُطْلَةَ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفَ - وَيَوْمِي الْإِنْقِطَاعَ وَالتَّصَوُّفَ ^(١) ، كَأَمَّهُتْدِي بِالنُّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاؤُهُ ، وَمَتَيْمَهُ الصَّعِيدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ أَرْزَهُمْ فَكَأَلَوْحَشٍ يُدْنِيهِ مِنَ الْأَنْسِ الْمَحَلُّ وَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمْرِهِ ، وَالْإِعْلَاءَ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَفْدَارَ مَعَ إِيْثَارِهِ ، وَيَصْرِفُ وُجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ - يَا سَيِّدِي - فِي أُتْدَابِكَ مَا أُتْدَبْتُكَ لَهُ مَا لِلْسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلَاكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَاسْكُنْ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابِ فَأَعْتَمِدْ عَلَيْهِ ، وَأَهْدِي إِلَيْكَ نَدَى الْغَضِّ النَّاضِرِ مِنْ سَلَاحِي ، وَالْأَرَجِ الْعَاطِرِ مِنْ تَحِيَّتِي .

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : »

أطالَ اللهُ بقاءَ الحَاجِبِ فخرِ الدَّولةِ - مَوْلَى وَسَيِّدِي وَمَوْلَى المَنَابِ
الجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ - فِي أَكْمَلِ مَا تَكْفَلُ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ ،
وَنَفَازِ الأَمْرِ ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرِّ بَالًا ، وَأَبْرَدِهَا ظِلَالًا ، وَأَحْمَدِهَا مَالًا .
كُنْتُ - أَعَزَّ اللهُ الحَاجِبَ - مَوْلَى قَدْ كَتَبْتُ إِلى الوَزِيرِ أَبِي عَامِرِ
عَبْدِهِ بِمَا أَيَقُنْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِليهِ ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، فَكَتَبَ الوَزِيرُ إِلى بَعْضِ
أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ المُرَاجَعَةِ لِي بِمَا يَرْتَفِعُ عَن قَدْرِي ، وَلَا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةٌ
شُكْرِي ، لِعِلْمِي أَنَّهُ مِنَ الحَاجِبِ - أَيَّدَهُ اللهُ - صَدَرَ ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ ^(١) نَفَذَ ،
وَالَّذِي عَدَانِي عَن أَن يَكُونَ الكِتَابُ فِي ذَلِكَ إِلى الحَاجِبِ - أَبْقَاهُ اللهُ -
التَّأْدِبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ العَبِيدِ فِي الإِجْلَالِ وَالإِعْظَامِ ، وَتَرَكَ التَّبَسُّطَ وَالإِفْذَامَ ،
وَقَلَمًا أُسْتَعْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الأَنْبَاعِ لِخِصْرَةِ المُلُوكِ عَن وَسَائِطِ تَهْمَدُهَا
وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتِ الإِمْكَانِ بِهَا ، لِأَنِّي مَا أَخَذْتُ إِلى الحَاجِبِ - أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ -
غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعةً ، أَوْ التَّمَسُّتُ إِليهِ إِلاَّ مِنْ نَفَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ، وَأَيُّ
مَعْدَى لِشَلِي عَن تَفْيُوقِ ظِلَالِهِ ، وَالإِعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ . وَصِنَاعَةَ الآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلاَّ
عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلاَّ إِليهِ ، وَلَا يَدْعُنِي إِلى أُسْتِطْلَاعِ مَا قَبْلَهُ
شَكٌّ فِي كَرَمِهِ ، وَلَا سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شَيْمِهِ ، بَلْ لُزُومُ الطَّرِيقَةِ فِي التَّوَطُّطَةِ
لِلْمَطْلَبِ ، وَالتَّدرُّجِ إِلى إِحْرَازِ الآدَبِ ، وَحَسْبِي أَنَّ أَمَلِي قَدْ أُرْتَادَ الجَنَابَ

الرَّحْبَ ، وَالْمَشْرَبَ الْعَذْبَ ، وَلَعَلَّ الْحُطُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَابِ سَتُصْرَفُ ،
إِلَى أَنْ أَبْعَدَ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مُشَاهِدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلِيَاءِ ، وَالنَّظَرَ إِلَى
غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللَّهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِي ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِي ، إِلَّا
فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشُّوقِ إِلَيْهِ ، وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أَقْدَمُ الْأَعْتِدَارَ مِنْ
مَهَابَةِ تَمَلُّكُ جَنَانِي ، وَحَصْرِ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْمُشَافَهَةِ لِسَانِي ، فَإِنْ
حَدَّثَ ذَلِكَ فَعُدْرِي عُدْرُ^(١) الْفَضْلِ بْنِ سَهْلِ وَقَدْ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ،
فَقَالَ: « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمَلِّكَ قَلْبَهُ هَيْبَةُ سَيِّدِهِ .

وَسَيُفْضِي - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - إِلَى مَا يَسْتَحْزِيهِ الْحَاجِبُ مَوْلَايَ مِنْ إِمْتَاعٍ مَنْ
شَاهَدَ ، وَيَسْتَطِرُّهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ،
كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَاصِلٌ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاةِ مَجْبَرٍ ،
وَرَفْعَةِ شَأْنٍ ، وَعِظَمِ سُلْطَانٍ ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تَهَيَّبِي لِي مِنَ الْحُظِّ مَا أَثْبَتُ بِهِ
مَا أَدْعِيئُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ
الْعِدَاتِ ، فَحَوُلُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، زَادَ اللَّهُ
الْحَاجِبَ مَوْلَايَ مِنْ سِنِّي قِسْمِهِ ، وَهَنِي نِعْمِهِ ، وَبَلَّغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة

رسالة يقول فيها : »

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ لِلنِّعَمِ يُطَوِّقُهَا ، وَالْأَمَالَ يُصْرَفُهَا^(٢) ، وَالْمِنْنَ يُقَلِّدُهَا
وَالْأَحْرَارَ يَسْتَعْبِدُهَا .

(١) في الأصل : « فعذري عند الفضل . »

(٢) وفي نسخة الذخيرة المنقولة عن النسخة المنقولة عن النسخة المنقولة : « يصدقها »

يَعْلَمُ الَّذِي أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلَايَ وَإِعْلَاءَ أَمْرِهِ ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ ، وَتَمَكِينَ
نَصْرِهِ ، أَنِّي - لَمْ أَزَلْ مِنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ حَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَمَحَلِّ
الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ - لَهَجَ اللِّسَانِ بِمَا حَبَانِي مِنْ ثَمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَأَفَادَنِي
مِنْ عَقْدِ الْآدَبِ وَالنَّسَبِ ، فَمِنْ كَبِدِ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفَاسٍ مُنَافِسٍ
تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ الْبَالِ أَكْسَفَتْ بِأَلْهِ ، وَمُتَمِّنٍ لِحَالِي طَامًا تَمَيَّنْتُ حَالَهُ ، وَقَلَمًا
أَنَالَ أُذُنِي مَكَانَةً مِنْهُ ، وَأَرْزَقِي أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الْخُصُوصِ بِهِ ، تَحْسُدُهُ
الْكُوكِبُ فِي إِشْرَاقِهَا ، وَتَنْحَسِدُ إِلَيْهِ الْأَمَانِي مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِعَبِيدِهِ الَّذِينَ
أَنَا آخِرُهُمْ فِي الْخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هَمِّهِمْ مَا
أُنْحَفِضُ ، وَيَسْطُ مِنْ أَمَالِهِمْ مَا أَنْقَبِضُ ، وَلَا يُعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبُ فِي نِعْمَتِهِ ،
وَالْإِعْتِلَاقُ بِأَسْبَابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ مَوْلَايَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -
إِشَارَةٌ بَلَّ عِبَارَةٌ أُعَدِّدُهَا طَلِيعَةً لِسُعُودٍ تَتَوَافَى طَلْقًا ، وَمُقَدِّمَاتٍ لِمَسْرَاتٍ
تَتَوَالِي نَسَقًا ، فَلَمَّا لَحِقَ الْجَسْمُ بَعْدَ تَرْكِهِ النَّفْسَ لَدَيْهِ ، وَالْبِرَاءَةَ مِنْهَا إِلَيْهِ ،
بِالْوَطَنِ الَّذِي أَسْلَانِي عَنْهُ ، وَأَسْنَى لِي الْعَوْضَ مِنْهُ ، تَأْتَيْتُ مِنْ طَاعَتِهِ
الْمُقْتَرِنَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي نَفْسِي مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهْتَمٌّ بِهِ مُنَافِسٌ فِيهِ ، فَسَاعَفْتِ
الْمَارِبُ ، وَأَسْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ يَرِ بَنِي تَعَذُّرُ وَجْهِ حَاوِلَتُهُ ، وَلَا عَدَانِي تَيْسُرُ
أَمْرُ تَنَاوَلَتُهُ ، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الْأَعْتِدَارَ إِلَّا مَا يَتَرَاخَى مَا يُعَاوَدُ
أَمْرُهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِي الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لِأَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ عَهْدِهِ ، وَلِأَنَّ
الْمِعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ ، بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدَلَّ بِتَرْكِ الْمُسَاوَرَةِ ، أَوْ أُخِلَّ بِرِسْمِ
الْمُؤَامَرَةِ ، فَلَمَوْلَايَ الطَّوْلُ فِي أَمْرِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَهُ بِمُرَاجَعَةِ اعْتِمَادِ عَلَيْهَا ، وَأَجْتَهَدُ
فِي الْإِنْتِهَاءِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ يُبَلِّغُنِي الْأَمَالَ مِنْ وَفْقَةِ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظْرَةِ إِلَى غُرَّتِهِ ،
وَتَقْيِيلِ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفِ فِي سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، الْقَادِرُ عَلَيْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها
ولم يذكر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر
بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن
معانيها ، واستفادة من سني أدبه فيها ، وهي (١) : »

يَا سَيِّدِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدْدِي ، وَأَخَصَّ جُنِّي ، مِنْ زَمَنِي ، وَمَنْ
أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الْأَمَالِ .

أَبْدِي جَرَى كِتَابِي إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْخَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ بِمَا
بَلَّغَنِي أَنَّكَ صَدَقَ اللَّامَانِ بِي عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهِانِ الرَّأْيَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ
وَيْلُ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَاقَى الدَّبْرُ .

وَأَوْسَطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ انفِصَالِكَ عَنِّي ، وَبِرَاءَتِكَ مِنْ آكِدِ الْمِحْنَةِ
مَنِّي ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ مِنْ مُشَارَكَتِي فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ
نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ فِي مُظَاهَرَتِكَ لِي عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ،
وَتَذَلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيْبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ
وَمَا ذَاكَ بُخْلًا مِنِّي لِبُخْلِي عَلَيْكَ بِالْإِعْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِي (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي)
غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْقَدَى (٢) وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ (٣) ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ :
يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الْآخَرُ :

(١) ابن بسام . (٢) جملة «وليس من حق عيني» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق
يقتضيا ، وهو يشير إلى قول ابن الرومي :

« أنت عيني ، وليس من حق عيني فض أجفانها على الأفناء . »

(٣) المعاتبية : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذي عليه الشعر ، أي إنما يعاد إلى الدباغ من الأديم
ماسمت بشرته ، وهو مثل يضرب في إمكان المراجعة والاستعتاب ، وفي الأصل «وإنما يعاتب الأديم على البشرة . »

أَبْلَغُ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغْلَغَلَةً وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامٍ
وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالدَّاعِي إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ
تَتَلَفَى عَوْدًا ، مَا ضَيَّعَتْ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِرًا ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلًا ، فَيَعُودَ عَيْثُ
مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي ذَلِكَ : « كَدَابِغَةٌ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ » ^(١) فَفَنَعْتَهُ
الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبِعَهُ اتِّبَاعًا
فِي عِلْمِكَ أَنَّ سُجْنَتُ مُغَالَبَةٍ بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنِ
اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلِّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »
دُونَ تَأَنٍّ تُدْرِكُ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوْ اسْتِثْبَاتٍ تُؤَمِّنُ مُوَاقَعَةَ الزَّلَلِ مَعَهُ ،
بَلْ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَّارِ الْعَارِي عَنِ الثَّقَةِ
وَالْأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرَّعِيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لِأَذْيَانِهِ طَمَعًا ، الْآكِلُ
بِيَدَيْهِ جَسَمًا ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامٌ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ الْحَقَّ
بِالشُّهُودِ ، وَهُوَ وَאוُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَتَوْنُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ
بِحَزْمَةِ ذِي الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُنُوبَ مُنْفَرِدًا عَنِ اثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ مِاسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ . »

(١) يضرب للأمر الذي انتهى فسادُه ، وذلك أن الجلد إذا حلم أي فسد لإهابه ووقع فيه دود فنقب
لم يرج له لإصلاح ، وبرى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :
« فإنك والكتاب إلى علي كدابغة وقد حلم الأديم . »

وَلَيْتَنِي مَعَ مَنْ لَا يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذِرُ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنِ الْحَشْفُ
 مَعَ سُوءِ الْكَيْلَةِ ، وَيَسْتَضِيفُ لِي الْغُدَّةَ إِلَى الْمَوْتِ فِي بَيْتِ سَلْوِيَّةَ ، خُطَّتَا
 خَسِيفٌ لَمْ أَرَ النِّجَاءَ مِنْهُمَا إِلَّا أَنْ رَكِبْتُ الْحَوِيَّ الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَّاسَانَ
 مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَفَّى سَجِنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْقَاذِهِ ، لَهُ
 مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فَقْهَاءُ الْحَضْرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيَاهُمُ ، وَجَرَى فِي غَشِيَانِ الْحُكَّامِ
 مَجْرَاهُمُ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْمُغِيبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلَايَ - كَانَ - نَقَعَ
 اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَ ثَرَاهُ ، وَثَبَّتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهَمَمُ ، وَلَا
 تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظَّنُّ ، فَكَلَّمُهُمْ أَقْبَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ،
 ثُمَّ سَجَنِي أَنْ لَمْ آتِ بِمُدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعَ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ،
 وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالِحِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النَّصْفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ،
 وَتَقْدِيمِ الصَّلْحِ ، وَالصَّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ^(١) ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ
 الْمُتَوَفَّى قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرْيَحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ
 جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِي تُؤْتِي بَعْدَ هَذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِي
 فِي عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ يَدَيْهَا ، وَمُحَقَّرَاتِ عَيْنَيْهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى
 نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلَهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَحَالَ أَنْ يُخَلَّفَ عَهْدًا ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ،
 وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَبْتَدَأْتُهُ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ
 تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

(١) جاء في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . » وفي الأصل : « والسجين جائز بين المسلمين »

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . لَوْجَبَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لَقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَأَيْدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، صَوَابًا يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأًا يُشَارِكُ فِي مَذْمَتِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاظَةً مَكَانُ الْخَوَافِ عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ ^(١) . »
 قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لَا يَسُوغُ دَفْعِي عَنْهُ ، وَلَا يَجُوزُ مَنَعِي مِنْهُ ^(٢) ، فَحِينَئِذٍ عَلَّلَنِي بِمَوَاعِيدٍ : كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ، إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عِلْمًا بَدَأَ عِلْمٌ ، وَكَانَ آخِرَهَا - الَّذِي نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ - أَنْ تُدْرَجَ الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرْتَةِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هَذَا الْحَيْنَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِي بُطُونِ الْحَامِلَاتِ رَجَاءً .

« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةً مُمَحِلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ أُسْتَهَلَّتِ »

وفى فصل منها :

وَلَمْ أَقْصَ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي مِمَّا أَجْلَبْتُهُ إِلَّا مَا شَهَرَ شُهْرَةَ الْأَسْمِ ،
 وَعَرَفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسِرِّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِي قَدْ
 وُضِعْتُ مِنَ السَّجْنِ فِي مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْتُورِي النَّاسِ ،
 وَذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِي الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَمُنِيتُ - مِنْ مُطَالَبَةٍ بَعْضِ مَا يَهْتَمُّ النَّاطِرُونَ فِي السَّجْنِ لَهُ وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ - بِمَا
 أَقْتَضَى نَقْلِي إِلَى حَيْثُ الْجَنَاحَةُ الْمَفْسِدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقِيدُونَ ، وَشَكَّوْتُ
 ذَلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَابِسِ لِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدٍ مَنْ تَقَدَّمَ

(١) البيت لبشار بن برد . (٢) في الأصل : « ونبه على الذي دعوته إليه ، لا يسوغ لي دفعه

عنه ، ولا يجوز معنى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصَفُهُ ، فَأَتَقَى مِنَ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الْأَمْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمَوْكَلِّ
بِالسَّجْنِ فِي اخْتِيَارِ مَجْلِسِ أَبِيهِ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيْقُ بِي مُلَابَسَتُهُ ، وَأَنْتَبَذَ عَمَّنْ
لَا تُرْضَى لِي مَجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْدِيهِ ،
عَلَى أُمَّتَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَأَنْتَهَاهُ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَأُسْتَأْنَفَ الْعَهْدَ فِي
التَّضْيِيقِ عَلَيَّ ، وَمَنْعَ مَنْ أَعْتَادَ صِلَتِي مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، فَأَصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ
فِي السَّجْنِ أَقْنَعَنِي بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِي عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالْكَوْنِ فِيهَا
- عَلَى مَضَاصَتِهَا - أَنْفِرَادِي مِنَ لَقِيْفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ صَمَّهَ السَّجْنَ مِنَ السَّفَلَةِ
وَالسَّقَاطِ ، فَحِينَ أُسْتَوَائِي إِلَيْهَا عَهْدَ بِحَطِّي إِلَيْهِمْ ، وَخَلَطِي بِهِمْ ، وَوَضَعِي
يَنْتَهُمْ ، فَتَقَلْتُ وَدَخَلْتُ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَ إِلَيَّ عَنِ ابْنِ أَخِي الْحَكَمِ
رِسَالَةَ جَامِعَةٍ مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُنُونُهُ ، مُشْتَمَلَةٌ مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهَبِ عَلَى
ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَنِي .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كِفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبِكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ »
فَلَمْ أُسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذِرَ لِي لَيْدِي
وَكَادَ (١) ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ . فَأَلْمَرُهُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَةَ ، وَلَمْ أُسْتَجِزْ
أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذْلَيْنِ الْعَيْرِ وَالْوَتْدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

(١) يشير إلى قول لبيد يخاطب بنته :

فقوما فقولوا بالذي قد علمتا ولا تخمشا وجهها، ولا تخلفا الشعر
وقولا : « هو المرء الذي لاخيله أضع ولاخان الصديق ولاعذر»
إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما ومن يك حولا كاملا فقد اعتذر

واعتذر كأعذر أتى بعذر ، فهما بعد تمام الحول إذا أمسكتا عن النوح والبكاء على أبيهما فلهما العذر .

وَالْهَرَبَ مِمَّا لَا يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« لَاعَارَ لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ ، فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِي مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ ، فَتَبَّيَّنَ لِي أَنَّ إِحَاشَ نَفْسِي بِإِيْنَسِ أَهْلِي ، وَقَطْعَهَا فِي مُوَاصَلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الشُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الْأَذْلِ ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ يَبْنُكَ وَبَيْنَ الْبِلَادِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَأَ بِكَ مَنَزِلٌ فَتَحَوَّلِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أَحْدُوثةً فَكُونِي حَدِيثًا حَسَنًا

كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ

إِذَا وَطَنٌ رَأْبِي فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنٌ »

وَلَمْ أَسْتَعْرِبْ أَنَّ أُسَامَ بِمَثَلِ هَذَا الْخَسْفِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِي ، وَمَعْقُ^(١) تَمَامِي ، وَأَوَّلِ أَرْضِ مَسِّ تَرَابِهَا جِلْدِي ، فَقَدِيمًا ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ الْغَيْبُ فِي مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَضِيعُ فِي مَعْشَرِي ، وَكَمْ بَلَدٍ يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَطْبَةٍ »

فَأَسْتَحَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاصْبِحَ وَجْهِ الْعُدْرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحِجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللَّهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيٍ ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النِّجَاحِ عَلَى سَعْيٍ ، حَسَبًا ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ أَنِّي مَظْلُومٌ مَبْعِي^(٢)

(١) الملقق : الموضع الذي تمق أي تشق فيه عن الصبي التمام ، ومنه قوله :

« بلادها عن الشبَابِ تَمَامِي وَأَوَّلِ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي تَرَابِهَا . »

عَلَى، مَنْسُوبٌ مِمَّا لَمْ آتِهِ إِلَيَّ، فَهُوَ الْمَوْمَلُ لِنَدِكَ، وَالْمَرْجُوُّ لَهُ، وَاعْمَرُكَ يَا سَيِّدِي
 إِنَّ سَاحَةَ^(١) الْعُذْرِ لَتَضِيْقُ عَنكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلَامِكَ تَلِيدِكَ
 وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَرَكَ مُثَابِرًا عَلَيْهِ آخِذًا عَنْهُ مُقْتَبِسًا مِنْهُ مَعَ
 إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا، وَالْإِعْتِدَادِ بِهِ، وَأُدْعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ
 حَسَنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا . »
 فَأَلَمَهُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ أُسْتَعْمَالِ الْجِدِّ، وَأُسْتِعْرَاقِ الْجَهْدِ، فَيُبْلَغُ
 نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلَا لَوْمْ فِي أَمْرِي بَلَعَ الْعُذْرَ، وَلَكِنْ مَنْ لَكَ
 بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمَّ وَاقِعٌ، وَلَا حَدَرَ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ،
 وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ، إِلَّا
 أَنْ رَزَا^(٢) مِنْ وَعِيدِ سَقَطَ إِلَيَّ بِأَنَّ السَّعَى لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ،
 وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأَفْقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِي
 أَحْطُ فِيهِ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ لِي إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ أَوْي
 إِلَى الثَّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنِي عَلَى الْوِثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ
 عِنْدَ الْحُكْمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَابَتْهُ عَلَى تَأْخُرِهِ عَن مَظَافِرَتِي
 وَتَقْصِيرِهِ فِي مُؤَاوَزَتِي، فَأَعْتَدَرُ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ
 الْمَحْرُضُ عَلَى لَا تَتَأْتِي مُعَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْأَسْتَبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِي
 بِالْبَدَاءِ وَعَابَنِي بِالتَّسَلُّطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ، وَوَاللَّهِ مَا أُسْتَجَزْتُ هَذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ

(١) فِي الْأَصْلِ: « أَنْ سَاعَةُ الْعُذْرِ . » فِي هَامِشِ الْأَصْلِ « لَعَلَّهَا سَعَةٌ » وَقَدْ أَمْتَنَّا مَكَانَهَا « سَاحَةٌ »

الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَتِهَا فِي الْحُطِّ لِتُسْتَقِيمَ الْمَعْنَى . (٢) الرِّزُّ وَالرَّكْرُ الصَّوْتُ الْحَقِيُّ تَسْمَعُهُ مِنْ بَعِيدٍ .

مِنْ سِتْرِي مَا هَتَكَ ، وَأَنْتَهَكَ مَا أَنْتَهَكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْدُورًا ، وَأَنْفُتُ
مَعْدُورًا ، فَكَيْفَ قَبْلَ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلَا غَرَضٌ مُوجِبٌ ، وَمَالِي
وَهَذَا الْمَجْتَبَى ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُّ كَتَبُ شَهَادَتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هَذِهِ
بِيَكْرٍ مِنَ النَّامِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَحِلَاهُمَا :

« فَإِنِّي رَأَيْتُ غَوَاةَ الرَّجَا لِي لَا يَتَرُ كُونَ أَدِيمًا صَاحِحًا »

وَمَنْ يَأْذَنُ إِلَى الْوَاشِينَ تَسْلَقُ ^{***} مَسَامِعُهُ بِالْسِنَةِ حِدَادٍ

وَيَا سَيِّدِي :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالظَّمَانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي
وَوَاللَّهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّي أُوتِي مِمَّنْ أُوتِيَتْ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِي بِهِ ، وَأَنْتِطَاعِي إِلَيْهِ ،
وَأَنْسَامِي بِالتَّامِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنْ الْمَعَارِفِ فِي أَهْلِ النَّهْلِ ذِمَّتُمْ .
وَلَكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ - لِلْمَرْءِ - عُدَّةً أَتَتْهُ الرَّرَايَا مِنْ وُجُوهِ الْفَوَائِدِ

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّيْمِ ، وَشُرُوطِ الْمَرْوَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِي مَا أَنْكَرَ
لِمَا عَرَفَ ، وَيَعْفِرَ مَا سَخِطَ لِمَا رَضِيَ ، وَيُدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُؤَثِّرُ
الَّذِي هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نَصَّ لَهُ مِنْ سَعَايَةٍ ، وَزَفَّ إِلَيْهِ مِنْ
وِسَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَلْقَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرَّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ
حَقًّا صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِغْضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنْابَةَ الْمُعْتَبِ ، وَأَقْتَصَدَ
فِي مُوَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوَقِيفَ ، قَبْلَ التَّمْطِيفِ ، وَالتَّائِبِ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ
فَإِنَّ الرَّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ ، وَالْحُرُّ يُلْجِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْتِ، أَي الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ؟
 وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْمًا لَا يَحْضُرُهُمُ الْعَدُوُّ تُحْمَلُ سَقَطَاتِهِمْ،
 وَتُعْتَفَرُ هَفَوَاتِهِمْ، وَتُقَالُ عَثَرَاتِهِمْ :

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَ^(١)

وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ إِلَّا شَارَكْتَهُمْ فِيهَا، وَلَا يَمْتُونُ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ
 دُونِي بِهَا :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا
 فَإِنْ كَانَتْ مُسَاحِمَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْرَزَتْ مِنْهَا الْحِظَّ الْأَعْلَى، أَوْ لِكَمَالِ
 آدَبٍ فَقَدْ ضَرَبَتْ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعْلَى، أَوْ لِلطُّفِّ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرَتْ فِي الْإِجْتِهَادِ
 غَيْرَ أَنِّي حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ، رَبِّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهِدَ .
 فَإِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنْ أَحْسَنَ مَطْلَبِي أَسَاءَ فِي سِوَةِ الْقَضَاءِ لِي الْعُذْرُ
 وَاللَّهُ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَدْحَهُ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ، وَتَمَمْتُ عَلَى الصَّاعِيَةِ لَهُ، وَجَرَيْتُ
 مِلءَ الْعِنَانِ إِلَى الْأَعْتِلَاقِ بِهِ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وُدِّي، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ
 مِنْ بُرُودِ حَمْدِي، وَأَجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِي، وَأَهْدِي إِلَيْهِ الْعِطْرَ
 مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِي لَا يُفِيدُنِي التَّجَبُّبُ إِلَيْهِ، إِلَّا ضِيَاعًا لَدَيْهِ، وَلَا يَزِيدُنِي
 التَّقَرُّبُ مِنْهُ، إِلَّا بُعْدًا عَنْهُ :

كَأَنِّي أَسْتَدْنِي بِهِ ابْنَ حَنِينَةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا
 وَالَّذِي أَحْبَبُهُ مِنْكَ، وَاتَّقِ فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاءَهُ مُجَارِيًا ذِكْرِي، مَفَاوِضًا

(١) أي ليس شرُّ الثلاثة يا أم عمر الذي لا تسمينه الصبوح بصاحبك، وفي الأصل :

« وما شرُّ الثلاثة — أم عمرو — لصاحبك الذي لا تصبحينا . »

فِي أَمْرِي ، مُعْلِمًا لَهُ بِالَّذِي لَا يَذْهَبُ عَنْهُ - مِنْ أَنَّ الَّذِي أُخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي قَايَةً
مَائِسِيهِ الْعَدُوُّ بِهِ ، وَيَسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ - فَاجْلَاءَ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالغُرْبَةَ أَحَدُ السَّبَائِينَ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَا يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْجَبًا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِيئُ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كِتَابَا »
وَقَدْ هَجَرَتْ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظِرِّي ، وَالذَّارَ الَّتِي كَانَتْ مِهَادِي ، وَغَيْتُ عَنْ أُمَّ
أَنَا وَاحِدَهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَى ، وَتَغْضُ أَجْفَانَهَا حُزْنًا عَلَى ، وَاللَّهُ يَرَى
بُكَاءَهَا ، وَيَسْمَعُ لِي - عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي - نِدَاءَهَا ، فَالِاسْتِجَابَةَ مَضْمُونَةَ الْمُخْلِصِ
وَالْمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السَّمْتَيْنِ ، وَأَسْتَوْجِبْتُ الصَّفْتَيْنِ ، وَلَتَكُنْ بُعَيْتُكَ الَّتِي
تَدْخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةٌ تَأْمِينِ ، وَإِشَارَةٌ إِلَى تَأْنِيسِ وَتَسْكِينِ ، تُرَاجِعُنِي بِهَا
فَظَهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأَتَى الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ حَمَزَ الشَّفَرَةِ ،
فَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْحِمْرَةَ (١) ، فَإِنْ أَشْبَهَتِ اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ ، أَعَلِمَتْنِي بِذَلِكَ ، فَظَلَبْتُ
الْأَمْنِ فِي مَظَانِهِ ، وَتَقَرَّرْتُ السَّلَامَةَ فِي مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لِي
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ
مُعَقَّبٌ ، وَلِرُبَّمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي أُتَيْدَابِكَ لِمَا
نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِي قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . »

وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلَامُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

(١) الحجرة : اسم للهيئة من الاختيار أى وضع الحمار على الرأس ، وهو مثل يضرب لمن خذق الأشياء

شعر الملكين

(١)

شعر المعتضد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو

عباد بن محمد بن عباد رجه الله . »

لماذا نام أقوام عن المجد - ضلة -

أسهد عيني أنت تمام بنى الحال
وإن راق أقواماً من الناس - منطلق

يروق ، بدا منى مقال وأفعال . »

(وقال)

« أقوم - على الأيام خير مقام ،

وأوقد في الأعداء - شر ضرام

وأثقف - في كسب المحامد - مهجتي ،

ولو كان في الذكر الجليل - حمى

وأبلغ - من دنياى - نفسى سؤلها ،

وأضرب - في كل العلا - بسهام

إذا فضح الأملاك - نقص ، فانه

يبينه - عند الأنام - تمامي . »

(وقال)

« من كان يساوعن نوال فأنا الذى لست يسال

البخل عين تقيصة ، والجود عين للكمال

أبصرت رشدى فى الندى ، فالبخل - عندى - كالفضال

هكذا زطاف طعمه ، والجود حلوك كالزال . »

(وقال)

« لو كان قلبى - عن الاشغال - منترجأ ،

نادى لفقد حبيب النفس : واحربا

لكنما شغله بالجد - مجتهداً -

يلهي عن حبه إن بان أو قربا . »

« لقد بسط الله المكارم من كفى

فلست - على العلات منها - أعا كف

تتادى بيوت المال - من فرط بذلها -

يعينى : « قد أسرفت ظالمتى كفى »

أتقرى يعينى بالسباح فتنهمنى

ولا تترضى خلا يقول لها : يكفى

لعمرك ، ما الاسراف فى طبيعة ،

ولكن طبع البخل عندى كالحنف . »

(وقال)

« من للشجاعة والكرم إلا الظالموم المظلم

من لست تقدم عنده غير التبدل والعدم

أحيا المكارم والعلا وأقام مناد الهمم

يلقى العداة ، وسيفه قد قط هامات البهم . »

(وقال)

« لعبرك لاني - بالمدامة - قوال ،

ولاني - لما يهوى الندامى - لفعال

ولاني - للخل الخليل - لناعش ،

ولاني - للقتل المناوى - لقتال

قسمت زمانى - بين كد وراحة -

فلراى أسجار ، وللطيب آصال

فأمسى - على اللذات والهوى - عاكفا

وأضحى - بساحات الرياسة - أختال

ولست - على الإيدمان - أغفل بفتي

من المجد ، لاني - فى المعالى - لحتال

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلفت لها في مجلس الكرم
فان أردت - إلهي - بالورى حسناً
فلكنى زمام الدهر والأمر
فانى لا عدت الدهر من حسن ،
ولا عدت بهم عن أكرم الشيم
أقارع - الدهر - عنهم كل ذى طلب
وأطرد - الدهر - عنهم كل ذى عدم . »

(وقال)

« عن الفصد قد جارا ، وما جرت عن تصد
إذا خفيت طرق العرائس عن أسد
إذا اترضوا للبلخ أعرضت عنهم ،
وإن من أقوام كتمت الذى أسدى
فله ما أخفى من العدل والندى ،
ولله ما أبقى من الفضل والمجد
ولا ألتقى ضيبي بغير بشاشة
إذن فحدث الله معروفه عندى . »

(وقال)

« ألام ، ومالوى - على الحب - واجب ،
وقد صادنى طرف كحيل وحاجب
أتحجب عنى - والفؤاد يحبها -
لفد عن محبوب تمناه حاجب
أروم فؤادى - فى الغرام - لينتى
وكيف وما دون الأية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسته فى الهيجا - غدت زهرى
غرس أشجارها مستجزل المر
ما إن ذكرت لها من معرك جلل
إلا تجللت به بالصارم الذكر
حتى غدوت وأعدائى تخاطبى
يا قاتل الناس بالأجناد والفكر . »

(وقال)

« وإذا توعدت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر

وإذا طلبت عزيمته ففاتحى
فيها العزيمة والسنان السهرى . »
(وقال)

« كلام - كمثل الدر - تنتره نثراً
ووصل - كظلّ الروض - تعطيك كنزاً
ولو لم تشب وصلى بهجر لحتنى
أشاهه منها الشمس أو أتم البدر . »
(وقال)

« أنك الليل معتكراً يناقضه سنا البدر
ذر الساعات تبسطه ستقبضه يد الفجر . »
(وقال فى القاضى أبى القاسم أبيه)

« ألا يا مليكا يرتجى ويهاب
وبجراً له - فى المكرمات - عباب
ومولى عدتنى - مدنشات - مكارم ،
يصوب بها - من راحته - سعاب
أطمتك - فى سرى وجهى - جاهداً ،
فلم يك لى - إلا الملام - ثواب
وأعملت جهدى فى رضاك مشمرا

ومن دون أن أفضى إليه حجاب
ولما كبا جدى إليك ولم يسغ
لنفسى - على سوء القام - شراب
وقل اصطبارى ، حين لالى عندكم
من العطف - لإقسوة وتباب
فرت بنفسى أبتغى فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما هزنى إلا رسولك أن جرت

إلى به صم الخضاب وكاب
فقال مقالا لم أجد عن مقاله
مناباً ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً
فقلت : « أمير المؤمنين مجاب »
بفتت أغذ السير ، حتى كأنما
يطير بسيرى - فى الفلاة - عقاب
وما كنت - بعدالين - لإموطناً
بعزى على ألا يكون إياب

بجادت - وما كادت - على بخدحا

وقد ينبع الماء النير من الصلد

فقلت لها : « ماتى ثناياك لاني

أفضل نوار الأفاخي على الورد

وميل على جسي بجسك » فاشتت

تعيد التي أملت منها كما تبدى

عناقاً ولثما أرويا الشوق بيننا

- فزادى ومثني - كالشرار من الزند

فياساعة - ما كان أقصر وقتها

لدى - تقضت غير مذمومة المهدي .

(وقال)

« يتادون قلبي ، والغرام يجيب ،

والقلب - في حين النداء - وجيب

مشوق دواه الشوق والوجد والهوى

يجيب نداء الحب وهو يجيب

يقاسي فؤادي الوجد والحب والواصل -

فكيف تراه إن جفاه حبيب ؟

إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم

فانت فؤادي - دائماً - ليصيب

علم بأسرار الغرام ، لأنه

بصير - بأدواء الحسان - طيب

يواصلني سرّاً ، ويصرم ظاهراً ،

وذلك - من أفعالهنّ - عجيب . »

(وقال)

« بيض الهند والأسل الحداد

أرجى أنت يتم لي مرادى

فأبلغ بيقى ، وأربح نفسى ،

وتحمد حالتى في كلّ نادى

ففنى الدهر في قتل الأعداى ،

وحسم رقابهم في كلّ وادى

فذاك الغرض - والرحمن - عندى

كمثل الغرض في حال الجهاد . »

(وقال)

« وليل ظللنا فيه نعمل كأسمال

إلى أن بدت للصبح - في الليل - أعمال

ولكنك الدنيا إلى حبيبة

فما عنك لى - إلا إليك - ذهاب

وفضلك في ترك الملام ، فانه

- وحقك - في قلبي طياً وحراب

إذا كانت النعمى تكدر بالأذى

فما عى إلا محنة وعذاب

ولا تقبضن بالمنع كنى فانه

- وجدك - تقض للعلا وخراب

فوالله ما أبنى بذلك غير أن

تحلى بجدوى راحتك رقاب

ويهدى إليك الناس دون تصنع

شبه صدق لم يشبه كذاب

فكل نوال لى ، إليك انتسابه ،

وأنت عليه - بالثناء - مثاب

بقيت مكين الأمر ، ماذر شارق ،

وما لاح في أفق السماء شهاب . »

(وقال)

« يا قاتل الصب ولا واق

لا ترض بالله بانفاقى

عينك قد قادت إلى الردى

فالقلب يحتاج إلى راقى

لولاك - والرحمن - ما كنت من

يجب في جملة عشاق

قد لدغت صدفاك قلبي فهل

تعمم للدغ بدرىاق . »

(وقال)

« رعى الله من يصلى فؤادى بحبه

سعيراً ، وعينى منه في جنة الخلد

غزالية العينين شمسية السننا

كثيية الردين غصنية القد

شكوت إليها حبا بمدمامى

وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد

فصادف قلبي قلبها - وهو سالم -

فأعدى ، وذو الشوق البرح قد يعدى

(وقال)

« ذكراك في في قدشيت بتسبيحي
أديك يا فتنة الجمان والروح
الله يعلم أنى لست أهجركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحي
إن كنت أشرح معنى حكيم شففاً
فان سرك عندي غير مشروح . »

(وقال)

« يا جاهل الحب إن الحب ذو سند
مهما أجزعته يوماً سوف أهدم
أيجهل الحب من أضحيت به حرق
تكاد من حرها الأحشاء تنقد
الله يعلم أنى شيق أبداً
لا ينقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً
يهدى إليه فؤادى حر ما يجدد . »

(وقال)

« لله درّ الحبّ ماذا يصنع
يعنو له ملك الزمان ويخضع
للحب سلطات عظيم شأنه
مهما يقل قولاً فقلبي يسمع
إن يفر بالهجران مالك مهجتي
أقبل إليه بحالتي أتضرع
ماذا انتفعت بحالتي عند الهوى
حال الهوى أبداً أجل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما خلد الأحاسن في خلدي
لمن غدا والندى كالروح والجسد
للأوحى أبى الجيش الذى ظفرت
منه بأنفس علق في الأنام يدي
موفق الرأى فى الرايات لذته
فى الجرد والوجود لافى العيشة الرغد
إذا رأته العلاء نادته مفضحة
ياقرة العين بل يافذة الكبد . »

وولت نجوم الليل تجرى هزيمة

وجاء - مع الاصبح - نصر واقبال
فقضيت - من هذا وذاك - لبانة
وتمّ لنا فتح مبین وآمال . .
(وقال)

« وليل أدمنا فيه شرب مدامة
إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير (١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فخرنا - من اللذات - أطيب طيبها
ولم يمدنا هم ولا حاق تكدير
خلا أنه - لو طال - دامت مسرة
ولسكن ليالى الوصل فيهنّ تقصير . »

(وقال)

« أتعلم أن قلبي غير صاح ؟
وأنى من سلوك - فى اقتراح
وكنت - الدهر - أصدقاء المعالي
فقد أصبحت من صيد الملاح
تسقى البنية كأس صد
وتزجها - لتعليلى - براح
ولوشاءت حياتى - الدهر - سقت
حرور القلب من شيم قراح
وكانت تصنع الحسنى جيلا
ولسكن ليس تلقى غير لاح
فسقىنى - فديتك - من عقار
ونادىنى : هلمّ لى اصطباح . »

(وقال)

« يطول على الدهر إن لم ألقها ،
وبقر - إن لاقيتها - أطول الدهر
لها غرة كالبدر - عند تمامه -
وصدفاً عبر نفا صفحة البدر
وقد كئىل النسن - مالت به الصبا -
ولفظ كما انحلّ النظام من الدرّ

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر
بن زيدون .

(وقال)

« أنام وما قلبي عن المجد نائم »

وإنت فؤادي بالمعالي لهائم

وإن قدمت بي علة عن طلابها

فانت اجتهدادي في الطلاب لقائم

يعزّ على نفسي إذا رمت راحة

براح فتئتني الطباع الكرائم

وأسهر ليلي مفكراً غير طاعم

وغيري على العلات شعبان نائم

ينادي اجتهدادي إن أحس بفترة

ألا أين يا عباد تلك العزائم

فتهتت آمالي وتقوى عزائمي

وتذكرني لذاتهن الهزائم . »

(وقال)

« أنا في الحب مغرم مستنيل

كل نيل أناله لي قليل

لي جثمان من يظنّ صحيحاً

وفؤادي من الغرام عليل

(١) أعطى بحق

إن صبري - على التجني - جميل

لي ذهن - مثل الحسام - صقيل

هو من كثرة التجني قليل . »

(وقال)

« إني على ألفتي بالسهد والكمد

أدعوك يا مضي الأجسام بالسهد

قطعت قلبي الذي أعطاك جوهره

إني وهبتك محض النفس والسكد

يا درة لم تلج في كف غائصها

إلا أهمل إليها آخر الأبد

قلبي بكفك لا أرجو الفكك له

مثل الفريسة حلت في يدي أسد . »

(١) هكذا وجد نائماً بالأصل

(وقال)

« أرى اللقاء كما نحب يوفق

ففضل نصبح بالسرور ونفبق

حتام تطلني الليالي قرب من

قلبي له متشوف متشوق

ملك أغرّ أغار أن تحظي به

لسواي ألاحظ ولحظي مملق

أفدى أبا الجيش الموفق أنه

للمكرمات ميسر وموفق

باي به الزمن البهي كأنه

نشر على وجه الزمان وروثق

ملك إذا فهنا بطيب تنائه

ظلت به أفواها تنطق

حسب الرياضة أن غدت مزادة

بسناء فهو التاح وهي المفرق . »

(وقال)

« عرفت عرف الصبا إذ ذهب عاطره

من أفق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط

وما تيقن أني الدهر ذاكره

ينأى المزار به والدار دانية

يا حبذا الفال لو صحت زواجه

ذخري أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا

فيشتتي منك جفن أنت ناظره

قصاره قيصر إن قام مفترأ

لله أوله مجد وآخره . »

(وقال)

« كأنما ياسمينتنا العنّ

كواكب في السماء تبيض

والطرف الحر في جوانبه

تكدّ عذراء ناله العنّ . »

(وقال)

« تنام ومدتها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

لئن دام هذا وهذا به سبهلاك وجداً ولا يشعر . »

(وقال)

« يا غرّة تسخر بالبدن
ومقلة تنفت بالسكر
ومبهما نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الحجر
ومنطقاً أوتيت من سحره
أحرّ في قلبي من الحجر
وشادنا تبني شـخصه
ووكل الأجفان بالسهل
تاجر بي الله نفز بالرضى
وتريح الجنة في التنجر . »

(وقال)

« يا درّة قلبي بها مفتون
يسلو، وإن سئل السلوطين
الله يعلم أن قلبي مغرم
من كان ذاصبر فليس يكون
أو أن من يشرى رضاك بفوزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قرأ أصبح لي مالكا
لا تتركني هكذا مالكا
وفلذة الكبد التي ضما
مبيتها الدهر بأوجالكا
رق على قلب العبيد الذي
يود أن يجري على بالكا
حسنت في خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأفعالكا . »

(وقال)

« بصبرني أهل المودة دائماً
وإن فؤادي والاله صبور
أغار على معنى الرئاسة إنني
على كل حسن في الزمان غيور
أصرف ذهني في أمور كثيرة
وأعلم أن الدوائر تدور . »

(وقال)

« غصن من التبر فوقه ورق
كأنه الصبح تحته شفق
يا أبداع الناس في عاسنه
رق على من أذابه الأرق
مددت كفي رجاء رأفتكم
لا تتركوني بنالي الفرق
بحر دموعي مفروق جسدي
تداركوا مهجتي وبني رمقي . »

(وقال)

« رعي الله حالينا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا
فما ليالي لا تزال ترومـني
ويرمين مني صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب تطيعني
وما زلت - من لبس الدنيا - طاريا
أجدد في الدنيا ثيابا جديدة

يجدد منها الجود ما كان باليا
فما مرّ لي بخل بخاطر مهجتي
ولامرّ بخل الناس قط بياليا
ألا حبذا في الخمد لإتلاف طارفي
وبذلي عند الحمد نفسي وماليا . »

(وقال)

« يجور على قلبي هوى ويحير
ويأسرني إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأنني إباباً ونفور
أظار عليه من لحاظي صيانة
وأكرمه إن المحبّ غيور
أخف إلى لقياء الحبيب وإني
- لعرك - في كل الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت نثار المجد بالبيض والسمر
وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء - في العلياء - صابوها صدرى
فلا مجد للانسان ما كان ضده
يشاركه في الدهر بالنها والأمر . »

(وقال)

« كان عسى القطر في شاطئ النهر
وفد زهرت فيه الأزاهر كالأزهر
ترش بماء الورد رشا وتثنى
لتغليف أفواه بطييبة الحجر . »

(وقال حين دخل على المعتمد مآلقه)

« أرى أنت فائدة الزمان
فقد فقت الممالك في معان
وقد رمناك من بلد بعيد
فأدناك الاله بلا توات
بذلنا جهدنا عزما وحزما
ووطننا الكرامة على الطعان
وأجهدنا العزائم والساعي
وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنه أهل مالقة انتصارى
وإعزازى لهم بسد الهوان
سيتقدم وينمهم جميعا
رضاع الخير إن درت لبانى
وأرقهم ذرا درج المالى
كما أجنهم عر الأمانى

وأضفاف الذى ييدى لسانى

إليهم ما يمن لهم جنانى
فحق عليهم شكر امتعاضى
وما خلقى امتنانا بامتنان
ولكن الحقائق مخبرات
وكم خبر ينوب عن العيان
ألم أعتقهم من ذل كفر

جرى في ضميمهم ملء العنان
وتوراة محسرة أعزت
فظالت ذلة السبع الثانى
إلى أن ثار بى عزم يمان

فأدرك سؤله العضب اليمانى
وأفضيت الصوارم خاطبات
فكان قضاؤها سحر البيان

فعاد البرّ معمور المغانى
وآب الفسق مهديم المبانى
وقام إمام جامهم يصلى

وآنتست المسامع بالأذان
وكان ذوو الهدى ماين ثاو
قتيل أو قعيد العقل فانى

مذ اقترنت ببرهم يهود
أباح حسامهم حسن القران
عناد جر ما أوليت فيهم

- من الفتكات بكر أو عوان
وحسبى في سبيل الله موت
يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شعر المعتمد

هو الذى لم تسم يمينك صفحته
 إلا تأتى مراد واقضى وطر
 قدأخلفتني صروفأنت تعلمها-
 وقال موردها: «مالي بهاصدر»
 فالنفس جازعة ، والعين دامعة ،
 والصوت مرتفع ، والسر منتشر
 وزاد همى ما بالجسم من سقم
 وشبت رأساً ، ولم يبلغنى الكبر
 وذبت إلا ذمءاً فى يمينى
 أنى عهدتك تنفو حين تقدر
 لم يأت جبدك ذنباً يستحق به
 عتياً ، وما هو قد ناداك يعتذر
 ما الذنب لإعلى قوم دوى دغل
 وفى لهم عهدك المهود إذ غدروا
 قوم نصيحتهم غش ، وصدقهم
 مين ، ونفهم-إن صرفوا-ضرد
 يميز البغض فى الألفاظ إن نطقوا
 ويعرف الحقد فى الألفاظ إن نظروا
 إن يحرق القلب نقت من مقالهم
 فإنما ذاك من نار القلى شرر
 مولاي دعوة مملوك به ظمأ
 برح وفى راحتك السلسل الحصر
 أجب نداء أخى قلب تملكه
 أسى وذى مقلة أودى بها السهر
 لم أوت من زمنى شيئاً أسر به
 فلست أعهد ما كاس ولا وتر
 ولا تملكنى دل ولا خنر
 ولا سبي خلدى غنج ولا حور

(قال رحمه الله حين خرج من مالقة مستعباً لأبيه :)
 « سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
 ماذا يعيد عليك البث والحذر
 وأزجر جفونك لا ترضى البكاء لها
 واصبر فقد كنت عندالخطب تصطب
 وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
 فلا مردّ لما يأتى به القدر
 وإن تكن خيبة فى الدهر واحدة
 فكم غدوت ومن أشياحك الظفر
 إن كنت فى حيرة من جرم مجترم
 فإن عذرك - فى ظلماتها - قر
 كم زفرة - فى شفاف القلب - صاعده
 وعبرة من شئون العين تنحدر
 فوض إلى الله مما أنت خائفه
 وثق بعمتضد بالله يفتقر
 ولا ترعك خطوط إن عدا زمن
 فالله يدفع والمنصور ينتصر
 واصبر ، فإنك من قوم أولى جلد .
 - إذا أصابهم مكر وهاه - صببروا
 من مثل قومك - والمالك الهمام أبو
 عمرو أبوك - له مجد ومفتخر
 سيدع يهب الآلاف مقتدرأ
 ويسستقل عطاياه ويمحتر
 له يد كل جبار يقبلها
 لولا نداء لقننا لإنها « الحجر »
 يا ضينغا يقتل الأبطال مفترسا
 لا توهننى فانى الناب والظفر
 وفارسا تحذر الأقران صولته
 صن عبدك القن فهو الصارم الذكر

بقيت مؤيدا ما لاح برق

وماغنى الحلم على قضيب .

(وله إليه)

« أليامليكا ظل في الخطب مفزعا

وياواحدأ فاق الخلائق أجمعا

ترقق بعبد وده لك شيمية

إذا كان ذو ودّ سواه تصنعنا

لئن كنت عن جهل فديتك غافرا

فكم عاثر قالت هلاك له : «لعا»

أقلنى نُقل عبدا شكورا وصارمأ

يجز من الأعداء ليئا وأخذنا

علتنى من السخط الأليم سحابة

فأغر بهاربع الرضى كي تشعنا .

(وله إليه)

«مولاي أشكوا ليك داء أصبح قلبى به قريبا

إن لم توجه رضاك عنى فليست أدرى له مريحا

سخطك قد زادنى سقاما

فأبعت إلى الرضى مسيحا .

(وله إليه)

«يا ليت حرب ذاق الأعداى

طعين منه أريا وسما

هذا إذا ناشبوه حربا

وذا إذا استوهبوه ساما

لاغرو أن حم منك جسم

فعادة الأسد أن تحما

وليهنى أن طلعت بدرأ

لأعين الخلق مستما

لازك تلقى العداة بؤسى

منك وتلقى الولاة نعسى

وتجز من قال من حسود

إن يكن الحق قد ألما .

(وله)

« يا بدر تم تجلى فالأرض تشرق منه

العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه .

رضاك راحة نفسى لا بلغت به

فهو العناد الذى للدهر أدخر

هو المدام التى أسلو بها فاذا

عدمها عبثت فى قلبى الفكر

ما تركي الخمر من زهد ولا ورع

فلم يفارق لعمرى سنى الصغر

وإنما أنا ساع فى رضاك فإن

أخفقت فيه فلا يفسح لى العمر

ما سرتى وأحاشى عصر عطفكم

يوم أخل به فى عينى القصر

أجل ولى راحة أخرى علفت بها

نظم الكلى فى القنا والهلام تفتثر

كم راحة لى فى الأعداء واضحة

تفى الليالى وما يفتى لها الخبر

سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت

فليس فى كل حى غيرها سر

لا زات ذا عزّة قساء شامخة

لا يبلغ الوهم أدها ولا البصر

ولا يزل وزر من حسن رأيك لى

أوى إليه فنعم الكهف والوزر

أليك روضة فكرى جاء منبتها

ندى يمينى لا ظلّ ولا مطر

جعلت ذكراك فى أرجائها شجرا

فشكل أوقاتها للمجتى ثمر .

(وله إليه)

«أيا ملكا يجبل عن الضريب

ومن يلتذ غفران الذنوب

ومن فى كفه بؤسى ونعسى

تصرف فى العدو والحبيب

تسخطك الممض أعل نفسى

ومالى غير تفوك من طيب

ولست بمنكر ذنبى ولا كنت

سنى قد جئت فى حال المريب

فان عاقبتى فجزاء مثل

وإن تصفح فليس من القريب

ابن عمار (١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
إلى المعتد على الله حين تقبض النصراني
على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسيه . »

« أصدق ظني أم أصبح إلى صبي فأمضى عزمي أم أعوج مع الركب »

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية - كما يقول الراكشي - كان أحد الشعراء
المجيدين على طريقة أبي القاسم « محمد بن هاني الأندلسي » وربما كان أحلى منزما منه - في كثير من شعره .
ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم أر أحدا من أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم
إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيبات . فن قصائده المشهورة التي
أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التي كتبها من سرقة حين فرق المعتض بالله بينه وبين المعتد لأنه شغله عن
كثير من أمره فنفاه وهي : -

« على والا ما بكاء الغمام وفي والا ما نواح الجمائم

وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر، وهز البرق صفة صارم

ومالبت زهر النجوم حدادها لغيري، ولا قامت له في مآتم .»

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتض بالله :

«أبي أن يراه الله إلا مقلدا حميلة (١) سيف أو حمالة غارم .»

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتض بالله :

«جاء الهوى فاستشعروه طاره ونعيمه فاستعذبوه أواره

لا تطلبوا - في الحب - عزاء، وإنما عبدانه في حكمه أحراره

قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم: يا حبيذا وحبذا أضراره

قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا ، فقلوه وما يختاره

عيرتموني بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره

وشتمت لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره

أحسبم السلوان هب نسيبه ؟ أو انذاك النوم تاد غراره؟

إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلت من دمي إذن أنصاره .»

ولابن عمار هذا مع المعتد أخبار عجيبة عنى بجمعهما أهل الأندلس ، وأنا - إن شاء الله - مورد منها ما لا يخل
بالشرط الذي التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذي رسمته ، حسب ما بقي على خاطري من ذلك ، لأنني كنت في

وإني تهفو بن إليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذني
إذا اتقدت في رأي مشيت مع الهوى وإن أتعبه نكصت على عقبي

حدائثة سني قد صرفت عنايتي الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتد لما تضمنته من الآداب . وقد فقت خزانة
حفظي فلم ألق فيها إلا نبذة سيرة وأنا موردها إن شاء الله عز وجل :

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها : «شنبوس»
مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه - حفظه، ولا زكا
منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى
الأعلم ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكبس به فلم يزل يجول
الأندلس مسترفدا لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقيه ،
وله في ذلك خبر ظريف ، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر
الى رجل من وجوه أهل السوق فكان قنره عند ذلك الرجل أن ملأ له الخجلة شعيرا ووجه بها إليه، فزأها
ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز - ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت
وانتهى أمره أن ولاء المعتد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في
موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ،
فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر ، فقال : ما صنع فلان أموحي ؟ قالوا : نعم
فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأتها برا ملأناها تبرا » ولم يزل
ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطف إلى أن ورد على
المعتضد بالله أبي عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كآفوره لما استرد الليل منا العنبر
وفيهما يقول بمدح المعتضد :

« عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبر
قداح زند المجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أنت يهب الحريدة كاعبا ، والظرف أجرد ، والحسام بجورها »
وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقمها المعتضد بالبربر :

« شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود ، وإن تسموا بربرا
أثمرت رحك من رؤوس كجاثم لما رأيت النصفن يعشق مشرا
وخضبت سيفك من دماء منحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحجرا . »

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمن تقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

« السيف أفصح من «زياد» خطبة في الحرب إن كانت - يمينك منبرا . »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها، وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء
فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتد على الله - وهو إذ ذاك شاب - فلم تزل حاله معه تزيد وموات خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به تربيته بعدى عنك آنس من قرني
أهابك للحق الذي لك في دمي وأرجوك للحب الذي لك في قلبي

وتأكد إلى أن صار ابن عمار ألقى بالمتعبد من شعراته (١) ، وأدنى إليه من حبل وريده. كان المتعبد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولي المتعبد على الله شاب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فاقضى نظر المتعبد التفريق بينهما وبنى ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الإيحاء إليه ، فلم يزل ابن عمار معتقبا في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المتعبد بالله ، فاستداه المتعبد وقربه أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونهما بالشبـخبر عجيب ، وذلك أن المتعبد استداه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت المادة جارية به إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحني به والرله على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المتعبد عليه : « لتضعن رأسك معي على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بنى هانف في النوم يقول : « لانتترأيها المسكين إنه سيقنلك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومي فزعا وتمودت ثم عدت » فهتف بنى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعته نائمة فانتبهت فتجدرت من أثوابي ، والنفقت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد المدرة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ، فأنبه المتعبد فانتقدني فلم يجدني فأمر بطلي فطلبت له في نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشعلة تحمل بين يديه ، وكان هو الذي وقع على فكانت مني حركة فأحس بنى وقال : « ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ » ثم أسر به بنفسه ، فخرجت عريانا ليس على الا سراويل . فلما رأني فاضت عيناه دموعا وقال : « يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضناك أحلام هذه آثار الحمار » ثم قال لي « وكيف أتيتك ، أرايت أحدا يقتل نفسه ؟ ما أنت إلا كنفسي » ففشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر نفسه ، ومرت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ما سياتي الإيحاء إليه ، فصدقت رؤيا بن عمار وقتل المتعبد نفسه كما قال .

ولما أنقضى الأمر إلى المتعبد سأله ابن عمار ولاية شاب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المتعبد إلى ذلك وولاه إياها أبنه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المتعبد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستداه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المتعبد يعده لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يئط به أمر إلا اضطلع به ، وكان فيه كالسكة المحماة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الأذفتش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المتعبد طامعا فيها ، فغافه الناس ، وامتلات صدور أهل تلك الجهات رعبا منه ، وتيقنوا ضعفه من دفاعه . فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه قام سفرة شطرنج في غاية الإتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها غاية في الاتقان فخرج من عند المتعبد رسولا إلى الأذفتش فلقبه في أول بلاد المسلمين فأعظم الأذفتش قدره وبالغ

(١) القص : بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهي العظام التي تتلاقى في وسط الصدر حيث ينبت الشعر .

ولى حسنات لوأمت ببعضها إلى الدهر لم يرتع لثابتة سربي

في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفارة فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها إليه وكان العليج (الأذفنش) مولعا بالشرطيح فلما لقي ابن عمار سأله « كيف أنت في الشرطيح ؟ » وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه ، فقال له بلني أن عندك سفرة في غاية الاتقان ، قال ابن عمار نعم ، فقال كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا اتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتني فهي لك ، وإن غلبتني فلي حكمي ، فقال له الأذفنش هلمها لتنظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدي العليج صلب وقال ماظنت أن اتقان الشرطيح يبلغ إلى هذا الحد ، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأذفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ، ولعله شيء لا يمكنني ، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سرّ ما أراد له لرجل وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتملقت نفس العليج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهوتوا عليه ، فقالوا له : « إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ويقبوحا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه ، وقالوا إن طلب ابن عمار ما لم يمكن فنحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار ، فجاء ومعه السفارة ، فقال له : « قد قبلت ما رسمته . » فقال له ابن عمار : « فاجعل بيني وبينك شهوداً ساهم له ، فأمر الأذفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعليج فيها مطعن . فلما حققت الغلبة . قال له ابن عمار : « هل صح أن لي حكمي ؟ » قال « نعم » قال : « أن ترجع من هاهنا إلى بلادك » فأسود وجه العليج وقام وتقدم وقال لخواصه « قد كنت أخاف من هذا حتى هوّ تنموه عليّ في أمثال لهذا القول » وهم بالتكث والتأدي لوجهه . فقبجوا ذلك عليه وقالوا له : « كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصراري في وقتك » فلم يزالوا به حتى سكن وقال : « لأرجع حتى آخذ أتاوة طامين خلاف هذه السنة ، فقال ابن عمار « هذا كله لك » وجاءه بما أراد فرجع ، وكفّ الله بأسه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتلأت نفس العتمد سروراً به ، ثم إن المعتد حدث له أمل في التغلب على مرسية وأعمالها ، وهي التي تعرف بتدمير ، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المنتلب عليها والمدير لأمرها ، فجز العتمد جيوشا عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز بلنسية ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله ، ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه ، وسوّل له سوء رأيه أن يستبدّ بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تمّ له ببعضه ، ودانت له مرسية وأعمالها ، وطمع في ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية ، يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فجاء يركض حتى المدينة وقد غلقت أبوابها ودونه محاصروها بمن معه أياماً ، فامتنت

وكم قد فرت يمثالا بي من صرية فلا غرو يوما أن تنل من غربي

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأً فهرب حتى لحق ببني هود بسرقة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبنضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشناه ، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة ، كان المنقلب عليه رجلاً يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته ، وأحسن نزله ، ثم بداله بعد أيام قبض عليه وقيده وجعله في سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك ، وتعرضني عليهم فما منهم إلا من يرغب فيّ ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي إليه ، ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ، وفي ذلك يقول ابن عمار :

«أصبحت في السوق ينادى على رأسي بأنواع من المال

والله ما جار على ماله من ضمني بالثمن العالي .»

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأتي بها ، فقال في ذلك :

«بوسى شقورة عندي أربت على كل بوسى

فقدت هارون فيها فظلت أطلب موسى .»

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلّم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بقل بين عدلى تبين قيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم ، لا يصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومدبيل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزّة القمصاء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلاً ، خائفاً فقيراً ، لا يملك إلا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وجهه ، ومنعه ما كان به أمته ، وأخبر بعض الموكبين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فظنته قال : « لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معاً أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته ، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أيديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك كله مطرق الرأس لا ينبس إلى أن اقتضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : « ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا - أبقاه الله - ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجادات فضلاً عن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزلت فاصحح » فقال المعتمد : « هيات إنها عثرة لا تقال » وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل ، في غرته على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق إلى وقتنا

ولا بد ما بيني وبينك من نشأ يطبقها ما بين شرق إلى غرب

هذا فطال سجنه هناك . كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكفّ عن دوره ، فكانت رقي لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فنها قوله :

«سجايك إن عانيت - أندى وأسجج ،
وإن كان - بين الخطتين - مزينة ،
حنانك في أخذى برأيك ، لا نطع
فإن رجائي أن عندك غير ما
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة
وهبني قد أعقت أعمال مفسد
أفطني بما بيني وبينك من رضى
وعف على آثار جرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
سيأتيك في أسرى حديث وقد أتى
وما ذاك إلا ما علمت فأنتي
كأنتي بهم - لا درّ لله درهم -
وقالوا : « سيجزيه فلان بفعله »
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتعى
وماذا عسى الواشون أن يزيدوا
نعم لى ذنب غير أن لحلمه
عليه سلام كيف دار به الهوى
ويهنيه إن مت السلو فأنتي
وبين ضلوعي من هواه تيمية

وعذرك إن عاقبت - أجل وأوضح
فأنت - إلى الأذى من الله - تنجح
عداى ولو أثنو عليك وأنصحو
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
يكران في ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال ثم تصلح
له - نحو روح الله - باب مفتوح
هبية رحى منك تمحو وتمصح
فكل إناء بالذى فيه يرشح
يزور بنى عبد العزيز موشح
إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
أشاروا تجاهى بالشتمات وصرحوا
تقلت : « وقد يعفو فلان ويصفح »
ولكن حلما للمؤيد يرجح
سوى أن ذنبي واضح متصحح
صفاة يزل الذنب عنها فيسفع
إلى فيدونوا أو على فينزع
أموت ولى شوق إليه مبرح
ستنفع لو أن الحمام يجلح . »

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرة رجل من البغداديين ، فجعل يزرى على البيت وبين ضلوعي ويقول ما أراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال : أما أنت سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء إنما نظر الى بيت الهذلي من طرف خفي وهو -
« وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تيمية لا تنفع . »

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبيرا في شهور سنة ٤٧٩ ، وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو في بعض مجالس أنسه فأتى به يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد منته عليه ، وأبدايه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يترق للمعتمد ، ويمسح عطفه ، ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعظفت المعتمد سابقته وقديم حرمته ، بحبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب - وبحضرة قوم كانت بينهم وبين ابن عمار أحن قديمه - فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : « ما أرى ابن عمار الا سيخلص » فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد

ولاشك أن العفو منك سجيبة فلم يبق إلا أن تخفف من عتي .»

(بجاوبه المعتمد على الله)

« تقدم إلى ما عتدت عندي من الرحب ورد تلقك العتي حجابا من العتب
متى تلقني تلق الذي قد بلوته صفوحا عن الجاني . وفاقا على الصحب
سأوليك مني ما عهدت من الرضى وأعرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
تكافئه أبني به لك سـالوة فليس يعانى الشعر مشتركك اللب .»

(والمعتمد على الله إلى ذى الوزارتين أبي بكر)

« قد زارنا الترجمس النكي » وقد عطشنا وتم رى
وعن في مجالس ندى وإن من يومنا العشي
ولى حبيب غدا سـدي يا ليته ساعد السمي .»

(والمعتمد إلى الوزير أبي عمر بن غطمش)

« فديت أبا عمر من تى متى يختبر غيبه محمد
وداد صحیح ، وخلق مليح ونطق فصیح ، لدى المشهد
أتنى البديهة تندى بديعا وأبدع ما فى الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشق بالأنو ف لطفاء ، ولا جنيت باليد
خجلت لشكوكك فى طيها فما كدت أسمع للمنشد
وقد غربت لك تلك الرؤى ليشبع طاو وىروى صدى
فهون عليك من الثابتات إذا كان نصرى بالمرصد
وكن مخبرى أننى سائل سؤال مدل على مسعد
بجاءتك صفراء عند المنا م تسرى من الأفق الأبعد
فحيتك بالنفس الترجسى ولافتك بالملبس السجدي
وعلتك بالريق لو أنه أبيض لنى الزهد لم يزهده .»

وعده بالخلاص » فأظهر القوم الفرح وهم يظنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الرضى نشروا حديث
ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل
إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحدا بما كان بيني وبينك البارحة » فأكثر ابن عمار كل
الأنكار ، فقال المعتمد للرسول « قل له الورقان اللتان استديعتهما كتبت في إحداهما القصيدة ، فأملت
بالأخرى ؟ » فادعى أنه يبض فيها القصيدة فقال المعتمد « هلم للسودة » فلم يمر جوابا ، فخرج المعتمد حنقا
وبيده الطبرزين حتى سعد النرقة اتى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده
تثقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضره
به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بنفسه وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من
خبر ابن عمار ملخصا حسب ما بقى على خاطرى . « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابي وعندي من فراقك ما عندي وفي خلدي ما فيه من لوعة الوجد ✓
وما خطت الأعلام إلا وأدمي تخط كتاب الشوق في صفحة الحد
ولولا طلاب المجد زرتك طيبة عميدا كما زار الندي ورق الورد
قبلت ما تحت اللثام من اللما وعانت ما فوق الوشاح إلى العقد
أغائبة عني وحاضرة ممي لئن قبت عن عيني فأناك في كبدي
أقبي على العهد الذي كان بيننا فأني على ما تعلمين من العهد . »

(وللوزير الكاتب أبي الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم تحجب فيه الصلاة والصوم ✓
وتحفز الزاح غير وانية لا عار في حفزها ولا لوم
فانشط إليه فإنه أمل يبلغه في نديك القوم
لازك مستيقظ السعدولنا وعنك في أعين الردي نوم . »

(فأجابه أيداه الله)

« حمت بخفاة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم ✓
وسمت في الطيب والسرور فني لم يزر يوما بطيبه سوم
وهامو المجلس الممد لكم فادخل إليه وليدخل القوم
إلى كؤوس لو شاء شاربها يوم فيها لأمكن العموم . »

(فجأوبه رحمه الله)

« لييك لييك من مناد له الندي الرحب والندي ✓
ها أنا بالباب عبد قن قبلته وجهك السنّي
شرفه والداه باسم شرفته أنت والنبي . »

(وقال)

« سلى تعلمي إن كنت غير عليمه ✓
وأن لي القلب الذي ليس خاليا من الوجد والجفن الذي ليس بهجع
بذكر نيك النصن يهتر عند ما يهب نسيم ، والغزاة تطلع
فوالله لا أنفك أذكر موضعي لديك ولا أنفك نحوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشجي معاد فتفك عنه للأسي أصفاد ✓
رحل اصطباري إذ رحلت فائلا أوب الأحبة بيننا الميعاد
يا من تكنت دنوهم ووصالمهم فبدا على من الشحوب حداد
كم بت منكم بين غصني بأنة كالسيف تضنط متته الأشهاد . »

(وقال في معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .)

« أغابته الشخص عن ناظري وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشثورن وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام وصادقت ودمى سهل الفباد
مرادى لفيك في كل حين فياليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد ما بينتنا ولا تستحيل لطول البباد
دست اسمك الحلو في طى شعرى وألفت فيه حروف اعتماد . »

(وقال)

« قلبى موال لمعديه وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زدت مودة زاد تجنيسه
ياغفر الله له ذنبه فى ظلم صب هائم فيه
ياحسن الوجه بحق الهوى لانرض قبح الهجر والتيه . »

(وقال)

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكأنما عاقبتنى وشكوت ما أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكأننى قبلت ثغرك والطفى والوجنتين ونلت منك مرادى
وهواك لولا أن طيفك زائر فى القب لى ماذقت طعم رقاد . »

(وقال يستدعي الوزير المصرى الحكيم)

« أيها الصاحب الذى فارقت عيى بنى ونفسى منه السنا والسنا
نحن فى المجلس الذى يهب الراحة والمسمع الغنى والغناء
تعاطى التى تنسيك فى اللذذة والرقصة الهوى والهواء
فأنه تلف راحة ومحيا قد أعد لك الحيا والحيا . »

(وله)

« لما نأت نأى الكرى عن ناظرى وصرفته لما انصرفت عليه
طلب البشير بشارة يجزى بها فوهبت قلبى واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبى من الظفر ومن منال قصى السدؤول والوطر
ومن غناء أربوى فى الصبوح لنا يا طلعة الشمس فى الآصال والبكر
وقد حننت لى ما اعتدت من كرم حنين أرض لى مستأخر للطر
وقد تنامت يدى عن كأسها غضبا ومجت الأذن أيضاً نعمة الوتر
حتى أملك هذى ما تجزد به وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر
فهايتها خلعا أرضى الساج بها محفوفة فى أكف الشرب بالبدر . »

(وله)

« من للملوك بثأو الأصيد البطل هيات جاء تكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يحطبا بالبيض والأسل
وكم غدت طاطلا حتى عرضت لها فأصبحت في سرى الخلى والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليت بدرع الباس مشتدل . »

(وله إلى المعتضد بالله)

«مولاي إذا الأيادي كواكفات النوادي
أنا عيب مدّ لحم داه الأطاذي
واعتادت النفس مني تصيد الآساد
لاني عليها مقيم رائح أو لغاد
أكر بالضرب فيها والطن عند الجلاد
حتى أبحث حاما بمرفقات حداد
إن لم تكن أسد غبل تكن جاذر واد
بحق لحم وطى وكندة ومراد
ملكك من أرض جس إلى قرى سنداد . »

(وله رحمه الله)

« نظن بنا أم الربيع سامة ألا غفر الرحمن ذنباً توقعه
أسام ظبيا في ضلوعي كناسه وبدر تمام في فؤادي مطاله
وروضة حسن أجتني من ثمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائمه
إذا سئمت كفى نوالا تفيضه على معتقها أو عدواً تقارعه . »

(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقه من خلال الحلك
أنا قريضك والهلم حى لدينا فأمسى به قد هلك
فهاك موارد ود صفت يعلك فيها الذى أتتهك . »

(وله)

« درا بعثت مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لابل عروساً قد زفت تولدت ما بين فكرنا قد وبنان
سمعا لأمرك إذ دعوت إلى التي تدع القلوب قليلة الأحران
أما الكؤس فقد جرت ما بيننا يبدى غزال ساحر الأجان
خذت يسقيني للدمام بطرفه وبكفه ومتى أشا غفاني
فلا لعرك لم أكن لأضيئه لاتحسبنا من بنى سهوان . »

(وله)

« إن كان تصريداً غير تمدد فلا جعلن مكانه وردا
من قهوة ضمننت أكوئسها نارا تكون على الحشا بردا . »

(وله)

« اشرب الكأس في وداد وودادك وتأنس بذكرها في انفرادك
قر غاب عن جفونك مرآ . وسكناه في سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابي على فوزه بإبصاره الغرة الزاهره
فياليت شخصي يكون الكتاب فتلحظه المقله الساحره . »

(وله في اعتماد أيضا)

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل سفها وهل يثنى الخليم الجاهل
يا هذه كني فإني عاشق من لا يرد هواي عنها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظيية سلبت فؤاد محمد أو لم يروءك الهزير الباسل
من شك أني هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل
لون كسته صفره ومدامع هطكت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله في اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلددى وكم عقتى عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كجاة الأعادى في النسيج المررد
لجردت للضرب المهند فاقضى مرادى وعزما مثل حد المهند
فاحل خل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردى بلا ظبا وتسمى بلا قتل وترى بلا يد . »

(وله)

« مشمك أفوح في معطسى ووجهك أملح في ناظرى
ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يابها الشمس اتى قلى لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيفي طيفها في الكرى الخدا فض به تفاحة واجتني وردا
وأثمتي ثغراً شممت نسيبه تخيل لى أنى شممت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظه ولكن حجاب العين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشئون مرجاً ولا وجدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله صوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على جره بردا
هي الظلي جيبداً ، والغزاة سنة وروض الربا فوحاء وغصن النقاقداء .

(وله)

« من عاشق يشكو صباياته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى لافسه حران ظمآن إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بذنا وقرب الشكل إلى شكله . »

(وله)

« بقاي لبعذك عن غابلس ٣١٤ فشوقى صحیح وجسمى علیل
وودی علی حسب ما تملین تزول الجبال وما إن یزول
فلا تستجلی لبعسد الدیار فانی مع البعد لا أستجیل . »

(وله)

« القلب قد لج فما يقصر والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وابل والجسم بال ثوبه أصفر
هذا ومن أعشقه واصل كيف به لو أنه يهجر
لكن عدتي نائبات النوى في دوحه والشادن الأحور
والكوكب الوقاد تحت الدجى في أنفه والقمر الأزهر
والترجس الفواح غب الندى في روضه والمندل الأذفر
قد خبرت عنى أنى امرؤ في شحوب وضنى يظهر
فأبدت الإشفاق من حالى ومثل ما تبديه ما تضمر
واستفهمت أن كنت ذاعلة أو ذا اشتياق ناره تسمر
سيدتى لم تنصني عاشقا أضحى كما أخبرك الخبير
إذ قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما تصبر
ظلمت بالشك هوى الذى يعرفه الزنب والحضر
والله ما سقمى إلا هوى كل هوى فى جنبه يصفر
غمير جسمى فاعلمى أنى أروم لفيك ولا أقدر
فاستغفرى الله من الظلم لى فإن من يظلم يستغفر . »

(وقال)

- « يا ظيية اظفت منى منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد (١)
حي لك الناس طراً يشهدون به وأنت شاهدة إن ينهم حسد
لم يعزب الوصل فيما بيننا أبداً لو كنت واجدة مثل الذى أجده . »

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يجيبني إذ لا كتاب يوافيني فيجيبني (١)
قد مت إلا ذمها في يسكها أن الفؤاد بليهاهم يرجين
ما سرح الدمع من عيني وأطلقه إلا اعتياد أسي في القلب مسجون
صبراً لعل الذي بالبعد أمرضني بالقرب يوماً يداويني فيشفييني
كيف اصطباري وفي كانون فارقتي قلبي وها نحن في أعقاب لمرين
شخص يذكرني فاه وفرته شمس النهار وأنفاس الرياحين
أئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم قد بات منه يسقييني فيرويني
وإن أفاض دموعي نوح باكية فكم أراه يفتيني فيشجيني
وإن بعدت وأضنتني الهموم لقد عهدته وهو يدنيني فيسلييني
أوحل عقد عزائي نأيه فلنكم حلت عن خصره عقد الثمانين
ياحسن لإشراق ساعات الذنوبت كواكباً في ليالي بعده الجوت
والله ما فارقتني باختيارهم وإنما الدهر بالمكروه يرميني
وما تبدلت حبا غير جهم إذن تبدلت دين الكفر من ديني
أفدى الحبيب الذي لو كان مقتدراً لكان بالنفس والأهلين يفتيني
يارب قرب - على خير - تلاقينا بالظالم السعد والظير الميامين . »

(وقال)

« ربما التقينا للوداع غدية وقد خفت في ساحة القصر رايات (٢)
وقرنت الجرد العناق وصفقت طبول ولاحت الفراق علامات
بكينا دما حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الجمر فيها جراحات
وكنا نرجى الأرب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات »

(وقال)

« أهلا بكم صحبتكم - نحوى - الديم وحان أن يقسني لي بكم حلم
حشو المطى ولو لي - لا بمجهلة فلن تضلوا ومن بشرى لكم حلم
لائم القوم إن خطوا يجد قلم وأن يقولوا يصب فصل الخطاب فلم
لاخرق - إن رفقوا كتباً - ولا حصر إذ يفتدون ولا جور إذا حكموا
اندم أباً الأصعب المحبوب تلقى فتى هش المودة لا يزرى به سأم
هذا فؤادي قد طار السرور به إذ كنت تنقلك الوخادة الرسم
سأكم الليل ما أشكوه من بعد وأسأل الصبح عنكم حين يبسم . »

(١) وردت هذه القصيدة في « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(٢) وردت هذه القصيدة في « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

« الشمس تجبل من جمالك فغيب مسرعة لذلك
والنيت يحيي أن يصوب لما يراه من نواك
والبسدر يطلع ناقصاً حتى يتم من كالك . »

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة بخاد بالهوية والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه . وأجنى الورد من الحد . »

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لي تجلت عن فؤادي دجنة الكربات
وغزالا لمقلتيه بقلبي فنكات كأنها فنكاتي
تبت إذ حزت بالوصال وبالهجرجاني تملكا ومماتي
فترفق بموقف أنت منه في سواد القلوب والحدقات
أنا أخشى عليك ياساكن القلب الملى بالصد من نقرات »

(وله)

« أنا في عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صب الفؤاد إلى لقاك وارتشافك واعتناقك
لا تحسبي أني سلوت لما توالى من فراقك
هذي جفوني أقمت لا تلتقي مالم تلاقك
فصلى جميل الظن بي وثقي قلبي في وثاقك . »

(وقال)

« وشمعة تنفي ظلام الدجى نفي للعادم عن الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها في القطع للراس
ساعدها والكأس يسمى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أغاسي »

(وله)

« يا بديع الحسن والإحسان يا بدر الدياجي
يا غزالا صاد مني بالطللي لث الهياج
قد غنينا بسنا وجهك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعدار واقترن الليلى بالنهار
أخضر في أبيض تبيدي ذلك آسي وذا بهاري

فقد حوى مجلسي تماما إن يك من ريقه عقارى .

(وله)

«لله در أبي السنان من فارس شهيم الجنان
تخشاه آساد الرجال كما تريم به القيات
فيأسه يش- في العدا ويحسنة يصي الحسنان .»

(وله)

«يقاتل باللحظ محبوبنا وبالسيف والرمح أمضى قتال
فطورا يصيد ظباء النساء وطورا يصيد أسود الرجال.»

(وله)

«إذا ما اقتنحت الوغى دارعا وقمت وجهك بالمنفر
حسبنا شيك شمس الضحى عليها سحب من العنبر .»

(وله)

«يا قرأ قلبى له مطلع وشادنا فى مهجتي يرتع
والله ما أطع فى العيش مذ أصبحت فى وصالك لأطعم
ليت كما يرتع فى مهجتي أنى فى ريقته أكرم .»

(وله)

«وأغن يلعب بالهجوم كما غدت أرماح قومي بالعداء لواعبا
ذى نعمة يسي العقول بها رشا من عند رضوان أناها ربا .»

(وله)

«يحن حكي صانعه السما لتفصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه كواكب تقضى لنا بالنجاح
وتزدات أطواقه بالنجوم كما لبس الأفق توب الصباح.»

(وله)

«أيا نفس لا تجزعي واصبرى فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصا ك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون ممنع الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف .»

(وله)

«أبصرت طرفك عند مشتجر القنا فبدا لطرفي أنه ذلك
أو ليس وجهك فوقه قمرا يجلى بنير نوره الحلك .»

(وله)

«فتكت مقلناه بالقلب منى وبكت مقلناى شوقاً إليه

فكفي لحظة لنا سيف عبا دودمى له سبحانه بديه .

(وله)

« يا قرا ألقه فؤادى مقالة لم تشب بافك
ومن غدا مسترق حر الكلام قد حازه بملك
نثرت در القريض نثرا يقوم ذهنى له بسلك
فقلت لله درّ ذهن يخرج درا من بحر فك
وجاءت الطير مودعات سر ك يا سر كل ملك
بينان دلا على و داد محضه لى بنير شك . »

(وله)

« بعثت بالمرسل انبساطاً منى على خلقك الجليل
نزراً حقيراً ففیه یأتى فضلك فى العذر والقبول
لو أنه مهجتي لكانت تصغر فى قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيى ومن ظفرت كنى به فدعاني فضله الظافر
إن حال ما بيننا ربحاننا الناضر فناظر اقلب حقا نحوكم ناظر
أحى مكانك من قلبى وأمنعه كما حى الحاجب الإسلام بالاطر . »

(وله)

« أخلفتني وعدك لى ومخلفاً أههدكا
فعد بأن تهجرنى واجر على عادتك . »

(وله)

« وردت أبا الفتح ياسيدى ورود الكرى بعد طول السهاد
ولما احتلت بنا لم تحمل من العين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً خدت تطير إليك بربش الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التنديضا
واقبل جواباً على نظرك الصحيح مريضاً
زفقت نحوى هموساً تجتاب روضاً أريضا
جلوتها فى سواد تجملو المعانى ييضا
وقد منحتك نزراً لا حقاك المروض
وسوف أرفع جهدى من قدرك الخفوضا . »

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبع الأكرام إنعاما ومتبوع الإينعام إتعاما
وإدالا في الناس لكنه أصبح للأموال ظلما
قرنت في كفك بحر الندى بصارم أسكنته الهاما
وجعت فيك خصال الورى وحزت آراء وإقداما
فالموت والعيش بينناك قد صرفن أسيافا وأقلاما
أتمقت بالإينعام ظهري ، فقد أخطت عن شكرك إنعاما
سفتك إفضالا دمي كي ترى تزيد في عمرك أعواما
فاسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح إنظلاما . »

(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شائخاً من المجد فاحتل غير القنن
سألتك صفراه بكراً أجود على بها شائخاً للمسنن
ترد السنن إذا أمها شبا حده من قويم السنن
وإن كنت من معشر في الوغى أقاموا القلوب مقام الجنن . »

(وله إليه يطلب جوادا)

« ألا يا غرّة السعد وقرّة نظر الجود
ومولاي الذي ما زال يسحب حلة الحمد
لعبدك همه هامت بركض الضمر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى عليك في الورد
وإن تقبضه من عبد تمنّ به على عبد . »
(فبعث إليه مسرجا فكتب إليه)

« خلعت ثوب الصقّ على العبيد الوقيّ
يا مستترقا بنعما . كل حر سريّ
أني على الورد سرج كاهدي فوق الهدى
فسوف أورد رمي عليه قلب الكميّ . »

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذي كفاه بجنت السحاب
أنعمت بالبيض الكما ب على والحيل العرب
وغدوت تخشى للعنا ب كما ترجى للثواب
برضاك أبصر نائي ال آمال مني إذا اقترب
وبطيب أيامى لديك عرفت أيام الشباب
فشكرت ما أو ليئنيه من أياديك العذاب
بشبا سناني في الطعان وحديسي في الضراب

وشبا لسانى فى المحا فل بالتعثر لا يشاب

لازلت تنتمل النجو موخذتلك فى التراب»

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل يسرى إلى غرته السارى

وجامعا فى كفه بالندى والبأس بين الماء والنار

اهناً فقد نلت الذى تشتهى نفسك واشكر نعم البارى . »

(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امنع عن عبد رجاك بساعة يرتاح فيها باصطياد أرانب

حتى يصيد بسعدك الأبطال فى يوم الوغى بأسنة وقواضب . »

(وله إليه)

« وساعة للزمان مسعفة قنصت فيها أرانبا وحبل

فلا أرانى إلاه منك رضى إن لم أصدمن عداك كل بطل . »

(وله إليه)

« أوجه البدر يشرق فى الظلام وسهر الله مد على الأنام

وليث الغاب لإقداما وبأسا ورب الفضل والنعم الجسام

عييدك مولع بالصيد قدما وحب الصيدمن شيم الكرام

فاذتك فيه واسلم للأعداى تدير عليهم كأس الجمام . »

(وله إليه)

« أيا ملكا عنى فضله ولم ألف فى بحر نعماء زجرا

عهدت البحار لجزر ومدّ وتأتى بحار أياديك جزرا

دعونا الأمانى لما رضيت فجاءت توالى علينا وتترى

فلم يبق لى أمل أرتجيه سرى أن أقوم بنعمك شكرا

بقيت ولا ملك إلا غدا غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمتعضداً بالله دعوة آمل رجاك على بعد فأصبح ذاقرب

فأمم مأمولا وأم ميمما وحامت أمانيه على مورد عذب

موارد ما حلان عنهن حائما ولا غادرته غير مستعذب الشرب

وها أنا ظمان لمنهل وردكم وحسبى موقوف على وردكم حسبي

أفر بالذى أملت مذكنت آملا وتحنل من علياه فى المنزل الرحب

فجئت أغذ السير حتى كأننى لإفراط إغذاذى على ظهر انجب

فألنيت أعلى الناس قدرا وسوددا وعدلا فذنه النفس صدقابلا كذب

يحن للمل راجيه كالواقى الصب ويهتر للمعروف كالصارم العضب

وإنى لما تولى وأوليت شاكر فن شكر النعماء نال رضى الرب . »

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
وألد من طعم الخضوع على في السم النقيع
إن تستلب عنى الدنا ملكي وتسلمني الجموع

(١) جاء في كتاب المراكشي قبل هذه الآيات الرائعة مايلي :

قال يوسف بن تاشفين لبعض قناته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أني ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت - في عيني - مملكتي ، فكيف الخيلة في تحصيلها ؟ » فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يرأسوا المعتد يستأذنونهم في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، وبمجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاوبة لاروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفلح المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبشورين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو لإظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجالا من قرابته يسمى « بلجين » وأمر إليه ما أراد ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرني بالكون ؟ » فوجه معه المعتد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتد ، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدو دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتمسعت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلادها وقلوب أهلها على محبته منتظمة ، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم - الكائنون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلداً وصبراً ، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤ فزادت الإحنة والحنة ، واستمرت في غلوائها الفتنة . وأجمعت على الثورة بمحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتزيق أديعها ، وسفك دماها ، وحض على هتك حرمتها ، وكشف حرمتها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجليل ، وما حياه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم المرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنصروا بناثاً غير مستنصر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيديه ، وغلالاته ترف على جسده لادركة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغللاته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضلته عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، شقراً صريعاً ، وانهمزت تلك الجموع ، ونزل المتسمنون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الحناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، طردهم القوم ، فظهر على البلد من واديه ،

فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
 لم أستلب شرف الطبا ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
 قد رمت يوم نزالهم إلا تحصننى الدروع
 وبرزت ليس سوى القميد مص عن الحشى شىء مدفوع
 وبذلت نفسى كي تسيء لى إذا يسيل بها النجيم
 أجلي تأخر لم يكن بهواى ذلى والخشوع
 ما سرت قط إلى الفتا ل وكان من أملى الرجوع
 شسيم الألى أنا منهم والأصل تبعة الفروع .»

ويؤس من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانیه ، وشبت النار في شوانیه ، فاقطع عندها العمل
 والقول ، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب
 يوسف أمير المسلمين والتوت الخال أياما يسيره إلى أن ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخى
 أمير المسلمين بعساكره متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس في خلال هذه الأيام قد خاسرهم
 الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتوهون مجارى الأقدار ،
 ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيدون على صريح الود ، ثابتون إلى
 أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة
 الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباديه ،
 بعد أن جد الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال ، وظهر من دفاع المعتد — رحمه الله — وبأسه ،
 وتراميه على الموت بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا تناء لخلق إليه ، وفي ذلك بقول المعتد بعد ما نزل بالعدوة
 أسيراً حسيراً :

« لما تماسكت الضلوع وتمهنه القلب الصديم الخ

فشنت الفارة في البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبيدا ولا ليدا ، وانتهت قصور المعتد نبياً قبيحا ،
 وأخذ هو قبضاً باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتد بالله والراضى بالله ، وكانا جمعين من معاقل الأندلس
 المشهورة لو شاء أن يمتنما بهما لم يصل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب
 رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم السكلى منهم مسترهن بقبولتهما
 فأثقا من الذل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في
 حقوق أboهما المقرنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ، ونبت دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد
 جهود مبرمة ومواقف شريفة . فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه
 وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده ، ورحل المعتد وآله بعد استئصال جميع
 أحواله ، ولم يصحب من ذلك كلة بلغة زاد ، فركب بالسفين ، وحل بالعدوة مثل الدفين ، فكان نزوله
 من العدوة بطنجة .

(وقال)

«قل لمن قد جمع العـمـم وما أحصى صوابه (١)»

(١) قال المراكشي في كتاب المعجب :

« أقام المعتد بطنجة أياماً ، ولفيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عاداته من قبح السكدية وإفراط الخلف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عند المعتد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظي ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعنى الحصرى الأحمى أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتد على الله على الجراب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتد بطنجة رحمه الله أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة ، فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة انمات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتد رحمه الله ودفن بها فقبره معروف هناك ، وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨ فأنه أعلم ، توفي وسنه إحدى وخمسون سنة ، فن أحسن مامرى مما رثى به المعتد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبابة أولها :

« لكل شئ من الأشياء - ميعات ،
والدهر في صبغة الحباء منغمس
واللنى - من مناياهن - غايات
ونحن من لب الشطرنج في يده
وألوان حالاته فيها استجالات
فانفض يدك من الدنيا وساكنها
والعالم العلوى « انمات »
فأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
من لم تزل فوقه للعزريات
من كان بين الندى والبأس أنفله
أنكرت إلا التواء للقيود به
وقلت هن ذؤابات فلم عكست
رأوه ليشاً يخافوا منه عادية
من ريرة العالم العلوى
من لم تزل فوقه للعزريات
من كان بين الندى والبأس أنفله
أنكرت إلا التواء للقيود به
وقلت هن ذؤابات فلم عكست
رأوه ليشاً يخافوا منه عادية

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجبد أولها :

« عريسة دخلتها الناثبات على
وكعبة كانت الآمال تنفرها
تلك الرماح رماح الخط ثقفا
والبيض بيض الظبا فلت مضاربا
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة
كم من درارى سعد قدموت ووهت
نور ونور فهذا بعد نعمته
ياضيف انقر بيت السكرمات تخذ
أساود لهم فيها وآساد
فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
خطب الزمان تنافا غير معتاد
أيدي الردى وثنتها دون انمات
وكل شئ لميقات وميعاد
هناك من درر للمجد افراد
ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

كان في الصرة شعر فتنظرونا جوابه
قد أتيناك فهلا جلب الشعر جوابه .»

ويا مؤمل وادبهم ليسكنه
صلت سبيل الندى بابن السبيل، فسر
خف القطين، وجف الزرع بالوادي
لنير قصد، فأيهديك من هاد .»

وفيها يقول :

« نسيت - الاغداة النهر - كونهم
والناس قدملثوا العبرين، واعتبروا
حط القناع، فلم تستر مخدرة
تفرقوا جيرة، من بعد ما نشأوا
حان الوداع فضجت كل صارخة
سارت سفائنهم، والنوح يتبهم -
كم سال في الماء من دمع، وكم حملت
من لى بكم - يا بني ماء السماء - إذا
في المنشآت كاموات بالحداد
من لؤلؤ طافيات فوق أزيد
ومزقت أوجه تزيق أبراد
أهلا بأهل، وأولاداً بأولاد
وصارخ من مفداة ومن فاد
كأنها إبل يحدو بها الحادي
تلك القطائع من قطعات أكباد
ماء السماء أبي سقياحشا الصادى .»

وهي طويلة جدا هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل بزعاقة الشعراء وملحق أهل الكديه ماصنع المتند رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل
طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب،
سألوا العسير - من الأسير - وإنه
لولا الحياء وعزة الخيبة
قد كان - إن سئل الندى - يجزل، وإن
ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
بسؤالهم لأحق، فأعجب وأعجب
طلى الحشا - ساواهم في المطلب
نادى الصريح بيا به اركب بركب .»

وله في هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر، فاذا صنعنا
قد هوى - ظلماً - بمن طادته
من إذا الغيث همى منبراً
من ضمام الجود من راحته
من إذا قيل الخناصم وإن
قل لمن يطمع في نائله
راح لا يملك إلا دعوة
كلما أعطى نفساً نزا
أن ينادى كل من يهوى لما
أخجلتها كفه فاقطعها
عصفت ربح به فاقشما
نطق العافون همسا سسما
قد أزال اليأس ذاك الطمعا
جبر الله العفاة الضمعا .»

معارضات الشعراء لابن زيدون (١)

سركم الوصل ظناً لا فقدتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنوناً
سرى من المسك عن مسراكم خبر
بُعَيْدَ عهد هواكم سَيْرُهُ فِينَا
أَيَّامَ بدركم يَجْلُو لِيَالِينَا
نوراً وطيبكم يرعى بوادينا
مهلاً فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العذل يغويننا ويرشدنا
ونترك الدار تسليتنا وتشجيننا
وتتبع الحى والأشواق محرقة
تحوم بالماء والأرحام تحميننا
كواكب بساء النقع قد جعلت
لنا رجوماً وما كنا شياطيننا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهو في
منفاه بإسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف
كثيراً من مشاهد ومعاهد .

« أولع كثير من الشعراء من قدماء ومحدثين
بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن تثبت
معارضاتهم الكثيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى
سفر ضخم فلنجزئ بقصيدة « أبو بكر بن الملح »
التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من
القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي
عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :
« أضحى التناؤى بديلاً من تدالينا » (٢)
« وهذه القصيدة بجلتها فريدة ، وقد عارضه
فيها جماعة فصرخوا عنه منهم « أبو بكر بن الملح »
نازعه فيها الراية ، وقصر عن الناية حيث يقول من
قصيدة أولها . »

هل يسمع أربع شكوانا فيشكينا
أو يرجع القول مغناه فيغنيننا
ثم استمر في غزلها إلى أن قال :

يا باخلين علينا أن نودعكم

وقد بعدتم عن اللقيا فخيونا
قفوا نزرکم وإن كانت فرأئدکم
نزرأ ، ومثلكم بالوصل ممنونا

(١) انظر «ص ٤١٢» (٢) انظر «ص ٤»

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
 ولا مفارقهم إلا مصلينا
 لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
 للناس، كانت لهم أخلاقهم ديننا
 لم نسر من حرم إلا إلى حرم
 كالحجر من «بابل» سارت «لدارينا»
 لما بنا الخلد نابت عنه نسخته
 ثمائل الورد «خيريا» و «نسرينا»
 نسقى ثراهم ثناء، كلما نثرت
 دموعنا نظمت منها مرائينا
 كادت عيون قوافينا تحركه
 وكدن يوقظن في الترب السلطينا
 لكن مصر وإن أغضت على معة
 عين من الخلد بالكافور تسقينا
 على جوانبها رفّت تمائمنا
 وحول حافاتها قامت رواقينا
 ملاعب مرحت فيها مآربنا
 وأربع أنست فيها أمانينا
 ومطلع لسعود من أواخرنا
 ومغرب لجود من أوالينا
 بنا فلم نخل من روح يراوحنا
 من برّ مصر وريحان يغادينا
 كأن موسى، على أسم الله تكفلنا
 وبأسمه ذهبت في اليمّ تلقينا

يانأح «الطلح» أشباه عوادينا
 نسجى لواديك أم نأسى لوادينا؟
 ماذا تقصّ علينا غير أن يدا
 قصت جناحك جالت في حواشينا!
 رمى بنا البين أيكاً غير ساعرنا
 أخوا الغريب : وظلاً غير نادينا
 كل رمته النوى اريش الفراق لنا
 سهماً، وسلّ عليك الين سكيننا
 إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع
 من الجناحين عى لا يلبينا
 فإن يك الجنس-يا بن الطلح-فرّقنا
 إن المصائب يجمعن المصابينا
 لم نأل ماءك تخنناً ولا ظمأ
 ولا آدّ كاراً، ولا شجواً أفانينا
 تجرّ من فنن ساقاً إلى فنن
 وتسحب الذيل تتراد المؤاسينا
 أساة جسمك شتى حين تطلبهم
 فنن لروحك بالنطس المداواينا!
 ❖❖❖
 أهّا لنا! نازحى أيك باندلس
 وإن حللنا ريفغاً من رواينا
 رسم وقفنا على رسم الوفاء له
 نجيش بالدمع، والإجلال يثنينا

قف إلى النيل واهتف في خائله
 وانزل كما نزل الطل الرياحينا
 وآس ما بات يزوى من منارنا
 بالحادثات وَيضوى من مغاينا
 *
 ويامعطرة الوادي سرت سحراً
 فطاب كل طروح من مرامينا
 ذكية الذيل لو خلنا غلاتها
 قميص يوسف لم نحسب مغالينا
 جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
 بالورد كتباً ، وبالريا عناوينا
 فلو جزيناك بالأرواح غالية
 عن طيب مسراك لم تهض جوازينا
 هل من ذبولك مسكى نحمله
 غرائب الشوق وشياً من أمالينا
 إلى الذين وجدنا ود غيرهم
 دنيا وودهم الصافي هو الديننا
 *
 يا من نغار عليهم من ضمائرنا
 ومن مصون هواهم في تناجينا
 ناب الحنين إليكم - في خواطرنا -
 عن الدلال عليكم في أمالينا
 جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
 - في النابات - فلم يأخذ بأيدينا

ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة
 لحاضرين ، وأكواب لبادينا
 *
 ياسارى البرق يرمي عن جوانحنا
 بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
 لما تفرق في دمع السماء دماً
 هاج البكا فحضبنا الارض باكيننا
 الليل يشهد لم تهتك دياجيه
 على نيام ولم تهتف بسالينا
 والنجم لم يرنا إلا على قدم
 قيام ليل الهوى للعهد راعينا
 كزفرة في سماء الليل حائرة
 مما تردد فيه حين يضويننا
 بالله إن جبت ظلماء العباب على
 نجائب النور محدوداً (بجرينا)
 ترد عنك يدها كل عادية
 إنسا يعثن فساداً أو شياطيننا
 حتى حوتك سماء النيل عالية
 على الغيوث وإن كانت ميامينا
 واحرزتك شفوف اللازورد على
 وشى الزبرجد من أفواف واديننا
 وحازك الريف أرجاء مورجة
 ربت خمائل ، وأهتزت بسائينا

والسعد لودام، والنعمى لوأطردت،
 والسيل لوعف، والمقدار لودينا
 ألقى على الأرض حتى ردها ذهباً
 ماء - لسنا به إلا كبير - أوطينا
 أعداه من يمنه «التابوت» وارتسمت
 - على جوانبه - الأنوار من سينا
 له مبالغ ما فى الخلق من كرم
 عهد السكرام وميثاق الوفيينا
 لم يجز للدهر إغذار ولا عرس
 إلا بأيامنا أو فى ليالينا
 ولا حوى السعد أطفى فى أعنته
 منا جيداً، ولا أرخى مياديننا
 نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
 ولم يهن بيد التشتيت غالينا
 ولا يحول لنا صبغٌ ولا خلق
 إذا تلون كالحرباء شانينا
 لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
 فى ملكها الضخم عرشاً مثل واديننا
 ألم تؤله على حافاته، ورأت
 عليه آبناءها الغر الميامينا ؟
 إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
 خائل السندس الموشية الغينا
 وبات كل بجاج الواد من شجر
 لوافظ القرز بالخيطان ترمينا

وما غلبنا كلى دمع ولا جلد
 حتى أتننا نواكم من صياصينا
 ونابغى كأن الحشر آخره
 تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
 نظوى دجاء بجرح من فراقكمو
 يكاد فى غلس الأسحار - يطويننا
 إذا رسا النجم لم ترقاً محاجرنا
 حتى يزول، ولم تهدأ تراقينا
 بتنا تقاسى الدواهى من كواكبه
 حتى قعدنا بها : حسرى تُقاسينا
 يبدء النهار فيخفيه تجلدا
 للشامتين، ويأسوه تأسينا
 ❖❖❖
 سقياً العهد - كأكناف الربى - رقة
 أنى ذهبنا، وأعطاف الصبا لينا
 إذ الزمان بنا غيناء زاهية
 ترف أوقاتنا فيها رياحينا
 الوصل صافية، والعيش ناغية
 والسعد حاشية، والدهر ماشينا
 والشمس تختال فى العقيان تحسبها
 «بلقيس» ترفل فى وشى اليمانيا
 والنيل يقبل كالدينا إذا احتفلت
 لو كان فيها وفاء للمصافينا

سعيًا إلى مصر تقضى حق ذا كرنا
 فيها إذا نسي الوافي وبا كينا
 كَنْزٌ (بخلوان) عند الله نطلبه
 خير الودئع من خير المؤدينا
 لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
 لم يأته الشوق إلا من نواحيننا
 إذا حملنا لمصر أوله شجنًا
 لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

زحلة

« وقال معارضاً قصيدة ابن زيدون التي أروها :
 « ما للدمام تديرها عينك »

شيعت أحلامي بقلب باك
 ولحمت من طرق الملاح شباكى
 ورجعت أدراج الشباب وورده
 أمشى مكانهما على الأشواك
 وبجانبى واه كأن خفوقه
 لما تلفت جهشة المتباكى
 شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه
 فأذا أهيب به فليس بشاك
 قد راعه أنى طويت جبائلى
 من بعد طول تناول وفسكاك
 ويح ابن جنبى كل غاية لذة
 بعد الشباب عريضة الإدراك

وهذه الأرض من سهل ومن جبل
 قبل (القياصر) دنأها (فراعينا)
 ولم يضع حجراً بان على حجر
 فى الأرض إلا على آثار بانينا
 كأن أهرام مصر حائط نهضت
 به يد الدهر لا بنيان فانينا
 إيوانه الفخم من عليا مقاصره
 يفى الملوك ولا يبقى الأواينا
 كأنها ورمالا حولها التطمت
 سفينة غرقت إلا أساطينا
 كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً
 كنوز (فرعون) غطين المواينا

أرض الأبوة والميلاد ، طيها
 مر الصبا فى ذبول من تصاينا
 كانت محجلة فيها مواقفنا
 غرا مسالمة المجرى قوافينا
 قآب - من كُرّة الأيام - لاعبنا ،
 وثاب - من سنة لأحلام - لاهينا
 ولم ندع لليالى صافياً ، فدعت
 « بأن نقص فقال الدهر : آمينا »
 لو أستطعنا : لخصنا الجوّ صاعقة
 والبر ناروغى ، والبحر غسلينا

ودخلت في ليلين فرعك والذحى
 ولتت كالصبح المنور فاك
 ووجدت في كنه الجوانح نشوة
 من طيب فيك ومن سلاف لَمَّاك
 وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
 عيني في لغة الهوى عيناك
 ومحوت كل لبانة من خاطري
 ونسيت كل تعاتب وتشاكي
 لا أمس من عمر الزمان ولا غد
 جُمعَ الزمان فكان يوم رضاك
 لُبنان رَدَّتني إليك من النوى
 أقدار سَيرٍ للحياة دراك
 جمعت نزيلتي ظهرها من فرقة
 كرة وراء صوالج الأفلاك
 نمشى عليها فوق كل نجاة
 كالطير فوق مكامن الأشراك
 وَلَوْ أَنَّ بالشوق المزار وجدتي
 ملقى الرحال على ثراك الذاك
 بنت البقاع وأم برَدَوْنِيهَا
 طيبي كجلق واسكبي برداك
 ودمشق جنات النعيم وإنما
 الغيت سدة عدنن رباك

لم تبق منا يا فؤاد بقية
 لفتوة أو فضلة لعراك
 كنا إذا صفقت نستبق الهوى
 ونشد شد العصبة الفتاك
 واليوم تبعث في حين تمزني
 ما يبعث الناقوس في النسك
 يا جارة الوادي طربت وعادني
 ما يشبه الأحلام من ذكراك
 مثلت في الذكري هواك وفي الكرى
 والذكريات صدى السنين الحاكى
 ولقد مررت على الرياض بربوة
 غناء كنت جياها ألقاك
 ضحكت إلى وجوهها وعيونها
 ووجدت في أنفاسها ريبك
 فذهبت في الأيام أذكر رفرقا
 بين الجداول والعيون حواك
 أذكرت هرولة الصباية والهوى
 لما خطرت يقبلان خطاك
 لم أدر ما طيب العناق على الهوى
 حتى تفرق ساعدي فطواك
 وتأودت أعطاف بانك في يدي
 واحمر من خفريهما خدك

كالفيد من ستر ومن شبك
 وكأن كل ذؤابة من شاهق
 ركن المجرة أو جدار سماك
 سكنت نواحي الليل إلا أنه
 في الأيك أو وترأشجى حراك
 شرفاً عروس الأرز كل خريدة
 تحت السماء من البلاد فداك
 ركز البيان على ذراك لواءه
 ومشى ملوك الشعر في مغناك
 أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
 أرضاً تمخض بالشموس سواك
 من كل أروع علمه في شعره
 ويراعه من خلقه بملك
 جمع القصائد من رباك وربما
 سرق الثمائل من نسيم صباك
 (موسى) بيابك في المكارم والعالا
 وعصاه في سحر البيان عصاك
 أحللت شعري منك في عليا الذرا
 وجمعه برواية الأملاك
 إن تكرمي يا زحل شعري إنني
 أنكرت كل قصيدة إلاك
 أنت الخيال بديعاً وغريبه
 الله صاغك والزمان رواك

قسما لو انتمت الجداول والربا
 لتهلل الفردوس ثم نمناك
 مرآك مرآه وعينك عينه
 لم يا زحيلة لا يكون أباك
 تلك الكروم بقية من بابل
 هيهات نسي البابل جنك
 تبدى كوشى الفرس أفن صبغة
 للناظرين إلى ألد حياك
 خرزات مسك أو عقود الكهربا
 أودعن كافوراً من الأسلاك
 فكرت في لبن الجنان وخرها
 لما رأيت الماء مس طلاك
 لم أنس من هبة الزمان عشية
 سلفت بظلك واتقضت بذراك
 كنت العروس على منصة جناحها
 لبنان في الوشى الكريم جلاك
 يمشى إليك اللحظ في الديباج أو
 في العاج من أى الشعب أناك
 ضمت ذراعها الطبيعة رقة
 «صنّين» و«الحرمون» فاحتضناك
 والبدر في ثبج السماء منور
 سألت حلاه على الثرى وحلاك
 والنيرات من السحاب مظلة

وقال

« وقال معارضاً كافية ابن زيدون التي أولها :

« ودع الصبر بحب ودعك (١) »

ردت الروح كلّي المضنى معك

أحسن الأيام يوم أرجعك

مرّ من بعدك ما روعني

أترى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى

مطلع الفجر عسى أن يطلعك

وبعثت الشوق في ريح الصبا

فشكا الحرقه مما أستودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى

بعذولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى

زعم القلب سلا أو ضيعك

موقعى عندك لا أعلاه

آه لو تعلم عندى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجع

ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعين ، إلا مقلة

تسكب الدمع وترعى مضجعك



صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

وبرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطق لسانه ، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب ، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن

المكربى أحد حكام قرطبة ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي المزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره في صنائه ، ولما ولي الأمر - بعد والده - نوه به وأسنى خطه وقدمه في الذين اصطنع لدولته ، وأوسع راتبه وجله كرامة لم تقعه فيها زعموا ، وانفق أن عن له مطلب بمحضرة إدريس الحسني بمالقة ، فأطال التواء هنالك ، واقترب من لإدريس ، وخب على نفسه ، وأحضره مجالس أسه ، فغتب عليه ابن جهور ، وصرفه في السفارة بينه وبين أسراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك لفضل ما أوتيته من اللسان والعارضة ، فاكتمب الجاه والمنفعة ولم يبعده ذلك من التهافت في الترقى لبعده الهمة ، فهوى عما قليل إلى عباد صاحب إشبيلية اجتذبه إلى ذلك فهاجر عن وطنه إليه ، ونزل على كنفه ، وصار من خواصه وصحابه ، يجالسه في خلواته ، ويراسل له في مهم رسائله على حال من التوسمة ، وكان ذهابه لعباد سنة ٤٤١ هـ لإحدى وأربمين وأربمائه . قال أبو الحسن : « فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه ، وغرارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبيح الذي لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذي لا يمصى ولا يعد . »

بداهته وتصرفه بفنون القول

أخبرني من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية قال : « عهدى بأبي الوليد قائماً على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه ، وحضور جناحه . » وقد أخرجت من أشعاره التي هي حجول وغرر ونوادير أخباره التي هي مآثر وأثر ، ورسائله

فصل في ذكر ذى الوزارتين الكاتب أبي الوليد ابن زبدون واجتلاب عيون أخباره ، ونصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد غاية منشر ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من خبر الأيام خيراً ، وفاق الأنام طراً ، وصرّف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدن تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقتترانه ، وحظ من النشر غرب المبانى ، شعري الألفاظ والمعاني . أخبرني غير واحد من وزراء إشبيلية قال : خلص ابن عبد العزيز من يد عباد ، خلوص الفرزدق من يد زياد ، وبقيت حضرته من أهل هذا الشأن ، أعرى من ظهر الأفعوان وأخلى من صدر الجبان ، فهم باستجلاب (محمد بن الباجي) المشهور أسره ، الآتي في القسم الثاني من هذا الديوان ذكره ، فكان أبو الوليد غص بذلك وواطأ أبو محمد بن الجد على الإشارة بالاستغناء عما هنالك ، فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبي الوليد إلى شرق الأندلس ، فيقال تأتي بإشبيلية كتب هي بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمشور .

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان في وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته ، فقال « ونوه بفتى الآداب ، وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبي الوليد أحمد بن زبدون ذى الأبوة السنية بقرطبة ، والوسامة ، والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلطة ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة ، وقدمه للنظر على أهل النمة لبعض الأمور العترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤسا ، فأحسن التصرف في ذلك ، وغلب على قلوب الملوك » قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفنسة

كالدهر إن عض يوماً

أبان فضل الكريم .



وأبو الوائد بن زيدون - على كثرة إحسانه - كثير
الاهتمام في النثر والنظام ، وكتب إلى أبي بكر مسلم
وهو محتف بقربة بعد فراره من السجن ، فصلا
من رقعة :

« وبلغني أنك أحد اللأئمين ومن أمثالهم
ويل للشجي من الخلي ، وهان على الأملس مالاتي
الدبر واعتبك على انفصالك عني وترى أنك أحد
الخنثى مني فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من
لايستبد فالمرء يعجز لاءاله ، ولم أستجز أن أكون
ثالث الأذلين العير والودت ، وتذكرت أن الفرار
من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ،
وقد قال تعالى على لسان موسى : ففررت منكم لما
خفتكم . نظرت في مفارقة الوطن فقدميما ضاع
الفاضل في وطنه ، وكسد العاق الغبيط في معدنه
كما قال :

« أضيع في معشري وكم بلد

يكون عود الكباء من حطبه »

فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأما الآن حيث أمنت
بعض الأمن إلا أن السمي لم يرتفع ومادة البني لم
تقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
وشط - بمن نهوى - المزار وما شطوا . »



.....
كأن أول هذه القصيدة ناظر إلى قول راشد أبي حكيمة
حيث يقول :

« ومستوحش لم يمض في أرض غربة

ولكنه ممن يحب غريب . »

ويناسبه أيضاً قول المتنبي :

« إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

أن لا تفارقهم فالراجلوت هم . »

قوله هرمت وما للشيب البيت ناقص عن قول المتنبي :

التي أخرجت الحفل ، واستوفت أمد المنطق الجزل .

.....
.....
.....

وله في ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ماجال بعدك لحظي في سنا القعر

إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . » الخ

وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو
في تلك الحال من الاعتقال أوها :

« ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي

ويطلب نأرى البرق منصلت النصل . »

وفي بني جهور يقول :

« بني جهور أحرقتم بجفائكم

جناني ، فما بال المدائح تعبق

تعدوني كالعنبر الورد إنما

تطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأراه توارد في هذين البيتين مع أبي علي بن رشيق
القيرواني حيث يقول :

« أراك أهمت أخاك الله

وعندك مقت وعندي مقه

وأنتي عليك وقد سؤنتي

كما طيب العود من أحرقة . »

وأخذه معاً من قول أبي تمام :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف فضل طيب العود . »



وأشهديني بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن
شماخ لنفسه :

« نوابث ظالني ، فأبدت نضائلي

وكانت وكنت النار والعنبر الورداء . »

ولغيره :

« إن مست النار جسمي

أبدت طيب نسيم

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :
 « لا تجعلى وصلنا كالورد حين مضى
 ذا طلعة وأديمى الورد كلاس . »
 كرّره العباس في موضع آخر ، فقال :
 « ولكننى شبهت بالورد عهدها
 وليس يدوم الورد والاس دائم . »

* * *

ما أخرجته من شعر ابن زيدون في النسب وما
 يناسبه من قصيدة :

« بتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
 شوقاً إليكم ولا جفت ما قينا (١)
 لم نمتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 رأياً ولم نتقلد غيره ديناً
 تكاد حين تتاجبكم ضمائرنا
 يقضى علينا الأسمى لولا تأسينا
 حالت لفقدكم أيامنا ففقدت
 سوداً وكانت بكم أيضاً ليالينا
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا
 ومورد اللهو صاف من تصافينا
 وإذا هصرنا غصون الأنس دانية
 فتلوها فحيناً منسه ما شينا
 ليسق عهدكم عهد السرور فما
 كنتم لأيامنا إلا رياحينا
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 إذ ظلمنا غير التأى المحينا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ياسارى البرق فاد القصر فاسق به
 من كالصرف الهوى والوديسقينا
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيئنا
 من لو على البعد حيا كان يحينا
 ريبب ملك كأن الله أنشأه
 مسكا وقدر لإنشاء الورى طيناً

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدى

شيب إذا خضبته سلوة لصلاح . »

وقد كرّر هذا المعنى أبو الطيب في مواضع من
 شعره وكلف به وشعب الكلام فيه فتصرف ، وقد
 تقدّم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل المرسي
 للمعتمد ابن عباد :

* * *

« أتك على خلافتها جياذى

وإن كان الضياع لها شكالا . »

وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبة ذلك
 إلى أبي حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى طيبيّ باس يجرح الدهر وياسو (١)
 ربما أشرف بالمرء على الآمال ياس
 ولقد ينجيك إغفال ، ويرديك احتراس
 والمحاذير سهام والقادير قياس
 يا أبا حفص وما ساءاك في فهم إياس
 من سنا رأيك لى في غسق الخطب اقتباس
 وودادى لك نص لم يخالفه القياس
 أذؤب هامت بلحى فاتهم وانتهاس
 يلبد الورد السبتي وله بعد اقتراس
 إن أكن أصبحت شبو ساء نلغيت احتباس
 تتأمل كيف ينشى مقلة المجد النعاس
 ويفت المسك في التراب فيوطا ويداس
 لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس
 وأردز كرى كأساً ما امظت كففك كاس
 فعسى أن يسبح الدهر فقد طال الشمس . »
 قوله يلبد الورد السبتي البيت كقول النابغة :

« وقت يا قوم إن الليث منقبض

على برائته للوثبة الضارى . »

وأخذه ابن الرومي فقال :

« سكنت سكناً كان وهناً بوئبة

عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

(١) أثبتنا هذه الأبيات لاختلاف روايتها عن
 رواية الديوان .

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن
 رواية الديوان .

إذا تأود آدته - رفاهية -

توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته
بل ما تجسلى لنا إلا أحيينا
يا روضة طال ما أجتت لواحظنا
وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
منى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلاا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يفتينا
يا جنة الخلد أبدنا بسلسله
والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأنتا لم نبت والوصل ثالنتا
والسعد قدغض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظالم، يكتننا
حتى يكاد لسان الصبح يفتينا
إنافر أنا الأسى عند النوى - سورا
مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شربا وإن كان يظلمنا فيروينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
- سالين عنه - ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كذب
لكن عدتنا على كره - عوادينا
نأسى عليك وقد حثت مشعشة
فينا الشول ، وغنانا مغنينا
لأ كؤس الراح تبدى من - شماننا -
سما ارتياح ، ولا الأوتار تلهينا
دوى على الوصل - مادمننا - محافظة
فالحر من دان أنصافا كما دينا
فما استفدنا خليلا عنك يصرنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يملينا
ولو صبا نحونا من علو مظلمه
بدر الدجى لم يكن - حاشاك - يسبيننا
أبدى وفاء ، وإن لم تبدى صلة
فالذكر يقنعنا ، والطيب يفتينا

وفي الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقت
صباية بك تخفيها فتخفيها . «
وهذه القصيدة بجملة فريدة وقد عارضه فيها
جماعة قصروا عنه (١)
وله من أخرى أثر نزهة كانت له بمنية الزهراء :
« إني ذكرك بالزهراء مشتاقا
والأفق طاق ووجه الأرض قدراقا . «
وله من أخرى ، وكتب بها من بطليوس أيام تكرر
عليها وهي من غرر نظامه وحر كلامه :
« يا دمع صب ماشئت أن تصوبا
ويا فؤادى أن أن ذوبا . «
وله :
« وضع الحق اللبين ونفى الشك اليقين . «
وقال :
« صحت فصح بها السقيم ربح معطرة الذم . «
وقوله :
« يا ليل ظل لا أشتهى إلا كعمرى قصرك
لو بات عندى قرى ما بت أرعى قرك . «
وقوله :
« ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك . «
وقال :
« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
سر إذا ذاعت الأشياء لم يدع . «
وفيها يقول :
ته أحتمل واستطل أصبر وعز آهن
وول أبل وقل اسمع ومر أطلع . «
أراه احتدى بهذا البيت مذهب أنى العيشل الأعرابي :
« فاصدق وعف وفه وانصف وأحتمل
واصلح ودار وكاف واحلم واسجع
والطف ولن وتأن وارفق واتمد
واحزم وجد وحلم واحمل وادفع . «
كقولك الجن :
« أحل واقرر وضر وانقم ولن واخن
ورش وابن واتدب للمعالى . «
وهذا البيت صنعه المولدون وعدوه نفسيا
(١) وقد أنبتنا بعض هذه المراضات فى « ١٠٤ »

وقطيعاً وتبعهم المتنبي فقال :

« اقل اقل اقطع احمّل على سسل أعد

زد هـش بش تفضل ادن سرصل . »

ثم زاد المتنبي من هذا وبني حتى قال :

« عـش ابق اسم اسر قد جد

سـرانه جد رف اسر بل . »

بيته المعروف . وأحسن لعمرى ابن زيدون في هذا التقسيم ، ودافع بالحديث في صدر القديم ، ولو قرع سمع أبي منصور بهذا الشذوذ لما كان عند ابن وسكـير بمذكور ، ولا أغرب بفرائب صاحب ولا بيدائم البديع . ومن شعر أبي الوليد في الغسيب السائر الغريب الطيار المليح الخفيف الروح قوله :

« أما رضاك ففىء ماله ثمن

لو كان سماحني في ملكه الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الضنى وسر الضلوع

وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« غريب بأرض الشرق يشكر للصبا

تحملها منى السلام إلى الغرب

وما ضر أنفاس الصفا في احتمالها

سلام حتى يهديه جسم إلى قلب . »

وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تالله ما شطت نوى ظاعن

سار من العين إلى القلب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« سأحب أعدائي لأنك منهم

يا من يصح بقلتيه ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما في نسيم الريح عرف معرف

لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تديره

أضحى لملكك الزمان ملاكا . »

وله من أخرى في ابن جهور :

« هـذا الصباح على سراك رقيباً

فصلى بفركك ليك الغريبيا . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحظ مراض صحاح

تصبي وأعطاف نشاوى صواح . »

وفى بنى جهور يقول عند نكبة بنى ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرفت همم

عند السوالف في أحيادها تلغ . »

قوله في هذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب

جوهرها في أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر

بلحظ مريب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل

من سنخه لم ينتفع بصقال . »

وله من أخرى يهتئ المعتضد بن عباد بهزيمة ابنه

اسماعيل لابن الأظلس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله

في تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك في العدا

وإن راح صنع الله نحوك واعتدى . »

وفاة ابن زيدون

ومما يتعلق بذكر وفاة ذى الوزارتين رحمة الله

عليه فضل من تاريخ الشيخ أبي مروان بن حيان

رأيت لإبائته لنبل مساقه ، وحسن اتساقه . يقول

فيه ، وفى يوم الاثنين ثلاث عشرة ليلة خلت من

ذى الحجة سنة اثنين وستين وأربعمائة سار

الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية الحضرة

الأئيرة لمطالعتها ، وتأينس أهلها من وحشة خامرت

عامتهم من أجل عدوان رجل منهم على يهودى جاء (١)

لأمر جهة السوق عندهم ، فزعم أنه سب

الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه

وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة

بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس في

حبسه كلام وإكثار خشن ناله ، فخطاب السلطان

بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره في شأنه ، ففعل

إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى إشبيلية في جيش

(١) في القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد

أثبتناها كما هي .

عليه، إذ كان منهم متعصبا له، هاويا إليهم، حديبا عليهم وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية، فصار مصابه كفا فيه من تأميلهم والبقاء لمن تفرد به وحده لأرب غيرة ولاجرم إذا أعز الله إخوانه بابتدار بقاء فتاه النسب أبي بكر ولده ساد أمثله ساميا مسما غائظا عداه طاطيا منتهاه بأبوة صدق يجرى إلى العلى بضيغه من سماحة ودمائة وحصانة ونزاهة ومعرفة وفور حظ من أدب بلاغة وكتابة وشركة في التعاليم العامية واشتداد في رعاية متقدم الذمة لم يفقد إخوان أبيه معها إلا غيبته خلال حرّكن حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه قسطاس السياسة فاستبصر في استحضاره وأدناه من اجتيابه ورقاه في مراتب والده متقلا له في درجتها راضيا بلاه فيما ناطه به منها حتى فرع ذروتها عما قليل فأحظاه بالوزارة وصيره وزيرا لحضرتة الأئيرة اشبيلية، وجمعه أعظم خططها العلية معاطس التنافس من قوام الملكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان، والله يؤتى فضله من يشاء له الفضل والامتنان .

وقال :

« لا طار لي حظ إلى غاية

إن لم أكن منك فريش الجناح

وعتباك بعد العتب أمنية

مالي على الدهر سواها اقتراح

لم يثنني عن أمل ما جرى

قد يرتع الحرق وتؤسى الجراح

فاجهد بحمي الرأي عن يريح

منه العدا بكل شاكى السلاح

واشفع فلشافع ندمي بما

تمر من عقد وثيق النواح

إن سحاب الأنقى منها الحيا

والجد في تأليفها للرياح . »

وكان القاضي أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل عليه أوان مجدا وشرقا وتفننا في العلم وتظرفا مع دعابة حين خلواته تحمل حيي المحتبي ورفاقه عند نشوانه كالتنوخى والمهلي، فإذا أصبحوا بكر أبو بكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

كثيف من نخبة غلمانة ووجوه رجاله لمشاركة القصة والاحتياط على العامة، نفذوا معه وسط هذا اليوم وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد الثلاثة أكابر وزرائه المشاة وزارتهم عمده دولته أزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك متألما منه ولم يعذره في التوقف لأجله، فضى لطيته مساقا إلى منيته وخلف ولده أبا بكر الفد الوزارة المرسمة بالكتابة، وراه سادا مكانه بالحضرة، فأقر فيها أياما، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلفه أعجل بالانطلاق له، فضى نجبه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها، تخلت منهم منازلهم بقرطبة وصبرت إلى سواهم، فتحدث الناس بسبق مكان الأدب ابن زيدون لدى السلطان وإن استمساكه لعل مرتبة بعدمختصه المعتضد بالله . كان من المعتد على الله رعاية لخصوصية أبيه به يفتص باستمرارها تقناه المختصان به الحظيان لديه المستهمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن عملا في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده فأمضى خلفه، فعندها استساغا غصته، واستهلا مكانه، واحتويا على خاصة السلطان، وتديبر دولته، ولكل دولة رجال، ولكل مكثف إبدال، ولم يطل الأمد لابن زيدون بعد لحاق ابنه به، ووجدانه إياه متزايدا في مرضه، نازعا عن الآفة على جهده في استدائها على انتهاء المدة، وانتهاك القوة، فاستقر به وجمه إلى أن قضى نجبه، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين، فدفن بها مشهودا مفتقدا، واحتوى ترابها عليه، فباعد ما بين قبره وقبر أبيه لدينا رحمة الله عليهما فقدتولى من أبي الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جلالا وبيانا وبراعة وسلطانا وظرفا وحولولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمرقة لم يخلف لها بعده عاطيا بقرانه بين الكلامين وبراعة في الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل في النظم أمد لطفاء واحث عتقا، فلا يلحقه فيه تقصير ولا ينجش رهقا شهودة في الفنين عسودل مقانع حضور عند أهل المعرفة، ولما اتصل خبر هلكة بعشيرته أهل قرطبة شيعوه وبكوا لفقدته وحزنوا

رجاله نحر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً ومن خيلهم مثلها نفس جناح قرنه وأفنى حماة رجاله ثم إن عباد أurd ذلك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد ابن الأفتس يابرة وقد استدعى أيضاً ابن الأفتس خليفته إسحاق بن عبد الله فلتقت به خيله مع ابنه أبي الز بعد أن جمع ابن الأفتس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من اللباض ببلده وحشد من رجال البوادي

بعمله خلقاً كثيراً وأقبل بجمعه هذا المنجوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده يابرة ، وقد كان برابرة خليفته إسحاق في عسكره قالوا له لا تلتهم فليست تعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى الفريقان من غير نزول ولا تعبشة فاختلفوا واجتلدوا مليا لحقق العاديون الضراب. وتابوا الشدات فقاد البرابرة عند أصحاب اسحاق ، وانهزم ابن الأفتس وجل السيف على جميع من معه ، فاستأصمهم القتل وقتل ولد اسحاق وجز رأسه وبعث إلى إشبيلية مع رأس ابن عم ابن الأفتس صاحب يابرة يدعي بعبيد الله الحرار ونجا ابن الأفتس في خيله إلى يابرة . قال أبو سروان وأقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الواقعة ثلاثة آلاف فأزيد وأخبرني من أتق به أن بطبوس بقيت خالصة الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أثمار الباء الشيوخ الكهول الذين أصيبوا يومئذ فاستدللت على فشو المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه ولم يستتجر لضده عباد في طلب رأس ابنه ، فإن عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشبيلية انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الراسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها الفتنة المبررة حتى نتحت إشبيلية على الأمير الأجل سير بن أبي بكر فجئى بجوانق مقلل مخنوم عليه ، فأمر بفتحها ، لا يشك أنه مال أو ذخيرة فإذا هو ملوء

ما كان عليه من فكاخته فكأنه في بردية الامام وكأنه وقار بديل أوشام مع عدله في قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاروا في ميدانهم كل وصف إلى أن اختلس أبو بكر منها وتخلص ذيل مؤانسته عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضاً فيما كانوا فيه وما تعدياه ، واتفق أن سر يوماً بقبوره في لمة من إخوانه وجماعة من عمار ميدانه فعضفوا عليه مسلمين ووقفوا عليه متألمين ، فقال أبو الوليد :

« يا قبره العطر الثرى لا يبعدن

حلو من الفتیان فيك حلال »

وله :

« على داره الشرق منى تحية

زكت وعلى وادى العقيق سلام »

وله :

« خليلي لافطر يسر ولا أضحي

شاحال من أمسى مشوقاً كما أضحي »

وله يرثي :

« أعباد يا أوفى الملوك لقد عدا

عليك زمان من سحيته الغدر . »

ونلمع من خبره هذه الواقعة بلحة . قال أبو سروان في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد بابن الأفتس إلى جنب يابرة ، وكان سبب هذه الحرب أن فتح ابن يحيى صاحب لبلة يومئذ خليفة ابن الأفتس والى آل عباد للضرورة فكاشفه ابن الأفتس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصامت عند ما حمله إليه وديعة عند تورطه في حرب ابن عباد قبل فانبث بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفتس في ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستنات عباد فأرسل إليه خيلاً منتقاة فلتقت الخيل الأفتسية وهى قد شدت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا ضعفهم واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون ، فإذا بعباد بحملته في كين قد خرج أثرهم فدهشوا وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبذل عباد المال في رؤوسهم ، وكانت ثقاته خيل ابن الأفتس وأبطال

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأمر برفع كل رأس
 منها إلى من بقي من عقبه بالحضرة . حدثني من رأى
 رأس يحيى بن عليّ الجردى ثابت الرسم غير متكلم
 الشكل فدفن إلى بعض ولده فدفنه .
 وقال ابن زيدون في ابن جهور من قصيدة أولها :
 «أجل إن ليلي حيث أحيأها الأزدي
 مهاة حمتها في مرابضها الأسد »
 وكان ابن جهور يومئذ كسر دنان الحجر ، وكان
 أيضاً يومئذ مثل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصفر
 بشعر أوله :
 « كرت لجبر الدين أوعية الحجر
 فأحرزت خصل السبق في الكسرو الجبر
 عمدت إلى الشر الذي جمعا
 ففرقت منه فاسترحنا من الشر . »
 في أبيات غير هذه استبردت جملتها وإنما ذهب
 إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم
 صب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة
 الكوفي وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :
 « يا لقومي لقد جنى السلطان
 لا يكن للذي أهان الهوان . » الخ
 وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال للمنشد
 من حق الفتوة أن أكتبها قائماً وما أقدر إلا أن
 يعمدني للعرس به ، قال المحدث فأعمدته ، وقام
 يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هذا مولى بني أسد
 طيب الشعر خليعاً ماجناً ، وكان يالف هدهداً يأتيه
 كل يوم في موضع يغنيه شراباً فلا يزال يشرب على
 صوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاماً
 نصرانياً وهو القائل :
 « زناره في خصره معقود
 كأنه من كبدي مقدود . »
 وبكر القائل :
 « قلبي إلى ما ضرتني داعي
 يكثر أسقامي وأوجاعي
 كيف احتراسي من عدوي إذا
 كان عدوي بين أضلاعي . »

ولصالح ابن عبيد في ذلك :
 « ليس همي ولا طويل انتحابي
 لمثيب أزال عني شـ بابي . »
 رجع وقال ابن زيدون يرثي :
 « انظر لحال السرو كيف تحال
 ولدولة العلياء كيف تـ دال . »
 وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثي
 أبا الحزم ابن جهور :
 « ألم تر أن الشمس قد ضها القبر
 وإن قد كفنا نـ فقدنا القمر البدر . »
 وله من أخرى في هذا المعروض ، وقد تكرر فيها
 بعض أبيات القصيدة الأولى ورثي بها أم أبي الوليد
 ابن جهور يقول فيها :
 « هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر
 فن شيم الأحرار في مثلها - الصبر . »
 إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر
 فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتذكير رثي بها
 آخرها عبادا المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :
 « هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر . »
 ثم أتبعه بقوله :
 « حياة الوري نهج إلى الموت مهيع
 لهم فيه إيضاع كما يوضع السفر . »
 يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الحظيئة بنسبه ،
 ويتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنته وذكرك
 وقدم فيه وأخر . قال أبو اللاء :
 « رب لحد قد صار لحداً مراراً
 ضاحكاً من تراحم الأضداد . »
 وبلغني أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر
 يقول فيه :
 « لفسد سرنا أن النبي موكل
 بطاغية قد حم منه حمام
 تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى
 ومر عليه النيث وهو جهام . »
 وقال يخاطب الوزير أبا عامر بن عبدوس من
 قصيدة أولها :

ونخل من سيف العدير
 بفيضة الظل الظليل
 والروض ممتور تم
 (م) عليه أنفاس القبول
 والشمس نرمقها خلا
 ل النيم عن طرف كليل
 ابان يحدو الرعد من
 ورق السحاب كالحول
 ويهز كف البرق في الـ
 آفاق مرهفة النصول
 زمن سديك الحما
 م ممي وتذهل عن هديل
 يا برق أودية المني (١)
 تقديك نفسى من رسول
 عرج بشلب محيا
 ما شئت من تلك الطلول
 والمع على شرفات حمـ
 حس قرارة الشرف الأثيل
 فإذا جلاك أبو الوليد
 سد بناظر يقظ التبيل
 فافراه من قبلى سلا
 ما يقضى حسن القبول
 يا غرة الزمن البهم
 (م) وعزة الأدب التليل
 ومحكم العلم القصـ
 ير على شبا الزمخ الطويل
 أعلمت أنى خادم
 ذكراك بالشكر الجميل
 لم أستحل عما عهد
 ت مع الزمان المستحيل
 شفح عنايتك الجليل
 ـلة بنى لدى الملك الجليل

« أثرت هزبر الشرى إذ رضى
 ونهته إذ هذا فاعتض . »
 وما أغفله ابن بسام من نسيب أبى الوليد الصحيح
 الأقسام ، النازح عن الاطباع والأوهام ، المصدق
 قول الجفرية فيما ينص من الإلهام قوله :
 « لئن قصر اليأس فيك الأمل
 وحال تجنيك دون الخيل . »
 وقوله أيضاً :
 « فديتك ليس لى قلب فأسلو
 ولانفس فأقف إن جفيت . »
 وقوله :
 « أنى أضيع عهدك
 أم كيف أخلف وعدك ؟ »
 ولأبى بكر بن عمار يخاطب أبا الوليد بن زيدون
 رحمهما الله :
 « كيف اعتزرت على التليل
 وقطعت أسباب الوصول
 وقتلتنى ، وزعمت أن
 الذنب منى للقتيل
 وعليك جاهدت العدا
 وإليك ملت عن العذول
 يا قاتلى ومدمامى
 فى صفحتى أهدى دليل
 ما أليق الفعل الجليـ
 ل بذلك الوجه الجميل
 فبرزت فى خلق الكريـ
 م وراوه خلق البخيل
 ودعوتنى حتى أجيـ
 ـتك ثم حدث عن السبيل
 جد بالقليل فإنت قد
 سى منك تقنع بالقليل
 واذكر حلى زمن قطعنا
 ه بصافية شمول
 إذ نسحب الأذيال ما
 بين الخليج إلى النخيل

(١) وفى الأصل : أودية التى .

وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى
 لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر
 يعيش أهل الأدب إلى ضوء غربتها ، وبتهالك أفراد
 الشعراء على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ،
 وكثرة متابها ، تخلط ذلك بملو نصاب ، وكرم
 انساب ، وطهارة أثواب ، على أنها سمح الله لها ،
 وتنفذ زلها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول
 فيها السبيل ، لفلة مبالانها ، ومجاورتها بلذاتها ، كتبت
 - زعموا - على أحد طائفي ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالي
 وأمشى مشيتي وأتية تيبها . »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشق من لثم خدى

وأعطى قلبى ، من يشتهيها . »

هكذا وجدت هذا الخبر ، وبرا إلى الله من عهدة
 ناقله ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه ،
 ولها مع أبي الوليد أخبار طوال وقصار يفوت إحصاؤها
 ويشق استقصاؤها - وأما ذكاء خاطرها ، وغزارة
 نوادرها ، فأية من آيات فاطرها - مرث بالوزير
 أبي عامر بن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة
 أحد أعيان المصر ، وبعض من هذى باسمها ، وقصر
 على حكيمها ، وأمام داره بركة تتولد على كثرة
 الأمطار ، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقدار
 وقد نشر أبو عامر كفيه ، ونظر في عطفه ، وحشر
 أعوانه إليه ، فقالت له أبا عامر :

« أنت الحصيب وهذه مصر

تندفقا ، فكلا كما بحر . »

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا ، وطال عمرها
 وعمر أبي عامر حتى أريا على الثمانين وهو لا يدع
 مراسلتها ، ولا ينفل مواصلتها - وتحيف هذا
 الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ،
 ويرقع ظلها ، على خوف واديه ، وخود روائحه
 وغواديه ، أتراجيلا أبقاه ، وطلقا من الظرف جرى
 إليه حتى استوفاه - وكانت - زعموا - تعرض ألبانها
 الشعر ، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق
 أضربت عن ذكره ، وطوبته بأسره ، لأن أكثره

ولئن أجيبت لراغب
 وأقلت عثرة مستحيل
 يا أنس بدر في الظلا
 م وبدر ظل في الميقل
 فلکم أتيت بثلها
 -وهى الصنعة- في مثيل .»

ولابن زيدون يتفزل في ولادة :
 « يا نازحا وضمير القلب مشواه
 أنستك دنياك عبدا أنت مولاه . »
 وله ينشوق إليها :

« غريب بأرض الشرق يشكر للعبا
 تحملا منه السلام إلى الغرب
 وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها
 سلام فتى يديه جسم إلى قلب . »

وله :

« أيوحشنى الزمان وأنت أنى

ويظلمنى النهار وأنت شمسى . »

وله :

« ولقد شكوتك بالضير إلى الهوى

ودعوت من حنق عليك فأمننا . »

وله يتغزل ويعتاب ويتسطف ويستنزل :

« يا مستحقاً بما شقيته ومستغشا لنا صحبه . »
 وكتب عن المعتضد إلى صهره الموفق أبي الجيوش
 ابن مجاهد :

« عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره

من أتق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط

وما تيقن أن الدهر ذا كره

نأى المزار به والنار دانية

يا جبذا الفال لو صحت زواجره

خلى أبا الجليش هل يقضى اللقاء لنا

فيشتقى منك قلب أنت هاجره . »

قال ابن بسام : وأما ولادة التي ذكرها ابن زيدون
 في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله
 الناصرى ، وكانت في نساء زمانها واحدة أو أوثق
 حضور شاهد ، وغزارة أرايد ، وحسن منظر ومخبر

عاصر الخلوّة ضدّ القتيبة عبد الرحمن المستظهر في الأدب والمعرفة ، وكان افتتح هذه السنة المؤرّخة القاسم بن حمود بخلافته وآخرها محمد هذا المذكور وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة المنكرة على ثلاثة خلفاء ، وهذا من غريب الأبناء والله البقاء السرمدي ، وقد حمد هذا الأمر ولم يكن من أدله ، فتلقى جميع الناس بالإيناس واستمالهم بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن البشر رخيص يقوم مقامه ، وينوب منابه ، فكان يقول للناس أجمين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتسوا بما أحببت من الخطط فسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابت النظار فضلا عن زعانف الكتّاب والخدمة ، وأما الشرطة العليا ومدونها من رفيع المنازل ، فحلمها كثير من التجار والعامّة ، واتّال الناس على ابتناء هذه المنازل عند السلطان بالطامعية في كرة الدولة ففتوا بابه، وعمروا فناه ، وتعلّوا بالمنى ، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأقسم أنه لم يتقلدها ولا سبها عند تكرّر التفسيط عليهم للفرامة عند إلحاح الإضافة ، فبُرت لبعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة وانتهى هذا التنويه العام بهذا المسلك الهمام إلى أن فصله أيضاً في طبقات أهل العلم فأسمهم منهم الفقهاء فأثر العلية منهم المشاورين أصحاب الفنون بالارقاء إلى خطة الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من زعانف الخدمة وكبار الدائرة ، وجاء في ذلك بطامة لم تسمع في الأعصر الحالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصحته ، وطلبوا زيادة المعتلى على العامة ، فافتتنوا بهذه الخطه وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من حظهم في الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن مضوا لسبيلهم ، وارتقى المستكنى أيضاً بكثير ممن يحمل الحابر، ويدرس مسائل الدفاتر، من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما بلغت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافتهم بوسم الفتوى فأسرف في ذلك حتى بلغ عددهم

ليس له عندى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابى في أرض ولا سماء . ونشير هنا بشيء من أخبار أيها المستكنى مدا لأطياب الآداب ، ووفاء بشرط الكتاب ، نسخته من كتاب ابن حيان : هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالناصرى ، بويج يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت ثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فسمى بالمستكنى بالله ، اسما ذكر له فاختره لنفسه ، وحكم سوء الاتفاق به لمشاكته لعبد الله المستكنى العباسى أول من تسمى به في اسمه ووهنه وتخلفه وضعفه بل كان هذا زائداً عليه مقصراً عن خلال ملوكية كانت في المستكنى سميّه لم يحسنها محمد هذا لفرط تخلفه على اشتباههما في سائر ذلك كله من نوبتهما بالفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل منهما على ابن عم ذى رحم ماسية ، وتوسط كل منهما في شأنه بامرأة خبيثة ، فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا ابنة عسكري المروزية ، فأصبجا في ذلك على فرط التباين عبرة ، وقال صاحب قطب العروس : ومن عجب اتفاقهما في الأخلاق ، وفي المر والقلب وأن كل واحد منهما خلع عن الأسر ، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هذا الأسر في ورد ولا صدر، إنما أرسله الله على الأمة بحنة وبليّة ، إذ كان منذ عرف غفلا عظلا منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، طاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استبجاز طلب الصدقة ، وهان حتى أمانه أهله على ما لهم من المهنة رأيتهم — أيام الحسب بأهل بيته في الدولة الحمدية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكتهم — يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أو ان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة ، وبالجملة في تخييس التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أقتص إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ،

فلما طوى النهار كافرته ، ونشر عبيره ، أقبلت بقدر
كالقضب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس
المقل ، على ورد الحجل ، فلنا إلى روض مديح ، وماء
سجج ، قد قامت ريات أشجاره ، وفاضت سلاسل
أثماره ، ودرّ الظلّ مشور ، وجيب الراح مزور
فلما شبتنا نارها ، وأدركت فينا نارها ، برح كل منا
بجبه ، وشكا إليه ما قبله ، وبتنا بيلة نجنى اقحوان
التنور ، وتقطف رمان الصدر ، فلما انفصلنا عنها
صباحاً ، أنشدتها ارتيحا :

« ودع الصبر محب ودك

ذائعا من سرّه ما استودعك .»

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غنتنا :

« أحببتنا إني بلغت مؤملي

وساعدني دهري وواصلني حي

وجاء يهينني البشير بقره

فأعطيته نفسي ، وزدته قلبي .»

سأها الإعادة بنير أمر ولادة ، فجفا منها برق
التبسم ، وبدا عارض التجهم ، وعانبت عتبة :

« وما ضربت عتبي لذنب أتت به

ولكنما ولادة اشتهت ضربي

فقامت تجر الذيل عائرة به

وتمسح طل الدمع بالعم الرطب .»

فبتنا على العتاب ، من غير اصططاب ، ودم المدام
مسفوك ، وما بدا لهو متروك ، فلما قامت خطباء
الأطيار ، على منابر الأشجار ، وانفت من الاعتراف
وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأقباس
على كافر الاطراس :

« لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا

لم تهو جاريتي ولم تتخيز

وتركت غصناً مثمراً بجماله

وجنحت للفسن الذي لم يشر

ولقد علمت بأفني بدر السما

لكن دهرت لشفقتي بالمشترى .»

بقرطة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يعمد في
الفارين ، وكثر الإرجاف بتغير رجال الدائرة ،
فاضطربت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض
على جماعة من بني عمه وحاشيته منهم عليّ بن أحمد
ابن حزم وابن عمه عبيد الوهاب المتقدم الذكر
سجنوا بالمطبق ، ثم عاجل المستكفي ابن عمه عبدالعزيز
العراقي تخفق وأمسى ميتاً ونعا إلى الناس فلم يسهل عليهم
اغتياله ، وفي أيام المستكفي هذا استوصل بقية قصور
جده الناصر بالخراب ، وطست أعلام قصور
الزهراء ، واقطلع غماس الأبواب ورمصاص القني
وغير ذلك من الآلات ، فطوى بخرابها بساط الدنيا ،
وتغير حسننها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل
تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة الملك ،
وأوهن بيتا من بقعة التمرد ، والله يسלט جنوده على
من يشاء له العزة والجهروت ، فلما كانت سنة
ست عشرة وتحرك يحيى بن حود إلى قرطبة ، وضعف
أمر المستكفي ، اتفق الملاء على خلعه ودخلوا عليه
وقالوا : لقد علم الله اجتهادنا في تثبيتك ، فاعتصم
ذلك علينا ، واضطربنا إلى مقاربة عدونا وهانحن
خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بهدنا
فإن لك الكرة فلا تيأس ، فبع اليوم غد ،
فأجل الرد ، واستشعر الدلّ ، واهتبل
الغرة ، وعزم على الهرب ، فخرج على وجهه
وقد لبس ثياب الغنايات ، متقباً بين امرأتين لم يميز
منهن لمراسه على التحنيط ، وخرج عن قرطبة ،
فبات بإقليمش ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً
صعاباً تكدمات سوداً مشوهات مشهومات انتهى
ما لحصته من كلام ابن حيان . قال أبو الوليد :
كف في أيام الشباب ، وغمرة التصابي هائما بنادة
تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء
كثبت إلى :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتي

فإني رأيت الليل أكرم للسر

وإني منك مالو كان بالبدن مابدا

وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر .»

صفحات من كتاب نفع الطيب

الريان، مايز وأبنوعس الأجنان، وقد نواوا الانفراج
للهم والطرب والتزهر في روضي النبات والأدب،
وبعثوا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لنتهم
ونظام مسرتهم ليأتيهم بذيئهم يذهبون لهم بذهبه في
لجين زجاجه، ويرونه منها بما يقتضى بتحريكه
للهرب عن القلوب وإزطاجه، وجلسوا لانتظاره،
وترقب عوده على آثاره، فلما بصروا به مقبلاً من
أول النج بادروا إلى لقاءه، وسارعوا إلى نحوه
وتلقائه، واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه
فقدمه، ووطأ عليه فهشم عظمه، وأجرى دمه
وكسر قصال النبيذ الذي كان معه، وفرق من
شملهم ما كان الدهر جمعه، ومضى على غلوائه
راكضاً حتى خفي عن العين خائفاً من متعلق به يحين
بذلقه الحين، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا
عليه، وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه والخطب
وألوانه، ودخله بطوام المضرّات على تمام السرّات
وتكديره الأوثان للنعمة بالآفات المؤلمة، فقال
ابن زيدون :

« أنلهو والحثوف بنا مطيفه

وتأمن والمنون لنا مخيفه . »

فقال ابن خلدون :

« وفي يوم وما أدراك يوم

مضى قصائنا ومضى خليفه . »

فقال ابن عمار :

« هما شغارتا راح وروح

تكسرنا فاشقاف وجيفه . »

وكتب الوزير الشهير أبو خالد ابن زيدون إلى
الوزير أبي عبد الله بن عبد العزيز أثر صدوره
عن بلنسية .

« راحت فصح بها السقيم » الأبيات

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذي

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين)
في خلفاء بني أمية بالأندلس على منزع كتاب
(اليقين) في خلفاء الشرق للمعدي .

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل مع
طولها في النسب أرق منها وهي التي يقول فيها :

« كأننا لم نبت والوصل ثالثنا

والسعد قد غرض من أجنان واشنيا

سران في خاطر الظلماء يكتننا

حتى يكاد لسان الصبح يفشينا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاده المروانية التي
تهول مداعبة للوزير ابن زيدون، وكان له غلام
اسمه علي :

« ما لابن زيدون على فضله

يفتأبني ظلاماً ولا ذنب لي

ينظر لي شزراً إذا جئته

كأنما جئت لأخصي علي . »

ومن حكايات أهل الأندلس في خلق العذار
والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة الارتحال
ما حكاها صاحب (بدائع البداهة) قال :

أخبرتني من أثنى به بما هذا معناه -

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير
أبو الوليد بن زيدون، ومعهما الوزير ابن خلدون
من إشبيلية إلى منظره لبني عباد لموضع يقال له
(الفتنة) تحف به مروج مشرقة الأنوار، متنسمة
الأشجار والأغوار، متنسمة عن ثور النوار، في
زمان ربيع سقطت الأرض السحب فيه يوسسها ووليها
وجلتها في زاهر مليسها وباهر حليها، وأرداف
الري قد تأزرت بالأرز الحضر من نباتها وأجباد
الجداول قد نظمت النوار قلائده حول نباتها، وبجامر
الزهر تمطر أردية النسائم عند هباتها، وهنالك من
البهار مايزرى عل مداهن النضار، ومن الترجس

فهى وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا اقليل ، وقد كنت وقت المغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى المطلع :

« مالمعيون بسهم الفنج تصميना

وعن قطاف جنى الأعطاف تحميना

تألف كانت يحميना ويضمينا

تفرق عاك فى شمل المحيينا

أضحى الفراق بديلا » الخ

وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا

تمويض عهد اللقا بالبعد حين نأوا

رعاهم الله كانوا للمهود رعوا

فغيرتهم وشاة بالنساد سمعوا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأت نفس فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع — رجع — وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتنزل :

« وضح الصبح المبين » الأبيات

ومعاسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها فى غير هذا المحل جملة . وسألت جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إياه وهو :

« يامعشى عن وصال كنت وارده

هل منك لى غله أن صحت واعطشى . »

وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً والوزير يعلم ذلك وهى لاتعلم أنه يعلم ، فقال :

« كسوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلما

وصصيرت من لحف الضنا فرشى

..... الأبيات

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنائز ليتشكر لهم ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد .

الوزارتين أبى عامر بن مسلمة ، وهو يبنى مجلساً ، فصنع أبيتاً كتبت فيه :

« عمر من يعمر ذا المجلسا » الأبيات وقال فيه أيضاً :

« ادوها فقد حسن المجلس » الأبيات وكتب لى الوزير أبى المعالى المهلب بن عامر يستدعيه :

« طابت لنا ليلتنا الخالية » الأبيات وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً :

« تباعدنا على قرب الجوار
كاننا صدنا شحط المزار

تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار

وشاع شنيع قطعك لى بوصلى
فحلا كان ذلك فى استتار

أيجمل أن ترى عنى صبورا
فأصبح مولما دون اصطبار

وكنت أزيد سمعك من عتابى
ولكن عاقبى فرط الخمار

فراع مودتى واحفظ جوارى
فإن الله أوصى بالجوار

وزدنى منعا من غير أمر
وآنس موحشاً من عقر دار . »

فكتب إليه ابن زيدون :

« هوأى وإن تنامت عنك دارى » الأبيات وكان أبو العطف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه شيئاً من شعره فخطبه به حتى كتب إليه شعراً يستقطه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية :

« أفدتنى من نفائس الدرر » الأبيات وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون) إلى ولادة :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا » الأبيات وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جملتها ، ويظن أن ما فى القلائل وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك

ابن جهور

قال في المطمح :

الوزير الأجل أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، وبنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزاره ، وأبو الحزم هذا أمجدهم في المكرمات ، وأنجدهم في المعات - ركب متون الفنون فراضها ، ووقع في بحور المحن غفاضها ، منبسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزير في الدولة العاصمية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ، وعاقبت الفتن واعترضت ، تحيز من التدبير مدتها ، وخلق لأخلافه تدبير الرياسة وشدها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف في ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوَّغت ما شامت رداها ، وذهب من كان يجد في الرياسة وينجب ويسعى في الفتنة ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال راسل مستمدا بهم ومعتمدا على بعضهم تخيلا منه وتمويهها وتدابها على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثقة بسرعة التياها ، وتنجيل انتكائها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع ذلك الامام ، وألوا بقرطبة أحسن المام ،

فدخلوها بعدفتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره نخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العالوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطا آمن حانفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوق فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة على أكل حالتها ، وانجلى به نور جلالتها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة إلى أن توفي سنة ٣٥٤م فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم المثال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وذلك قوله في تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عيني وأذ

كي ما سقى ماء السحاب الجائد

خضعت نواوير الرياض لحسنه

فتذلت تنقاد وهي شواهد

وإذا تبسدى الورد في أغصانه

يزهو فذا ميت وهذا حاسد

وإذا أتى وفسد الربيع مبشرا

لطلوع صفحته فنعم الوافد

ليس البشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالده .



وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا
بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح
للإمارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى
على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن
جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر
نسبه في ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا
قديم الرياسة شريف البيت كان أباه وزراء
الدولة الحكيمة والعامرية ، وهو موصوف
بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ،
وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهائه في الفتن
السكّانة قبل ذلك وكان يتصاون عنها ، ويظهر
النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ
وأصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء
وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ،
واضطلع بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة
ظاهرا جريا على ما قدّمنا من إظهار سنن
العفاف بل دبرها تديرا لم يسبق إليه ، وذلك
أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجيء
من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك
ورتب البوّابين والحشم على تلك القصور
على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن
داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال

السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو
المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له
وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم
محصة عليهم يأخذون ربهم ورؤوس الأموال
باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل
وقت كيف حفظهم لها ، وفرّق السلاح
عليهم ، وأمرهم بتفرقة في الدكاكين والبيوت
حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان
سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو
دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ،
ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ،
وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك
المتغلبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة في أيامه
حرما يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على
ذلك إلى أن مات في غرّة صفر سنة ٤٣٥ هـ
فكانت مدة تديره منذ استولى إلى أن
مات أربع عشرة سنة وأشهرها ، ثم ولى
ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه
أبو الوليد محمد بن جهور ، جري في السياسة
وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخجل بشيء
من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور في
سلخ شوال من سنة ٤٤٣ هـ فغلب عليها بعد
أمور جرت - الأمير الملقب بالأمون ابن ذى
النون صاحب طليطلة فدبرها مدة يسيرة
إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر
رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ،
فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها
الأمير الظافر بجول الله أبو القاسم محمد بن

وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الأمانة ظاهرا بل رتبها ودرها تديرا لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يحيى من يستحقه ، ورتب البوابين والحشم

على أبواب قصور الامارة ولم يتحول عن داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم له .

وكان جهور يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدير الملوكة ، وكان مأمون الجانب فأمن الناس في أيامه ، وبقى كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربعمائه ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

أما أحوال إشبيلية فانها كانت في طاعة الفاطميين أعنى على بن جود ، والقاسم بن جود ، ويحيى بن على بن جود أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدم ذكره . فلما زحف يحيى بن على بالبربر إلى قرطبة وهرب القاسم بن جود منها ، وقصد اشبيلية ، وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أيهما فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمعه دخل البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم فتوارد

عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك وبعدغلبة المعتمد عليها صارت تبعا لاشبيلية .

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبا الحزم . روى عن أبي بكر عباس بن الهذاني ، وأبي محمد الأصيلي ، والقاضي أبي عبد الله بن مفرج ، وأبي القاسم خلف بن القاسم ، وأبي يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال حدثنا ثقة من الشيوخ الأكبر ، وهو يعنى أبا الحزم هذا ، ثم صار تدير أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فأفنها بالرياسة فيها ، إلى أن توفي يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من سنة ٤٣٥ هـ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من بعده ، وكان سنة يوم وفاته إحدى وسبعين سنة ، وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤ . أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء الدولة العاصرية ، موصوف بالدهاء والعقل ، ولم يدخل في شيء من الذنن قبل هذا بل كان يتصاون عنها ، فلما خلا الجو وأمكنته الفرصة

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر
إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ،
وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى
أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل
ففرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه
أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه
من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من
جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهجة ،
فأسامت إسماعيل عساكره ، وكان أول قتيل
وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس
ابن عليّ الفاطمي كما تقدم ، وبقي الأمر
كذلك ، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور
أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن
مات في شهر سنة ٣٥٩ هـ .

اختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير
على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن
عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة
عقله ، وسعة صدره ، وعالوهمته ، وحسن
تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ،
فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا
وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم
رجالا سماهم لهم يكتنون له أعوانا ووزراء
وشركاء لا يقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث
حدئا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم
الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزيبيدي ،
ومحمد بن يريم الالهاني ، وأبو الأصعب عيسى
سجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبد الله بن عليّ
الهورني ورجال آخرون ذهبت عنى أسماؤهم
ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك

صفحات من كتاب العيني (١)

عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضي
أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
إليه بإشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام
ينصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب
بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم
وخطبوا له ، وجزت بيعته في الحرم سنة
تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير
جيشا إلى زهير العامري بأنه يخطب للوئيد
فاستنجد زهير حيوس بن ماكر الصنهاجي

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيا محمد
ابن إسماعيل بن عباد اللخمي ، وهو من
ولد النعمان بن المنذر ، وفي هذا الوقت
ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان
قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه
ثم سار منها إلى المريه ، فخافه صاحبها زهير
العامري وأخرجه منها ، وقصد قلعة رياح
فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أول
إسماعيل ذي النون ، فخار بهم وضعفوا

وتلاحق بجريز أصحابه وأشياعه ، وترك
الظافر ملقى على الأرض ، فرّ عليه بعض
أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فترع
رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره
يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه

سوى أنه قد سل عن ماجد محض . »

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد
ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها
حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد
حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى
وأخذت إشبيلية من أييه المعتمد ، وبقي
مسجوناً في أعجمات إلى أن مات بها ، وكان
هذا وأولاده جميعهم - الرشيد ، والمأمون ،
والراضى ، والمعتمد ، وأبوه ، وجدّه علماء
شعراء -

ملوك الطوائف (١)

بقلم الأستاذ نيكسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث
العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدّة ممالك
صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف
والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة
المظفرين .

وقد أحسن نيكسون في تشبيه تاريخ
إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت
عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين
قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى
مالقة فات وولى بعده ابنه باديس ، واجتمع
هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس فلم
يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجع
كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد
وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ،
وعسكر إدريس التلوى صاحب سبتة بطنحة
واقتتلوا قتالا شديدا فقتل إسماعيل ثم مات
بعده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى
بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتمد بالله فضبط
مالوى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتمل بأمر
إشبيلية وبقي كذلك إلى أن مات وولى بعده
ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله ،
فاتسع فى ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك
كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ،
وولى عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه
لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة
خسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ،
وسار إلى قرطبة ، فأقام يسى فى ذلك وهو
ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى
جاء مطر عظيم ومعهم شديدة ورعدو برق فثار
جرير فخرج الظافر فىمن معه من العبيد والحرس ،
وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن
الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كراته فسقط
فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى
الأجناد وأهل البلد إلا والتصر قد ملك

(١) فصل مختار من كتاب نظرات فى تاريخ

الأدب الأندلسى للشارح .

كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسالمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا مارفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتنن بها افتنانا .

حتى رأينا « القارد » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرفهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوت نبي المسلمين وفلاسفتهم لا يقصدون بذلك إلى تنفيذها بل يقصدون إلى التعبير عن خواجههم بأسلوب عربي رائع صحيح .

وكان القارد يقسمال .

أنى يتاح لانسان في هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأنجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة باغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكاتيبهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدمهم عن الكتب المسيحية أزور جانبهم وأجابوك

بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه - كما يقول - كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم : « Condottieri » وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا لإشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسالمين اسم : « ملوك الطوائف » وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعه الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى في أوروبا .



فيينا ترى العرب الفاتحين في آسيا - كما بينا ذلك - قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق - في الغرب - حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف المسيحيين من



وقد كان للشعر العربي - في أوروبا -
على الاجال الخصائص التي رأيناها في الشعر
المعاصر له في الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التي
لم يستطع أساطين بغداد أن يحرروا أنفسهم
من ربقتها ظلت بحذافيرها في قرطبة واشبيلية .
وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالأداب
الفارسية ، فقد تأثر في إسبانيا كذلك باتحاد
الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .

فكان ذلك سببا في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابها ، ولعل أمتع ميزات
الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي
الراقي الذي ينسدر وجود مثله في النسب
والذي ظهر كثيرا في أغانيهم عن الحب وهو
وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون
الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه
إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التي جلته .

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على
الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل
عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي .

بازدراء أنها أسفار تافهة لا خطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسي المسيحيون
أنفسهم حتى ليندرا العثور بين آلاف منا على
على فرد يستطيع أن يبحر الى أحد أصدقائه
رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين
ترى جهرتهم قادرة على الابانة عما في نفوسهم
بأسلوب عربي رائع ، وعلى حين ترى حذقهم
في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد فاقوا
معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من
اغراق فما يترفع عن الجدل والتشكك أن
الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب
المسيحيين الاسبان ، كما افتتن بها اليهود
الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعدتهم
العديدة وكتاباتهم التي أنشئوها بلغتهم وبلغه
أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابثون من الاسبانيين
الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد
أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبع أشهر من
ازدان بهم الأدب العربي .



دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا في هذه الصفحات أهمّ الدراسات

التي كتبت - في العصر الحديث - عن

ابن زيدون إتماماً للفائدة . »

١ - دراسة الدكتور أحمد ضيف^(١)

اقترت الوزارة في الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتباً وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة ، وظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراكز الدولة ، وتقلبوا على شئونها ، وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الشورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون الخزومي الأندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمره من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً ، وهم من أصل عربي كما أشرنا إلى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثة ميله إلى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي ، وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعي كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج في مجالس الأدب ، فصار عالماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لاتزال في أوج علازها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلات الحافل والجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة ويميل إلى المجون ، فساعدته ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

(١) من كتاب بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف .

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعدبوا هذا المورد ، وانصرف هم الأدباء إلى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنتما ضاعت كل صبغة جدية في الجامع الأدبية تجرؤ الوزراء على الجاهرة بالبحون ، وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء هؤلاء لجذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكني الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها ، فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه ، واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليا وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو طاهر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتت من شملهما وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية ، ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس ، فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين ، وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وتربى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فانحذه ابن جهور وزيراً له فلك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوفرت عليه ضروب كثير من منافسيه والحاسديه على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً ، فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في إرضاء الأمير فعزم على إعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المتمدن وبقي هناك إلى آخر عمره . هذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تفوق ذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا ، ثم مدحه لابن جهور وابن عباد ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره ، فقد كان للبحون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في النزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعا عن ثوران في نفسه وغيلان في ميوله وأهوائه ، أذكر ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له بابا واسعا

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهامها من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلظته بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر مملكة ، وبعد أن اثنته وعرف له رأيه السيد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فإذا ناله ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فنضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري أنارتها آلامه فأخذ بين أئبنا جيلا ، ويقف في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرّة شعراً ومرّة نثراً . . . والفني يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الإدراك ، التي إذا أنت تئن أمين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصوّر والإدراك الدقيق ، الذي يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جيلا . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبي حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهض الأمل مرة ويقعد اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمرّ بخاطره إلا هدأ بها نفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقب أماته صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألمت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلسة ، ثم يعود فيذكر أعداءه ونبههم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللمساء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكاته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهمك من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أئبته وألمه وحقدته على الناس ، ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه ، وهو في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرّة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمرّ بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

« ما على ظنيّ باس يجرح الدهر ويأسو . » الخ

هذه فتحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقس بوزنه وقائمه ، بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه يحتاج إليه النفس في مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعاني سائفة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورته من نفسه الحزينة المتألّمة ، لهذا كان الشعر جيلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخري ، أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهديّ خاطره وتريح نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدي ، وتدّ ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحا أشدّ منه عتاباً ، لأنه كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلل عليها ولو همسا أنه في موقف مثله ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم بعلمه وفضله حتى إنه قال متهمكاً :

« ولو أنني أسطيع كي أرضى العدا شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل . »
 وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور
 البؤس الذي حرّك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المبلوغة هما ونحماً .
 ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من
 من المعاني برسائله الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدّة تألمه في السجن ، فانه لم يخرج عن
 عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل لإنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .
 غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار
 والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملها عليه
 شعوره كما قال :

« ما جال بمدك لحظي في سنا القدر إلا ذكرك ذكر العين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فقال :

« . . . وبلغني أنك أحد اللاتمين لي الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا . »

إلى آخر ما قال في هذه القصيدة التي هي من أبداع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضي والحاضر والاستغفار
 والاستعطاف ، والسرور بذكر ما اقتضى والبكاء على الحاضر ، وهي أيضاً أظهر في لهجتها الجدية من
 كثير من شعره ، ولذلك كانت أجف في أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المهددة في كلامه ، كل ذلك
 هاجه السجن وما تذوقه من الآلام ، فرسه في شعره ، لأنه رجل فني يعرف كيف يصوّر ما يشعر به ويعبر عما
 يجول بخاطره . ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو
 علم واسع ، وإنما هو خيالي أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالماً ، وهذه كل حال شعره ونثره .
 أما مدحه ورثاؤه فهما في الرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني
 لا يكاد يعتبر الانسان فيه على معنى جديد ولا رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة
 غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجل قصائده كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتد ، ومن أرقّ كلامه في الشكوى ، وأقرب
 عباراته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى في طلوع تلك النجوم والى في هبوب ذاك النسيم . »

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحب إليها حينئذ مؤلماً ، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك
 واقف على أطلال سعادته البالية ، فيكي وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضت مبانها مدامه نرحا . »

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من
 الأدبيات في مجالس الهمو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملاّت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تتحرك العواطف والشعور ، والجر تدر العقول ، وتتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والمقول ثمة بنشوة الغرام والرءوس مثقلة بحرارة اللدما ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم ، حتى في أشدّ المحن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كأس

واغنتم صنفو الليالي إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله ، وكانت خليعة ماجنة بارعة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية في الأدب والظرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة متتدي لأحرار المص ، وفناؤها ملبأ بجواد النظم والنثر ، يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهاك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منابها ، تخلط ذلك ببلو تصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كملية بالشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تنقص عنها ، وكان لها صنعة في الفناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرّ فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف ، وتمتيع السمع والظرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعدا قالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسر

وبني منك ما لو كان بالشمس لم تلج وبالبدل لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل دنائره ، أقبلت بقدر كالفضيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المغل ، على ورد الحجل ، فلنا إلى روض مديج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور . فلما شهبنا نارها ، وأدركت منا نارها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما قبله . . . وأنشدتها :

« ودع الصبر محب ودحك ذائع من سرّه ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« أأهل لنا من بعد هذا التفرّق سبيل فيشكو كل صب بما لقي . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالي لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق العشوق معتنق

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الويل مفندق . »

ولا يزيد الآن أن تنكلم في العشق وأثره في النفس وما يوجه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بمجواته . ولكننا نتول : إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذي هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنساني ، أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الإنساني الذي نسميه عشقاً ، فإن العشق إدراك

أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي الجميل . لذلك كان أجل الشعر ما يكشف عن سرّ من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهنّ بأفضل الصفات لديهم وهي وصف شعور الناس ، والشاعر الذي يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه غيب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنبيهم فيتألم ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأين . إن الشاعر بصوغ بكلماته امتزازات القلوب ورنات مايجول من المعاني وبدفها إلى النفوس فتصبو إليها ، وبذيعها بين العشاق فيرى كلّ قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا في الشعر .

فإذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك . ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فينا مبدعاً . رأيت شعراء الغرب كيف يطبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد بهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظله ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثاني أن الشاعر الفني يفر من التكرار ، ويعرف أن معاني العشق والحب سرعان ما تنفد ، فهو يتعايل على بثّ شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريباً منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزاهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر في شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أيما إبداع ، وافقت انتنانا عظيما في ذلك ، فقال :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قدراقا »

وإذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق لها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تلك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والأسلوب . كما في قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحي وأنت من الزمان مدى اقتراحي . »

ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى أنه الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك التعلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أتيناك ما بي ياراحتي وعذابي . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارىء على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص في حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى في سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء في سبيل إرضاء حبيبته حتى حياته ، وهو يخور بهذا كما قال :

« أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أننا لا نبرىء ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان كثيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يفتي بها ، واستحسن أبحاثها ، فأنشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق مقيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« يقصر قريك ليسلى الطويلا ويشقى وصالك قلبى العليلا . »

وفي بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعاني التي قيلت في العشق ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً وكانها له ، وقد برع براعة عظيمة في ذلك كما قال :

« يا غزالا أصارنى موثقاً في يد المحن . »

وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب . أما نوبته التي أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيراً من مشوره وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجاها ككل شعره ولذلك لم تذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجدية والجزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة الجزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه . اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبها النادر المثال ، ولاحظناهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكانها عملت من أجله ، أو قيست على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل في أمكنته ، ولان الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولاً لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويمتدحه كما يمتدح الزيد ، فلا يتقار من جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارىء الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسمة اطلاع الكاتب ، وأجج به وكبرت في نفسه منزلته ، وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى غاب عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل القمط به ، أو ذكر رجل شهير بمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذذ بذكرها ، زاد إعجابها بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله ، فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يجسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فلها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد .

في رسالته الجديدة أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به ويشكل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطف وهو يستدل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتعلق إليه أخرى ، ويمتدح عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شناعة أعدائه ، فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب في ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها عبارات شعرية يريد أن يؤثر بها في نفس المرجو ويحمده على كل شيء ، كما يمدح الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه في كلامه ، واستصغر ذنبه في ساحة عفو سيده ، وفي جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، قال :

« وأعود فأقول : ما هذا الذب الذى لم يسه عفوك . الخ »

والعجب في ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تقظه الشديد ، ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصنى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نعمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وبمقله ، فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك . الخ »

ثم حاءته عزة نفسه فانتقل قلة أخرى ، فبين له أن مثله لا بصير على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويغاطر في هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أنحوّل إذا بلغتى الشمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن في هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلفظ من حديثه ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه في الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله في إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال في ذلك ، ويمدح البناء في جوار سيده بقوله :

« أعينك ونفسي من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجديدة ، وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة التى تبيح مرة وتجدد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب في نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كسب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو

يفكر في هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهمكة ، وهو يحسب وبعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في الرأي ، ويرى نفسه الكئيبة التي أخذتها الاكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتماق ، يرى الإنسان كل ذلك في هذه الرسالة ، ومن هنا جاهلها وإدعائها . لامابها من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة ، فقد دلّ فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء ، لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس لإفذاعا ، وتهكم به تبهكماً لا مثيل له حتى إنه ليخيل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جيلاً خلافاً يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها الذي يستغرق أربعة أحسامها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والآيات المشهورة ، والاطناب في ذكر الأسماء التي يكفى منها القليل ، ليس فيها ما يدعو إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسماً لمشهورى الرجال ، سردها سرداً ، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضاً من صفات الدم مما كاد يكون ثثرة ولغواً ، ولكنها ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ، ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« أما بعد أيها المصاب بعقله . الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع في الذم وأحش في صفاته فقال :

« وهما لم تلاحظك بعين كاملة عن عيوبك ملؤها حبيها حسن فيها من تود . الخ »

واستمرّ على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه مع ذلك فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعلّ ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة الترييع والتدوير .

٢ - دراسة الأستاذ السكندري^(١)

علمه وأدبه وبديته :

نشأ ابن زيدون في عصر اختلف فيه نظام ملك بنى أمة فجأة بثورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة في كل شيء من علم وأدب وفنون ضاربة بجرانها في قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الهنيء ، فصادف ابن زيدون من نبل من علمهم وكرم من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن إقباله على ما أخذ به أهلوه أنفسهم بدعاً من نفسه ، وإنما جرى في مضارهم فبزم تلمهاً وأدباً ، وبعد صيت وعلو همة .

(١) مقتبسة من بحث طويل تمتع للأستاذ السكندري نشرته مجلة المجمع العربي .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحبته من أمثال صاحب بن عباد والبديع والحوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصمغاني ، وكان الكتاب الأندلسي الذي ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يفتقد ذلك على قوله فنسج فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائجة والتعليقات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه في كتابته منها فهو :

١ - حل المنظوم من مشهور الأبيات .

٢ - الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعملاً لها استعمال الأمثال فلا ينسبها إلى قائلها .

٣ - الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .

٤ - تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو بتغيير في نظمها .

وأما ماخالف فيه فهو :

١ - عدم التزام السجع .

٢ - الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يسد قوله الخاص بمجانبه ضامماً وبخاصة الغريب من هذه الأمثال .

٣ - الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ - الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .

٥ - الاستكثار من الجمل المترادفة على مثال واحد في المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكرّرة في المعنى لزلت الرسالة إلى خمسها أو سدسها . وهذه الطريقة غابت على كتابته وهي على رسالته الجدية والهزلية أغلب ولاسيما الهزلية .

(ب) منزلته فيهما :

اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشاركة بأنه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال في استجلاله ، فلاستحقاقه ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة في ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأسرين :

أولاً : أنها ليست على منوال كتابة الأندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور ، وصدور العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لافت بذاته للأنظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذى شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصيت ذائع في السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمناجاة .

وثانياً : أنها باهرة لامعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، ويشهد له

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بما تورد الأقوال ، معرفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشئ متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكان شهرته آتية من طريق انتشيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رناء دولة بني الأقطس ، ونونية الرندي ، ولامية ابن الوردى ، ونونية البستي ونحوها ، وكأها عظيمة الأثر في التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر ما لا يسع الأديب جهله في لفظ يسير وزمن قصير ، لافي بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لها ، وتقبل هلى قائلها ، ولذلك تجمد رسالة ابن زيدون الجديدة التي استمطف بها جهوراً لم تؤد ما وضعت له . ولا نعى بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ، ومحاضر بالنكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودفن بعض حرمة فوقف للناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لاندرك .

وإنما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر الغاربية لا يتحدثون إلا في شعره على عكس المشاركة .

رسائله الجديدة

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوع فصولها وتعدد الأغراض التي رمت إليها ، والمعاني التي لوحت بها على ما أبانت من أمل كاتبها ، وما حوته من روعة التأثير في النفس . وهذه الرسالة بعث بها من السجن إلى جهور يستمطف بها ولكنه مزج الاستمطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستغفط العقاب هلى ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفاً . وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التي تألفت منها وجدنا أنها لاتعدو عشرة أغراض تؤدى في عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب بالصورة زادت في ذرعها طولاً .

وذلك أنه ناداه بألفاظ السيادة أولاً ، ثم اعتذر له عن نكته إياه بعد ما أحس الجداد به الإنسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، وأول هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يسترث العفو ، ويستغفط هذا العقاب الذي كان بعضه كافيأ لردع الأبالسة وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع إن المسألة لاتخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فنكى وليه الذى توه بذكره ، ثم أخذ الزهو فذكر أنه كان في مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير أنه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من أن يكون معه كالستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتي حتى توقع الفكاك ، ثم استلج نثر هذه الرسالة . ورأى أن يستلحقها بقصيدة ، فكانت هذه في رأينا آتى لفظاً ، وأعذب مورداً ، وأطبع اتساقاً .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعانيها

لا ريب أن مكان هذه الرسالة من الأدب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لأمر :

الأول : أنها جراب أدب حاو لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحل نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالأدب معرفتها والاستشهاد بها .

الثاني : حسن ملامتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يعسر على غير حاذق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نطقها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجزالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء . ولكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأعينا البحث في بلاقتها أى مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجملة أمور :

الأول : كثرة ماردده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعده الرئيس عادة تعبيراً وتجيهاً .

الثاني : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لكان له أرفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويتنافسون في استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والغفو) بما يصرف نفس قارئها عن أن يتأثر ببلاغتها ويشغلها بتذكر الحوادث والقصص التي أتت عليها ، وأسماء الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارئ من تعرف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم في أوصاف منه ، فيتقسم فهمه ، ويتشتت تأثره ، وإنما يأتي التأثير من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرار العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها أثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتمش للغفو ، ويمثل ذلك كان الإنشاء البرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثير ، وصرفه إلى تفهم البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدي كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعد تتم معناها وتلتم بها مع ما بعدها (وهذه ضرب صفحاً عن ذكرها) وبعض أخطاء في المعنى والوقائع (وهذه تشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدي) .

فمن هذه قوله (وتأوات في بيعة العقبة) وسياق كلامه في هذا الفصل يقتضى ذكر أسماء أناس منكرات يروا هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأولها أو نكثها .

ومنها قوله « وتحلفت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنكر على من تحلف عن صلاة العصر في بني قريظة وصلاتها في الأريق بل أقر الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة » مع أن قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها عن إرادة سوء فلا ينبغي أن يتمثل به في أعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن جمع بالحسين » مع أن المکتوب إليه الحرث بن يزيد التيمي لا عمر بن سعد .

وقد أتى الصفي على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التظويل .

رسائله الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق أن يحدث نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحبته تستبيلها إليه ، وتذكرها بفضله وأدبه ، فردت ولادة المرأة بالحياة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهم ويهجو ويتوعده . وفي ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشقيماً من ابن عبدوس لا عن رأى ولادة ورضاها عما أخش فيها وأقذع .

والرسالة كساقبتها في قلة أغراضها وتكرار أساليب فضولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الخلق والجهلاء منكرأ منه إرسال خليله إلى ولادة ، مثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجو بأوصاف في الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها وأعيان زلماتها من يفضله سنأ وشرفاً وجمالاً الخ .

٣ — دراسة الأستاذ علام سلامه^(١)

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون الخزومي القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع في الأدب والفنون ، فم عليه فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جمهور أحد ملوك الطوائف واتخذ وزيراً وادتمت عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، وتمنوا ميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن قم عليه ابن جمهور وحبسه ، فاستعطفه برسائله السابقة ، وبأمثالها فلم ينن ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه واتصل بالمتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ هـ حل منه محل السويداء من الفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد يحالسه في خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل عنده وعند ابنه المعتد قائم الجاه وافر الحرمة حتى توفي سنة ٤٦٣ هـ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتد ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ هـ وقد أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منشور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، فاق الأثام طرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولالابد تألقه ، وشعر ليس للسحر بيان ، ولالانجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب اللباني ، شعرى الألفاظ والمعاني .

ومما يحكى عنه في سعة البيان والقدرة على التفنن في أساليب الكلام أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنازة لبتشكر لهم ، فإ أعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للغاية ، ولا سيما من مزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب المعقول إذا انبرت سحائب منه أعقت بسحاب . »

كتابته

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوة سليقته في البيان يؤثر الرواية والتأني لنسج القول ، وكان مع سعة روايته افنون الأدب علماً بأخبار العجم والعرب ، متمسكاً من كل ما يعوز الأديب بسبب ، فليس بدءاً أن يكون لكل أولئك آثار في كتابته ، وليس بدءاً أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السامع ، ولا وحي البديهة البادئة ، ولا عصارة عصر الجين ووليدة التكلف ، فقد جاءت خلاصة الرواية الحصيصة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد ، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبكة رائعة صانها صنغ من مبتكر المعاني الساحرة ، ومستلب الأمثال السائرة ، ومقتبس الأبيات النادرة ، ورسوماً بفرأند من أخبار الناس ونوادير الحوادث . ولئن كان البديع قد فاقه في استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعاني ، لقد فاق هو البديع في متانة المباني ، والتغلغل في نواحي المعاني ، والبصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس . أما أوضح مميزاته فحجامة الألفاظ في غير كرازة ، وعلو الأسلوب في غير اعتساف ، ورسانة المعاني في غير جفاف ، والتأليف بين جمال الخيال وجمال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسالته الجديدة والهزلية وكتابتها غرّة في جين الآداب العربية ، وقد عني بشرحها كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النضار ، أو حدائق الأزهار ، إذا نسب أنسك صاحب بئينة ، وإن مدح خلته شاعر مزينه ، ومن مقطعاته التي تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يدع . »

ومن شعره الذي يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التي كتبها إلى ولادة التي كان شديد الكلف بها والهام بحبها يستديم عهدهما ، ويؤكد ودّها ، وفيها يقول :

« أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا وزب عن طيب لقياناً تجانينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة لبراعتها ، وقد ضمن بعض شطورها ابن الوكيل في موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ - دراسة الأستاذ أحمد زكي باشا

أولية ابن زيدون

كان في جملة القبائل التي ذهبت إلى الأندلس رهط من بني مخزوم توطنوا في جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالهم المعدودين ، خصوصاً في الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

- (١) أبو بكر غالب بن زيدون .
- (٢) أبو الوليد أحمد بن زيدون .
- (٣) أبو بكر بن زيدون .

كان مولد الأول في سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفي في ضيعة له .
ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، فدفن بالريش (أي الضاحية) .

وهناك رثاء أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسي بما يعرفنا بمقامه في قوله :

« أي ركن من الرياسة هيبنا وجوم من المسكارم غيبنا

حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه الأريضا

مثل حمل السحاب ماء طيبنا لتداوى به مكاناً مريضاً . »

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذي يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذي تقلد بعد أبيه (أبي الوليد)
وزارة المعتد بن عباد ، وانتقم لأبيه من ذي الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هذا هو الذي تولى
السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسبانيون مع ملكهم
الإذفونش (الفونس السادس) ملوك الطوائف ، وخصوصاً لبني عباد في خطب يطول شرحه ،
ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون الخزومي الأندلسي . كان مولده
بقرطبة في سنة ٣٩٤ أعني في الوقت الذي سرى فيه الانحلال في جسم الخلافة المروانية بالأندلس بعد أن
بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفخامة ما لا تصدق معه الروايات . في ذلك الوقت تحملت عرى
الدولة ، فاقسم المسلمون على أنفسهم ، وتحاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضاً ، وساموا البلاد
والفلاع والحصون واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمددهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك
الفوادح بذلك الملك الكبير ، ثم أتت على القوم بأكلهم فأصبحوا خبيراً بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا
كيف وأين ؟ في تلك الأيام استظهروا على شهواتهم بجر ذيولها ، وامتروا بظالمتها من أخلاف أباطيلها .
حتى انتشت عصاهم ، ودارت بدائرة سوء على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الاضمحلال والانحلال من أول يوم جلس فيه المستعين على عرش الخلافة في منتصف
ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ

قد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حبان الأندلسي « شداداً نكرات ، صعباً مشؤمات ، كرهات المبدأ
والفاتحة ، قبيحات المنتهى والحامة ، ما نقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولا نيم سرور ، ولا نقد شذور
مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصبية ، وظعن الأمن وطول الخافه ، دولة
كفاها ذما أنها تمخضت عن الفارقة الكبرى ، وآلت من التي بعدها إلى ما كان أعرضل وأدهى . مما
طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئاً أمضاه . »

وكذلك لم يكن في المستكني أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة بحنة وبلية . إذ كان منذ
عرف منقطعاً إلى البطالة ، محبوباً على الجهالة ، عاطلاً عن كل حلية تدل على فضله ، عضته الفتنة فأملق ،
وهان حتى أهانه أهله ، ولقد رآه أبو حبان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الحنف بأهل بيته في الدولة الحمودية
ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركا كته . كان يقصد أهل الفلاحه يومئذ بقرطبة أو ان ضدهم لفلانهم
يسألهم من زكاتها . قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الامارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ،

ولا أنقص . إذ لم يزل معروفًا بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عامل الخلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمر المؤمنين ، ويخطب له فى زمن واحد : أحدهم خلف المصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد . والثانى محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن على بن حمود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بسبته ، تلك هى الأيام التى بنى العرب والبربر فيها فى خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسماً على نفسه ، وكان الجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفى حروب وخطوب مع بقايا الأمم الإسبانية من الشمال والمغرب . فى ذلك الوقت العصيب تفرق أهل الأندلس فرقاً . وقلب فى كل جهة منها متقلب . وهم الذين عرفهم التاريخ باسم — ملوك الطوائف — وقد أرادوا أن يفوضوا أنفسهم وممالكهم فتنقسموا لألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية . حتى قال فى ذلك أبو على الحسن بن رشيق ببين سارا سير الشمس ، وبقيا بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدينى فى أرض أندلس سماع معتمد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد . »

فكانت طرطوش ، وسرقسطة ، وافرغاه ، ولاردة ، وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وكانت بلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الشرف أى مافوق طليطلة فى يد بنى ذى النون وكانت قرطبة فى يد أبناء جهور ، وكانت اشبيلية فى يد بنى عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة فى يد بنى برزال من البربر ، وأما المرية فكانت فى يد زهير العامرى الخادم ، ثم خيران العامرى الخادم ، ثم ابن صمادح وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى ، وكانت بطليوس وبابرة وشنقرين فى يد بنى الأفضس ، فلابج إذا كثرت الوزراء فى تلك الأيام ، رلا عجب إذا كثرت أيضاً ذوات الوزراء ، فالناس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو متر مربعاً فى مثلها يعد نفسه سلطاناً كبيراً . ويتخذ من الحاشية ما يضارع به أمهات الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً — فكثرت عندهم الوزراء ، وكثرت بينهم الذين يلبون أنفسهم بنى الوزراء .

ومن الطبيعى أن الرياسة إذا انحطت عن جلالتها تبعها المرؤوس فى السقوط ، فلما تددت الخلافة فى الانحلال صارت الوزارة أيضاً فى درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جلس على عرش الخلافة للناس أجمعين . ارتعوا كيف شئتم ، وارتمسوا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أرذل الدائرة ، وأخابت النظار ، فضلاً عن زعائن الكتاب والخدمة (عن ابن بسام)

وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت فى أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التى وصفها لنا ابن فضل الله العمري حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويح رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بطائل ، ولا لصاحبها شيء من الأسر . بل هو كالجوايش يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة » وقد استبدت هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، واقطعت الدعوة للخلافة ، فلم يبق لخليفة

هاشمي أو أموي ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشخص شبيه له) حسبما اقتضته الحيلة، واضطر إليه التدبير. ثم انقطع ذلك، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا. وحال قواد الاسكندر بعد وفاته. ولم يزل هؤلاء الرؤساء في اقتتال وتحاذل، يستمعون بعدوهم جميعاً فيبيل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلفت الأحوال إلى أن تولاها الضعف فاستنصروا بالمرابطين فاتظمت الشمل، وعادت المياه لجاريها. ولكن إلى أجل معين. ثم عاد الانشقاق والاقسام، فامتعت كلمة الاسلام، وانطفأ ذلك النور، وباد القوم عن أحرهم في سنة ٨٩٧ هجرية. بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون. لأن دخولهم كان في سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق يد زياد.

* *

رفعت الستار عن هذا المنظر الحزون ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة. خصوصاً في الأوقات الحاضرة، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالي الفتن. واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبضاعة نافعة. فكل أمير، وكل وزير، وكل كاتب، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر. عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بني جهور استبدوا بقرطبة وأن بني عباد استأثروا بإشيلية، في المملكة الأولى درج ذو الوزارتين ابن زيدون وتر بن وظهر فضله. وفي الثانية قضى بقية أيامه في العز والكرامة. وكانت بها وفاته في محرم سنة ٤٦٣ هـ على التحقيق الدقيق كما نس عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى عن وفاته. لأن الذين قالوا بوفاته في سنة ٤٠٥ هـ خلطوا بينه وبين أبيه غالب ابن زيدون.

اشتغل ابن زيدون بالأدب، ونحس عن نكته، وتعب عن دقائقه. إلى أن برع وبلغ من صناعته النثر والنظم المبلغ الطائل. حتى قال فيه ابن بسام:

« كان أبو الوليد غاية مثور ومنظوم وخاتمة شعراء بني مخزوم . . . الخ. »

وما هم أن أصبح في الأندلس « متم ذلك الحى، وعاشق ولادة لامي، زاد على مجنون ليلى، وقيس لبني، وابن أبي ريعة صاحب الثريا، تركه هواه أنحف من قلم، وأشهر من نار على علم. وله مع ولاده أخبار ما حكى مثلها ابن أبي عتيق، ولا الاصفهاني عن سكان وادي العتيق، ولا الأصبغى عن أهل ذلك الفريق، أندى من نسيم الصباح، وأرق من ريق الغواصي في ثغور الأفاح »

وإذا تصفحنا دواوين الأدب عند الأمم الأخرى لا نجد له شبيهاً سوى تيبولاس شاعر الرومان وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهيئين (١) في قرطبة، (٢) في إشيلية.

* *

أولاً - في قرطبة: برع ابن زيدون في الأدب، حتى كان أبو الوليد في الأندلس شبيهاً ومثيلاً لأبي الوليد في دولة المتوكل العباسي، وقد سماه الناس بحتري الأندلس، ولقد صدقوا. فن جملة المحفوظ عنه في صباه قوله:

أخذت ثلث الهوى غصباً ولى ثلث . . الخ

ثم هام بعد ذلك بحب ولاده بنت المستنكى الخليفة الأموي بالأندلس، وكانت أدبية، شاعرة، جزلة القول حسنة الشعر، تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء. وعمرت عمراً طويلاً ولم تتزوج قط. جاءت على خلاف

أيها في كلّ أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج المحي من الميت » وقد ابتذل حجابها بعد نكبة أيها وقله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم ، وتحاضرهم ، ويتعشقا الكبراء منهم . وكانت على خلق جميل ، وأدب غصن .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطفرف القلوب ، وتشف المسامع ، لأنه خلق في هواها العذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالعفة والصيانة . ولكن الشعراء في كل واد يهيمون ، فكيف لا يهيم بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والمقام لا يتسع لاشعاره فيها وإشعارها إليه . ولكن آتيكم براموز ومثال ، وارك الباقي لغير هذا المجال . ودعها ذات يوم فأثدها مرتجلا :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« يانا زحا وضير القلب القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة قرطبة منتدى لاحرار مصر . وفناؤها ملمعاً لحياد النظم والنثر . يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلالة مسامرتها ، وهي مع ذلك محافظة على علو النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الأثواب ، ولقد طمع بعضهم في الاستئثار بها دون ابن زيدون فنازعه على حبها وزاجحه في ودها رجل من رجالات عصره ، وهو أبو عبد الله البطلبوسى ، فكتب إليه ابن زيدون يزجره بهذا الزجر :

« أيا عبد الإله اسمع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس الملقب بالفار . وكان من أكبر رجالات قرطبة ، فاغتناظ ابن زيدون وبث إليه بهذه الأبيات :

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ في رسالته « التريع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب في بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون في المشارق والمغرب وهي التي شرحها كثير من أدباء المشاركة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع في مصر مراراً . وهو في غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عبدوس لم ينتن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتناظ ابن زيدون والتجأ إلى قريضة الفارص ، ففسح الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخرا لمسخر لو فرقت بين بيطار وعطار

قالوا أبو عامر أضحى يلم بها قلت الفراشة قد تدون من النار

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذلك من عار

أكل شهى أصبنا من أطايه بعضاً وبعضاً صفعنا عنه للفار .»

واقدها ابن زيدون عنده . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تعبت بذلك الوزير . حتى لأنها سرت به ذات يوم في تربها وسريها ، وكان الوزير ابن عبدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، وانساق إليها شيء من أقدار الدار . وكان الوزير

جالسا في أبيته وعظمته وقد نصر كريمة ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة ناداته باسمه ، فمش إليها وبش ، واقرب من البدر نقالت له وهي تشير إلى البركة : يا ابن عبدوس :

« أنت الحبيب وهذه مصر فتصدقنا فكلنا كما بصر . »

ثم نفرت كالظي الشارد وتركته حائراً باثراً . باهتاً صامتاً ، لا يبحر جواباً ، ولا يمي خطأ ولا صواباً ، وهذا البيت لأبي تواس تمثل به ولادة ونقله هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

غير أن هذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاستأثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغنا الثمانين وهما يتراسلان ويرتعان في بساطين الأدب ورياض العفاف .



لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعمّ صيته . اصطنعه أبو الحزم بن جهور المتغلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها وتوه به لأنه رأى في الآداب ، وعمدة الظرف . والشاعر البديع الوصف . ولما له بقرطبة من الأبهة السنية ، والسامة والدرية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة ، فكانت الكتب تنفذ من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقال : تأتي اشبيلية كتبها بالنظم الخطيرة أشبه منها بالمتنور . ثم ترقى في وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الذمة . ثم رآه ابن جهور أهلاً للوزارة فراه إليها . بل جعله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة السميع والوزير والمشير والسفير . فكم أنفذه إلى ملوك الطوائف لا أمور سياسية . ولخبايرت تقتضيهما المعاملات والمعاملات التي التي يوجبها ، أو تدعو إليها علاقته معهم أو مع ملوك الاسبانيين الذين كانوا يتربصون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف في ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يحظب وده . ويتبنى أن يقيم عنده . ولكنه بعد ائضاء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أنسه بها . وهو به بأهلها في ذلك الوقت المضطرب بالته الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوسية لها أثر في مصالح الدولة ، وفي أحوال الأفراد .

ترك أمور الدولة وسياستها جانباً . وتقتصر على الدائرة التي ارتضينا لأنفسنا الجولان فيها وهي ميدان الأدب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية في تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تتعشق قتي من القرشيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولسكن الخبر وصل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعبأ به لأن القوم كاهم كانوا متغفلين في هذه السبيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها بيت فد وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده هل منك لي غلة إن صحت : واعطشى . »

فجاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشعراء . وسألته أن يزيد عليه شيئاً وهي تظن أنه لا يعلم بما هي فيه من الغرام . فأمسك القرماس واغتم فرصة الروى ، وما يعامله من السر المطاوى ، فكتب :

« كسوتني من ثياب السقم أسبغها ظلاماً وصيرت من لحف الضنى فرشى . »

.....

« جفتي إذا التذت الأجنان طيب كرى جفا المنام وصاح الليل يا قرشى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون في التشبه بالشرقيين في كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازلهم سسموها بما اختاره الشرقيون في بلادهم كذلك
حاكومهم في مجالس أسنهم . وأما أقصر على ما يتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهد لذلك بما كان في بغداد .
كان في دار السلام الوزير المهلب المشهور ، والناضي التنوخي ، وقد بلغا من الكبر سنأ عالياً . ولهما ذقون
بيضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان في النهار أمور الدولة بناية الحشمة والوقار . حتى إذا جن الليل
اجتمعا في مجلس العقار ، فكأما يشريان في أواني من البلور والنضار ، ولا يكتفیان بلذة الشراب ، بل
يفسنان أذنانهما في الأواني ، ثم يرش كل منهما الشراب بتلك الرشاشات الفريسة على صاحبه لتم لها لذة
السكر حسا ومعنى . باطنأ وظاهرأ ، ويستمرآن على ذلك طرفا من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى
أشغالهما ، الوزير في تدير الدولة ، وقاضى التفضاة في النظر في الحصومات ، والحكم على منضى الشرع ،
واستمرأ على هذه الحال في معاقرة المدام ، حتى وافاها الجم .

فاسمعوا نظير ذلك في قرطبة . كان القاضي أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة باسمى مكان ، أدركته حرفة
الأدب ، وله في العلم باع طويل ، وكان يشبهه في خلوته مع ابن زيدون ، بالناضي التنوخي مع الوزير المهلب ،
وهناك ما شئت من دبابات ورقاطات ، وما تخيلت من فكاهات ومجاننات ، حتى إذا أصبعا ، ذهب
ذو الوزارتين إلى شأنه في ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم بمنضى الحق ، ومتى اقترب المساء
عادا إلى التصف ، وتجاوزا في ميدانها كل وصف ، إلى أن سطا الدهر على أبي بكر .

واتفق أن سر ابن زيدون يوماً بقر ابن ذكوان في لمة من إخوانه ، وجاء من عمار ميدانه ، فطفوا
عليه مسامين ، فقال أبو الوليد بن زيدون مرتجلا :

« انظر لحال السرو كيف تحال . . . الخ »



فتى أديب حر يصل إلى هذه المكانة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان
المتني حرب الزمان والدهر . نعم فقد دبت عقارب الغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعاداته ، والمناظرين
والأنداد فتألبوا عليه وتآسروا حتى انتهوا بإذاعه في شراكمهم ، ونجحوا لدى الأمير ابن جهور فقبسه
حبسأ طالت مدته ، فكانت تلك السجن مئارا لشجونه ، فبعد أن صاغ لبني جهور ولاسيما لأبي الحزم
قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعارأ ورسائل مختاره ، فاضت بها نفسه في التنصل والاعتذار
والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المزاحمين له على مركزه في الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائما
يفوزون ، فبقى في السجن مدة تنيف على الخمسةائة يوم .

كتب لابن جهور تلك الرسالة البديعة التي طبعها أحد المستشرقين في سنة ١٨٨٩ . وهي التي شرحها
العلامة صلاح الدين الصفدى .

ولقد زارته أمه في سجنه . ثغانتها دمعها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التي وجهها إلى
ابن جهور مستعظفاً :

« ألم بأن أن يبكي الغمام على مثلى . . . الخ »

وما أظن وصفه لنفسه ولوشاته في إحدى قصائده الطنائة :

« كان الوشاة — وقدمت بافكهم — أسباط يعقوب وكنت الدنيا . »

هذه الأحوال مضافة إلى نفس كبيرة تتعب في مرادها الأبدان ، شيبت رأس ابن زيدون وجعلته هرما قبل

الأوان ، قد رأى الشيب في رأسه وعارضيه . فبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستعطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتنى في عارض الشعر

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كشب وللشبية غصن غير مهتصر . »

وفيها يقول بما يعرفنا بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدبي فرس له من جناه يانع الثمر ؟

وسيلة سببا إن لا تكن نسا فهو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأسه وبلحيته ، قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما

ذكرناه من أنه بلغ مراتب العلاء وهو في سن الفتوة وربعمان الصبا ، وذكر الصفدى أنه كان يحضب بالسواد .

ثم أنه تحيل في الهرب ونجح . فلما خرج من السجن اختفى بقرطب . وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة

طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسلم للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها

يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« سنون من الأيام خمس قطعها أسيراً ، وإن لم يد شد ولاربط . »

والقصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه مازال بأبي الوليد بن جهور يستشفع به إلى أبيه أبي الحزم ، حتى شفع

له وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده توه به وقدمه في الذين اصطنع لدولته

وجلله كرامة لم تقعه ، زعموا . فلا غرابة إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليد بن جهور الذي أذانه من

الحبس والعذاب ألواناً . فقد وجد ابن بسام بخط ابن حيان هذه المرثية البديعة لابن زيدون في أبي الحزم :

« ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر الخ »

ولكننا نعود إلى ولادة ونساء هل نسي أبو الوليد ولادة ؟ كلا . بل عاد إلى التودد إليها والتقرب

منها ، وكان يذكرها في قرطبة ويراسلها بأشعاره الزائفة الفائقة .

ذهب مرّة إلى الزهراء يتأمل في محاسنها فوصفها بقوله :

« إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور سفيراً إلى حضرة إدريس الحسني بمالقة .

فأطال التواء هناك واقرب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فغتب عليه ابن جهور

وصرفه عن السفارة بينه وبين أسراء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة .

إلى هنا انقضت أيامه في قرطبة ، فلقد خشي أبو الوليد أن يلاقى من الوليد ما لاقاه من الوالد . وحينئذ

صحت عزيمته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن تبارد بأشبيلية .

فلامه بعض إخصائه على ما اعترمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلائه ، فكتب إليه رسالة ضافية يعترف

فيها لنفسه ويتول من جللتها مانصه :

« وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن في موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ . »

ولكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوه ومرّه فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن

يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المنزّيين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ،

ليهد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقّق أنه سينزل في إشبيلية على الرّحب والسعة أزعج الرّحيل إليها ، وكان

ذلك في سنة ٤٤١ للهجرة .

واتفق في وقت فراره من قرطبة إلى إشبيلية أن صادنه عيد الأضحى ، فرأى الناس مبهجين بالعيد ، وهم يتراوون ويتبادلون التهاني ، وهو شريد طريد ، ففاضت نفسه بوصف حاله :

« خليلي لا فطر يسر ولا أضحي . . . الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه وصحابه يجالسه في خلواته ، ويرسله في مهم رسائله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الوزارتين » .

كان المعتضد جعل مجلسه منحطا عن مجلس ابنه وولى عهده المعتضد بن عباد فكتب المعتضد لابن زيدون :

« أيها المنحط عنى مجلسا وله في النفس أعلى مجلس

بفؤادى لك حباً يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرواس . »

فأجابه ابن زيدون يشكره :

« أسقيط الظل فوق النرجس أم نيم الروض تحت الخندس ؟ »

ولكن هل أنساء ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبنا مشغولاً بهذه وبذلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . فكما حانت له فرصة ، أو هزته نشوة ، قال فيهما أقوالاً تذيب الفؤاد . فلقد تشوق إلى قرطبة وسأكنيتها بقصيدة تدل على حنينها ولحن فيها ، فقال :

« على الثنب الشهيدى منى تحية . . . الخ »

وكان يبلغه عن بني جهور ما يسوءه في نفسه وقرابته في قرطبة ، فقال مخاطبهم :

« بني جهور أحرقتمو بمجفائكم فؤادى ! فما بال المدائح تعبق

تعدوننى كالغدير الورد إنما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأما أمداحه في المعتضد بن عباد فشيء كثير جليل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبي الجبش بن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية المعروفة الآن بجزائر البليار :

« عرفت عرف الصبا اذهب عاطره . . . الخ . »

قلت فيما تقدم إن ملوك الطوائف كانوا منقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن الحرب وقعت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فانهزم ابن الأفطس هزيمة فظيعة ، وخسر خسارة جسيمة ، فقال ابن زيدون يهني المعتضد :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك في العدا . . . الخ . »

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة غراء في قصيدته التي يقول فيها :

« لبيض الطلي ولسود اللهم . . . الخ . »

ولا غرابة في ذلك ، فالملك عقيم ، وتصاريف السياسة تقضى بالتغيير من حال إلى حال . خصوصا إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت في غمار الخطوب والفتن ، وفوق ذلك ، أفليس القلب من مديح إلى هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا الشراء الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك ابنه المعتضد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفارة ، تدلنا على ذلك شهادة التاريخ ويؤيدها قول ابن زيدون نفسه في رثاء المعتضد ومخاطبته روحه بعد دفنه :

«أعباد لا يأورق الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ

ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المعتضد وأظهر صوته وأغراه بأعدائه ، وزين له الايقاع بعامله ووزرائه . فندا شجعا فى صدورهم ، ونكدا فى سرورهم . فلما آل الأمر إلى المعتضد ، قام حساده وخصومه وسعوا لديه فى النكايه به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم اقطع ويردى كل باغ ينثم !

واحسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجليل . وضد ذلك يكتم !»

وهى قصيدة طويلة تتألف من ٢٧ بيتاً كلها اغواء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولكن المعتضد كان أعقل من ابن جهور . فلم يصنع لتلك النميحة ، ولم تنفع لديه تلك السعايه فقال فى صدمه ورد كيدهم فى نحرهم :

« كذبت مناكم : صرحوا أو ججموا الخ .»

فلما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفت ، وسعائيتهم مانفتت ، وسهامهم تهرعت ، ومكائدهم تبددت وتوزعت ، قال يمدح المعتضد ويمرض بأعديه بقصيدة طويلة مطلعها :

« الدهر إن أملى فصيح أعجم الخ .»

واستقرّ المعتضد به فى وزارته ، فكان أحد وزراءه الثلاثة الأكبر المثناة وزارتهم (أى أحد الثلاثة الذين يلقب كل واحد منهم بذى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون (جد صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحد الأيام من إشبيلية الى منظره (قصر خلوى) لبني عباد بموضع يقال له القنت (تقريبا للفظ اسباني) وهو منتره تحف به مروج مشرفة الأنوار ، متنسفة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسمها وولبها ، وجعلتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تآزرت بالآزر الحضر من نباتها ، وأجيايد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من البهار ، مايزرى على مدهان الفصار ، ومن الترحس الريان ، مايزأ بنواعس الأجبان ، وقد نووا الاقتراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى «خليفة» هو قوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيهم بنبينذ يذهبون لهم يذهبه فى لجين زجاجه ، ويرمونه بما يقضى بتحريكه للهرب عن التلوب وإزعاجه ، لجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به متقبلا من أول الفج بادروا إلى لقائه وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً من الجنيد ركب فرسه فصدمه ، ووطئ عليه فهشم أعظمه ، وأجرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خنى عن الهين ، خائفاً من متعلق به يعين بتعلقه الهين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخطب وألوانه ، ودخوله بطوام المضرّات ، على تمام المسرّات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أتاهو والحثوف بنا مطيفة ونأمن والمنون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم مضى قصالنا ومضى خليفه »

(١) القمصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو لئان من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما بخارتا راح وروح تكسر تافأششاف وجيفه »

ولابن زيدون مدائح في المعتمد بن عباد كلها درر وغرر ، وآيات بينات ، وله معه مداعبات ومطارات ومساجلات ، فتارة يشوقه إلى تعاطي الحميا في قصوره البديعة ، وتارة يرسل له التفتاح ويكتب عليه الأشعار ، يدعوهُ إلى تناول العقار ، وتارة يهينه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلنا حدَّ الإبداع في هذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فأما مدحى إلى مدحى لك استطراد

يفغى الميادين الفوارس حقة كيبا يعلمها التزال طراد »

فما أحسن هذا التوصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد . هذه قطرة من بحر من بحور شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشيء بعيد حصره ، ومما يجعله كثيرون أنه ألف كتابا في التاريخ وجعله ابن حزم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس على منزع كتاب التبيين في خلفاء المشرق للمعسودي ، وقد نقل صاحب فتح الطيب سطرًا أو سطرين عن هذا الكتاب الذي لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يتشوق لقرطبة ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسعى في مداخلة أهلها . ومواصلة ذوى الكلم فيها لأنه رأى عدم الفائدة والمكايده لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأنتمهم من زوالها عنهم وانطماس رسومها في بلدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الضخمة في ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفخر على سائر ملوك الطوائف قال :
« من للملوك بشأؤ الأصيد البطل . . . الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شبيه كبيرة في قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد إقبال الدنيا عليه وبلغت حظوته عند المعتمد درجة لا يطعم فيها .

فحينئذ سعى في هلاكه صاحبه ، ابن مرتين وابن عمار ، وتلفظا في إبعاده وإبعاد ابنه من بعده ليخلو لهما الجو ، ولينفردا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

فقد وقعت فتنة في لإشبيلية واضطر ابن عباد للتعجيل بإرسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسول ابن مرتين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلفظا في تفهم السلطان أن ذهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المسكاة العالية والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسوسا له بأن المصلحة كل المصلحة هي في وجود ابن زيدون الوزير الماقل المدرب المحنك المحبوب بجانب سراج الدولة الذي هو قرّة عين الملك ، ومطبخ الأنظار لبقاء البيت العبادي ، وما زال الرجلان ينسجان على هذا المنوال حتى أفلحا خصوصا لنياب ابن زيدون في مرض أزمه البيت .

صدر إليه الأمر بالذهاب ولم يعذره السلطان في التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجهين إلى لإشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وخلف في قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولكن صاحبينا (ابن مرتين وابن عمار) مازالا يميلان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبي بكر ابن زيدون أيضا بأن يلحق بابيه في لإشبيلية .
حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمر كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما في أهوائهما ولا معارض

لهما في اغراضهما ، وكان زوال دولة ابن عباد كان مقدارا على يد هذين الرجلين فابن مرتين ، يكنى في التعريف بمراميه أنه ابن مرتين أي أنه من أصل غير عربي ، فان جده رجل إسباني ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعته ، وسمى في الفساد والحراب ، وخرق العهود ، وخان وأتعب ابن عباد حتى أوهى دولته ، على ماهو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو في إشبيلية ، فلم يغل الأمد به بعد لحاق ابنه به ، فكأنه جاء ليكفنه ويدفنه بها في صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حينئذ تولى منه كهل ان يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وروعة وظرفا .
وهو عند أولى التحقيق في النظم أمد طلقا ، وأحث عنقا ، فلا يلحقه تقصير ، ولا ينحسب وهنا ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها عشرة كبيرة وأشباع كثار ، تنازعه وحزنوا عليه لأنه كان منهم ، هاويا لهم ، حذبا عليهم ، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية .

فأراد السلطان أن يرضاهم فأرسل لابنه (أي أبي بكر ابن زيدون) وقربه إليه ، ورقاه في مراتب والده حتى أحظاه بالوزارة وقد اغتم هذا فرصة ما وقع من ذي الوزارتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوضر صدر ابن عباد عليه ، وما زال يعمل لديه حتى كان سببا في هلاك ابن عمار على ماهو معروف مشهور .

انتهى الكتاب



تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده » في يوم الخميس ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ (٤ اغسطس سنة ١٩٣٢) م

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

صفحة	صفحة
١٥٨	(٣٩٣)
٢٦١	(٣٩٥)
(٣٧٣)	(٣٩٦)
(٣٧٣)	(٣٩٦)
(٣٧٨)	(٣٩٩)
(٣٨٤)	(٤٠٠)
(٣٩٣)	

حرف الدال

(٣٩٢ و ٦٠)	
(٦٨)	
٧٤	
٧٨	
(٨٦)	
١٦٥	
١٧٧	
١٩٧	
(٢٠٤)	
(٢٠٦)	
(٢١٠)	
(٢١٠)	
(٢١٦)	
(٢١٩)	
٢٢٣	

(٣٩٣)	ارماح قومي بالعداة لواعبا
(٣٩٥)	كفاه بخلت السحاب
(٣٩٦)	يرتاح فيها باصطياد أرناب
(٣٩٦)	رجاك على بعد فأصبح ذا قرب
(٣٩٩)	وما أحصى صوابه
(٤٠٠)	ذهبوا من الاغراب أبعدهم

حرف التاء

٣٩١ و ٦١	وقد خفقت في ساحة الفصر رايات
٢٦٦	وأعزل عن رضاك وقد وليت
(٢٠٩)	جداول ماء أرسلت فاسبطرت
(٢٨٧)	ليس من الوحش ولا النبات
(٣٩٢)	عن فؤادي دجنة الكربات
(٣٩٩)	وللمنى من منايهن غايات

حرف الشاء

٢٧٧	وأوفى له بالهدد إذ هو ناكث
-----	----------------------------

حرف الجيم

(٣٨٩)	قلبي لها أحد البروج
(٣٩٢)	يا بدر الدياجي

حرف الحاء

٥٤	فما حال من أمسى مشوقا كما أضى
٨٩	تصبي ، ولإعطاف نشاوى صواح
(٩٦)	وأخذى الحمد بالثمن الربيح

صفحة

صفحة

(٣٧٦) (وقصرت أعمار العداة على قسر)

٢٤٤ ما أبرزته غرائز الفكر

(٣٧٦) (وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر)

٢٤٨ وقر بك من دون البخور معطر

(٣٧٧) (ماذا يفيد عليك البعث والحذر)

٢٥٤ واجتل التأيد في أبهى الصور

(٣٨٠) (والنجم قد صرف العنان على السرى)

٢٥٩ إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير

(٣٨٧) (ومن منال قصى السؤل والوطر)

٢٦٧ قلبي عليك يقامى المهم والفكرا

(٣٨٩) (بإصاره الغرة الزاهره)

٢٦٨ واختيارى إن أخير

(٣٨٩) (ووجهك أملح في ناظرى)

٢٧٢ لا كتفنب بسماع الخبر

(٣٩٠) (والوجد قد جل فما يستر)

٢٧٢ وارضى بتسليمك المختصر

(٣٩٢) (وآقترن الليل بالنهار)

٢٨١ مدى الدنيا مظفر

(٣٩٣) (وقنعت وجهك بالمغفر)

(٢٩٨) (وعشرته مشكورة وَعَشاْئره)

(٣٩٤) (كفى به فدعاني فضله الظافر)

(٣٠١) (حرف لفصل اللفظ مقدور)

(٣٩٦) (يسرى إلى غرته السارى)

(٣١٧) (ويبقى من المال الأحاديث والذكر)

(٣٩٦) (ولم ألف في بحر نعماه زجرا)

(٣٧١) (غرست أشجارها مستجزل الثمر)

(٣٧١) (فيها السرى إلا برأى مقمر)

حرف السين

(٣٧١) (ووصل كظل الروض تعطيكه نزرا)

(٣٧١) (يناقضه سنا البدر)

١ يجرح الدهر ويأسو

(٩٣) (للشيب غدرا في النزول براسى)

(٣٧٣) (إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير)

٩٨ وقد آن أن تترع الأكووس

(٣٧٣) (ويقصر أن لاقيتها أطول الدهر)

١٠٦ أطول عمر يبهج الأنفا

(٣٧٤) (من أفق من أنا في قلبي أشاطره)

١١١ ويظلم لى النهار وأنت شمسى

(٣٧٤) (وتصبر عنه ولا يصبر)

(١٩٣) (بها أثر منهم جنى ودارس)

(٣٧٥) (ومقلة تنفت بالسحر)

(٢٤٧) (أم نسيم الروض تحت الخندس)

(٣٧٥) (وإن فؤادى - والإله - صبور)

(٢٩٧) (وارع إذا المرء أسا)

(٣٧٥) (ويأمرنى ، إن الحبيب أمير)

- | | | | |
|--|---------------------------------|---------|---------------------------------|
| صفحة | | صفحة | |
| ١٨٤ | بنعيك أن الدين من بعض ما نهي | (٢٩٨) | (بأنس البماع وحسو السكووس) |
| (٢٠٩) | (تفرغ لمتى شيب فظيع) | (٣٩٢) | (نفى للعلم عن الناس) |
| (٢١٠) | (وهز للشرفية والوقوع) | | حرف الشين |
| ٢٦٣ | ومشير كأمنة الدموع | ٢٨٠ | هل منك لى غلة إن صحت «واعطشى» |
| ٢٦٥ | محضا ولا م به الواشى فلم أطمع | | حرف الصاد |
| ٢٧٠ | وسبيل الهوى وقصد الولوع | (٦٨) | (فى غير ذلك من الأمور أرحص) |
| (٢٧١) | أناديك لما عيل صبرى فاسمعى | | حرف الضاد |
| ٢٧٩ | سر إذا ذاعت الأسرار لم يدع | ٨٢ | نشب وافر ، وجاه عريض |
| (٣٧٨) | (ويا واحدا فاق الخلائق أجمعا) | ٢٣٧ | ونبهته اذهدا فاغتمض |
| (٣٢٨) | (نفيس لا تعار ولا تباع) | (٣٧٤) | (كراكب فى السماء تبيض) |
| (٣٧٣) | (يعنونه ملك الزمان ويخضع) | (٣٩٤) | (وهب لنا التغميضا) |
| (٣٨٦) | (بأن ليس فى حى لغيرك مطمع) | | حرف الطاء |
| (٣٨٨) | (ألا غفر الرحمن ذنبا تواقفه) | ١٣ | وسط - بمن نهوى - المزار وماشطوا |
| (٣٩٣) | (وشادنا فى مهجتي يرتع) | | حرف العين |
| (٣٩٧) | (وتنهه القلب الصديق) | (٢٢) | (يوما وصلنى ساعه) |
| (٤٠٠) | (كلما أعطى تعباً نزعا) | (٦٦) | (وخذ - فيما ترى - أودع) |
| | حرف الفاء | ٧٩ | ذهب الفؤاد فليس فيه براجع |
| لنا، هل لذات الوقف - بالجزع - موقف ٢٣ | | (٩٧) | (نفيس لا تعار ولا تباع) |
| (تحوفنى الأعداء والنفس أخوف) (٢٠٤) | | ١١٨ | عارض كرب بلطفه رفعه |
| ٢٦٨ أنا مستودع لعلق شريف | | (١١٨) | (بعقبى الدواء مطالعه) |
| ٢٧٨ ذكرك منى بالأفاس موصول | | ١٣٠ | أم فى المثات التى قدّمت منتفع |
| ٢٧٩ يا من تناهيت - فى الطافه - فجفا | | (١٤٥) | (من الدهر حتى قيل لن يتصدعا) |

صفحة		صفحة	
(٣٨٨)	(ومشركة من خلال الحلاك)	(٢٩٣)	(وصول ليس بالجاني)
(٣٨٩)	(وتأنس بذكرها في انفرادك)	(٣٧٠)	(فلست على العلات منها أخاكف)
(٣٩٢)	(فتغيب مسرعة لذلك)	(٣٩٣)	(فإن الهوى مابه منصف)
(٣٩٢)	(سكران من خمر اشتياقك)		حرف القاف
(٣٩٣)	(فبدا لطرفي أنه فلك)	(٤٩)	(على الصديق والعدو صدقه)
(٣٩٤)	(مقالة لم تشب بإفك)	٦٠	جناني ، ولكن المدائح تعبق
(٣٩٤)	(ومخلفا أعهدكا)	(٢٠٠)	(وما المرء إلا عهده وموائقه)
(٤٠٥)	(ولحمت من طرق الملاح شباكي)		والأفق طاق ومرأى الأرض قدراقا ٢٥٧
(٤٠٨)	(ردت الروح علي المضي معك)	(٣٧٤)	(فنظل نصبح بالسرور ونغيب)
	حرف اللام	(٣٧٥)	(كأنه الصبح تحته شفق)
(٣٢)	(رجال عن الباب الذي أناداخله)		حرف الكاف
٥٧	فديتك واعتزرت على ذليل		فيميل - في سكر الصبا - عطفاك ٩
٦٢	أم عهدنا البدر يجتاب الحلل	١٢	ذائع من سره ما أستودعك
(٦٨)	(سهام العدا عني فكنتم نصالها)	١١١	بكل السننا جلالك
٩٩	وموردهم حيث الدماء مناهل	١٣٦	واطلب فسعدك يضمن الإدراكا
(٩٩)	(نهال وأسباب المنايا نهالها)	١٤٧/٨	دعهم فشانهم غير شانك
١٠٥	تخالط لون الحب الوجل	(٢١٧)	(كلاهما ذو أنف ومحك)
(١٠٨)	(لَوَ أَبصره الواشي لقرت بلايله)	٢٦٦	أم كيف أخاف وعدك
١١٢	ويطلب ثأري البرق منصلت النصل	٢٧٠	لا تظهرى بخلا بمود أراك
(١١٥)	(فلا تمصر ماء الصنعية بالمطل)	٢٧٢	الابوصل قصرك
١٢٠	وحدي - في رجائك - الكايل	(٣٧٥)	(لا تتركني - هكنا - هالكا)
١٣٩	لا تخش مني نسيانا ولا بدلا		

صفحة		صفحة	
(٣٧٤)	(كل نيل أناله لى قليل)	١٤٩	وحز المنى وتنجز الآمالا
(٣٨٨)	(هيهات جاءكم مهديه الدول)	١٥٣	ولدولة العلياء كيف تدا
(٣٨٩)	(سفها وهل يثنى الخليم الجاهل)	١٦٥	فى المنظر الحسن الجميل
(٣٩٠)	(لى محب هأم مثله)	(١٦٦)	(والمرء يعجز لا الخويل)
(٣٩٠)	(فشوقى صحيح وجسمى عليل)	١٦٧	كم لها من ألم يدنى الأمل
(٣٩٣)	(وبالسيف والرمح أمضى قتال)	١٦٩	فقد لفح التشوق عن حيال
(٣٩٤)	(منى على خلتك الجميل)	١٩٥	وحال تجنيك دون الخيل
(٣٩٦)	(قنصت فيها أرابنا وحجل)	٢٢٤	ومطلعها من جيوب الخلل
	حرف الميم	(٢٤٤)	(يا دهر أف لك من خليل)
٣٥	ريح معطرة النسيم	٢٦٩	لقد فقت - فى الحسن - بدر الكمال
٥٠	والمنى فى هبوب ذاك النسيم	٢٦٣	ويشفى وصالك قلبى العليلا
٧٦	وعلتى أنت بها عالم	٢٤٨	وسوغت دأبا نساء الأجل
١٢٢	بعقلي - مذبذبن عنى - لم	٢٧٥	يا جائر الحكم أفديه بمن عدلا
١٨٨	يعطى اعتبارى ماجهلت فأعلم	٢٧٥	لا ولا ذاك التجنى مللا
١٩٢	إذ العيش غض والزمان غلام	٢٦٩	يملاً عينى من تأمل
٢٤١	عن القصد إن أعيك منه مرام	٢٨٠	يميل - مع الزمان - كما يميل
٢٤٣	علينا أذمة لا تنم	(٢٩٢)	(ولسكن على أثر المسير قفولها)
٢٧١	يا من يصح بقلتيه ويسقم	(٢٩٢)	(وليس عليه فى النكاح سبيل؟)
٢٧٦	زكت ، وطلى وادى العقيق سلام	(٣٧٠)	(وإنى لما يهوى الندامى لفعال)
٢٧٩	قام بك العذر فلا لأم	(٣٧٠)	(فأنا الذى لست بسال)
(٢٩٢)	(كما باهت بصحبته الكرام)	(٣٧٢)	(إلى أن بدت للصبح فى الليل أعمال)
٣٠٣	ومرويا لكل لهضم		

صفحة		صفحة	
(٢٢١)	(بدور الزمان واسد العرين)	(٣١٧)	(من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً)
٢٦٥	ودعوت من حنق عليك فأمنا	(٣٢٩)	(أخت بنى الأكرمين من جشم)
٢٦٧	واستحدث القلب شوقاً بعد سلوان	(٣٣٢)	(إلا لتوهن قوة العظم)
٢٧٠	سأحفظ فيك ما ضيعت مني	(٣٧٠)	(إلا الظلوم المظلم)
٢٧١	حسب المتيماً أنه قد أحسنا	(٣٧٠)	(وأوقد في الأعداء شر ضرام)
٢٧٣	وحططنتي ولطالما أعليتني	(٣٧١)	(وقد خلقت لها في مجلس الكرم)
٢٧٣	وعن تهادى الأسى والشوق سلوانا	(٣٧٤)	(فان فؤادي بالمعالى لهائم)
٢٧٦	لو كان ساحخي في وصله الزمن	(٣٧٨)	(طعمين منه أرى يا وسماً)
٢٧٨	وقضينا الذي علينا وزدنا	(٣٧٩)	(وفي والامناوح الجمائم)
٢٧٨	من الحسن فنون	(٣٨٦)	(يحجب فيه الصلاة والصوم)
(٣٧٥)	(يسلو - وإن سئل السلو - ضنين)	(٣٨٦)	(أمكن ورد فلا يطل حوم)
(٣٧٦)	(فقد فقت الممالك في معان)	(٣٩١)	(وحن أن يتسنى لي بكم حلم)
(٣٨٨)	(أروضة مسكية الريحان)	(٣٩٥)	(ومتبع الانعام اتاماً)
(٣٩١)	(إذ لا كتاب يوافيني فيحيني)	(٣٩٦)	(وستر الله مد على الأنام)
(٣٩٣)	(من فارس شههم الجنان)		
(٣٩٥)	(من المجد فاحتل غير القرن)		
(٤٠١)	(أو يرجع القول معناه فيغنيننا)		
(٤٠٢)	(تشجى لواديك أو تشجى لواديننا)		
	حرف الهاء		
٢٥٨	انستك ديناك عبدا أنت دنياه		
٢٦٦	ومستغشانا لصحبه		
(٢٨٨)	(فاق ذكاء فماله من شبيهه)		
			حرف النون
			وناب - عن طيب لفيانا - تجافينا ٤
		٣٩	ونفى الشك اليقين
		٦٨	بعث ودى بلا ثمن
		١٧٠	في حلي الظرف الحسان
		١٠٨	موثقاً في يد المحن
		(١٠٨)	(أومرحنا بذكرك أم كنيننا)
		(١٠٩)	(إذ لا كتاب يوافيني فيحيني)

صفحة

صفحة

	حرف الياء	(٣٣٢)	(أن الرؤوس محل النهى)
		(٢٧٨)	(فالأرض تشرق منه)
٥٩	فلتنسناها هذه التالیه	(٣٧٩)	(ونعيمه فاستعذبوه أواره)
(٢٠٥)	(فروق ، فرامح ، فحقیه)	(٣٨٧)	(وعاشق من لا يباليه)
(٢٧٥)	(وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا)	(٣٨٧)	(وصرفته لما انصرفت عليه)
(٣٨٥)	(وقد عطشنا وثمری)	(٣٩٣)	(وبكت مقلتای شوقا لیه)
(٣٨٦)	(له الندی الرحب والندی)		حرف الواو
(٣٩٥)	(على العبيد الوفی)	(٢١٧)	(فوز من قراقر إلى سوی)



مختار الشعر الجاهلي

يتضمن هذا الديوان عيون الشعر الجاهلي

لستة من فحول الشعراء

وهم

- | | |
|------------------------------|-------------------|
| (١) أمروء القيس | (٤) طرفة بن العبد |
| (٢) النابغة الذبياني | (٥) عنتر بن شداد |
| (٣) زهير بن أبي سُلمى المزني | (٦) علقمة الفحل |

صح روايته، وشرح غريبه، وضبطه

مصطفى السقا

مدرس اللغة العربية وآدابها بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية بالقاهرة

مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد وحرف جميل مضبوط بالشكل ومصصح

بغاية الاعتناء ومجلد بالقماش المذهب .

يطلب من مكتبة :

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

ص . ب . الغورية رقم ٧١

التي تقدم الفهرس الحاوى للكتب الأدبية وخلافها لمن يطلبه مجاناً .

DATE DUE

GL DEC 17 1984

201-6503

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY
* 0111717327 *
BUTLER STACKS

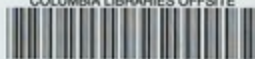
893.7Ib563

L

BOUND

FEB 17 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58870865

893.71b563 L

Diwan /

RECAP